

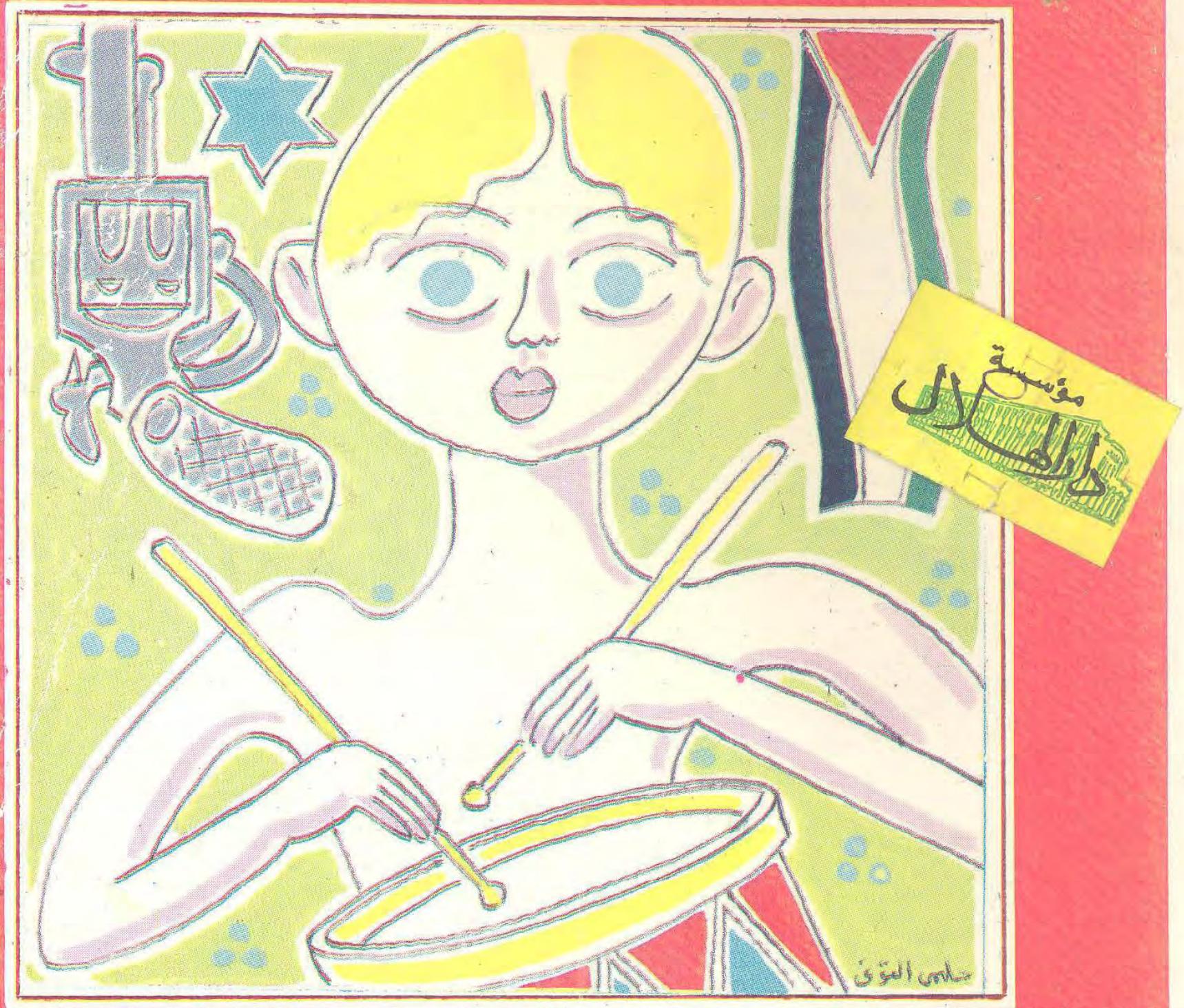
طبع الموساد والفالنسنج

الطلاب الصغار

ناشر



تأليف : جون لو كاربيه



روايات الهلال

Rewayat Al Hilal



سلسلة
شهرية
لنشر
القصص
ال العالمي

تصدر عن
مؤسسة دار الهلال



رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة

عبدالحميد حمروش

رئيس التحرير

مصطففي نبيل

سكرتير التحرير

محمود فاتسم



ثمن النسخة

سوريا ٤٢٠ ليرة - لبنان ١٥٠٠ ليرة

الأردن ٥٥٠٠ فلس - الكويت ٢٧٠٠ فلس -

السعودية ٣٥ ريالا - تونس ٥ دينارات -

المغرب ٦٠ درهما - البحرين ٢,٥٠٠ دينار

- البوسنة ٢٥ ريالا - دبي / أبوظبي ٢٥

درهما - مسقط ٢,٥٠٠ ريال - غزة

والضفة والقدس ٤ دولارات - لندن ٠٠٠

جك ..

العدد ٥٣٦

أغسطس ١٩٩٣ • صفر ١٤١٤ هـ

No _ 536_Au _ 1993

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ٣٦ جنيها في ج . م . ع . تسدد مقدماً نقداً او بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٥ دولارا - أمريكا وأوروبا وآسيا وأفريقيا ٣٠ دولارا - باقى دول العالم ٤٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال .. ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

للاشتراك في الكويت : السيد عبد العال بسيونى زخلول : الصفا من . ب ٢١٨٣٣ (١٣٠٧٩) ت : ٤٧٤١١٦٤ администра : القاهرة ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديلان سليمان) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكتبات : من . ب : ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا : المصوّر - القاهرة ج . م . ع .

تلكس : TELEX 92703 hilal u n
FAX 3625469

الطبالة الصغيرة

بِقلم
جون لوکاریه

ترجمة :

عبد الحميد فهمي الجمال

دار الهلال

هذه هي الترجمة الكاملة لرواية

LITTLE DRUMMER
GIRL

تأليف :

John le Carrée

الغلاف للفنان :

حلمى التونى

قبل أن تقرأ

يعد جون لوکاریه أهم کتاب رواية التجسس المعاصرین على الإطلاق ، فهو الذى أعطى لهذه الرواية شخصيتها واکسبها هوية خاصة ، وأخرجها من هامشية التصقت بها دوما حتى من خلال الروايات التي كتبها أدباء لهم أهميتهم لم تكن أعمالهم في الجاسوسية أفضل ما لديهم بل ربما أكثرها سوءا . وقد اكتسب لوکاریه أهمية خاصة لدينا في العالم العربي لأنه أول كاتب عالمي استطاع أن يكشف عن وحشية وكالة الاستخبارات الاسرائيلية ، كما أنه أول من كتب عن سور برلين ، والبيروسترويكا ا عملاً ابداعية . وهو كاتب معطاء دائمًا في هذه الرواية ليس غزير الانتاج كما أنه لم يبدع في أي مجال آخر من مجالات الابداع عدا رواية التجسس .

ولوکاریه لا يعتمد في رواياته على عمليات تجسس حقيقة لها ملفات في وكالة الاستخبارات ، ولكنه يتعامل مع الجاسوسية بمعناها العام ، حيث يهتم بموضوع ما ، فيروح يجمع حوله الكثير من المعلومات ثم يبدأ في الكتابة ، مثل زيارته للمنطقة العربية مرات عديدة على مدى خمس سنوات قبل أن يكتب رواية «الطلالة الصغيرة» وقيامه بزيارة الاتحاد السوفييتي مرتين قبل أن يقدم روايته الأخيرة «المنزل الروسي» .

وجون لوکاریه هو اسم مستعار اتخذه الكاتب لنفسه عند نشر روايته الأولى في عام ١٩٦١ ، كان يعمل في تلك السنوات في مكتب العلاقات الخارجية البريطانية الذي سبق أن عمل به كل من جراهام جرين وايان فلمنج من الذين كتبوا رواية التجسس . اسمه الحقيقي هو دافيد كورونوبل . ولد بمدينة بوول البريطانية في ١٩ أكتوبر عام ١٩٣١ . ثم سافر إلى سويسرا لدراسة اللغة الالمانية في جامعة

برن . ثم عمل بالتدريس وسكرتيراً للسفارة البريطانية في برن . ثم قنصلًا في هامبورج . أى أنه كان على مقرية من برلين ، وشاهد التغيرات التي عاشتها المانيا بعد الحرب العالمية الثانية . ومن هنا استوحى روايته «الجاسوس الذي أتى من الصدق» وقد اكتشف كورونوبل أن السلك الدبلوماسي في العالم هو بؤرة عمليات التجسس حتى بين الدول الحليف . ومن هذه التجربة ، استمد روايته الأولى ، «نداء الميت» عام ١٩٦١ . وفيها ابتدع شخصية الجاسوس جورج سمائيلي الذي أصبح قاسماً مشتركاً فيأغلب رواياته .

وقد نشر لوکاريه خلال نيف وثلاثين عاماً ثلاثة عشرة رواية منها «مرأة الجواسيس» عام ١٩٦٥ ، و«مدينة صغيرة في المانيا» عام ١٩٦٨ . ثم عاشق بسيط ورقيق» ١٩٧١ ، و«الجلنر» و«تلמיד شريف» ١٩٧٧ ، ثم «عشيرة سمائيلي» ١٩٨٠ و«الطلالة الصغيرة» ١٩٨٢ و«جاسوس عريق» ١٩٨٦ ثم «المنزل الروسي» ١٩٨٩ .

وقد رفض لوکاريه الوظيفة حتى لا يسقط ، كما يقول ، في أقبية البيروقراطية الأدبية ، وترك العمل في جهاز الاستخبارات البريطاني عقب اتجاهه للابداع . والجدير بالذكر أنه أول من صنع من رواية التجسس أدباً حقيقياً ، ونال جائزتين أدبيتين .

وعلى سبيل المثال ، فان لوکاريه صدم الأوساط الأدبية بشخصية الجاسوس سمائيلي لأنه خان وكالة الاستخبارات البريطانية ، وعمل مع الاستخبارات الروسية ، وكانت الصدمة في أن سمائيلي شخص ناجح لا يميل إلى الأهواء العابرة . وقد تمثلت الصدمة في أن الغربيين قد تذكروا على التو الجواسيس المعاصرين الذين خانوا وكالاتهم في بلادهم مثل كيم فيلبي وانتوني بلونت .

وتعتبر رواية «الجاسوس الذي أتى من الصدق» أبرز أعماله الأولى . وفيها يحكي كيف استطاع عميل لوکالة الاستخبارات البريطانية أن يعد سيناريو خاصاً

لاختراق وكالة الاستخبارات في المانيا الشرقية . وقد نجح في تنفيذ خطته من خلال أمينة مكتبة شيوعية استطاع أن يوقعها في حبائله بعد أن عرف أن رؤساه قد ألغوا مهمته من أجل حماية عميل مزدوج .

وقد صور الكاتب الجاسوس أقرب إلى المخلوقات المغروبة والخونة ، المصابين بالسادية والمخمورين دوما . وفي هذه الرواية كان على الجاسوس أن يهرب إلى المانيا الغربية عبر سور برلين والصراع البارد بين الشرق والغرب على أشده .

أما آخر رواياته «المنزل الروسي» فهي عن نوع جديد من التجسس عقب انتهاء هذه الحرب الباردة وبطلة هذه الرواية كانت فنانة تشكيلية طليعية تقرأ كافكا . وتنتعرف على ناشر بريطاني كى تقدم له مسودة كتبها فيزيائى روسي اتخذ لنفسه اسم مستعاراً هو «جوته» وهذه المسودة تتضمن اسراراً عن أشياء تهم الغرب . ويقرر الناشر أن يسافر إلى موسكو موFDA من وكالة الاستخبارات البريطانية ليعرف الحقيقة من موطنها . الا أنه يختفى في ظروف غامضة . ولا يعرف أحد أنه قد عشق الحياة في روسيا واحب امرأة جميلة وقدر أن يعيش هناك حياة جديدة .

اذن ، فقد غير لوکارييه من مناظيره بدرجة كبيرة ان لم تكن وجهات النظر قد انقلبت رأسا على عقب . «في وسط الحرب الباردة كان الخوف اعم . ومع الجلاستونست تحول العدو وأصبح صديقا . والنتيجة : أصبح من الصعب فعلًا معرفة كيف يفكر الروس» .

وقد تطرق لوکارييه لأبرز موضوعات التجسس في رواياته ، خاصة بين الشرق والغرب ، ثم قرر أن يدخل منطقة الصراع الساخنة في الشرق الأوسط بروايته «الطلالة الصغيرة» خاصة منذ عام ١٩٧٧ ، عقب انتهاء من روايته «تلميذ نبيل» حيث زار لبنان والأردن وسوريا ، واسرائيل . وفي عام ١٩٨٠ عاد مرة أخرى إلى المنطقة والتقي بالسيد ياسر عرفات الذي قال له : «نحن منفيون ، ولم يبق لنا سوى حب وطننا ، لكن اليهود سرقواه منا ، وليس وراهم سوى الإساءةلينا . لأنهم قوم لا يملكون الوعى الهدائى ، لذا يفكرون في قتلنا » .

وقد تجول لوکاریه فی المعسکرات الفلسطینیة بلبنان ، ثم توجه الى اسرائیل ، وراح يسأل ضباط المعلومات الاسرائیلیة عن طبیعة النزاع . ثم انتقل الى الاراضی الفلسطینیة المحتلة ، وكان كلما التقى بشخصیات جديدة يجد الافق تتفتح له اکثر . ثم سافر الى بون وزار حی الدبلوماسیین والذی أصبح مسرحا للفصل الأول فی روایته . وهناك تعرف على بعض العملاء الاسرائیلیین ، وعرف ان هناك محاولة من رجال الموساد لاصطياد مناضل فلسطینی یدعى خلیل .

وبدأت خيوط الروایة فی نسج نفسها بمخيلة الكاتب ، فراح يمزج حکایة المناضل خلیل مع ما عرفه عن الفلسطینیین من . قائد الاشبال الفلسطینی فقد علم أن اسرائیل قامت باعتقاله ، ووضعه فی معسکر اعتقال . ولحسن الحظ . فان لوکاریه كان قریباً جداً من هذا الشخص لعدة أسباب . أقام خلالها فی بيته ، ومن ملامحه استقى لوکاریه شخصیة خلیل فی روایة «الطبّالة الصغیرة» .

تجنی أهمیة هذه الروایة فی اطار «الصراع العربی الاسرائیلی» انها كانت على قمة المبيعات منذ صدورها . وقد صدر منها بين عامی ۱۹۸۳ و ۱۹۹۰ تسعة طبعات باللغة الانجليزیة ، وترجمت الى العديد من اللغات . والغريب أن مؤسسة عربیة واحدة لم تقم بترجمتها ، رغم أهمیتها . وقد قامت السینما الامیریکیة بتحويلها الى فيلم عام ۱۹۸۴ ، قامت فيه دیان کیتون بدور تشارلی ، والممثل الالمانی کلاوس کینسکی بدور کیوتز ، والممثل الفرنسي سامی فرای بدور یوسف . والفيلم من اخراج جورج روى هیل .

وقد تعرض الكاتب للکثير من الهجوم . من قبل وسائل الاعلام الغربیة «كنت متاكداً أنني سأتعرض لكمية ضخمة من نيران المدافعين المضادة ، خاصة في الولايات المتحدة الاميریکیة ، مجرد أن قلت إن هناك حقاً بجانب الفلسطینیین ، ولكنني في ست من روایاتي التي كتبتها تناولت اليهود بتعاطف تام . وإذا كان إنسان غير يهودي أن يقول إن الحق ليس مع الاسرائیلیین ، وإن زمام الامر قد افلت من ايديهم وأنهم فقدوا السيطرة على الموقف ، فاعتقد أنني اكتسبت هذا الحق» .

وقد بدا أن لوكاريه يريد تقديم صورة المناضل الفلسطيني بوجهها الحقيقي فهو ليس ذلك الإرهابي الذي تصوره وسائل الإعلام الغربية ، ولكنه الباحث عن الحق في أن يعود إلى أرضه التي طرد منها ، وإذا كانت الموساد قد نجحت في تحقيق هدفها باغتيال خليل في هذه الرواية ، فإن المؤلف كشف عن الوسائل التي يتم بها تلقيق التهم للمناضلين ، مثلاً حدث وادعى وسائل الإعلام أن إرهابياً اختطف فتاة وهو أمر غير حقيقي .

رواية لوكاريه إذن ، مهما قيل حول مضمونها وبراعة كاتبها في السير بين النقاط ، فإنها ذات بنية روائية متماسكة ، واسلوب أخاذ ، وتماسك ملحوظ تضاعفها في مرتبة مرتفعة لروايات من صنفها .

والجدير بالذكر أن عنوان الرواية «الطباولة الصغيرة» مستمد من أغنية تراثية مسيحية تُغنّى في الضفة الغربية اثناء اعياد الميلاد .

وفي حديث أجرته مجلة «لوبوان» في ٢ يونيو ١٩٨٧ مع لوكاريه قال : «إن كاتب التجسس الذي يخبرنا ببعض الأشياء هو إنسان مصاب بجنون العظمة، ترى هل هذا هو عصرنا ، حيث تباع فيه القرارات السياسية المعقّدة مثلاً تباع مساحيق الغسيل . أو أمزجة البشر التي يمكن أن تثير الحقيقة الساكنة . في الضواحي هل هذا العصر ملائم لكاتب التجسس ؟ .. سؤال » .

روايات الهلال

الجزء الأول

الفصل الأول

كان حادث بادنسبرج هو الذى قدم الدليل والبرهان ، رغم أن السلطات الألمانية لم يكن لديها وسيلة مادية تعينها على معرفة هذا . وقبل حادث بادنسبرج كانت الشكوك أخذة في التزايد .. قدر كبير من الشكوك . الا أن النوعية العالية للخطيط والتى تتعارض مع النوعية الرديئة للقنبلة قد حولت الشكوك إلى يقين . وهم يقولون فى عالم التجارة إن رجلاً سوف يوقع باسمه إن عاجلاً أو آجلاً . وما يسبب الضيق والتوتر يكمن فقط فى الانتظار .

لقد انفجرت القنبلة فى فترة متأخرة كثيرةً عما كان يراد لها ؛ إذ انفجرت فى وقت متأخر بحوالى ١٢ ساعة عن الموعد المحدد . لأن الانفجار وقع فى الساعة الثامنة وست وعشرين دقيقة صباح يوم الاثنين . فالعديد من ساعات اليد التى تعطلت والتى هى من ممتلكات الضحايا قد أكدت وحددت الوقت الذى حدث فيه الانفجار . ولم يكن هذا الانفجار مصحوباً بتحذير مسبق مثلاً تم بالنسبة لحالات الانفجار السابقة التى حدثت خلال الشهور القليلة الماضية . ولكن حتى ذلك الحين لم يكن هناك أحد مستهدفاً . فالقاء القنابل فى دلسدروف على سيارة موظف اسرائىلى يقوم بمهمة شراء الأسلحة لم يسبق أى تحذير وكذلك الحال بالنسبة للطرد الملغوم المرسل لمنظمى المؤتمر اليهودى الأرثوذوكسى فى أنتويرب والذى نسف رئيسة الشرف وأحرق مساعدها حتى الموت ، وكذلك الحال أيضاً بالنسبة للقنبلة التى وضعت فى صندوق الزبالة خارج بنك اسرائىلى موجود فى زيوريخ والتى أدت إلى اصابة اثنين من المارة بالعجز وعدم القدرة على الحركة . ولكن قنبلة

ستوكهولم هي فقط التي سبقها انذار مما يدل على أنها نفذت بمعرفة مجموعة مختلفة تماماً وليس جزءاً من سلسلة الانفجارات الأخرى على الإطلاق.

وفي تمام الساعة ٨،٢٥ كان شارع دروسيل بمدينة بادنسبرج بمثابة مكان خلفي آخر منعزل له طابع دبلوماسي و مليئ بأوراق الشجر والظلال و بعيد عن القلق السياسي التي تجتاح بون . لقد كان شارعاً جديداً ولكنه شارع ناضج وبه حدائق مورقة وكثومة وبه مساكن للخدمات موجودة فوق أسطح الجراجات وبه نوافذ لها حواجز من القضبان المتصالبة . وطقس أراضي الراين في معظم فترات السنة له نفس دفع الجو المطر بالغابات ، كما أن نباتاته - شأنها شأن المجتمع дипломатический - تنمو بنفس السرعة التي يبني بها الألمان طرقهم بل وأسرع من الألمان عندما يصممون الخرائط الخاصة بهم . ومن ثم فإن وجهات بعض البيوت كانت بالفعل شبه غامضة بسبب وجود أشجار الصنوبر الكثيفة والتي اذا نمت واتخذت حجمها الطبيعي فإنها ستغمر المنطقة كلها في التعتم والظلم الذي يكتنف حكايات الجن التي يكتبها الأديب جريم . وقد اتضح أن هذه الأشجار لها تأثير فعال ضد الانفجارات .

والعديد من المنازل تتخذ الطابع الوطني على نحو واضح . فعلى سبيل المثال نجد أن مسكن السفير النرويجي الذي يقع عند الناصية بالقرب من شارع دروسيل هو عبارة عن منزل ريفي بسيط للغاية وخالي من الديكورات والزينة ومشيد بالطوب الأحمر وأشبه باليونيات الموجودة بالمنطقة الخلفية الخاصة بالسماسرة في أوسلو . كما أن القنصلية المصرية التي تقع عند الطرف الآخر لها نفس الطابع المهجور الذي تتميز بها فيلا اسكندرانية هاجمتها الأزمة العصبية . وتتصدر الموسيقى العربية الحزينة عن هذه الفيلا كما أن نوافذها دائمًا ماتكون مغلقة في وجه حرارة شمال إفريقيا المناوية . كان الموسم هو منتصف شهر مايو وكان النهار قد بدأ رائعاً مع اهتزاز البراعم والأوراق الجديدة سوياً مع هبوب النسيم الخفيف . وكانت أشجار المانوليا قد أجهز عليها توا ويتلالها البيضاء الحزينة التي ذُرف معظمها قد أصبحت بعد ذلك أحدى علامات الأطلال . ومع هذه الكمية الكبيرة

من أوراق الشجر الخضراء فإن ضوضاء حركة المرور المتراوحة من الطريق الرئيسي نادراً ما كانت تخترق الأجواء . اذ كانت الأصوات السائدة المسموعة قبل حدوث الانفجار هي شقشقة الطيور - بما في ذلك العديد من الحمام الممتنع - التي كانت معجبة بنبات الوستارية البنفسجية التابعة للملحق العسكري الاسترالي والتي كان يتفاخر بها دائماً . وعلى مسافة كيلو متر جنوباً فإن مراكب الرحلات غير المرئية في نهر الراين كان يتراوحي منها هدير خفيف إلا أن السكان المقيمين اعتادوا تماماً على ذلك الهدير بحيث لا ينتبهون إلى وجوده إلا إذا توقف . وباختصار كان صباحاً يؤكد لك أن بادنسبرغ هي مكان هادئ مستقر وظريف مما يشجع المرء على العيش فيها وأن «بون» لم تكن رديئة على النحو الذي يصوره البعض .

ووفقاً للجنسية والرتبة توجه بضعة مئات بالفعل إلى أعمالهم إلا أن الدبلوماسيين لن تكون لهم قيمة إلا إذا كانوا كليشيهات متكررة معبرة عن نوعيتهم . مثال ذلك أن مستشاراً إسكندنافياً منقبض الصدر كان لا يزال موجوداً في سريره حيث كان يعاني من الآثار الناجمة عن تناول الخمور والهموم المتعلقة بالحياة الزوجية . كما أن نائب سفير من أمريكا الجنوبية مرتدية روبياً من الحرير الصيني ، كان يطل من النافذة ويعطى تعليمات لسائقه الفلبيني تتعلق بشراء الحاجيات . والمستشار الإيطالي كان يحلق ذقنه ولكنه كان عارياً . وكان يحب دائماً أن يحلق ذقنه عقب الانتهاء من الاستحمام قبل القيام بتمريناته الرياضية اليومية . وكانت زوجته المرتدية ملابسها بالكامل تقف في الطابق الأول وتحتج على ابنته لأنها عادت إلى المنزل في فترة متأخرة للغاية في الليلة الماضية وهو حوار يستمتعان به في معظم فترات الصباح من أيام الأسبوع . وكان مبعوثاً من ساحل العاج يتحدث في التليفون الدولي ليبلغ رؤساه بالجهود الأخيرة التي بذلها بهدف الحصول على مساعدات من وزارة المالية الألمانية التي كانت تبدي عدم الرغبة في تقديم المساعدة على نحو متزايد . وعندما قطع الخط التليفوني اعتقدوا أنه قد أغلق الخط في وجههم فأرسلوا له برقية شديدة اللهجة تستفسر منه إذا كان يرغب في تقديم

استقالته . وكان الملحق العمالى الاسرائىلى قد غادر مكانه منذ أكثر من ساعة ولم يكن يشعر بالارتياح فى مدينة بون .

وفى مكان ما مع كل انفجار لقنبلة تحدث معجزة وفى هذه المرة تم تقديم المعجزة من خلال أتوبيس المدارس الأمريكى الذى جاء لتواهى وانصرف وهو محمل بمعظم الأطفال الصغار المنتسبين للمجتمع الدبلوماسى والذين كانوا يتجمعون فى كل يوم مدرسى عند دائرة الناچصية التى تبعد أقل من خمسين مترا عن مركز الزلزال . ومن حسن الحظ أن أحدا من الأطفال لم ينس واجبه المنزلى أو لم يستغرق فى النوم أكثر من اللازم مما يؤدى إلى انتظار الأتوبيس لحين مقدمه ، بل ولم يظهر أحد من الأطفال مقاومته للتعليم فى ذلك الصباح من يوم الاثنين لذلك انصرف الأتوبيس فى الوقت المحدد له . وأغلق السائق النوافذ الخلفية ثم اتجه بالسيارة نحو حافة الطريق . وفقدت طفلة فرنسيه احدى عينيها ونجى باقى الأطفال بدون التعرض لأى أذى .

ولم يكن الصوت الحقيقى للقنبلة شيئاً يتذكره الناس حتى ولو كانوا موجودين فى مكان قريب ، فعبر النهر سمع الناس صوت حرب أجنبية تماما وانساقوا فى اهتزاز وشبه صمم وابتسموا لبعضهم البعض مثل شركاء فى جريمة تمكنوا من البقاء على قيد الحياة . وقالوا لبعضهم البعض : ماذا يمكن لكم أن تتوقعوا من أولئك الدبلوماسيين الملاعين ؟

وسارعت الصحافة إلى مكان الحادث بالطبع . وصدرت التقارير الحماسية الأولى وأشارت إلى مقتل ثمانية وجرح ثلاثة وألقت باللوم على منظمة جناح أيمان المانية تسمى «نيلونجين ٥» كانت تتالف من ولدين متطرفين عقليا ورجل عجوز مجنون ليس بمقدوره تفجير باللون . وبحلول منتصف النهار كانت الصحافة قد اضطرت إلى تخفيض الرقم إلى خمسة قتلى من بينهم شخص اسرائىلى علاوة على اصابة أربعة بجراح خطيرة بالإضافة إلى وجود ١٢ بالمستشفى بسبب جروح طفيفة وكانت الصحافة تتحدث عن منظمة الألوية الحمراء الإيطالية التي لم يكن

هناك . كالمعتاد . أى دليل واحد يثبت تورطها . وفي اليوم التالي غيرت الصحافة اتجاهها مرة أخرى وألقت باللوم على منظمة أيلول الأسود . وبعد مرور يوم آخر ادعت منظمة تسمى نفسها «الكرب الفلسطيني» مسؤوليتها عن هذا الحادث وغيره من الحوادث الأخرى المماثلة السابقة . ورسخت في الذهان أن منظمة «الكرب الفلسطيني» هي التي قامت بهذه العملية حيث صدرت المقالات الرئيسية تحت عناوين رئيسية تشير إلى تلك المنظمة .

ومن بين غير اليهود الذين ماتوا الطباخ الصقلى الذى يعمل لدى الإيطاليين . ومن بين الجرحى الأربعة كانت زوجة الملحق العمالى الاسرائيلى الذى انفجرت القنبلة فى منزله . حيث فقدت ساقها أما الشخص الاسرائيلى الذى مات فهو ابنها الصغير جبريل .

الاً أن التقارير أشارت إلى أن الضحية الذى كان يُراد قتله لم يكن من بين أولئك الناس الذين أصيبيوا وإنما هو عم زوجة الملحق العمالى الاسرائيلى الذى جاء إلى هنا من تل أبيب فى زيارة ، وهو باحث فى التلمود كان قد احتفل به تكريما له على آرائه المتشددة فيما يتعلق بحقوق الفلسطينيين بشأن الضفة الغربية ، اذ كان هذا الرجل يعتقد باختصار شديد أن الفلسطينيين لا ينبغي أن يحصلوا على أية أراضٍ وكثيراً ما عبر عن آرائه علينا وفي صراحة تامة وتحت صارخ لآراء ابنته أخيه زوجة الملحق العمالى التى كانت منتمية لليسار الاسرائيلى المتحرر حيث إن نشأتها وتربيتها فى الكيبوتس لم تعد لها مواجهة الحياة الدبلوماسية الفاخرة .

ولو كان جبريل قد وُجد في داخل أتوبيس المدرسة لكان قد أصبح أمينا . ولكن جبريل في ذلك اليوم كان متوعكا ومرضاً مثماً هو الحال في الكثير من الأيام الأخرى . ولقد كان ولداً مفرطا في النشاط وقلقاً حيث كان يُنظر إليه على أنه عنصر من عناصر الضوضاء في الشارع وخاصة في فترة القيلولة . الاً أنه كان موهوباً من الناحية الموسيقية مثل والدته تماماً لم يكن بمقدور أحد بالشارع أن يتذكر أنهم أحبوا ولداً أكثر منه . ولقد وصفته جريدةermanie من الجناح الأيمان وزاخرة المشاعر الموالية لليهود بأنه «جبريل الملائكة» وهو عنوان يغوص في أعماق

كل من الديانة اليهودية والديانة المسيحية . وراحت الجريدة على مدى أسبوع تلقي
القصص والحكايات التي تتعلق بقدسية ذلك الطفل .

وتم إبراز «جبريل» على أنه شهيد مسيحي مثلاً هو شهيد يهودي . وظهر
كلام يتعلق بإنشاء نصب تذكاري خاص بجبريل ولكن لم يظهر سوى كلام ضئيل
للغاية عن الموتى الآخرين . وطبقاً للتقاليد اليهودية فإن التابوت الصغير الخاص
بجبريل قد أعد على الفور من أجل أن يتم الدفن في إسرائيل . وكانت والدته
مريضة للغاية بحيث لم تتمكن من السفر مع التابوت فظللت باقية في بون إلى أن
يتمكن زوجها من اصطحابها ويحيط يمكن لها الجلوس سوياً في القدس .

وبحلول الفترة المبكرة من بعد ظهر اليوم الذي حدث فيه الانفجار كان فريق
يضم ستة من الخبراء الإسرائيليين قد غادر تل أبيب بالطائرة . ومن الجانب
الألماني تم تكليف الدكتور أليكسيس التابع لوزارة الداخلية للقيام بأعمال التحقيق
في هذا الحادث فانطلق لكى يستقبل الفريق الإسرائيلي في المطار . وكان
اليكسيس مخلوقاً ذكياً وماكراً ظل يعاني طوال حياته من أنه أقصر من معظم
زملائه بقدر عشرة سنتيمترات . وربما كتعويض عن هذه الاعاقة فإنه اتصف
بالتهور سواء في حياته الخاصة أو الوظيفية وهو كان من ناحية محامي ومن ناحية
أخرى ضابط أمن ومن ناحية ثالثة ممارساً للسلطة والنفوذ مثلاً ما يرتبهم الألمان في
هذه الأيام بحيث يكون لديهم معتقدات ليبرالية لا تلقى الترحيب دائماً من جانب
الائتلاف . ولقد كان والده من ذلك النوع الذي يقاوم أفكار هتلر وجاء ابنه شارد
الذهن وغريب الأطوار ومن المؤكد أنه كان هناك أولئك الموجيون في قصور بون
الزجاجية والذين يعتقدون أنه لا يتمتع بالصلابة الكافية التي تتطلبها هذه الوظيفة
كما أن طلاقه الذي تم منذ فترة قصيرة والذي كشف أنه كان متزوجاً من فتاة
تصغره بعشرين عاماً لم يساهم في تحسين وجهة نظرهم عنه .

ولو كان الفريق القائم ليس الإسرائيلي لما كان أليكسيس قد اهتم على
الاطلاق بالذهاب إلى المطار لاستقبالهم - لأنه في هذه الحالة لن تكون هناك تغطية
صحفية للحادث - ولكن العلاقات بين إسرائيل وجمهورية ألمانيا الاتحادية كانت

تسير في منخفض طویل ضيق . لذلك استجاب للضغوط الوزارية وذهب . وقاموا بتزویده - وذلك ضد رغبته - في اللحظات الأخيرة برجل شرطة يتسم بالبطء والطابع التقليدي وهو رجل كان قد اكتسب شهرته في مجال «السيطرة على الطلبة» في خلال السبعينيات واعتبر خبيرا عظيما في مجال المشاغبين وقنابلهم، والسبب الآخر هو أنه كان يلقى قبولاً من الاسرائيليين ولو أن اليكسيس - شأنه شأن كل فرد آخر - كان يدرك أنه كان هناك أساساً لكي يكون بمثابة القوى التي تتواءن معه . وربما الأهم من ذلك في هذا الجو الحالى المشحون أن كلاً من اليكسيس ورجل الشرطة لم يكونا كبارين في السن بحيث يتحمل أقصى درجات المسؤولية ازاء ما يشير إليه الآلان في حزن على أنه الماضي الذي لا يُفهَّمُ والخاص بهم . وما كان يتم عمله من أجل اليهود اليوم هو مالم يفعله اليكسيس وزميله بالأمس . ولقد قامت الصحافة - من خلال توجيهات صادرة عن اليكسيس - بتوضيح الأمور، إلا أن مقالة واحدة افتتاحية أشارت إلى إنه مadam الاسرائيليون يواصلون قصف المعسكرات والقرى الفلسطينية بالقنابل - مما يؤدي ليس إلى مقتل طفل واحد فقط . وإنما يؤدي إلى قتل عشرات الأشخاص في آن واحد فإنه ينبغي عليهم أن يفترضوا أن يردد الفلسطينيون في انتقام بربى من نفس ذلك النوع . وصدر تقرير شديد اللهجة عن الملحق الصحفي بالسفارة الاسرائيلية في اليوم التالي . وأشار في تقريره إلى أن إسرائيل تتعرض منذ عام ١٩٦١ لهجوم مستمر من جانب الإرهاب العربي . وأضاف أن الاسرائيليين ليسوا على استعداد لأن يقتلوا فلسطينياً واحداً إذا تركوا ليعيشوا في هدوء وسلام : وأوضح في تقريره أن جبريل قد مات لسبب واحد فقط : وهو أنه كان يهوديا . وأشار إلى أن الآلان ينبغي عليهم أن يتذكروا أن جبريل لم يكن هو الوحيد الذي لقي حتفه على ذلك النحو . وإذا كان الآلان قد نسوا «الهلوکوست» فهل هم قد نسوا أيضاً أحداث الأولبياد في ميونيخ منذ عشر سنوات؟

وهبطت الطائرة الحربية القادمة من تل أبيب على الجانب بعيد من المطار . وتم التخلص من الإجراءات الروتينية على الفور . وكان اليكسيس قد صدرت له

التعليمات بأن يقدم للإسرائيليين كل التسهيلات . إلا أن هذه التعليمات كانت غير ضرورية : فهو كان متعاطفا مع السامية . وكان مشهوراً بذلك التعاطف . ولقد سبق له أن قام بزيارة أجبارية لتل أبيب من أجل تعميق العلاقات . وتم تصويره وهو منحني الرأس أثناء زيارته «لتحف الهلوكت» أما بالنسبة لرجل الشرطة فإنه كان يذكر كل شخص يصفع إليه بأنهم جميعاً يبحثون عن نفس العنوان الأحمر . وبحلول اليوم الرابع كان فريق العمل المشترك قد وضع صورة أولية مقنعة عمّا حدث .

أولاً لم يكن المنزل المستهدف موضوعاً تحت مراقبة أمنية خاصة حيث لم ينص على ذلك في الاتفاقية التي أبرمت بين السفارة وسلطات الأمن في حكومة بون . أما المنزل الذي يقيم فيه السفير الإسرائيلي والذي يقع بعد ثلاثة شوارع فكان يلقى الحماية على مدى الأربع والعشرين ساعة . حيث كانت تقف سيارة خضراء تابعة للشرطة بجوار المنزل من أجل توفير الحماية كما أن السور الحديدي كان يشمل الحدود الخارجية للمنزل علاوة على قيام اثنين من الحراس الشبان بأعمال الدورية في الحدائق مع تزويدهما بالبنادق الآلية . كما أن السفير كان يستقل سيارة محصنة ضد الرصاص علاوة على مرافقة أفراد له من الشرطة الذين يركبون الخيول . فهو كان سفيراً علاوة على كونه يهودياً . أما الملحق العمالى بالسفارة الإسرائيلية فكان وضعه مختلفاً . وكان منزله موضوعاً ضمن الحماية العامة التي تقوم بها الدوريات المتنقلة المخصصة لحماية الدبلوماسيين وكل ما يمكن قوله هو أن أي منزل إسرائيلي كان يخضع لمراقبة خاصة وذلك وفقاً لما هو وارد في سجلات الشرطة . ولتوفير المزيد من الحذر والحرص فإن عناوين الموظفين الإسرائيليين كانت لا تُطبع في القوائم الرسمية الدبلوماسية .

وفي تمام الثامنة من صباح ذلك اليوم من أيام الاثنين قام الملحق العمالى بفتح جراج السيارة الذى كان مغلقاً بالقفل . وقام بفحص أغطية محاور العمل الخاصة بسيارته علاوة على فحص الأجزاء السفلية من الشاسيه وذلك بمساعدة مرأة مثبتة فى يد مقصة أعطيت لها من أجل هذا الغرض . وقد أكد ذلك عم زوجته الذى كان راكباً معه . ونظر الملحق العمالى تحت مقعد القيادة قبل أن يدير مفتاح

التشغيل الخاص بالسيارة . فمنذ أن بدأت حملة القنابل أصبحت هذه الاجراءات الوقائية أمراً إجباريا يلتزم بها جميع الشخصيات الاسرائيلية الموجودة بالدول الأجنبية . وكان يدرك - مثلاً يدرك الجميع - أنه يمكن شحن أغطية محاور العجل بالتفجرات خلال فترة زمنية تقل عن أربعين ثانية بل ويمكن لصق قنبلة تحت خزان البنزين في وقت أقل . وكان يدرك أيضاً أن أناساً كثيرين يعودون نصفه وتفجيره . وقرأ الصحف والبرقيات : وبعد أن اطمأن على أن السيارة كانت نظيفة ودع زوجته وأبنه بأن قال لها «إلى اللقاء» وقاد سيارته متوجهها بها إلى مكتبه من أجل انجاز الأعمال .

وثانياً فإن خادمة الأسرة وهي فتاة سويدية تسمى ايلكه كانت قد بدأت في اليوم السابق في أجازة مدتها أسبوع في الوستفالد مع صديقها الألماني وولف الذي كان في أجازة من البندشفيه و كان وولف قد ذهب لإحضار ايلكه بعد ظهر يوم الأحد بسيارته الفلكس فاجن المكشوفة ، وأي شخص كان يمر بجوار المنزل أو يقوم بالحراسة على المنزل قد شاهدها وهي تخرج من الباب الأمامي مرتدية ملابس الخروج . وشاهدتها وهي تقبل جبريل الصغير وتسودعه وتنطلق ملوحة بيديها للملحق العمالي الذي ظل واقفا عند عتبة الباب لكي يشاهدها أثناء مغادرتها بينما زوجته التي تهم بزراعة الخضراوات اليانعة الخضراء ، استمرت في انجاز أعمالها في الحديقة الخلفية . لقد ظلت ايلكه تعمل لديهم على مدى سنة أو أكثر . وكانت على حد تعبير الملحق العمالي - محبوبة للغاية من الأسرة بل وكانت تعتبر أحد أفراد الأسرة .

وهذان العاملان : غياب ايلكه وعدم وجود مراقبة من الشرطة هما اللذان مهدا الطريق أمام حدوث الهجوم . أما نجاح الهجوم فإنه يرجع إلى الطبيعة الطيبة للملحق العمالي نفسه .

ففى تمام الساعة السادسة من نفس مساء يوم الأحد - أي بعد ساعتين من رحيل ايلكه - وبينما كان الملحق العمالي منهمكاً في مناقشة دينية مع ضيفه وبينما زوجته منهكـة في حـرث وفـلاحـة التـربـة الـأـلـمـانـيـة دق جرس الـبـابـ الـأـمـامـيـ . مجرد دقة

واحدة وكالعادة دائمًا نظر الملحق العمالى من خلال العين السحرية الموجودة بالباب قبل أن يفتح الباب . وكالعادة دائمًا التقط مسدسه أثناء النظر من خلال العين السحرية . الا أن كل ما شاهده من خلال عدسات عين السمكة هو : فتاة شقراء يبلغ عمرها حوالي ٢١ أو ٢٢ عاماً . وكانت ضئيلة الحجم نسبياً ومتيرة بعض الشئ ، وكانت واقفة على عتبة الباب بجوار حقيبة سفر رمادية مربوطة في مقبضها شرائط خاصة بشركة الطيران الاسكندنافية ، وكان يوجد تاكسي - أو كان ذلك سيارة صالون خاصة ؟ - واقفا في حالة انتظار في الشارع خلفها . وكان بمقبصه سمع موتور التاكسي يددمد في هدير خفيف . وخُلِّي إليه أنه سمع أيضاً صوت جهاز كهربائي من النوع الذي يحدث شرراً إلا أن ذلك كان فيما بعد عندما أصبح يتثبت بالقش . لقد كانت بالفعل فتاة جميلة وفقاً لوصفه لها . وكانت باللغة الرقة ومتسمة بالطابع الرياضي في أن واحد مع وجود نمش وبقع حول أنفها . وبدلأ من الذي الشائع الذي يتكون من البنطلون الجينز والبلوزة كانت ترتدي فستانًا محتمساً أزرق اللون مليئاً بالأزرار حتى الرقبة . وكانت تضع على رأسها منديلًا من الحرير له لون أبيض أو كريمي مما زاد من وضوح شعرها الذهبي ومما جعله يشعر بالاحترام . نحوها ولذلك أعاد مسدسه إلى الدرج العلوي في خزانة الصالة . وقام بفك سلاسل الباب لكي يفتح لها الباب . ثم حملق في وجهها منبهراً لأنها كانت جذابة للغاية ولأنه هو نفسه كان يشعر بالخجل والارتباك .

وكل هذا كان من خلال المقابلة الشخصية الأولى . حيث لم يشاهد العم التلمودي أي شئ ولم يسمع أي شئ . فهو كشاهد كان عديم الجنوى . فمنذ اللحظة التي ترك فيها بمفرده مع غلق الباب عليه فإنه انهك على ما يبذلو في قراءة تعليقات على مجموعة القوانين التي يتشكل منها التلمود وذلك تمشياً مع الوصية العامة التي صدرت إليه والتي تنصح على لا يضيع وقته هباءً وسدى على الاطلاق .

وتكلمت الفتاة باللغة الانجليزية بلغة اسكندنافية وتساءلت في بادئ الأمر عما اذا كانت ايلكه موجودة بالمنزل . ولم تسمها باسم ايلكه وإنما سمتها باسم «أوكى» وهو اسم الدلع الذي لا يستخدمه سوى الأصدقاء المقربين لها . فأوضح لها الملحق العمالى أنها سافرت في أجازة منذ ساعتين وأضاف متسللاً عما اذا كان

باستطاعته أن يقدم أى مساعدة لها فعبرت الفتاة عن شعورها بخيبة الأمل بعض الشئ وأشارت الى أنها ستجئ اليها مرة أخرى . وقالت إنها قد وصلت تواقادمة من السويد وإنها قد وعدت والدة ايلكه بأن تسلم هذه الحقيقة التي تحتوى على بعض الملابس واسطوانات جراموفونية . وكانت الاسطوانات الموسيقية هذه بمثابة لفقة كريمة نظراً لأن ايلكه مهوسه بالأغانى والموسيقى الشعبية . وكان الملحق العمالى بحلول ذلك الوقت قد أصرّ على أن تدخل الفتاة إلى داخل المنزل بل التقط الحقيقة بشئ من البراعة نيابة عنها ونقلها عبر عتبة الباب وهو أمر لن ينساه طوال حياته ولن يغفر لنفسه هذا الخطأ . وهو بالطبع كان قد قرأ العديد من التحذيرات التى تتعلق بعدم استلام طرود يتم تسليمها من خلال وسطاء . وصحى أنه كان يدرك أن مثل هذه الحقائب يمكن أن تسبب الهلاك . الا أن هذه الفتاة كاترين كانت هي الصديقة الحميمة لايلكه وكانت تنتمى لنفس مدينة ايلكه بالسويد وهى قد تسلمت تلك الحقيقة من والدة ايلكا فى نفس ذلك اليوم ! وكانت الحقيقة أكثر ثقلاً مما كان يتوقع . ولكنه أرجع ذلك إلى اسطوانات الجراموفون . وعندما قال لها إن تلك الحقيقة قد استنفت بكل تأكيد الوزن المسموح به لها من الامتعة أوضحت كاترين أن أم ايلكه قد اصطحبتها بالسيارة إلى مطار ستوكهولم لكي تدفع قيمة الزيادة فى وزن الامتعة . ولقد لاحظ الملحق العمالى أن الحقيقة من النوع الذى له حوانط ناشفة وأدرك أنها ممثلة بالأشياء وثقيلة .

وعرض على الفتاة أن يقدم لها فنجانا من القهوة . ولكنها اعتذررت فى رقة وقالت إنه ينبغي عليها ألا تجعل السائق يستمر فى حالة انتظار . لم تقل التاكسي وانما قالت السائق وسألهما عما كانت ستفعله فى ألمانيا فردت عليه قائلة إنها كانت تأمل فى الالتحاق بجامعة بون كطالبة فى علم اللاهوت . فراح يبحث فى اضطراب عن مفكرة التليفون وقلم رصاص . ثم دعاها لأن تكتب اسمها وعنوانها . الا أنها أعادت اليه المفكرة والقلم الرصاص وهى تقول له فى ابتسامة «عليك فقط أن تقول لها إن كاترين قد جاءت ستردك كل شئ» ، وأوضحت قائلة إنها تقىم فى بيوت لوثيران للفتيات . وأضافت أنها تقىم بصفة مؤقتة لحين العثور على شقة . (ومثل هذه البيوت الخاصة بالفتيات موجودة بالفعل فى بون وتلك لحة أخرى تدل على

الدقة والصدق) وأشارت إلى أنها ستحضر مرة أخرى عندما تعود إيلكه من أجازتها وربما تتمكن من الاحتفال بعيد ميلادها سوياً . وكانت تأمل في ذلك . فأشار الملحق العمالى الى أنهم ربما يقيمون حفلة من أجل إيلكه وأصدقائها - وربما يتم تقديم وجبة المذوبة المكونة من الجبنة والبيض والزبدة . وربما يقوم بنفسه بإعداد هذه الوجبة لأن زوجته - وذلك وفقاً لما أوضحه فيما بعد مراراً وتكراراً - يا سيدى من سكان الكيوبوتزات وبذلك فهي لاتصبر على إعداد الطعام اللذى الطعم .

وبعد أن السيارة أو التاكسي يطلق الكلakisات التي ترامت من ناحية الشارع فتصافحاً بالأيدي . وقامت بإعطاء المفتاح للملحق العمالى . وهنا لاحظ الملحق العمالى لأول مرة أن الفتاة كانت ترتدى فى يديها قفازاً من القطن له لون أبيض إلا أنها كانت من ذلك النوع الرقيق من الفتيات . كما أن الجو فى ذلك اليوم كان مليئاً بالرطوبة ولا يُشجع على حمل حقيبة ثقيلة الوزن على ذلك النحو . ولذلك فهي لم تكتب بخط يدها فى مفكرة التليفون كما أنها لم تترك بصمات على مفكرة التليفون أو الحقيبة أو مفتاح الحقيبة . وكل الوقت الذى استغرقه هذا التبادل - وفقاً للتقديرات التي اشار اليها ذلك الرجل المسكين فيما بعد - كان في حدود خمس دقائق . وليس أكثر من خمس دقائق وذلك بسبب السائق . وراح الملحق العمالى يرقبها وهي تغادر سائرة على المرّ . وكانت مشيتها جميلة . وكانت مثيرة جنسياً على نحو طبيعي وبدون أن تتعد ذلك ثم أغلق الباب وربطه بالسلسل . وبعدئذ أخذ الحقيبة ونقلها إلى غرفة إيلكه التي كانت موجودة بالدور الأرضى . ثم وضعها فوق سريرها في وضع أفقى على أساس أن ذلك الوضع يكون ملائماً بالنسبة للملابس والاسطوانات الموجودة في داخلها . ووضع المفتاح فوق الحقيبة . ونظرًا لأن زوجته كانت موجودة في الحديقة فإنها لم تسمع أي شئ خاصة وأنها كانت منهكـة في عزق الأرض بالمجراف . وعندما انتهت من أعمالها ودخلت إلى المنزل لكي تتضـم للرجلين نسى زوجها أن يخبرها بما حـدث .

وهنا ظهرت مراجعة متسمة بالطابع الإنساني .

نسيت؟ هكذا سأله الفريق الإسرائيلي في غير تصديق . كيف يمكن لك أن «تنسى» شيئاً منزلياً يتعلق بصديقه أيلكه القادمة من السويد؟ بينما الحقيقة ملقة فوق السرير؟

فأصيب المحقق العمالى بالانهيار مرة أخرى أثناء إدلائه باقواله . وقال إنه في حقيقة الأمر لم ينس على وجه الدقة .

- إذن ماذا؟ هكذا ت ساعوا .

الأمر على ما يبدو هو أنه اعتقد - من خلال تفكيره الداخلى - أن الأمور الاجتماعية لم تعد تشير اهتمامات زوجته على الاطلاق . وكل ما كانت تريده هو العودة إلى الكيبوتز الخاص بها كي تتعامل في حرية مع الناس بدون وجود ذلك العرف дипломаси . ومن زاوية أخرى فإن الفتاة كانت جذابة وجميلة للغاية مما جعله على ما يبدو يفكر في الاحتفاظ بها لنفسه . أمّا بالنسبة للحقيقة فإن زوجته لا تدخل أبداً غرفة أيلكه بمعنى أن أيلكه ترعى شئون غرفتها بنفسها .

- وماذا عن عم زوجتك المتبحر في علوم التلمود؟

إن المحقق العمالى لم يخبره أيضاً بأى شيء عما حدث .

وكتبت اللجنة هذه العبارة بدون تعليق : إنه كان يريد الاحتفاظ بها لنفسه.

.....

وهنا توقفت الأحداث مثلاً يختفي قطار غامض من فوق شريط السكة الحديد . وعادت الفتاة أيلكه ومعها وولف إلى بون . وأفادت أنها لاتعرف فتاة تسمى كاترين . وتم اجراء التحريات عن الحياة الاجتماعية الخاصة بـأيلكه . واتضح أن أمها لم ترسل أية حقائب . بل ولم يخطر على بالها على الاطلاق على أن تفعل شيئاً من هذا القبيل . وقالت الشرطة السويدية أنها كانت تبدي اعتراضها على نوق ابنتها المنخفض فيما يتعلق بالموسيقى وبالتالي فهي لم تشجعها على الانخراط في ذلك النوق المنخفض وعاد وولف في غمّ وكرب إلى وحدته . وقامت المخابرات

العسكرية باستجوابه في دقة مثيرة للرهاق . ولم يقدم أي سائق نفسه سواء أكان سائق تاكسي أو سائق سيارة خاصة رغم نشر اعلانات بمعرفة الشرطة والصحافة في جميع أرجاء ألمانيا تنصح على تقديم مبالغ كبيرة للغاية نظير إدلائه بقصته . وكان الملحق العمالي في حالة من الاضطراب النفسي . إذ لم يستطع أن يتذكر نوع الحذاء الذي كانت ترتديه تلك الفتاة أو ما إذا كانت قد وضعت أحمر شفاه على شفتيها أو ما إذا كانت وضعت عطرًا أو مساحيق أو ما إذا كان شعرها مصبوعاً أو ما إذا كانت قد وضعت باروكة شعر على رأسها . وأوضح الملحق العمالي للمستجوبين أن كل ما تلقاءه من تدريبات تتعلق بالنواحي الاقتصادية وأن كل اهتماماته خارج نطاق إسرائيل وأسرته كانت تتصب على الموسيقار برامز فكيف يمكن له أذن أن يعرف أية معلومات عن صبغة الشعر الخاصة بالنساء؟ نعم . لقد تذكر أنها لها ساقان جميلتان ورقبة شديدة البياض . نعم كانت أكمام ثوبها طويلة . وإنما لكان قد لاحظ ذراعيها . نعم لقد كانت ترتدي ثوباً نسائياً أو أي شيء من هذا القبيل وإنما لكان قد شاهد تكوين جسدها الذي سقط عليه ضوء الشمس بالخارج وهل كانت مرتدية الصديرية الخاصة بالثديين؟ ربما لم تكن مرتدية تلك الصديرية . إذ كان لها ثديان صغيران مما يجعلها لا تحتاج إلى صديرية للثديين . وقامت عارضات الأزياء بارتداء التصميمات المختلفة لكي يلقى نظرية على الملابس المختلفة . وألقي نظرة على مئات الفساتين الزرقاء المختلفة التي أرسلت من محلات من جميع أرجاء ألمانيا . إلا أنه لم يستطع أن يتذكر ما إذا كان الفستان به ياقة وأساور من لون مختلف . كما أن العذاب الروحاني الذي مرّ به لم يستطع تحسين ذاكرته . وكلما أمطروه بالمزيد من الاستئلة كلما زاد نسيانه وأكده شهود العيان جوانب من قصته إلا أنهم لم يضيفوا شيئاً له أهمية . ودوريات الشرطة لم تشهد الواقع على الاطلاق والسيارة أو التاكسي كانت ماركة «أوبيك» أو ربما كانت ماركة فورد . وكان لونها رماديًا ولم تكن نظيفة للغاية . ولم تكن جديدة أو قديمة وكانت لوحة السيارة صادرة من بون . لا إن اللوحة كانت صادرة من سينجبورج . نعم . كانت توجد علامة التاكسي على السقف . لا لقد كان التاكسي له سقف من النوع المنزلي . كما أن

شخصاً ما سمع صوت موسيقى صادراً ولكن لم يتم التعرف على نوع البرنامج . نعم . لقد كان بالتاكسى ايريال هوائى . لا لم يكن به أى هوائى . ولقد كان السائق رجلاً قوقازياً ولكن يمكن أن يكون تركياً . فالاتراك قد فعلوا هذه المؤامرة . لقد كان السائق حليق الذقن ، له شارب وذو شعر أسود اللون . لا كان السائق ذا شعر أشقر . وكان بناؤه الجسدي خفيفاً لعله كان امرأة متنكرة في زيَّ رجل . وقال شخص ما إنه متتأكد من رؤية منظفة للمداخن متسلية من النافذة الخلفية أو ربما كان ذلك بمثابة ورقة مُصمَّمة ملتصقة . وقال شخص ما إن السائق كان يرتدى سترة فرائية لها قلنوسة متصلة بها ، أو ربما كان ذلك بمثابة بلوفر .

وعند هذه النقطة المأزق أو الطريق المسدود بدا على الفريق الاسرائيلي وكأنه يتعرض لغيبة جماعية . اذ هبط السبات والتبلُّد عليهم جميعاً حيث كانوا قد وصلوا في فترة متأخرة ونهضوا في الصباح مبكرين وقضوا بعض الوقت في السفارية الخاصة بهم حيث بدا أنهم كانوا يحصلون على تعليمات جديدة . ومرت الأيام واعتقد اليكسيس أنهم كانوا ينتظرون شيئاً ما . وبحلول اليوم الثالث انضم إلى الفريق رجل عريض الوجه وأكبر سناً ويسمى نفسه «شولان» بصحبة صديق حميم يبدو نحيلًا للغاية ويصل عمره إلى نصف عمر شولان قال اليكسيس إنهم يشبهان قيصرًا يهودياً ومعه الكاسيوس اليهودي التابع له .

.....

وما إن وصل شولان ومساعده حتى شعر اليكسيس بشئ من الارتياح والتحرر من عباء التحرى والتقصى والتحرر من ملزمة رجال الشرطة له في كل مكان حيث كان يتصرف وكأنه خليفة له أكثر مما هو مساعد . وأول شيء لاحظه اليكسيس على شولان أنه رفع على الفور حمية الفريق الاسرائيلي . فقبل أن يجيئ شولان كان الفريق المكون من ستة أفراد يبدو غير متكامل . اذ كانوا يميلون إلى الالتزام بالأخلاق الحميدة ولايتناولون الكحوليات وكانوا قد نشروا شبакهم في صبر ، وحرصوا فيما بينهم على ظهور ذلك التماسك أو الالتحام الشرقي الذي

تتميز به وحدة قتالية وكان اتسامهم بضبط النفس يسبب الارباك والحيرة والاحباط لأولئك الذين لا يشاركون فيه . وعندما قام الشرطي الآخر أثناء تناول وجبة غذاء سريعة في المقصف بإلقاء بعض النكات الساخرة بشأن طعام «الكريشى» ثم راح يجاملهم ويحدثهم عن مواطن السحر والجمال في وطنهم سامحا لنفسه أن يشير إلى رداعة نوعية الخمور الاسرائيلية فانهم تلقوا ثناء في انحناء مقتضبة . وبعدئذ ومع وصول شولمان فجأة أصبح كل شيء واضحا على نحو مختلف فقد كان هو القائد الذي ينتظرون قدمه ومجيئه : جاء شولمان من القدس . وقبل أن يصل بساعات قليلة علموا بوصوله من خلال مكالمة من المقر الرئيسي في كولونيا .

«انهم يرسلون اخصائيا اضافيا . وهو في الطريق إليكم» .

ووصل شولمان بالفعل . وبدا من وجهة نظر أليكسيس انه غير اخصائي ، وإنما هو رجل من المحاربين القدماء واسع الأفق وصاحب النشاط . ويتراوح عمره ما بين أربعين إلى تسعين عاماً وقصير وممتلىء وسلامي وقوى البناء ومتسم بالطابع الأوروبي أكثر مما هو متصرف بالطابع العبرى . وله صدر مثل البرميل وخطوه واسعة مثل مشية المصارع . كما بدا عليه وكأنه يحرّر كل فرد من الانزعاج والقلق . وكان معه مساعدته الذي لم يذكر أى شيء عنه على الإطلاق . لم يكن مساعدته مثل كاسيوس وإنما كان أشبه بتلميذ دستوفسكي : إذ كان في حالة من الاعياء والصراع مع أنصاف الآلهة . وعندما ابتسم شولمان تدفقت التجاعيد على وجهه صنعتها أجيال من المياه المناسبة إلى أسفل نفس المرات الصخرية . ثم ضاقت عيناه وأصبحت مثل عيني رجل صيني . وبعدئذ بفترة طويلة ابتسم صديقه الحميم معبرا عن بعض المعانى الداخلية الملتوية . وعندما تكلم شولمان فإنه أطلق آراء وأفكاراً متصارعة مثل رصاصات متناثرة ثم انتظر لكي يرى أي الرصاصات ذهبت إلى أهدافها وأى الرصاصات ارتدت اليه . ثم لاح صوت مساعدته شبها بفريق النقالة الذي يجمع في رفق جثث الموتى .

قال شولمان بالإنجليزية المنطقية بلغة أجنبية «أنا شولمان ، وإننى لسعيد بمقابلتك يا دكتور أليكسيس» .

مجرد كلمة شولان . بدون أى رتبة وبدون أى لقب أكاديمى أو أى فرع أو تخصص أو وظيفة . أمّا المساعد الخاص به أو التلميذ فلم يكن له أى اسم على الاطلاق . لقد كان شولان بمثابة جنرال شعبي من وجهة نظر أليكسيس ، كان جنرالاً يمنح الأمل . وكان مدرباً عسكرياً وفارضاً للمهام على نحو غير عادى . وسرعان ما ترافق صوت شولان الذى اتخذ نبرة النائب العام من وراء الباب المغلق وهو يتحدث مع الملحق العمالى محاولاً فحص وتقييم ما تم إنجازه من أعمال . وراح أليكسيس يفكر : إن هذا الرجل يتسم بالطابع الارتجالى وهو قد ولد ليكون فدائياً حضرياً . وعندما لاذ شولان بالصمت فإن أليكسيس سمع الصمت أيضاً وساعل نفسه : تُرى ما هو ذلك الشئ المهم الذى يقرأه ذلك الشيطان فجأة بحيث يجعل فمه يتوقف عن الكلام . أو هل كانوا يؤديان الصلاة ؟ وهل هما قاماً بتأدبة الصلاة ؟ اللهم إلا إذا كان الدور قد جاء على تلميذ شولان لكي يتحدث مما جعل أليكسيس لا يسمع أى شئ ولا حتى مجرد همس لأن صوت ذلك التلميذ كان ضئيلاً للغاية مثل جسده .

كان شولان بمثابة نوع من الإنذار النهائى ينقل إلى فريقه الضغوط التى كانت واقعة عليه . ويقول لهم : يمكننا أن نكتب ، لكن يمكننا أيضاً أن نخسر . لقد تأخرنا أكثر من اللازم ولفترة طويلة للغاية . لقد كان شولان هو المدير الخاص بهم أو الجنرال الخاص بهم . ولكنه هو نفسه كان واقعاً تحت الكثير من الأوامر الصادرة إليه أو هذا هو ما أحس به أليكسيس . ولم يكن إحساس أليكسيس دائماً على خطأ . إذ شاهد ذلك متمثلاً في الحركة التي اعتاد شولان أن يقوم بها حيث يشمر عن كم سترته بـأن يمسك بساعد ذراعه الأيسر السميكة ثم يلوى معصمه كما لو كان معصم شخص ما آخر إلى أن يعكس ميناء ساعته الحديدية القديمة حلقته . إذن لقد كان أمام شولان موعد نهائى أيضاً لإنجاز الأعمال وذلك وفقاً لما ترافق أليكسيس : إذ توجد هناك أيضاً قنبلة زمنية تتكتك تحته . فتلميذه قد وضع تلك القنبلة في محفظته الجلدية .

هذا التفاعل بين الرجلين أثار إعجاب اليكسيس . وقد رحب اليكسيس بهذا الأمر الذي شتت انتباذه وخفف من الهم والضغوط الواقعة عليه . وعندما قام شولمان بالتريض والتزه ووقف بين الخرائب المحفوفة بالمخاطر الخاصة بالمنزل الذى دمرته القنبلة ملقيا بذراعه للأمام لكي يتفحص ساعته ومعبرا عن غضبه وتبرمه وكأن ذلك المكان كان تابعاً له فإن تلميذه راح يرفرف فوق ظله وكأنه الضمير الخاص به بينما يداه اللتان تشبهان الهيكل العظمى متشبستان فوق ردينه وقد بدا عليه كأنه يتحكم فى سيده من خلال جدية معتقداته الهاستة . وعندما قام شولمان باستدعاء الملحق العمالى من أجل أن يقول له كلمة أخيرة لها الطابع الخصوصى ثم تصاعد الحوار بينهما والذى كان يتراهى فى خفوت غير مسموع بوضوح إلى صرخات ثم هبط بعد ذلك إلى هممة خافتة شبيهة بالاعترافات التى تتم فى كرسى الاعتراف أمام الكاهن فإن التلميذ هو الذى اقتاد الرجل المحطم من الغرفة وأعاده إلى هموم سفارته مما أكد فكرة كانت قد خطرت على ذهن اليكسيس منذ البداية ، إلا أن الأوامر صدرت له من كولونيا بإن يبعد تلك الفكرة من تفكيره .

كان كل شئ يشير إلى تلك الفكرة فالزوجة الغيورة الانطوانية لم تحلم إلا بالأرض المقدسة والملحق العمالى كان غارقا فى الاحساس بعقدة الذنب لأن استقباله للفتاة كاترين كان متسما بالكرم أكثر من اللازم حيث جعل من نفسه أخا لها أثناء غياب ايلكه . علاوة على اعترافاته الشاذة التى تفيد بأنه كان يعتاد على الدخول إلى غرفة ايلكه فى حين أن زوجته لم تدخل إلى غرفة ايلكه على الإطلاق . اذن فالامر كانت تشويه نسمات جنسية وقد أشارت الدلائل إلى ذلك . وشعر بالرضا لأن شولمان أدرك ذلك أيضا . ولكن اذا كانت كولونيا قد اتخذت موقفا صلبا ازاء هذه النقطة فإن بون كانت قد اقتربت من المهستيرية فالملحق العمالى كان بطلا شعبيا : والد فقد ابنه وهو زوج لأمرأة معوقة على نحو رهيب . وهو بذلك أصبح ضحية للانتهاك المناهض للسامية فوق الأرضى الألمانية كان دبلوماسيا إسرائيليا مفوضا لدى بون أى كان محترما مثل أى يهودى ومن هم الألمان لكي يكشفوا أوراق هذا الملحق العمالى ويظهرونه على حقيقته من حيث هو انسان زان وفاسق وعاهر :

وفي نفس الليلة لحق الملحق العمالي المذهول بطفله إلى إسرائيل وقامت نشرات الأخبار بالتلفزيون بالتفطية وأظهرته وهو يسير في تثاقل بين صفوف الناس على المرّ بالمطار وظهر أليكسيس الموجود دائمًا في كل مكان وقد أمسك بقبعته في يده وراح يرقب الملحق العمالي وهو يسير في احترام متحجر.

لم تصل بعض الأنشطة التي قام بها شولمان إلى مسامع أليكسيس إلا بعد أن سافر الفريق الإسرائيلي بالطائرة عائدًا إلى إسرائيل . إذ اكتشف أليكسيس بطريق المصادفة إلى حد ما أن شولمان وتلميذه قد انفردا بالفتاة بإيلكه بعيداً عن المحققين الألمان وتمكنا من اقناعها في سكون الليل ، أن تؤجل رحيلها إلى السويد حتى يتمكن ثلاثة من الانفراد بحديث خاص فيما بينهم نظير مبلغ مجزٍ يدفع لها . ثم أمضيا فترة أخرى من بعد الظهر في إجراء حوار معها في غرفة نوم واحد الفنادق ثم استقلوا معها سيارة اجرة متوجهة إلى المطار . وقد تم هذا من وجهة نظر أليكسيس - بهدف التمكن من معرفة من هم أصدقاؤها الحقيقيون ومعرفة المكان الذي كانت تذهب إليه في خلال الأوقات التي يعود فيها صديقها إلى الجيش . علاوة على معرفة المكان الذي اشتريت منه المرجوانا وأقراص الفيتامينات التي عثر عليها بين حطام غرفتها . أو معرفة اسم الشخص الذي أعطاها المرجوانا والأقراص ومعرفة اسم الشخص الذي تفضل الاستلقاء بين ذراعيه والتكلم في استرخاء عن نفسها وعن مخدوميها . ولقد استنتاج أليكسيس ذلك لأن الناس التابعين له كانوا قد احضروا له بالفعل تقاريرهم السرية التي تتعلق بإيلكه كما أن الأسئلة التي نسبها إلى شولمان كانت هي نفس الأسئلة التي كان يرغب في أن يوجهها بنفسه لإيلكه لو لم تقم بون بتقييد حريته وكبح جماحه والصراخ فيه «ارفع يديك ولا تتدخل» .

وظلوا يوجهون أليكسيس وينهونه إلى ضرورة الابتعاد عن البداعة . ونظرا لأن أليكسيس كان يكافع من أجل البقاء على قيد الحياة فإنه التزم بالتعليمات الصادرة إليه والتزم بالصمت لأنه مع كل يوم يمر كانت أسهم الشرطى ترتفع مما يلحق الضرر بالوضع الخاص بأليكسيس .

وعلى كل حال فان اليكسيس كان على استعداد لأن يدفع نقوداً كثيرة من أجل الحصول على الإجابات التي انتزعها شولمان من ايلكه أثناء نظراته إلى ذلك المزول القديم لساعة خاصة به - والذي يحتوى على صورة لطالب عربى مكتمل الرجولة أو صورة للحق دبلوماسى صغير ينتمى للجماعات الدبلوماسية الخارجية على سبيل المثال - أو أكان هو كوبيا ؟ - من خلال تبديد النقود وتقديم العبوات الملائمة الصغيرة من المواد والرغبة غير المتوقعة فى الاصفاء . وفي وقت متاخر أكثر من اللازم وعندما لم يصبح الأمر هاماً بسبب فوات الأوان فان اليكسيس علم أيضاً - عن طريق أجهزة الأمن السويدية التي كانت قد اهتمت أيضاً بالحياة العاطفية لايلكه - أن شولمان وتلميذه قد عرضا بالفعل خلال الساعات الأخيرة أثناء نوم الآخرين مجموعة من الصور الفوتوغرافية للأشخاص المحتملين . وعلم أنها قد اختارت من بين تلك الصور صورة لشخص يزعم أنه قبرصى وقالت أنها لم تعرف سوى اسمه الأول فقط : ماريوس . كما قالت إنه طلب منها أن تنطق كلمة ماريوس بالطريقة الفرنسية . وعلم أنها قد وقعت على عبارة وفقاً لطلبه وأن هذه العبارة نصها كالتى : «نعم هذا هو الشخص الذى يسمى ماريوس والذى نمت وأضطجعت معه» وقد أفهموها أنهم بحاجة إلى تلك العبارة من أجل عرضها على السلطات فى القدس . وراح اليكسيس يسائل نفسه فى تعجب : ترى لماذا أرادوا عرض تلك العبارة على القدس ؟ هل من أجل التخلص من المأزق الذى وقع فيه شولمان ؟ وهل ذلك من أجل إثارة الثقة فى القاعدة ؟ لقد كان اليكسيس يفهم ويدرك هذه الأمور . وكلما فكر فى هذه الأمور كلما ازداد إحساسه بالآفة والانجداب مع شولمان . وظل يسمع نفسه وهو يفكر قائلاً لنفسه : أنت وأنا بمثابة كيان واحد فنحن نكافح ونشعر ونشاهد .

وكان اليكسيس يدرك كل ذلك فى عمق شديد علاوة على ايمان راسخ بالذات .

.....

١

وتم عقد المؤتمر الختامي في قاعة المحاضرات حيث كان الشرطى الأخر الملل يترأس على مايزيد على ٣٠٠ كرسى معظمها شاغرة ولكن بين هذه المقاعد كانت المجموعتان الألمانية والإسرائيلية تجتمعان على جانبي ممشى الكنيسة مثل العائلات المتعلقة بالزفاف والزواج . وكان الألمان مدعيين بموظفي من وزارة الداخلية وبعض الشخصيات الانتخابية المنتسبة للبوندستاج . أما الاسرائيليون فكان معهم الملحق العسكري الخاص بهم القادم من السفارة الاسرائيلية إلا أن العديد من أفراد الفريق الاسرائيلي بما في ذلك التلميذ الهزيل التابع لشولمان كانوا قد سافروا بالفعل إلى تل أبيب . أو هذا هو ما قاله زملاؤه . وتجمع الباقيون في الساعة الحادية عشرة في الصباح لكي يتم الترحيب بهم من خلال منضدة مغطاة بقمash أبيض وعليها شظايا متخلفة عن الانفجار وكأنها قطع أثرية موجودة عند نهاية حفرة طويلة وكل قطعة عليها البطاقة المتحفية الخاصة بها . وعند الباب كانت تقف فتاة جميلة وتبتسم بطريقة جذابة للغاية ، وتناول مطويات تذكارية موضوعة في أغلفة بلاستيكية ومحتوية على بيانات ومعلومات . ولو أنها قدمت حلوى أو أيس كريم لما أصيب أليكسيس بالدهشة . وراح الفريق الألماني يثثر ويشقشق ويمد رقباه نحو أي شيء بما في ذلك الاسرائيليين الذين حرصوا على الالتزام بالصمت المميت الذي يتميز به رجال ينظرون إلى أن تضييع دقيقة واحدة هباءً وسدى يعتبر بمثابة عذاب أليم . وكان أليكسيس هو فقط الذي يدرك كربهم السرى وعذابهم الخفى ويشاركون ذلك الكرب والعذاب مهما كان مصدر ذلك الكرب والعذاب .

قال أليكسيس لنفسه : نحن الألمان أقوى وأبرع من أن يتتفوق علينا أحد . فنحن الطرف القصى الحى . وكان قد توقع قبل بدء الاجتماع بساعة أن يقف ليلى كلمة في ذلك الاجتماع توقع أن يلقى كلمة مختصرة بأسلوبه الرشيق باللغة الانجليزية ويقول لهم «شكرا جزيلا لكم أيها السادة» . إلا أن ذلك لم يتحقق اذ كان البارونات قد اتخنوا قرارهم وأرأنوا للشرطى أن يحضر على الافطار والغداء والعشاء ، ولم يرغبوا في توجيه الدعوة لأليكسيس ولا حتى مجرد تناول القهوة . لذلك راح يتسع في المنطقة الخلفية، وقد طوى ذراعيه مظهرا عدم الاكتراث أثناء

قيامه بالدردشة والرغى والتعاطف الوجданى مع اليهود . وعندما أصبح جلس الجميع باستثناء أليكسيس بدأ الشرطى يدخل بتلك المشية التى يستخدمها فى كل مرة يتوجه فيها إلى منبر الخطابة . وخلفه كان يسير شاب مرتديا معطفا له لون أبيض ويحمل معه نسخة طبق الأصل من الحقيقة الرمادية التى بها شرائط شركة اسكندنافيا للطيران ثم قام بوضع تلك الحقيقة على المنصة كما لو كانت قرياناً . وراح أليكسيس يبحث عن بطله شولان ، فوجده جالسا بمفرده فى مقعد بجوار المرأ فى المؤخرة . وكان شولان قد خلع سترته ورباط عنقه وارتدى بنطلونا مريحا فضفاضاً ظهر قصيراً ومرتفعاً بعض الشئ فوق حذائه ذى الطراز القديم وبسبب خصره الممتلىء السمين . وكانت ساعته المصنوعة من الحديد الصلب تتغامز مع معصمه البنيّ اللون . كما أن بياض قميصه المنعكس على بشرته الدايلة قد أعطاه المنظر الظريف لشخص ما بصدق أن يغادر المكان من أجل القيام بأجازة .

فقال أليكسيس فى سره فى شئ من الكآبة والحزن وهو يتذكر جلسته المؤلمة مع البارونات : «تمسك بموقفك يا شولان وأنا سأجيئ معك» .

وتحدى الشرطى بالإنجليزية «تعبيراً عن الاحترام ازاء اصدقائنا الاسرائيليين» ولكن أليكسيس شك أيضاً فى أن ذلك كان تعبيراً عن الاحترام ازاء أولئك الناس الذين أيدوه وناصروه والذين جاءوا ليشاهدوا أداء بطلهم . كان الرجل قد حصل على نورة تدريبية تتعلق بمناهضة التخريب فى واشنطن ولذلك كان يتكلم باللغة الانجليزية المذبوحة لرائد من رواد الفضاء . وكنوع من المقدمة قال لهم الشرطى إن ذلك الهجوم الوحشى كان من أعمال «العناصر اليسارية الراديكالية» وعندما أشار إلى «التورط الاشتراكى من جانب الشباب الحديث» ظهرت بعض المواقف التى تؤيد كلامه فى الكراسى البرلانية . وراح أليكسيس يفكر : ان الفوهرر نفسه لم يكن بمقدوره أن يتناول الموضوع على نحو أفضل من ذلك ولكنه ظلل غير مبالٍ وغير مكترث من الناحية الظاهرية فقط . وكان الانفجار قد اتجه لأعلى وفقاً لأسباب معمارية ولما أوضحه الشرطى حيث دعم شرحه على رسم بياني قام مساعدته بنشره خلفه . وحطم الانفجار البنية الرئيسية بالمنزل ناسفاً الطابق

العلوي مما أدى إلى تدمير غرفة النوم الخاصة بالطفل وباختصار كان الانفجار مروعا - من وجهة نظر أليكسيس - إذن لماذا لم يقل ذلك ويصمت ؟ الا أن الشرطي لم يكن يميل إلى الكف عن الكلام إن أفضل التقديرات تشير إلى أن الشحنة الناسفة كان وزنها خمسة كيلوجرامات . ولقد تمكنت الأم من البقاء على قيد الحياة لأنها كانت في المطبخ . وكان المطبخ في مبنى ملحق بالمبني الرئيسي .

وكرر الرجل السليمي القول بأفضل ما لديه من لغة إنجليزية حيث قال «مبنى ملحق بالمبني الرئيسي» وتجاهل المصادر غير المرحبة واستأنف كلامه في عنف وفي غير تبصر .

فقال أليكسيس لنفسه «في حياتي التالية سوف أكون يهوديا أو إسبانيا أو من الاسكيمو و أكون شخصا فوضويا مثل أي شخص آخر . ولكنني لن أكون ألمانيا - فالإنسان يكون ألمانيا مرة واحدة كنوع من الكفارة عن الذنب . فالألماني هو فقط الذي يستطيع أن يلقي خطابا افتتاحيا يتعلق بطفل يهودي ميت .

وألقى أليكسيس نظرة على شولمان وأدرك أن شولمان بدأ ينظر إلى الباب في خلسة ويهيا للانصراف بينما رأسه العريضة قد مالت قليلا في اتجاه أليكسيس وارتقت ذراعه التي يوجد بها الساعة ولكن بالطريقة التي يستشير بها الماء معدته وليس من أجل معرفة الوقت . وتلاقت عيناهما بالفعل، ولكن أليكسيس أدرك على نحو أكيد أن شولمان كان في انتظاره يرغب في مقابلته ليقول له «الغداء». وكان الشرطي مازال يدندن ويطقطق وكان الحاضرون مازالوا يقفون حوله مثل مجموعة من المسافرين الواقفين في كوكبة من أجل الصعود إلى طائرة . فسار أليكسيس على أطراف أصابعه بسرعة وراء شولمان الذي شرع في الانصراف بالفعل . وفي الطرفة أمسك شولمان بذراع أليكسيس في مودة . وعلى الرصيف بالشارع - حيث أصبح الجو مشمساً مرة أخرى - قام كل من الرجلين بخلع سترته ثم استدعى أليكسيس تاكسي وأعطى السائق اسم مطعم ايطالي يقع على قمة تل موجود عند الطرف البعيد لبادنسبurg . لقد سبق أن أصطحب نساء إلى هناك ولكنه

لم يصطحب رجالاً من قبل على الطلق وكان اليكسيس يتذكر دائماً النواحي الجنسية التي تحدث مع النساء لأول مرة .

.....

لم يتبادلا سوى كلمات قليلة أثناء انطلاق التاكسي بهما . وكان شولمان معجبًا بالمناظر الطبيعية وظهر عليه الصفاء والهدوء الذي يشعر به الشخص الذي يقضى أجازة يوم السبت رغم أن اليوم كان في منتصف الأسبوع . وتذكر اليكسيس أن شولمان من المقرر له أن يغادر كولونيا على متن الطائرة التي تقلع في المساء . ومثل الشخص الذي يتم اخراجه من مدرسة راح اليكسيس يحصي الساعات المتبقية التي سيقضيها مع شولمان مفترضاً أن شولمان لم يكن لديه أية ارتباطات أو مواعيد أخرى وهو افتراض يبعث على الضحك ولكنه رائع . وفي المطعم الموجود في الأعلى فوق مرفقات سيسيل، قام صاحب المطعم الإيطالي بإبداء اهتمام أكثر من اللازم باليكسيس ولكنه كان مفتتنًا تماماً بشولمان . اذ كان يطلق عليه اسم «الهر البروفسور» وأصرَّ على تجهيز منضدة كبيرة بجوار النافذة تتسع لستة أشخاص حيث كانت تبدو أسفلهما المدينة القديمة . وإلى ما وراء المدينة كان يبدو نهر الراين متوجهاً مع تلاله البنية اللون وقلاعه المحفوفة بالمخاطر . وكان اليكسيس يحفظ ذلك المنظر الطبيعي عن ظهر قلب ولكنه اليوم ومن خلال عيني صديقه الجديد شولمان كان يشهد ذلك المنظر لأول مرة . وطلب اليكسيس كأسين من ال威isky . فلم يعرض شولمان على ذلك .

راح شولمان يحملق في المنظر الطبيعي أثناء انتظارهما مجيئ كأسِ ال威isky ثم تكلم أخيراً قائلاً «ربما أو أن فاجنر ترك ذلك الشخص الذي يسمى سيجفريد في هدوء وسلام لكن الأمر قد أصبح على نحو أفضل» .

والحظات لم يستطع اليكسيس أن يعرف ما الذي حدث . اذ كان يومه حتى تلك الأونة مشحونة ومزدحمة بالإضافة إلى أن معدته كانت خاوية وعقله كان مهزوزاً . وكان شولمان يتكلم باللغة الألمانية وفي لهجة أبناء السويد وهي سميكه صدئة مليئة

بالأزيز مثل ماكينة بطل استخدامها . علاوة على أنه كان يتكلم وعلى شفتيه ابتسامة مليئة بالندم تحمل بين طياتها الاعتراف علاوة على التقارب نحو وضع خيوط مؤامرة . فاطلق أليكسيس ضحكة خفيفة ، عندئذ ضحك شولان هو الآخر . وجاء الويسكي وراح يحتسيان بعد أن تبادلا الأنخاب .

قال شولان باللغة الألمانية «أخبروني أنك بصدق الحصول على وظيفة جديدة في فيزيادن وظيفة مكتبية من نوع ما . وقد سمعت أنها وظيفة أكبر من الناحية الشكلية ولكنها تشتمل على أعمال قليلة . فهم يقولون إن مواهبك الكبيرة لا تتلاءم مع الناس هنا . وبعد أن تقابلت معك بنفسي وشاهدت الناس - فاننى لاأشعر حاليا بالدهشة من ذلك القرار» .

وحاول أليكسيس ألا يبدو مندهشا هو الآخر . انهم لم يقولوا شيئاً عن التفاصيل التي تتعلق بوظيفته الجديدة - كل ما قالوه إن وظيفة جديدة آتية في الطريق . بل ان تعين الشرطي في الوظيفة التي يشغلها أليكسيس كان لايزال من الأمور السرية . ولم يكن لدى أليكسيس الوقت الكافي لكي يتحدث عن هذا الموضوع مع أى شخص آخر ولا حتى مع صديقته الشابة التي كان يتحدث معها في مكالمات تليفونية لامعنى لها مرات عديدة يوميا .

وقال شولان معلقاً «هذه هي سنة الحياة . أليس كذلك؟» . ونطق تلك العبارة بطريقة فلسفية وكان يوجه تلك العبارة إلى النهر أكثر مما هو يوجهها إلى أليكسيس . وأضاف قائلاً «صدقني اذا قلت لك إن حياة الانسان في القدس هي أيضا محفوفة بالمخاطر ضد تيار النهر أو في اتجاه مجرى النهر . هكذا تسير الحياة هناك» وبدا عليه وكأنه يشعر بالاحباط بعض الشئ . واستطرد قائلاً : «وقد سمعت أنها فتاة لطيفة أيضا . وجذابة وذكية ومخلصة وأنها امرأة أكثر مما يستطيعون احتمالها» . وهو بذلك القول قد اصطدم مرة أخرى بما يدور في رأس زميله من أفكار .

وقاوم أليكسيس الاغراء بتحويل المناسبة إلى حلقة دراسية تتعلق بمشكلات الحياة الخاصة به وتعمد توجيهه دفة الحديث نحو المؤتمر الذي عُقد في هذا الصباح، ولكن شولان ردَّ في غموض قائلاً إنَّ الفنيين لم يسبق لهم أنْ حلوَّوا أيَّ مشكلة على الأطلاق وأضاف قائلاً إنَّ القنابل من الموضوعات التي تسبَّب له الضيق والملل . وكان قد طلب طبقاً من مكرونة الباستا وراح يتناولها بأسلوب السجين حيث يستخدم ملعقتة وشوكته بطريقة آلية دون أنْ يهتمُّ بإلقاء نظرة لأسفل . وخشي أليكسيس أنْ يعرقل تدفقه تناول الطعام ولذلك التزم بالهدوء والصمت .

وشرع شولان - منطلقاً في السرَّد والكلام مثل أيَّ رجل عجوز - في التفجع والرثاء والتحدث عن حلفاء إسرائيل المزعومين الذين يقامون التخريب فقال بصوت من يستعيد الذكريات البسيطة «في شهر يناير الماضي عندما كنا نقوم بتفحص الأمور بطريقة مختلفة تماماً دعونا أصدقاعنا الإيطاليين للتشاور معهم وعرضنا عليهم بعض الأدلة والبراهين الدامغة ، وزودناهم ببعض العناوين الهامة . ثم بعد ذلك أدركنا أنَّهم قاموا بإلقاء القبض على عدد قليل من الإيطاليين بينما الناس الذين تسعى القدس لإلقاء القبض عليهم كانوا يجلسون في أمن وأمان في ليبيا وقد اكتسبت بشرتهم باللون البرونزي الناجم عن التعرض لأشعة الشمس حيث كانوا ينتظرون تكليفهم بالمهمات الأخرى التالية . ولم يكن ذلك هو ما نهدف إليه» . ثم ملأ فمه بكمية من المكرونة . ويعيَّد راح يجف شفتيه مستخدماً ورق السفرة فراح أليكسيس يفكِّر : إنَّ الطعام بالنسبة له بمثابة الوقود . فهو يأكل لكي يتمكَّن من أنْ يقاتل . واستطرد شولان «وفي شهر مارس عندما ظهرت مسألة أخرى تكررت القصة مرة أخرى على وجه الدقة . ولكننا في هذه المرة كنا نتعامل مع باريس . إذ تمَّ القاء القبض على عدد معين من الفرنسيين ولكن لم يتمَّ القبض على أيَّ شخص آخر . ثم حصل موظفون على الاستحسان أيضاً ، بل وحصل بعضهم على الترقية . والفضل في ذلك يرجع اليَّنا» ثم هزَّ كتفيه بشدة واستطرد «أماً العرب فلم يتمَّ إلقاء القبض على أحد منهم . وربما كان الأمر يغلب عليه المصلحة الذاتية أو المنافع الخاصة . فالسياسة البترولية قوية والاقتصاد قوي وكل شيء قوى . أماً العدالة فهي

ضعيفة وواهنة . والعدالة هي الشيء الذي نحبه ونرحب فيه» وابتسم ابتسامة عريضة وأضاف : «لذلك يمكنني القول إننا قد تعلمنا أن نكون انتقائين وأن نختصر في الكلام لأن خير الكلام ما قل ودل . وتعلمنا كيف ننجز الأعمال مع أولئك الأشخاص الذين يتذمرون موقفاً ودياً إزاعنا والذين لهم سجل مشرف مثير للعجب . ويتم التعامل في حرص وحذر وبطريقة غير رسمية وفي داخل نطاق الأصدقاء . اذا كان الشخص الذي يتعامل معنا سيستخدم معلوماتنا بطريقة فعالة من أجل بناء وترقية نفسه في وظيفته بعض الشيء ، فإنه لامانع عندنا من أن يحصل أصدقاؤنا على بعض النفوذ في وظائفهم . ولكننا نريد نصيحتنا ونتوقع من الناس أن يعطونا نصيحتنا من الصفة . وهذا هو الأمر الذي تتوقعه من أصدقائنا بصفة خاصة » .

واستطرد شولان قائلاً : «منذ سنوات قليلة أثارت مجموعة من الفلسطينيين جحيمًا في بلادي . وهؤلاء الفلسطينيين من طبقة اجتماعية منخفضة . اذ يحاول بعض الفلاحين الفلسطينيين أن يظهروا على أنهم أبطال . فيقومون بالتسلل عبر الحدود ويرقدون داخل قرية ، ثم يتخلصون من القنابل الموجودة معهم ويلونون بالفرار رغبة في النجاة . ونحن اذا لم نتمكن من إلقاء القبض عليهم في خلال العملية الأولى التي يقومون بها فإننا نمسك بهم في خلال العملية الثانية . أما الناس الذين أتحدث عنهم فكانوا مختلفين . اذ كان هناك من يقويهم ويوجههم ، ولذلك كانوا يعرفون كيف يتحركون بأسلوب صحيح . ويعرفون كيف يظلون بعيدين عن الوشاة والمخبرين ، وكيف يخفون جرة وانطباعات أقدامهم على الرمال وكيف ينجزون الترتيبات الخاصة بهم ، وكيف يكتبون الأوامر والتعليمات الخاصة بهم . ولقد تمكنا في أول مرة من ضرب سوبر ماركت في بلدة بيت شيعان وفي المرة الثانية قاموا بهجوم على مدرسة ثم هجموا على بعض المستوطنات ، ثم ضربوا «سوبر ماركت» آخر إلى أن أصبحت تلك الهجمات أمراً اعتيادياً يسير على وثيرة واحدة . وبعد ذلك بدأوا ينصبون الكمامات لجنودنا الذين يسافرون بطريقة «الأوتوبوس» لدى حصولهم على أجازة . وتعالت صيحات الغضب من جانب أمهات الجنود وامتلأت الصحف والمجلات بالمقالات التي تتفجر بالغضب والاستياء . وبدأ

كل شخص يقول : «امسکوا بهؤلاء الفلسطينيين» وشرعنا نعمل من أجل القبض على هؤلاء الفلسطينيين . واكتشفنا أنهم كانوا يستخدمون كهوفا في وادي الأردن ويعيشون بعيداً عن الأماكن الآهلة بالسكان . ولم نستطع العثور عليهم . وقالت أجهزة الدعاية الخاصة بهم إنهم بمثابة أبطال «المجموعة الفدائية رقم ٨» . ولكن المجموعة ٨ لاتستطيع أن تجعل عود كبريت بدون أن نعرف مقدماً ما يفعلون . وجاءتنا معلومات تفيد أنهم بمثابة مجموعة من الأخوة الأشقاء . أو هم بمثابة مشروع عائلي فدائي . وقال أحد المخبرين إنهم ثلاثة من الأخوة وقال مخبر آخر إنهم أربعة من الأخوة . ولكن الشيء المؤكد أنهم بالفعل أخوة أشقاء ويعملون انتلاقاً من أراضي الأردن . وكنا متاكدين من هذه المعلومة تماماً .

«فأنشأنا فرقاً تسمى فرق السيارات وهي بمثابة فرق اغتيال صغيرة العدد تضم رجالاً يتسمون بالقوة والقسوة ولقد سمعنا أن القائد الفلسطيني يتميز بميله إلى العزلة ولا يثق في أي فرد آخر خارج نطاق أسرته . وكان من الواضح أنه شديد الارتياح والشك . ولكننا لم نعثر على ذلك القائد على الإطلاق . ولم يكن شقيقاه يتميزان بالذكاء الشديد . وكان لأحدهما علاقة عاطفية مع فتاة صغيرة تعيش في عمان . وبينما كان يغادر منزلها ذات صباح انهال عليه وابل من الرصاص المتدافع من المدفع الرشاشة . والشقيق الثاني قد وقع في غلطة حيث ذهب لزيارة صديقه له في مخيم في صبرا حيث قرر أن يقضى أجازة نهاية الأسبوع عند ذلك الصديق . فقام سلاح الطيران بنسف سيارته بينما كان يقود سيارته على الطريق الساحلي» .

واسترطرد شولان قائلاً «وبحلول ذلك الوقت كنا نعرف هوية هؤلاء الأشقاء الفلسطينيين . فهم من الضفة الغربية وينتمون لقرية مشهورة بزراعة العنبر والكرום وقريبة من الخليل وقد هربوا من الضفة الغربية عقب حرب ١٩٦٧ . ولقد كان لهم آخر رابع ولكنه كان صغيراً في السن للغاية بحيث لا يتمكن من القتال حتى ولو كان قاتلاً وفقاً للمستويات الفلسطينية . كما كانت لهم أختان إلا أن إحداهما لقيت مصرعها

أثناء قيامنا بعملية انتقامية تشتمل على تفجير للقنابل في جنوب نهر الليطاني . وبذلك تمكنا من تحطيم هذه الأسرة . ومع ذلك ظللنا نبحث عن الرجل الرابع . وكنا نتوقع له أن يقوم بجمع التعزيزات استعداداً للهجوم علينا . ولكنه لم يهجم علينا . بل وتوقف عن شراء حاجياته من السلاح . ومرت ستة شهور بل ومرت سنة كاملة . فقلنا لأنفسنا : «يجب علينا أن ننساه . فأغلب الظن أن شعبه هم الذين قاموا بقتله» .

ثم سمعنا أن السوريين عاملوه في قسوة شديدة ومن ثم توقعنا له أن يكون قد مات بالفعل . ومنذ شهور قليلة التقينا إشاعة تفيد أنه وصل إلى أوروبا هنا . وكوَّن فريق عمل يضم العديد من النساء ، ومعظمها من الشبان الألمان» . ثم ملأ فمه بكمية أخرى من المكونة وراح يمضغ ويبتلع وهو غارق في التفكير . واستطرد قائلاً : «وكان يدير فريق العمل التابع له من على مسافة حيث كان متحفظاً في علاقاته معهم . وقام بدور المفيستو * ، اسم شيطان عربي مع مجموعة من الأولاد والفتيات العاطفيين سريع الانفعال» .

وغادر شولمان في ذلك المساء . وتخلفت البقية الباقيه من فريقه عن السفر وظلوا موجودين لمدة يومين آخرين . وفي حفل التوديع الذي أقامه الشرطي تعبيراً عن العلاقات الممتازة التي تربط الاستخبارات في كل من ألمانيا وأسرائيل - وهو حفل غير رسمي اشتغل على تناول البيرة البيضاء والسبحق - أصرَّ أليكسيس على تخريب ذلك الاحتفال عندما أشار أن حكومة بون اختارت ذلك اليوم لكي تلمح إلى صفقة الأسلحة المقرر عقدها قريباً مع السعوديين ، لذا فمن غير المحتمل أن يصبح ضيوفهم في حالة نفسية بهيجه . وربما كان هذا هو آخر عمل فعال يقوم به أليكسيس خلال وظيفته . وبعد شهر ثم نقله وابعاده إلى فيزبادن لكي يشغل وظيفة تعتبر من الناحية الشكلية ترقية له .

* المفيستو : أحد الشياطين السبعة في اساطير القرون الوسطى

النصل الثاني

لم يك ينقضي ثمانية أسابيع حتى عاد الرجل الذى يعرفه الدكتور أليكسيس تحت اسم «شولان» إلى ألمانيا . وفي ذلك الوقت كانت التحريرات والخطط التى اضطاعت بها فرق القدس قد حقت قفزات غير عادية حتى أن أولئك الذين مازالوا يعملون من خلال أطلال وأنقاض بناء جودزيرج لم يكونوا بحالة تسمح لهم بالتعرف على الموضوع . ولو كان الأمر مجرد معاقبة المجرمين - ولو كان حادث جودزيرج مجرد حادث منفصل وليس جزءاً من سلسلة عمليات منسقة - لما اهتم شولان بإدخال نفسه فى هذا الموضوع على الإطلاق . حيث إن أهدافه كانت أكثر طموحاً من مجرد معاقبة المجرمين كما أن أهدافه كانت تتعلق بشكل وثيق ببقاءه على قيد الحياة من الناحية المهنية الوظيفية . وعلى مدى شهور راحت الفرق التابعة له بداعف من إلحاحه واستعجاله القلق تبحث عما يسميه بالنافذة التى كانت متعدة بالقدر الذى يسمح بتسريب شخص ما من خلالها مما يؤدى بالتالى بأخذ العدو من داخل منزله وليس ضرب العدو بالدبابات والمدفعية من خلال مواجهة مباشرة معه وهو الاتجاه الذى بدأت إسرائيل تتجه نحوه بشكل متزايد .

ولم يكن مجىء شولان فى هذه المرة إلى بون وإنما جاء إلى ميونيخ كما أن مجىئه فى هذه المرة لم يكن تحت اسم شولان . بل إن أليكسيس والشرطى الذى شغل منصب أليكسيس لم يكونا على علم بوصوله وهو أمر كان يهدف إليه شولان . أصبح اسم شولان فى هذه المرة - إذا كان له أى اسم - هو كيرتز وهو نادرًا ما كان يستخدم ذلك الاسم حتى أنه يمكن أن يُغفر له إذا نسى ذلك الاسم

تماماً في يوم ما . وكلمة كيرتز تعنى القصير أو المختصر ، وقال البعض إنه كيرتز الذي يتميز باللجوء إلى الوسائل المختصرة . وقال ضحاياه إنه كيرتز صاحب الفتيل القصير . وقام آخرون بعقد مقارنات مضيئة بينه وبين بطل رواية جوزيف كونراد «قلب الظلمات» في حين أن الحقائق البسيطة كانت تشير إلى أن ذلك الاسم هو اسم أحد أبطال البرتو مورافيا وأنه كان يُنطق ويكتب أصلاً : كيرز إلى أن قام ضابط شرطة بريطانى أثناء فترة الانتداب бритانى بإضافة حرف التاء إلى الاسم فأصبح كيرتز فصار حرف التاء المضاف بمثابة خنجر صغير مغروز في كيان هويته وظل موجوداً في جسد شخصيته كنوع من المهاز أو الشوكة .

وصل إلى ميونيخقادما من تل أبيب عن طريق استانبول مغيرا جوازات سفره مرتين ومغيرا الطائرة ثلاثة مرات . وقبل ذلك ظل يتتجسس في لندن لمدة أسبوع إلا أنه في لندن كان يقوم بعمل هادئ للغاية . ففي كل مكان ذهب إليه يختبر الأمور ويراجع النتائج ويجمع العون والمساعدة ويقنع الناس بوجهة نظره ويزودهم بقصص التغطية وأنصاف الحقائق ويهيمن على غير الراغبين بطاقاته المتواصلة غير العادية ويتخطيطه المسبق . وكان يحب أن يقول للناس في وضة رشيقه : نحن نعيش لفترة قصيرة للغاية بل إننا انتقلنا إلى رحمة الله منذ فترة طويلة مضت . وكان الحل من وجهة نظره هو التخلص من النوم والسبات العميق . وفي إسرائيل كان يحلو لهم أن يقولوا إن كيرتز يعمل بسرعة وينام بسرعة أيضاً وإنه هو أستاذ الخطط الأوروبية العدوانية . كما يقولون إن كيرتز هو الذى يجتاز المرات الصعبة ويجعل الصحراء تزهر وتكتسى باللون الأخضر . وكان كيرتز يلف ويدور ويذبح حتى أثناء تأدبة صلواته . إلا أنه جلب قدراً كبيراً من الحظ يفوق ما جلبه كافة اليهود عبر ألفين من السنوات .

وكان كيرتز متناقضاً ومعقداً للغاية ويحمل في داخله العديد من الأشكال والألوان . بل وفي العديد من النواحي كانت علاقاته مع رؤسائه - وبصفة خاصة مع رئيسه المباشر ميشا جافرون - أقرب إلى الاتسام بعدم الانتماء؛ إذ لم يكن له منصب وظيفي محدد بفترة معينة . كما أن قاعدة نفوذه كانت في حالة قلقة

ودائمة التغيير . وهو لم يكن من الصابرا كما كانت تتصفه خلفية الصفة المستقلة من الكيبوتسات والجامعات وفرق الصاعقة التي تدعم على نحو متزايد الهيئة التي تعمل بها . وهو كان غير متوافق مع الأجهزة التي يعملون بها مثل أجهزة الكشف عن الكذب وأجهزة الكمبيوتر وغير ذلك من الأساليب الأمريكية مثل علم النفس التطبيقي والسيطرة على الأزمات . وهو كان يحب الديسبورا (*) وجعل ذلك شغله الشاغل وذلك في الوقت الذي أصبح فيه معظم الاسرائيليين يجدون هويتهم على أنهم شرقيون .

قال كيرتز لفريق القدس التابع له «اعثروا على الولد» مبتدئاً بذلك أسفاره وجولات المظلمة . إنه ولد واحد ومعه رفيق ملازم له . اعثروا على الولد ولوسوف يجبىء بعده زميله المرافق له بكل سهولة . وراح يكرد في الحاج ذلك المطلب . وأخذ يتصل بأعضاء فريقه تليفونياً من أماكن غريبة وفي أي وقت بالنهار أو بالليل لمجرد الإبقاء على وجوده بينهم في كل الأوقات . هل عثرتم على ذلك الولد ؟ وألغى كيرتز الأجازات كما ألغى الراحة في أيام السبت وذلك من أجل الالسراع بالبحث في كل مكان . «اعثروا على الولد . لأن ذلك الولد سيوضح لنا الطريق» . وذات يوم ومن مكان ما ابتكر اسمًا كودياً لذلك الولد : يانوكا وهي كلمة آدمية تعنى : الطفل الرضيع الذي نما وكبر بعض الشيء . «احضروا لي يانوكا وأننا سأقوم بتقديم أولئك الفلاحين الأجلاف مع التنظيم كله على طبق» .
ولكنه لم يبعث بكلمة واحدة لرئيسه المباشر جافرون .

وكان رصيده كبيراً من المعاونين الخارجيين للطبيعة المنتدين للديسبورا المحبين له . وفي لندن وحدها كان ينتقل من مكان لأخر بسرعة من تجار الفنون الكبار إلى الراغبين في أن يكونوا أقطاباً في صناعة الأفلام ومن أصحاب الفنادق في الإستاند إلى تجار الملابس وتجار السيارات المشكوك في أمرهم وشركات المدينة الكبرى . كما شوهد مرات عديدة أيضاً في المسرح - وفي إحدى

(*) الديسبورا : الشتات الذي تم بعد الأسر البابلي .

المرات كان العرض في خارج المدينة - ولكن دائمًا من أجل مشاهدة نفس العرض وكان يأخذ معه دبلوماسيًا إسرائيليًّا ذا اهتمامات ثقافية رغم أنهما لم يكونا يتناقشان في النواحي الثقافية . وفي مدينة كامدين تناول الطعام مرتين في مطعم متواضع يدار بمعرفة مجموعة من الهنود . وفي مدينة فروجنال التي تقع على مساحة ميلين في الاتجاه الشمالي الغربي قام بمعاينة منزل فيكتوري قديم يسمى الأكر وأعلن أنه يتلاءم مع احتياجاته . ولكنه أوضح لأصحاب هذا المنزل إنه لن يجري تعاقبات معهم الاً بعد أن يتتأكد أن طبيعة عمله ستضطره إلى المجيء إلى ذلك المكان . فوافقوا على هذا الشرط . ووافقو على كل شيء وأشاروا إلى أنهم مبهجون لأنهم يخدمون إسرائيل حتى ولو كان ذلك يعني انتقالهم إلى منزلهم الموجود في مارلو والعيش فيه لشهور قليلة . ألم تكن لديهم شقة في القدس يستخدمونها من أجل زيارة الأصدقاء والعائلة في كل عيد من أعياد الفصح اليهودية عقبقضاء أسبوعين بين مياه وشمس إيلات ؟ وألم يكن لديهم التفكير الجاد في العيش هناك نهائياً . وأبدوا استعدادهم لتنفيذ أية مطالب يريدها كيرتز ويدون أيَّ مقابل ويدون أن ينطقوا بأيَّ كلمة أو يدلوا بأية معلومات لأيَّ شخص .

وفي السفارات والقنصليات والمفوضيات كان كيرتز يعيش التطورات التي تحدث في وطنه علاوة على معايشة التقدم الذي يحرزه شعبه في أجزاء أخرى من العالم . وأثناء الرحلات الجوية كان يطلع على الأدب الثوري الراديكالي من كافة الأنواع حيث كان صديقه الحميم الضعيف الذي كان اسمه الحقيقي : شيمون ليتفاك يحتفظ بمختارات من ذلك الأدب في حقيقته ويعرضها عليه .

وذات يوم سمع عن وجود منزل معروض للإيجار بسعر منخفض وهو المنزل رقم ١١ بشارع دزraeli . وفي سرية تامة أصدر أوامره للفريق الذي يعمل تحت رئاسته بالارتحال إلى هناك .

لقد كان المنزل رقم ١١ بمثابة فيلا عربية جميلة وهي ليست كبيرة الحجم ولكنها باردة بها شجرة ليمون في الحديقة الأمامية . وحوالى مائتى قطة حيث

كانت الموظفات تطعمها في سخاء . لذلك أصبح هذا المكان معروفا باسم «بيت القلطط» . ودعم هذا المنزل وضع العملية التي سيتم تنفيذها وهذا في حد ذاته يعتبر أمراً بالغ الأهمية من وجهة نظر كيرتز .

وفي اليوم التالي جاءت الضربة التي كان ينتظرها والتي لا يزال عاجزا عن منع حدوثها . لقد كانت ضربة رهيبة؛ إذ تم نسف شاعر إسرائيلي شاب قام بزيارة لجامعة ليدن بهولندا كان من المقرر له أن يتسلم جائزة . وتناثر جسده إلى أجزاء صغيرة أثناء تناوله طعام الإفطار من خلال طرد ملغم تم تسليمه للفندق الذي ينزل فيه في صباح عيد ميلاده الخامس والعشرين . تلقى كيرتز هذه الأنباء وهو في مكتبه . فجفل وأغلق عينيه للحظات ولكنه في خلال ساعات كان في غرفة رئيسه جافرون ، وقد حمل تحت إبطه مجموعة من الملفات علاوة على إمساكه بيده الشاغرة نسختين من خطته العملية بحيث يتسلم جافرون نسخة واحدة وتسلم لجنة القيادة التابعة لجافرون نسخة أخرى وهي اللجنة التي تضم سياسيين عصبيين وجنرالات متعطشين للقتال .

ولم يكن بالمستطاع معرفة ما دار على وجه الدقة بين الرجلين لأن كلا من كيرتز وجافرون لا يشعر بالثقة في الناس . ولكن بحلول صباح اليوم التالي نجد أن كيرتز قد حصل على ترخيص من نوع ما لأنه أصبح مسؤولاً عن قوات جديدة . واستخدم ليتفاك كوسيط له لأن ليتفاك من الصابرا الذين تدرّبوا تدريباً جيداً . وكانت هذه الأسرة التي تكونت على وجه السرعة تضم شاباً يبلغ من العمر ٢٣ عاماً ويسمى أوديد قد نشأ في نفس الكيبوتس الذي نشأ فيه ليتفاك . وكان الجد في هذه الأسرة هو رجل جورجياني عجوز يبلغ من العمر سبعين عاماً ويسمى بوجاس شويلى - شويلى على سبيل الاختصار - وكان لشويلى رأس صلعاً لامعة وكتفان مهدبان . أما بنطاله فكان من النوع الذي يرتديه المهرّج - إذ كان منخفضاً للغاية فوق الحوض وقصيرًا بالنسبة للساقي . بدأ شويلى حياته كمهرّج وكمحتال من النوع الذي يسلب أموال الناس بعد كسب ثقتهم . وهي أمور ليست غير شائعة في الأقليم الذي يقطن فيه . ولكنه تحول في منتصف حياته إلى احتراف التزييف بكل أنواعه وكان كيرتز يحب شويلى وكان عندما يتوفّر لديه وقت

فراغ في حدود عشر دقائق فإنه يصطحب شويلى إلى كافتيريا تقع عند سفح التل من أجل أن يشتري له أيس كريم مضاعف بالكاراميل ، وهو النوع المفضل لدى شويلى .

كما قام كيرتز أيضاً بتزويد شويلى باثنين من المساعدين له . ولم يكن أحد يتوقع أو يتخيل تعين هذين الشخصين كمساعدين لشويلى . وكان المساعد الأول - وهو شخص من اكتشاف ليتفاك - متخرجاً في جامعة لندن ويسمى ليون وهو إسرائيلي أمضى فترة طفولته في إنجلترا بدون أن يكون له اختيار في ذلك حيث كان والده شيخاً فضوليَا من أهالي إحدى الكيبوتسات وتم إيفاده إلى أوروبا كمندوب عن جمعية تعاونية تسويقية ، وفي لندن ظهرت على ليون بوادر الاهتمام بالأداب وأصدر مجلة وطبع رواية طويلة لم تحظ بالتقدير الكافي على الأطلاق . وأمضى ثلاث سنوات اجبارية في الجيش الإسرائيلي ، مما أدى إلى شعوره بالتعاسة والبؤس . وبعد أن انتهى من فترة التجنيد بالجيش ذهب إلى تل أبيب لكي يختبئ فيها وهناك الحق نفسه بإحدى المجالات الأسبوعية الثقافية التي تجيء وتذهب مثل الفتيات الجميلات . وبحلول الوقت الذي انهارت فيه تلك المجلة كان ليون يقوم بمفرده بتحرير كافة موضوعات المجلة . الا أنه أثناء وجوده بين شباب تل أبيب الذي تستبدل به فكرة السلام والذي يعاني من الخوف المرضي من الأماكن المغلقة فإنه عاش تجربة اليقظة الجديدة العميقه لهويته كشخص يهودي مما أدى إلى شعوره الشديد بالرغبة في تخليص إسرائيل من أعدائها سواء الذين تربصوا بها في الماضي أو الذين يكمنون لها في المستقبل .

قال كيرتز له «من الآن فصاعداً سوف تكتب من أجل أن أقرأ لك . ولن تكون لك مجموعة كبيرة من القراء ولكن عدد من يقرأون لك سوف يتزايد تدريجياً».

وكانت المس بآخر هى المساعدة الثانية لشويلى إنها سيدة أعمال هادئة الطباع من سكان ساوث بند بولاية إنديانا الأمريكية . وكان كيرتز قد انبهر بذكائهما ومهاراتها ومظهرها غير المقسم بالطبع اليهودي فقرر تجنيدها . وقام

بتدریبها على مجموعة من الخبرات والمهارات . ثم أوفدتها في نهاية الأمر إلى دمشق من أجل أن تقوم بالتدريس في مجال إعداد برامج الكمبيوتر . وبعدها وعلى مدى سنوات عديدة كانت المس بآخر الرزينة الوقورة تبعث بتقارير عن قدرات وتنظيمات أنظمة الرادار الجوية السورية . وبعد أن تم استدعاؤها أخيراً لكي تعيش كمستوطنة في الضفة الغربية فإنها عبرت صراحة عن كآبة الحياة في الضفة الغربية . ولكن عندما استدعاها كيرتز مرة أخرى شعرت أن ذلك الاستدعاء قد أنقذها من الحياة غير المريحة بالضفة الغربية .

وهكذا تكونت مجموعة شويلى + ليون + مس باخ ، وقد أطلق كيرتز على هذا الثلاثي اسم : لجنة القراءة والكتابة . وأعطى لهذه اللجنة وضعًا متميزاً في داخل نطاق جيشه الخاص الأخذ في التوسيع .

.....

وفي ميونيخ كان عمله متسمًا بالطابع الإداري . إلا أنه كان ينجذب أعماله في كياسة صامتة . وأصبح مالا يقل عن ستة أعضاء من فريقه المكون حديثاً متمرزين هنالك وشغلوا منشأتين منفصلتين تماماً في منطقتين مختلفتين تماماً بالمدينة . وكان الفريق الأول يتتألف من رجلين مخصصين للأعمال الميدانية . وكان ينبغي أن يتتألف ذلك الفريق من خمسة أعضاء ، إلا أن ميشا جافرون كان لا يزال مصمماً على كبح جماحه وعدم اطلاق العنان له ولذلك أصبح عدد الأعضاء اثنين فقط . وبعد أن تم التقاط كيرتز من مقهى بشفابينج وليس من المطار وإخفاؤه في داخل سيارة «فان» قديمة فإنهم اتجهوا به إلى القرية الأولى وإلى أحد جراجات السيارات المظلمة الموجودة تحت الأرض هناك والتي تعتبر بمثابة مأوى للسفاحين والمومسات من الجنسين . والقرية أقرب إلى قلعة مهجورة تضم مباني خرسانية رمادية اللون وتشبه مستوطنة إسرائيل أكثر مما هي تشبه أي شيء يمكن العثور عليه في بافاريا . ومن أحد الجراجات الموجودة تحت الأرض اصطحبوه لأعلى على سلالم متتسخة وعبر عدد من الروف جاردن الصغيرة إلى شقة مزدوجة كانوا قد استأجروها لفترة قصيرة على أساس أنها شبه مفروشة بالاثاث والمعدات .

اللزمه . وفي الأماكن الخارجية كانوا يتحدثون معه باللغة الانجليزية ويسمونه : «السيد» ولكن في داخل الغرف المغلقة كانوا يشيرون إلى رئيسهم باسم «مارتن» ويتكلمون معه في احترام شديد باللغة العبرية .

كانت الشقة تقع فوق سطح مبني يقع على الناصية ، مليئة بأجهزة الاضاءة الفوتوغرافية علاوة على كاميرات رائعة مرفوعة فوق حوامل ، بالإضافة إلى أدراج للشرائط وشاشات العرض . كما تضم صالة عرض تحدث خشخše إذا ساروا عليها بخطوات ثقيلة . وكانت الصالة تؤدي إلى غرفة نوم إضافية مقاس ٤ أمتار × ٥٣ متر . بها منور يؤدي إلى زاوية الانحدار بالسقف . وقد أوضحوا له أنهم قد سدوا هذا المنور ببطانية في بادئ الأمر، ثم استخدموها بعد ذلك الورق المقوى وبعدها استخدموها أخيراً كتل الألياف الحريرية . وكانت الحوائط والأرضية والسقف مبطنة باللباب مما جعل المكان شبهاً بمسكن حمير لقسيس أو صومعة رجل مجنون . كما تم تقوية الباب بالواح من الصلب المدهون بالطلاء . كما شيدوا بالباب مساحة صغيرة من الزجاج المسلح في الجزء العلوي ووضعوا لافتة مكتوباً عليها «غرفة مظلمة . ابتعد» وطلب كيرتز من أحد رجاله الدخول إلى هذه الغرفة المظلمة واغلاق الباب والصراخ بأعلى صوت . وعندما لم يسمع سوى صوت منخفض أجش في صرير فإنه أعطى موافقته على ذلك المكان .

وكان باقي الشقة مليئاً بالهواء الطلق . الا أنه كان باليه ورثاً شأنه في ذلك شأن القرية الأولبية . وفي اتجاه الشمال كانت النوافذ تطل على الطريق المؤدي إلى داخاوي . وأشاروا باليد إلى مكان قريب لكن يحددوها لكييرتز نفس المكان الذي قام فيه الفدائيون الفلسطينيون باقتحام الغرف السكنية التي يقيم فيها الرياضيون الاسرائيليون حيث قتلوا البعض على الفور واصطحبوا الباقى منهم إلى المطار الحربى وقتلوهم هناك أيضاً . وقالوا لكييرتز إن الشقة التي تقع إلى يمين شقتهم يشغلها طالب وإن الشقة الموجودة أسفل شقتهم لا يشغلها أحد حالياً لأن آخر مستأجر لها أقدم على الانتحار . وبعد أن قام كيرتز بمعاينة كافة الأماكن المحيطة

وفكرا ودرس كافة الداخل وطرق الهرب فإنه قرر استئجار الشقة السفلية أيضاً . ثم قام في نفس اليوم بالاتصال تليفونيا بمحام معين موجود في نورمبرج وأصدر له تعليماته باتخاذ إجراءات التعاقد . وكان أعضاء فريقه قد تعمدوا أن تبدو أشكالهم عقيمة ومتخبطة بل وقام أحدهم - وهو الشاب أوديد بإطلاق لحيته . وكانت جوازات السفر الخاصة بهم تفيد أنهم يحملون جنسية الأرجنتين وأن مهنتهم هي احتراف التصوير الفوتوغرافي . وفي بعض الأحيان كانوا يتطلبون من كيرتز أن يضفي على مجموعتهم الجو الطبيعي ، بحيث لا تسير حياتهم على وتيرة واحدة ولذلك كانوا يعلنون جيرانهم من وقت لآخر بأنهم سيقيمون حفلة في وقت متأخر . وكان الدليل الوحيد على الحفلة هو تصاعد صوت الموسيقى لساعات طويلة علاوة على وضع الزجاجات الفارغة في صناديق القمامات . إلا أنهم في حقيقة الأمر لم يسمحوا لأي شخص بالدخول إلى شقتهم باستثناء حامل الوثائق الذي يجيء من الفريق الآخر : لا ضيوف ولا زوار من أي نوع . ولا مجال على الإطلاق لإقامة علاقات مع النساء . حيث أخرجوا النساء من عقولهم تماماً إلى أن يعودوا إلى إسرائيل .

واصطحبوا كيرتز من أجل أن يشتروا حلقات حديدية لوضعها بالحوائط المبطنة الخاصة بالغرفة المظلمة وراحوا يتجلون في الأحياء الطلابية وتسكعوا عند مدرسة لتعليم صناعة الفخار ثم عند مدرسة لأعمال التجارة ، ثم مدرسة للسباحة إلى أن وجدوا أنفسهم من خلال قانون الجاذبية الأرضية واقفين بطريقة حتمية أمام نفس المنزل الذي شهد منذ حوالي عشر سنوات ذلك الهجوم الضارى الذى وقع على الأولاد الإسرائيليين والذى أحدث صدمة فى العالم .

وأصدر كيرتز أوامرهم لهم لدى عودتهم إلى السيارة قائلاً «عليكم ألا تنسوا ذلك على الإطلاق» . وبالطبع لم يكونوا بحاجة لأن يتم تذكيرهم بذلك .

واصطحبوا كيرتز من القرية إلى منتصف المدينة حيث تعمد كيرتز أن يخلو إلى نفسه لفترة قصيرة فراح يتجلو بدون هدف إلى أن أعطاه أولاده الذين كانوا

يرقبونه من الخلف إشارة تفيد أنه من الأفضل له أن يذهب إلى الموعد التالي المحدد له . ولم يكن هناك تباين كبير بين المكان الأخير والمكان الجديد ، وذهب كيرتز إلى الطابق العلوى من ذلك المنزل الذى له لون كعكة الزنجبيل والذى يقع فى قلب ميونيخ الحديثة ، وكان الشارع ضيقاً ومرصوفاً بالحصى وفاخراً . وكان يضم مطعماً سويسرياً علواً على صاحب مؤسسة للأزياء بدا عليه أنه لا يبيع شيئاً ومع ذلك يبدو عليه الإزدهار . وصعد كيرتز متسلقاً إلى الشقة مستخدماً سلالم الدرج المظلمة وما إن وصل إلى أعلى سلماً حتى فتح الباب أمامه ، حيث كانوا يشاهدونه وهو يسير بالشارع في اتجاههم على شاشة دائرة تليفزيونية مغلقة . ودخل إلى الشقة دون أن ينطق بكلمة واحدة . وكان هؤلاء الناس أكبر في السن من الشخصين اللذين استقبلاه في بادئ الأمر . كانوا أقرب إلى الآباء منهم إلى الأبناء . وكانت وجوههم شاحبة وممتقطعة اللون مثل وجوه من قضوا فترة طويلة في داخل السجن . حيث يختص هؤلاء ب أعمال المراقبة الثابتة . وكانت الستائر الثقيلة تتدلى على النافذة .

لذا بدا الجو بأكمله متسمًا بالكآبة والحزن . وكانت هناك مجموعة من الأجهزة الإلكترونية والبصرية متزاحمة بين أثاث غير أصيل بما في ذلك الإيريالات الهوائية الداخلية ذات التصميمات المختلفة . ولكن تحت ضوء الفسق المتلاشي زادت هياكلهم الشبحية من ذلك الجو الكئيب .

وقام كيرتز بمعانقة كل رجل في وقار . وبعدئذ وأثناء تناول البسكويت والجبنة والشاي قام ليني أكبر الرجال سناً بإعطاء كيرتز فكرة عن أسلوب حياة يانوكا : المكالمات التليفونية التي جاءت إلى يانوكا من الخارج والمكالمات التي صدرت من الداخل إلى الخارج علواً على بيان عن أحد الزائرين الذين قاموا بزيارةه وأحدث الفتياً اللاتي أجرين اتصالات معه . وكان كيرتز يحترم ليني ويصفى في اهتمام شديد لكل كلمة يقولها ليني ويوميء برأسه من وقت لآخر ويهدئه على مجهوده .

وقال ليني «إن هذا الشاب يانوكا هو شاب طبيعي . والتجار وأصدقاؤه معجبون به . فهو شخص محظوظ ولهم شعبية بين الناس ويبدو أنه يستمتع بنفسه

ويتحدث كثيراً ويميل إلى الجدية والرزانة وله اتجاهات صحية ، ثم نظر في عيني كيرتز وأضاف قائلاً «ولذلك يا مارتي فإنه من الصعب على المرء أن يصدق من وقت لآخر ذلك الجانب الآخر الموجود في ذلك الرجل . صدقني يا مارتي» .

فأكذ كيرتز ليني أنه يفهم الموقف تماماً . ثم قفز ضوء على نافذة السقف بالشقة التي تقع عبر الشارع مباشرة . ذلك الضوء الأصفر المتعامد بدون أن يكون هناك أي ضوء آخر قريب منه كان أشبه بإشارة صادرة عن عاشق . وفي صمت قام أحد رجال ليني بالسير على أطراف أصابعه بسرعة متوجه إلى تلسكوب الثنائي العينين مثبت فوق حامل خشبي بينما قام رجل آخر بالتقاط سماعة جهاز لاسلكي ووضعها على أذنه .

وقال ليني موجهاً كلامه لكيرتز «أتريد أن تلقى نظرة يا مارتي؟» وأضاف «إنني أدرك من خلال ابتسامة جوشاوا أنه يشاهد بوضوح يانوكا في هذه الليلة . ما الذي تراه الآن يا جوشاوا هل يانوكا يتهيأ للخروج في هذه الليلة؟ ومع من يتحدث هو بالتلفون حالياً؟ إنها فتاة بكل تأكيد»

فقام كيرتز بإزاحة جوشاوا في رفق على جانب ثم وضع رأسه الكبير في داخل التلسكوب الثنائي العينين . ثم ظل على هذا الوضع لفترة طويلة وقد تقوس ظهره مثل كلب البحر العجوز الذي يواجه عاصفة حيث راح يدرس يانوكا ويتأمل ذلك الطفل الذي لم يكتمل نموه .

وتتساءل ليني «أتشاهد كتبه الموجودة هناك في خلفية المنظر . إن ذلك الولد يقرأ كثيراً مثل والدي» .

فقال كيرتز أخيراً وهو يعتدل في وقوفه في بطة : «هاؤنت لديك ولد ظريف هناك . إنه ولد وسيم الشكل بكل تأكيد . و يجب عليك أن تتأكد من أنك لا ترغب في تزويجه من ابنته» . فظهر قدر من الارتباك على ليني . ولكن كيرتز أضاف قائلاً «نحن نقدم لك جزيل الشكر يا ليني» واستطرد قائلاً «عليك بمداومة التقاط الصور الفوتوغرافية ليانوكا من جميع الزوايا ، ولا تشعر بالحرج يا ليني لأن الأفلام ليست غالمة للغاية» .

ثم قام كيرتز بمصافحة جميع الرجال بالأيدي وانصرف إلى الشارع سائراً بخطوات قوية .

.....

كان المطر ينهال مدراراً في الوقت الذي التقى فيه كيرتز إلى داخل السيارة مرة أخرى ثم انطلق ثلاثة بالسيارة بين الواقع والأماكن الكئيبة من أجل تضييع الوقت إلى أن يحين موعد الطائرة التي سيستقلها كيرتز . ويبدو أن الطقس الكئيب قد ترك تأثيره على الرجال الثلاثة . وكان أوديد هو الذي يقود السيارة وقد بدا على وجهه الملتحى المفعم بالشباب دلائل الغضب المشوب بالحزن والكآبة .

وتساءل كيرتز رغم أنه كان يعرف الإجابة بكل تأكيد : « وما الذي حصل عليه الآن؟ »

فأجاب أوديد « آخر شيء حصل عليه هي سيارة فاخرة وهي سيارة أوتوماتيكية . ولم تقطع سوى خمسة آلاف كيلومتر وفقاً لمؤشر تابلوه الكيلومترية . فالسيارة تمثل نقطة الضعف الموجودة لديه » .

فردَّ الولد الثاني القابع في المقعد الخلفي بالسيارة معلقاً : « السيارات والنساء والحياة الناعمة المترفة ، ولذلك فإنني أسئل نفسى في تعجب : تُرى ما هي مواطن القوة لديه؟ » .

فوجه كيرتز سؤالاً لأوديد مرة أخرى « السيارة مستأجرة؟ »
«نعم ، مستأجرة» .

فوجه كيرتز نصائحه لكل من الولدين : «عليكم بمراقبة تلك السيارة مراقبة دقيقة . فنحن نريد أن نعرف على الفور تلك اللحظة التي يقوم فيها بإرجاع سيارته المستأجرة إلى الشركة مع عدم استئجار سيارة أخرى بدلاً منها» وكانوا قد سمعوا تلك العبارة مراراً وتكراراً إلى أن أصبحوا يشعرون بالصدم بسببها . فهما قد سمعا نفس تلك العبارة قبل أن يغادرا إسرائيل . ومع ذلك ظل كيرتز يردد

نفس هذه العبارة باستمرار : «أهم شيء هو أن نعرف الوقت الذي يقوم فيه يانوكا بتسليم سيارته»

وفجأة شعر أوديد بأنه يموج بالغيط الشديد على نحو يجعله غير قادر على السيطرة على نفسه . فربما كان - من خلال شبابه ومزاجه الشخصي - واقعاً تحت ضغوط تزيد عن تلك التي توقعها أولئك الذين اختاروه . وربما كان ينبغي تكليفه بمهمة تتطلب قدراً كبيراً من الصبر والانتظار . فتوقف السيارة فجأة عند الحاجز الحجري المتواجد عند حافة الطريق وجذب فرامل اليد بشدة .

ثم تساءل في غضب : - لماذا ندعه ينجز هذا الأمر ؟

ولماذا نقوم باللعب معه ومحاورته ومداورته ؟ وماذا سنفعل لو أنه عاد إلى وطنه ولم يخرج من وطنه مرة أخرى ؟ عندئذ ماذا ؟ «

عندئذ ستفقدك

- اذن علينا أن نقتله الآن ! في هذه الليلة ! اصدر لى الأوامر لكى أقتله .
وتركه كيرتز يتكلم فى حماس واحتياج وهذيان . واستطرد أوديد قائلاً :
نحن قد حصلنا على الشقة المقابلة التى تواجه شقته . أليس كذلك ؟ ولذلك ينبغي
عليها أن نطلق صاروخاً عبر الشارع . ولقد سبق لنا أن فعلنا ذلك من قبل .
واستمر كيرتز فى الالتزام بالصمت .

فقال أوديد مكرراً بصوت مرتفع : اذن لماذا لا نقتله بالصاروخ ؟
ولم يفقد كيرتز صبره ، وقال له فى هدوء : لأنه لا يقودنا إلى أى مكان يا
أوديد . وذلك هو السبب ، وربما أنت لم تسمع بنفسك الكلام الذى سبق أن قاله
رئيسنا ميشا جافرون .

لقد قال عبارة مازالت تتردد فى رأسى مثل الصدى : إذا أردت أن
تصطاد أسدًا فعليك أولاً أن تربط المغزة فى حبل يُشد إلى وتد ويطول الحبل
للغاية لكي ترعى وهي مقيدة . وهل معنى كلامك هذا أنك تريد أن تخبرنى بأنك
ترغب فى ضرب يانوكا ؟

إنه هو الذى نفذ عملية بادنسبرج وهو الذى قام بعملية فيينا . وربما هو
الذى قام بعملية ليدن أيضاً إن اليهود يتعرضون للموت يا مارتى ! فهل إسرائيل

لم تعد تهتم بهذه الأمور في هذه الأيام ؟ فكم من الناس سيتعرضون للموت بينما نحن نقوم بالمحاورة والمداورة واللعبة ؟ »

فأمسك كيرتز بباقية جاكيتا أوديد بيديه الكبيرتين وهزه مرتين . وفي المرة الثانية ارتطمت رأس أوديد بالنافذة ولكن كيرتز لم يعتذر له كما أن أوديد لم يظهر تبرماً أو ضيقاً .

وقال كيرتز محذراً في هذه المرة : إنهم هم يا أوديد إنهم هم وليس هو يا أوديد وأضاف : لقد نفنا عملية بادنسبرج . ونفنا عملية ليدين . ولذلك فنحن نهدف إلى استخراجهم بالإمساك بهم . فنحن لا نهدف أساساً إلى الإمساك بستة من أرباب البيوت الألمان الأبريةاء علاوة على الإمساك بولد واحد صغير سخيف » .
فقال أوديد وقد احمر وجهه بسبب الارتكاب « وهو كذلك ، دعني وشأنى » .

فقال كيرتز : يانوكا له أصدقاء وله أقارب . ونحن لم نعرف حتى الآن أصدقاءه وأقاربه . فهل أنت ت يريد أن تنفذ هذه العملية نيابة عنى ؟ «
– لقد سبق أن قلت : وهو كذلك .

رفع كيرتز قبضة يده عن أوديد . وقام أوديد بتشغيل موتور السيارة مرة أخرى . واقتصر كيرتز أن يستأنفوا جولتهم الرامية إلى التعرف على أسلوب حياة يانوكا . لذلك اتجهوا إلى الشارع الذي يوجد به الملهى الليلي المفضل لدى يانوكا ، وإلى الحانوت الذي اشتري منه يانوكا قمحصاته وأربطة عنقه وإلى الحلاق الذي قص له شعره وإلى المكتبات اليسارية التي اشتري منها الكتب . وأخيراً انتهت الجولة . ووقف كيرتز على الرصيف ثم راح يربت على كتف أوديد في ود ومحبة كاملة . وجرى بيده بين شعره .

وقال : استمعا إلى أنتما الاثنان . لا تبخلا على نفسكما . وتناولوا وجبة شهية في أحد المطاعم الفاخرة على حسابي الشخصي . أوكي ؟ «
وكانت نغمة صوته مثل نغمة صوت قائد يتكلم في حبّ مع جنوده قبل الدخول في معركة .

وسافر كيرتز بالطائرة ليلاً من ميونيخ إلى برلين . جلس بجوار النافذة ، وراح يحملق في ظلام الليل . في مكان ما بين طيات هذا الظلام كان يوجد خط السكة الحديد الذي أحضر قطار البضائع في رحلته البطيئة قادماً من الشرق . وفي مكان ما بين طيات هذا الظلام توجد ألواح الجدران الخارجية لمبنى خشبي حيث توقف القطار على مدى خمس ليالٍ وستة أيام تحت جو الشتاء القاتل من أجل إفساح الطريق لنقل القوات العسكرية التي تحظى بالأهمية والأولوية بينما كيرتز ووالدته بالإضافة إلى ١٨٠ آخرين من اليهود كانوا محشورين ومكشسين في إحدى العربات بداخل قطار البضائع وكانوا يأكلون الثلج والصقيع إلى أن مات معظمهم . وراحت أمه تؤكّد له : لسوف يكون المعسكر التالي أفضل حالاً بهدف رفع معنوياته . وفي مكان ما بين طيات هذا الظلام أصيبت والدته بالانهيار التام في نهاية الأمر ولفظت أنفاسها الأخيرة . وفي مكان ما بين طيات هذا الظلام فإن الضباط السوديتي الذي هو كيرتز نفسه قد تعرض للهلاك جوعاً وتعرض للسرقة والقتل أثناء انتظاره لأن يعثر عليه عالم معادٍ آخر . وشاهد معسكر الاستقبال التابع للحلفاء وشاهد الذي العسكري الرسمي غير المألف وشاهد أوجه أطفال دبت فيها الشيوخة مثل وجهه تماماً . معطف جديد وحذاء جديد وأسلك شانكة جديدة - وهروب جديد . وهو هروب في هذه المرة من منقذيه . وشاهد نفسه في الحقول مرة أخرى متسللاً في اتجاه الجنوب من مزرعة إلى قرية على مدى أسابيع لا نهاية إلى أن أصبحت الليالي في نهاية الأمر متسمة بالدفء وملينة بغير الأزهار ثم سمع لأول مرة في حياته حفيظ أشجار النخيل الذي تنقله رياح فوق البحر . وهمسوا في أذنه قائلين : استمع اليانا أيها الولد الصغير المتجمد بسبب البرد . هذا هو الوضع الذي نبدو عليه في إسرائيل . وهذه هي زرقة البحر التي تبدو هنا في كل مكان . وشاهد البآخرة المتهاكلة وهي واقفة بجوار رصيف الميناء . إنها أكبر وأنبل باخرة شاهدها في حياته . أنها سوداء للغاية مع وجود رؤوس اليهود الذين صعدوا إلى ظهرها حتى أنه عندما صعد إلى ظهر تلك السفينة فإنه سرق قلنسوة طويلة مخروطية الشكل ووضعها على رأسه إلى أن

تركت الباخرة الميناء . الاً انهم كانوا بحاجة إلية سواء أكان شعره أشقر أو أسمراً أو بدون شعر على الإطلاق . وعلى ظهر الباخرة تم تجميع الناس في مجموعات صغيرة وراح القادة يعطون دروساً تتعلق بكيفية استخدام البنادق المسروقة التي هي ماركة «لي أنفيلد» . وكانت حيفا مازالت تقع على مسافة إبحار لمدة يومين . ومنذ ذلك الحين كانت الحرب بالنسبة لكيرتز قد بدأت توا .

وكانت الطائرة تحوم في الجو وتدور من أجل أن تهبط . وشعر كيرتز بالطائرة وهي تميل على جانب كما شاهدها وهي تعبير فوق سور برلين . ولم يكن معه سوى حقيقة اليه الاً أن الامن كان مشدداً بسبب وجود الارهابيين ولذلك استغرقت الاجراءات بالمطار وقتاً أطول .

.....
وكان شيمون ليتفاك متظراً في داخل سيارة فورد متهاكلة واقفة في المكان المخصص لوقف السيارات بالمطار . وكان قد جاء بالطائرة من هولندا بعد أن أمضى يومين هناك من أجل المأذق الذي حدث في ليدن . وكان يشعر - شأنه في ذلك شأن كيرتز أنه ليس لديه الحق في أن ينام .

وقال بمجرد أن صعد كيرتز إلى داخل السيارة : لقد تم تسليم الكتاب الملغوم بمعرفة فتاة . هي فتاة جميلة سمراء اللون وترتدي بنطلوناً من نوع «الجينز» . وقد افترض بباب الفندق أنها تنتهي للجامعة . وأقنع نفسه أنها قد جاءت راكبة دراجة وغادرت بالدراجة أيضاً . ولكنني لا أصدق أقواله تماماً . وهناك شخص ما آخر يقول إنها قد أحضرت إلى الفندق فوق دراجة بخارية . وإن الطرد كان مربوطاً بشريط . والشريط به بطاقة مكتوب عليها «عيد ميلاد سعيد يا مردخاي» اذن كانت هناك خطة ووسيلة للنقل وقنبلة وفتاة . فهل هناك معلومات جديدة؟

- وما هو نوع القنبلة؟

- من النوع البلاستيك الروسي . ولم يتختلف عنها سوى قطع صغيرة من الأغلفة والأربطة . ولا شيء يمكن اقتداء أثره .

- ألا توجد أى علامة؟

- قطعة اضافية من سلك أحمر خاص بدائرة مغلقة . وعلى شكل دمية .

فنظر إليه كيرتز في حدة .

فقال ليتفاك معتبراً : لا يوجد أى سلك اضافي . لا يوجد سوى أجزاء متقدمة . ولا يوجد أى سلك يمكن التعرف على نوعه .

فتتسائل كيرتز : «ولا يوجد أى ملقط للفسيل؟

- لقد فضل في هذه المرة استخدام مصيدة الفئران . مصيدة فئران منزلية صغيرة » ثم أدار موتور السيارة .

قال كيرتز : إنه يستخدم أيضاً مصائد الفئران .

- لقد استخدم مصائد الفئران وملقط الفسيل والبطانيات البدوية القديمة وأنواع المتفجرات التي يتذرع اقتداء أثراها واستخدم الساعات الرخيصة ذات العقرب الواحد واستخدم الفتنيات الرخيصات . وهو أحقر صانع للقنابل بدون استثناء .

واستطرد ليتفاك متسائلاً : ما هي الفترة التي منحها لك؟
فتفظاهر كيرتز بأنه لا يفهم معنى السؤال، وقال : منحها لي أنا؟ من الذي منحني؟

- أقصد ما هي مدة الترخيص الرسمي المنوح لك لإنجاز هذه المهمة؟
هل المدة شهر؟ أم شهرين؟

- وما هي طبيعة الاتفاق؟

إلا أن كيرتز لم يكن يميل دائماً إلى الالتزام بالدقة في إجاباته . فقال: إن الاتفاق هو أن عدداً كبيراً من الناس في إسرائيل يفضلون محاربة العدو الوهمي في لبنان على أن يقاتلوا العدو براء وسهم .

- وهل باستطاعة جافرون روك أن يصدّهم؟ وهل باستطاعتك أنت أن تصدّهم؟

فاللزم كيرتز بالصمت والهدوء وفضل لি�تفاك عدم اثارته . وفي وسط مدينة برلين الغربية لا يوجد ظلام أبداً في أطراف المدينة فلا توجد أضواء . وكانا آنذا يتوجهان نحو الضوء .

وقال لি�تفاك فجأة : لقد قدمت لجادي مجاملات كبيرة . ثم نظر إلى استاذه نظرة جانبية . وأضاف : فها أنت تجيئ إلى مدینته على هذا النحو . فهذه الرحلة التي تقوم بها لكى تقابله هي شيء أقرب إلى الاجلال والتقدیر

فقال كيرتز : إنها ليست مدینته . إنه قد استعار هذه المدينة . فهو أمامه حرفة يتعلمها وأمامه حياة جديدة يعيشها . وذلك هو السبب الوحيد فى وجود جادى في برلين .

- وهل باستطاعته أن يتحمل العيش بين مثل هؤلاء الدهماء والغوغاء؟ وحتى لو كان ذلك من أجل بناء مستقبل جديد له ؟ وهل باستطاعته بعد أن عاش بالقدس أن يجيئ إلى هنا ؟

ولم يقدم كيرتز اجابة مباشرة على السؤال . كما أن لি�تفاك لم يتوقع منه أن يجيب بإجابة مباشرة . وقال كيرتز : إن جادى قد قدم اسهاماته . يا شيمون . فلا أحد قدم اسهامات أفضل منه وفقاً لقدراته الخاصة فهو قد حارب في استماتة في الأماكن الصعبة التي كانت تقع خلف الخطوط . فلماذا لا ينبغي عليه أن يسعى لإعادة بناء نفسه من جديد ؟ إنه يستعد للعيش في هدوء وسلام .

ولكن لি�تفاك لم يكن مصدرياً على أن يترك معاركه بدون نتيجة حاسمة . فقال : إذن لماذا تسبب الازعاج لحياته الجديدة ؟ لماذا تحىي من جديد الأمور التي انتهت ؟ وإذا كان هو بقصد البدء في حياة جديدة فإنه ينبغي عليك أن تتركه وشأنه لكى يبني حياته الجديدة .

فقال كيرتز : لأنه بمثابة الوسيط أو الكوبرى .

فاستدار لি�تفاك بسرعة نحوه من أجل الحصول على المزيد من التوضيحات ولكن الظلال كانت واقعة على وجه كيرتز . واستطرد كيرتز قائلاً : ولأنه يفكر ويتدبر الأمور .

ومرا بالسيارة بجوار الكنيسة التذكارية ثم عادا إلى السكون والصمت الذي تتسم به الأماكن المظلمة التي تقع عند مشارف المدينة .

وتساءل كيرتز مبتسمًا : وما هو الاسم الذي يستخدمه هذه الأيام . قل لي
ماذا يسمى نفسه ؟

فقال ليتفاك في اقتضاب : بيكر . فظهرت دلائل الاحتياط على وجه كيرتز
وقال بيكر : ما هذا الاسم بحق الجحيم ؟ جادى بيكر
ـ وهو في نفس الوقت من جماعة الصابرا ؟

فقال ليتفاك بدون مزاح . إن ذلك الاسم هو بمثابة الترجمة الألمانية
للترجمة العربية لاسمه . فهو قد ارتد بناء على رغبة مستخدميه ورؤسائه في
العمل . فهو لم يعد إسرائيلي وإنما مجرد شخص يهودي .

وظل كيرتز محتفظاً بابتسامته وقال : هل لديه أية سيدات معه يا سيمون ؟
وماذا عن النساء بالنسبة له في هذه الأيام ؟
ـ انه يقضى ليلة هنا وليلة هناك . ولا توجد فتاة يمكنه أن يقول عنها أنها
صديقه الخاصة به .

فترافق كيرتز في جلسته في مزيد من الارتياح وقال : - إذن ربما هو
يكون بحاجة للارتباط . وبعدئذ يرجع إلى زوجته الجميلة فرانكى التي تقيم في
القدس .

ويعد أن دخلا بالسيارة في شارع جانبي قدر وحقيق فإنهما توقفا قبل أن
 يصلا إلى منزل متداعٍ مكون من ثلاثة طوابق . وكان لهذا المنزل مدخل من النوع
الذي له أعمدة وقد تمكن على نحو ما من البقاء على قيد الحياة عقب انتهاء الحرب
وعلى أحد جانبي المدخل يوجد حانوت للأقمشة مضاء بالنيون يعرض مجموعات
متعددة من فساتين النساء ذات الألوان الباهتة . وفوق الحانوت لافتة مكتوب عليها
«لتجارة الجملة فقط» .

وراح ليتفاک يرقب کيرتز وهو يعبر الشارع بسرعة كما شاهده وهو يسير بسرعة على الرصيف ثم يتوقف عند المدخل المتهالك . كما رأى ذراعه النحيل وهو يرتفع إلى الجرس ، ثم ينفتح الباب بعد لحظة واحدة كأن هناك شخصاً ينتظر خلف الباب . ثم شاهد کيرتز وهو يثبت قدميه ويختض من كتفيه لكي يعانق رجلاً أكثر نحافة وشاهد ذراعي المضيف وهما تلتفان حول کيرتز في تحية رشيقه متسمة بالطابع العسكري . ثم أغلق الباب وأصبح کيرتز في داخل الشقة .

وبعدئذ قاد ليتفاک السيارة في بطاء عائداً إلى وسط المدينة وراح يحملق في كل شيء يقابلها في طريقه مظهاً حقده وغیرته : فبرلين هي مكان للكراهية بالنسبة له . وهي عدو موروث في جميع الأزمنة . برلين التي نشأ منها الرعب في تلك الأزمنة وحتى الآن . لقد اتجه إلى «بنسيون» رخيص لا يمكن لأحد أن يتمكن فيه من خلود إلى النوم والراحة بما في ذلك هو نفسه . وفي الساعة السابعة إلاّ خمس دقائق عاد إلى الشارع الجانبي الذي ترك فيه کيرتز، وضغط على الجرس وانتظر ثم سمع أصوات أقدام شخص واحد يسير في بطاء . وفتح الباب وخرج کيرتز إلى هواء الصباح وراح يتمطئ . وكان غير حليق الذقن وكان غير مرتد لرباط عنقه .

تساءل ليتفاک بمجرد أن أصبحا في داخل السيارة : حسناً ؟

- حسناً ماذا ؟

- ما الذي قاله هو ؟ هل هو سيقوم بالعملية أم أنه يرغب في الاقامة في هدوء وسلام في برلين ويتعلم صناعة الملابس من أجل حفنة من سكان المعسكرات البولنديين ؟

فقال کيرتز : يقوم بالعملية ؟ إنه ضابط إسرائيلي يا شيمون . ثم ابتسם في بهجة شديدة واستطرد قائلاً : - أعترف لك أن جادى في بادئ الأمر أشار إلى أنه يفضل أن يدرس تجارتة وحرفته الجديدة من نواحيها العديدة . لذلك تحدثنا عن المهمة الناجحة التي قام بها عبر قناة السويس في عام ١٩٦٣ . وبعدئذ

قال لي إن الخطة لن تنجح . لذلك ناقشنا بالتفصيل المتابع التي تواجه العيش تحت غطاء في طرابلس والإبقاء على شبكة من المرتزقة والعملاء الليبيين هناك - وهو أمر سبق أن قام به جادى لمدة ثلاثة سنوات . وبعده قال لي :

- يمكن لك أن تستعين برجل أصغر سنًا . ثم استعدنا الذكريات عن الغارات الليلية العديدة التي شنها على الأردن والأعمال الحربية التي تمت ضد الفدائين . وفي نهاية الأمر قمنا بمناقشة الاستراتيجية .

وماذا أيضاً ؟ وماذا عن التشابه ؟ هل التشابه يكفي ؟ وماذا عن طوله وجهه ؟

فقال كيرتز : التشابه بدرجة كافية . ونحن نعتمد على التشابه . التشابه موجود بدرجة كافية . والآن اتركه وشأنه يا شيمون . وإنما فأنت ستجعلني أحبه حبًا جمًا .

وبعده تخلى عن الوقار والرزانة وانفجر في ضحكات متواصلة إلى أن أصبحت دموع الارتياح والتعب تنهمر مدراراً على خديه . فضحك ليتفاك أيضاً، ومع الضحك أحس بمشاعر الحقد في داخله وهي تتوارى وتختفى . وهذه التقلبات الفجائية المزاجية المجنونة كانت محفورة بعمق في طبيعة ليتفاك، حيث كانت عوامل عديدة متناقضة تلعب دورها . إن اسمه يعني أساساً : يهودي من ليتوانيا وهو كان ذات يوم شخصاً ازدريائياً يحط من قدر الآخرين . فكيف كان يرى نفسه؟ لقد كان ينظر إلى نفسه ذات يوم على أنه شاب كيبيوتزي يتيم يبلغ من العمر ٢٤ عاماً وبدون أن يكون له أي شخص قريب له متبقى على قيد الحياة . وفي مرة أخرى كان يرى نفسه على أنه طفل بالتبني لمؤسسة أمريكية أرثونوكسية وللقوات الخاصة الاسرائيلية . وفي مناسبة أخرى كان يرى في نفسه أنه رجل الشرطة الذي بعثت به العناية الإلهية لكي ينطفف العالم من الأدран والجرائم .

..

وكان يعزف على البيانو بمهارة فائقة .
فيما يتعلق بالاختطاف فإن الأمر لا يتطلب الكثير من الكلام والتوجيهات .

فالفريق الذى له تجارب سابقة ينجز مثل هذه الأمور التى تتعلق بالاختطاف بسرعة كبيرة فى هذه الأيام بل ويطريقة تقاد تكون طقوسية شعائرية . فالاختطاف لا يشتمل على إطلاق الرصاص أو غير ذلك من الأمور غير السارة . والأمر فى هذه المرة كان مجرد الاستيلاء السريع المباشر على سيارة واحدة مرسيدس لها لون أحمر نبيذى والاستيلاء على الشخص الموجود بها (سائقها) على مسافة حوالى (٢٠) ثالثين كيلو متراً على الجانب اليونانى من الحدود التركية/اليونانية . وكان ليتفاك هو قائد الفريق الميدانى وهو دائمًا ما كان متوفقاً وممتازاً في إنجاز الأعمال الميدانية . وكان كيرتز قد عاد إلى لندن مرة أخرى من أجل إيجاد حل لأزمة طارئة كانت قد تفجرت في لجنة شوبلى للقراءة والكتابة . ولذلك فإنه جلس طوال الساعات الحرجة بجوار التليفون في السفارة الاسرائيلية بلندن . فبعد أن قام الولادان اللذان هما من ميونخ بتقديم تقرير عن إعادة السيارة المستأجرة بدون استبدالها بسيارة أخرى فإنهم تتبعا يانوكا إلى المطار . ولذلك لم يسمع أى شخص أية معلومات عنه إلا بعد مرور ثلاثة أيام عقب ظهوره في بيروت وذلك عندما قام طاقم التصنت الذي يعمل من قبو تحت الأرض في الحى الفلسطينى بالتقاط صوته المبتوج وهو يقول «مرحباً» لأخته فاطمة التي تعمل في أحد المكاتب الثورية . أخبر أخته أنه سيوجد في بيروت لمدة أسبوعين من أجل زيارته أصدقائه . وسألها عما إذا كان لديها وقت فراغ في الفترة المسائية . وأشارت التقارير إلى أنه كان يبدو سعيداً للغاية . بدت فاطمة هادئة باردة . وجاء في التقارير أنها ربما تكون غير راضية عمّا يقوم به من أعمال أو ربما أنها كانت تدرك أنه يتم التنصت على المكالمات التليفونية . وربما السببان معاً . وعلى كل حال فإن الأخ والأخت لم يتمكنا من اللقاء سوياً .

وتمت مشاهدته مرة أخرى عندما وصل بطريق الجو إلى استانبول ونزل في فندق هيلتون بجواز سفر ببلوماسى قبرصى وأسلم نفسه للمباحث الدينية والعلمانية بالمدينة على مدى يومين . ووصفه الذين يرقبونه بأنه يحصل على جرعة كبيرة أخيرة من الإسلام قبل أن يعود إلى العادات المبتذلة المسيحية الموجودة في

أوربا . إذ قام بزيارة مسجد سليمان المعظم حيث شوهد وهو يصلّى أكثر من ثلاثة مرات .

وجلس في حدائق ميدان السلطان أحمد على أريكة بين الأزهار البرتقالية والبنفسجية وراح يحملق في سعادة وينظر إلى القباب والماذن التي تحدد الإطار الخارجي للمكان . واشتري سلidesات وبطاقات سياحية ملونة من الباعة الجائلين بدون أن يهتم بالأسعار العالية للغاية . ونظر في دهشة كبيرة إلى الأعمدة الهائلة التي نقلت على طول المسافة من بعلبك بلبنان .

ولم يخرج يانوكا من أجل السهر بالمدينة في تلك الليلة - ولا حتى من أجل مشاهدة الرقص الشرقي الذي يعود عليه بالبهجة في الليلة السابقة . ولم يشاهد بعد ذلك إلا في الصباح الباكر من اليوم التالي حيث انطلق في اتجاه الغرب إلى الطريق الذي يؤدي إلى السهل في اتجاه ادرين، وإيسالا وفي بداية النهار كان الجو بارداً ومليناً بالضباب . فتوقف في مدينة صغيرة لكي يتناول القهوة وقام بتصوير طائر اللقلق الموجود فوق قبة أحد المساجد، وتسلق ربوة وراح يستمتع بمشاهدة البحر . وبدأ الدفء ينتشر في الجو وتحولت التلال الكثيبة إلى اللون الأحمر والأصفر وجرى البحر بينهما في اتجاه اليسار . وعلى طريق مثل هذا فإن أولئك الذين يقتدون أثره اضطروا لتبعدوا من خلال انطلاق سيارة واحدة أمامه وانطلاق سيارة أخرى خلفه . وعندما وصل إلى إيسالا فإنه فضل اتخاذ الطريق الفرعى المؤدى إلى إيسالا بدلاً من الاستمرار في الانطلاق نحو الحدود . فهل كان بقصد تسليم سيارته هناك ؟ وما الذي كان يريد من مدينة تركية صغيرة للغاية واقعة على الحدود ؟ .

لقد كان يرغب في التقرب إلى الله . اذ دخل إلى مسجد غير مشهور موجود بالميدان الرئيسي بالمدينة . وراح يتقرب إلى الله في صلوات عديدة متواصلة .

وبعد ذلك عاد إلى الطريق الرئيسي . ووصل إلى مكان يقع بين نقطة الحدود التركية ونقطة حرس الحدود اليونانية . وهو مكان لا يخص أحداً ويبلغ

طوله حوالي عشرين ياردة وهنا اشتري يانوكا لنفسه زجاجة من الفودكا وتتناول آيس كريم في المقهي بينما كان يرقبه الولد ذو الوجه الحالم والشعر الطويل والذى يسمى ريوفين والذى ظل يتناول الكعك المحلي بالسكر على مدى الساعات الثلاث الأخيرة . وكان آخر تفاخر تركى يتمثل في التمثال النصفى الضخم البرونزى لمصطفى كمال أتاتورك الذى كان يطل على السهول اليونانية المعادية . وب مجرد أن تخطى يانوكا هذا التمثال النصفى حتى وتب ريوفين على الموتوسيكل الخاص به ويعث بإشارة لاسلكية للسيد/ليتفاك الذى كان ينتظر على مسافة ٣٠ كيلو متراً في داخل الأراضى اليونانية - ولكن خارج المنطقة العسكرية - عند نقطة تتخفض فيها سرعة السيارات بحيث تصبح مماثلة لسرعة الإنسان الذى يمشى على قدميه وذلك بسبب الأعمال الإنسانية بالطريق . وبعدئذ أسرع لكى يلحق بهذا اللهو .

ولقد استخدمو فتاة تتمشى مع شهية يانوكا حيث اختاروا فتاة جميلة سمراء اللون ووضعوها عند نهاية الأشغال التي تم على الطريق . وكانت أشغال الطريق هذه بمثابة صدفة سعيدة أو منحة من الله .

لقد كانت توجد أولاً المادة الأسفلتية ويليها قطع الزلط والحصباء وبعد ذلك يوجد السلم الخشبي الذى توجد به أصوات تقييد بأن السرعة لا ينبغي أن تزيد على عشرة كيلو مترات في الساعة . وبعدئذ توجد الفتاة عند الجانب الآخر من السلم . الخشبي حيث تمشى فى تثاقل على الجزء المخصص للمشاة . وقالوا لها : استمرى فى السير على ذلك النحو وارفعى أصبع الابهام فى يدك اليسرى . وكان الفريق يضم سبعة أفراد بما فى ذلك شيمون ليتفاك والفتاة التي تستخدم لإيقاع يانوكا فى المصيدة . أما الخمسة الآخرون فكانوا أولاداً يرتدون ملابس صيفية خفيفة وأحذية سباق .

كان الوقت قد أصبح فى منتصف النهار حيث صارت الشمس عالية فى السماء وصار الهواء مليئاً بالتراب . وكانت باقى السيارات على الطريق تتالق من شاحنات رمادية محملة بالجير أو الصلصال .

وكانت السيارة المرسيدس الحمراء محصورة بين هذه الشاحنات وعندما تخطت السيارة المرسيدس الفتاة فإن كل شخص قد شاهد يانوكا وهو يستدير برأسه لكي يرى ما إذا كان وجه الفتاة ممتعاً مثل جسدها . وعندما تأكد له ذلك أوقف سيارته وأنزل زجاج نافذته ذاتياً وأطل برأسه من النافذة وشاهد الفتاة وهي تسير نحوه . ثم أنزلت الفتاة الجيتار وحقيقة الظهر وكانت تحملهما فوق ظهرها وألقت بهما في ارتياح على الأرض . وذهب ليتفاكر في تقديراته أن هذه الحركة من شأنها أن ترغم يانوكا على عمل شيئاً : إما أن يفتح لها الباب الخلفي من الداخل آلياً وهذا يعني في نفس الوقت فتح جميع الأبواب الأخرى بالسيارة آلياً وإما أن يخرج من السيارة ويفتح لها الباب من الخارج . وهو في كلا الحالتين سيعرض للهجوم .

وبدلأً من أن يفتح باباً واحداً بطريقة يدوية فإنه شغل جهاز الفتح الذاتي مما أدى إلى فتح جميع الأبواب الأربع . وقامت الفتاة بفتح الباب الخلفي القريب منها وظلت واقفة بالخارج ثم راحت تدفع حقيقة سفرها والجيتار إلى المبعد الخلفي . وعندما أغلقت الباب الخلفي وبدأت تتجه إلى الأمام وكانتها تلف لكي تركب في المبعد المجاور لمبعد السائق كان أحد الرجال قد صوب مسدساً إلى صدر يانوكا بينما قام ليتفاكر بالركوع في داخل المبعد الخلفي والامساك برأس يانوكا من الخلف بقوة شديدة، ثم وضع المخدر على أنف يانوكا . وهو مخدر يتلاعم مع الحالة الصحية ليانوكا : إذ روّعى ألاً يتعارض المخدر مع حالة الربو الذي كان يعاني منها يانوكا عندما كان في سن المراهقة .

والشيء الذي أذهل كل شخص فيما بعد هو أن تلك العملية قد تمت بدون حدوث أية أصوات على الإطلاق . وبينما كان ليتفاكر ينتظر لحين أن يبدأ سريان مفعول المخدر فإنه سمع صوت انكسار نظارة يانوكا، وفي اللحظات الأولى خشي أن يكون ذلك الصوت ناجماً عن انكسار رقبة يانوكا مما يؤدي إلى تدمير كل شيء: وفي بادئ الأمر اعتقدوا أن يانوكا ربما يكون قد تخلص من اللوحات ذات الأرقام والأوراق الزائفة الخاصة به وذلك تحت قمصانه الحريرية الأنثوية وأربطة عنقه

الباهرة . وقد استولوا على كل تلك الأوراق لاستخدامها لتحقيق الأغراض الخاصة بهم وكانت تلك الأوراق موجودة مع ساعته الذهبية الجميلة ومع التعويذة المغلفة بطبقة من الذهب والتى يحب يانوكا أن يرتديها باعتبارها هدية من أخته المحبوبة فاطمة .

وكان من السهل اختطاف السيارة والاتجاه بها غرباً ثم الاتجاه بها جنوباً بدون أية مشاكل على الإطلاق .

ومع إبعاد يانوكا مؤقتاً عن المجتمع فإنهم حرصوا على ألا يلحظ أحد في بيروت أو في أي مكان آخر حدوث هذه الثغرة أو الانقطاع فى تسلسل الأحداث . وكانوا يدركون بالفعل أنه إنسان له طبيعته المستقلة وإنه يميل إلى إثارة الإعجاب به من خلال اتخاذ الإجراءات غير المنطقية حيث كان مشهوراً بتغيير خططه ما بين لحظة وأخرى وذلك بسبب نزواته أو بسبب اعتقاده بأن ذلك من شأنه أن يربك أية مجموعة من الناس تقوم بتتبعه ومراقبته .

الفصل الثالث

لقد تعرف كل من يوسف وشارلى على بعضهما البعض رسمياً في جزيرة ميكونوس على بلاج يضم فندقين صغيرين خلال مأدبة غداء تمت في النصف الثاني من شهر أغسطس وذلك أثناء الوقت الذي تصل فيه حرارة الشمس الإغريقية إلى أقصى شراستها وعنفوانها . أو تم ذلك - وفقاً للتاريخ الواسع - بعد مرور أربعة أسابيع على قيام الطائرات النفاثة الإسرائيلية بـ إلقاء القنابل على الحى الفلسطينى المزدحم بالسكان بيروت . وهو الهجوم الجوى الذى قالت عنه إسرائيل إنه بمثابة جهود مكثفة تهدف إلى تحطيم القيادة الفلسطينية رغم أنه لم يكن هناك أية قادة فلسطينيين بين مئات القتلى الذين لقوا حتفهم اللهم إلا إذا اعتبرنا أن القتلى هم قادة المستقبل حيث كان معظم القتلى من الأطفال .

وقال شخص ما في اثارة : «ان تشارلى تقول مرحباً ليوسف» .

إلا أن كلاً منهما قد تصرف وكأن اللقاء بينهما لم يتم ، اذ ظهر التجمّه الثورى على وجهها كما أنه ألقى عليها نظرة تقييم هادئة تخلو من الظموج .

ولقد لاحظت تشارلى أنه معتمد على تلك الطريقة العسكرية الخاصة بزم شفتىه قبل أن يتكلم مباشرة . وكان صوته المتسم بلكلمة أجنبية به شئ من البرود والاعتدال المثبط للهمة . وكانت مدركة للأمور التي يخفيها أكثر مما هي مدركة للأمور التي قالها . ومن ثم كان سلوكه نحوها هو أسلوب من يرقب التواحي العدوانية .

وكان اسمها الحقيقي شارميان الا أنها كانت معروفة لكل شخص باسم «شارلى» . وغالباً ما كانت تعرف باسم «شارلى الحمراء» وذلك مراعاة للون شعرها الأحمر وموافقها الراديكالية المخبولة بعض الشئ والتى كانت تعبر عن

أسلوبها ازاء الاهتمام بالعالم وما يدور فيه من انتهاكات للعدالة . لقد كانت هي بمثابة الانسانة الدخيلة أو اللامتنمية ضمن مجموعة صاحبة محبة للهو والقصف من الممثين الشبان البريطانيين الذين كانوا ينامون في بيت ريفي متداع في احدى المزارع التي تقع على مسافة نصف ميل إلى الداخل ويهبطون إلى الشاطئ على هيئة أسرة متربطة شعثاء لا تنفك أواصرها أبداً . أما كيفية وصولهم إلى البيت الريفي في بادئ الأمر - وكيفية وصولهم إلى الجزيرة أساساً فكان ذلك بمثابة معجزة بالنسبة لهم جميعاً رغم أنهم من حيث هم ممثلون لا يندهشون من حلوث المعجزات . وكانت هناك شركة غنية بالمدينة ترعاهم وتهتم بتمويل المسرح المتجول الخاص بهم . وبعد أن انتهت هذه الفرقة التي تتالف من ستة أعضاء من جولاتها في المحافظات والأقاليم فإن أعضاعها لم يندهشوا عندما اتخذت الشركة قراراً بمنحهم فترة استجمام وترويح عن النفس على حسابها . وقامت سفينة بنقلهم إلى هناك ووجدوا كل الترحيب في المنزل الريفي .

ولم تكن تشارلى هي أجمل فتاة في المجموعة بأي حال من الأحوال رغم أن جاذبيتها الجنسية كانت واضحة للغاية وكانت تشارلى تتميز أيضاً بالنوايا الطيبة التي لا تتوارى أبداً وراء موقفها العقلى أو المزاجى . أما لوسى فكانت باهرة ورائعة الجمال في حين كانت تشارلى تتسم بالبساطة بعض الشئ : ولها أنف طويل قوى ولها وجه طيفي يبدو في احدى اللحظات طفولياً وفي اللحظة التالية يبدو عجوزاً وحزيناً للغاية . وهي في بعض الأحيان كانت بمثابة القبيطة الخاصة بهم وأحياناً أخرى بمثابة الأم أو الإنسانة التي تحصى النقود وتضع البلاستر على الأقدام المجرورة . وهي من وقت لآخر كانت بمثابة الضمير الخاص بهم حيث تقوم بتوجيه اللوم والتأنيب فيما يتعلق بالمغالاة في الوطنية أو الشوفينية أو فيما يتعلق بالجنس أو اللامبالاة الغريبة . وكانت الطبقة التي تنتمي إليها تشارلى هي التي أعطتها الحق في القيام بهذه الأعمال : فهي قد تلقت تعليماً خاصاً وهي ابنة سمسار في الأسهم المالية ولو أن والدتها السمسار قد أنهى أيامه بالدخول في السجن بسبب قيامه بنهب أموال الزبائن من خلال الفسق والاحتياط .

وهي في نهاية الأمر كانت زعيمتهم بدون منازع . وعندما يحل المساء وتعكف الأسرة على تمثيل بعض المسرحيات الدرامية الصغيرة أمام البعض فإن تشارلى هي التي كانت تؤدي الدور التمثيلي على نحو أفضل من الجميع . وإذا قرروا أن يغنو بعضهم البعض فإن تشارلى كانت هي أفضل من يعزف لهم على الجيتار على نحو يتلاءم مع أصواتهم . كما أن تشارلى هي التي تعرف الأغاني الشعبية الملائمة بالبكاء والأشجان والاحتجاجات وكانت تؤدي تلك الأغاني في أسلوب رجالي مليء بمشاعر الغضب . وفي بعض الأوقات الأخرى كانوا ينهمكون سويا في مشاورات ومناقشات متوجهة ويقومون بتدخين المرجوانا ويحتسون خمور الرتسينا التي تباع بسعر ٣٠ دراخمة لكل نصف لتر .

لقد كانوا يحبونها ما في ذلك شك وكانت هي تبادلهم حبا بحب .

الآن يوسف - وهو الاسم الذي اطلقوه عليه لم يكن أحد أفراد أسرتهم على الاطلاق . بل وحتى لم يكن - مثل تشارلى - بمثابة جماعة صغيرة منشقة تتألف من فرد واحد . كان لدى يوسف ما يسمى بالاكتفاء الذاتي وهو نوع من الشجاعة في حد ذاته من وجهة نظر النفوس الضعيفة . فهو كان بدون أصدقاء ومع ذلك لا يشتكي ولا يتذمر . إنه الشخص الأجنبي الغريب الذي لا يحتاج لأى شخص . وكل ما يحتاجه هو مجرد فوطة وكتاب وزجاجة مياه معدنية والحفرة الصغيرة الخاصة به في الرمال التي تشبه الحفرة التي يحتمي فيها الجندي من نيران العدو . وكانت تشارلى هي وحدها التي تدرك أنه شبح .

.....

وأول رؤية محلية شاهدته فيها قد تمت في الصباح عقب شجارها الكبير مع الاستير وهو الشجار الذي انهزمت فيه بالضربة القاضية . اذ كان يوجد في مكان ما في داخل كيان تشارلى نوع من الخنوع والخضوع الذي يجذبها على نحو تقديرى إلى المتنمرين أو المستآسيدين أو حماة العاهرات . وكان حامى العاهرة بالنسبة لها في ذلك اليوم هو رجل اسكتلندي يبلغ طوله ستة أقدام

ويعرف للعائلة باسم «آل الطويل» الذي كان يلجاً للتهديدات ويقتبس اقتباساً غير سليم عن الفوضوى باكونين وهو - مثل تشارلى - كان له شعر أحمر وعينان زرقاوان . وعندما خرجا من الماء سوياً في جسديهما اللامعين كانوا يشبهان شخصين من جنس بشرى آخر يختلف عن أي شخص آخر حولهما وعندما انطلق فجأة في اتجاه المنزل الريفي وقد تماست يداهما ويبدون أن يتحدثا مع أي شخص أدرك الجميع أنهما يموحان بالرغبة الشبيهة بالألم . وبعد ذلك زحفت تشارلى إلى ركن بالدور العلوى لكي تعالج جراحها . وانطلقت في الساعة السادسة تماماً في الصباح لكي تأخذ حماماً منفرداً وبعدئذ سلمت إلى المدينة لكي تشتري جريدة صادرة باللغة الانجليزية وتتناول طعام الافطار وبينما كانت تشتري نسخة من جريدة «الهيرالد تريبيون» ظهر الشبح : حالة واضحة لظاهرة روحية خارقة للطبيعة .

إنه الرجل الذي يرتدى ستراً فضفاضة حمراً . وكان واقفاً خلفها مباشرة في تلك اللحظة حيث يختار لنفسه كتاباً ورقي الغلاف يحرص على تجاهلها . ولم يكن مرتدية السترة الفضفاضة الحمراً في هذه المرة وإنما يرتدى قميصاً وينطلاً قصيراً وصندلاً . إنه نفس الرجل بدون أي شك . نفس الشعر الأسود الذي تم قصه ليكون قصيراً مع وجود خصلة من الشعر عند منتصف الجبهة . ونفس العينين الدمثتين اللطيفتين البنيتين التي سبق أن حملتها فيها مثل فانوس مظلم من الصف الأمامي بمسرح بارى في نوتنجهام علي مدى نصف يوم : خلال حفلة الماتينيه أولاً وبعدئذ خلال الحفلة المسائية بحيث انصبت عيناه على تشارلى فقط مع تتبع كل حركة تقوم بها . وهو وجه - من وجهة نظر تشارلى - كان يعبر عن حقيقة واحدة قوية ودائمة وذلك على النقيض من الأقنعة العديدة التي يرتديها أي ممثل .

كانت تشارلى تمثل دور القديسة جان دارك وتتكاد أن يجن جنونها بشأن توفين ولذلك فهي لم تتبه لوجوده وجلوسه بين أطفال المدارس إلا في اللوحة الأخيرة . ولو لم تكن الإضاعة ضعيفة على ما تمكنت من مشاهدته . وكانت قد

ظلت في بادئ الأمر أنه مدرس وبعد أن غادر الأطفال المسرح ظل جالساً في مكانه يقرأ شيئاً اعتقدت أنه نص المسرحية أو ربما المقدمة الخاصة بالمسرحية . وعندما رفع الستار مرة أخرى من أجل تقديم العرض المسائي كان لا يزال في مكانه بينما بینما نظراته الهادئة غير المتسمة بآية ريد للفعل منصبة عليها تماماً مثلاً كان الحال من قبل وعندما أُسدل الستار النهائي فانها استعادت من ذلك ، لأن هذا يعني إبعاده عنها .

ويعود مرور أيام قليلة ، وبعد أن كانت قد نسيته فإنها كان بمقدورها أن تقسم أنها شاهدته في «يورك» مرة أخرى ولكنها لم تكن متأكدة تماماً حيث بدت الأضاعة على خشب المسرح قوية للغاية ، مما جعلها لا تتمكن من اختراق السديم الضبابي . كما أنه لم يظل جالساً في مكانه بين العرض الأول والعرض الثاني . ومع كل ذلك فإنها مستعدة أن تقسم بأن الوجه كان هو نفس الوجه . وكان الوجه سابحاً في نشوة ومنصباً عليها هذا بالإضافة إلى ارتدائه نفس السترة الفضفاضة الحمراء اللون . أكان ناقداً ؟ أكان متوجاً ؟ أكان مندوياً ؟ أكان مخرجاً للأفلام السينمائية ؟ أكان هو مندوب عن شركة المدينة التي قامت بتقديم الرعاية لفرقة المسرحية نيابة عن مجلس الفنون ؟ وهي عندما شاهدته في المرة الثالثة - أو ظلت أنها شاهدته - قبل أن تقوم بجازتها مباشرة وفي نفس الليلة الأخيرة من جولتهم حيث كان واقفاً عند الباب الخاص بمسرح «إيست إندر» الصغير راودتها فكرة أن تسير نحوه مباشرة وتسأله صراحةً عن طبيعة وظيفته وعما إذا كان شخصاً مولعاً بالجنس أو مولعاً بالحصول على التوقيع في الأتوغراف الخاصة به . إلا أن مظهره المتسم بالأخلاق الحميدة منعها من الإقدام على هذه الخطوة .

ولذلك فإن مشاهدته الآن - واقفاً على مسافة ياردة واحدة منها وقد بدا عليه وكأنه غير مدرك لوجودها حيث يتأمل في الكتب بنفس الاهتمام الذي أبداه منذ أيام قليلة - جعلها تتعرض لحالة من الاهتمام العصبي غير العادي . فاستدارت نحوه . والتقت بنظراته غير المرتبكة . وراحت تحملق فيه في مزيد من

التفرس . و مما ساعدتها على ذلك أنها كانت ترتدي نظارتها السوداء حيث ارتدتها من أجل إخفاء الكدمة المحتقنة الموجودة في وجهها . وبعد أن شاهدته عن كثب شديد أدركت أنه أكبر سنًا مما كانت تخيل بل وأكثر نحافة وتميزا . وأعادت تشارلى جريدة «الهيرالد تريبيون» إلى مكانها وتقهقرت إلى حانة تطل على مياه البحر .

وبينما كانت ترفع فنجان القهوة بيد مرتعشة إلى فمها قالت لنفسها : إننى مجنونة . إننى أقوم بتلقي كل شئ . إنه بمثابة الدوبلير أو الشبيه الخاص به . وما كان ينبغي على أن أبتلع ذلك القرص اللعين الذى يثير النشوة والسعادة والذى أعطته لوسى لى لرفع حالي المعنوية عقب قيام يلونج آل أو آل الطويل بضربي . كانت قد قرأت فى مكان ما أن الإحساس بأنها قد رأت شيئاً ما لتوه يكون نتيجة حدوث ثغرة فى الاتصالات ما بين الذهن والعين . ولكنها عندما حملقت على طول الطريق فى الاتجاه الذى جاءت منه ، فإنها رأته جالساً هناك ، ومحسوساً للبصر وللذهن على حد سواء حيث يجلس فى الحانة التالية مرتدياً طاقية جولف بيضاء اللون وكانت الطاقية منحدرة للأمام بشدة لكي تلقى بالظلل على عينيه بينما كان يقرأ كتابه الانجليزى الورقى الغلاف : «محادثات مع الليندى بقلم ديراي» كانت قد فكرت فى شراء ذلك الكتاب بنفسها بالأمس فقط .

وقالت لنفسها وهى تمر فى مرح أمامه لكي تظهر أنها محصنة : انه قد جاء لكي يستعيد السيطرة على روحي . ولكن هل سبق لي أن وعدته أنه يمكن أن يحصل على روحي ومتى تم ذلك ؟

.....

وفي نفس فترة ما بعد الظهر ، اتخذ مكاناً له على البلاج على مسافة لا تزيد على ٦٠ ياردة من مخيم العائلة . وكان يرتدي بنطلاً من النوع القصير الاسود المحتشم الذى يرتديه الرهبان ممسكاً بزجاجة مياه معدنية يرتشف منها من وقت لآخر رشفات قليلة بطريقة اقتصادية وكأن الواحة التالية تقع على مسيرة

يوم . ولم يكن يرقب أحداً على الإطلاق ولا يعطي أدنى اهتمام بأى شئ . لا شيء سوى الانهك فى قراءة كتابه الذى هو من تأليف ديرارى حيث يقرأ من تحت حافة الطاقية البيضاء التى يرتديها . ومع ذلك كانت تدرك أنه يتابع كل حركة تقوم بها . ورغم البلجاجات العديدة الموجودة فى ميكونوس فإنه اختار البلاج الذى توجد به مجموعتهم . ومن بين كافة الأماكن الموجودة فى بلاتهم اختار ذلك الموقع المرتفع فوق الكثبان الرملية حيث يمكن له مشاهدتها بوضوح سواء أثناء قيامها بالسباحة أو إحضار زجاجة رتستينا أخرى من أجل «آل» . فهو من خنقه المرتفع يمكنه أن يسد النيران إليها بكل حرية بينما لم يكن بمقدورها أن تفعل شيئاً إزاء ذلك . وإذا أقدمت على إبلاغ لونج آل فإنها ستعرض نفسها للسخرية والاستهزاء ، وهى لم يكن لديها القدرة الفرصة الذهبية لكي يصب احتراره على خيالاتها .

لذلك فهى لم تقل أى كلام ولم تفعل أى شئ . وهو أيضاً لم يفعل أى شئ إلا أنها كانت تدرك أنه في حالة انتظار وكانت تحس أنه يحصى وبعد الساعات فى صبر . بل وحتى عندما كان يستلقى كالميت كان يحدث تغييراً غامضاً يصدر كالوميض عن جسده اللون الرشيق البنى اللون ، وينتقل إليها عبر الشمس . وفي بعض الأحيان كان التوتر يتفجر في داخل كيانه على ما يبدو ، وعندئذ كان يقفز ناهضاً على قدميه فجأة ويخلع قبعته وينزل في وقار من فوق ربوته متوجهة إلى الماء مثل أحد أفراد قبيلة يسيرة بدون أن يكون ممسكاً برمح ، ثم يغوص في الماء بدون احداث صوت ، بحيث لا يكاد يحدث أى تموج على سطح الماء . وعندئذ كانت تنتظر وتقول لنفسها : إنه قد غرق بكل تأكيد . ولكن بعد أن تيأس تماماً من مشاهدته مرة أخرى ، يظهر مرة أخرى على سطح الماء على مسافة بعيدة عبر الخليج سابحاً في انطلاق ومثابرة كما لو كان الأمر يستلزم منه أن يقطع أمياً عديدة بينما رأسه الأسود المقصوص الشعر يلمع مثل رأس عجل البحر . وكانت هناك زوارق بخارية تنطلق بسرعة هنا وهناك إلا أنه كان يتتجاهلها تماماً . وكانت هناك فتيات جميلات إلا أن رأسه لم يلتفت نحوهن على الإطلاق وبعد أن ينتهي من

السباحة يمارس تمارينات رياضية في بطة قبل أن يرتدي طاقية الجولف مرة أخرى ويستعد لاستئناف القراءة في كتاب «الليندي» بقلم ديراري .

وساءلت نفسها في تعجب لترى من الذي يمتلكه ؟ ومن الذي يكتب له التوجيهات ويصدر له التعليمات ؟ لقد كان معملا خشبة المسرح من أجلها مثما كانت هي معملا خشبة المسرح من أجله في إنجلترا . أنه عضو في فرقة مسرحية مثها تماما . ومع تلك الشمس الحارقة التي ترتعد ما بين السماء والرمال فإنه بمقدورها أن تشاهد جسده التواق الناضج على مدى دقائق متواصلة مستخدمة جسده كهدف أمام تأملاتها المستفزة المثارة وراحت تفك : أنت بالنسبة لي مثما أنا بالنسبة لك وهؤلاء الأطفال لا يفهمون تلك الحقيقة . ولكن عندما حل موعد تناول وجبة الغداء وبدأوا يسيرون الواحد تلو الآخر مارين بجواره في اتجاههم نحو الحانة شعرت تشارلي بالضيق والحنق عندما شاهدت لوسي تفصل ذراعها عن ذراع روبرت وتلوح في اتجاهه بتلويحة موسمية وتطوح رديفيها إلى الوراء في إثارة .

قالت لوسي بصوت مرتفع : أليس عجياً وأسطوريًا . أنتى على استعداد لأن تتناول معه الطعام في أي يوم .

فقالت ويلي بصوت مرتفع : وأنا أيضاً أليس كذلك يا بولى ولكنه تجاهلهم . وفي فترة ما بعد الظهر أقتادها «آل» إلى المنزل الريفي حيث مارسا حباً وحشياً غير مقسم بالمحبة . وعندما عادا إلى البلاج في الفترات الأولى من المساء اكتشفت أنه قد انصرف فشعرت بالتعاسة لأنها كانت غير وفية وغير مخلصة للرجل السرى الغامض الخاص بها . وسأله نفسها في تعجب عما إذا كان ينبغي عليها أن تمشط الأماكن الليلية بحثاً عنه . ونظراً لأنها لم تتمكن من العثور عليه بالنهار فإنها اعتقدت أنه من النوع الذى يزداد نشاطه فى الليل .

.....

فى صباح اليوم التالى لم تذهب الى البلاج . ففى الليلة السابقة كانت قوة تركيزها على الرغبة الجنسية قد أدخلت عليها المتعة والتسلية فى بادئ الأمر ، ثم سببت لها المخاوف فقررت أن تحطم تلك الرغبة . وبينما هي راقدة بجوار الكلمة الضخمة لـ «آل» النائمة تخيلت نفسها فى حالة من الممارسة القوية للحب مع شخص ما لم يسبق لها التكلم معه والدخول معه فى كافة الأنواع الابتكارية ثم التخلص من «آل» نهائياً والهروب مع ذلك الشخص الجديد الى الأبد . وفي سن ١٦ سنة كان مثل هذا الجمود الماجن والاستهثار الجنونى أمراً مسماحاً به أما فى سن ٢٦ عاماً فهو أمر غير لائق . ولكن فكرة التخلص من «آل» كانت شيئاً آخر ، ينبغي أن يحدث ذلك عاجلاً وليس آجلاً كما أن مطاردة ذلك الشاب المرتدى لطاقية الجولف البيضاء كان أمراً حتى ولو تم التعقب خلال أجازة فى ميكونوس . لذلك كررت نفس الروتين الذى اتبعته بالأمس . ولكنه في هذه المرة لم يظهر خلفها فى حانوت بيع الكتب بل لم يتناول القهوة فى المقهى المجاورة للحانة التى تجلس فيها مما سبب لها الكثير من مشاعر الإحباط . بل إنها عندما ذهبت الى محلات التى تقع بجوار المياه لم يظهر انعكاسه على الفاترينتس الى جوار انعكاساتها على النحو الذى كانت تأمل فيه . وبعد أن لحقت بالأسرة فى الحانة لدى حلول موعد تناول الغداء ، علمت أنهم قد أطلقوا عليه - أثناء غيابها - اسم : يوسف .

ولم يكن فى ذلك شيء من الغرابة . فالأسرة قد أعطت أسماءً لكل شخص استرعى انتباها وهى أسماء عادة ما تكون مأخوذة عن المسرحيات أو الأفلام . وكانت الأخلاقيات تقضى باستخدام الاسم طالما أنه حظى بموافقة جماعية من الأسرة . حيث سبق لهم أن أطلقوا اسم أوفيليا على ربة بيت جبلية من فرانكفورت لأنها كانت ترتدي طاقية بها ورود حمراء . لقد أعطوه اسم يوسف فى هذه المرة لأسباب عديدة منها : ملامحه السامية والمطف المخطط المتعدد الألوان الذى كان يرتديه على بنطاله الأسود أثناء سيره ، تركه للبلاغ الخاص بهم . كما أطلقوا عليه اسم يوسف أيضاً بسبب تحفظه وفتوره ازاء زملائه الآدميين علامة على ظهوره بمظهر الشخص المختار مما يلحق الضرر بالآخرين غير المفضلين . يوسف

المحترر من جانب إخوته والذى اتخد مكاناً بعيداً لكي ينفرد مع كتابه ومع زجاجة المياه المعدنية الخاصة به .

ونظرت تشارلى فى تجهم وهى جالسة فى مكانها عند المنضدة بسبب تزايد معرفتهم بالسر الخاص بها . وأستير الذى كان يشعر بالأخطار والتهديدات بمجرد أن يتم امتداح أى شخص بدون الحصول على موافقة ومبركة شخصية منه على ذلك المديح بدأ يملأ كأسه من الأبريق الخاص بروبرت .

وقال فى وقاية : ذلك الولد يوسف . إنه لوطنى كريه الرائحة تماما مثل ويلى وبولى إنه يطوف بحثا عن الأعداء . وذلك هو ما يفعله ويقوم به . كم أود أن أسحق وجهه . ولسوف أسحقه .

ولكن تشارلى كانت قد بدأت اليوم وبدأت تشعر بالضيق الشديد من أستير فى ذلك اليوم ، وبدأت تشعر بالسأم من كونها عبدة لجسده الفاشستى ، وكونها أما له فى نفس الوقت . وكان استياوتها المتزايد من أستير يتصارع مع شعورها بعقدة الذنب إزاء يوسف .

وقالت تشارلى فى وحشية وهى تستدير نحوه فى غضب : إذا كان لوطنيا ، فلماذا يطوف بحثا عن الأعداء أيها الرجل المغفل العبيط ؟ وأضافت يوجد بلاجان لعينان . وهو يمكن له أن يلتقط نصف دستة من ملكات الجمال اليونانيات مثلا يمكن لك .

فقام أستير بصفتها على وجهها فى عنف مما جعل وجهها يكتسب اللون الأبيض فى باى الأمر ثم اللون القرمزى .

واستمرت تخميناتهم فى فترة ما بعد الظهر . إن يوسف من النوع الذى يشبع رغبته الجنسية من خلال النظر الى الممارسات الجنسية . إنه من النوع الذى يطوف خلسة بحثا عن فريسة . إنه لاعب رياضى لامع ومرموق . باهر ولافت للأنظار . سفاح أحمق . فنان . إنه عضو فى حزب المحافظين البريطانى . الا أنهم كالمعتاد تركوا لأستير مهمة تحديد الصفات . فقال بصوت لعين : إنه إنسان أحمق وعبيط .

الا أن يوسف نفسه كان غافلاً عن هذه الإهانات وهو ما كانت ترحب فيه تشارلى . وفي منتصف فترة ما بعد الظهر. توصلوا إلى رأى آخر - وذلك بدون أن تشاركهم تشارلى فى ذلك الرأى أيضاً - وهو أنه إنسان فاتر وهادئ الأعصاب ، وكان ذلك هو أكبر قدر من المديح يمكن أن يتوصلا إليه .

وقال آستير في تفكير « انه بارد وهادئ الأعصاب وأناأشعر بالارتياح نحوه» وراح يملس على ظهر لوسي الناعم متوجهاً بيده الي أسفل الى أن يصل الى شريط المايوه البكينى ثم يرتفع بيده الى أعلى مراراً وتكراراً وأضاف قائلاً :
- لو أنه كان امرأة لكتت قد عرفت على وجه الدقة ، ماذا ينبغي أن أفعل معه . أليس كذلك يا لوسي ؟

وفي اللحظة التالية هبت لوسي واقفة . فأصبحت الانسانة الوحيدة التي تقف معتدلة القامة على ذلك البلاج المتلائى بالحرارة والضياء ، قالت وهي تخلع رداء البحر : من الذى يقول انتى لا أستطيع أن أجذبها ؟ »

والآن كانت لوسي شقراء وعريضة الردين ومثيرة ومغرية مثل التفاحة بل متخصصة فى تمثيل دور الجرسونات اللاتى يعملن فى البارات، ودور المؤسسات ، الا أن التخصص الشديد الذى تمثله هو القيام بدور الفتيات تحت سن العشرين وما يعتمل فى داخلهن من الشبق المرضى الجنسى . وبذلك كان بمقدورها أن تجذب أى شخص بمجرد أن تلقى عليه نظرة من رموش عينيها . وقامت بربط رداء البحر الخاص بها تحت ثدييها ثم التقطت ابريق خمور وكأسا من البلاستيك وراحت تتهدى فى تثاقل عبر سفح الربوة الرملية وهى ممسكة بالابريق فى يدها مثل الهة اغريقية متجسدة فى هوليوود . ثم ركعت الى جواره على ركبة واحدة وراحت تصب الخمور من مسافة عالية جاعلة رداعها ينفتح أثناء قيامها بهذه الحركة . وبينما كانت تقدم له الكأس قررت أن تتكلم معه باللغة الفرنسية أو تتكلم معه بأكبر قدر تعرفه من اللغة الفرنسية ؟

وتسائلت لوسي بالفرنسية : هل تحب ؟

لم يجد يوسف أى اهتمام بوجودها الى جواره . ثم قلب صفحة فى الكتاب وبعدئذ شاهد ظلها ثم انقلب على جانبه وراح يتفحصها بعينيه السوداويين من تحت حافة طاقية الجولف الخاصة به وأخذ منها الكأس وشرب نخبها فى وقار بينما راح زملاؤها الموجويون على مسافة عشرين يارد يصفقون بأيديهم ابتهاجاً ويزمرون مثل أعضاء مجلس العموم معبرين عن رضائهم وموافقاتهم السخيفة .

قال يوسف موجهاً كلامه للوسى وكأنما يقرأ خريطة : من المؤكد أنك هيرا وهذا فقط ظهر الاكتشاف الدرامي : لقد كان لديه هذه الندبات الغائرة !

لم تستطع لوسى أن تتمالك نفسها . وكان أشد الندبات ترويعاً هو ثقب في حجم قطعة النقود التي هي من فئة الخمسة بنصات وشبيه بذلك الورق اللاصق الشبيه بثقب الرصاصات الذي يوجد لدى بولي وويلي . إلا أن هذا الثقب كان موجوداً في الجانب الأيسر من المعدة . ولم يكن بمقدور المرء مشاهدة ذلك الثقب من على مسافة ولكنها عندما لمسته بيدها شعرت أنه ناعماً للغاية وصلباً

وردت لوسى في غموض «وأنت يوسف» بدون أن تعرف من تكون هيرا هذه .

ويتجدد التصفيق الحاد بينما أستير يرفع كأسه عالياً ، ويقول : «في صحتك يا يوسف ! يا مستر يوسف يا سيدي . ولينعم مرافقك بالقوة . ألق بالرمال على وجه أخوانك الحاذدين» .

ثم صاح روبرت قائلاً : «تعال - الينا وانضم الينا يامستر يوسف !» ، لكن تشارلى أمرته في غضب أن يكف عن هذا الكلام .

لم ينضم يوسف إليهم . ورفع كأسه نحوهم وظننت تشارلى أنه يرفع كأسه تحيية لها بصفة خاصة . وبعدئذ عاد إلى القراءة كالمعتاد . إنه لم يزجرهم ولم يوبخهم ولم يفعل أى شيء زائد عن الحد أو أقل من الحد وفقاً لما قالته لوسى . ثم تدحرج على بطنه وعندئذ تأكّد لوسى أن الثقب ناجم عن رصاصة حيث توجد ندبة الخروج على ظهره . وراحت لوسى تحملق في مزيد من التفحص فأدركت

أنها لا تشاهد جرحًا واحدًا وإنما ترى مجموعات من الجراح : فهناك جراح تركت ندبات غائرة على طول الأجزاء السفلية من المرفق علاوة على وجود جزر خالية من الشعر ولها بشرة غير طبيعية منتشرة على العضلات ذات الرأسين الموجودة في مؤخر الفخذ . فقالت لنفسها ربما قام شخص ما بتعذيبه على ذلك النحو ؟ ومكثت معه لوسى لبعض الوقت متظاهرة بأنها تقرأ في كتابه من فوق كتفه أثناء قيامه بقلب الصفحات الواحدة تلو الأخرى إلا أنها في الحقيقة كانت ترعب في التلميس على عموده الفقرى . لأنه - بغض النظر عن أنه مليء بالندبات الغائرة - مليء بالشعر المنحسر إلى الداخل بين شق العضلات وذلك هو النوع المفضل لديها من الأعمدة الفقرية . لم تفعل ذلك لأنها - كما أوضحت لشارلى فيما بعد - إذا لمسته مرة واحدة لم تكن واثقة من أنه يمكن لمسه ثانية . قالت لوسى إنها ساعدت نفسها في تعجب وفي موجة فجائية من التواضع عما إذا كان ينبغي عليها أن تطرق على بابه أولاً على الأقل . وهذه عبارة قد استقرت فيما بعد في ذهن تشارلى . وكانت لوسى قد فكرت في إفراغ زجاجة الماء الخاصة به من أجل أن تملأها بالخمور ولكنه عندئذ لم يقم باحتساء الخمر على نحو حقيقي ولذلك فهو ربما كان يفضل الماء على الخمر ؟ وفي نهاية الأمر وضعت لوسى الإبريق على رأسها . ودارت على قدم واحدة في بطء مثل راقصة الباليه . واتجهت عائدة إلى العائلة حيث قامت بتقديم تقريرها وهي متقطعة الأنفاس ولاهثة قبل أن تستلقى نائمة في حجر شخص ما . لقد نظر إلى يوسف على أنه أكثر بروداً وتحفظاً مما كانوا يتصورون .

.

وحدثت مفاجأة بعد ظهر اليوم التالي . لقد أصبح من المقرر أن يترك «لونج آل» العائلة . إذ أرسل وكيل أعماله برقية تعتبر معجزة في حد ذاتها . وحتى ذلك الحين هناك افتراض عام بأن وكيله غير مدرك لهذه الوسيلة من الاتصال الباهظة التكاليف إذ جاءت البرقية إلى المنزل الريفي على موت وسيكل لامبريتا في الساعة

العاشرة في ذلك الصباح . ثم أحضرت البرقية إلى البلاج بمعرفة كل من : ويلي وبولي اللتين خلدا إلى النوم في ساعة متأخرة من الليل . وجاء بالبرقية عبارة «هناك احتمال بإسناد البطولة إليك في أحد الأفلام» وكان ذلك أمراً عظيماً في داخل نطاق العائلة ، لأن أستير لم يكن لديه سوى طموح واحد هو القيام بدور البطولة في الأفلام الضخمة التي يتكلف إنتاجها مبالغ باهظة . وفي كل مرة ترفضه فيها صناعة السينما يقول : «إنني قوى للغاية بحيث لا يمكنهم أن يتحملوا قوتي». ولذلك عندما وصلت البرقية ابتهجوا جميعاً من أجل أستير . ولكنهم في السر كانوا يشعرون بسعادة أكثر من أجل أنفسهم وذلك لأن عنده واستخدامه للعنف قد بدأ يثير ضيقهم واسمهمازهم منه . وكانوا يشعرون بالضيق منه بسبب استخدامه العنف مع تشارلي التي أصبحت مصابة بخدمات سوداء وزرقاء ناجمة عن هجومه عليها مما جعلهم يخافون من وجودهم على هذه الجزيرة . وكانت تشارلي هي الوحيدة التي شعرت بالانزعاج من احتمال رحيله وإن كان حزنها كان موجهاً بصفة رئيسية إلى ذاتها . لقد ظلت على مدى أيام - شأنها في ذلك شأن الآخرين - ترغب في أن يخرج أستير من حياتها إلى الأبد . ولكن ما إن تمت الاستجابة لصلواتها عقب وصول البرقية حتى اجتاحتها مشاعر عقدة الذنب والخوف إزاء رؤيتها انتهاء مرحلة أخرى من مراحل حياتها .

واقتادت العائلة «لونج آل» إلى مكتب شرطة الطيران الأولمبية الموجود بالمدينة بمجرد أن فتح أبوابه مرة أخرى عقب انتهاء فترة القيلولة من أجل تسفيهه في أمان على الطائرة التي تغادر في صباح اليوم التالي متوجهة إلى أثينا . لقد ذهبت تشارلي أيضاً مع العائلة إلا أنها كانت شاحبة اللون وممتدة الوجه ومصابة بالدوار والدوخة وظللت تضم يديها إلى صدرها في إحكام وكأنها تتجمد من البرد .

توقعات تشارلي عدم وجود مقاعد شاغرة . ولكنها كانت مخطئة في توقعاتها ، إذ اتضح أنه يوجد مقعد من أجل لونج آل . وهو مقعد محجوز بالتكلس من لندن منذ ثلاثة أيام وتم التأكيد على حجزه بالأمسى . ولقد أزال هذا الحجز

كل ما كان متبقياً لديهم من شكوك . إن لونج آل كان ينطلق كالصاروخ نحو السعادة . إذ لم يحدث مثل هذا الأمر لأى واحد منهم من قبل على إطلاق .

وقال أستير لأفراد العائلة أثناء انتظارهم الأتوبوس لكي يعود بهم إلى البلاج : «إن هذا الوكيل يريد أن يحصل على السمسرة . ولكن لن أسمح لأى إنسان طفيلي لعين بأن يحصل مني على نسبة ١٠٪ طوال الفترات المتبقية من حياتي» .

ثم جلسوا في الحانة المطلة على البلاج حيث تصدر لونج آل المنضدة لكي يسيطر على انتباهم كانت تلك هي اللحظة التي أدركوا فيها أنه قد فقد جواز سفره ومحفظه وبطاقة بنك باركليز وتذكرة السفر بالطائرة الخاصة به .

وحدثت مشادة بين أستير وشارلى . وقام أستير بإمساكها من معصمها ولوى ذراعها في اتجاه كتفها مع توجيه السباب واللعنات إليها . وصرخت شارلى في ألم وامتعاض . وقال لها :

– لقد قلت لك أن تضعي هذه الأشياء في حقيبة العينة . ألم أقل لك ذلك أيتها البقرة الصغيرة الغبية لقد كانت هذه الأشياء ملقاة عند مكتب التذاكر ، وأنا قلت لك :

التقطى هذه الأشياء وضعيها في حقيبة الكتف الخاصة بك يا شارلى لأن الأولاد هنا من أمثال ويلي وبولى لا يحملون حقائب يد يا عزيزتي . هل هم يحملون حقائب يد يا عزيزتي ؟

إذن الى أين ذهبت ووضعت هذه الأشياء . أين أخفيت هذه الأشياء أيتها الفتاة ؟ لا توجد هناك أية وسيلة لعينة لمنع رجل من الذهاب إلى قدره ومصيره ! صدقيني ! لا توجد هناك وسيلة لإيقاف شوفينية رجل يغالى في الإحساس بحب الوطن .

ومع ذروة احتدام الكلام والصراع جاء يوسف . ودخل في هدوء من جهة

البلاج دون أن يشعر به أحد وأحسوا بوجوده ووقوفه فجأة عندم . كان مرتدية معطفه المليء بالألوان العديدة بينما طاقية الجولف الخاصة به مائلة إلى الأمام . وكان يحمل في يده جواز سفر ومحفظة الستير وتذكرة الطيران الخاصة بالستير . وكان على ما يبدو قد التقط كل هذه الأشياء من الرمال عند سلالم الحانة . ثم راح يرقب المشهد الدائر بين الحبيبين المتقاتلين . وظل متظرا للحظات لكي ينتبهوا إليه جميعا . ثم وضع كل هذه الأشياء التي عثر عليها على المنضدة الواحدة تلو الأخرى . وساد الصمت المطبق في الحانة . ولا شيء سوى الصوت الخفيف الذي ينجم عن القاء الأشياء الواحدة تلو الأخرى على المنضدة . ثم تكلم أخيراً بصوت منخفض :

- معدنة . خطر بذهني أن شخصا ما بقصد أن يفقد تلك الأشياء في القريب العاجل أعتقد أن المرء ينبغي عليه أن يواجه الحياة بدون هذه الأشياء . ولكنني أخشى أن تكون مواجهة الحياة بدون هذه الأشياء صعبة بالفعل إلى حد ما .

وحتى تلك الآونة لم يكن أحد قد سمع صوته باستثناء لوسى . وظهرت الدهشة البالغة ثم انفجر الجميع في ضحكات مدوية وانهالت عبارات الشكر والتقدير على يوسف . وتوسلوا إليه لكي يجلس معهم . وتردد بعض الشيء . وزاد اصرارهم . وراح يتفحصهم جميعاً بنظراته . ووقع نظره على تشارلى . وابتعد خطوات قليلة . ولكنه عاد إلى تشارلى مرة أخرى . لقد وافق أن يجلس معهم . ظهرت على وجهه ابتسامة . قال : « حسنا . اذا كنتم تصررون على ذلك » . فأظهروا له حماسهم وإصرارهم . وقامت لوسى بمعانقته واحتضانه على أساس أنها صديقة قديمة له . وواجه كل شخص بالعائلة نظراته المسددة المباشرة إلى أن جاء الدور على عيني تشارلى الزرقاوين فأصبحتا في مواجهة عيني يوسف البنيتين . وأصبح الارتباك الفاضل لدى تشارلى في مواجهة ربطة الجأش والهدوء التام لدى يوسف . وإن كانت هي وحدها التي كانت تدرك أن ذلك الهدوء بمثابة قناع مثبت فوق أفكار أخرى ويدفعها أخرى .

وقال في هدوء لشارلى «حسنا . يا تشارلى . مرحبا . كيف حالك ؟» ثم
قاما بمصافحة بعضهما البعض بالأيدي . ثم استطرد قائلا : كنت أعتقد أن
شارلى هو اسم ولد ؟

فقالت تشارلى «حسنا . إننى فتاة» وانفجر الجميع بما فى ذلك تشارلى
في الضحك .

وعلى مدى الأيام القليلة المتبقية للعائلة أصبح يوسف بمثابة جالب الحظ
للعائلة . وبعد أن شعرت العائلة بالارتياح إزاء رحيل أستير فإنها تبنت يوسف من
كل قلبها . بل وقامت لوسي بعراودة يوسف عن نفسها بمعنى أنها عرضت عليه
أن يمارس معها الحب . الا أنه رفض ذلك في أدب جم بل وفي أسف أيضا . وكان
ذلك بمثابة برهان أكيد على أنه أقسم أن يلتزم العفة والطهارة . وأصبحت العائلة
فى خلال الفترة المتبقية على رحيل أستير تفكك فى تخفيف وإضعاف العلاقات
السائلة بين بعضهم البعض . وبدأت تتحطم حالات الزواج البسيطة التى تربط
بينهم ، ولم تكن التألفات الجديدة تعمل على إنقاذهما واعتقدت لوسي أنها ربما
تكون فى حالة حمل . كما أن المناقشات السياسية العميقه بدأت تتلاشى بسبب
عدم وجود دوافع لها نظراً لأن كل ما يعرفونه هو أن النظام ضدتهم وأنهم ضد
النظام . وفي الليالي بالبيت الريفى وأثناء تناولهم للخبز والطمطم وزيت الزيتون
والرتسينا بدأوا يتحدثون فى شوق وحنين للوطن عن الأيام المطردة الباردة فى
لندن وعن الشوارع التى يمكنك أن تشم فيها رائحة طهو لحوم الخنزير لتناولها
كم الطعام للإفطار فى صباح أيام الأحد . والآن لقد غادر أستير فجأة وجاء يوسف
لكى يعيد تنظيم الأمور من منظور جديد . فرحبوا به واحتضنوه فى شراهته . ولم
يكتفوا بمرافقتهم له على الشاطئ والحانة وإنما عقدوا أمسية من أجله فى البيت
الريفى . وقامت لوسي الفتاة التى يتوقع لها أن تصبح أما بتقديم الأطباق الورقية
والجبنة والفواكه . ونظرا لأن تشارلى شعرت أنها معروضة على يوسف عقب رحيل

الستير ونظرًا لخوفها من المشاعر المختلطة غير المنتظمة الخاصة بها فإنها فضلت أن تكبح جماح نفسها وقالت لهم :

- : «إنه إنسان مخادع ودجال ويبلغ من العمر ٤٠ عاماً أيها الأغبياء والمغلقون. ألا يمكن لكم أن تدركوا ذلك؟»

شعروا بالدهشة والحيرة من أمرها . فماذا حدث لها وهى التى تتسم بالكرم ؟ وكيف يمكن له أن يكون مخادعاً وجائلاً بينما هو نفسه لا يدعى أى شيء ؟ هيا ياتشارلى وقدمى له وقتا سعيداً ! إلا أنها رفضت ذلك . وفي الحانة حدث ترتيب طبيعى فى الجلوس إلى المنضدة الطويلة حيث جلس يوسف فى المنتصف من خلال رغبة جماعية راح يصفع بعينيه مع الاكتفاء بالقليل من الكلام على نحو ملحوظ . ولكن تشارلى إذا حضرت فإنها تموج بالقلق والاحتياج فى جلستها أو تستخف به ، وتجلس فى أبعد مكان بالنسبة له وتحتقره لأنه أصبح سهل المثال .

وأوضح بولى الأمور ليوسف قائلا إن تشارلى تعبير عن بعض اتجاهاتها نحو الرجال بصفة عامة وذلك من منطلق سياسى - فائمها اللعينة كانت ملتزمة بأعراف الكنيسة الانجليزية على نحو معنوه كما أن والدها كان لصاً ومحتاً .

فقال يوسف . «والدها غير مستقيم وغير شريف ؟» في ابتسامة توحى بأنه يعرف هذه الطبقة من الناس معرفة جيدة . وأضاف «يا له من شيء مثير . حدثنى عنه بمزيد من التفاصيل»

فقام بولى بتزويده بالمزيد من المعلومات وشعر بالملتهة لأنه يأتمن يوسف على الأسرار . وهو لم يكن الوحيد الذى فعل ذلك لأنه عقب الانتهاء من تناول طعام الغداء أو العشاء كان يتبقى شخصان أو ثلاثة أشخاص من أجل التناقش فى مواهبهم المسرحية مع صديقهم الجديد أو التناقش فى مغامرات الحب الخاصة بهم أو فى الكرب الذى يكتنف أوضاعهم الفنية . وإذا اتضحت لهم أن اعترافاتهم تنقصها التوابيل المثيرة فإنهم يضيفون أمورا من خيالاتهم لكي لا يبدون سخفاء

أمام يوسف . الذى يصفى إليهم فى وقار ويومئ برأسه ويضحك فى رزانة بعض الشئ إلا أنه لم يقدم إليهم أية نصائح .

ظلت جنسية يوسف لغزا وأمراً مثيراً . ولسبب ما أكد روبرت أنه برتغالى وأصر شخص آخر على أنه أمريكي ، وأنه إنسان تمكّن من البقاء على قيد الحياة عقب الإبادة الجماعية التي قام بها الأتراك - حيث كان قد شاهد فيلما تسجيليا عن هذه الإبادة . أما بولى اليهودي فقد قال عن يوسف : «إنه واحد منا» لكن بولى يردد مثل هذا الكلام عن أي شخص ولذلك حكموا على يوسف على أنه عربي مجرد إغاظة وتكدير بولى .

ولكنهم لم يسألوا يوسف عن مهنته . وعندما حاولوا تضييق الخناق عليه فيما يتعلق بطبيعة عمله ، اكتفى بأن قال إنه اعتاد على السفر والترحال كثيراً ، ولكنه استقر أخيراً . وجعل كلامه يوحى بأنه قد ترك العمل وأصبح على المعاش . وتشجع بولى أكثر من الآخرين وتساءل : «وما هي الشركة الخاصة بك يا يوسف ؟ أو من هو الشخص الذي تعمل أنت لصالحه؟»

قال يوسف في حرص وحذر إنه لم تكن لديه شركة في حقيقة الأمر أو لم تعد لديه شركة وأشار إلى أنه يقوم ببعض القراءات وبقدر قليل من الأعمال التجارية حيث ورث أخيراً قدرًا ضئيلاً من الأموال ، ولذلك فهو يفترض من الناحية الفنية أنه ذو مهنة حرة . واقتصر الجميع بتعبير «مهنة حرة»

ولكن تشارلى هي الوحيدة التي عبرت عن استيائها وعدم رضاها . وتساءلت «نحن عالة وطفيليون أليس كذلك يا يوسف ؟» وأضافت «نحن نقرأ ونتأجر وننفق أموالنا ومن وقت لآخر ننقل أموالنا إلى جزيرة يونانية مثيرة للغرائز الجنسية من أجل إدخال المتعة على أنفسنا ؟ أليس كذلك ؟»

وفي ابتسامة هادئة وافقها يوسف على ذلك الوصف . إلا أن تشارلى لم تتفق . لذا فقدت هدوئها ورباطة جأشها . وقالت :

«إذن ما الذى نقرأ بحق السيد المسيح؟ ذلك هو كل ما أسائله . وما الذى نتاجر فيه؟ يمكننى أن أسائل ذلك السؤال . أليس كذلك؟» لكن صمته الذى يوحى بأنه يوافق على كلامها سبب لها المزيد من الغيظ فأضافات «هل أنت بائع كتب ما وظيفتك؟»

ظل صامتا للحظات وبعدئذ قال متسائلا فى حيرة وارتباك «وظيفتي؟ أقوم بإنجاز أشياء كثيرة ولكننى لست لصاً!» .

فانفجر الجميع فى الضحك ولكن تشارلى قالت لهم : «لا يمكن له أن يجلس هناك فى فراغ ويتجاهر أليها المغفلون الأغبياء . ما الذى يفعله على وجهه الدقة؟ ما هى مهنته؟» . وارتتمت على الكرسى الخاص بها وقالت «يا الهى» وأضافت «أنتم مغفلون» . وبدا عليها الإعفاء .

فجأة تحطم شيئاً ما فى داخلها تماماً صاحت صيحة منخفضة . ثم ضربت بجماع يدها على المنضدة . إنها نفس المنضدة التى كانوا يجلسون إليها عندما جاء يوسف ووضع جواز السفر الخاص به «آل» على نحو إعجازى . فانزلق القماش البلاستيك وطارت زجاجة ليمون شاغرة واستقرت فى حجر بولى . وانفجرت فى وابل من الكلمات الفاحشة القذرة مما جعلهم يشعرون بالخجل والحياء . واتهمت يوسف بأنه عراف سرى أو ساحر من نوع ما وأنه يجر نفسه إلى البلاج ويلاعب ألعاب القوى مع أشخاص فى نصف عمره . ولم يكونوا واثقين من أنه فهم الكثير من الكلام الذى قالته وكان صوتها مخنوقاً ومليناً بالغضب وهى تستخدم التعبيرات واللهجات السوقية . ولم يظهر على وجهه يوسف سوى التفرس والتفحص الشديد لوجه تشارلى .

تساءل يوسف عقب لحظات من التفكير كالمعتاد :

ـ ما الذى تريدين معرفته على وجه الدقة يا تشارلى؟»

ـ من المؤكد أن لك إسم منذ البداية . أليس كذلك؟»

ـ لقد أطلقتم علىَّ اسمـاً .

- ما هو اسمك الحقيقي ؟

ويساد الصمت في جميع أرجاء المطعم

وأخيرا قال «رتشهوفين» كما لو كان يختار اسما من بين مجموعة كبيرة من الأسماء . وأضاف « وهل ذلك الاسم يجعل مني إنسانا مختلفاً على نحو فجائي ؟ وإذا كنت أنا إنسانا وقحا كما تظنين فلماذا ينبغي عليك أن تصدقيني ؟ »

- وما هو الاسم الذي يسبق رتشهوفين ؟ ما هو اسمك بالكامل ؟

مررت فترة صمت أخرى قبل أن يتتخذ قراراً وقال :

- بيتر . ولكنني أفضل أن يكون اسمي : يوسف . أين أسكن ؟ أسكن في هنا . ولكنني أسافر وأعشق الترحال والأسفار . أتريدين أن تعرفي عنوانى ؟ لسوف أعطيك عنوانى . ومما يؤسف له أنك لن تجدى اسما في دليل telephones .
- إذن فأنت نمساوي .

- يا تشارلى . من فضلك . يمكن القول إننى خليط من أصول أوروبية وشرقية . هل هذا يكفيك ويشبع رغبتك ؟

هنا كان الجميع قد وقف إلى جوار يوسف مع توجيه النداءات الهامة لشارلى لكي تغير من اتجاهاتها .

ولكن تشارلى تماطلت . ودفعت بذراعها عبر المنضدة ، ودفعت بأصابعها عاليا تحت أنف يوسف . مع التحدث في حدة لدرجة أن كل الزبائن الموجودين بالحانة قد التقتوا لكي يشهدوا ما يجرى .

- أين جواز السفر الخاص بك . هيا . قدمه لي . لقد أحضرت جواز السفر الخاص به «آل» من تحت الأرض . والآن دعني أشاهد جواز السفر الخاص بك . ودعني أشاهد تاريخ الميلاد ولون العينين والجنسية . اعطني جواز السفر الخاص بك .

ونظر في بادئ الأمر إلى أسفل نحو أصابعها المنتشرة . ثم نظر لأعلى نحو وجهها المحتمد بالاحتقان واللون الأحمر كأنه يريد أن يتتأكد من نواياها .

وأخيراً ابتسם . وكانت ابتسامته من وجهة نظر تشارلی شبیه برقصة خفیفة غير متسرعة فوق سطح سر عميق .

وقال «أسف يا تشارلی . أخشى أن يكون لدينا نحن المهجين أى اعتراض متachelor ضارب بجذوره في التاريخ ، أن يتم تحديد هويتنا عن طريق قصاصات من الأوراق . من المؤكد أنك من حيث إنك إنسانة تقدمية تتفقين معن على هذا الإحساس؟»

وأنمسك بيدها وقام في حرص وتأنٍ بثني أصابعها مستخدما يده الأخرى .
وأعاد يدها إلى جانبها .

...
وبدأ يوسف وتشارلی في جولتهم في بلاد اليونان في الأسبوع التالي .
ومثل الاقتراحات الأخرى الناجحة فإن هذا الاقتراح لم يتم تنفيذه أبداً بالمعنى الدقيق . فبعد أن فصلت تشارلی نفسها عن «الشلة» تماماً، فإنها اعتادت على السير إلى المدينة في الصباح الباكر بينما الجو لا يزال بارداً وتبديد اليوم في الجلوس في حانتين أو ثلاث حانات واحتساء القهوة اليونانية وحفظ السطور الخاصة بها من مسرحية «كما تحب» وهي المسرحية التي من المقرر أن تأخذها معها إلى غرب إنجلترا في ذلك الخريف . وبعد أن أدركت أن هناك من يحملق ويترفس فيها فإنها نظرت لأعلى . وجدت يوسف في مواجهتها عبر الشارع حيث كان خارجاً من «البنسيون» الذي اكتشفت أنه يقيم به : ريشتهوفين، بيتر / الغرفة رقم ١٨ بمفرده / إشغال فردي . وقالت لنفسها فيما بعد إنها صدفة بهيجة لأنها اختارت أن تجلس في هذه الحانة في نفس الساعة التي يغادر فيها البنسيون من أجل الذهاب إلى البلاج . جاء إليها وجلس إلى جوارها . فقالت «انصرف عنى».

فابتسم وطلب لنفسه قدحاً من القهوة . وحملق لكي يعرف ماذا تقرأ .
الشيء الذي أدركته بعد ذلك أنها راحا يتناقشان في الجزء الذي يتعلق بروزاليند

مشهداً وراء مشهد . إلا أن يوسف كان يتكلم أكثر منها . «انها بمثابة أناس كثريين تحت قبعة واحدة . وذلك من وجهة نظرى . فالماء عندما يرقبها وهى تتكشف وتتجلى فى جميع أرجاء المسرحية يشعر إنها بمثابة انسانة تحتلها كتبية كاملة من الشخصيات المتصارعة . فهى خيرة وحكيمة وعاقلة ، وهى ترى الكثير للغاية ، بل ولديها أيضاً الاحساس بالواجب الاجتماعى . ويمكننى القول إنهم احسنوا الاختيار عندما أسندوا إليك تمثيل هذا الدور يا تشارلى»

لم تستطع تشارلى أن تتمالك نفسها . فتساءلت وهى تحملق فى وجهه !

« هل سبق لك أن ذهبت إلى نوتنجهام يا يوسف ؟ »

- نوتنجهام ؟ لا لم أذهب إليها . أكان ينبغي على الذهاب إليها ؟ وهل هى مكان له أفضلية أو ميزة خاصة ؟ »

فتساءعد فى شفتيها احساس شبيه بوخز الإبر . وقالت : كنت أمثل هناك فى الشهر الماضى . أتمنى أن تكون قد شاهدتني .

- وما هو اسم المسرحية التى اشتراك فى تمثيلها ؟

- مسرحية بعنوان (القديسة جان دارك) من تأليف برنارد شو . وقد قمت

أنا بتمثيل دور القديسة جان

- إنها من المسرحيات المفضلة لدى . وأنا متتأكد من أنه لا تمضي أى سنة بدون قيامى بإعادة قراءة «المقدمة» الخاصة بمسرحية القديسة جان، وهل ستقومين بتمثيل نفس الدور مرة أخرى ؟ فلربما تتاح لي فرصة أخرى ؟ فقالت بينما عيناها ما زالت متركتين بشدة على عينيه : «قمنا بتمثيل نفس هذه المسرحية أيضاً في مدينة يورك أيضاً .

أحقا ؟ إذن فقد قمت بجولة لعرض المسرحية في أماكن مختلفة . يا له من شيء لطيف وظريف » .

- نعم . أليس كذلك ؟ وهل يورك من الأماكن التي زرتها أثناء أسفارك وتجوالك ؟

- وا أسفاه . فائنا لم أذهب أبدا إلى أى مكان فى الشمال أبعد من هامبستيد / لندن . قيل لى إن يورك جميلة للغاية .

أوه . إنها عظيمة وخاصة المنيسٰتير

واستمرت فى الحملقة فى وجهه لأطول فترة ممكنة مع تذكر ذلك الوجه الذى كان موجودا فى الصف الأمامى من المقاعد . وراحت تفتش وتبحث فى عينيه الداكنتين وفي الجلد المشدود حولهما باحثة عن أدنى رجفة أو رعشة أو تواطؤ أو ضحكة ولكنها لم تشاهد شيئاً من هذا القبيل . إنه لم يعترف بأى شيء .

قالت لنفسها : إنه فقد الذاكرة أو أنا التي فقدت الذاكرة . آه يا أمى !!

ولم يقدم لها طعام الإفطار وإنما كانت قد رفضت بكل تأكيد اكتفى بالمناداة على الجرسون ، وقال باللغة اليونانية أنه يريد أن يعرف أي أنواع الأسماك التي تعتبر طازجة اليوم . ثم ألقى بذراعه فى الهواء حين أدرك أن السمك هو النوع الذى تفضله . ثم أطلق سراح الجرسون وراح يتحدث معها مرة أخرى عن المسرح، كما لو أنه من الأمور العادية تماماً أن يتناول المرأة الأسماك ويحتسى الخمور فى الساعة التاسعة صباحاً فى الصيف - وإن كان قد طلب لنفسه كوكا كولا . وكان غير المعرفة بشئون المسرح . وهو ربما لم يسبق له الذهاب إلى الشمال إلا أنه كانت لديه معرفة عميقه بمسارح لندن ، وهى معرفة لم يكشف عنها لأى فرد آخر من العائلة أو الشلة ، وبينما كان يتكلم معها كان لديها نفس ذلك الإحساس الذى سبق أن شعرت به نحوه منذ البداية : وهو أن طبيعته الخارجية الظاهرة مثل وجوده هنا كانت مجرد حجة أو ذريعة - وأن مهمته هي أن يحدث صدعاً يمكنه من خلاله أن ينشط طبيعته الأخرى المتسمة باللصوصية . وسألته عما إذا كان قد ذهب إلى لندن كثيراً . فاکد لها أن لندن هي المدينة الوحيدة فى العالم بعد فينا .

- ولقد قمنا بعرض مسرحية (القديسة جان دارك) فى لندن أيضاً منذ أسابيع قليلة .

- في الوست إندي ؟ ولكن هذه مصيبة كبيرة وكارثة عظمى يا تشارلى .
لماذا لم أقرأ الإعلان عن ذلك ؟ ولماذا لم أذهب على الفور ؟

فصحت له المعلومة في شيء من العبوس حيث قالت : في الأрист إندي .
وفي اليوم التالي تقابلًا في حانة أخرى . وفي هذه المرة سألهما بطريقة
عرضية عن الوقت الذي تتوقع فيه أن تبدأ في التدريب وعمل البروفات من أجل
مسرحيته «كما تحبها» فقالت له إن ذلك لن يتم قبل أكتوبر.

تساءل يوسف : «إلى أن يحين موعد التدريب على البروفات كيف
ستقضين وقتكم ؟

قالت تشارلى أنها ستعمل كجرسونة في الحانات القريبة من المسارح
علاوة على إعادة طلاء شقتها .

فقال يوسف في هم وقلق : ولكن هذا العمل تافه للغاية يا تشارلى . من
المؤكد أن مواهبك تتطلب أن تشغلي وظيفة أفضل من فتاة بار أو جرسونة تقدم
المشروبات والمأكولات للناس . وماذا عن قيامك بأعمال التدريس أو الوظائف
السياسية ؟ ألن يكون ذلك ممتعًا أكثر بالنسبة لك ؟

ضحك في شيء من العصبية ساخرة من سذاجته . وقالت : في إنجلترا ؟
ورغم هذه البطالة المتفشية في المجتمع ؟ يجب عليك أن تنسى هذه الفكرة . ومن
هو الشخص الذي يكون على استعداد لأن يدفع لى خمسة آلاف جنيه سنويًا من
أجل تحطيم النظام القائم ؟ فأنا إنسانة هدامه ومخربة إكراما لوجه الله .

ابتسم . وظهرت عليه دلائل الدهشة وعدم الاقتناع . ثم ضحك في
اعتراض مهذب وقال لها : والآن يا تشارلى . حدثني بصرامة . ما معنى قولك
هذا ؟

- إننى أعنى ما أقول . فأنا إنسانة مزعجة .

فاعترض في حماس قائلًا : ولكن من هم الذين تقومين بهدمهم وتحطيمهم
يا تشارلى ؟ فأنت تبددين لي كإنسانة أرثوذوكسية بالفعل .

ومهما كانت معتقداتها في ذلك اليوم فإنها أحسست بغريرتها أنه سوف يتفوق عليها في المناقشة . ولكن تحمى نفسها ، فإنها فضلت أن تظاهرة بأنها تتعرض لحالة من الارهاق الفجائي .

ولذلك قالت له في إعفاء : ابتعد عنى واتركنى وشائى أيمكن لك أن تتركنى يا يوسف ؟ فنحن في جزيرة يونانية . أليس كذلك ؟ نحن في أجازة أليس كذلك ؟ وإذا التزمت بالكف عن مناقشتى في اتجاهاتى السياسية فإننى سألتزم بالابتعاد عن موضوع جواز السفر الخاص بك .

وعندما أثار يوسف مسألة تذكرة العودة الخاصة بها إلى إنجلترا ، بدأت تشك في نوایا المستترة وراء حب الاستطلاع لديه . طلب منها يوسف أن تريه تذكرة السفر لكي يلقى نظرة عليها . فاستخرجت التذكرة من حقيبتها وهي تهز كفيها في لا مبالاة . فأخذ منها التذكرة وراح يتفحصها في اهتمام كبير مع دراسة كافة التفاصيل الدقيقة بالتذكرة .

ثم قال لها في نهاية الأمر : حسنا . باستطاعتك أن تستخدمني هذه التذكرة من تسلونيكا ولماذا لا أقوم بزيارة صديق لي يعمل في شركة طيران وأطلب منه أن يعيد كتابة التذكرة مرة أخرى ؟ وذلك حتى يمكن لنا أن نسافر سويا .

قال تلك العبارة كما لو كان ذلك هو الحل الذي يسعين إلى تحقيقه سويا لم ترد بأى كلام على الإطلاق . وبدا لها وكأن المكونات الداخلية فى كيانها قد دخلت فى صراع رهيب ضد بعضها البعض : الطفلة تقاتل الأم والمومس تقاتل الراهبة . وأحسست بملابسها وكأنها أصبحت خشنة الملمس فوق بشرتها . كما شعرت بالسخونة تتصاعد فى ظهرها . ومع ذلك كانت لا تزال غير قادرة على أن تقول أى كلام .

أوضح يوسف الأمور قائلاً : من المقرر لي أن أكون موجوداً في تسلونيكا بعد أسبوع ابتداء من الآن . ويمكن لنا أن نستأجر سيارة في أثينا ونذهب بها

إلى معبد دلفى ثم تتجه شمالاً سوياً لكي نمضي يومين هناك . ولم لا ؟ . ولم ينزعج من التزامها بالصمت . واستطرد قائلاً «ومع شئ من التخطيط البسيط يمكن لنا تفادى ازدحام الجماهير اذا كان هذا الأمر يسبب لك القلق والانزعاج . وعندما نصل إلى تسالونيكا يمكن لك أن تستقل الطائرة إلى لندن . ويمكن لنا أن نتبادل قيادة السيارة إذا رغبت في ذلك . ولقد سمعت من الجميع أنك تجيدين قيادة السيارات . وبالطبع ستكونين ضيفة على حسابي .

فقالت : بالطبع .

- اذن لماذا لا نفك في تنفيذ ذلك ؟ .

وفكرت في كل هذا الكلام الذي سمعته . وعندئذ تذكرت تلك العبارات البليغة ذات الصوت المنخفض التي عادة ما تسمعها في مثل تلك المواقف من الرجال الأكبر سنا الذين يرغبون في مغازلتها . وفكرت في آستير وفي الملل الذي يلازمها عندما تكون بصحبته باستثناء الفترات التي يقوم فيها بمضاجعتها . وفكرت في تلك المرحلة الجديدة من حياتها التي وعدت نفسها بالدخول فيها . وفكرت في الروائح الموسمية التي ستتباعث منها بمجرد أن تعود إلى إنجلترا عقب انتهاء مدخراتها .

ثم نظرت إلى يوسف نظرة جانبية فشاهدت على وجهه ومضة من الابتهاج والتضرع : ولم لا ؟ مرة أخرى . وعندئذ تذكرت لمسات يديه الرقيقة، وتذكرت ابتسامته المحببة للنفس .

فقالت متممة : لن أخبر الشلة بذلك بينما كان رأسها متوجهًا لأسفل نحو مشروبها . وأضافت : ولوسوف تضطر أنت لأن تقوم بالدور الرئيسي في هذا الشأن على نحو ما .

فرد عليها في همة ونشاط قائلاً لها إنه سيرحل في صباح الغد من أجل اتخاذ الإجراءات وترتيب الأمور . واستطرد : وبالطبع إذا كنت ترغبين حقاً أن تتركى أصدقائك في السر بدون إبلاغهم .

فقط اقاطعه قائلة له إنها ترغب في ذلك تماماً .

أشار يوسف أنه يتفق معها في الرأي في هذا الصدد . ولم تعرف تشارلى ما إذا كان يوسف وضع خطته هذه مقدماً أم أن الفكرة خطرت على ذهنه أثناء التحدث معها . ولكنها شعرت بالامتنان على كل حال .

واستطرد يوسف قائلاً : «وعليك أن تذهبى مع أصدقائك بالزورق إلى بيروس . ولسوف يرسو القارب في فترة متأخرة من بعض الظهر . ولكن في خلال هذا الأسبوع من المحتمل أن يصل متاخرًا بسبب وجود أعمال تتعلق بالصناعة . وبعد أن يصل الزورق إلى الميناء يجب عليك أن تقول لهم إنك ترغبين في التجول بمفردك في الأرضى الداخلية على مدى أيام قليلة . وكأنك تتخذين قراراً طائشاً مثل تلك القرارات الطائشة الفجائية التي اشتهرت باتخاذها . ولا تقول لهم ذلك القرار في وقت مبكر للغاية وإلا فإنهم سيمضون الوقت أثناء الرحلة بالزورق في محاولة اقناعك بعدم الذهاب بمفردك» كان يتكلم ذلك الكلام من منطلق السلطة التي يشعر بها رجل امتلك امرأة .

سألهـا «وهل أصدقاؤك يعرفون عنك أنك مفسلة؟» فـقالـتـ: إنـهـمـ لاـ يـعـرـفـونـ ذـلـكـ بـالـطـبـعـ .

قالـ: اذـنـ يـمـكـنـيـ القـولـ إـنـ قـصـةـ التـغـطـيـةـ الـخـاصـةـ بـكـ سـتـكـونـ سـلـيـمةـ تـامـاـ وـقـوـيـةـ . ثـمـ قـامـ بـوـضـعـ تـذـكـرـةـ السـفـرـ الـخـاصـةـ بـهـاـ فـيـ دـاخـلـ سـتـرـتـهاـ وـكـأـنـ هـذـهـ الـحـرـكـةـ قـدـ حـسـمـتـ الـأـمـرـ نـهـائـيـاـ .

استطرد قائلاً : «بـمـجـردـ أـنـ تـتـخلـصـيـ مـنـ أـصـدـقـائـكـ اـسـتـقـلـىـ تـاكـسـىـ إـلـىـ مـيـدـانـ كـوـلـوكـوـرـونـىـ . وـسـتـكـونـ أـجـرـةـ التـاكـسـىـ حـوـالـىـ مـائـىـ درـاخـمـةـ» ، وـانتـظـرـ لـكـيـ يـعـرـفـ مـنـهـاـ مـاـ إـذـاـ كـانـ هـذـاـ مـبـلـغـ يـشـكـلـ عـقـبـةـ بـالـنـسـبـةـ لـهـاـ وـلـكـهـ لـمـ يـكـنـ بـمـثـابـةـ مشـكـلـةـ . فـهـىـ قـدـ كـانـ مـتـبـقـياـ لـدـيـهاـ ثـمـانـمـائـةـ درـاخـمـةـ ، لـكـنـهاـ لـمـ تـخـبـرـهـ بـذـلـكـ وـكـرـدـ لـهـاـ اـسـمـ المـيـدـانـ مـرـةـ أـخـرىـ وـتـاـكـدـ مـنـ أـنـهـاـ قـدـ حـفـظـتـهـ عـنـ ظـهـرـ قـلـبـ . وـاسـتـطـرـدـ : وـيـوـجـدـ بـالـقـرـبـ مـنـ المـيـدـانـ مـطـعـمـ مـمـتدـ فـوـقـ الرـصـيـفـ وـهـذـاـ مـطـعـمـ يـسـمـىـ

ديوجينس. وإلى جوار مطعم ديوجينس يوجد فندق باريس . وإذا تأخرت أنا وفق أي ظرف من الظروف فإنني سأترك لك رسالة مع بواب الفندق . وعليك أن تسألي عن المستر لاروكوس فهو صديق حميم لي . وإذا كنت في حاجة لأى شيء أو أية نقود عليك أن تعطيه هذه البطاقة وعندئذ سيقوم بإعطائك النقود التي تريدينها» . ثم ناولها البطاقة . وأضاف قائلاً : هل يمكن لك أن تتذكرى كل ذلك ؟ بالطبع يمكنك . فأنت ممتهنة ويمكن لك بسهولة أن تتذكرى الكلمات والحركات والأرقام والألوان وكل شيء .

وقرأت البطاقة المكتوب عليها : مشروعات ريتشهوفين للتصدير بالإضافة إلى رقم مكتب البريد في فيينا .

ومرت على كشك وهي تشعر باليقظة والانتباه على نحو عجيب ومتسم بالاستهانة بالأخطار . فاشترت لأمها اللعينة مفرش مائدة من النوع المشغول بالكريشييه كما اشتترت لابن اختها الخطير المؤذن الذي يسمى كيفين طاقية يونانية مزданة بالشراسيب . وعندما انتهت من هذه المشتريات فإنها قامت باختيار اثنى عشر كارت بوصطال وكتبت على معظمها عنوان نيد كويالى العجوز وهو الوكيل الخاص بها العديم الفائدة الموجود في لندن وكتبت على البطاقات عبارات تتسم بالفكاهة والمزاح ، وتهدف إلى إرباكه أمام السيدات المتألقات اللائي يعملن في مكتبه . إذ كتبت على إحدى البطاقات : «نيد ! يا نيد ! احتفظ بكل جسمك من أجلى» وكتبت على بطاقة أخرى : «نيد ! يانيد ! هل يمكن لأمرأة منحلة أخلاقيا وساقطة أن تغوص وتغرق وتغيب عن الأ بصار ؟ « الا أنها اختارت أن تكتب على إحدى البطاقات كلاما متزنا ووقورا قائلة له أنها تفكر في تأخير عودتها حتى تتاح لها الفرصة لمشاهدة شيء ما في الأرضى الرئيسية وأوضحت له الأمور قائلة «حان الوقت لأن تعتلى تشاش الخاصة بنا ذروة مستوياتها الثقافية يا نيد» متجاهلة القيود التي فرضها عليها يوسف بعدم الأخبار عن الكثير من الأمور .

وبينما كانت تشارلى بصدّ عبور الطريق ووضع البطاقات في صندوق البريد هبط عليها إحساس بأن هناك شخصاً يرقبها ولكنها عندما استدارت متظاهرة أمام نفسها بأنها ذاهبة لمقابلة يوسف فإن كل ما شاهدته كان ذلك الولد الهيبي ذات الشعر الكستنائي اللون ، وهو نفس الولد الذي كان يلاحق في خلمة العائلة والذي يشرف على رحيل أليستير . وكان يسير في بلاهة على الرصيف خلفها بينما نراعاه يتسلل مثل القرد . وبعد أن وقع بصره عليها ، رفع يده اليمنى في بطء في حركة شبيهة بيد المسيح . فلوحت له بيدها رداً على تحيته وهي تضحك . وبينما تسقط البطاقات في صندوق البريد الواحدة تلو الأخرى قالت لنفسها : إن ذلك الولد المخرب قد شهد رحلة سيئة ولا يستطيع المجيء . ربما ينبغي على أن أفعل شيئاً يتعلق به .

وكان الطلاق الأخريرة المرسلة إلى أليستير مليئة بالعواطف الزائفة . وفي بعض الأحيان وخاصة في لحظات عدم اليقين أو التحول أو عندما تكون بصدّ الإقدام على شيء م分成 بالجرأة والتحدي فإنه كان من الملائم لها أن تعتقد أن حبيبها «نيد كوياللي» الذي سيصل عمره إلى ١٤٠ عاماً في عيد ميلاده التالي هو الشخص الوحيد في العالم الذي أحبته حباً صادقاً .

الفصل الرابع

قام كل من كيرتز وليتفاك بزيارة نيد كويالى فى مكاتب سوهاو الخاصة به فى يوم جمعة ملىء بالضباب فى وقت الظهر وهى زيارة اجتماعية تهدف إلى إنجاز أعمال وذلك بمجرد أن سمعا أن مسألة يوسف وتسارلى تسير فى أمن وأمان ، وكانا فى حالة قريبة من اليأس .. فمنذ قنبلة ليدن وأنفاس جفرون المتذمرة المتشائمة تتردد على رقبتيهما فى كل ساعة من ساعات النهار، ولكن من الناحية الظاهرية كانا مجرد شخصين أمريكيين محترمين ينحدران أصلاً من أواسط أوروبا ويوجد بينهما تعارض واضح : إذ إن أحدهما قصير وممتليء يبدو أنه قبطان بحرى أما الآخر فهو نشيط وصغير فى السن ومتخلق بعض الشئ ونو ابتسامة خاصة به. قدما نفسيهما على أنهم : جولد وكارمان التابعين لشركة GK للابتكارات وكانا قد حددوا الموعد أثناء وجودهما بالسفارة ولكنهما تظاهرا بأنهما يتحدثان من نيويورك وذلك مع احدى السيدات اللاتى تعملن مع «نيد كويالى» .

وقال كيرتز لمدام لونجمور التى تعمل فى مكتب الاستقبال لدى كويالى فى تمام الساعة الثانية عشرة الأ دققتين «نحن جولد وكارمان . لدينا موعد لمقابلة المستر كويالى فى تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً » .

ثم صعدا السلم لمقابلة المستر كويالى . وقال كيرتز مرة أخرى «يا سيدى . نحن جولد وكارمان» بينما يفتح «نيد كويالى» الصغير الباب وأضاف «يا مستر كويالى نتشرف بمقابلتك ، فأنت تتمتع بسمعة طيبة فى هذه المهنة» .

فقال نيد كويالى : بل أنا الذى تشرفت بكمأ ثم قادهما على الفور إلى النافذة ذات الإطار الطويل وهى النافذة الأسطورية الموجودة منذ عهد والده ، حيث جرت العادة أن يجلس المرء عند النافذة ويحملق لأسفل نحو أسواق سوهاو ويعب

جرعات كبيرة من خمور الشيرى الأسبانية الخاصة بكويلى العجوز وذلك أثناء القيام بعقد الصفقات مع كويلى العجوز . ونجد كويلى الابن البالغ من العمر ٦٢ عاماً ، كان لايزال هو الابن وكان لا يرغب فى أى شئ سوى أن يشاهد أسلوب حياة والده مستمراً ، وكان «نيد كويلى» إنساناً لطيفاً ضئيلاً الحجم أشيب الشعر . وقام «نيد كويلى» باستخراج إبريق مليء بخمور الشيرى من خزانة الكتب وتشمم السداداة ثم قام بملء ثلاثة كؤوس من الكريستال حتى منتصفها بينما راحا مما يرقبانه وأحس بأنهما يرقبانه ويقومان بتقييمه وتشمين الآثار والمكتب وخطرت على ذهنه فكرة رهيبة وهى فكرة كانت قد استقرت فى الجزء الخلفى من عقله منذ أن تلقى خطابهما .

فتساول فى عصبية أعتقد أنكما لا تهدفان إلى شراء المكتب بأكمله أو عمل
أى شئ رهيب من هذا القبيل ، أليس كذلك ؟

فأطلق كيرتز ضحكة عالية توحى ببيث الاطمئنان وقال «يا نيد من المؤكد أننا لا نحاول شراء مكتبك» ثم ضحك ليتفاكر أيضًا

فقال نيد فى حماس : حسنا . شكرأً لله على ذلك وشرع فى إعطائهم
كأسيهما ، وأضاف : هل تعرفان أنه يتم شراء كل شخص وكل ما يمتلكه من
بضائع فى هذه الأيام ؟ وأنا شخصياً تجىئ لدى أنواع من الزبائن لم أسمع عنهم
من قبل على الإطلاق وكافة الشركات القديمة والمصغيرة والمنازل اللطيفة يتم
التهامها . إنه لشيء فظيع ومثير للاشمئزاز .

واستمر نيد في طقوس المjamلة والترجيب بهما والتودد إليهما وتساءل عن المكان الذي يقيمان به فقال كيرتز إنهم يقيمان في «كونوت» وإنهما يحبان هذا المكان ويشعران بالآفة به منذ اللحظة الأولى التي وصلا فيها إلى ذلك الفندق . وسألهما نيد عما إذا كان لديهما فرص لقضاء وقت الفراغ فرد عليه كيرتز مشيرا إلى أنهما يحبان كل دقيقة من وقتهم وأنهما سوف يغادران إلى ميونيخ في صباح اليوم التالي .

فتساءل نيد فى دهشة «ميونيخ» ؟ وما الذى ستفعلانه هناك ؟ فهذا يعنى أنكما لا تقومان برحمة قصيرة هنا» .

فقال كيرتز «نقود انتاجاً مشتركاً» كما لو كانت تلك العبارة قد أوضحت كل شيء .

قال ليتفاك بصوت هادئ مثل ابتسامته : نقود كثيرة . فالمجال فى ألمانيا كبير فى هذه الأيام يا مستر كوييللى . قال نيد فى استحياء «أوه أننى متأكد من ذلك سبق لي أن سمعت عن ذلك . أنهم بمثابة قوة عظمى ينبغى على المرء مواجهتها . فى كل مجال . فالحرب قد تم نسيانها تماماً الآن» .

قام نيد بحركة توحى بأنه بقصد إعادة ملء كأسيهما بالشيرى متظاهراً بأنه لم يلحظ أن الكأسين لم يمسا ثم ضحك ووضع ابريق الشيرى على المنضدة .

قال كيرتز وهو يضع توقيتاً للدخول فى الموضوع : يا نيد أريد أن أحذثك عن هويتنا بعض الشئ وعن السبب الذى دعانا لأن نكتب اليك ، وعن السبب فى أننا نضيع وقتكم الثمين .

قال نيد يا عزيزى .. أدخل فى الموضوع ثم وضع ساقاً على ساق ورسم على وجهه ابتسامة مليئة بالانتباه بينما تهياً كيرتز للقيام بعملية الإقناع .

..

و ضمن نيد أن كيرتز ربما يكون من المجر وذلك نظراً لأن جبهة كيرتز عريضة ومنحدرة إلى الوراء ، لكنه قال لنفسه إنه ربما يكون تشيكياً أو من أي مكان من تلك الأماكن ، وكان لكيتز صوت غنى جهورى بطبيعته ، يتحدث فى طلاقة وسرعة مثل إعلان تجاري يبث من الإذاعة ، وبدت عيناه الضيقتان اللامعتان وكأنهما تصفييان لكل شئ يقوله نيد . وأوضح كيرتز أنه - أى جولد - هو محامي العائلة ، أما كارمن فهو الذى يتولى النواحي الإبداعية علاوة على أن لديه خلفية فى مجال الكتابة والاتصالات والإنتاج لصالح كندا والغرب الأمريكى . وأشار إلى أنهما

قد حصل أخيراً على مكاتب في نيويورك حيث تنصب اهتماماتها على الدخول في اتفاقيات شاملة مستقلة لصالح التليفزيون .

- ودورنا الخالق يا نيد مقصور بنسبة ٩٠٪ على العثور على صيغة تكون مقبولة للشبكات والنوافذ المالية ونحن نبيع الصيغة المقبولة للممولين . أما الإنتاج فنحن نتركه للمنتجين .

وبعد أن انتهى من كلامه أصبح على نيد إن يقول شيئاً ، فتجهم نيد وقال : ولكن أيها الرجل العجوز إذا كنتم تقومون باتفاقيات شاملة فما الذي تريده هنا نحن الوكلاء ؟

هذا انفجر كيرتز في ضحك مدوية مما أثار دهشة نيد ، وفي نفس الوقت اكتسب وجه كيرتز كافة التجاعيد المثيرة للقلق . وفي تقديرات نيد كان كيرتز قبل أن يضحك يبلغ من العمر حوالي ٤٥ عاماً ، إلا أنه أصبح فجأة أثناء الضحك في نفس عمر نيد وأصبح حاجبه وخداه ورقبته هشة مثل الورق مع وجود شقوق شبيهة بالجراح الناجمة عن تعرضه للضرب بالسكين وهذا التحول جعل نيد يشعر بالقلق ، بل شعر أنه قد تعرض للغش والخداع على نحو ما ، قال لزوجته التي تسمى مارجوري فيما بعد : كان الأمر أشبه بحصان طروادة بشري ؛ إذ كان في بادئ الأمر يبدو رجلاً في الأربعين من عمره ثم تحول إلى رجل يبلغ من العمر ستين عاماً .

ولكن ليتفاک فى هذه المرة هو الذى قدم الإجابة الحاسمة التي تدرب عليها كثيراً ، والتي يتوقف عليها كل شيء آخر . إذ قال : يا سيدي ماستر كويالى إن ما يدور في ذهنتنا هنا هو مشروع مبتكر تماماً مشروع لم يسبقنا إليه أحد ولم نقل فيه أحداً . نحن نأخذ ١٦ ساعة من الوقت الممتاز للتليفزيون - في خلال الخريف والشتاء علي سبيل المثال نحن نكون فرقة ماتينيه مسرحية من ممثلي متجولين . مجموعة ممثلي موهوبين للغاية من البريطانيين والأمريكان وتضم نطاقاً واسعاً من الأجناس والشخصيات والتفاعل الإنساني ، ونقوم بنقل هذه الفرقة المسرحية من

مدينة لأخرى وبحيث يلعب كل ممثل مجموعة متنوعة من الأدوار بحيث يكون بعضها أدوارا رئيسية وبعضها أدوارا مساعدة ، ويقومون بتقديم قصص عن تاريخ حياتهم الواقعية الإنسانية وعن علاقاتهم مما يعطى بعداً جميلاً ويشد انتباه الجماهير ، ويتم تقديم عروض حية مثيرة للاهتمامات والمناقشات في كل مدينة .

ثم نظر لأعلى في ارتياط كما لو كان قد اعتقد أن كويالى قد تكلم ، إلا أن كويالى لم يكن قد تكلم على نحو أكيد .

واستطرد ليتفاك : يا مستر كويالى . نحن نسافر مع الفرقة المسرحية ، ونركب في الأتوبيسات الخاصة بها ، ونساعد في أعمال تغيير المناظر والشاهد مع تلك الفرقة المسرحية ، ونحن المشاهدون نشاركهم في مشكلاتهم ونشارك في فنادقهم القذرة الحقيرة ونقوم بدراسة مشاجراتهم وممارساتهم للحب . بل نقوم بالتدريب على البروفات معهم وتتوتر أعصابنا مع توتراتهم في الليالي الافتتاحية ، ونقرأ ملاحظاتهم في اليوم التالي ونبتهر للنجاحات التي يحققونها ونحزن لحالات الفشل التي يتعرضون لها ، بل ونكتب الخطابات للجماهير الخاصة بهم . فنحن نريد أن نعيد للمسرح تجاربه المثيرة وروحه الريادية ، ونريد أن نعيد العلاقات بين الجمهور والممثلين .

وللحظات ظن كويالى أن ليتفاك انتهى من كلامه . إلا أنه استطرد مرة أخرى قائلاً : ولسوف نقدم مسرحيات كلاسيكية يا مستر كويالى ، لأنها منخفضة التكاليف . ولسوف نطوف في الأماكن الريفية لتقديم الحفلات المسرحية . ولسوف نستخدم ممثليين وممثلات جدد وغير معروفين بعض الشئ . ونستعين من وقت لآخر بممثل ضيف شرف ونعمل على تعويض نفقات السفر ولكننا نقوم أساساً بفتح الطريق أمام المواهب الجديدة لكي تظهر البراعات المتعددة على مدى فترة تصل إلى أربعة شهور كحد أدنى وهي فترة نأمل أن تمتد إلى أطول من ذلك . وهذه هي الأفكار التي لدينا يا مستر كويالى ، والممولون التابعون لنا يبدو عليهم أنهم يرحبون بذلك كثيراً .

و قبل أن يتهيأ كويالى لتقديم التهانى ، وهو دائماً ما يقدم التهانى عندما يقول له شخص ما فكرة رائعة تكلم كيرتز بسرعة فقال : « يا نيد نحن نريد أن نوقع معك عقداً بشأن الاستعانة بتشارلى التابعة لك .

فشعر نيد بالإثارة وتهيأ للكلام الا أنه أدرك أن كيرتز استطرد قائلاً : يا نيد نحن نؤمن بأن تشارلى تتمتع ببراعة كبيرة وتنوع هائل ، فإذا استطعت أن تطمئننا على نقطتين هامتين لدينا ، فإنه يمكن لنا أن نقدم لها الفرصة لكي تشغل مكاناً في سماء المسرح الخاص بنا .

وحاول نيد أن يتكلم ، إلا أن ليتفاك سبقه إلى الكلام في هذه المرة ، فقال بدأنا جميعاً العمل في همة ونشاط من أجلها يا ماستر كويالى . ونريد أن تعطينا إجابتين على سؤالين ، وبعدئذ تصبح تشارلى هناك مع كبار الشخصيات المسرحية .

وساد الصمت فجأة . وكل ما استطاع نيد سماعه هو الضربات الایقاعية لقلبه . حاول أن يبدو مثل رجال الأعمال فجذب بشدة كميء الأنبياء الواحد تلو الآخر . وثبت الوردة التي وضعتها زوجته مارجورى في ثقب زرار جاكته في نفس صباح ذلك اليوم مع إصدار التعليمات الاعتيادية له بعدم تناول الكثير من الخمور مع الغداء ، ولكن زوجته لو كانت قد عرفت أنها قد جاءها من أجل اعطاء تشارلى الحبية فرصة للانطلاق الذي طال انتظاره لرفعت كل القيود المفروضة على تناول الخمور .

.....

وفي مطعم أبيفى أصر كيرتزوليتفاك أن يختار نيد لنفسه نصف زجاجة خمور من القائمة فاضطر لأن يختار كأساً كبيراً من خمور الشبلية الفرنسية لكي تتمشى مع طبق أسماك السلمون المدخنة التي طلبها وكان نيد قد بدأ يحكى لهما أثناء ركوبهم التاكسي هرباً من الأمطار القصبة المسلية التي تدور عن كيفية تعرفه على تشارلى كزبونة . وفي مطعم أبيفى استأنف كلامه .

- لقد أُعجبت بأنفها المعقوف وأسلوبها في التفكير ولم يسبق لي أن فعلت أموراً كهذه من قبل . لقد كنت مغفلة عجوزاً في ذلك الوقت - ولكن لم أكن عجوزاً على النحو الذي أنا عليه الآن ، وإن كنت ما زلت مغفلة ، وكان العمل المسرحي يتألف من مزيج من الحوار والرقص والغناء ومن النوع الذي يهدف عادة إلى السخرية من الأحداث الجارية والأزياء السائدة ولكن العرض المسرحي كان انيقاً وله طابع مودرن حديث إلا أن تشارلى كانت رائعة للغاية . وكانت لها (تلك النعومة التي تدفعك للدفاع عنها) وتلك هي الخاصية التي أبحث عنها في الفتيات . وكان هذا التعبير في حقيقة الأمر من العبارات التراثية التي أخذها نيد عن والده ، « وما إن أُسَدِّلَ الستار حتى ذهبت على الفور إلى غرفة الملابس الخاصة بها .

- وهي لم تكن غرفة ملابس بالمعنى الحقيقي - ثم قمت بالتعاقد معها على الفور . وهي في بادئ الأمر شكت في أمرى وظلت أنتي رجل عجوز قدر مما اضطربني إلى العودة إلى زوجتي مارجوري والعودة بها لكي تقنع تشارلى .
ها . ها ! » .

فقال كيرتز في ابتهاج شديد وهو يناله المزيد من الخبز البنى والزبد
« وماذا حدث بعد ذلك ؟ هل الطريق كان مفروشاً كلها بالورود ؟ »

| فـ قال نيد في سذاجة : ليس على الإطلاق . فهي شبيهة بالكثير من الفتيات اللائي هن من نفس سنها واللائي يتخرجن في معهد التمثيل وهن ممثلات بالأعمال العريضة ويحصلن على نورين في مسرحيتين ويبداأن في شراء شقة أو أي شيء متسم بالغباء وفجأة تتوقف أعمالهم تماماً . ويهبط عليهن ما يسمى بوقت الغسق . وبعضهن يتجاوز هذه المرحلة الصعبة بسلام والبعض الآخر لا يستطيع ذلك .
قال ليتفاك في هدوء وهو يرتشف الشاي ، ولكن تشارلى تمكنت من اجتياز المرحلة الصعبة .

- لقد واصلت التقدم في كفاح وعرق . ولم يكن الأمر سهلاً . ولكن الأمور لا تكون أبداً سهلة على الإطلاق . وظللت هكذا لسنوات . سنوات عديدة، ودهش من

نفسه عندما اكتشف أنه متأثر للغاية ، كما أدرك من التعبيرات التي ظهرت على وجهيهما أنهما متأثران أيضا ، واستطرد قائلا : وها هي الآن تجني ثمرة كفاحها . أليس كذلك ؟ إننى مسرور من أجلها ! حقا إننى مسرور من أجلها فى حقيقة الأمر .

واستطرد نيد قائلًا : لقد شهدت فترة طفولة رهيبة . وأنا ألاحظ أن الكثير من الفتيات يشهدن فترة طفولة قاسية ، وذلك هو ما يدفعهن إلى الخيال الجامح والنزوات في بادئ الأمر . ويلجأن إلى إخفاء المشاعر والنفاق . وتقليل الناس الذين يبدين أسعدهن . أو تقليل الناس الذين يبيدون أتعسهن .

فتاصل ليتفاك : على أى نحو كانت حياة تشارلى رهيبة يا مستر كوياللى ؟
وعلى أى نحو كانت فترة طفولة تشارلى رهيبة يا سيدى ؟

فراح نيد يقص عليهم كل المعلومات التي اكتسبها عن تشارلى بطريق الصدفة اثناء تقديم وجبات الغذاء لها مع الآخريات فى النور العلوى فى مطعم بيانكى ، وقال لهم إن أمها انسانة ساذجة ومغفلة ، أما والدها فكان أفقاً وغشاشاً عمل سمساراً فى بورصة وكان يخدع الناس مما أدى إلى إيداعه فى السجن الى أن مات هناك في السجن .

قاطعه ليتفاك قائلأً : هل قلت يا سيدى إن والدها مات فى السجن ؟
بل ودفن فى السجن أيضا . إذ كانت أمها تشعر بالمارارة والغيفظ لدرجة أنها
لم ترغب في تبذير الأموال الازمة من أجل نقل جسمانه من السجن .

هل قالت لك تشارلى هذه المعلومة بنفسها يا سيدى ؟ .
فشعر كويللى بالحيرة والارتباك وقال : حسنا ومن هو الشخص الآخر الذى
قال له ذلك ؟

فقال ليتفاك : لا يوجد شخص آخر يمت لها بصلة القربي من بعيد ؟
وهنا تدخل كيرتز وهو يبتسم ابتسامة أبوية : يا نيد عليك بتجاهل هذا الولد
ليتفاك . فهو لديه دائمًا مسحة من الشكوك الشديدة . أليس كذلك يا ليتفاك ؟

فأذعنى ليتفاك قائلاً في صوت منخفض للغاية : ربما يكون الأمر كذلك .

وعندئذ فقط خطر على ذهن نيد أن يسألهما عما شاهداه من أعمالها التمثيلية المسرحية ، ودهش عندما اتضح له أنها قد قاما بتحريات جدية في هذا الشأن . بل إنهم لم يكتفيا بالحصول على قصاصات من كل فيلم تليفزيوني ظهرت فيه ، وإنما تكبدوا المشاق أيضاً وذهبوا إلى نوتنجهام خلال زيارتهم السابقة من أجل أن يشاهدوا مسرحيتها التي عرضت تحت اسم «القديسة جان دارك» .

وداح ليتفاك يربت في رفق على شفتيه الرفيعتين . ثم تسأله : أتسمح لي أن أسألك عن شيء ما يا سيدي ؟

فقال نيد وقد شعر بالحيرة والارتباك : تفضل بتوجيه أية أسئلة يا عزيزي .

- هل يمكن لك أن تعطينا فكرة عن الكيفية التي تجري بها تشارلي مقابلاتها مع الصحفيين ؟

فوضع نيد كأسه الملىء بخمور البوردو الفرنسي على المنضدة وقال : مقابلاتها مع الصحفيين ؟ إذا كان هذا الأمر يسبب لكما القلق فانتي أقول لكما بكل تأكيد إنها طبيعية للغاية ، وهي إنسانة ممتازة في هذا الشأن ، فهي تعرف بغيريتها ما يريد رجل الصحافة وتعرف كيف تعالج الأمور إذا أتيحت لها الفرصة . إنها إنسانة ذكية وحرباء ومتعلنة وهي على ذلك النحو دائماً . وهي بعيدة عن الممارسة العملية بعض الشيء في الآونة الأخيرة ولكنها سوف تنطلق مرة أخرى مثل الصياد الماهر . ولا داعي لأن تشعر بالقلق إزاء ذلك . ثم تناول جرعة كبيرة من الخمور .

ولكن ليتفاك لم يشعر بالارتياح عقب سماع ذلك مثلاً كان نيد يتوقع . إذ ضغط على شفتيه في قلق وعدم ارتياح ، لذلك نكس نيد رأسه ثم رفع وجهه في محاولة منه لإخراج ليتفاك من الكابينة والفتور اللذين هبطا عليه وقال : ولكن يا عزيزي لا ينبغي أن تشعر بالاكتئاب على هذا النحو ! فما هو الخطأ في أنها تجيد التحدث مع الصحفيين ؟

لكن نيد لم يتمكن من كسب حماس وتأييد ليتفاك حيث إن كل ما فعله ليتفاك هو أنه رمك كيرتز بنظرة سريعة كما لو كان يقول : خذ دورك في الكلام ، ثم نظر لأسفل إلى قماش المنضدة مرة أخرى ، ولقد قال نيد لزوجته مارجوري فيما بعد : إنهم مثل لاعبين في الملاكمه يحل أحدهما محل الآخر الذي لحق به التعب ، إنهم يتبادلان الأنوار لدى سقوط القبة .

وقال كيرتز : اذا قمنا بالتعاقد مع تشارلى الخاصة بك من أجل هذا المشروع فانها سوف تتعرض لقدر كبير من الكشف عن أسرارها وعن حياتها العاطفية وعائلتها وميلها للفنانين الشعبين والشعر ، والأمر لن يقتصر فقط على قصة والدها وإنما يشتمل أيضا على الديانة التي تقوم بها علامة على اتجاهاتها وأرائها .

وهنا همس ليتفاك قائلاً : واتجاهاتها السياسية ؟

وعندئذ شعر نيد بفقدان للشهية ووضع شوكته وسكننته على الطبق ، بينما استطرد كيرتز قائلاً : يا نيد . إن المولين لهذا المشروع من الغرب الأمريكي وهم أناس طيبون ، ويتسمون بكل الفضائل ، ولديهم أموال كثيرة ومساكن في فلوريدا . وهم يركزون على القيم الصحية بصفة خاصة ويريدون لها أن تتعكس على انتاجهم الفنى على طول الخط حتى آخره ، وربما يجعلنا ذلك نسخر بعض الشئ إلا أن هذه هي الحقائق وهذا هو التليفزيون وهذا هو المجال الذي تتجه إليه النقود ..

قال ليتفاك في شئ من المغالاة في الوطنية والشوفينية : هذه هي أمريكا .

وقال كيرتز : يا نيد . نحن سنلتزم بالصراحة معك . لسوف تكون صادقين معك ، فعندما قررنا أن نكتب خطاباً لك في نهاية الأمر كنا جميا على استعداد وكنا معرضين للحصول على موافقات أخرى ضرورية من أجل شراء الارتباطات الخاصة بتشارلى ووضعها على أول الطريق الكبير ، ولكنني لن أخفى عليك أن كارمان وأنا في خلال اليومين الآخرين سمعنا كلاماً يتعدد في الأسواق الخيرية جعلنا نشعر بالفزع والخوف والبدء في التعجب . ولا توجد مشكلة بالنسبة لمواهب

تشارلى الفنية . فتشارلى انسانة ممتازة وموهوبة وغير مستهلكة ومجتهدة . ولكننا نتساءل عما إذا كانت هى عرضة لأن تكشف أسرارها ، يا نيد نريد منك بعض التأكيدات بأن هذا الأمر ليس خطيراً ..

وكان ليتفاک هو الذى شن الهجوم الحاسم مرة أخرى إذ قال : لقد سمعنا أنها راديكالية إزاء الأحداث الجارية ، وأنها مهتمة للغاية بالقضايا السياسية الخاصة بها . إنها مناضلة ، متحالفة مع ولد ثورى مخبول بعض الشئ . نحن لا نريد أن نتهم وندين أى شخص بناء على الشائعات الباطلة المغرضة الا أن المعلومات التي وصلت اليانا تفيد أنها تجمع ما بين شخصية أم فيدل كاسترو وأخت ياسر عرفات فى آن واحد .

وهبط هلع وذعر على نيد شبيه بهلع الناس العجائز أو هلع العجائز ، وأحس أنه لا يتلاع جسمنيا مع هذه العملية وأنه ضعيف للغاية بحيث لا يمكنه مواجهتها وأنه فى غاية الارهاق والتعب إن جميع الامريكان دائمًا ما كانوا يسببون له التشويش والقلق ، ومعظم الامريكان يسببون له الذعر والخوف إما بسبب معلوماتهم وإما بسبب جهلهم أو كليهما ، إلا أن هذين الشخصين اللذين راحا يحملقان فى وجهه بينما هو يغوص باحثا عن إجابة كانا يندران بشؤم أكبر من أى شئ كان مستعداً لمواجهته ، وتصاعدت مشاعر الغضب الشديد في داخل كيان نيد . إنه كان يمقت ويكره النمية والقيل والقال . كل أنواع النمية . يعتقد أن النمية هي الآفة الخاصة بمهنته وهو يعتقد أن النمية هي التي تحطم مستقبل الناس . ولذلك فهو يمقتها إلى درجة أن وجهه يحمر ويقاد يكون وقحاً عندما يسمع نمية من أولئك الناس الذين لا يعرفون مشاعره ، وعندما كان نيد يتكلم عن أناس فإنه كان يتحدث على المكشوف وفي صراحة تامة وفي محبة تماماً مثلاً تحدث عن تشارلى منذ عشر دقائق . إنه قد أحب هذه الفتاة بالفعل ، بل وخطر على ذهنه أن يبوح بهذا السر لكيتز ولكنه تصور أن هذه الخطوة الجريئة ستتعجل ليتفاک يشعر بالمزيد من القلق مما يؤدي إلى استعداده للتراجع بعض الشئ . ولكن نيد من باب المجاملة كبعـ

جماع نفسه ، فقد كان ضيفاً عليهم ، هذا بالإضافة إلى أنهم كانوا شخصين أجنبيين ولهم مستويات مختلفة تماماً كما أنه اضطر لأن يعترف لنفسه بأنهما قد جاءا لإنجاز مهمة معينة وأنهما مضطران لمسايرة المولين والتكيف معهم كما شعر نيد أنه إما أن يريد على استفساراتهم وإما أن يخاطر بتحطيم هذه الصفقة مما سيؤدي بالتالي إلى تحطيم كل الآمال التي يتمناها تشارلى .

وطوال هذه اللحظات كان كيرتز مستمراً في الكلام بدون إعاقة : نحن نريد منك النصح والارشاد يا نيد . قدم لنا يا نيد يد العون والمساعدة . فنحن نريد أن نعرف أن هذا الأمر لن ينفجر في وجوهنا خلال اليوم الثاني من التصوير بالكاميرا . وأقول لك بكل صراحة . وامتد إصبع قوى مشيراً إلى نيد مثل ماسورة مسدس . «إنه لا يوجد أحد في ولاية مينيسوتا سيشاهد وهو يدفع ربع مليون دولار لعدو للديمقراطية له أسنان حمراء إذا كانت هي على ذلك النحو ، كما أنه لا يوجد أحد في بريطانيا على استعداد لأن ينصحهم بأن ينتحرموا على طريقة الهيراكيري (١) .

* * *

استجمع نيد قواه على نحو جيد بعض الشئ وذكرهما بأنه قد قدم وصفاً لفترة الطفولة التي شهدتها تشارلى وأشار إلى أنها وفقاً لأية مستويات طبيعية كان من المحتم لها أن تقوم بتمثيل أدوار الأحداث اليافعين الذين ينتهكون القوانين أو كان من المحتم عليها أن تنهي حياتها في السجن مثل والدها ، وبالنسبة للنواحي السياسية الخاصة بتشارلى فإنه قال إنه وزوجته مارجوري قد عرفاً تشارلى معرفة جيدة على مدى تسع سنوات وعرفاً عنها أنها كانت تعارض بشدة سياسة التمييز العنصري . وأضاف قائلاً : حسناً ، ولا أحد يمكنه أن يقول إن سياسة التمييز العنصري هي سياسية خاطئة . أيمكن لأحد أن يقول ذلك ؟

بدا عليها أنهم يعتقدان بأن التفرقة العنصرية ليست عملاً شريراً وأشار نيد أن تشارلى تؤمن بالكفاح السلمى أو حل النزاع بين الدول بالطرق السلمية

(١) الهيراكيري : طريقة يابانية في الانتحار ببقر البطن بخنجر تخلصاً من العار .

فقط ، وأشار إلى أنها صوفية تشارك في المسيرات المناهضة للأسلحة النووية وأنها مناهضة لإجراء التجارب العلمية على الحيوانات . وأنها قبل أن تعود إلى التدخين مرة أخرى كانت تقود الحملات الرامية إلى إلغاء تدخين السجائر في المسارح وفي محطات وقطارات مترو الانفاق ، وهي عاطفية وتؤمن بتقديم الرعاية للفنانين وتشجيعهم ماديا .

فقال كيرتز في إعجاب : لقد قدمت لها العون والمساندة ووافت إلى جانبها طوال تلك السنوات وهذا شيء لطيف منك يا نيد .

قال نيد مبتهجا . مثلاً يحتم الواجب علىَّ أن أقف إلى جوار أي واحدة منهن ، وهل يحتاج الأمر إلى دليل أو برهان ! أوف إنها مجرد ممثلة !! ولا تأخذها مأخذ الجد أكثر من اللازم . والممثلون لا يكون لديهم آراء وأفكار سياسية عادة فما بالك بالممثلات فالممثلات لا يكون لديهن اهتمامات أقل من الممثلين إزاء مثل هذه الأمور . والممثلون والممثلات يمررون بحالات نفسية متقلبة . ولهم نزوات طائشة ، وهم يتتكلفون في السلوك ويتصنعن في السلوك من أجل التأثير على الآخرين ، وهم يعيشون في العواطف على مدى ٢٤ ساعة .

وهم على غير وفاق مع العالم إلى حد كبير . والممثلون يتميزون بالسذاجة المطلقة إزاء الحلول الدرامية . وأنا واثق تماماً أن تشارلي سوف تولد من جديد وتصبح إنسانة جديدة تماماً مجرد أن تأخوها من هنا .

فقال ليتفاك في رداعة مقتماً : لكنها لن تصبح إنسانة جديدة من الناحية السياسية .

وعلى مدى دقائق قليلة أخرى وتحت تأثير خمرة بوردو الفرنسية الحمراء اللون ، استمر نيد في هذه المحاضرة الجريئة واجتازه نوع من الطيش والدوار . وكان يسمع الكلمات وهي تنفجر في داخل رأسه فيقوم بتكرارها ، وشعر أنه أصبح شاباً مرة أخرى . وأصبح منفصل تماماً عن الأعمال الخاصة به . وتحدث عن الممثلين بوجه عام . وكيف أنهم يتعرضون للمطاردة واللاحقة والإزعاج بمعرفةٍ

الرعب المطلق للزيف والبهتان والبعد عن الحقائق . وكيف أنهم يعبرون عن كل هموم وكروب الإنسانية وهم على خشبة المسرح . وهم عندما يكونون في خارج نطاق المسرح فهم يشبهون الأواني الشاغرة التي تنتظر لكي يتم ملؤها وتحديث عن الخجل والارتباك الذي ينتابهم . وعن قابليةهم للإصابة بالجروح والسقوط تحت أيدي الأعداء . كما أشار إلى أنهم قد اعتادوا على إخفاء ضعفهم وعجزهم من خلال اللجوء إلى التعبيرات الخشنة العالية الصوت التي يستعيرونها من العالم المراهق . كما تحدث عن الهواجس التي تنتابهم وتمر عليهم على الذات وكيف أنهم يشاهدون أنفسهم على المسرح على مدى ٢٤ ساعة يوميا - في حالة من الولادة أو المخاض أو تحت التهديد بالسجين أو في حالة حب . وبعده توقف ذهنه فجأة ونضبت أفكاره وهو أمر يحدث له كثيراً في هذه الأيام . لقد فقد خيط التفكير وتسلسل الأفكار . وقد انطلاقاته الوثابة . وأحضر الجرسون المختص بالخمور عربة التروللي الصغيرة المليئة بأصناف الخمور ، فاختار نيد كويالي زجاجة مارك دى شمبانيا وترك الجرسون لكي يصب له في كأس كبيرة ولم يشر للجرسون بيده لكي يتوقف عن الصب إلا بعد أن كاد الكأس أن يمتلي تماماً وذلك رغم النظارات الرزيقة الباردة التي أطلت من عيني مضيفيه .

وفي تلك الأثناء خطر على ذهن ليتفاك فكرة ، فدس أصابعه الطويلة في سترته واستخرج مفكرة . ثم قال في هدوء موجهاً كلامه لكيتز أكثر من نيد : منذ متى . وأين . ومع من . وما هي الفترة الزمنية ثم أوضح أنه يركز على التواريخ واستطرد قائلاً : اللقاءات الجماهيرية التي شاركت فيها . والمظاهرات . وتقديم الالتماسات . والمسيرات التي شاركت فيها . وأى شيء من شأنه أن يكون قد جذب انتباه الجماهير ، وعندما نضع كل هذه الأمور في جدول فإنه يصبح بإمكاننا أن نتوصل إلى تقييم علمي دقيق .

وعلى هذا الأساس يصبح أمامنا إما أن نتخذ قراراً بالتعاقد عليها أو التراجع عن ذلك . قل لي يا نيد : منذ متى شاركت هي في مثل هذه الأمور لأول مرة وفقاً لما هو متوافر لديك من معلومات ؟

فقال كيرتز : إنني أحب هذه الطريقة . إنني أحب الالتزام بالمنهج والأسلوب العلمي . وأظن أن هذه الطريقة ستكون منصفة بالنسبة لتشارلى أيضاً .

حاول أن يقول تلك العبارة كما لو أن الفكرة خطرت على ذهن ليتفاك فجأة ، ولم تكن نتيجة لمناقشات تحضيرية استمرت لساعات طويلة .

وقام نيد بالرد على أسئلتها وفقاً لما لديه من معلومات ولم يلجأ إلى الكذب الأبيض إلا مرة واحدة أو مرتين ، ولكنه قال لها كل ما يعرفه عنها ، وأشار إلى جمهور مسرح الإصلاح الراديكالي الذي كانت تنضم إليه من وقت لآخر من أجل أن يسببو الإزعاج عند المسرح القومي والعمل على إيقاف العروض التي تقدم عليه ، كما أشار إلى أنها اتصلت به تليفونياً في منتصف الليل من مركز شرطة بورهام منذ عامين وطلبت منه - أى من نيد - الحضور إلى مركز الشرطة للعمل على إطلاق سراحها بكفالة لأنه تم القبض عليها خلال احتفال صاحب مخمور مناهض للنازية .

- وهذا هو الذي أدى إلى الدعاية والشهرة وجعل صورها تظهر في الصحف والمجلات يا مستر كويالى ؟

فقال نيد : لا إن أحداث ريدينج هي التي جلت لها الشهرة الدعاية . وكان ذلك فيما بعد عقب موضوع بورهام ، وهي على كل حال قد أصبحت معتدلة للغاية . لقد كانت فيما سبق مثل القذيفة الملتهبة أو الشهاب الوهاب . ولكنها أصبحت معتدلة الآن وهذا هو ما يمكنني أن أؤكد لكم ، لقد أصبحت أكثر نضجاً .

فقال ليتفاك : حدثنا عن موضوع ريدينج يا مستر كويالى ، قل لنا ماذا حدث هناك ؟

أوه ، نفس ذلك النوع من الأمور . اذ قام شخص ما بإشعال النيران في أتوبيس . وتم توجيه الاتهام لهم جميعاً . وهم كانوا أساساً يحتاجون على تخفيض الخدمات بالنسبة للناس الكبار في السن على ما أعتقد . أو كان السبب هو عدم تشغيل الزنوج في مهنة المحصل .

كان الأتوبيس شاغراً بالطبع ثم أضاف على وجه السرعة .

- ولم يتعرض أى شخص لأية جراح .

فقال ليتفاك وهو يرمي كيرتز بنظرة سريعة «أيها السيد المسيح» .

وقال كيرتز : يا نيد . لقد أشرت منذ لحظات أن تشارلى تخفف من معتقداتها بعض الشئ فى هذه الأيام . فهل هذا هو ما قلته بالفعل ؟

- نعم أعتقد أنها خفت من معتقداتها . وهذا هو انطباعي .

وزوجتى مارجورى تؤمن بذلك أيضاً .

فقطاعه كيرتز في حدة : هل قالت لك تشارلى سراً إنها أحدثت تغييراً في مواقفها وأرائها يا نيد ؟

- أعتقد فقط أنها بمجرد أن تحصل على فرصة حقيقية مثل هذه الفرصة .

قاطعة كيرتز قائلاً : هل يتحمل أن تكون تشارلى قد قالت لزوجتك في السر إنها غيرت من مواقفها ؟

- حسناً . لا

- هل هناك شخص ما آخر ربما تكون قد وثقت فيه وقالت له كلاماً مثل ذلك ؟ شخص آخر مثل ذلك الولد الفوضوي الذي تتزذه صديقاً لها ؟

- أوه . إنه آخر من يعلم

وبعدئذ تولى ليتفاك مهمة توجيه الأسئلة . واتخذ بهجة سريعة توحى بأنه يرغب في الانتهاء ووضع خاتمة للموضوع :

- يا سيد كويللى . يا سيدى ، هل تحتفظ في الوكالة الخاصة بك بأوراق رسمية تتعلق بجميع زبائنك ؟ أى ملفات رسمية ؟

فقال نيد : حسناً السيدة إليس لديها الملفات في مكان ما ، وأنا متأكد من ذلك .

- هل كانت مدام إليس تقوم بهذا العمل منذ فترة طويلة يا سيدى ؟

- نعم . فهى تؤدى هذا العمل منذ عهد والدى «وما هى نوع المعلومات التى تخزنها فى الملفات ؟ الأجور ، النفقات ، العمولة التى تؤخذ وما شابه ذلك؟ هل هذه الملفات تضم مجرد أوراق جافة قاحلة غير ممتعة ؟

- يا الهى . لا . إنها تضع فى الملفات كل شئ توارىخ الميلاد ونوع الزهور المفضلة ، المطاعم المفضلة . بل وأسماء أولادهم وأسماء الكلب الخاصة بهم ومقططفات من تعليقات الصحف التى تتحدث عنهم . وأية مادة علمية تتعلق بالوصف ؟

- وهل توجد خطابات شخصية ؟

- نعم . بالطبع .

- مكتوبة بخط يدها ؟ خطاباتها الخاصة بها على مدى سنوات ماضية ؟

قال كيرتز موجهاً كلامه للি�تفاك فى حدة :

- يا كارمان . أعتقد أن السيد كويلى أعطانا قدرأ من وقته وتجربته بالفعل وإذا احتجنا إلى المزيد من المعلومات فإنه سيزودنا بها فيما بعد بكل تأكيد . ومن الأفضل إذا كانت تشارلى نفسها على استعداد لتوضيح ذلك لنا عن طريق المحادثة المباشرة معنا فإنه يمكن لنا أن نحصل على المعلومات منها مباشرة ، يا نيد . إن لقائنا معك كان بمثابة فرصة عظيمة لا تنسى . شكرأ لك يا سيدى .

الآن ليتفاك لم يكن من النوع الذى يصد هكذا بسهولة .. إذ كان يوجد به عناد الشباب . فقال : السيد كويلى لا يخفى علينا أية أسرار فإذا كانت هناك أوراق خاصة بها أو خطابات تدل أنها تخفف من مواقفها وتغير من اتجاهاتها فلماذا لا نطلب منه أن يرينا مثل هذه الأوراق ؟ إذا كانت لديه الرغبة فى ذلك . وإذا لم يكن لديه الرغبة فى ذلك فتلك مسألة أخرى » .

ما هو رأيك يا كيرتز ؟

قال كيرتز في وقار .. يا كارمان . إنني متأكد تماماً أن نيد لديه الرغبة في ذلك .

• • • •

كان المطر قد توقف اصطحباً كويالى الضئيل الحجم بينهما أثناء المسير مع الحرص على تخفيض سرعة خطواتهما المنطلقة لكي تتلاعماً مع خطوات كويالى المترنحة . لقد كان كويالى مشوش الأفكار بسبب كثرة تناوله للخمور . وكان يشعر بالحزن والاكتئاب . تجتاحه هواجس كحولية منذرة بالشر . ترى بحق الجحيم ما الذي يريدانه ؟ فهما في بعض الأحيان يتحدثان عن رفع تشارلى إلى المجد وإلى عنان السماء وفي اللحظة التالية يعترضان على اتجاهاتهما السياسية السخيفة ؟ وما هما الآن يقتربان اللجوء إلى السجلات والملفات . وشاهدتهم السيدة لونجمور التي تعمل في قسم الاستقبال ، وأدرك نيد عندما شاهد ملامح الاستياء على وجهها أنه تناول كميات هائلة من الخمور أثناء تناول الغداء . فلتذهب أذن إلى الجحيم وأصر كيرتز أن يسير نيد أمامهما أثناء الصعود على السلالم . وفي داخل مكتبه صوياً مسدساً إلى رأسه فاضطر إلى أن يتصل تليفونياً بالمدام إليس وطلب منها أن تحضر الملفات والأوراق الخاصة بتشارلى إلى غرفة الجلوس وترك تلك الأوراق هناك .

تساءل ليتفاك مثل شخص على وشك أن يطلق سراح طفل : هل ينبغي أن نطرق على بابك عندما ننتهي من قراءة الملفات ؟

وفي آخر مرة وقع بصره عليهما شاهدهما وهما جالسان في غرفة الجلوس بين ستة صناديق قذرة بنية اللون خاصة بالسيدة أليس . وقد بدا على هذه الصناديق وكأنها أنقذت توا بعد غارة جوية خاطفة . وكانا يشبهان محصلى الضرائب وهو يحملقان في الأوراق ويكتبان الملاحظات والبيانات ، ومن المؤكد أن كويالى قد غلبه النعاس بعد ذلك لفترة قصيرة . وارتاج جسده فجأة فأفاق من النوم في حوالي الساعة الخامسة ليجد أن غرفة الجلوس أصبحت شاغرة ، وعندما

اتصل تليفونيا بالسيدة لونجمور ردت عليه قائلة أن الضيفين لم يرغبا في ازعاجه وأقلقاه أثناء نومه .

.....

ولم يقم نيد بإبلاغ زوجته مارجوري على الفور وعندما سأله في نفس ذلك المساء قال لها : أوه هذان الشخصان ، إنهم مجرد اثنين من الفنانين المتوجلين الكئيبين الموحشين . وهما الآن في طريقهما إلى ميونيخ . ولا شيء يدعوك للقلق .

- هل هما ولدان يهوديان ؟

- نعم أعتقد أنهم يهوديان .

فأومات مارجوري برأسها كما لو كانت قد عرفت كل شيء . ولكن نيد أضاف قائلاً في شيء من اليأس : ولكنها شخصان لطيفان .

وكان بيل لوكمهيم هو مراسل نيد في نيويورك . وكان هو الزميل الأمريكي الوحيد لنيد . فقام نيد بالاتصال به تليفونيا بعد ظهر اليوم التالي . فقال له لوكمهيم العجوز إنه لم يسمع عنهم ولكنه قدم تقريراً وافياً بعد ذلك : ان شركة « ح . ك » هي شركة جديدة في هذا الحقل وحصلت على بعض التأييد والمساندة ولكن الشركات المستقلة تعتبر سلعة كاسدة في السوق في هذه الأيام . ولم يعجب كوييلي بنغمة صوت لوكمهيم العجوز . إذ بدا صوته وكأنه يتعرض للغش والخداع على نحو ما من خلال الجهة التي لجأ إليها لأخذ رأيها . وفي أداء بارع متسم بالثقة بالنفس قام نيد كوييلي بالاتصال تليفونيا برقم الشركة بنيويورك . ولكنهم رفضوا إعطائه أية معلومات وأصبح ذهن كوييلي مشغولاً للغاية بهذين الزائرين . وتمنى لو كان قد قام بطردهما على الفور . ثم اتصل تليفونيا باسم الفندق الموجود في ميونيخ والذي ذكر اسمه من قبل فرد عليه مدير الفندق في صوت غاضب متوجه به قائلاً له إن الهر جولد والهر كارمان قد أمضيا بالفندق ليلة واحدة فقط وغادرا في الصباح الباكر في اليوم التالي لإنجاز أعمال فجائية طلبت منها . كما أن منتجآ ألمانيا كان كيرتز قد ذكر اسمه قال لковيللى : إنهم شخصان طيبان ومحترمان للغاية

وممتاز للغاية . ولكن عندما سأله نيد عما إذا كانا قد وصلا إلى ميونيخ أخيراً وعن نوعية المشروعات التي تباحثا فيها مع المنتج ظهرت الروح العدائية على الفور ثم وضع سماعة التليفون قبل أن تنتهي المكالمة .

وببدأ نيد يجري اتصالاته مع زملائه في المهنة وتوسيع في استفساراته ، إلا أن محاولاته باعت كلها بالفشل .

وأخيراً ذهب نيد إلى هيرب نولان صاحب شركة لوماكس ستارز وقال له : تقابلت مع شخصين أمريكيين رهيبين منذ أيام قليلة ، أحدهما يسمى جولد والآخر يسمى كارمان ولهم شركات تسمى «ج.ك» تعمل على إنتاج مسلسلات تليفزيونية . فهل جاء إليك هذان الشخصان ؟

فضحك نولان وقال : إنني الذي أرسلتكم إليك أيها الولد العجوز . لقد جاءكم إلى وأرادا أن يعرفا كل المعلومات التي تتعلق بـتشارلى . فقلت لهم أن يذهبوا إلى نيد . فأنا الذي بعثت بهما إليك !

ولكن في نفس تلك الليلة وبعد أن تمكنت مارجوري من استخلاص اعتراف كامل من زوجها نيد فإنه راح يفضي بمخاوفه وقلقه لها .

وقال لها : لقد كانوا في عجلة من أمرهما . وكانوا يتمتعان بقدر هائل من الحيوية والنشاط على نحو يفوق ما لدى الأميركيان من نشاط . وكانا يقومان بالهجوم على مثل رجلين لعينين من رجال الشرطة . الواحد تلو الآخر . كانوا مثل كلبين صغيرين نشطين ذكيين من كلاب الصيد ثم أضاف قائلا : مازلت أفكر في اللجوء إلى السلطات المختصة .

فردت مارجوري قائمة في نهاية الأمر : ولكن يا عزيزي ييدولى أنها تابعان للسلطة ذاتها .

فقال نيد في تصميم شديد : لسوف أقوم بتحrir رسالة إليها ، ينبغي على أن أكتب إليها وأحذرها لأنها من المحتمل أن تتعرض للمتابعة .

ولكن حتى لو كان قد قام بتحرير رسالة لها فإنه يكون بذلك قد تأخر أكثر من اللازم . لأن تشارلى كانت قد أبحرت - قبل انقضاء ٤٨ ساعة - إلى أثينا لكي تحافظ على موعد ومكان لقائهما مع يوسف .

.....

سافر كيرتز في صباح اليوم التالي إلى ميونيخ وفقاً لما قاله لكويالى ويدا الغرض من زيارة ميونيخ أمراً مختلفاً عما قاله لكويالى . وقام بزيارة الشقتين الأمتنين التابعين له . وبث روح التشجيع من جديد في رجاله . وعلاوة على ذلك أوجد الوسيلة لعقد اجتماع مع الدكتور الكسيس الممتاز في مأدبة غذاء ناقشا خلالها أموراً ليست لها أهمية كبيرة - ولكن ما الذي يحتاجه الأصدقاء القدامى أكثر من مجرد الاستمتاع بلقاء بعضهم البعض ؟

ومن ميونيخ سافر كيرتز بالطائرة إلى أثينا مستأنفاً سيره في اتجاه الجنوب .

الفصل الخاص

وصل القارب إلى بيروس متأخراً ساعتين عن موعده ولو لم يكن يوسف قد اتخذ الإجراءات الخاصة بتذكرة السفر الخاصة بشارلى، لكان تشارلى قد صمدت في مواجهته وقاومته . لأنها عندما أعلنت خططها للمجموعة المسرحية الخاصة بها، فإنها وجدت معارضة شديدة منهم . بل إن لوسي انخرطت في البكاء وعرضت أن تعطى تشارلى كل أموالها وقالت : «إن كل ما تبقى لدى من أموال وهي في حدود ٥٠٠ درخمة سأعطيها كلها لك يا تشايس» . وقام كل من ويلى ويلى بالركوع أمامها أثناء وجود آلاف المشاهدين وقالا يا تشايس . يا تشايس . كيف أمكن لك أن تفعل فينا كل هذا؟ ..

كان مطعم ديجينيس ذا مظلة ممتدة أمامه لونها أزرق . ووجدت لافتة من الورق المقوى مرسوم عليها طباخ يشير إليها ويغريها بالدخول إلى المطعم .

شعرت بأنها فتاة قذرة وهي مرتدية البنطلون الصيني القديم البالى والحزاء القديم . وشققت طريقها في ضجة بين المناضد المتراسة على الرصيف إلى أن وصلت إلى الباب الداخلي وبينما هي على وشك الدخول إلى المطعم انفجر رجلان يونانيان في الضحك عندما شاهدا حقيقة الكتف المكسورة الخاصة بها . فاتجهت نحوهما .. ووجهت لهما السباب واللعنات في غضب . ودفعت الباب في رعشة بقدمها وخطت إلى داخل المطعم . أحسست بالهواء بارداً ومنعشأً وتوقفت الثرثرة التي كانت تترامى من الرصيف بالشارع . ظلت واقفة للحظات بين الأضواء الخافتة . ثم لاحت يوسف جالساً مع فنجان من القهوة اليونانية وقد فتح أمامه كتاباً له غلاف ورقى .

قالت في نفسها محذرة وهي تسير نحوه : لا تلمسني ولا تعتقد أنني أصبحت ملك يديك . فأنا في غاية الإرهاق وأشعر بالجوع الشديد وعلى استعداد لأن أعض كما أنتي قد تخليت عن الجنس على مدى المائتى عام القادمة .

ولكنه لم يفعل شيئاً سوى القيام بأخذ الجيتار منها كما أخذ منها حقيقتها المكسورة، قام بمصافحتها باليد بطريقة متسمة بالطبع العملي . ولذلك فإن كل ما قالت له هو : «أنت ترتدي قميصاً حريراً». وكان قميصاً له أزرار ذهبية في حجم غطاء الزجاجة . صاحت وهي تشهد باقى الأشياء المعدنية الثمينة التي يتزين بها .. «وترتدي سواراً ذهبياً وساعة ذهبية . يبدو أنك في هذه الفترة الزمنية القصيرة قد وجدت لنفسك أميرة ثرية !» قالت تلك العبارة في مسحة من الهستيرية العدوانية ربما لكي تجعله يشعر بعدم الارتياح إزاء مظهره مثلما هي قد شعرت بعدم الارتياح إزاء مظهرها المتتسخ وحقيقتها المكسورة.

الآن يوسف تجاوز هذا الكلام . وقال :

- مرحباً يا تشارلى . تأخر القارب عن موعده . لقد أشفقتُ عليك. المهم أنك قد وصلت بالفعل إلى هنا، أتريدين أن تغتسلي أولاً أم تحسين ال威سكي؟ فدورة مياه السيدات موجودة هناك .

قالت : «أريد ويسكي أولاً» . ثم ألقت بنفسها في استرخاء على كرسى في مواجهته .

ثم راح يبحث خلفه وقال : أوه . قبل أن أنسى ثم استخرج من تحت مقعد طويل حقيقة من الصوف اليونانى وقدمها لها كهدية . وقال : «نظراً لأننا نخطو إلى داخل العالم سويةً فها هي أدوات الهرب الخاصة بك .

ففي داخل الحقيقة ستتجدين تذكرة السفر بالطائرة من تسالونيكا إلى لندن . ويمكنك إلغاء التذكرة إذا غيرت رأيك . هل كان من الصعب عليك التخلص من أصدقائك؟ إننى متتأكد من أنك وجدت صعوبة في ذلك إننى لا أحب خداع الناس . ولكن معظم الناس يمارسون الخداع .

راح يتحدث كأنه يعرف كل ما يتعلق بأساليب الخداع . وكأنه يتعرض للخداع في كل يوم ويأسف لحدوث ذلك .

حملقت تشارلى في داخل الحقيقة وقالت : «ولكن لا يوجد باراتشوت بالحقيقة . ثم ضحكت وقالت : «أشكرك يا يوسف فالحقيقة جميلة ومن الطراز

ال الحديث . شكرأً جزيلاً . إلا أنـه هبط عليها إحساس بأنـها لم تعد تصدق نفسها .
وقالت لنفسها : ربما كان ذلك بسبب تعاطـى الحبوب التـى أعطـتـها لوسـى لها .
ـ ماذا لو طلبت لك وجـة من سمـك الكـركـنـد (جرـاد الـبـحـر) ؟ فـائـتـ فى
جزـيرـة مـيـكونـوس أخـبرـتـنى أنـ هـذـا النـوـع منـ السـمـك هوـ الطـعـام المـفـضـل لكـ . أـلـيـس
كـذـاكـ ؟

والـطـبـاخ يـحـفـظ بـسـمـكـة منـ ذـاكـ النـوـع منـ أـجـلـكـ . وـهـوـ سـيـقـوم بـقـتـلـهـا عـلـى
الفـورـ إـذـا اـصـدـرـتـ أـوـامـرـكـ بـذـاكـ .

ـ قـلـ لـهـمـ أـنـ يـتـمـ قـتـلـ هـذـهـ سـمـكـةـ بـأـقـلـ قـدـرـ مـمـكـنـ مـنـ العنـفـ .
ثـمـ أـمـسـكـتـ بـأـحـدـيـ يـدـيـهـ وـاعـتـصـرـتـهـ بـيـنـ يـدـيـهـ . فـابـتـسـمـ لـهـاـ وـتـرـكـ يـدـهـ لـكـىـ
تـعـبـثـ فـيـهـ . لـقـدـ كـانـتـ يـدـهـ جـمـيلـةـ وـبـهـ أـصـابـعـ جـافـةـ وـرـفـيـعـةـ وـذـاتـ عـضـلـاتـ قـوـيـةـ
لـلـغاـيـةـ .

تسـاءـلـ يـوسـفـ : وـأـنـتـ تـفـضـلـينـ خـمـورـ بـوـتـارـيسـ الـبـيـضـاءـ الـمـلـجـةـ . أـلـيـسـ
ذـكـ هوـ مـاـ اـعـتـدـتـ أـنـ تـقـولـيـنـهـ ؟

ـ نـعـمـ .

ـ وـيـعـدـ العـشـاءـ . وـبـصـفـتـيـ شـيـطـانـ الـمـفـسـتوـفـيـلـيـسـ الـخـاصـ بـكـ . فـإـنـتـىـ
سـوـفـ اـصـطـحـبـ إـلـىـ قـمـةـ تـلـ لـكـ تـشـاهـدـىـ ثـانـىـ أـعـظـمـ مـكـانـ فـىـ الـعـالـمـ . هـلـ
تـوـافـقـيـنـ ؟ سـتـكـونـ رـحـلـةـ بـوـلـيـسـيـةـ غـامـضـةـ ؟

قـالـتـ وـهـىـ تـحـسـىـ الـخـمـورـ : وـهـوـ كـذـاكـ .

ـ وـمـاـذـاـ فـعـلـتـ فـىـ هـذـهـ الـأـيـامـ الـأـخـيـرـةـ يـاـ يـوسـفـ ؟ بـخـلـافـ التـحـرـقـ شـوـقـاـ
لـأـنـ تـشـاهـدـنـىـ ؟

فـلـمـ يـرـدـ عـلـىـ تـسـاؤـلـهـاـ . وـبـدـلـاـ مـنـ ذـاكـ سـأـلـهـاـ عـنـ رـحـلـتـهاـ وـزـمـلـائـهـاـ فـىـ
الـعـائـلـةـ الـمـسـرـحـيـةـ الـخـاصـةـ بـهـاـ . وـيـعـدـ أـنـ اـنـتـهـتـ مـنـ تـنـاـولـ الـخـمـورـ بـدـأـتـ تـشـعـرـ أـنـهـاـ
رـبـيـاـ أـصـبـحـتـ جـذـابـةـ بـالـنـسـبـةـ لـيـوسـفـ . وـبـيـنـمـاـ كـانـتـ تـتـحدـثـ مـعـهـ عـنـ «ـآـلـ»ـ فـإـنـهـاـ

تأثرت لدى سمعها لنفسها وهي تفسح مكاناً في حياتها لرجل جديد
قبالت :

- وعلى كل حال أمل له أن يحقق النجاح في حياته العملية، بما يعني أن ذلك النجاح ربما يعوضه عن الإحباطات الأخرى .

ولكن حتى أثناء قيامها بتحقيق ذلك التقدم نحوه انتابتها الهواجس مرة أخرى من خلال إحساسها بالوقوع في أخطاء . وكان هذا شعوراً ينتابها وهي على المسرح في بعض الأحيان، عندما تحس أن مشهداً لا يشد الجماهير . ولكي تتخلص من الهواجس راحت تبحث في حقيقة الكتف الخاصة بها واستخرجت صندوقاً صغيراً مصنوعاً من خشب أشجار الزيتون . وسلمته له عبر المنضدة . فأخذه لأنه قد قدم له . إلا أنه لم يدرك على الفور أن الصندوق قد قدم له على أنه هدية .

إلا أنها أدركت للحظات أنه يشعر بالقلق وكان عاملاً غير متوقع ربما يؤدي إلى تحطيم خططه .

وبعد قليل استخرج يوسف مجموعة من النشرات السياسية الملونة . فغيرت تشارلى من مكانها لكي تجلس إلى جواره وألقت بذراعها اليسرى على كتفه لكي يتمكنا سوياً من تفحص هذه النشرات . وفجأة تساعدت :

- ألم يسبق لك أن ارتديت ثوباً فضفاضاً أحمر اللون ؟ له لون خمري وله أذار نحاسية ويشبه الموضة التي كانت سائدة في العشرينات ؟
ارتفع رأسه في بطء واستدار لينظر في وجهها المتفرّس وقال : هل هذه نكتة ؟

- لا : هذا سؤال مباشر

- ثوب فضفاض أحمر ؟ ولكن لماذا بحق الجحيم ينبغي أن أرتدي مثل هذا الثوب ؟ هل تريدين مني أن أسأله وأشجع فريق كرة القدم الخاص بك أو أى شئ من هذا القبيل ؟

فقالت محاولة الخروج من هذا المأزق : ستبدو وسيماً إذا ارتديت ثوباً من ذلك النوع . وذلك هو كل ما في الأمر . وتلك فقط هي الطريقة التي أشاهد بها الناس في بعض الأحيان . وهذه أمور تتعلق بالمسرح موجودة في داخل ذهني . أنت لا تعرف المثلثات . أليس كذلك ؟ إنني أقوم بعمل المكياج للناس .. واللحيات وكافة أنواع تلك الأمور وأجعل الناس يرتدون كافة الأزياء مثل الزى الرسمى أو البنطلونات الرياضية القصيرة الواسعة المزمومة تحت الركبة . ويتم كل ذلك في داخل خيالى . إنها عادة عندي .

- أتقصدin أنك تريدين لي أن أطلق لحيتي من أجلك ؟

- سأطلب منك ذلك إذا شعرت بهذه الرغبة .

وابتسم . فردت عليه بابتسامة .

.....

وبعد أن انتهيا من تناول الطعام، استخرج يوسف محفظة مصنوعة من جلد التمساح وسدّد فاتورة الحساب . وشاهدته وهو يأخذ إيصالاً يفيد أنه سدد الحساب ثم طوى الإيصال ووضعه في جيبه . فقالت له مازحة : هل ستطالبني بنصف قيمة النفقات ؟

لκنه لم يرد عليها . ثم قال لها على وجه السرعة :

- لو سمحـت . أنظـرى إـلى الـخارج بـحـثـاً عـن سيـارـة أـويـيل خـضرـاء يـقودـها صـبـى وـسـارـ بها بـسـرـعة وـقد حـمـلـ أـمـتعـتها فـي يـديـه .

فقالـت : «ـهـا هـى ذـى السـيـارـة مـوجـودـة ..»

كـانـتـ السيـارـة مـوجـودـة عندـ المـدخلـ الجـانـبـى . وأـخـذـ السـائـقـ أـمـتعـتها منـ يـوسـفـ ، وـوـضـعـها فـي صـندـوقـ السيـارـة بـسـرـعة وـكـانـ صـبـىـ مـلـيـئـاً بـالـنـمـشـ وـأشـقـرـ اللـونـ وـمـوـفـورـ الصـحـةـ يـبـدوـ عـلـيـهـ أـنـهـ فـيـ الـخـامـسـةـ عـشـرـةـ مـنـ عـمـرـهـ عـلـىـ الـأـكـثـرـ . وـكـانـ الـلـيـلـ السـاخـنـ يـسـكـبـ أـمـطـارـهـ الـبـطـيـئـةـ كـالـمـعـتـادـ .

وقال يوسف وهو يدخل تشارلى إلى المبعد الخلفي : «يا تشارلى . هذا هو ديمترى . سمحت أمه أن يظل بالخارج إلى فترة متأخرة في هذه الليلة . ويا ديمترى اذهب بنا لو سمحت إلى ثانى أعظم مكان فى العالم» . وكان يوسف قد انزلق إلى المبعد الخلفى بجوارها وانطلقت السيارة على الفور . وقال يوسف : «نحن نمر الآن فى ميدان الدستور موطن الديمقراطية اليونانية الحديثة . والآن على اليسار توجد بوابة هارديان .

قالت تشارلى : هذا عظيم .

ثم قالت لنفسها : عودى إلى وعيك وامثلنى بالحيوية وغيرى من حالتك النفسية . هذه جولة حرة . وهذا رجل في غاية الوسامنة . وهذه هي اليونان القديمة . وبدأت السيارة تخفض من سرعتها . ولحت وجود أطلال على يمينها . إلا أن الشجيرات العالية أخفتها وراعها مرة أخرى . ثم صعدت السيارة فوق تل به طريق مرصوف . وتوقفت . وقفز يوسف خارجها من السيارة . وفتح لها الباب . وأمسك يدها واقتادها بسرعة وفي شئ من التأمر إلى سلالم حجرية ضيقة تقع بين الأشجار الشاهقة .

قال لها فى تتمة مسرحية : «نحن لا نتحدث هنا إلا همساً وبطريقة كودية مشفرة» . فردت عليه بكلام عديم المعنى أيضاً .

كانت قبضته مثل شحنة كهربائية . سارا فوق ممر خشبي . ثم وصلا إلى مساحة مرصوفة ثم إلى أخرى ترابية . إلا أنها كانا يصعدان لأعلى طوال الوقت .

كان القمر قد اختفى . فأصبح الجو حالك الظلام . إلا أن يوسف كان يسير بسرعة أمامها على نحو خالٍ من الأخطاء كأنه يمشي تحت ضوء النهار . وعبرًا على سلالم حجرية . ثم دخلًا في ممر أكثر اتساعاً . وانقسمت الأشجار . فشاهدت على يمينها أضواء المدينة متلاصقة على مسافة بعيدة تحتها . وعلى يسارها وعلى مسافة عالية يوجد جرف جبلي شديد الانحدار مت shamخ فى لون

أسود في مواجهة قبة السماء البرتقالية . وسمعتْ وقع أقدام وضاحكات متراوحة
وراءها وأدركت أنَّه لا يوجد سوى ولدين فقط يضحكان على نكتة .

تساءل يوسف دون أن يهدى من سرعته : « هل تتضايقين من المشي؟

فقالت : « المشي هنا شنيع»

- أتريدين مني أن أحملك ؟

- نعم

- ولكن للأسف توجد لدى عضلة ممزقة في ظهرى .

قالت وهي تمسك بيده في قوة وإحكام : لقد أدركت ذلك .

ويعدنَّ وصلاً إلى مكان مليء بالأشجار مرة أخرى وزاخر بالقمعة العالية
المساءدة عن حشرات زيز الحصاد علاوة على روانع أشجار الصنوبر النفاذة التي
جعلت عينيها تشعران بالوخز المؤلم .

وقالت تشارلى : إنك ذاهب إلى خيمة . أليس كذلك ؟

الجنس عند المضيق الجنوبي لسلسلة الجبال ؟ كيف أمكن لك أن تُخمن
وتعرف شهيتي ورغباتي الخفية ؟

فلم يرد عليها وبدأ في السير بخطوات واسعة أمامها . ووصل إلى ممرٌ
متسع . وأمامهما كان يقف هيكلان رماديان يرتديان الزي الرسمي ويحرسان
كوخاً حجرياً صغيراً يوجد بداخله مصباح كهربائي واتجه يوسف نحوهما وسمعت
تمتمة صادرة عنهما وهما يؤيّدان التحية له . وكان ذلك الكوخ موجوداً بين بوابتين
مصنوعتين من الحديد . وخلف إحدى البوابتين توجد المدينة مرة أخرى على هيئة
تهيج من الأضواء المتلاطمة البعيدة . وخلف البوابة الأخرى لا يوجد سوى الظلام
ال الحالك . وشعرت أنهما على وشك السماح لهما بالدخول إلى الظلام الحالك لأنها
سمعت خشخشة المفاتيح وصرير البوابة الحديدية لدى فتحها في بطيء . فسرى
الهلع في كيانها للحظات . ما الذي أفعله أنا هنا ؟ أين أنا ؟ إنه لشيء مذهل . إنه

مجوم على من جانب شخص أحمق مغفل . لقد كان الرجلان من الموظفين أو من رجال الشرطة . ونظرًا لأنهما كانوا في حالة ارتباك فقد خمنت أن يوسف قام بتقديم الرشوة لهما . وكانوا جميعاً ينظرون في ساعاتهم . وطلب منها يوسف أن تواصل السير للأمام . فحملقت وراها وشاهدت فتاتين واقفتين أسفلها على المر مع النظر لأعلى نحوها . راح يوسف ينادي عليها . وبدأت تدخل وتعبر البوابة المفتوحة . وشعرت بعيني رجل الشرطة تنزعان عنها ثيابها . وخطر على ذهنها أن يوسف لم ينظر إليها بتلك الطريقة وأنه لم يقدم أى دليل يثبت أنه يرغب فيها .

وأغلقت البوابة مرة أخرى وراها . وكانت هناك سلام . أسفلها يوجد ممر صخرى زلق . ودت أن تلف ذراعها حوله، لكنه انطلق أمامها قائلًا إنه لا ينبغي أن يحجب جسده الضخم المنظر أمامها . تصورت أنها بصدده أن تشاهد منظراً رائعاً . ثانى أعظم منظر في العالم . وربما كانت الصخرة من الرخام لأنها كانت تلمع في الظلام . كما أن حذاءها الجلدي ينزلق عليها في خطورة شديدة . وبدأ الممر يتتخذ اتجاهات متعرجة وبدأ الظلام يقل تدريجياً . وأسفلها بين الأشجار بدت المدينة بعيدة مثل كوكب راحل . وفوقها لم تشاهد سوى أبراج غارقة في الظلام وسقالات . وتلاشت الدمدة التي تتراكم عن حركة المرور بالشوارع . ولم تعد تسمع سوى قعقة حشرات زيز الحصاد .

– عليك بالسير في بطء الأن . لوسمحت

وأدركت من صوته أنه لم يبق سوى القليل . وتعرج الممر مرة أخرى . ووصلنا إلى سلام خشبية . راح يوسف يسير في خفة في هذه الأماكن . فقدته في طريقة المشي . ثم مرّاً جنباً إلى جنب من بوابة هائلة . وعندئذ شاهدت قمراً غير متكامل ينزلق لأسفل من بين النجوم ويتحذ مكانه بين أعمدة هيكل البارثون . شعرت بالوحدة القاسية والاكتئاب . واستمرت في السير للأمام في بطء شخص يتجه نحو سراب وينتظر تحول السراب إلى لا شيء . إلا أنه ظل موجوداً . فسارت باحثة عن مكان يعينها على الصعود لأعلى . ولكن عند أول درجة سلم

شاهدت لافتة مكتوب عليها «ممنوع الصعود» . وفجأة ولسبب غير واضح بدأ تجري . بين الصخور الجلمية متوجهة نحو الطرف المظلم من هذه المدينة غير الدنيوية بينما كان يوسف في قميصه الحريري يجري إلى جوارها في سهولة وبدون أن يبذل أيَّ مجهود . وكان يضحك ويتكلُّم في نفس الوقت . وكانت هي تقول كلاماً قيل لها أن تقوله عندما تكون في السرير . أحسَّ بأنه بمقدورها أن تخلص من جسدها وتطير نحو السماء بدون أن تسقط على الأرض . ثم وصلت إلى حاجز الجسر وارتَّمت عليه وحملقت لأسفل نحو الجزيرة المضاء المحيطة بخضم الظلام لسهول أنتيك . ونظرتْ وراها شاهدته وهو ينظر إليها على مسافة خطوات قليلة .

وقالت أخيراً : شكرأ جزيلاً لك .

ثم اتجهت نحوه وأمسكت برأسه بين يديها وقبلته في فمه قبلة طويلة .

ثم كررت قولها : شكرأ لك يا يوسف . الا أنها أدركت أنه يتراجع مبتعداً عنها . فتصاعد الغضب في داخلها ثم حملقت في وجهه الجامد الذي يشبه وجه الحارس تحت ضوء القمر . وشاهدت في مقلتي عينيه إحجاماً لم تشاهده من قبل . إذ كان إحجامه عنها ليس نابعاً من عدم الرغبة فيها . أدركت تماماً وهي تعانقه أنه يتراجُع بالرغبة . فسيطرت على مشاعر الغضب بداخلها وقالت له : - هل لي أن أشكرك مرة أخرى ؟

ظلَّ يحملق فيها في صمت . ثم رفع يده لكي ينظر في ساعته الذهبية تحت ضوء القمر . وقال : «نظراً لأنَّه لم يعد أمامنا سوى قدر ضئيل من الوقت فعلىَّ أن أريك بعض المعابد الموجودة هنا» وسار بها من معبد إلى معبد . يشرح لها وتصفى في انتباه شديد .

ترامي إلى سمعها من على مسافة بعيدة أسفلهما بوق سيارة تطلق كلاكسات على ثلاث مرات متعمدة فأدركت أن يوسف هو المقصود لأنَّه رفع رأسه على الفور وراح يتأمل صوت الكلاكسات كحيوان يتشمِّم الرياح ، قبل أن ينظر إلى

ساعته مرة أخرى . واتخذا طريقهما نحو العودة وقام رجل الشرطة بتأداء التحية
لهمَا وهما في طريق الهبوط إلى الأرض .

كان الطريق شاغراً باستثناء وجود سيارة مرسيدس كانت تقف بمفردها.

وعلی مقعد خشبي طويل ليس بعيداً عن السيارة المرسيدس جلس اثنان متعانقين
كان لون السيارة داكناً ولكنه ليس أسود . كانت واقفة بجوار الحافة العشبية بينما
أرقام اللوحة الأمامية غير مرئية .

أدركت أنها سيارة غير عادية حيث يوجد بها هوائيات وايريات وأجهزة إضافية أخرى . وعندما وصلنا بجوار باب السائق في هذه السيارة أدركت أنه بقصد أن يفتح بابها . شاهدته وهو يدفع بمفتاح في ثقب باب السيارة وعندئذ ارتفعت جميع الأقفال الأربع الخاصة بالأبواب الأربع لأعلى على الفور . ثم اقتادها في دوران إلى باب المقعد المجاور للسائق بينما هي تسأله : بحق الجحيم ..

فقال لها : ألا تعجبك هذه السيارة . هل لي أن أطلب سيارة أخرى مختلفة
عن هذه ؟ لقد أعتقدت أنك مولعة بالسيارات الحمilla «

- هل تعني أنك قد استأجرت هذه السيارة؟

— ليس الأمر هكذا على وجه الدقة . ولكنها أُعيرت لنا من أجل رحلتنا .

أمسك بالباب المفتوح كى تدخل . لكنها لم تفعل تساعل : ومنْ أعارك هذه المساردة ؟

صدیق کریم -

- ما اسمه؟

— لا تكوني سخيفة يا تشارلي . هربرت . كارل .

ما هي الفوارق التي يضيفها الاسم ؟ هل تفضلين المساواة في المتاب
التي تتميز بها سيارة فيات يونانية ؟

- وأين أمتعتني ؟

- إنها في صندوق السيارة . إذ قام ديمترى بوضعها هناك بناء على تعليمات صادرة مني . هل تودين إلقاء نظرة لكي تعيدي الطمأنينة إلى نفسك ؟

ثم ركبت السيارة المرسيديس . وفي لحظات جلس يوسف إلى جوارها في مقعد القيادة . وأدار على الفور مفتاح التشغيل . كان يرتدى فى يديه قفازاً من الجلد الأسود، وبه فتحات للتهوية على الظهر . من المؤكد أنه يحتفظ بهذا القفاز فى جيبه . ارتداه بمجرد أن دخل إلى السيارة . وانطلق بالسيارة فى سرعة ومهارة فائقة . ولم تشعر تشارلى بالارتياح لهذه السرعة فى القيادة ؛ اذ ينبغي على المرأة أن يحافظ على السيارات التى يستعيرها من أصدقائه .

كان الباب بجوارها مغلقاً بالقفل أوتوماتيكيا . كان قد أعاد غلق جميع الأبواب من خلال مفتاح الغلق المركزى . قام بتشغيل الراديو فصدرت عنه موسيقى يونانية حزينة كثيرة .

قالت : كيف يمكن لي أن أفتح هذه النافذة اللعينة ؟

فضغط على زدار . وعندئذ تدفق هواء الليل الدافئ على وجهها حاملاً معه رائحة الراتينج الصمفيه ، الا أنه فتح زجاج النافذة لمسافة بوصتين فقط .

تساءلت بصوت مرتفع : هل يصح أن تأخذ فتاة إلى جهات غير معلومة وتنطلق بسرعة تبلغ ضعف سرعة الصوت ؟

لم يرد عليها ؛ إذ كان يحملق أمامه فى انتباه شديد . وامتلأت السيارة بأصوات متراوحة من الخلف . فنظرت خلفها . فشاهدت عبر النافذة الخلفية أضواء مصباحين أماميين لسيارة تنطلق وراءهما على مسافة مائة ياردة مع الاحتفاظ بهذه المسافة بحيث لا تنقص ولا تزيد .

تساءلت : هل هذه السيارة الأخرى معنا ؟

ثم وقع بصرها على رداء أحمر فضفاض مُلقى على المقعد الخلفي للسيارة وبه أزرار من النحاس الأصفر مثل الأزرار النحاسية التي شاهدتها من قبل فى

بورك ونونتجهام مع وجود نفس التفصيلة التي ترجع إلى العشرينات . فبدأت الشكوك تخامرها وتهجم عليها . وطلبت منه سيجارة .

قال بدون أن يلتفت نحوها : « لماذا لا تبحثي في التابلوه الموجود أمامك » قامت بفتح التابلوه . فشاهدت علبة سجائر كما شاهدت كوفية حريرية ونظارة شمسية غالية الثمن . فاستخرجت الكوفية وراحت تشمها وأدركت أن بها الكولونيا التي يستخدمها الرجال . ثم أشعلت لنفسها سيجارة .

سالت : هل صديقك صاحب هذه السيارة يشتغل في مهنة مساعدة الممثلين المسرحيين على ارتداء ملابسهم ؟

- نعم إنه يعمل في هذه المهنة . لماذا تسألين ؟

فقالت : وهذا الرداء الأحمر الفضفاض الموجود على المقعد الخلفي للسيارة؟ هل هو رداؤك أو رداؤه ؟

نظر إليها بسرعة كما لو كان قد تأثر من هذا السؤال ثم عاد ببصره إلى الطريق . قال في هدوء مع تعمّد زيادة سرعة السيارة : « دعينا نقول إنه رداؤه هو ولكنني استعرت منه .

- وأنت قد استعرت منه نظارة الشمس الخاصة به أيضاً . أليس كذلك ؟
أعتقد أذلك كنت في مسيس الحاجة إلى هذه الأشياء لكي ترتديها ، وتجلس عند أصوات خشبة المسرح السفلية على ذلك النحو . وأسمك هو : ريشتوفين ؟ أليس كذلك ؟

- نعم .

- واسمك الأول هو : بيتر . ولكنك تفضل اسم : يوسف . وأنت تعيش في فيينا . وتقوم ببعض الأعمال التجارية أحياناً . وتقوم بالدراسة والاستذكار أحياناً أخرى .. ورقمك البريدى هو : ٧٦٢ مكتب البريد الرئيسي . أليس كذلك ؟
شاهدته يومئ برأسه بما يفيد أن ذاكرتها قوية . وهنا ازداد مؤشر عدد السرعة إلى ١٣٠ كيلو مترا في الساعة .

استطردت تشارلى : « وجنسیتك غير معلنة . لأنك مجرد هجين . لك ثلاثة أطفال وزوجتان . والكل في كوخ واحد » .

- لا زوجات ولا أطفال

- أبداً ؟

- أبداً .

- الفتیات فی هذه الأيام حب استطلاع .

كان الطريق مستقيماً، لكنه ضيق . ووصل مؤشر السرعة إلى ١٤٠ كيلو مترا / ساعة . بدأت تشعر بالهلع يتتساعد في داخل كيانها ويتصارع مع هدوئها الاصطناعي الزائف .

فتساءلت : « أيمكنك أن تخبرني ببعض الأخبار السارة ؟ أية أخبار تجعلنىأشعر بالارتياح والاطمئنان ؟ »

فقال : « الأخبار السارة أنتى كذبت عليك . وفي خلال فترة قصيرة من الآن سوف تدركين الأسباب الكثيرة التي دعت لأن تكوني موجودة معنا .

فقالت في حدة : « ماذا تعنى بكلمة معنا ؟ »

وكان متوجهاً نحو طريق رئيسي . ولكنه لم يخفض من سرعته وفكرت فجأة في الندبات الغائرة الموجودة في جسده . فتساءلت :

« المسألة لا تتعلق بالبنادق والأسلحة ؟ . أليس كذلك ؟ وأنت لست بصدّ الدخول في حرب صغيرة في مكان ما . أليس كذلك ؟ أنتى لا أتحمل أصوات الأعيرة النارية وطلقات الرصاص . لأن طبلة أذنی حساسة للغاية » .

وادركت أن نغمة صوتها أصبحت غريبة وغير مألوفة لها .

قال لها : « لا شك يا تشارلى . العملية ليست تهريب للأسلحة والذخائر » .

فقالت : « أهى عملية احتجاز امرأة من أجل الاتجار في جسدها ؟ .

- لا . ولا هي عملية التجارة في جسد امرأة .

- إذن فالامر يتعلق بالمخدرات . أليس كذلك ؟ . لأنك تتاجر في شيء ما . أليس كذلك ؟ . ولكنه لم يرد عليها . مدت يدها وأغلقت الراديو . ثم قالت : أريد منك أن توقف السيارة وتتركني وشأنى ويمكنك أن تعود غداً إلى جزيرة ميكونوس إذا أردت .

- وأتركك هكذا في منتصف الطريق ؟ لا تكوني سخيفة ؟

فصرخت : «أوقف السيارة الآن . أوقف هذه السيارة اللعينة» .

وتحطمت السيارة مجموعة من أضواء شرطة المرور وانحرفت إلى اليسار في عنف شديد لدرجة أن حزامها أغلق على جسدها . ومدت يدها إلى عجلة القيادة . ولكنه كان أقوى منها بكثير . ثم انحرف إلى اليسار مرة أخرى وعبر بوابة بيضاء ودخل في ممر مرصوف خصوصى، على جانبيه نباتات الأزالية الصحراوية ونباتات الخبزة . ثم توقفت السيارة في مساحة مليئة بالحصباء المطلية باللون الأبيض . توقفت السيارة الأخرى خلف السيارة المرسيدس مباشرة وبحيث تسد الطريق .

وسمعت تشارلى صوت وقع أقدام فوق الحصباء . وكان يوجد منزل على هيئة قيللاً قديمة مغطاة بالورود الحمراء . حيث ينطلق ضوء شاحب في الشرفة . وأطفأ يوسف موتور السيارة المرسيدس ووضع مفتاحها في جيبيه . وانحنى عبر تشارلى . وفتح لها الباب . وطلب منها الخروج . ثم خرج من السيارة . ولكن تشارلى ظلت جالسة في مقعدها . بدا الجو مكتوماً، خالياً من النسيم تماماً . وكان الصمت سائداً . ولا شيء سوى وقع أقدام أناس يتجمعون حول السيارة . وشاهدت ديمترى السائق البالغ من العمر عشر سنوات . كما شاهدت فتاتين ترتديان الجينز والجاكتات . إنهما نفس الفتاتان اللتان سارتا وراءهما نحو جبل الأكروبوليس . ثم سمعت أصوات شخص ما وهو ينقل أمتعتها من صندوق السيارة . فقفزت في غضب خارجة من السيارة . وصاحت «الجيتار الخاص بي . اتركوا هذا الجيتار . أنتم يا» .

الآن أحدهم . كان قد حمل الجيتار بالفعل تحت ذراعه . كما قام ديمترى بحمل حقيبة الكتف الخاصة بها . وكانت تشارلى على وشك أن تقفز للإمساك بالجيتار الخاص بها . ولكن الفتاتين أمسكتا بمعصمها ومرفقها وقامتا باقتياصها بدون أي مجهود نحو الفراندۀ الأمامية .

وصرخت «أين يوسف ابن الحرام؟» .

ولكن ابن الحرام يوسف بعد أن استكمل مهمته كان قد بدأ يصعد السلالم بدون أن ينظر وراءه إليها مثل شخص ما يهرب من حادث . وتحت أضواء الفراندۀ تمكنت تشارلى من مشاهدة العلامات الموجودة على لوحة السيارة الخلفية . إنها لم تكن سيارة يونانية على الإطلاق . وإنما كانت سيارة عربية ولها أرقام مكتوبة بأسلوب هوليود . وفوق غطاء صندوق السيارة الخلفي يوجد حرفان : H.D أي هيئة دبلوماسية إلى اليسار مباشرة من الشعار الرمزي لشركة مرسيدس .

النسل السادس

قامت الفتاتان باصطحابها إلى نورة المية وطلتا إلى جوارها في غير خجل . وكانت إحداهما شقراء والأخرى سمراء . كلتاهم تتسمان بالحقاره والخسنه والوضاعه . ولكن التعليمات صدرت إليهما لكي تعاملوا الفتاة الجديدة في شيء من الرفق .

قالت الفتاة السمراء: اسمى راشيل . وهذه الفتاة الشقراء تسمى : روز . هل فهمت ؟ فنحن اسماً من حروف «الراء» .

كانت راشيل هي الفتاة الجميلة لها لهجة الشمال الجميلة . عينان مرهفتان . وذات مؤخرة لفت أنظار يانوكا . أمّا روز فطويلة ونحيلة وقوية وذات شعر أشقر مجعد . وتبدو مثل الفتاة الرياضية .

قالت روز في لهجة قرية من لهجة جنوب أفريقيا :

- لسوف تكونين على ما يرام يا تشارلي . ولا داعي لأن تشعرى بالقلق .
قامتا باقتياضها من المرحاض إلى غرفة نوم موجودة بالدور الأرضي . وقدمتا لها مشطاً وفرشاة شعر وكوباً من الشاي بدون لبن . فجلست تشارلي على السرير . وراحت ترتشف الشاي . وهي تتمتم : «احتجاز ممثلة مفلسة تماماً لا تمتلك أية نقود . ما هي الفدية التي أتيتها الفتاتان ؟ المبلغ الذي سحبته من البنك والذي يزيد على الرصيد الفعلى الخاص بي ؟»

اكتفيتا بالابتسام لها والرفقة عند جانبيها من أجل اصطحابها لكي تصعد على السلالم الرئيسية .

كان المنزل قديماً، مليئاً بروائح القبط ورائحة أنها . وبالأثاث اليوناني القديم وستائر القطيفة الباهتة ومجموعات الثريا والنجد . إلا أنه كان نظيفاً مثل مستشفى سويسري أو زلقا مثل ظهر المركب .

اقربتا من باب مزدوج . دفعت راشيل الباب . ووقفتا على جانب ثم فتحتا الغرفة العلوية الشبيهة بالكهف أمام تشارلى . وفي وسط الغرفة يجلس هيكلان إلى منضدة . أحدهما عريض وضخم . والأخر منحنٍ ورفيع للغاية إلا أن كليهما يرتديان ملابس بنية ورمادية سديمية . وعلى المنضدة توجد أوراق شبيهة بقصاصات الصحف فأدركت أنها قصاصات الصحف التي تتحدث عن نشاطها الفني . قامت راشيل بضرب تشارلى بخفة على مؤخرتها وقالت لها «أدخلى إلى الغرفة الآن» . ووجدت تشارلى نفسها تقطع مسافة عشرين قدماً بمفردها . فقفز الرجلان واقفين على الفور بينما وقف الرجل الرفيع بجوار المنضدة لكن الرجل الضخم مشى في إقدام نحوها . ومد يده وسلّم عليها قبل أن تتمكن من منعه من ذلك . قال كيرتز لها «يا تشارلى نحن سعداء لوصولك آمنة إلى هنا بيننا . اسمى مارتي . وهناك يوجد المستر ريشتهوفن الذي أطلقتهم عليه اسم : يوسف » .

من المؤكد أن يوسف دخل الغرفة دون أن تلحظ تشارلى . فراحت تحملق فيما حولها . فرأته يقوم بترتيب بعض الأوراق عند منضدة صغيرة منعزلة في الغرفة عليها لمبة القراءة . أدركت أنه قد غير ملابسه وأصبح مرتدياً «بلوفر» بنى اللون بدلاً من القميص الحريري الذي له أزرار ذهبية عند الإسورة .

قال يوسف : نصيحتى إليك أن توجلى حكمك الآن علينا إلى أن تسمعى ما سيقوله لك هذان الرجالن . وأنت الآن مع أناس طيبين . لسوف تعرفين الكثير وإذا كنت سعيدة الحظ سيكون أمامك الكثير من الأعمال التي تؤدينها .

فقالت تشارلى مخاطبة ليتفاك معتقدة أنه أكثرهم تائراً بالأخرين على أساس أنه طويل ونحيل : هل أنت متأكدون أنكم حصلتم على الفتاة التي تريدونها بالفعل اذا كتم تبحثون عن الرجال الثلاثة المثلثين الذين سطوا على البنك في الشارع رقم ٥٢، فإنهم قد ذهبوا في الطريق الآخر . أمّا أنا فكنت أترج على الحادث» .

فقال كيرتز في ابتهاج : «يا تشارلى . نحن متأكدون أننا قد حصلنا على

الفتاة التي نريدها . وليس على الفتاة الخطأ» . ثم أضاف قائلاً «نحن أناس طيبون مثلما قال يوسف . ويمكنك أن تقولي عنا إننا غير متتعصبين وغير منحزين ونهم مثلك تماماً بالاتجاهات الخاطئة التي تجتاح العالم حالياً . وإذا أضفت لك قائلاً إننا مواطنون إسرائيليون أمل لا تشعرين بالحنق على الفور أو تتقيئين أو تقززين من النافذة اللهم إلا إذا كنت تعتقدين أنه ينبغي إلقاء اسرائيل في البحر أو ضربها . وأضاف قائلاً «فهل هذا هو ما تعتقدينه ؟ ولماذا لا تقولي رأيك بكل صراحة؟»

هبط على تشارلى هدوء شديد مما أخفى ما يعتمل في داخلها من رعب ومشاعر متضاربة .

فتساءل كيرتز : «هل تشعرين أنك موجودة بين أعداء في هذا المكان؟» .
فقالت في تهم : «أيها السيد المسيح . ما الذي جعلك تعتقد في هذه الفكرة ؟ أعني أن أي شخص يختطفني فهو صديق لي مدى الحياة» . انفجر الموجودون في الضحك باستثناء يوسف الذي كان مشغولاً في قراءة الأوراق الموجودة أمامه .

وقال كيرتز «دعينا ننسى أنك على نحو ما أسيرة هنا . هل ينبغي على إسرائيل أن تظل على قيد الحياة أو ينبغي على الاسرائيليين جميعاً أن يحرزوا أمتعتهم ويزهبون إلى كافة الدول التي سبق أن جاءوا منها ؟ أم تفضلين أنه ينبغي علينا أن نأخذ مساحة من الأرض في أفريقيا الوسطى ؟ أو أروجواي ؟ ولا أقول مساحة من مصر لأننا سبق لنا أن حاولنا ذلك ولم نحرز النجاح ؟ أو هل ينبغي علينا أن نشتت أنفسنا مرة أخرى في أوروبا وأسيا وننتظر حدوث المذبحة الجماعية التالية ؟ ما رأيك في هذا الكلام يا تشارلى ؟

- كل ما أريده هو أن تتركوا العرب المساكين وشأنهم .

- عظيم . وكيف لنا أن نفعل ذلك على وجه التحديد ؟

قالت : بأن تتوقفوا عن إلقاء القنابل على معسكراهم . وتتوقفوا عن

طردتهم من أراضيهم . و تتوقفوا عن هدم قراهم بالبلوزرات . و تتوقفوا عن تعذيبهم .

فقال كيرتز : هل سبق لك أن ألمت نظرة على خريطة الشرق الأوسط؟ .

- لقد ألمت نظرة على خريطة الشرق الأوسط بالطبع .

فقال كيرتز : وعندما نظرت إلى الخريطة . هل تمنيت في إحدى المرات أن يتركنا العرب وشأننا ؟

فقالت : إن كل ما أريده هو السلام .

وكان لا يوجد في ذهنها سوى تصور عن إعادة الفلسطينيين إلى الأرض التي طردوها منها .

فقال : با تشارلى . لسنا موجودين هنا من أجل أن ننتقد ونهاجم أفكارك السياسية . وأنت لن تصدقيني خلال هذه المرحلة المبكرة - ولكننا معجبون بهذه الأفكار . وبكل عبارة متناقضة ظاهرياً وبكل نوايا طيبة . فنحن نحترم سياساتك ونحن بحاجة إليها . لا نسخر منها على الإطلاق . وأأمل في وقت لاحق أن نناقشها في وضوح وصراحة وعلى نحو خلاق . فنحن نهدف إلى مخاطبة الجانب الإنساني داخلك وذلك هو كل ما في الأمر . ونهدف إلى الوصول إلى قلبك الطيب المليء بالانسانية . والوصول إلى مشاعرك وإلى إحساسك بالحق والعدل . وبناء على ذلك فسوف تجلسين بكل تأكيد معنا لفترة أطول لكي تسمعي مما كل ما نريد أن نقوله لك .

فأخذت تشارلى ردود الفعل لديها عن طريق اللجوء إلى الهجوم، حيث قالت : إذا كان يوسف اسرائيلياً فلماذا يقود هذه السيارة العربية العظيمة منطلقاً بها هنا وهناك ؟

فقال كيرتز : لقد سرقنا هذه السيارة يا تشارلى . والشيء التالي الذي تريدين أن تعرفيه يا تشارلى هو : ما الذي تفعلينه هنا بيننا ولماذا تم سحبك إلى

هنا بطريقة غير لطيفة . سأخبرك بالسبب . نحن يا تشارلى نريد أن نعرض عليك وظيفة . وظيفة تتعلق بالتمثيل .

وأضاف قائلاً : ستقومين بتمثيل أكبر دور في حياتك . وأكثر الأنوار إلحاضاً وأصعب الأنوار وبالتأكيد هو أخطر الأنوار وأهم الأنوار . وأنا أعنى هنا النقود . فأنت بمقدورك الحصول على أموال كثيرة ولا توجد مشكلة في هذا الصدد . يمكنك أن تحدي المبلغ الذي تريدينه . إن الدور الذي سنحدده لك سوف يشتمل كافة مواهبك سواء أكانت إنسانية أو مهنية . سوف يشتمل على ذكائك ومهارتك وعلى ذاكرتك القوية معلوماتك وشجاعتك وقادمك بل على الدفء الخاص بك . لقد وقع اختيارنا عليك يا تشارلى . قمنا بدراسة عدد كبير من المرشحين لهذا الدور من أقطار ودول عديدة . وانتهينا إلى اختيارك وذلك هو السبب في إنك موجودة هنا معنا بين أناس معجبين بك . وكل فرد في هذه الغرفة شاهد أعمالك الفنية وأبدى إعجابه بك . لذلك يجب أن نضع الموقف أو الجو في إطاره الصحيح . فمن جانبنا لا يوجد عداوات . وإنما توجد المحبة والاعجاب والأعمال . عليك أن تصفي إلينا . فنحن - كما قال صديقك يوسف - أناس طيبون . نحن نريدك . وبحاجة إليك . وهناك أناس بالخارج سيكونون بحاجة إليك أكثر منا .

راحت تشارلى تفكير : «في بادئ الأمر حصل «آل» على الدور الكبير الخاص به وهو أنا الآن بصدده الحصول على دور كبير» . وكبتت في داخلها ومضات الإثارة التي سرت في كيانها والتي كانت توحزها في خديها وتحاول الخروج إلى السطح . ثم قالت : «إذن فهذه هي الطريقة التي تختارون بها ممثلاً لكي يؤدي دوراً ؟ تقومون بضربي على الرأس وسحبه مكبلاً في الأغلال ؟ هذه هي الطريقة المعتادة التي تتجاذون إليها على ما أظن » .

فقال كيرتز : يا تشارلى من المؤكد أننا لا ندعى أن هذه دراما مألوفة أو عادية .

فقالت : إذن فهي مسرحية . ولماذا لا تقول ذلك ؟

قال كيرتز : إنها مسرحية بمعنى ما .

- ومن الذي يكتبها ؟

- نحن نضع الحبكة الروائية . ويقوم يوسف بوضع الحوار مع الحصول على قدر كبير من المساعدة منه .

فقمت بحركة مشيرة نحو الظلال وقالت : ومن هم جماهير المشاهدين ؟
هؤلاء الفتیات الصغیرات الفاتنات ؟

قال كيرتز : يا تشارلی . هناك أناس بالخارج لن يتمكنوا أبداً من مشاهدة المسرحية بل ولن يعرفوا أبداً أن المسرحية تؤدي بالفعل . ولكنهم سيكونون مدينين لك طوال حياتهم . أناس أبرياء . الناس الذين أبديت دائماً اهتماماً بشئونهم وحاولت التحدث نيابة عنهم وقيادة المسيرات من أجلهم ومساعدتهم . وفي كل شيء ينساب من هذا فصاعداً سيكون عليك الاحتفاظ بتلك الفكرة في رأسك وإلا فانك سوف تفقدينا وتفقدين نفسك ما في ذلك شك .

حاولت أن تشريح بوجهها بعيداً عنه . وكانت فصاحته عالية للغاية . وتمتنع لو قام بتطبيق فصاحته على شخص آخر .

فتتساءلت في وقاحة محاولة الصمود أمام موجة الاقناع : ومن تكون أنت بحق الجحيم بحيث تقرر من هو البريء ؟

قال : أنت صدرين نحن كإسرائيليين يا تشارلی ؟

فردت على نحو حاسم على الفور متجنبة الدخول في أرض خطيرة : - إنتي أقصدك أنت .

- أفضل أن أدخل تغييراً بسيطاً على سؤالك يا تشارلی وأقول إنه في رأينا أن شخصاً ما ينبغي أن يكون مذنباً للغاية بالفعل قبل أن يكون بحاجة لأن يموت .

- مثل من ؟ من الذى يحتاج لأن يموت ؟ أولئك الناس المساكين الذين تطلقون عليهم الرصاص فى الضفة الغربية ؟ أم أولئك الناس الذين تلقون عليهم القنابل فى لبنان ؟

كيرتز فى ثبات : فقط أولئك الذين يحطمون الروابط الإنسانية تماماً يا تشارلى هم الذين يستحقون الموت .

فاستأنفت تشارلى الكلام فى تأكيد شديد : وهل هناك يهود على ذلك النحو ؟

- نعم يوجد يهود على ذلك النحو . وبكل تأكيد يوجد أيضاً إسرائيليون ولكننا لسنا من بين هؤلاء الناس . وهؤلاء الناس ليسوا هم موضوع مشكلتنا هنا فى هذه الليلة .

لقد كان له سلطة التحدث على هذا النحو وكانت لديه الإجابات التى يتطلع إليها الأطفال . وكان لديه الخفية . وكل من بالغرفة يدرك ذلك بما فيهم تشارلى : الكل يدرك أنه رجل لا يتعامل إلاً فى الأمور التى عاش تجربتها . وهو عندما كان يسأل سؤالاً يدرك المرء أنه هو نفسه قد وجهت له الأسئلة . عندما يصدر الأوامر، يدرك المرء أنها الأوامر التى صدرت له . وهو عندما يتكلم عن الموت تحس أنه قد مر إلى جواره وربما يأتى إليه فى أية لحظة أخرى، وهو عندما قرر أن يصدر إليها تحذيرات - مثلاً فعل الآن - فإنه على بيته بمدى الأخطار التى يتحدث عنها : لا تدخل الملهأ على مسرحيتنا يا تشارلى لأن ذلك يحدث تشويشاً . وعندما تطفأ الأنوار على المسرح سيكون الوقت هو وقت الليل بالشارع . وعندما يضحك الممثلون سيكونون سعداء وعندما يكونون سيكونون مفجوعين ومحطمين . وإذا تعرضوا للجراح - وهم سوف يتعرضون بالفعل للجراح يا تشارلى فانهم بالتأكيد لن يكونوا - لدى إسدال الستار - فى وضع يسمع لهم بأن يقفزوا ويهردوا من أجل اللحاق بأخر أتوبيس بغية الذهاب إلى منازلهم . ولن يكون هناك تراجع عن أداء اللقطات الصعبة ولا أيام تمنع للإجازات المرضية . إنه أداء القمة على طول

الخط . فإذا كان ذلك هو ما تحببه - ونحن نعتقد أنك تحببين ذلك - إذن ينبغي عليك أن تصفي علينا جيداً . وإنما ينبعى علينا أن نلغي الاختبار الآن وعلى الفور .

هنا أبدى شيمون ليتفاك أولى ملاحظاته الاعتراضية أثناء الحديث حيث قال : تشارلى لم يسبق لها أبداً أن سارت مبتعدة عن قتال أو صراع طوال حياتها يا مارتن .. وكان لصوته طابع التلميذ الذى يؤيد وجهة نظر أستاذه . ثم أضاف قائلاً : نحن لا نؤمن فقط بذلك، وإنما نعرفه تمام المعرفة . فهذا وارد في كل سجلاتها . «

وأبلغ كيرتز رئيسه ميشا جافرون فيما بعد أنهم وصلوا إلى منتصف الطريق في إجراءاتهم : فالمرأة التي تافق على الإصطفاء إليهم هي امرأة تُذعن في نهاية الأمر .

كان كيرتز بارعاً . فقد تمكّن في خلال دقائق من وصولها - رغم أنها لا تزال خائفة - من مدّ أواصر الصداقة إليها . وتمكن من مناشدة روح الممثلة في داخل كيانها وروح الشهيد وروح الفدائية والمغامرة في داخلها . وتمكن من تملق الآونة وتملق طموحها المثار . وقدّم لها لمحّة مبكرة عن العائلة الجديدة التي ربما تهتم بالانضمام إليها . والأهم من ذلك فإنه بتوفير مثل هذه الفوائد والمنافع لها جعلها غنية : وهو الأمر الذي قالت عنه تشارلى فيما بعد لكي تعظ أيّ إنسان لديه الاستعداد لأن يستمع إليها إنه كان بداية لخضوعها الذليل وتبعيتها الذليلة .

وقال كيرتز بصوت خفيض : لذلك . يا تشارلى . فإننا نقترح تقديم اختبار مفتوح . سوف نقدم لك مجموعة من الأسئلة وندعوك للإجابة عليها بكل صراحة وبكل ثقة .

وتوقف عن الكلام . ولكنها لم تتكلم . إلا أن صمتها كان يعني إذاعاناً موافقة ضمنية .

فقال كيرتز : سؤال . ما الذي يحدث لو قرر أحدهنا أن يقفز عن السلم الميكانيكي الذي يتحرك صعوداً وهبوطاً على نحو متواصل ؟ ودعيني أحاول الإجابة على هذا السؤال يا تشارلى .

فقالت : وهو كذلك . أجب عن هذا السؤال يا مارت .

- شكرأ لك يا تشارلى . إذن استمعى إلى في انتباه لو سمحت . اعتماداً على درجة معرفتنا في ذلك الوقت وعلى تقديرنا لك فإننا سنسير في أحد اتجاهين . الاتجاه الأول : سنقوم بانتزاع وعد منك ونعطيك نقوداً ونرسلك إلى إنجلترا . ونتصافح باليد في ثقة متبادلة لأصدقاء مخلصين لكى نتأكد من أنك تحافظين على الاتفاق أو الصفة . هل تفهمين ما أقوله ؟

اتجهت بنظراتها إلى المنضدة لكي تهرب من نظراته الثاقبة المتفحصة ولكي تخفي الإثارة المتزايدة في داخلها .

فاستطرد : والاتجاه الثاني يتسم بإنه أكثر خشونة ولكنه ليس رهيباً . وهو أن نضعك في الحجر الصحي . لأنك تكشفين أسرار المشروع مما يتغدر علينا تقديمك في أي مكان آخر بينما تقومين بالتحدث عنه إلى درجة كبيرة .

واستطرد قائلاً : إذن ما الذي يمكننا أن نفعله في تلك الحالة . يا تشارلى . نحن نستأجر منزلأً ظريفاً في مكان ما - وليكن على الشاطئ . في مكان ما ملائم . ولا مشكلة في ذلك . نزودك بمجموعة من الناس المألوفين للناس هنا . أنساس ظرفاء يتسمون بالبراعة والمهارة والاقتدار ونشيع أسباباً زائفة عن غيابك بأن نقول مثلاً إنك ذهبت في رحلة صوفية إلى الشرق .

وأمسيكت تشارلى بقلم وبدأت تشخبط على كراسة موجودة أمامها .

وأضاف كيرتز : وما إن يتم إخراجك من الحجر الصحي فإننا لا نتخلى عنك ونهجرك - فإننا لا نفعل ذلك أبداً . وإنما نقوم بتمهيد الأمور لك وتسهيلها . ونعطيك أموالاً ونظل على اتصال بك ونتأكد من إنك لا تتخلين عن الحرص والحذر بأية وسيلة . وبمجرد أن يصبح الموقف أميناً تماماً نساعدك على استئناف حياتك

ومستقبلك . واستئناف الاتصال بأصدقائك السابقين . وذلك هو أسوأ ما يمكن أن يحدث يا تشارلى أقول ذلك لأنه ربما تنتابك حالياً فكرة مجنونة فتقولين : «لا» لنا الآن أو فيما بعد ثم تتخيلين أن رفضك هذا سيؤدي إلى موتك غرقاً في النهر . فنحن لا نتصرف على ذلك النحو وخاصة مع الأصدقاء .

وكانت تشارلى مازالت تعبث بالقلم . وبعد أن رسمت دائرة وضعت فوقها سهماً قطرياً لكي تجعلها مذكراً . وكانت قد شاهدت من قبل دراسات سيكولوجية شعبية استخدمت ذلك الرمز . فجأة تكلم يوسف بضيق لأن شخصاً قاطعه في الكلام . إلا أن صوته أحدث تأثيراً دافئاً عليها .

يا تشارلى لا يكفي بالنسبة لك أن تقومي بدور الشاهدة المتجهمة الوجه . فنحن نناقش الآن المستقبل الخطير الخاص بك . أتهدفين إلى الجلوس هنالك وتسمحين لهما بالتخلص من مستقبلك بطريقة عملية، بدون استشارتك ؟ أريد منك التزاماً يا تشارلى هل تفهميني

فتتساءلت تشارلى بصوت خال من الحيوية والحماس وكان يوسف لم يتكلم على الاطلاق : إذن إلى متى سوف يمتد العرض يا مارت ؟
فقال كيرتز : حسناً . أظن إنك تعنين : ما الذي سيحدث لك عندما تنتهي هذه المهمة ؟ أليس ذلك صحيحاً ؟

فألقت بقلم الرصاص الموجود في يدها وقالت «لا» أعني إلى متى سيستمر العرض . وماذا عن الجولة المسرحية التي ساقوم بها لتقديم مسرحية : (كما تحبها) في فصل الخريف ؟

فقال كيرتز في حماس واهتمام : لن تتأثر مسرحية (كما تحبها) بأيّ حال من الأحوال بسبب مشروعنا . ونحن نتوقع أن توفي بالتزاماته . أمّا بالنسبة للفترة الزمنية الخاصة بمشروعنا فإن ارتباطك بمشروعنا يمكن أن يستغرق ستة أسابيع ويمكن أن يستغرق عامين . وما نريد أن نسمعه منك الآن هو ما إذا كنت ترغبين في الدخول في التدريبات معنا أو تفضلين أن تودعى كل شخص هنا

وتعودين إلى حياتك السابقة التي هي أكثر أمناً وأكثر سخافة . ما هو القرار الذي ستتخذه ؟

أراد أن يعطيها إحساساً بالانتصار علامة على إحساس بالخصوص وبحيث تختار بنفسها مختطفيها وأسرتها . كان بمقدورها أن تشعر ب أجسادهم وهي تمتد للأمام في توتر . وباستطاعتها أن تشعر بقوة الهدف الذي يسعون إليه وبقوة النفوذ الخاص بها : هل تقبل ؟ هل ترفض ؟

وتساءلت تشارلى دون أن تدبر رأسها : «يا يوسف» ؟

- نعم . يا تشارلى

- وماذا عن رحلتنا الرومانسية الكبرى في اليونان ؟ والتي تغطي معد دلفي وثانى أعظم أماكن في العالم ؟

فقال يوسف : إن اتجاهنا إلى الشمال لن يتاثر بأى حال من الأحوال .

- ولن يتتأجل ؟

- بل يمكننى القول إنه وشيك الواقع في حقيقة الأمر وانفصل زدار جاكتها وسقط في راحة يدها . فالقت به على المنضدة . وشاهدته وهو يلتف ويدور كالنحلة ثم يهدأ ويستقر . وخطر على ذهنهما أن تلعب معهم لعبة «ملك أم كتابة» وقالت لنفسها : دعهم يعرفون بعض الشئ . وأخرجت زفيراً عالياً من رئتيها كأنها ت يريد أن تزيح خصلة الشعر الموجودة في مقدمة رأسها .

ثم قالت لكيرتز في غير اهتمام وهي تنظر إلى الزدار : إذن سأبقى هنا من أجل الاختبارات . أليس كذلك ؟

وبدأت إجراءات استجواب تشارلى بعد أن تم الحصول على موافقتها .

.....

وكانت الأسئلة الأولى التي وجهها كيرتز مبعثرة وخالية من الأضرار . بدا الأمر وكأن لديه استمرارات جواز سفر خالية يرغب في ملا ببياناتها من خلال

”ريود“ التي تقولها تشارلى . الاسم الكامل لوالدتك يا تشارلى . تاريخ ميلاد رمكاً . ميلاد والدك . وظيفة جدك لأمك . آخر عنوان معروف لخالتك ثم أعقب ذلك أنسنة تتعلق بالتفاصيل الخفية عن مراحل التعليم الخاصة بوالدتها . ولم تكن هذه الأسئلة الأولى تتعلق بشكل مباشر بتشارلى . وكأنها بمثابة الموضوع الذي يحرص كيرتز على تجنبه . ولم يكن الهدف من وراء هذه الأسئلة جمع واستباق المعلومات والبيانات دائمًا أن يتم غرس الطاعة الغريزية في داخل كيانها وغرس طابع (نعم يا سيدى/ لا يا سيدى) الموجود في الفصول الدراسية مما يؤدي إلى ترسيخ الأذاعان .

ثم تسأعل كيرتز : لماذا سُميتك باسم : تشارميان ؟
ردت تشارلى : اتفقوا على تسميتى بذلك الاسم من أجل بنت عمتنا الغنية
التي تحمل نفس الاسم .

تساءل كيرتز : وهل أدى ذلك إلى مكافئات مالية ؟
ردت تشارلى بطريقة مسرحية ساخرة : ليس بعد . وأضافت : أن والدى
قد مات كما تعرفون وكان على ابنة العمة تشارميان أن تلحق به .

وتمتم كيرتز في ارتياح وهو يقول : «أنت من برج الميزان» وهو يدون
ملحوظاته بسرعة .

ثم انتقل بها بسرعة إلى حياة طفولتها المبكرة - المدارس الداخلية والمنازل
وأسماء الأصدقاء والصديقات القدامى . فرددت عليه تشارلى في تجاوب ورغبة
أكيدة . ثم انتقل كيرتز إلى التاريخ المؤلم للدمار الذي لحق بوالدتها فرددت تشارلى
بالتفصيل ابتداء من تفشي هذه الأنباء إلى حدوث الصدمة الناجمة عن مثوله أمام
المحاكم وأصدر حكم عليه وايداعه في السجن . ثم قالت في ابتسامة مليئة
باليأس : «لوكنا ننتمي للطبقة العمالية لكننا قد أصبحنا على ما يرام» فالإنسان
المنتمي للطبقة الرأسمالية يتعرض للسلب والنهب ويصبح زائداً عن الحاجة

وتهاجمه القوى الرأسمالية ونحن لم نكن من الطبقة العمالية . وفجأة أصبحنا من الخاسرين .

فقال كيرتز في وقار : هذه قسوة .

ثم رجع إلى الحقائق الثابتة : تاريخ ومكان المحاكمة يا تشارلى . وما هي مدة العقوبة بالسجن يا تشارلى وما هي أسماء المحامين اذا كنت تتذكرين . وحاولت تشارلى أن ترد على كافة الأسئلة بقدر ما تسعفها الذاكرة . وكان ليتفاكر يدون ويكتب إجاباتها لكي يتبع المجال لکيرتز من أجل تركيز انتباذه على تشارلى .

وأعلن كيرتز عن فترة استراحة قصيرة . وقامت روز بإحضار كوب من الشاي المحلي بالسكر وبدون لبن من أجل تشارلى كما أحضرت راشيل بسكوتاً أخذت تشارلى واحدة منه، تساعلت راشيل : أتریدين الذهاب إلى المرحاض ؟
- لا . شكرًا جزيلاً .

وراحت تشارلى ترتشف الشاي . ووضعت مرافقها على ظهر الكرسى الذى تجلس عليه لكي تتمكن من إلقاء نظرة بطريقة طبيعية عبر كتفها . فاكتشفت أن يوسف اختفى وأخذ معه أوراقه .

الفصل السابع

استأنف كيرتز استجوابه لشارلى بينما استخرج ليتفاك ملفا من حقيبته :
يا تشارلى . فيما يتعلق بوالديك مرة أخرى .

مدت يدها لتأخذ سيجارة . وصمت كيرتز للحظات قصيرة ، حيث راح يدرس بعض الوثائق التى وضعها ليتفاك فى يديه . ثم قال : نحن نبحث الآن فى المرحلة الأخيرة من حياة والدك ، تحطمـه ، والعـار المـالـى الذى لـحق بـه وموـته الخ . هل يمكن لنا أن نؤكـد معـك تـتابع هـذه الأـحـادـاث عـلـى وجـه الدـقـة؟ لقد كـنـت مـلـتـحـقـة بمـدرـسـة دـاخـلـيـة انـجـليـزـية . ثم جاءـتـكـ هـذـه الأنـبـاء الرـهـيـة . إـبـدـئـى منـ هـذـه النـقـطـة لوـسـمـحـتـ .

ولم تـكـنـ مـتـتـبـعـة كـلـامـه تـمامـا فـتسـأـلتـ : منـ أـينـ ؟
- «منـ حـيـثـ جـاعـتـ الأنـبـاء الرـهـيـة . إـبـدـئـى منـ هـنـا» فـهـزـتـ كـتـفيـها وـقـالتـ :
لـقد طـرـدـتـنـى المـدرـسـة . فـرـجـعـتـ إـلـى مـنـزـلـى . فـشـاهـدـتـ مـنـدوـبـيـ المـحـكـمـة يـحـوـمـونـ
حـولـ المـنـزـلـ مـثـلـ الفـقـرـانـ . وـكـنـا مـوـجـودـيـنـ بـالـنـزـلـ هـنـاكـ .
فـقـالـ كـيرـتـزـ : لـقـد قـامـتـ نـاظـرـةـ المـدرـسـة باـسـتـدـعـائـكـ . فـماـ الـذـىـ قـالـتـهـ لـكـ
عـلـىـ وجـهـ الدـقـةـ ؟ـ لوـسـمـحـتـ ؟ـ .

- لـقـد طـلـبـتـ مـاـ تـرـوـنـ أـنـ تـحرـمـ لـكـ أـمـتـعـتـكـ . فـمـعـ السـلـامـةـ وـحـظـاـ سـعـيدـاـ
وـهـذـاـ هـوـ مـاـ أـتـذـكـرـهـ .

- أـلمـ تـوضـعـ لـكـ السـبـبـ فـيـ إـصـدـارـهـمـ الـأـوـامـرـ بـأـنـ تـتـرـكـيـ المـدرـسـةـ ؟ـ
لـمـ تـكـنـ مـصـارـيفـ المـدرـسـةـ قـدـ سـدـدـتـ عـلـىـ مـدـىـ فـقـرـتـيـنـ درـاسـيـتـيـنـ -ـ أـلمـ يـكـنـ
هـذـاـ سـبـبـاـ كـافـيـاـ ؟ـ إـنـهـمـ يـهـتـمـونـ بـالـنـوـاـحـىـ الـمـالـيـةـ التـجـارـيـةـ .ـ وـلـاـ تـنسـ أـنـ هـذـهـ مـدـرـسـةـ
خـاصـةـ ؟ـ

- إذن فقد ذهبت إلى منزلك بعد ذلك . هل ذهبت بالقطار ؟

- قطعت كل المسافات بالقطار . ومعي حقيبتي الصغيرة .

- وماذا شاهدت في المنزل على وجه الدقة ؟

- الفوضى . وشاهدت عربة فان خاصة بالأثاث واقفة في الممر الفرعى المؤدى إلى المنزل . وشاهدت رجالا يرتدون مرايل . وكانت أمى منخرطة في البكاء أما غرفتها فقد أفرغت من نصف محتوياتها .

- وأين كانت اختك هايدى ؟

فقالت تشارلى في عدم اهتمام وهى تنظر إلى يديها : اعتذر أنها كانت في حالة «حمل» . فهى عادةً ما تكون حاملاً .

فقال كيرتز : ياتشارلى . لم تكن هايدى حاملاً . فنول حالة حمل شهدتها هايدى حدثت في السنة التالية .

- وهو كذلك . لم تكن حاملاً في هذه المرة فقط ..

اذن لماذا لم تحضر هايدى وتقدم المساعدة لأسرتها ؟ .

- ربما هي لم تكن ترغب في أن تعرف . وكل ما ذكره أنها ظلت بعيدة عن الأحداث . حدث ذلك منذ عشر سنوات وكانت في ذلك الوقت فتاة صغيرة للغاية «يا للعار . هايدى لم تستطع أن تتحمل العار . أقصد العار الذى يتعلق بإنفلاس والدك» .

فقالت تشارلى في حدة : وهل كان هناك عار آخر ؟ فقال كيرتز «على أية حال . لقد فضلت هايدى البقاء بعيداً ووُقعت المسئولية كلها على أكتافك الصغيرة يا تشارلى حيث كان عمرك حوالى ١٦ عاماً» . ثم توقف عن الكلام تماماً متظلاً أن تتكلم .

لكنها لم تتكلم . راحت تحملق في وجهه في تفريس على نحو مستمر، إنها تلجم إلى هذه الطريقة منذ أن كانت طفلاً صغيرة حيث تجعل وجهها يتجمد

ويصبح مثل صورة ثلوجية ثم تنخرط في التفكير في أمور أخرى مستترة وراء تلك الصورة الجامدة . فكسبت الجولة والدليل على ذلك أن كيرتز اضطر إلى البدء في الكلام .

يا تشارلى . نحن ندرك أن الأمر مؤلم للغاية بالنسبة لك . ولكننا نريد منك الاستمرار في وصف ما حدث . لقد وصلت العربية الفان . وكان يتم نقل ممتلكاته من المنزل . وما هي الممتلكات الأخرى الخاصة بك والتي يتم نقلها ؟

- الحصان الصغير الخاص بي .

- وأخنووا ذلك أيضاً ؟

- لقد سبق أن أخبرتك بذلك ؟

- مع نفس الأثاث ؟ وفي نفس السيارة الفان ؟

- لا . في سيارة فان أخرى . لا تكون سخيفاً .

- إذن كانت هناك اثنان من السيارات الفان . وكلتاهم في وقت واحد ؟

أم الواحدة تلو الأخرى ؟

- لا أذكر .

- وأين كان والدك موجودا طوال هذا الوقت ؟ أكان موجوداً في المكتبة ؟
أكان ينظر من النافذة ويشهد نقل الأشياء ؟ وكيف يمكن لرجل مثله أن يتحمل هذا العار ؟

- كان موجودا في الحديقة .

- وماذا كان يفعل في الحديقة ؟

- كان ينظر إلى الزهور وظل يقول لو أخنووا الأزهار والورود الخاصة بي سأقتل نفسي .

- وأين كانت أمك ؟

- كانت أمي في المطبخ وتقوم بأعمال الطهو . فالطهو هو الشئ الوحيد التي كانت تفكر في القيام به .
- وهل كانت تستخدم الغاز أم الكهرباء ؟
- الكهرباء
- هل سبق لك إن قلت أن الشركة قد قطعت التيار الكهربائي ؟ أم أنت لم أسمعك جيدا ؟
- لقد قاموا بتوصيل الكهرباء مرة أخرى .
- وهم لم يأخذوا موقد الطهو ؟
- اضطروا لأن يتركوا موقد الطهو وذلك بحكم القانون . لقد تركوا موقد الطهو والمنضدة وكرسياً واحداً لكل فرد بالمنزل .
- وماذا عن السكاكين والشوكات ؟
- لقد تركوا مجموعة واحدة لكل فرد .
- ولماذا لم يقوموا بمصادرنة المنزل بأكمله وطردكم جميعاً منه ؟
كان المنزل مسجلاً باسم والدى . لقد أصرت على ذلك منذ سنوات قبل حدوث هذه الكارثة .
- إنها امرأة حكيمة وعاقلة . وهل قرأت ناظرة المدرسة عن موضوع إفلاس والدك في الصحف ؟
- فقالت تشارلى : قرأت عن ذلك في (لندن جازيت) إنها مجلة متخصصة في الإعلان عن كافة حالات الإفلاس .
- هل كانت ناظرة المدرسة مشتركة في هذه الجريدة ؟
- من المحتمل .
- فأوما كيرتز برأسه قليلاً والتقط قلماً وكتب كلمة «من المحتمل» على نوطة أمامه على نحو يجعل هذه الكلمة مرئية أمام تشارلى . ثم قال وبعد إعلان الإفلاس

ظهرت الاتهامات بالنصب والاحتيال . أليس كذلك ؟ أتودين أن تصفى لنا ما دار
في المحكمة ؟

لقد سبق أن وضحت لك . أن والدى لم يسمع لنا بآن نذهب إلى هناك .
وهو في بادئ الأمر اتجه للدفاع عن نفسه - ولكن يكون بطلاً . وكان علينا أن
نجلس في المقاعد الأمامية والعمل على تشجيعه . وعندما أظهروا له الأدلة
والبراهين بدأ يغير رأيه .

- وما هي التهمة التي وجهت إليه ؟

- سرقة نقود الزبائن

- وهل قمت بزيارة في السجن ؟

- لم يسمع لنا بزيارة فهو لم يكن يرغب لنا أن نشاهد العار الذى هبط
عليه .

- ألم تذهبى أبداً إلى مكان قريب من السجن ولو مرة واحدة ؟ فقالت فى
يائس «أيها السيد المسيح ! لماذا تستمر فى لوى السكين على هذا النحو ؟»

- ولا حتى بالقرب من السجن ؟

- لا

وكانت تحتجز دموعها فى شجاعة مثيرة للإعجاب . وكان الصمت شبيها
بفترات التوقف ما بين الصرخات .

- قال عميلك كوياللى لشخص ما من معارفنا إن والدك قد مات فى السجن
. ولم يتمت فى المنزل على الإطلاق . فهل كان يبالغ فى الأمر ؟

- ذلك هو كلام كوياللى . وليس كلامي أنا

- وهو كذلك . اتفقنا .

أغلق الملف الموجود أمامه وهو مازال غير مقتنع .

لم تستطع تشارلى أن تتمالك نفسها . فاستدارت فى كرسيها وقالت

ليوسف وهي تتوسل إليه بطريقة غير مباشرة لكي ينقذها من هذا المطب . «كيف تسير الأمور يا يوسف - أكل شيء على ما يرام ؟»
قال : كل شيء يتم بطريقة فعالة للغاية .

- على نحو أفضل من مسرحية سانت جان دارك ؟
- لكن كلماتك يا عزيزتي تشارلى ليست أفضل من كلمات برناردشوا .
فقالت لنفسها في حزن : إنه لا يهمني . إنه يواسيني . لماذا يعاملني في تحفظ هكذا بعد أن أحضرني إلى هنا ؟ .

وأحضرت روز الأفريقية الجنوبية صينية مليئة بالسنديتشات . وأحضرت راشيل الكعك والقهوة المحللة .

قالت تشارلى وهي تتناول الطعام : ألا ينام أى أحد في هذا المكان ؟ إلا أن أحداً لم يسمع تساؤلها أو بالأحرى لم يرد أحد على تساؤلها طالما أنهم قد سمعوا السؤال في وضوح شديد .

.....

انتهى الوقت اللطيف . وجاء الوقت الذي طال انتظاره والذي يشغل الساعات السابقة على حلول الفجر حيث يصبح ذهنها أكثر وضوها ويصبح غضبها أشد حدة . جاء الوقت الذي سيتم فيه تناول الاتجاهات السياسية لشارلى وهي الاتجاهات التي سبق أن قال عنها كيرتنز إنها تتال احترامهم وتقديرهم جميعا . التأثيرات المبكرة والتاريخ والمكان والناس ، أذكرى لنا المبادئ الارشادية الخمس الخاصة بك وأول عشرة لقاءات لك مع الخيار العسكري . إلا أن الحالة النفسية لشارلى لم تعد تعينها على الالتزام بالموضوعية بدأ يتضاعف في داخلها الاحساس بالتمرد والثورة . بدأت تشعر بالسأم والملل منهم ، والسأم من التعاون معهم من خلال هذا التحالف الإجباري . وتصاعدت المشاعر العدوانية وأصبحت تتשוק للدخول في صدام ومعركة معهم .

وكان كيرتز مازال مصرًا على جرها من خلال كتابوج عن الجلوس احتجاجا والمسيرات وتمردات أيام السبت مع توجيه الأسئلة عن كل حالة فيما يتعلق بما أسماه «بالناظرة والنقاش» الكامن وراء تصرفاتها .

فردت عليه في برود : بحق السيد المسيح توقف عن محاولة تقديرنا . هل هذا ممكن ؟ فنحن لستا منطقين ولستا على علم ومعرفة دقيقة بالأوضاع . ولستا منظمين .

فقال كيرتز في شفقة ملائكة : إذن فعلى أى نحو انت ؟
- نحن مجرد أناس . مجموعة أناس . مجموعة من الأدميين المراهقين هل فهمت ؟ إذن توقف عن مضاييقتي !
- يا تشارلى . من المؤكد أننا لا نضاييقك . ولا أحد هنا يحاول أن يضايقك .

نحن ندخل في حرب مختلفة . نخوض حرباً حقيقة . إن المسألة ليست بمثابة قوة ضد قوة أخرى . وليس كتلة شرقية في مواجهة كتلة غربية . وإنما الحرب هي حرب الجياع ضد الخنازير . وحرب العبيد ضد الطغاة . وأنت تعتقد إنك حر . أليس كذلك . ان السبب في ذلك أن شخصاً ما آخر مكبلاً بالقيود والأغلال ، وأنت تأكل ولكن شخصاً ما آخر يتعرض للعوت جوعاً . أنت تجري ولكن شخصاً ما آخر يضطر للوقوف في مكانه ينبغي علينا أن نغير كل هذه الأوضاع الخاطئة .

كانت تؤمن بهذه الأفكار ذات يوم وربما ما زالت تؤمن بها . لقد عاشت التجربة . وما زالت التجربة واضحة في داخل ذهنها . لقد طرقت على أبواب الغرباء . وشاهدت العداوات تزول عن وجوهم . أمنت بهذه الأفكار . وشاركت في المسيرات من أجل هذه الأفكار ، فالناس لهم الحق في تحرير عقول الآخرين وتحرير بعضهم البعض من المستنقع الجارف للرأسمالية والعنصرية والتحول نحو بعضهم البعض في زمالة طبيعية غير اجبارية .

أضافت تشارلى : وليس من الملائم أن يكون هناك أنس لم نتقابل معهم على الإطلاق أو نسمع عنهم أو نعنفهم أصواتنا ومع ذلك يقومون بدمير العالم من حولنا . ونحن ضد الديكتاتوريين سواء أكانوا جماعات من الناس أو دول أو مؤسسات . ونحن ضد سباق التسلح ضد الحرب الكيماوية ضد أي جانب من جوانب لعبة الكارثة .

لا نؤمن بضرورة أن تكون الدولة اليهودية بمثابة حامية أمريكية استعمارية . ولا نؤمن بأن العرب بمثابة أنس متوجهين وشيوخ بترو متفسخين . ولذلك فنحن نرفض كل هذه الأوضاع الخاطئة ونرفض التحيزات والتعصب والانحياز . والرفض هنا هو رفض ايجابى . أليس كذلك ؟

تساءل كيرتز : كيف يتم تدمير العالم ؟ ما هي الكيفية على وجه الدقة ياتشارلى ؟

- عن طريق تسميم وحرق العالم وإفساده بالأمور التافهة ، ومن خلال الاستعمار وتخريب عقول الطبقة العمالية ثم قالت لنفسها : ومن خلال أمور أخرى سوف أذكرها حالاً . وأضافت : لا داعى لأن تسألنى عن أسماء وعنانيين أكبر خمسة أستاذة لي . لأن هؤلاء المعلمين أو الأساتذة موجوبون داخل صدرى . ولا داعى لأن تسخر مني عندما لا أستطيع تلاوة تعاليم شى جيفارا عليكم طوال هذه الليلة اللعينة . عليك فقط أن تسألنى عما إذا كنت أرغب للعالم أن يبقى على قيد الحياة ولأطفالى أن يبقوا على ...

تساءل كيرتز فى اهتمام ! هل باستطاعتك تلاوة تعاليم جيفارا من الذاكرة ؟ يا تشارلى ؟

- بالطبع لا .

فترامى صوت يوسف من ورائها حيث قال : إذا كانت قد قرأت من قبل تعاليم جيفارا فباستطاعتها أن تتلوها . فهى ذات ذاكرة ممتازة . فبمجرد أن تسمع شيئاً فإنه يرسخ فى داخل ذهنها . باستطاعتها أن تحفظ كل أقواله وكتاباته فى خلال أسبوع إذا رغبت فى ذلك .

لماذا تكلم يوسف ؟ أكان يحاول تلطيف وتهئة الأمور ؟ أكان يحاول تحذيرها ؟ لم تكن تشارلى فى حالة نفسية تسمح لها بالانتباه لرقته والاهتمام بذكائه . هذا بالإضافة إلى أن كيرتز وليتفاك راحا يتشاوران باللغة العبرية . . .
قالت تشارلى : لو سمحتما . أرجو أن تتحدثا باللغة الانجليزية أمامي .
ممکن؟

قال كيرتز «دقيقة من فضلك يا عزيزتي» ثم استأنف الكلام باللغة العبرية .
قال : لدينا فى هذا الملف ما يمكن أن يسمى بالمقدمة الأساسية للفوضوية (*) الكلاسيكية على النحو الذى ظهرت عليه فى القرن الثامن عشر إلى أن وصلت إلى الوقت الحالى .

ثم أضاف قائلاً : وهى تتناول رويد الفعل القوية التى تظهر ضد الخصوص لنسلق موحد . علامة على الاعتقاد الراسخ أن الحكومة بمثابة الشر، وبالتالي فإن الدولة التى تضم أمة هى شر أيضاً . بمعنى أن الحكومة والدولة يتعارضان سويا مع النمو الطبيعي والحرية الطبيعية للفرد . ويمكن لك أن تضيفى إلى هذا بعض الأوضاع الحديثة . مثل رويد الفعل القوية ضد الملل والسام وضد الازدهار وضد ما يعرف باسم التعasse المكيفة الهواء للرأسمالية الغربية . ويمكن لك أن تذكرى نفسك بالبؤس الحقيقى الذى يعيشه ثلاثة أرباع سكان الكره الأرضية . هل تريدين أن تواجهى ذلك ؟

فتتجاهلتـه ، وراحت تنظر فى ابتسام إلى أظافرها . راغبة فى أن تقول وما فائدة النظريات والمعتقدات بعد أن استولت الفئران على السفينة .

واستطرد كيرتز : ويمكننى القول أن عالم اليوم يتبع أمامك المزيد من الأسباب القوية التى يجعلك تتمسكين بوجهة النظر هذه لأن الدول فى هذه الأيام

* الفوضوية نظرية سياسية تتقول بأن جميع أشكال السلطة الحكومية غير مرغوب فيها وتنادى بإقامة مجتمع يرتكز على التعاون الطوعى بين الأفراد والجماعات .

أصبحت أكثر قوة عن ذى قبل . ونفس الشئ ينطبق على المؤسسات وعلى فرص الخصوص لنسب موحد .

أدركت أنه يحاول أن يسحبها ويجرها ويقودها ولكنها لم تكن لديها وسيلة تعينها على إيقافه . كان يتوقف أثناء الكلام كى يتبع لها الفرصة لإبداء التعليقات . الا أنها اكتفت بالاشاحة بوجهها بعيداً عنه مع إخفاء عدم الأمان لأخذ فى التزايد فى داخلها وراء قناع من السلبية الغاضبة .

استطرد كيرتز : «وأنت تعارضين الجمود والجنون التكنولوجي : حسناً . لقد سبق إلى ذلك أليس مكسلى بالفعل . وأنت تهدفين إلى إطلاق الدوافع البشرية التي لا تتسم بالمنافسة أو الروح العدوانية . لكن لكي تفعلى هذا ينبغي عليك أولاً أن تقضى على الاستغلال . ولكن كيف ؟»

ثم توقف عن الكلام . وأصبح توقفه عن الكلام أكثر تهديداً لها من كلماته . كانت بمثابة توقفات لوقع أقدام تتجه نحو المشنقة .

فقالت : كف عن التظاهر والادعاء بمناصرتى وتأييدى فى الرأى عليك بالتوقف !

فاستطرد كيرتز فى شيء من روح الفكاهة ان مسألة الاستغلال هذه جعلتنا نعتقد أنك تحولت من الفوضوية المراقبة إلى الفوضوية الممارسة إن صح هذا التعبير . ثم التفت نحو ليتفاك محاولاً أثارته ضدها حيث قال له : هل لك تعليق حول هذه النقطة يا مايك ؟

فقال ليتفاك يمكنني القول إن الاستغلال هو المسألة المسموعة الواضحة يا مارتنى . وبالنسبة لموضوع الاستغلال يمكن لك أن تقرأ الجزء الذى يتعلق بالملكية . فالمستغل فى بادئ الأمر يضرب العبد الأجير على رأسه من خلال ثروته الهائلة . وبعدئذ يقوم بعمل غسيل مخ له بحيث يجعله يعتقد أن السعى للحصول على الملكية هو حافز قوى يؤدى إلى تحطيمه عند حجر الرحى . وبهذه الطريقة يطعنه مرتين .

فقال كيرتز في ارتياح : هذا عظيم . اذن فالسعى للحصول على الملكية شر مستطير . وبالتالي فالملكية ذاتها شر . وأولئك الذين يحمون الملكية أناس أشرار ونظرا لأن الإنسان يجاهر صراحة بأنه لا يصبر على العملية الديموقراطية التطورية فإنه يرغب في نسف الملكية واغتيال الأغنياء . فهل تتمشى أفكارك مع ذلك يا تشارلى ؟

- لا تكون إنسانا سخيفا .

فظهرت مشاعر الإحباط على كيرتز ، وقال « هل تقصدين أنك ترفضين الاطاحة بالدولة السارقة يا تشارلى ؟ ماذا في الأمر ؟ . هل تشعرين بالخجل فجأة ؟ » . ثم التفت نحو ليتفاك وقال له ماذا يا مايك ؟

قال ليتفاك : إن الدولة تكون استبدادية وظالمة . هذا هو نص الكلام الذى قالته تشارلى على وجه الدقة . لقد أشارت إلى العنف الذى تمارسه الدولة وإلى الإرهاب الذى تقوم به والديكتاتورية التى تلتزم بها .

قالت تشارلى : ذلك لا يعني أننى أقوم باغتيال الناس وسرقة البنوك اللعينة . ما هذا أيها السيد المسيح ؟

فقال كيرتز : يا تشارلى . لقد أوضحت لنا أن قوى القانون والنظام ليست سوى الحاكم الثانوى المستبد لسلطة زائفة .

قال ليتفاك مذكرا كيرتز : لقد سبق لها أن قالت أيضا إن العدالة الحقيقية غير متاحة لجماهير الناس من خلال المحاكم .

قالت تشارلى : العدالة غير متاحة ! والنظام بأكمله شبيه بلعبة القمار . وهو نظام فاسد .

تساءل كيرتز في ابتهاج : اذن لماذا لا تقومين بتدمير النظام واطلاق الرصاص على كل رجل شرطة يحاول منعك ؟ بل وعلى كل رجل شرطة لا يحاول أن يمنعك ؟ ولماذا لا تقومين بنسف الاستعماريين والمبرياليين فى أى مكان تعثرين فيه عليهم ؟ أين هى أمانتك المتبرجة ؟

قالت في إصرار : لا أريد نصف أى شيء . أريد السلام وأريد للناس أن يعيشوا أحراً .

ويبدو أن كيرتز لم يستمع لكلامها حيث قال : «لقد خبيت ظني فيك يا تشارلى . فها أنت فجأة لا يوجد لديك التوافق بين الفكر والعمل . لقد وضعت المفاهيم الذهنية . فلماذا لا تنطلقين وتعملين على تطبيقها عملياً ؟ لماذا لا تقومين بالنصف والاغتيال ؟ ونصف مراكز الشرطة على سبيل المثال لصالح أولئك الذين يرذلون تحت استعباد لوردات الرأسمالية ؟ أنت الروح المتحركة هنا . لا تقدمي لنا الأقوال والكلام . ولكن قدمي لنا الأعمال .

وصلت هذه الملاطفة المؤثرة التي قام بها كيرتز إلى تعااظم جديد . أصبح بإمكانه تشارلى أن تقاتلته بالكلام أيضاً مع محاولة التخلص منه والخروج إلى الحرية فقالت له «استمع إلىّ . إننى انسانة سطحية وغير مطلعة . أدرك ما أقول يا مارت ؟ إننى جاهلة وأمية . ولا أستطيع أني أضيف . أو أحلل أو أسوق الحجج والبراهين . لقد تعلمت فى مدارس خاصة ولكنى أتمنى لو كنت قد ولدت فى شارع خلفى فى ميدلاند . وتمننت لو كان والدى قد عمل فى أعمال يدوية مستخدماً بيديه بدلاً من سرقة مدخرات السيدات الطاعنات فى السن ! لقد سئمت من غسيل المخ الذى يجرى علىّ . أريد الذهاب للنوم الآن !

- هل تقولين لي إنك تستنكرين وتشجبين آراءك المعلنة الصريحة يا تشارلى ؟

- ليس لدى آراء معلنة وصريحة

- ليس لديك

- ليس لدى

- لا موقف معلن . ولا التزام باستخدام العنف من أجل تنفيذ الأهداف السياسية . ولا شيء سوى أنك غير منحازة .

- نعم -

أضاف كيرتز : غير منحازة سلميا . إذن فأنتم تنتميان إلى رجال السياسة المعتدلين الذين يحتلون مركزاً متوسطاً ما بين اليمين واليسار .

وراح كيرتز يفك أزرار جيب سترته في بطة . ثم أدخل أصابعه وأخرج قصاصة مطوية مأخوذة من جريدة . ثم قال : يا تشارلي . لقد سبق لك أن قلت إنك بالاشتراك مع «آل» قد حضرتـما مؤتمراً جماهيرياً في مكان ما في نيويورك . ولقد وصفت ذلك المؤتمر بأنه بمثابة حلقة دراسية في مجال التفكير الراديكالي . هل يمكن لنا أن نتناول ذلك في شيء من التفصيل؟

ثم راح كيرتز يقرأ في صمت القصاصة الصحفية وهو يهز رأسه من وقت لآخر كأنه يقول «حسناً . حسناً» . يا له من مكان مهم لعقد الاجتماع والتدريب على الأسلحة باستخدام بنادق كاتمة للصوت . ووسائل التخريب . واستخدام المواد الدائئنة بدلاً من المواد الحقيقة . وكيفية العيش في تنكر وتخفى . وكيفية البقاء على قيد الحياة . وفلسفة الفدائين الذين يعملون بالمدن . هذا التحقيق الصحفي صحيح إلى حد ما أم هل أننا نتعامل مع المبالغات التي تتسم بها الصحافة الصهيونية الرأسمالية هنا؟ .

لم تعد هي تؤمن بنوایاه الطيبة لم يكن يرغب لها أن تؤمن بذلك . وكان كيرتز يهدف آنئذ أن يخيفها من تطرف آرائها ويرغمها على الهروب من مواقف لم تكن تدرك أنها اتخذتها هناك استجوابات تدار من أجل استخلاص الحقائق ولكن هناك استجوابات أخرى تتم من أجل استخلاص الأكاذيب .. وكان كيرتز يريد الأكاذيب . وتساءل نريد منك أن تعطينا صورة تتسم بالمزيد من الموضوعية . ممکن؟

فقالت تشارلي في جرأة وتحمّل متخذة أول انسحاب لها - كان ذلك المشهد خاصاً بـ «آل» وليس خاصاً بي

- ولكنكم ذهبتما سويا

- لقد كان ذلك مجرد عطلة نهاية أسبوع رخيصة الثمن في الريف في وقت
كنا فيه مفلسين مادياً هذا هو كل ما في الأمر .

فتمت كيرتز قائلًا كل ما في الأمر وتركها مع صمت ثقيل للغاية .

قالت في احتجاج : لم يكن الأمر يقتصر على أنا وهو فقط وإنما كان
يا إلهي . لقد كان عددها عشرين فرداً شباباً وممثلين . وبعضهم كان لا يزال
يدرس بمعهد التمثيل . وكانوا يستأجرون أتوبيساً ويأخذون معهم بعض الحشيش
ويلعبون لعبة الأسرة الموسيقية حتى الصباح . فما هو الخطأ في ذلك ؟

ولم يكن لدى كيرتز رأى آنئذ فيما يتعلق بما هو خاطئ أزاء أي شيء
وأضاف .. وماذا كنت أنت شخصياً تفعلين ؟ هل كنت تقودين الأتوبيس ؟
سمعنا أنك تجيدين القيادة ؟

- كنت مع «آل» . كما قلت لك . وكان المشهد خاصاً به وليس خاصاً بي .
كانت قد بدأت تفقد السيطرة على كيانها . وبدأت في التخاذل والسقوط . لم تعرف
كيف تعرضت للهبوط أو من الذي طرق على أصابعها ، وربما أنها تعرضت فجأة
لنوبة من الإرهاق .

- وكم عدد المرات التي انفمست فيها في هذا الأسلوب يا تشارلي ؟
الانغماس في المتعة البالغة وتدخين الحشيش والانغماس في الحب المنطلق بينما
آخرون منهمكون في التدريب على ممارسة الإرهاب ؟ تتكلمين كما لو أن ذلك كان
أمراً اعتيادياً . وهذا صحيح ؟

- لا . إنه ليس أمراً مألوفاً واعتيادياً . فقد انتهى ذلك تماماً ، وأنا نفسي
لم أنغمس وانهمك فيه !

- كم عدد المرات التي حدث فيها ذلك ؟

- مرتين وذلك كل ما في الأمر ، وبعد ذلك اجتاحني الخوف والرعب .

وبدأت تشارلى تشعر بالتهاوى والدور . وأصبح الظلام أشد إظلاما .
وكان الهواء موجوداً حولها من كل جانب ولكنه لا يلمسها .

أخرجنى من هذا الجحيم يا يوسف ! ولكن يوسف هو الذى أدخلها إلى ذلك الجحيم . راحت تصفعنى لكي تسمع كلاما صادراً عنه . وبعثت برسائل اليه صادرة عن الجزء الخلفى من رأسها . ولكنها لم تتلق ردًا على رسائلها .

وكرر كيرتز فى تفكير : مرتان . أهذا صحيح يا مايك ؟

فرفع ليتفاك بصره عن أوراقه وقال وكأنه يردد صدى الصوت : مرتان .
فتساءل كيرتز : ولماذا شعرت بالخوف والرعب ؟ وبدون أن يرفع بصره عنها مد يده ليأخذ ملف الأوراق الموجود أمام ليتفاك .

فقالت وهى تخفض من صوتها بهدف إحداث تأثير : لقد كان مشهدا عاصفا .

فقال كيرتز وهو يفتح الملف : يبدو الأمر كذلك .

- لا أقصد من الناحية السياسية . وإنما أعنى الجنس . لقد كان يفوق ما أردت أن أتناوله . ولا تكون أحمق .

لعق كيرتز إصبع إبهامه . وطوى صفحة من الملف ثم لعق إبهامه مرة أخرى . وطوى صفحة أخرى . وتحدث فى تعمق ببعض الحديث مع ليتفاك الذى رد عليه ببعض الكلمات . ثم أغلق الملف ذا اللون الأصفر البرتقالى ووضعه فى الحقيبة . وقال متى نما فى تفكير مرتين . وذلك هو كل ما فى الأمر . وبعدها بدأ أشعر بالخوف والرعب أتريدين تعديل وتغيير هذه العبارة ؟

- ولماذا ينبغي على أن أغيرها ؟

- (مرتان) . أهذا صحيح ؟

- ولماذا ينبغي ألا تكون هذه العبارة صحيحة ؟

- مرتان . أليس كذلك ؟

وترافق الضوء فوقها . أو كان ذلك الترافق صادراً من داخل ذهنا ؟
تعمدت الاستدارة في كرسيها . فشاهدت يوسف منحنيا على لمبة مكتبه مشغولاً
للغایة لدرجة أنه لم ينظر لأعلى . فاعتدلت في جلستها واكتشفت أن كيرتز لا
يزال يحملق متطرلاً اجابة منها .

فقالت : مرتين أو ثلاثة مرات ما هذا الجحيم ؟ أوف !

- أربع مرات ؟ وهل كلمة «زوجان» تعنى أيضاً أربعة ؟

- أوه . أصبحت أشعر بالتشویش والحيرة !

- أعتقد أن الأمر يتعلق باللغويات ، لقد زرت عمتي زوجين من المرات في
السنة الماضية حسنا . ذلك قد يعني ثلاثة مرات . أليس كذلك ؟ وقد يعني أربع
مرات . وقد يعني خمس مرات . وخمس مرات هي في الحدود المعقولة . واستمر في
تفحص أوراقه ، ثم قال «أتريدين ادخال تغيير بحيث يجعلى عدد المرات نصف
دستة يا تشارلى ؟

- لقد قلت زوجين من المرات . وأنا أعني ذلك على وجه الدقة

- مرتان فقط ؟

- نعم . مرتان

- إذن هما مرتان فقط . نعم لقد حضرت هذا الاجتماع الجماهيري في
مناسبتين فقط . وربما انهمك آخرون في ممارسات لها الطابع الحربي القتالي .
إلا أن اهتماماتي كانت اهتمامات جنسية ترفيهية ترويحية اجتماعية . أمين توقيع
: تشارلى . أتود تحديد تاريخ هاتين الزيارتين ؟

ثم ذكرت تاريخاً في السنة الماضية عقب توصلها إلى اتفاق بينها وبين
«آل» مباشرة .

- وما هو تاريخ الزيارة الأخرى ؟

- نسيت . وما أهمية ذلك ؟

- إنها نسيت .

وكان صوته بطيئاً . ولكن لم يفقد أى قدر من قوته . تخيلت صوته وهو يتحرك في تناقل نحوها مثل حيوان أخرق بشع . وأضاف هل جاعت ، الزيارة الثانية بعد الزيارة الأولى بفترة قصيرة ، أم كانت هناك فترة زمنية طويلة بين الزيارتين؟

- لست أدرى

- إنها لا تدري . وعطلة نهاية الأسبوع الأولى الخاصة بك كانت بمثابة محاضرات تمهيدية للمبتدئين والتعرف عليهم . هل هذا صحيح؟

- نعم

- وعلى من تم تعريفك؟

- لقد سبق أن قلت لك - مجموعة الجنس الجماعي .

- لا مناقشات . ولا أبحاث . ولا تشريف وتعليم؟

- نعم . لقد عقدنا مناقشات .

- وما هي الموضوعات التي توقدت؟

- المبادئ الأساسية .

- المبادئ الأساسية لأى شئ؟

- المبادئ الأساسية للراديكالية .

- هل تذكرين الذين كانوا يحاضرون ويلقون الكلمات؟

- امرأة ملية بالمساحيق تكلمت عن تحرير المرأة . وتحدث رجل اسكتلندي عن كوبها . وقد أعجب آل بهذا الرجل

- وفي المناسبة الثانية والأخيرة والتي نسيت تاريهما من الذى ألقى المحاضرات والكلمات فى تلك المرة؟

لا إجابة .

- نسيت هذا أيضاً ؟

- نعم .

- ذلك شيء غير طبيعي . أليس كذلك ؟ فهل من المعقول أن تتذكرى المناسبة الأولى بما فيها من جنس و موضوعات المناقشة والمدرسين والمحاضرين بينما المناسبة الثانية لا تذكرين أي شيء عنها على الإطلاق ؟

- بعد أن ظلت طوال الليل منخرطة في الإجابة على أسئلتك المجنونة لا يكون هذا أمراً غير عادي

تساءل كيرتز : إلى أين أنت ذاهبة ؟ أتریدين الذهاب إلى الحمام ؟ يا راشيل اصطبحي تشارلى إلى الحمام .

وكانت تشارلى واقفة . ومن بين الظلال سمعت وقع أقدام خافتة تقترب منها :

- سأغادر هذا المكان . وأمارس اختياراتي . أريد الخروج الآن .

- اختياراتك سوف تمارس عند مراحل محدودة وعندما ندعوك إلى ذلك فقط . وإذا كنت قد نسيت أسماء من توجهوا بالحديث إليكم في حلقة البحث الثانية التي حضرتها فلربما تذكرين لي على الأقل طبيعة هذه الدروس والمحاضرات .

وكانت لا تزال واقفة . نظرت فيما حولها فشاهدت يوسف . وقد أسد رأسه . وكان وجهه مبتعداً عن ضوء المصباح . ثم وضعت يديها على المنضدة واستندت إلى الإمام . كانت موجودة في كنيسة غريبة . دون أن يكون لديها أصدقاء يوجهون إليها النصح والارشاد دون أن تعرف ما إذا كان عليها أن تقف معتدلة أو ترکع . إلا أن صوت كيرتز ظل موجوداً في كل مكان ولم يكن الأمر يهم سواء سجدت على الأرض أو طارت من خلال النافذة ذات الزجاج المتسبخ ومنها

إلى مسافة مائة ميل . إذا لم يكن أى مكان فى مأمن من الاقتحام الذى يصم الاذان . ثم رفعت يديها عن المنضدة ووضعتهما خلف ظهرها مع الإمساك بهما فى إحكام لأنها تقاد تفقد السيطرة على حركاتها . الأيدي ذات أهمية فهى تتكلم وتمثل شعرت بيديها تهدئان من روع بعضها البعض مثل الأطفال الخائفين . بينما كيرتز يسألها عن قرار .

- ألم توقعى على القرار يا تشارلى ؟

- لست أدري .

- ولكن يا تشارلى يوجد هناك دائماً قرار يتم اتخاذه عقب انتهاء الجلسة أو الاجتماع . اذ تكون هناك دائماً مناقشات . ويعقب ذلك إصدار قرار . فما هو القرار الذى صدر ؟ وأنت تحاولين أن تقولى لى إنك لا تعرفين عن أى شيء كان يدور هذا القرار . بل أنت لا تعرفين مما إذا كنت قد وقعت على ذلك القرار أم لا ؟ ربما تكونى رفضت التوقيع عليه ؟

- لا .

- يا تشارلى . كونى إنسانة معقولة وحكيمة . كيف يمكن لإنسانة فى مثل ذكائك أن تنسى مثل هذا القرار الرسمى عقب حلقة بحث استمرت ثلاثة أيام ؟ وهو قرار يتعلق بسلسلة من الأحداث المتسمة بالكذ والاجتهاد . لماذا تصبحين غامضة هكذا فجأة ؟

كانت مرهقة إلى درجة الإغماء . وأرادت أن تجلس مرة أخرى . إلا أنها التزمت بمواصلة الوقوف . ترغب فى الحصول على فترة من الراحة وبعض الوقت لإصلاح زينة وجهها . وكانت بحاجة لأن تناوم خمس سنوات .

وأسفلها كان كيرتز قد استخرج لنفسه ورقة جديدة من حقيبته . وراح ينظر إلى الورقة فى قلق . ثم قرر أن يوجه كلامه إلى ليتفاك : لقد قالت إنها مناسبتان فقط . أليس كذلك ؟

فقال ليتفاك كان الحد الأقصى هو اثنان فقط . وقد أتحت لها كل الفرص لكي ترفع المزايدة . إلا أنها أصرت على اثنين فقط .

- وما هو الرقم الذي تتخذه ؟

- خمسة

- إذن من أين جاءت هي بالرقم : اثنان ؟ «فقال ليتفاك موضحا» إنها تدرك حقيقة الأمور بنسبة ٢٠٠٪ .

فقال كيرتز في بطء إذن فهي تكذب علينا . فقال ليتفاك : أنها تكذب بكل تأكيد .

فقالت تشارلى : لم أكذب . لقد نسيت فقط ! وكان الأمر يتعلق بـ «آل» فقد ذهبت من أجل آل . وذلك هو كل ما في الأمر !

- أترغبين في الجلوس ؟

- لا .

ظهرت مشاعر الحزن على وجهه عندما رفضت الجلوس ثم قال : «يا تشارلى لم أعد أستطيع أن أفهمك . وبدأت ثقتي فيك تنحسر وتقل وتتدحرج .

- فلتتدحرج هذه الثقة اللعينة ! إبحث لنفسك عن شخص ما آخر لكي تعامله في قسوة واستبداد ! ولماذا ينبغي على أنا بالذات أن أدخل في لعبات سخيفة مع مجموعة من السفاحين الإسرائييليين ؟ اذهبوا لتفجير المزيد من العرب من خلال السيارات الملغومة . أخرجوا من دماغي ولا تخايفونني إنتي أكرهكم . أكرهكم جميعاً !

«فقال كيرتز» إنتي لا أفهم هذا التملص وتلك المراوغة التي تقومين بها . ولا أفهم ذلك التناقض والتعارض بين تشارلى الموجودة أمامنا الآن وبين تشارلى الموجودة في داخل أوراقنا وسجلاتنا . إن زيارتكم الأولى لهذه المدرسة الثورية قد

تمت فى ١٥ يوليو فى العام الماضى . وتم تقديم حلقة دراسية لمدة يومين من أجل المستجدين عن موضوع يتعلق بالاستعمار والثورة وتشير الأوراق إلى أنكم جميعا ذهبتم بالأتوبيس . وكنتم مجموعة من الناس المهتمين بالتمثيل وكان أستير (آل) موجودا معكم . أما زيارتك الثانية فقد تمت بعد شهر . وكان معكم أيضا أستير . وفي هذه المرة فانك ومعك زملاؤك وزميلاتك من الطلبة والطالبات قد استمعتم لمحاضرة ألقاها مفترب بوليفى رفض أن يذكر اسمه . كما استمعتم أيضا لشخص آخر مجهول الاسم ادعى انه يتحدث نيابة عن الجناح المؤقت للجيش الجمهورى الأيرلندي . وأنت قد قمت بالتوقيع على شيكين شخصين - وقيمة كل شيك منها بمبلغ خمسة جنيهات كإعانة مالية لهاتين المنظمتين . ونحن لدينا هنا صورة منسوبة لهذين الشيكين .

- كان ذلك التبرع من أجل آل . لأنه كان مفلسا !

- ثم ذهبت للمرة الثالثة بعد مرور شهر حيث شاركت فى مناقشات مثيرة للحزن والشفقة للغاية تتعلق بكتب المفكر الأمريكى ثورو . وقد اتخذت المجموعة قراراً فى تلك المناسبة يفيد بأن ثورو يعتبر مفكرا مثاليا ولديه فهم عملى ضئيل بالماهاب الفكرية التى تنادى باتخاذ اجراءات العنف وبالتالي فهو مفكر غير ملائم . قد وافقت على ذلك القرار . بل وبادرت باتخاذ قرار تكميلي يدعو إلى اتخاذ المزيد من الراديكالية من جانب جميع الرفاق والزملاء .

- فعلت ذلك من أجل «آل» . و كنت أريد منهم أن يقبلونى ! كنت أرغب فى إدخال السرور والبهجة على آل ! ثم نسيت كل ذلك فى اليوم资料 !

ثم جاء شهر أكتوبر . فذهبت أنت وأستير إلى هناك . وفي هذه المرة كان الذهاب من أجل حضور جلسة حول موضوع : الفاشستية البرجوازية فى المجتمعات الغربية الرأسمالية . وقد قمت أنت بدور قيادى رئيسى فى المناقشات مع إدخال البهجة والسرور على الرفاق الحاضرين من خلال قيامك بسرد حكايات وهمية خرافية تتعلق بوالدك المجرم ووالدتك التافهة وتنشئتك وتربيتك المليئة بإجراءات القمع والكبت بوجه عام .

توقفت تشارلى عن الاحتجاج عن التفكير أو المشاهدة . ولكنها لم تستطع التوقف عن الإصغاء لأن صوت مارتن (كيرنز) لم يسمح لها بذلك .

وفي الاجتماع الأخير الذى تم فى شهر فبراير من هذا العام . قمت أنت وأالستير فى هذا الاجتماع بتوجيه الشتائم لدولة اسرائىل. وكانت المناقشات مقصورة فى هذه المرة على التوسع الذى تنتهجه الصهيونية العالمية وروابط الصهيونية العالمية بالاستعمار الأمريكى . وكانت الشخصية الرئيسية فى هذا الاجتماع هو جنتلمن يمثل الثورة الفلسطينية ولكنه رفض أن يذكر اسم الجناح الذى يمثله والذى هو جزء من تلك الحركة الثورية العظيمة الكبرى . بل ورفض أيضاً أن يكشف النقاب عن اسمه أو ملامحه حيث كان متخفياً وراء خوذة سوداء مما أعطاهم طابعاً متسماً بالشر والشئم . أمازالت غير قادرة على تذكر هذا المتحدث ؟ .

ووقف عن الكلام للحظات لكي يتبع لها الفرصة للرد . ولكنها استطرد مرة أخرى : لقد كان الموضوع الذى تطرق إليه يتناول حياته الشخصية البطولية الخاصة به من حيث هو محارب عظيم وقاتل للصهاينة . ولقد قال ذلك الرجل (إن بندقيتى هى جواز سفرى إلى وطني) كما قال (نحن لم نعد لاجئين ! وإنما نحن الثوريون) . ولقد تسبب فى اثارة الذعر بين الحاضرين حتى أن بعض الحاضرين - وأنت لست منهم - شعروا أنه قد تمادى وتجاوز بعض الشئ .

ووقف عن الكلام ولكنها لم تتكلم . فحرك ساعته لكي تكون قريبة منه . ثم ابتسما لها فى ضعف وقال : لماذا لا تقولى لنا كل هذه الأمور يا تشارلى ؟ ولماذا تنتقلين فجأة من موقع لأخر دون أن تعرفى الأكاذيب التى ستقولينها لنا فى المرة التالية ؟ ألم أؤكد لك أننا بحاجة إلى الماضى الخاص بك ؟ وأننا نحب ذلك الماضى إلى درجة كبيرة .

وانظر فى صبر سماع رد منها . ولكن دون جدوى . فأضاف قائلاً : نحن نعرف أن والدك لم يدخل السجن على الإطلاق . ونعرف أن أحداً ثم يأخذ الحصان

الخاص بك . ونعرف أن والدك المسكين عانى من إفلاس ضئيل، ولم يتسبب فى أية متابع لأحد باستثناء اثنين من مديرى البنوك المحليين . ونعرف أن والدتك ظلت زوجة فخورة بزوجها ومخلصة له . ونعرف أن افلاس والدك لم يكن هو السبب فى طرده من المدرسة ولكنك أنت التى تسببت فى طرده من المدرسة لأنك جعلت جسدك مطية للكثيرين من الأولاد الموجودين فى المدينة المحلية . فترامت الأخبار إلى هيئة التدريس . وبالتالي تم طرده بسرعة من المدرسة على أساس أنك عنصر فاسد مليء بالفضائح، وأعادوك إلى والديك اللذين تجاوزا عن الانتهاكات التى قمت بها وبذلا كل الجهد لكي يصدقا كل شيء قلته لهم . وعلى مدى السنين قمت بتنفيذ حكاية خيالية ساذجة عن هذا الحادث لكي يجعلى الأمر معقولاً ومحتملاً . ثم أصبحت تصدقين الأكاذيب التى قمت بترويجها . رغم أن ذاكرتك السرية ما زالت تحفر وتقلب وتدفعك نحو العديد من الاتجاهات الغريبة . ثم قام بنقل ساعته إلى مكان آخر من فوق المنضدة . واستطرد قائلاً : نحن أصدقاء لك يا تشارلى . وهل تظنى أننا سنوجه لك فى أى وقت من الأوقات اللوم على مثل هذه الأمور ؟ . وهل تظنى أننا لا ندرك أن سياساتك بمثابة تجسيد وتدبيير للبحث عن أبعاد وريود فعل لم تقدم لك عندما كنت فى مسيس الحاجة إليها ؟ نحن أصدقاءك يا تشارلى . ليس لنا مقدرة متوسطة أو براعة ضئيلة . ولسنا متسمين باللامبالاة . ولسنا ملتزمين بأعراف الكنيسة الانجليزية . نحن نريد أن نستفيد منك . فلماذا تجلسين هناك وتخدعينا بينما نحن جميعاً نرغب فى أن نسمع منك الحقيقة الموضوعية البوحية من البداية إلى النهاية ؟ ولماذا تسببين الإعاقة لنا نحن أصدقاءك بدلاً من أن تقدمى لنا ثقتك الكاملة ؟

وتصاعد الغضب في داخلها . فاتخذت خطوة الى الأمام . ورفعت جماع يدها لكي تضربه في عنف . إلا أنه كان مخيفاً ورهيباً للغاية بالإضافة إلى أنها كان يوجد وراءها عمل غير مستكملاً .

صحيح أن كيرتز من خلال إغواهه المتعمد لها هو الذي أشعل عود الثقاب الذي أدى إلى انفجارها . الا أن مغازلة يوسف المخادعة وصوته الخفى هو الذي أدى إلى إدلالها الحقيقي . فاستدارت فيما حولها . واتخذت خطوتين في اتجاهه

وانتظرت أن يتقدم أحد لإيقافها . ولكن أحدا لم يعترضها . فطوطحت بقدمها لأعلى ورفست المنصة . وشاهدت مصباح المكتب وهو يطير في الهواء ثم ينطفئ في فرقة مثيرة للدهشة . وجذبت جماع يدها إلى الوراء وانتظرت أن يدافع يوسف عن نفسه . ولكنه لم يفعل لذلك قامت بالهجوم عليه في المكان الذي يجلس فيه وأمسكته من عظمة خده بكل ما لديها من قوة . وكانت تصرخ في وجهه بكل ما لديها من شتائم قذرة . كانت تتمنى لو أنه رفع يده وضربها على ظهرها . ثم قامت بضربه مرة أخرى بيدها الأخرى محاولة إيذاء كل جسده . وانتظرت أن يقوم بالدفاع عن نفسه . إلا أن عينيه البنيتين المألفتين استمرتا في النظر إليها في نفس ثبات أصوات الشاطئ أثناء هبوب عاصفة . فقامت بضربة ثانية بقبضة يديها شبه المغلقة . فشعرت بالألم الشديد يسرى في مفاصل أصابعها . ولكنها شاهدت الدماء وهي تسيل أسفل ذقنه . وكانت تصرخ قائلة له «يا ابن الزنا يا فاشستي !» ظلت تكرر هذه العبارة مرات عديدة . إلى أن شعرت بتعدد قواها وتقطع أنفاسها . ثم شاهدت راوفل، الولد الهبيبي، واقفاً في المدخل . كما شاهدت روز تتخذ موقعاً لنفسها أمام النوافذ الفرنسية وقد نشرت ذراعيها لكي تكون على استعداد في حالة قيام تشارلى بالقفز من الشرفة . ثم سمعت صوت كيرتز وهو يصدر أوامره باللغة الانجليزية لكل فرد بالالتزام بالبقاء ساكناً في مكانه . وشاهدت يوسف يستدير . ثم يسحب منديلاً من جيبه ويركب به في رفق على شفتية . وكان غير مبالٍ بها وكأنها مجرد طفلة شقية في الخامسة من عمرها . وصرخت في وجهه مرة أخرى قائلة «يا ابن الزنا» . وضربته على صدغه ضربة قوية أدت إلى لوى معصمها وتخدير يدها . ولكنها آتت ذلك كونها قد أصبحت مرهقة ومتعبة للغاية، وشاعرة بالوحدة والاكتئاب . وكل ما كانت تريده هو أن يقوم يوسف بالرد عليها وضربها .

قال كيرتز في هدوء وهو جالس على كرسيه : «استمرى في ذلك يا تشارلى . لقد سبق لك أن قرأت مؤلفات فرانتز فانون . العنف هو قوة مطهرة .

أذكرين ذلك ؟ فالعنف يحررنا من عقد الشعور بالنقص الموجودة لدينا . والعنف يجعلنا غير هيابين وغير خائفين ويعيد لنا احترام الذات .

ولم يكن أمامها سوى مخرج واحد . ولذلك اتخذت ذلك المخرج . إذ قوست كتفيها ووضعت وجهها بين يديها على نحو درامي وبكت في غير عزاء إلى أن أصدر كيرتز إيماءة لراشيل . فجاءت من عند النافذة ووضعت ذراعها حول تشارلى . وعندما اتجهت راشيل وتشارلى نحو المدخل قال كيرتز :

يمكن لها الحصول على راحة لمدة ثلاثة دقائق فقط . ولا أكثر من ذلك مع عدم قيامها بتغيير ملابسها أو اتخاذ أية هوية جديدة . وتعود إلى هنا مباشرة . فئاً أريد للماكينة أن تستمر في حالة تشغيل . يا تشارلى . توقفى حيث أنت لمدة دقيقة . انتظري . لقد قلت : توقفى .

فتوقفت تشارلى . لكنها لم تستدر برأسها . وقفـت بدون حراك وهي تسائل نفسها في تعجب : ترى هل يقوم يوسف بعمل أى شئ إزاء الجرح الذى لحق بوجهه ؟

قال كيرتز : تهانينا لك يا تشارلى . لقد تعرضت للسقوط . لكنك سرعان ما استعدت توازنك . فقدت طريقك وكذبت وعندما انقطع الخيط أقيمت بنفسك في موجة غضب وجعلـت العالم كله هو المسئول عن متابعيـك . ولقد أعجبـنا بك . وفي المرة التالية سوف نـتـكـرـ لكـ قـصـةـ أـفـضـلـ لـكـ تحـكيـهاـ لـنـاـ . سـارـعـىـ بـالـعـودـةـ الآـنـ . حـسـنـاـ ؟ لمـ يـعـدـ أـمـامـنـاـ سـوـىـ الـقـلـيلـ مـنـ الـوقـتـ .

* * * *

وفي غرفة الحمام وقفت مستندة برأسها على الحائط . وانخرطـتـ فـيـ البـكـاءـ بينما كانت راشيل تعد وتجهـزـ طـسـتـ المـاءـ منـ أـجـلـهاـ . أما روز فـكـانتـ تقـفـ بالـخـارـجـ مـنـ أـجـلـ أـعـمـالـ الـحرـاسـةـ .

قالـتـ رـاشـيلـ بـعـدـ أـنـ جـهـزـتـ الفـوـطـةـ وـالـصـابـونـ : « إنـيـ لاـ أـعـرـفـ كـيـفـ تـتـحـمـلـيـ اـنـجـلـتـرـاـ وـتـصـبـرـيـنـ عـلـيـهـاـ لـمـدةـ دـقـيقـةـ وـاحـدـةـ . لـقـدـ أـمـضـيـتـ بـهـاـ خـمـسـةـ عـشـرـ »

عاماً قبل أن نغادرها . و كنت أعتقد أننى سأ تعرض للهلاك لو داومت على البقاء بها . هل تعرفين ما كلسيفید ؟ إنها الجحيم أو الموت بعينيه وهى على كل حال تعتبر جحيميا بالنسبة لليهود . فهى مليئة بالصراع الطبقي والبرود والنفاق . وأنا أعتقد أن ما كلسيفید هى أتعس مكان على وجه الأرض بالنسبة لليهودى . ولقد أعتقدت أن أحك بشرتى بعصر اليمون أثناء وجودى فى الحمام لأنهم كانوا يقولون لي إننى زلقة وزيتية الملمس . لا تقتربى من ذلك الباب دون أن أكون معك يا عزيزتى والا اضطررت إلى منعك »

قال كيرتز « ميشا جافرون يبعث بتحياته لنا . و يبعث اليانا بثلاث رسائل أخرى . الرسالة الأولى تفيد بأن منشآت معينة فى داخل لبنان سيتم ضربها غداً إلا أن أولئك الذين سيقومون بالضرب والقصف سيتجنبون المنازل التى تتعلق بأهدافنا . أما الرسالة الثانية فهى بمثابة أوامر مماثلة فى نوعيتها ومضمونها للأوامر التى سبق أن تلقيناها فى وقت مبكر من هذه الليلة . وهى أوامر تشير الي أنه ينبغي علينا أن نقطع صلتنا بالدكتور أليكسيس الشجاع النبيل اعتباراً من الأمس . بحيث لا نجرى معه أية اتصالات أخرى . إذ قام ميشا جافرون بتسليم الملف الخاص به إلى عدد من علماء النفس الذين قرروا أنه انسان محبول مثل بقة الفراش .

وبدأ ليتفاک يحتج . ربما التعب الشديد قد أحدث تأثيراً عليه . وربما حرارة الجو هي التي أثرت عليه لأن الليل كان قائظ الحرارة للغاية . إلا أن كيرتز تحدث معه في رفق وهدوء وتهدهئة ..

« هدى من روحك يا شيمون فقادتنا يهتم بعض الشئ بالنواحي السياسية . وذلك هو كل ما في الأمر . فإذا قفز أليكسيس من فوق السور وأصبحت هناك فضيحة تؤثر على علاقات دولتنا مع حليف نحن في أشد الحاجة إليه فإن مارتن « كيرتز » سيتحمل العقوبة . وإذا ظل أليكسيس واقفاً إلى جوارنا مع الإبقاء على فمه مغلقاً علامة على تنفيذ ما نصدره إليه من تعليمات فان ميشا جافرون سيصل إلى المجد . وأنت تعرف الكيفية التي يعاملنى بها ميشا . فائنا الرجل اليهودى الخاص به » .

- وما هي الرسالة الثالثة ؟

- ينبعنا قائدنا أنه لم يتبق سوى قدر ضئيل للغاية من الوقت . وهو يقول إن كلاب الصيد تتبع ورائمه . مما يعني بالطبع أن كلاب الصيد تتبع ورائعا .
وبناء على اقتراح من كيرتز انطلق ليتفاكر لكي يعبئ فرشاة أسنانه . وبعد أن أصبح كيرتز منفرا مع بيكار اتجه إلى السرير المنخفض والتقط جواز سفر فرنسيًا وفتحه وراح يدرس البيانات التفصيلية الموجودة به ويلصقها في ذاكرته . ثم قال : أنت واهب النجاح لنا يا جادي وإذا تعرضت لأية ثغرات أو احتجت لأية مطالب أخبرني بذلك على الفور . هل تسمعني ؟

رد : نعم .

فقال كيرتز : يقول الأولاد إنك كنت رائعا هناك فوق الأكروبوليس مع تشارلى . وقالوا إنكمًا كنتما مثل نجمين من نجوم السينما .
- أشكرهم نيابة عنى .

ووقف كيرتز أمام المرأة ومعه فرشاة الشعر القديمة المسودة . وبدأ يمشط بها لكي يعمل فرقاً بين الشعر . وقال : حالة مثل هذه تشتمل على فتاة تتطلب التحفظ والحذر . والتحفظ ينفع في بعض الأحيان . في بعض الأحيان ثم ألقى بفرشاة الشعر في حقيبة مفتوحة .

فتح الباب . ودخل ليتفاكر الذي ارتدى الملابس من أجل الخروج إلى المدينة وحمل في يده حقيبة صغيرة . وكان يبدو عليه أنه متلهف لاصطحاب أستاذة كيرتز . وقال وهو ينظر نظرة غير ودية إلى بيكار : لقد تأخرنا .

.....

ورغم المناورات فإن تشارلى لم تكن من النوع الذي يرغم على الطاعة وفقاً لمستويات كيرتز . الذي ذهب في تقديراته إلى أن الأخلاقيات أمر مهم بالنسبة لخطتهم . ولقد كان هناك في المراحل الأولى كلام غير عادل عن ممارسة الضغوط

والسيطرة بل والاستعباد الجنسي وكلام عن إخضاع تشارلى لظروف محطمة على مدى ليالٍ قليلة قبل تقديم يد الصدقة لها . ولقد قام رجال علم النفس التابعون لجافرون عقب قرائتهم للملف الخاص بها بتقديم كافة أنواع الاقتراحات السخيفية بما في ذلك اقتراحات تعتبر من النوع الوحشى . الا أن عقلية كيرتز هي التي كسبت المبارأة ضد جيش الخبراء المتزايد . فالمتطوعون دائمًا ما يقاتلون ويجهدون على نحو أكثر صلابة ولفترات أطول وذلك من وجهاً نظر كيرتز والمتطوعون لهم وسائلهم الخاصة في إقناع أنفسهم . هذا بالإضافة إلى أنك إذا كنت تعرض الزواج على سيدة فإنه من الحكمة لا تغتصبها في بادئ الأمر .

وكان آخرون ومن بينهم ليتفاك قد أبدوا رأيهم عليناً مؤيدين فكرة الاستعانتة بفتاة إسرائيلية تزود بالخلفية الخاصة بتشارلى . حيث عارض ليتفاك ومعه آخرون فكرة الاعتماد على إخلاص فتاة غير يهودية وخاصة إذا كانت إنجلزية . الا أن كيرتز اعترض بشدة على ذلك . لأنَّه كان يحب الأداء الطبيعي المتتوفر لدى تشارلى . وفضل الاستعانتة بالأصل وليس التقليد . ولم يثنِه عن رأيه اتجاهاتها الأيديولوجية . لقد وقع اختيار كيرتز على تشارلى منذ أن ظهرت شخصيتها على السطح لأول مرة في جلسات نهاية الأسبوع التي عقدت في المؤتمر الجماهيري . إذ وضع عينيه عليها وجمع التحريات عنها وأدخلها في أعماق ذهنه .

ولكن لماذا تجرها إلى اليونان يا كيرتز ؟ وتجر معها جميع الآخرين ؟ هل نحن جمعية للبر والإحسان بحيث أصبحنا نبدل أموالنا السرية فجأة على ممثلين انجلز منتمين لليسار ؟

ظل كيرتز متمسكاً برأيه . ولم يتزحزح عن موقفه . وذهب في تقديراته إلى أنه طالما أن الأوديسا التي ستمثلها تشارلى ستبدأ بالتأكيد في بلاد اليونان فإنه ينبغي احضارها إلى اليونان قبل الموعد المحدد لها حيث يمكن فصلها بسهولة عن علاقاتها المحلية وحيث الشمس الساطعة التي تذيب من صلابتها . ونظراً لأنَّ الستير لن يدعها تذهب بمفردها فليتم السماح له بالمجيء أيضاً .

التخلص منه بعد ذلك في خلل الحظات السيكولوجية الملائمة مما سيؤدي إلى حرمان تشارلي من العون والمساندة .

بالنسبة لزاحة الستير فقد أسفر ذلك عن مشهد مسلٍّ في لندن بالمقبرة التي يوجد فيه نيد كوييلى بينما كانت تشارلى ما زالت مستترقة في نوم عميق . وكان نيد يتناول قدرًا ضئيلاً من المشروبات المنعشة في داخل غرفته استعداداً لمواجهة طعام الغداء القوى . وبينما راح ينزع سداة زجاجة الخمور فزع فجأة لدى سماعة وابلًا من الشتائم والألفاظ البذيئة الصادرة بلهجة سيئة والمتراحمية من الحجرة الصغيرة الخاصة بالدام لونجمور بالدور الأرضي . وبعد أن فرغ بذلك الشخص من الشتائم طلبت من مدام لونجمور أن تناهى على ذلك الرجل الخليع المنغمس في الملذات لكي يخرج من حظيرته قبل أن يصعد شخصياً إليه في الدور العلوي ويجذبه بالقوة للخروج . وتعجب كوييلى لدى سماعه هذا الكلام . ثم سارع بالسير على أصابع أقدامه نحو الباب ووضع أذنه على الألواح الخشبية للباب . إلا أنه لم يستطع التعرف على صاحب ذلك الصوت . وبعد لحظات ترافق هدير رعدى من وقع الأقدام على السلم . وفتح الباب على مصراعيه في عنف . وعندئذ شاهد أمامه الهيكل الطويل له «آل» . وهو هيكل معروف له تماماً منذ الغارات الجوية التي كان يشنها من وقت لآخر على غرفة ملابس تشارلى . وكان كريهاً ومخموراً وحاول كوييلى معرفة الأسباب التي دعته إلى الانفجار في هذا الغضب الشديد .

فقال أستير وهو يمد إصبعه تحت أنف كويالى مباشرة : أيها الخسيس
الوضيع الحقير العجوز . أنت تهادف إلى تدبير المكائد . لسوف أكسر
رقبتك الغبية .

فقال كويلى فى وقار وحزن : إما أن تجلس وترى الأمور على الفور
وإلا سأصدر أوامرى للمدام لونجمور بالاتصال بالشرطة .

فجلس آستير ، هنا قال كويلى : والآن مارأيك أن تتناول قليلاً من القهوة
السوداء أثناء قيامك بإخبارى بالأمور التى فعلتها والتى تسببت فى الإساءة إليك؟
وكانت القائمة طويلة : إن كويلى قد قام بخداعه لصالح تشارلى . إن
كويلى قد أقنع وكيله بإرسال برقىات إلى جزيرة ميكونوس . وانه تأمر مع أصدقاء
أذكياء فى هوليوود . ودفع مقدماً ثمن التذاكر بالطائرة وكل ذلك من أجل أن يجعل
منه مثراً للسخرية أمام (الشلة) وكل ذلك من أجل أن يبعده عن تشارلى .

وعلى نحو تدريجى تمكן كويلى من فك طلاسم القصة ، إذ قامت شركة
إنتاج أفلام بهوليوود تسمى نفسها بـ تالينت كليستيال بالاتصال تليفونياً بوكييله
من كاليفورنيا قائلة إن البطل الرئيسى الخاص بهم أصيب بالمرض وأنهم
يحتاجون لـآستير من أجل اجراء اختبارات عاجلة عليه فى لندن . وانهم مستعدون
لتسييد أية نقود من أجل حضوره وعندما سمعوا أنه موجود فى اليونان اتخذوا
الترتيبات لاصدار شيك مضمون بمبلغ ألف دولار بحيث يسلم الشيك إلى مكتب
الوکيل . فقطع آستير أجازته بسرعة ثم أمضى أسبوعاً بدون أن تجرى له أية
اختبارات . وتواتت البرقىات : «كن جاهزاً وعلى أتم الاستعداد» . وبرقية أخرى ..
«الترتيبات على وشك أن تتم» . وفي اليوم التاسع وبينما آستير فى حالة من
الجنون والهوس صدرت له الأوامر بتقديم نفسه إلى استوديوهات شكسبير .
وبحيث يسأل هناك عن بيته فشينسكي .

لم يعثر على بيته فشينسكي فى أى مكان . فقام وكيل آستير بالاتصال
تليفونياً بهوليوود . فأخبرته عاملة التليفون بأن تالينت كليستيال قد أغلقت أبوابها .
فاتصل وكيل آستير تليفونياً بوكلاء آخرين إلا أن أحداً منهم لم يسمع عن «بان
تالينت كليستيال» . وعندئذ قال آستير لنفسه إن الشخص الوحيد الذى لديه
المقدرة والنوافع لأن يلعب مثل هذه الخدعة السخيفة هو نيد كويلى الذى لم يخفِ

كراهيته دائمًا لـ«الستير» بالإضافة إلى أنه كان يعتقد أن «الستير» هو الذي يدفع تشارلز إلى اتجاهات سياسية حمقاء . ولذلك فقد جاء «الستير» شخصياً لكي يلوى رقبة كويلاي . وبعد أن ارتشف «الستير» عدداً من فنانيين القهوة هدأ أعصابه . ثم اتصل كويلاي بالسيدة لونجمور لكي تحضر له سيارة أجرة .

وفي نفس المساء وبينما كويالى وزوجته جالسان فى الحديقة ليستمتعان
بمنظر غروب الشمس قبل تناول طعام العشاء استمعت زوجته مارجورى فى وقار
لهذه القصة . ثم انفجرت فى الضحك فى نهاية الأمر .

ثم قالت : يا لها من فتاة شقية للغاية . من المؤكد أنها عثرت على شخص غني يحبها ويتخلص من الستير بدفع الأموال له .

ثم شاهدت وجه كويلى . شركات انتاج أمريكية وهمية . وأرقام تليفونات لم تعد ترد . ومنتجو أفلام لا يمكن العثور عليهم . وكل ذلك الذى يحدث له علاقة ببشارلى . وله علاقة بنيد زوجها .

ثم قال نيد في بؤس : بل هناك ما هو أسوأ من ذلك

ما هو يا عزيزي؟

- لقد سرقوا كل خطاباتها .

– سرقوا ماذ !!

فقال كويلى .. سرقوا كل خطاباتها المكتوبة بخط اليد . وهى الخطابات
التي تتعلق بالسنوات الخمس الماضية أو لفترة أطول من ذلك . بل وسرقوا
الرسومات التى كانت ترسمها عندما تشعر بالسعادة . انتزعوا كل ذلك من الملف
الخاص بها . وقام بذلك هذان الشخصانالأمريكيان الرهيبيان : كارمان وصديقه
الرهيب . وقد تضليلت السيدة لونجمور من ذلك كثيراً بل وأصيّبت السيدة إليس
بالمرض بسبب ذلك .

فقالت زوجته مارجوري أكتب لها خطاباً شديداً للهجة فقال كويلالي في

بؤس وتعجب .. ولكن ما الفائدة من وراء ذلك ؟ وما هو العنوان الذى أبعث
الخطاب عليه ؟

فقالت : اتصل بـ «بريان» كان «بريان» هو المحامى الخاص بكويلى . ولكن
ما الذى يمكن أن يفعله بريان ؟

رجع كويلى إلى داخل منزله وصب لنفسه كأسا من الخمر القوية . ثم
أدار زر التشغيل فى التليفزيون فظهرت أمامه نشرة الأخبار المسائية والتى
تضمنت فيلما عن أحد التفجيرات الوحشية التى تمت فى مكان ما مع ظهور
سيارات للاسعاف وقيام رجال بوليس أجنب بنقل الجرحى . ولكن كويلى لم يكن
فى حالة نفسية تسمح له بمتابعة هذا الانفجار بالتفصيل . إذ كان ذهنه مشغولا
بالملف الخاص بتشارلى . لقد قاما بالتفتيش بدقة فى هذا الملف وسرقة ونهب
الكثير من الأوراق المحفوظة به وظل يكرر تلك العبارة لنفسه . يا للعنة . وفي داخل
مكتبه . وابن كويلى العجوز يجلس بالقرب منها ويستغرق فى النوم عقب الغداء
بينما هما يقومان بسرقة أوراق الملف . انه لم يشعر بمثل هذا الضيق والانزعاج
منذ سنوات طوال .

الفصل السادس

إذا كانت قد استيقظت من حلمها فإنها لم يكن لديها معرفة به عندما استيقظت . أو ربما هي استيقظت - مثل آدم .. فوجدت الحلم صادقاً لأن أول شيء شاهدته كان كأساً مليئاً بعصير البرتقال الطازج عند سريرها ولأن ثانى شيء شاهدته هو يوسف الذى كان يخطو بخطوات واسعة عبر الغرفة ويقوم بفتح الدواليب وجذب الستائر لكي يسمح بدخول أشعة الشمس . ظهرت تشارلى بائتها ما زالت نائمة شاهدته من خلال عينيها شبه المغلقتين مثلاً كانت ترقبه على الشاطئ . القميص الحريرى مرة أخرى ولوازمه الذهبية .

تساءلت : كم الساعة الآن ؟

فقال : الساعة الثالثة .

الثالثة بعد الظهر . لقد نمت بما فيه الكفاية . ينبغي أن ننطلق .

فتساءلت : كيف حال فمك ؟

فقال : يبدو أننى لن أتمكن من الغناء مرة أخرى .

ثم توجه إلى خزانة الثياب قديمة واستخرج منها قفطاناً قديماً ووضعه على الكرسى . ولم تشاهد أية علامات على وجهه . لا شيء سوى حلقات ثقيلة من التعب تحت عينيه .

وقالت لنفسها : لقد ظل ساهراً طوال الليل ومنكباً على أوراقه الموجودة فوق مكتبه . لقد كان ينجز واجباته المدرسية التى تحضر بالمنزل .

- هل تذكررين المحادثة التى دارت بيننا قبل أن تذهبى إلى الفراش فى هذا الصباح يا تشارلى ؟ : لقد قلت لك : عندما تستيقظين فإننى أريد منك ارتداء هذا

الفستان وارتداء الملابس الداخلية الجديدة التي ستجدينها في الصندوق هنا . وأنا أفضل أن تكوني مرتدية الألوان الزرقاء اليوم وأن يكون شعرك مناسباً على الجانبين . بدون أنشوطات وعقدات

- أى بدون ضفائر .

تجاهل التصحيح الذي أبدته، وأضاف : وهذه الملابس هي هديتي لك . يسعدني أن أحدهم لك ما تلبسيه وأحدده لك الشكل الذي تبدين عليه . أجلسني معتدلة من فضلك . ألقى نظرة شاملة متأنية على الغرفة .

وكانت عارية . فأمسكت بالملالية ورفعتها حتى رقبتها . ثم جلست معتدلة في حرص وحذر .

قال : تذكرى كل شيء حولك . نحن حبيبان سريان . وهذه الغرفة هي المكان الذي أمضينا فيه الليل لقد اجتمع شملنا بعد فراق فى أثينا . وجئنا إلى هذا المنزل ووجدناه شاغراً . لا يوجد به مارتى مايك . لا أحد سوانا نحن الاثنان .

- إذن منْ أنت ؟

- لقد جرّشنا السيارة فى المكان الذى جرشناها فيه . وكان ضوء الشرفة متوجهاً لدى وصولنا . قمت بفتح قفل الباب الأمامى . ثم جرينا سوياً ونحن متماسكان باليد على السالم العريضة .

- وماذا عن الأمتعة ؟

- الأمتعة قطعتان فقط : حقيبتي + حقيبة الكتف الخاصة بك . وأنا حملت الحقيبتين .

- إذن كيف أمسكت بيدي ؟

واعتقدت أنها تفوقه حيلة وذكاء . إلا أنه كان مسروراً من دقة ملاحظتها .

- حقيبة الكتف ذات الشريط المقطوع كانت تحت ذراعي الأيمن . وكانت حقيبتي في يدي اليمنى . لقد جريت لكي أصبح على يمينك . كانت يدي اليسرى

شاغرة . ووجدنا الغرفة على ما هي عليه الآن على وجه الدقة . كل شيء فيها معد وجاهز . وما كدنا ندخل من الباب حتى اندفعنا في عنق حار . اذ لم يكن بمقدورنا أن نتحكم في رغباتنا لفترة أطول .

وقفز قفزيتين فوصل إلى السرير وراح يفتح ويبحث بين الملاءات المبعثرة الملقاة على الأرضية إلى أن عثر على بلوكتها . فرفع البلوزة لأعلى أمام عينيها . لقد كانت ممزقة عند كل عروة من عروات الأزرار . بل وكان هناك زداران مفقودان .

قال موضحاً : نوبة جنون مؤقتة .

ثم ألقى بالبلوزة على جانب . وسمح لنفسه بالابتسام في اقتضاب .

وتساءل : أتريدين قهوة ؟

- تناولى للقهوة سيكون أمراً عظيماً .

- أتريدين خبزاً ؟ لبن مصفى ؟ زيتون ؟

- لا أريد سوى القهوة : . وما إن وصل إلى الباب حتى قالت بصوت مرتفع : آسفة يا يوسف لأنني ضربتك في عنف . كان ينبغي عليك أن تشن هجوماً مضاداً مثل تلك الهجمات المضادة الإسرائيلية وتصرعنى بطريقة خطافه . وأغلق الباب . وسمعت وقع أقدامه تترامى من بعيد على الممر . فبدأت تنزل من السرير في حذر شديد . وقالت لنفسها : إنه تمثيل صامت مثل جولديلوكس في منزل الدب .

وكانت دلائل عريبتها متجالية في كل مكان حولها : زجاجة فودكا مليئة حتى ثلثيها تطفو في جردن من الثلج . وكأسان شاغران . وسلطانية مليئة بالفواكه . وبلبان ملينان بقشر التفاح وبذور العنبر . والسترة الفضفاضة الحمراء ملقة على كرسي . وثوب كيمونو ياباني مصنوع من الحرير الأسود الثقيل كان معلقاً على الباب . وفي داخل الحمام توجد فوطتان . فاستخدمت الفوطة الجافة .

وعندما فحصت ثوبها الأزرق اتضح لها أنه جميل بعض الشئ ومصنوع من القطن السميك وله خط رقبة مرتفع ومحتشم وعليه علامة « محلات زليدة » بروما ولندن . والملابس الداخلية من النوع الفاخر للغاية الأسود اللون المتلائم مع حجمها . وعلى الأرضية توجد حقيبة كتف جديدة تماماً علاوة على صندل جلدي جميل بدون كعب . وجربت الصندل فجاء على مقاسها تماماً . وارتدى ملابسها . وبينما كانت تمشط شعرها بالفرشاة عاد يوسف إلى الغرفة حاملاً معه صينية القهوة .

وقال وهو يضع الصينية فوق المنضدة : تبدين ممتازة .

- ممتازة ؟

- جميلة وساحرة ومشترقة ومتوجهة . هل شاهدت النباتات السحلبية ؟

لم تكن قد شاهدتها . ولكنها شاهدتها آنئذ . فانقلبت معدتها بنفس الطريقة التي انقلبت بها فوق الأكروبوليis : غصن ذهبي وخمرى له كسوة بيضاء مستندة على الزهرية . فانتهت من تمثيل شعرها ثم التقطت المظروف الصغير وأخذته معها إلى الكرسى الطويل، حيث جلست عليه . وظل يوسف واقفاً . وبعد أن رفعت طرف المظروف جذبت منه بطاقة مكتوب عليها بخط انجليزى مائل ركك عباره « أنا أحبك » مع التوقيع المألف « بحرف الميم » .

- حسناً ؟ بماذا يذكرك هذا ؟

فقالت : أنت تعرف جيداً بماذا يذكرنى هذا .

- إذن أخبريني .

- هذا يذكرنى بنوتنجهام ومسرح بارى ويدذكرنى ببورك ومسرحية العنقاء ويدذكرنى بسترا تفورد إيست ومسرحية صراع الديكة . ويدذكرنى بك وأنت جالس فى الصف الأمامي مع البحلقة فى وجهى باستمرار .

- هذا هو نفس خط اليد ؟

- نفس خط اليد ونفس الرسالة ونفس الأزهار .

- وأنت تعرفيني باسم ميشيل . وحرف الميم هو اختصار لميشيل . ثم فتح حقيبة السفر السوداء الأنيقة وراح يعيّن ملابسه بسرعة في داخلها . وقال دون أن ينظر إليها .. إنني كل ما تمنيتينه دائماً . ولكنني بالمرة ينبغي عليك أن تتذكري ذلك بل ويجب أن تصدقى ذلك وتشعرى وتحلمى به . فنحن نبني سوياً حقيقة جديدة . حقيقة أفضل .

فوضعت البطاقة على جانب . وبدأت تصبّ لنفسها بعض القهوة متعمدة التباطؤ في مواجهة تسرّعه .

تساءلت ومن الذي يقول إنها حقيقة أفضل ؟

- لقد أمضيت أجازتك في ميكونوس مع المستير . ولكنك في أعماق قلبك كنت في انتظارى على آخر من الجمر وفي اشتياق شديد .. في انتظارى أنا : ميشيل . ثم ذهب إلى الحمام وعاد ومعه حقيبته القماشية . وأضاف : ليس يوسف - ولكن ميشيل . وبمجرد أن أنتهت أجازتك أسرعت في الذهاب إلى أثينا . وفي القارب أخبرت أصدقائك أنك تريدين الانفراد بنفسك لمدة أيام قليلة . وهذه كذبة . لأنك كان لديك موعد لقاء مع ميشيل . ليس يوسف، ولكنه ميشيل ثم أخذت سيارة أجرة إلى المطعم . وتقابلت معى هناك . مع ميشيل . وكانت مرتدية قميصى الحريرى وساعتها الذهبية . وطلبت السمك الذى تفضلىنه . وأننا اشتريت النشرات السياحية لكي أطلعك عليها . وتناولنا الطعام سوياً وتحديثاً حديثاً عنباً مثل حبيبين يلتقيان بعد فراق . وأخذ ثوب الكيمونو الأسود الذى كان معلقاً على الباب ودفعت بقشيشاً في سخاء واحتفظت بالفاتورة . ثم أخذتك إلى الأكروبوليس وهى رحلة ممنوعة وفريدة من نوعها . وكانت هناك سيارة أجرة في حالة انتظار . إنها ملكى . وتحديثت مع السائق الذى يسمى ديمترى .

قاطعته قائلة : إذن كان ذلك هو السبب فى اصط召ابى إلى الأكروبوليس .

- لم يكن أنا الذى اصطحبتك . بل كان ميشيل . وميشيل فخور بلغاته . وهو يحب الحركات الرومانسية والقفزات الفجائية . إنه الساحر الخاص بك .

- أنا لا أحب السحرة .

- وهو لديه أيضاً عشق شديد بالآثار القديمة مثلاً لاحظت عليه .

- إن منْ الذي قبلني ؟

قطوي ثوب الكيمونو في حرص ووضعه في حقيقة السفر . ثم قال : إن السبب العملي الذي دعا إلى اصطحابك لأعلى إلى الأكروبوليس هو إن يتمكن من الاستلام السري للسيارة المرسيدس حيث لم يكن يرغب لأسباب خاصة في أن يحضر السيارة المرسيدس إلى وسط العاصمة أثناء فترات الزحام وانصراف الناس من أعمالهم للذهاب إلى بيوتهم . إنت لم تسائل أستاذة عن المرسيدس وتقبلتيها كجزء من الوجود لك معنى مثلكما تتقبلين العالم السحرى الموجود فى كل شيء نفعله . إنت تتقبلين كل شيء . أسرعى من فضلك . أمامنا فترة طويلة من القيادة بالسيارة والكثير من الكلام .

قالت : وماذا عنك ؟ هل تعشقني ؟ أم إن الأمر كله لعبة ؟

قال : انت تحبين ميشيل . وتعتقدين إن ميشيل يحبك .

- لكن هل أنا على حق ؟

إنه يقول إنه يحبك . وهو يقدم لك الدليل على ذلك . وما هو الشئ الآخر الذي يمكن إن يفتعله رجل لكى يقنعك طالما إنه لا يستطيع إن يعيش فى داخل رأسك ؟

وانطلق فى أرجاء الغرفة مرة أخرى . وراح يعبئ الأشياء . ثم توقف أمام البطاقة التى كانت موجودة مع الأزهار .

فتساءلت : منزل منْ هذا ؟

إننى لا أجيب أبداً على مثل هذه الأسئلة . وحياتى بمثابة لغز بالنسبة لك . وحياتى لطيفة للغاية منذ إن تقابلنا . وأود إن يظل الأمر على ذلك النحو . ثم التقط البطاقة وتناولها لها . وقال لها : ضعى هذه البطاقة فى حقيقة اليد الجديدة

الخاصة بك . ومن الآن فصاعداً أتوقع لك أن تبتهجى بهذه الهدايا التذكارية التي أقدمها لك . أتدركين هذا ؟

ورفع زجاجة الفودكا من الإناء الملىء بالثلج وقال : أنا بصفتي رجلاً أتناول كميات من الخمور أكثر منك . وأنا شخصياً لست مدمناً للخمور . فالكحوليات تسبب لي الصداع بل وتسبب لي المرض من وقت لآخر . ولكنني أفضل الفودكا بالنسبة لك يمكن إن تحصلى على كأس واحد صغير لأننى متحرر ولكن أساساً لا أوفق على احتساء النساء للخمور إننى مولع بأكل الأشياء الحلوة المذاق . فإنما أحب الشيكولاتة والكعك والفواكه بصفة خاصة . مثل العنب . ولكن العنب ينبغي إن يكون أخضر اللون مثل العنب الموجود في قريتى . ما الذي أكلته تشارلى فى الليلة الماضية ؟

- أنا لا أكل . ليس عندما يكون الأمر على ذلك النحو . أكتفى بتدخين سيجارة ما بعد الاتصال الجنسي .

- إننى لا أسمح بالتدخين فى غرفة النوم . وفي مطعم أثينا تسامحت بشأن التدخين لأننى متتحرر . وحتى فى السيارة المرسيدس أسمح لك بالتدخين من وقت لآخر . ولكن لا أسمح على الإطلاق بالتدخين فى غرفة النوم . وإذا شعرت بالعطش أثناء الليل يمكنك إن تشربى ماء من الحنفيه . ويدأ يرتدى الرداء الأحمر الفضفاض . وقال : هل لاحظت كيف إن الحنفيه تقرقر ؟

- لا .

- إذن فالحنفيه لم تقرقر . فى بعض الأحيان تقرقر وأحياناً أخرى لا تقرقر .

قالت وهى مازالت ترقبه : إنه شخص عربى . أليس كذلك ؟ إنه الشوفينى العربى الأصيل الخاص بك . وهل هذه هى سيارته التى أخذتها .

حملق فيها للحظات قليلة ثم قال : أوه . يمكننى القول إنه أكثر من مجرد رجل عربى . وأكثر من مجرد شوفينى ^(١) . فلا شيء فيه عادى على الإطلاق . على

١- الشوفينى : هو الشخص الذى يتفانى فى حبه لوطنه وحمايته، المترجم

الأقل من وجهة نظرك . إذهبى إلى السرير لو سمحت . وانتظر إلى إن فعلت ذلك فأضاف .. تحسّسى تحت وسادتى . فى بطء وحذر . إننى أنام على الجانب الأيمن .

فانزلقت بيدها تحت الوسادة الباردة .

تسائل : هل عثرت عليه ؟ التزمى بالحرص والحذر .

- نعم يا يوسف . لقد عثرت عليه .

- ارفعيه فى حرص وحذر . فمزلاج الأمان مرفوع لأعلى . فميشيل ليس من عادته إن يعطى التحذيرات قبل إطلاق الرصاص . فالمسدس هو الطفل الخاص بنا . إنه موجود دائماً معنا فى كل سرير ننام عليه . نحن نسميه : طفلنا . وحتى عندما نمارس الحب والعاطفة فإننا لا نقلق تلك المخدة ولا ننسى أبداً المسدس الموجود تحت المخدة . وتلك هي الطريقة التى نعيش بها . هل تشعرين الآن إننى لست عادياً ؟

وراحت تتأمل المسدس وكيف إنه يستلقي فى إناقة فى راحة يدها .

صغيراً وبنى اللون .

تسائل يوسف : هل سبق لك إن تعاملت مع مسدس كهذا ؟

- مرات كثيرة .

- أين وضد من ؟

- على المسرح . ليلة وراء ليلة وراء ليلة .

وناولته المسدس . وشاهدته يضعه فى داخل ردائه بسهولة وكانه يضع محفظة نقوده فى جيبيه . ونزلت وراءه على السلالم . كان المنزل شاغراً وبارداً على نحو غير متوقع . وكانت السيارة المرسيدس تقف فى الفناء الأمامي . وفي بادئ الأمر كانت ترغب فى المغادرة : والذهاب إلى أى مكان وإلى الطريق المكشوف . ولكن المسدس سبب لها الخوف وقيد حركة جسدها . وبينما راح يسير على المر

المؤدى إلى المترجل التفتت ورائها . ونظرت إلى الدهانات الصفراء والزهور العمراء وشيش النواخذة المفلقة والقرميد الأحمر القديم . وأدركت في وقت متلغر كيف ان كل شيء كان جميلاً ومُرحباً أثناء مفاسرتها .

.....

وعلى مدى عشرين دقيقة وفقاً للساعة الموجودة في لوحة أجهزة القياس بالسيارة لم يتكلم يوسف . إلا أنها لم تشعر به استرخاء في داخل كيانه . وإنما كان في داخله ذلك الاستعداد الذي يسبق الهجوم .

قال فجأة : إنني هنا تشارلي . هل أنت مستعدة ؟

- إنني مستعدة يا يوسف .

- في يوم الجمعة ٢٦ من شهر يونيو كنت تؤدين دور جان دارك في مسرح بارى / نوتنجهام . لم تكن مع الشلة العتادة ، دخلت إلى المسرح في آخر لحظة لكي تحلي محل شهادة تخلفت عن المضمار . وهذا المشهد واضح للغاية في ذاكرتك .

- واضح .

وتحكم في مليشه واندفعه . وألقى نظرة تساؤلية عليها . إلا إنها لم يعثر على شيء يمكن الاعتراض عليه . وكان الوقت في فترة مبكرة من المساء . والشفق الأحمر ينتشر بسرعة . إلا أن التركيز الذهني لدى يوسف كان له فورية ضوء الشمس .

وقالت لنفسها : هذا هو العنصر الخاص به . وهذا هو الشيء الذي يفعله على أفضل وجه في حياته . وهذه هي القوة الدافعة الوحشية . في الشرح الذي كان مفقوداً حتى تلك الأونة .

- دقائق قبل رفع الستار ويتم تسليم غصن من نبات السحلبية النهبي عند باب المسرح مع ورقة موجهة إلى جان مكتوب عليها :

يا چان إننى أحبك حباً خالداً أبداً .

- لا يوجد باب للمسرح .

- يوجد مدخل خلفى من أجل تسليم الأشياء الخاصة بالمصرح . والمعجب
بك دق المجرس . وضع أغصان نبات السحلية بين نراعى البواب . وهو رجل
يسمى السيد ليمون . ومعها ورقة من فئة الخمسة جنيهات . وتناول ليمون كثيراً
 بهذه البخشيش الكبير . ووعد بيان ينتقل نبات السحلية إليه على الفور - فهل فعل
ذلك ؟

- إن أفضل شئ يفعله ليمون هو إقحام نفسه في غرف الارتداء الملائكة
الخاصة بالسيدات بدون سابق لذار .

- إذن أخبريني ماذا فعلت عندما سلمت نبات السحلية ؟

فأصابها التردد وقالت : التوقيع كان بـ «حرف الميم» .

- هذا صحيح . فما الذي فعلته ؟

- لا شيء .

- هذا كلام فارغ .

شعرت بألم حادة وما الذي كان ينبغي على أن أفعله ؟ لقد كان أمامي
حوالى عشر ثوانٍ قبل أن أصعد على المسرح .

ظهرت شاحنة محملة بالتراب متوجهة نحوهما على الجانب المخاطئ من
الطريق . فاتجه يوسف بالسيارة المرسيدس نحو الكتف الترابي وخرج بسرعة من
المساحة الترابية . وقال : إذن فللت قد ألقيت بأغصان السحلية التي يبلغ ثمنها
ثلاثين جنيهاً في سلة المهملات الخاصة بك . وهزت كتفيك . ثم صعدت على
المسرح . شيء عظيم . إننى أهنتك .

- لقد وضعت النباتات في الماء .

- وفي أي شيء وضعت الماء ؟

وقد أدى هذا السؤال الفجائي إلى تقوية ذاكرتها . فقلت : في برمطمان
خاص بالطلاء .

لقد عثرت على برمطماناً وقمت بملئه بالماء ثم وضعته نبات السحلبية في
الماء . إذن ماذا كانت مشاعرك أثناء قيامك بكل ذلك ؟ هل كنت متأثرة ؟ هل كنت
في حالة من الإثارة ؟

وهذا السؤال قد جعلها على نحو ما تبدو وكأنها أخطأت . فقلت : لقد
لحقت بالأخرين على المسرح . وانتظرت لأرى من يكون ذلك الشخص الذي أحضر
النباتات .

كانا قد توقفا بسبب إشارة المرور . فبـث الصمت والسكون تقارباً جديداً
وديأً بينهما ثم تفاعل وماذا عن عبارة (إنا أحبك) ؟

- هذه عبارة يتسم بها المسرح . فكل شخص يحب كل شخص . لبعض
الوقت . ولكنني أتعجب بكلمة (حبًا خالدًا أبدياً) فهذا تعبير متميز .

وتغيرت إنوار إشارة المرور . وانطلقنا بالسيارة مرة أخرى . ألم تفكري في
النظر إلى جمهور الحاضرين على أمل إن تشاهدى شخصاً ما تعرفيه ؟

- لم يكن هناك وقت كاف يسمح بذلك .

- وفي خلال فترة الاستراحة ؟

- لقد رحت أبحلق أثناء الاستراحة . إلا إنى لم أشاهد أى شخص أعرفه
من قبل .

- وبعد انتهاء العرض . ما الذى فعلتى ؟

- عدت إلى غرفة الملابس الخاصة بي . وغيرت ملابسى . وتباطلت بعض
الشئ . ثم ذهبت إلى منزلى .

- المنزل يعني فندق استرال كوميرشىال هوتيل القريب من محطة السكة
الحديد .

- نعم .

- وماذا عن النباتات السحلبية ؟

- ذهبت معى إلى الفندق .

- ألم تسائلى السيد ليمون عن أوصاف ذلك الشخص الذى أحضر هذه النباتات ؟

- لقد سألته فى اليوم التالى . وليس فى نفس الليلة .

« وماهى الإجابة التى حصلت عليها عندما سألتني بالفعل ؟ » .

لقد قال إنه جنلتمان أجنبى لكنه يبدو محترما . سأله عن عمر ذلك الرجل فقال إن عمره ملائم . حاولت أن أتذكر رجلا أجنبيا أعرفه يبدأ اسمه بحرف الميم ولكننى لم أتذكر .

ألم يصادفك فى أيام الطيش الخاصة بك أى رجل واحد أجنبى يبدأ اسمه بحرف الميم . لقد خييت ظنى .

- ولا شخص واحد يبدأ اسمه بهذا الحرف ثم ابتسما معا . لكن الابتسامة لم تكن موجهة من أحدهما للأخر .

إذن ياتشارلى . لدينا الآن حفل صباحى ليوم السبت يعقبه الحفل المسائى كالمعتاد .

وأنت كنت هناك . أليس كذلك ؟ هناك فى منتصف الصف الأول . و كنت مرتدية الرداء الأحمر الجميل . و كنت محاطا بأولاد المدارس اللزجين والذين يسعون ويرغبون فى الذهاب كثيراً إلى دورات المياه .

شعر بالتوتر بسبب طيشها وتقبيلها . فركّز انتباهه على الطريق لبعض الوقت . ثم استأنف استجاباته أود أن توضحى لى مشاعرك على وجه الدقة ياتشارلى . إن الوقت هو منتصف فترة ما بعد الظهر . والصالحة ينفذ إليها قدر من ضوء النهار بسبب الستائر الرديئة . وأنا جالس فى الصف الأمامى . يبدو على الطابع الأجنبى

والطريقة الأجنبية. كما أتنى لافت للنظر بوجودي بين الأطفال. وأنت لديك
أوصاف ليمون عنّي . والأكثر من ذلك أتنى لا أرفع عيني عنك . فهل خطر على
ذهنك أتنى الشخص الذى قام بتقديم نباتات السحلبية وأتنى لستُ سوى الشخص
الغريب الذى وقع بحرف الميم والذى يدعى أنه يحبك حباً خالداً ؟

- بالطبع خطر على ذهني كل ذلك . وكتت أدرك ذلك .

- كيف ؟ هل قمت بالمراجعة مع ليمون ؟

- لم أكن بحاجة لأن أفعل ذلك . لقد أدركـت ذلك فقط . شاهدـتـك هـنـاكـ وـأـنـتـ
تـتـنـظـرـ إـلـىـ حـالـاـ مـوـسـتـغـرـقاـ . وـقـلـتـ لـنـفـسـيـ إـنـهـ أـنـتـ الذـىـ قـدـمـ النـبـاتـ . وـيـعـدـنـذـ عـنـدـماـ
أـسـدـلـ الـسـتـارـ عـقـبـ اـنـتـهـاءـ الـحـفـلـ الصـبـاحـىـ ثـمـ ظـلـلـتـ جـالـسـاـ فـيـ الـكـرـسـىـ الـخـاصـ
بـكـ وـأـبـرـزـتـ التـنـكـرـةـ الـخـاصـةـ بـكـ مـنـ أـجـلـ مـشـاهـدـةـ الـعـرـضـ التـالـىـ .

- كيف عرفت أتنى فعلـتـ ذلك ؟ مـنـ الذـىـ أـخـبـرـكـ ؟

- قـلـتـ ذـكـ بـنـفـسـكـ أـكـانـ الـأـمـرـ مـمـلاـ وـثـقـيلـ الـظـلـ ياـ يـوسـفـ ؟ أـكـانـ الـعـرـضـ
مـمـلاـ ؟ بـسـبـبـ مـشـاهـدـتـكـ الـعـرـضـ مـرـتـيـنـ مـتـالـيـتـيـنـ عـلـىـ ذـكـ النـحـوـ ؟ أـمـ أـنـكـ كـنـتـ فـيـ
حـالـةـ مـنـ الـاسـتـمـتـاعـ ؟

فـلـجـابـ بـدـونـ أـنـيـ تـرـدـ : كـانـ ذـكـ الـيـوـمـ هـوـ أـكـثـرـ الـأـيـامـ رـتـابـةـ فـيـ حـيـاتـيـ ،
وـحـقـيقـةـ الـأـمـرـ أـنـيـ كـنـتـ أـعـتـقـدـ أـنـكـ مـمـتـازـةـ لـلـغاـيـةـ .

فـقـالـتـ : هـلـ سـتـقـومـ بـتـحـطـيمـ السـيـارـةـ وـإـيقـافـهاـ الـآنـ فـجـأـةـ ياـ يـوسـفـ ؟ فـهـذـاـ
سيـشـعـرـنـيـ بـالـارـتـياـحـ . سـأـمـوـتـ هـنـاـ . وـقـبـلـ أـنـ يـقـمـكـ مـنـ إـيقـافـ السـيـارـةـ جـنـبـتـ يـدـهـ
وـقـبـلـتـ فـيـ عـنـفـ فـوـقـ إـصـبـعـ اـبـهـامـهـ .

.....

كان الطريق مستقيماً لكنه مليء بالحفر والمطبات . والتلال والأشجار على جانبي
الطريق مليئة بالتراب الناعم الناجم عن مصنع للأسمدة . وكانا في داخل الكبسولة

الخاصة بهما حيث إن الاقتراب من أية أشياء متحركة يزيد من خصوصية العالم الخاص بهما . بدت أشبه بمثابة مجندة تتعلم كيف تصبح جنديه . قال : أخبريني لو سمحت . بغض النظر عن نباتات السحلبية هل تلقيت أية هدايا أخرى أثناء
قيامك بالتمثيل على مسرح بارى ؟

قالت في ارتعاد على الفور : الصندوق .

- ما هو ذلك الصندوق لو سمحت ؟

وكانت قد توقعت السؤال . بدأت تظاهرة بأنها مستاءة منه معتقدة أن ذلك هو ما يريد . فقالت : كان ذلك نوعاً من الخدعة . فهناك شخص ما بغيض وتابه أرسل إلى صندوقاً على المسرح . في طرد مسجل . والتسليم خصوصي .
متى حدث ذلك ؟

- في يوم السبت . وهو نفس اليوم الذي حضرت فيه الحفل الصباحي .

- لماذا كان يوجد في الصندوق ؟

- لا شيء . صندوق جواهر شاغر . أرسل على هيئة طرد مسجل . وشاغر .

- يا له من أمر عجيب للغالية . وماذا عن البطاقة الملصقة على الطرد ؟ هل قمت بفحص هذه البطاقة ؟

- لقد كان الكلام مكتوباً بقلم أزرق له سنّ على شكل كرة . والحراف كبيرة الحجم .

- ولكن إذا كان الطرد مسجلاً فمن المؤكد أنه كان هناك أيضاً اسم المرسل .

- كان الخط غير واضح وغير مقروء . وكلان الاسم شيئاً بكلمة مارلين . وربما كان هوردين اسم فندق ما محليّ .

- أين فتحت الطرد ؟

- في غرفة الملابس الخاصة بي في الفترة ما بين العرض الأول والعرض الثاني .

- بمفردك؟

- نعم .

- وما هو الهدف من وراء ذلك من وجهة نظرك؟

- اعتقدت أن هناك شخصا ما يحاول بذل محاولات معى بسبب اتجاهاته السياسية . فقد حدث ذلك لي من قبل . خطابات بذئنة ودينية . ربما شخص شيوعى من أنصار الحلول السلمية .

- ألم تقوى بالربط بين الصندوق الشاغر ونباتات السحلبية على نحو ما؟

- لقد أحببت نباتات السحلبية . مثلما أحببتك وأوقف السيارة . راح يبحث في داخل جيب باب السيارة الموجود إلى جواره . ثم ناولها مظروفا مسجلاً مع وجود شمع أحمر على الغطاء علامة على وجود هيكل مربع صلب في داخله . عبارة عن صندوق طبق الأصل من ذلك الصندوق الذي تسلمه في ذلك اليوم . وعلى المظروف توجد العلامة البريدية لنوتينجهام بتاريخ ٢٥ يونيو . وعلى وجه المظروف يوجد عنوانها وعنوان مسرح بارى وقد كتبها بالحبر الأزرق بقلم له سن مثل الكرة . وعلى ظهر المظروف توجد تلك الشبطة التي كتبها المرسل . قال يوسف في هدوء : نحن الآن نعد الرواية . وسنجعل الرواية الجديدة مرتكزة على الحقائق القديمة .

ثم أضاف قائلاً : لقد كان اليوم حارا مثل ذلك اليوم . وأنت في غرفة الملابس الخاصة بك في الفترة ما بين الماتينيه والسواريه . والطرد ما زال مغلقاً . وفي انتظارك لكي تفتحيه . ما هي الفترة التي تقضينها في غرفة الملابس قبل أن تعودي إلى المسرح مرة أخرى؟

- عشر دقائق . وربما أقل من ذلك .

- حسناً ، الآن افتحي الطرد .

فرمقته بنظرة سريعة . إلا أنه كان يحملق أمامه نحو أفق العدو . فنظرت لأسفل نحو المظروف . ثم نظرت إليه مرة أخرى ودفعت بأخباعها في داخل المظروف وفتحته . كان يوجد في داخله نفس صندوق المجوهرات الأحمر اللون . إلا أنه كان أثقل وزناً . المظروف أبيض وصغير مغلق بالشمع الأحمر . ويوجد بداخله بطاقة بيضاء اللون . قرأت هذه العبارة المكتوبة على البطاقة : إلى جانب روح حريري . أنت رائعة . إنني أحبك ! ولكن بدلاً من التوقيع بحرف الميم أصبح التوقيع بكلمة ميشيل التي كتبت بخط كبير مع التوااء حرف A إلى الخلف على هيئة ذيل للتأكيد على مدى أهمية الاسم . فقامت بهز الصندوق . وأحسست بالصوت المكتوم المبهج متراحميا من الداخل .

فقالت في تفكه ومزاح «أسناني» إلا أنها لم تنجح في تحطيم التوتر الموجود في داخلها أو في داخله .

وأضافت : هل لي أن أفتحه ؟ ما هذا ؟

- كيف ينبغي لي أن أعرف ؟ . افتحيه .

فرفعت الغطاء . وكان يوجد في القطيفة سوار ذهبي مرصع بالأحجار الزرقاء .

فقالت في صوت ناعم : أيها السيد المسيح . ثم أغلقت الصندوق في حركة سريعة خاطفة . وتساءلت .. وما الذي ينبغي على أن أفعله لكي أحصل على هذا السوار ؟

قال يوسف على الفور .. حسناً جداً . هذا هو أول رد فعل يصدر عنك . أنت تلقين نظرة . وتتممرين بكلام ثم تغلقين الغطاء . أتذكريين ذلك . ذلك على وجه الدقة . لقد كان ذلك هو رد الفعل لديك . ابتداء من الآن فصاعداً ودائماً .

قامت بفتح الصندوق مرة أخرى . واستخرجت في حرص وحذر السوار النحبي . وزونته في راحة يدها . لم تكن لديها خبرة بالمجوهرات باستثناء الطلي الزائفية التي ترتديها في بعض الأحيان على المسرح . تسأله « هل هذا السوار حقيقي؟ » .

- من سوء الحظ أنك ليس لديك خبراء حالياً لكي يقدموا لك وجهة نظرهم . يمكن لك أن تتخذى قراراً لك بنفسك .

فقالت في نهاية الأمر : إنه قديم .

- حسناً . أنت تعتقدين أنه قديم .

- وثقيل .

- ثقيل وقديم . ليس من مجوهرات الأطفال الزائفية .

وراحت تدرس دماغة المصوّفات . ولكنها لم يكن لديها فكرة عنها فأخذت تخربش بأظافرها في المعدن في رفق . إلا أنه كان ناعماً .

- أنت أمامك وقت ضئيل للغاية يا تشارلى . ومن المقرر لك أن تدخل المسرح مرة أخرى خلال دقيقة وثلاثين ثانية . فما الذي ستتعطّلينه؟ هل تتركى هذا السوار في غرفة الملابس الخاصة بك؟

- يا إلهي . لا .

- إنهم ينادون عليك . وينبغي عليك أن تتحركي يا تشارلى . عليك أن تتخذى قراراً بسرعة .

- توقف عن ممارسة الضغط علىّ ! إننى أعطى السوار إلى ميللى لكي ترعاه نيابة عنّى . إنها الممثلة البديلة لي . وهى تقوم بمهمة التلقين . إلا أنه لم يشعر بالارتياح ازاء هذا الاقتراح على الإطلاق .

- أنت لا تثقين فيها .

وشعرت بشيء من اليأس . ثم قالت : أقوم بوضع السوار في الوراء خلف الغزان .

- إنه يكون في مكان واضح للغاية ..

- أضعه في سلة المهملات . وانتظر عليه ..

- ربما شخص ما يدخل إلى الغرفة لكنه يفرغ محتويات سلة المهملات . فكري جيداً .

- أضعه خلف مادة الطلاء فوق تحد الأرفف . إذ لم يتم أحد بنقض الغبار هناك منذ سنوات .

- عظيم ! تخمينه خلف الرُّفِّ . وتسلريعن لكن تخذى وضعك . أنت متاخرة يا تشارلى . أين كنت ؟ ويرفع الستار . أليس كذلك ؟
فقالت : حسناً .

- فما هي مشاعرك ؟ الآن . فيما يتعلق بالسوار وفيما يتعلق بالشخص الذي منح السوار ؟

- حسناً إنتي مُروعة . أليست مُروعة ؟

- ولماذا ينبغي أن تكوني مُروعة ؟

- حسناً . لا أستطيع أن أقبله أقصد أنه غالى الثمن للغاية .

- ولكنك ؛ قد قبلتني بالفعل . وقمت الآن بإخفاي بالفعل .

- لقد أخفيته لحين الانتهاء من العرض المسرحي .

- وبعد ذلك ؟

- سأرده إلى صاحبه . ألن أفعل ذلك

فشعر بالارتياح بعض الشيء . ثم قال : وفي تلك الأثناء وإلى أن يحين الوقت الذي ترجعين فيه السوار ما هي المشاعر التي تشعرين بها ؟

- مشاعر الدهشة والحيرة والتخبط . ما الذى تريده لى أن أشعر به ؟
- إنه على مسافة أقدام قليلة منك يا تشارلى . وعينان مثبتتان على وجهك
بطريقة عاطفية . وهو يحضر للمرة الثالثة على التوالى العرض الخاص بمسرحيتك .
وهو أرسل لك نباتات السحلبية والمجوهرات وقال لك مرتين إنه يحبك . وهو شخص
جميل ووسيم . وأكثر جمالاً مني .

فقالت : إذن أعمل وفق ما يملئه قلبي وهذا لا يعني أنه قد كسب الجولة .

.....

وفي حرص ، وكأنه يحاول عدم إزعاجها قام يوسف بتشغيل موتور السيارة
مرة أخرى ، وكانت حركة المرور قد أصبحت خفيفة . وكانا يتجهان نحو خليج
كورنث . وكانت هناك مجموعة من البوادر الضخمة تتجه نحو الغرب كما لو كانت
تنجذب مغناطيسيًا بمعرفة توحّد الشمس الغاربة . وفوقهما كانت تتشكل سلسلة من
التلال تحت ضوء الشفق الأحمر .

وتشعب الطريق وبدأ الاثنان في الصعود الطويل . واتجها بعد ذلك نحو السماء
الشاغرة .

قال يوسف : أتذكرين كيف كنت أصفق من أجلك ؟ أتذكرين كيف كنت أناصرك
بالتحقيق الحاد مرات عديدة عقب إسدال كل ستار ؟

نعم يا يوسف أذكر ذلك . إلا أنها لم تشعر بالثقة في نفسها بحيث تقول ذلك
بصوت مرتفع .

- حسنا ، إذن والآن تذكري السوار أيضاً . وفعلت ذلك . حركة من الخيال من
أجله - هدية في مقابل الشخص المحسن الجميل المجهول الذي أحسن إليها . وبعد
أن انتهى الخطاب الذي يوجه للجمهور عقب انتهاء المسرحية وردت على تحية
الجماهير سارعت إلى غرفة الملابس الخاصة بها . واستعادت السوار من المكان

السرى الموجود فيه . ثم أزالت المكياج عن وجهها بسرعة فائقة وارتدى ملابسها العادية لكي تذهب إليه بسرعة .

ولكن تشارلى بعد أن وصلت إلى هذه المرحلة من الأحداث قالت ليوسف : انتظر لحظة ، ولماذا لا يجيئ هو إلى ؟ ولماذا لا ينبغى على أن أظل موجودة في غرفة ملابسى وأنتظر مجئه بدلاً من الخروج والبحث عنه بين الأشجار والشجيرات ؟

- ربما لا تكون لديه الشجاعة التي تعينه على المجيء إلى غرفتك . فهو يشعر بالرهبة الشديدة نحوك .

- ولماذا لا أجلس لفترة قصيرة وأشاهد ما ستسفر عنه الأمور ؟

- يا تشارلى : ما الذي تهدفين إليه ؟ ما هو الكلام الذي يدور في ذهنك وترغبين أن تقولينه له ؟ فقالت أقول : استرد هذا فلا أستطيع أن أقبله .

- ولكنه ربما يتسلل إلى ظلام الليل ولا يظهر في الأفق مرة أخرى على الإطلاق ويترك مع هذه الهدية الغالية الثمن والتي لا تريدين أن تقبلها ؟ فوافقت على أن تخرج وتبث عنه .

- ولكن كيف . وأين ستعثرين عليه ؟ وأين ستبحثين عنه أولاً ؟

كان الطريق شاغرا . ولكنه يقود السيارة ببطء لكي يتمكن من إقحام نفسه على الماضي الذي يعاد تشبيده من جديد .

قالت بسرعة بدون أن تفكر في الأمر مليأً : سأجري لأبحث عنه وأخرج من الباب الخلفي إلى الشارع وحول أركان المسرح وأمسك به وهو على الرصيف .

قال : إذن فأنت بحاجة لأن ترتدي المعطف الواقى من المطر .

وكان على حق . كانت قد نسيت أمطار نوتينجهام فى تلك الليلة . وبدأت مرة أخرى . فبعد أن غيرت ملابسها بسرعة خرافية ارتدت معطفها الجديد الواقى من المطر بها ثم ربطت الحزام واندفعت بين الأمطار المتداقة إلى الشارع إلى واجهة المسرح .

فقط لتجد نصف رواد المسرح محشدين في تزاحم
تحت المظلة الناتئة منتظرين لحين توقف الأمطار . لماذا تبتسمين ؟

- أحتاج لأن أضع الوشاح الأصفر الخاص بي حول رأسي ، هل تذكر هذا الوشاح ؟ - إنه الوشاح الذي حصلت عليه من البرنامج التجاري التلفزيوني .

- إذن تقوم تشارلى بارتداء معطف المطر ووشاح الرأس الأصفر وتندفع بين الأمطار بحثاً عن حبيبها المتقد ولعاً وحماساً . ثم تصل إلى بهو المزدحم بالجماهير وتتدارى (ميшиيل ! يا ميшиيل !) . إلا أن نداءاتها غير مجدية . لأن ميшиيل ليس هناك . إذن ما الذي ستفعلينه ؟

- هل قمت بكتابة هذا يا يوسف ؟

- هذا لا يهم .

- أرجع إلى غرفة الملابس الخاصة بي ؟

- ألا يخطر على ذهنك البحث في صالة الجمهور بالمسرح ؟

- وهو كذلك . يمكن البحث فيها .

- وأي مدخل ستدخلين منه ؟

- المدخل الموجود عند المقاعد الأمامية بالمسرح . فأنت كنت تجلس في المقعد الأمامي .

- المقعد الأمامي كان يجلس فيه ميшиيل . أنت تختارين المدخل الموجود عند المقاعد الأمامية . ومن حسن الحظ أن ليمون لا يكون قد أغلق ذلك الباب . ثم تدخلين إلى الصالة الشاغرة وتسييرين ببطء في المشى .

قالت في رقة : وهـا هو موجود هـنالـك أـيـهـا السـيـدـيـسـيـعـ . ذـلـكـ أـمـرـ مـبـذـلـ .

- ولكنه يصلح للتمثيل .

- نعم . إنه يصلح .

- إنه موجود هناك . لا يزال جالسا في نفس المقعد في منتصف الصف الأول . يحملق في الستار كما لو كان بحملقته هذه سيجعل الستار يرتفع مرة أخرى وتظهر أمامه حبيبته «جان» التي هي روح الحرية الخاصة به والتي يحبها حباً أزلياً خالداً .

قالت تشارلى في تتممة : هذا أمر ، مرعب وشنيع لكنه تجاهل كلامها .

- لقد ظل متظراً في نفس المقعد وجالساً على مدى الساعات السبع الأخيرة .

قالت لنفسها : أرغب في الذهاب إلى المنزل . كم عدد الأقدار التي يمكن أن تواجهها فتاة في يوم واحد ؟

- وأنت تشعرين بالتردد ويعدهما تناذين عليه باسمه (يا ميشيل ! إنه الاسم الوحيد الذي تعرفينه . يلتفت لكى ينظر إليك لكنه لا يتحرك من مكانه . وهو لا يبسم . ولا يلقى عليك التحية . ولا يظهر بأى حال من الأحوال السحر والجمال الخاص به .

- ولكن ما الذي يفعله هذا الشخص التافه البغيض ؟

«لا شيء . إنه يحملق فيك بعينين عميقتين مليئتين بالعاطفة الجياشة . متحدياً إياك لكي تتكلمي . وقد تظننيه متكبراً متغطراً وقد تظننيه رومانتيكيَا . ولكنه ليس شخصاً عادياً أو خجولاً . لقد جاء ليطالب بك . إنه يتفجر بالشباب والحيوية . وهو كوزموبوليتانى وأنيق فى ملابسه . رجل حيوى ومزدهر ماليا . لا توجد به أية دلائل تدل على الخجل . لذلك» ثم تحول إلى صيغة المتكلم وأضاف قائلاً : «أنت تسيرين نحوى على المر تدركين أن المشهد لا يتبلور على النحو الذى تتوقعينه . ويتبlix

بذلك أنه أنت ولست أنا التي ينبغي عليك أن تقدمي التوضيحات . ثم تستخرجين السوار من جيبك . وتقديمه لى . وأنا لا أقوم بأدئني حركة . والمطر يقطر من جسدك على نحو ملائم وجذاب .

راح الطريق يتضاعد لأعلى فوق تلّ يلف ويدور . وكان صوته المهيمن علاوة على إيقاعات السيارة قد أرغم ذهناها على الدخول في المزيد من متاهم قصته .

تساءل : هل تقولين كلاما ما . ماذا تقولين ؟ وعندما لم يحصل على إجابة منها ، قال : (أنا لا أعرفك . شكرًا لك يا ميشيل . إنني أ تعرض للمديح والإطراء أكثر من اللازم . ولكنني لا أعرفك ولا أستطيع تقبّل هذه الهدية) هل يمكنك أن تقولي ذلك ؟
نعم يمكنك ، ولكن ربما على نحو أفضل .

لم تسمع كلامه إلا بصعوبة . إذ كانت واقفة أمامه في صالة المسرح ، مدت يدها الممسكة بالصندوق نحوه . وراحت تحملق في عينيه السوداويين . وقالت لنفسها في تفكير : وماذا عن حذائي الجديد ذي الرقبة . ذلك الحذاء البني الذي اشتريته بنفسي من أجل الكريسماس . لقد تدمر بسبب الأمطار . ولكن من الذي يهتم ؟

وكان يوسف مستمرا في سرد حكايته الملفقة التضليلية ، وأنا لا أزال ملتزما بالصمت وبدون أن أتكلم كلمة واحدة . وأنت سوف تدركين من خلال خبرتك المسرحية أن الصمت لا نظير له من حيث تدعيم وإقامة الاتصالات . فإذا لم يتكلم هذا الشخص اللعين فما الذي ستقولينه ؟ سوف تضطرين للتكلم مرة أخرى . أخبريني ما الذي ستقولينه لى في هذه المرة .

انتابها ارتباك غير مألوف وتدخل في صراع مع خيالها المفتوح ، وقالت «أسأله من يكون هو» .

- اسمى ميشيل .

- إنني أعرف هذه الجزئية . ميشيل ابن من ؟

- لا إجابة .

- أسائلك عن مازا تفعله في نوتنجهام .

- إنني أهيم حبّاً بك . استمرى .

- أيها السيد المسيح يا يوسف .

- استمرى !

- إنه لا يستطيع أن يقول ذلك لي !

- إذن قولى له !

- أحاول معه وأحاول إقناعه . إنني أناشده .

- إذن دعينا نسمعك وأنت تفعلين ذلك - إنه ينتظرك يا تشارلى . تحدثي إليه !

- سأقول له .

- نعم ؟

- (استمع إلى يا ميشيل .. إنه لأمر لطيف منك أن .. إنني أ تعرض للمدح والثناء أكثر من اللازم . ولكنني آسفة هذا أكثر مما أتحمل) .

- شعر بالإحباط وخيبة الأمل . وأنبهَا بشدة قائلاً :

- يا تشارلى . يجب أن تؤدي على نحو أفضل من ذلك . إنه شاب عربى - وحتى لو لم تكونى على علم بذلك فإنه يمكن لك أن تشکى في هذا - وأنت ترفضين هديته . يجب أن تحاولى في مزيد من الصلابة والقوة .

- (هذا ليس إنصافاً لك يا ميشيل . فالناس غالباً ما يشعرون بالولع المرضى إزاء المثلات .. وإزاء المثلثين .. وهذا يحدث في كل يوم . وهذا ليس سبب يدعوك لأن تدمّر نفسك .. من أجل فقط نوع من .. الوهم .)

- عظيم . استمرى .

وأصبح الأمر أكثر سهولة بالنسبة لها . وكانت تكره لجوءه إلى إرهابها بالصياح أو العبوس تماماً مثل كرهها للمنتجين والمخرجين . إلا أنها لم تستطع أن تنكر

التأثير الناجم عن ذلك . وأضافت قائلة : (وذلك هو كل ما يتناوله التمثيل باستمرار . يا ميشيل . إنه يتناول الوهم والخداع . إن جمهور المشاهدين يجلسون هنا على أمل أن يشعروا بالتسليمة والافتتان والانبهار . ونحن قد نجحنا في مهمتنا . ولكنني لا أستطيع تقبّل هذه الهدية . فهي هدية جميلة للغاية) . كانت تعنى السوار .

واستطردت : (جميلة للغاية . لا أستطيع تقبّل أي شيء . فنحن خدعناك وضللك . وذلك هو كل ما حدث . فالمسرح بمثابة خدعة يا ميشيل . هل تدرك معنى ذلك ؟ إنه بمثابة خدعة وأنت قد خُدعت وضللت) .

«أنا لازلت ملتزماً بالصمت وعدم الكلام» .

«حسناً . إجعله يتكلم !» .

ولماذا ؟ هل انتهت وسائل الإقناع لديك بالفعل ؟ ألا تشعرين بأنك مسؤولة عنى ؟ ولد صغير مثل ذلك الولد - وجميل للغاية - وأبدد أموالى على نباتات السحلبية والمجوهرات غالبية الثمن ؟

- بالطبع أشعر بالمسؤولية تجاهه ! فأصرّ في نغمة مليئة بالصبر : إذن عليك أن تقدمي الحماية لي . انقذيني من الخبل والافتتان .

- أحاول .

- السوار كلفنى مئات الجنيهات - يمكنك أن تخمنى بذلك . وربما يكون ثمنه آلاف الجنيهات . وربما أكون قد سرقته من أجل أن أقدمه لك . وربما ارتكبت جريمة قتل من أجل الحصول على السوار . أو ربما رهنت ميراثى . كل هذا من أجلك . إننى مسلوب العقل والفؤاد يا تشارلى . عليك ممارسة نفوذك !

وفي داخل مُخيّلتها «تشارلى» أجلسـت نفسها إلى جوار ميشيل في المقهـد المجاور له . وتشابكت يداها في حجرها . تنهنى للأمام في اهتمام لكي تجادل معه وتحاول إقناعه . كانت بمثابة ممرضة له وأم له وصديقة له .

- أقول له إنه سيشعر بالإحباط إذا عرفنى على حقيقـتي .

- أريد سماع نصّ هذا الكلام على وجه الدقة لو سمحت ، أخذت تشارلى نفسها عميقاً ثم قالت فجأة (استمع إلى يا ميشيل . إنني مجرد فتاة عادية . ولدى أثواب ضيقية بالية وقديمة وممزقة . والبلغ الذى سحبته من البنك أكبر من رصيده الفعلى . وأنا بالتأكيد لست جان دارك . صدقنى . وأنا لست عذراء . ولست جندية مقاتلة . وأنا لم أتجاذب أطراف الحديث والكلام مع الله منذ أن طردت من المدرسة بسبب) إننى لن أقول هذه الجزئية (إننى تشارلى . إننى إنسانة غير مبالغة . إننى مومس من العالم الغربى).

- عظيم . استمرى في الكلام .

(يا ميشيل . أفعل ما بوسعى لكي أساعدك . حسنا ؟ لذلك . استردَّ هذه الهدية واحتفظ بنقودك . واحتفظ بالأوهام . شكرأ . أشكرك من كل قلبي . شكرأ حقيقةً . انتهى حديثى معك !).

اعتراض يوسف فى حدة : ولكنك لا تريدين له أن يحتفظ بالأوهام . أو أتریدين ذلك ؟

- وهو كذلك . يتوقف عن أوهامه اللعينة .

- إذن على أى نحو ينتهى الموقف ؟

- انتهى الموقف بالفعل . وضعـت السوار على المقعد إلى جواره وسرتُ خارجة من الصالة . شكرأ . باى باى . اسرعتُ إلى محطة الأتوبيس وأصل في الوقت المحدد من أجل تقديم عرض الدجاجة المطاطية على مسرح الاسترال .

وظهر الترويع على وجه يوسف . ورفع يده عن عجلة القيادة في حركة توسل نادرة :

كيف تفعلين ذلك يا تشارلى ؟ ألا تعرفين أنك تتركيني لكي أرتكب جريمة الانتحار على ما يبدو . أو أجوب شوارع نوتنجهام التي اكتسحتها الأمطار طوال الليل ؟ ويمفردى ؟ بينما أنت تضطجعين إلى جوار نباتات السحلبية الخاصة بي

وبحوار البطاقة التي كتبتها لك ، تنعمين بالدفء الموجود في الفندق الفاخر الذي
تقيمين به .

- فندق فاخر ! يا إلهي . فالبراغيث اللعينة الموجودة بالفندق تسبب الكآبة !
- ألا يوجد لديك إحساس بالمسؤولية ؟ أنت من بين جميع الناس بمثابة البطلة
أمام هذه الضحية - أمام هذا الولد الذي أوقعته في الشراك بسبب جمالك الساحر
ومواهبك وعاطفك الثورية ؟

حاولت تشارلى أن تكبح جماحه . ولكنها لم يعطها الفرصة لتحقيق ذلك .
- لديك قلب دافئ يا تشارلى . الآخرون قد يظنون أن ميشيل في تلك اللحظة
ليس سوى شخص من النوع الذي يغوى الفتيات . ولكنك لست التي تؤمنين بذلك .
فأنت تؤمنين بجماهير الناس . وأنت على ذلك النحو في هذه الليلة مع ميشيل .
ويبدون أن تفكري في نفسك فأنت متأثرة به لدرجة كبيرة .

وعلى خط السماء أمامها كانت هناك قرية متداعية على هيئة ربعة عاليه صغيرة
يتوجهان إليها في صعودهما . وشاهدت تشارلى أضواء حانة ممتدة على جانب
الطريق .

قال يوسف مستأنفا كلامه مع إلقاء نظرة سريعة على تشارلى : على أية حال
فإن ردّ الفعل لديك في هذه اللحظة يعتبر غير ملائم ؛ لأن ميشيل يقرر أخيراً أن
يتكلم معك . وفي لهجة أجنبية رخيصة ممزوجة بالفرنسية يبدأ في مخاطبتك دون أي
خجل أو ارتباك أو كبت . يقول إنه غير شغوف بالجدل والمناقشات . إنك بمثابة كل
شيء كان يحلم به وأنه يرغب في أن يصبح حبيبك في هذه الليلة يناديك باسم :
جان رغم أنك تقولين له إن اسمك هو : تشارلى . فإذا كنت ستخرجين معه لتناول
طعام العشاء . وإذا كنت - عقب العشاء - مازلت لا ترغبين فيه فإنه سوف يفكر
في استرداد السوار . لا . تقولين أنه ينبغي عليه أن يسترد السوار الآن .. لديك
بالفعل حبيب .

وعلاوة على ذلك تقولين : لا تكن سخيفاً إذ كيف يمكن أن يكون هناك عشاء في نوتينجها姆 في الساعة العاشرة والنصف في ليلة ممطرة في يوم السبت ؟ .. أيمكن لك أن تقولي هذا ؟ أهذا صحيح ؟

قالت بدون أن تنظر إليه : هذا خلاصي .

- وبالنسبة للعشاء يمكن لك أن تقولي علي وجه التحديد إن العشاء حلم يتعدز تحقيقه ؟

- إنه صيني أو سمك مع شيبسي .

- ومع ذلك فقد قدمت تنازاً خطيراً له .

فقالت : كيف ؟

- لقد قدمت اعتراضاً عملياً (لا نستطيع أن نتناول العشاء سوياً لأنه لا يوجد هناك مطعم) ويمكن لك أيضاً أن تقولي إنه لا يمكن لكما أن تمارس الجنس سوياً لأنه ليس لديك سرير . ويحس ميشيل بهذا . فلا يبالى بالتردد الذي ينتابك . فهو يعرف مكاناً وهو عمل الترتيبات الازمة . لذلك . يمكن لنا أن نأكل . ولم لا ؟ .

وانحرف عن الطريق المرصوف وأوقف السيارة في مكان أمام الحانة . وكانت تشارلى مشوشة بسبب قفزاته المتعمدة من الخيال الماضي إلى الزمن الحاضر كما كانت مبتهجة بسبب إرهاقه لها . شعرت بالارتياح لأن ميشيل لم يدعها تذهب . ولذلك ظلت باقية في مقعدها بالسيارة . ولذلك ظل يوسف باقياً بالسيارة أيضاً . ثم التفت إليها وميّزت من خلال الأضواء الخافتة الموجودة بالخارج تجاه عينيه . كان يحملق في يديها المترابطتين في حجرها حيث يدها اليمنى فوق يدها اليسرى . وبدأ وجهه من خلال الأضواء الخافتة المترامية من الخارج صارماً وجاماً وخاليًا من التعبيرات . مد يده وأمسك بمعصم يدها اليمنى في حركة سريعة مليئة بالثقة . ورفع يدها لأعلى مما كشف عن معصم يدها . وحول معصم يدها يتلألأ السوار

الذهبى فى الظلام . وقال فى جمود يخلو من العاطفة : حسنا . حسنا . ينبغي أن
أهنىءك: . أنتم الفتيات الانجليزيات لا تضييعن الكثير من الوقت !

فجذبت يدها فى عنف وغضب . وقالت فى حدة : ماذا فى الأمر ؟ هل تشعر
ببالغة ؟

إلا أنه لم يكن بمقدورها أن تؤذيه . لم يصفح وجهه عن شيء . من تكون أنت ؟
هكذا ساءلت نفسها فى تعجب عندما تبعته وسارت وراءه . هو ؟ أو أنت ؟ أو أى
شخص ؟

الفصل التاسع

لم تكن تشارلى هى المركز الوحيد فى عالم يوسف فى تلك الليلة . ولا في عالم كيرتز ، ولا في عالم ميشيل بكل تأكيد .

فقبل أن تودع تشارلى وحبيبها المزعوم فيلا أثينا – بينما هما لايزالان في الرواية يرقدان بين ذراعي بعضهما البعض – كان كيرتز ولি�تفاك جالسين في صفين مختلفين في طائرة تابعة لشركة لوفتهانزا ومتوجهة إلى ميونيخ مسافرين حاملين جنسيات دول مختلفة ؛ إذ كان كيرتز مسافرا حاملا جنسية فرنسية بينما كان ليتفاك كنديا . وعقب هبوط الطائرة ذهب كيرتز على الفور إلى القرية الأولبية حيث ينتظره في شغف المصورون المزعومون . بينما ذهب ليتفاك إلى فندق بياريخار هوف حيث قام بالترحيب به خبير في الذخيرة معروف له باسم جاكوب فقط . وهو شخص مهم بالأمور الغريبة والأمور الفكرية الخيالية ويرتدى سترة سويدية مبقعة . يحمل معه لفائف من الخرائط محفوظة في ملف من البلاستيك .

وكان جاكوب الذي ادعى أمام الناس أنه مساح للأراضي قد أمضى الأيام الثلاثة الأخيرة في القيام بأعمال مساحة الأراضي على طول الطريق السريع بين ميونيخ وسالزبورج . وكانت الأوامر الصادرة إليه هي أن يحسب التأثيرات المحتملة تحت ظروف مناخية مختلفة ناجمة عن تفجير شحنة ضخمة للغاية على جانب الطريق في الساعات الأولى المبكرة في صباح أيّ يوم من أيام الأسبوع فيما عدا يوم الأحد . وأثناء تناول العديد من فناجين القهوة الممتازة في قاعة الانتظار بالفندق راح الرجلان يتناقشان في الاقتراحات التي عرضها جاكوب . وبعدئذ استقلوا سيارةأجرة وراحوا يقطعان في بطا مسافة الـ ١٤٠ كيلومتراً سوياً مما

سبب المضائقات لحركة المرور السريعة حيث كان يتم التوقف بالسيارة الأجرة في معظم النقاط المسموح بالتوقف فيها بل وفي بعض النقاط غير المسموح فيها بالتوقف .

ومن سالزبورج واصل ليتفاك مشواره بمفرده إلى فيينا حيث ينتظره فريق جديد من المرافقين . وقام ليتفاك باعطائهم تعليمات نهائية في داخل غرفة المؤتمرات التي لا ينفذ منها الصوت والوجودة في السفارة الإسرائيلية . وبعد أن نظر في بعض المسائل الأخرى الصغيرة هناك بما في ذلك قراءة أحدث النشرات الاخبارية الصادرة عن ميونيخ قادهم جنوباً في قافلة نحو منطقة الحدود مع يوغوسلافيا حيث قاموا بالتعرف على أماكن جراجات السيارات ومحطات السكة الحديد وميادين الأسواق قبل أن يوزعوا أنفسهم على العديد من البنسيونات المتواضعة الوجودة في منطقة فيلاخ . وبعد أن انتهى ليتفاك من نشر شبكته سارع بالعودة إلى ميونيخ لكي يضع الترتيبات النهائية الخامسة الخاصة بالطعم .

.....

كان استجواب يانوكا قد دخل في يومه الرابع عندما وصل كيرتز ليتولى القيادة بنفسه . وكان الاستجواب قد سار حتى ذلك الحين في شيء من السلامة .

كان كيرتز قد حذر الشخصين التابعين له بالقدس والذين يقومان بالاستجواب قائلاً : أمامكما ستة أيام معه كحد أقصى . لأنه بعد الستة أيام ستكون أخطاؤكما مستمرة وكذلك أخطاؤه .

لقد كانت هذه المهمة تروق لکيرتز . ولو كان بمقدوره أن يوجد في ثلاثة أماكن في وقت واحد بدلاً من مكانين لاحتفظ بهذه المهمة لنفسه . ولذلك فإنه اختار مندوبيين عنه . وهما أخصائيان في تناول الأمور بهذه ، مشهوران بمواهبيهما المسرحية وبالسخنة الطيبة الحزينة . ولم يكونا منتميين لعائلة واحدة بل ولم يكونا حبيبين مثلاً كان يعتقد الناس . ولكنهما عملاً في توافق سوياً لفترة طويلة حتى أن ملامح الصداقة بينهما أعطت إحساساً بأنهما سخة طبق الأصل . وعندما استدعاهما

كيرتز لأول مرة إلى المنزل الموجود في شارع دزرائيلي استقرت أيديهما الأربع على حافة المنضدة مثل مخالب كلبين كبيرين . وهو عاملهما في بادئ الأمر بخشونة لأنه شعر بالغيرة منها وأنه في حالة نفسية تجعله يشعر أن التفويض بمثابة هزيمة. ولذلك اكتفى بتزويدهما بفكرة غامضة عن العملية وبعدئذ أصدر أوامره لهما بأن يدرسا الملف الخاص بيانوكا ويقدما تقريراً له مرة أخرى عقب دراسة كافة التفاصيل . وعندما عادا إليه بسرعة كبيرة راح يستجوبهما في قسوة مع توجيه الأسئلة لهما عن فترة طفولة بيانوكا وأسلوب حياته ونماذج تصرفاته وعن أي شيء من شأنه أن يذكرهما . وكانت اجاباتهما متقدمة وسديدة . لذلك قام بشيء من الحقد والضغينة باستدعاء «لجنة القراءة والكتابة» والتي تتتألف من مس باخ والكاتب ليون والعجوز شويلي الذي تمكن في خلال الأسابيع المنصرمة إلى تحويلهم إلى فريق عمل متواافق . وكانت التعليمات النهائية التي أصدرها كيرتز بشأن هذا الموضوع نموذجاً كلاسيكيًا لعدم الوضوح والإبهام .

وفي الاجتماع نوقشت الأمور التي تحتاج إلى المزيد من الخبرة والمهارة والدهاء ألا وهي : كيف يمكن اقناع بيانوكا بالتوافق مع خططهم في خلال هذه الفترة الزمنية القصيرة ومرة أخرى تم استدعاء الخبراء السيكولوجيين التابعين لميشا جافرون . وتم الاستماع إلى آرائهم ثم تقرر طردهم . وأوفد كيرتز المستجوبين إلى ميونيخ قبل الموعد المحدد لكي يشيدوا تأثيرات الصوت والضوء الخاصة بهم ويلقنو الحراس الدور الخاص بهم . فوصلوا على هيئة فرقة مكونة من قطعتين مع أمتعة ثقيلة وبدلتين تشبه بدل ساتشمو . وسافرت لجنة شويلي بعد يومين واستقرت بطريقة سرية في الشقة السفلية وقدم أعضاء اللجنة أنفسهم على أنهم تجار مهنيون جاءوا من أجل حضور المزاد الكبير الذي يقام بالمدينة . وقد اقتنع الجيران بهذه القصة . وقالوا لبعضهم البعض : إنهم اليهود ولكن من الذي يهتم في هذه الأيام ؟ إنهم بالطبع يمكن أن يكونوا تجارا وما هو الشيء الآخر الذي يمكن أن يتوقعه المرء ؟ وكان يوجد معهم - بالإضافة إلى جهاز تخزين المعلومات الذي يحمل في اليد والخاص بـ «مس باخ» - أجهزة التسجيل على شرائط وسماعات الأذن وكراتين مليئة بالطعام المحفوظ في معلبات علبة على ولد نحيل يسمى : «صمويل

عاذف البيانو» من أجل تشغيل «المبرقة الكاتبة» المتصلة مع جهاز القيادة الخاص بكيرتز . وكان صمويل يضع في جيب سري بمعطفه مسدساً كبيراً ماركة كولت . وعندما يقوم بالإرسال يسمعون صوت طرق ناجم عن ارتطام مسدسه بالكتاب . إلا أنه لم يستخرج مسدسه من جيبيه على الإطلاق . وكان هادئاً الطباع مثل دافيد الموجود في بيت أثينا . بل وكان يبدو من حيث السلوك وكأنه توأم لدافيد .

كانت مس باخ هي المسئولة عن تخصيص الغرف . وقد خصصت غرفة الأطفال لكي يشغلها ليون نظراً لأنها غرفة هادئة للغاية . أما المطبخ المتصل بالفناء الخلفي فتم تخصيصه لصمويل حيث قام بتركيب الإيريال الخاص به وعلق عليه جوارب خاصة بالأطفال . ولكن عندما وقع نظر شويالي على غرفة النوم التي خصصت له لكي يستخدمها أطلق صيحة أسف على الفور ، وقال :

– الضوء الخاص بي ! يا إلهي أنظروا إلى الضوء الخاص بي ! لا يمكن لرجل أن يزور خطاباً مرسلاً لجذته تحت مثل هذا الضوء !

ومع ترنح ليون أمام هذه العاصفة غير المتوقعة فإن مس باخ المتسمة بالطابع العملي أدركت وجود المشكلة على الفور : إن شويالي بحاجة للمزيد من الضوء من أجل أن يتمكن من إنجاز أعماله ولكن أيضاً من أجل نفسه عقب سجنه الطويل . وفي لمح البصر اتصلت تليفونياً بالدور العلوي . وظهر الأولاد الأرجنتينيون . وتم نقل الأثاث بسرعة تحت توجيهاتها وبحيث تم وضع مكتب شويالي تحت نافذة غرفة الجلوس التي تطل على السماء والأوراق الخضراء .

و قبل أن يتلاشى ضوء المساء وضع شويالي أخباره الغالية وأقلامه وأدوات مكتبه وكل شيء في المكان المخصص له كما لو كان الغد سيشهد امتحانه الكبير الهام . ثم فكَّ . أزرار كُمّيَّ قميصه . وراح يحك راحتي يديه في بطء مع بعضهما البعض رغم أن الجو كان دافئاً بما فيه الكفاية بالنسبة لسجين قديم . ثم خلع قبعته . وأنفذ يจذب أصابعه الواحد تلو الآخر ويطرقها . ثم لاذ بالانتظار مثلاً كان ينتظر طوال فترة شبابه .

.....

جاء النجم الذى انتظروه بالطائرة إلى ميونيخ فى نفس تلك الليلة عن قبرص . ولم يتم الاحتفال بوصوله من خلال فلاشات الكاميرات لأنّه جاء محمولا على نقالة تحت إشراف طبيب خاص . أما الطبيب فكان طبيباً حقيقياً رغم أن جواز سفره كان زائفاً . أما بالنسبة ليانوكا فهو كان بمثابة رجل أعمال بريطانى يعمل فى نيقوسيا ويتم إحضاره على وجه السرعة إلى ميونيخ لكي تُجرى له جراحة فى القلب . وقد أكّد ذلك ملف مليء بالتقارير والأوراق الطبية . إلا أن السلطات الألمانية بالمطار لم تلق نظرة على تلك التقارير ولم تبد أيّ اهتمام . ونقلت عربة اسعاف الرجل المريض ومرافقيه بسرعة فى اتجاه مستشفى المدينة . ولكن السيارة غيرت اتجاهها ودخلت فى شارع جانبي . وانزلقت إلى الفناء المغطى الخاص بحانوتى صديق . وبعد دقائق قاموا بوضعه فى حرص وحذر على الأرض حيث يتوقعون له أن يفيق من المخدر فى خلال نصف ساعة تقريباً . رغم أنه كان من المتوقع دائماً أن تؤدى القلنسوة التى وضعت على رأسه وقبته والتى لا ينفذ منها الضوء إلى تأخير عملية الاستيقاظ . وبعد ذلك بوقت قصير انصرف الطبيب . وهو رجل حى الضمير . كان يشعر بالقلق على مستقبل يانوكا وسعى للحصول على تأكيدات من كيرتز بأنه لن يطلب منه أن يُعرض مبادئه الطبية للفضيحة أو الشبهات .

وفي أقل من أربعين دقيقة شاهداً يانوكا وهو يجذب قيوده التي تقييد معصميه أولاً ثم القيود التي تربط ركبتيه . وبعدئذ راح يجذب كل القيود في آن واحد وكأنه حشرة تحاول تفجير جلدها إلى أن أدرك أنه مقيد مع جذب وجهه إلى أسفل . حيث توقف عن الجذب وراح يقيم الوضع . ثم أطلق زمرة على سبيل التجربة . وبعد ذلك أطلق صرخات ملتاعة مدوية وتلوى وألقى بجسده بقوة فيما حوله . وبعد أن شاهد المستجوبون هذا الأداء انسحبوا . وتركوا الحراس في الموقع إلى أن هدأت العاصفة . وربما كان ذهن يانوكا محشوًّا بقصص رهيبة عن وحشية الوسائل التي يلجأ إليها الإسرائييليون . كانت التعليمات قد صدرت للحراس بأن يقوموا بدور السجان الحزين وألا يسببو له أية إصابات . فنفذوا التعليمات تنفيذاً دقيقاً رغم

أن أوديد كان يشعر بالغثط الشديد ويوج بالكراهية ضد يانوكا ولا يرغب في أن يشاهد يانوكا على قيد الحياة تحت سقفهم .

وأخيراً بدا على يانوكا كأنه يغفو في نعاس مرة أخرى . وقرر المستجوبون أن الوقت حان لأن يبدأ جولتهم . لذلك شغلوا أصوات حركة المروء الصباحية وأضاءوا كميات كبيرة من الأنوار الكهربائية البيضاء اللون . وأحضروا له طعام الافطار - رغم أن الوقت كان في منتصف الليل - مع إصدار الأوامر بصوت مرتفع للحراس لكي يفكوا قيوده ويدعوه يأكل مثل آدمي وليس مثل كلب . ثم قاموا بأنفسهم بفك غطاء الرأس والعنق الخاص به في قلق وجزع . لأنهم أرادوا أن تكون أول معرفة له بهم متمثلة في وجوههم الشفوفة غير اليهودية التي تنظر إليه في اهتمام أبوى .

قال أحدهم موجهاً كلامه للحراس في هدوء باللغة الانجليزية : لا تضعوا أبداً مثل هذه الأشياء عليه مرة أخرى ثم أصدر تهديد غاضبة وألقى بالسلسل وغطاء الرأس والعنق في ركن بالغرفة .

انسحب الحراس - وأوديد بصفة خاصة انسحب في إتجام مسرحي - ثم وافق يانوكا على تناول قدر ضئيل من القهوة بينما صديقاً الجديدان ينظران إليه في ارتياح . وكانا يدركان أنه يشعر بالعطش الشديد وبذلك ستكون القهوة رائعة المذاق بالنسبة له . كانوا يدركان أيضاً أن ذهنه في حالة من الانقسام والتحطيم الشبيه بالأحلام ولذلك يكون ذهنه هشاً في مجالات معينة : مثال ذلك عندما يتعرض للحنان . وبعد أن قام المستجوبيان بزيارات عديدة مماثلة فإنه تقرر القيام بعمل حاسم وتعريف نفسيهما عليه . وكانت خطتهما من حيث الإطار الخارجي من أقدم الخطط المعروفة . إلا أنها كانت تحتوى على تنويعات صريحة .

إذ قالا باللغة الانجليزية إنهم من مراقبى الصليب الأحمر . وإنهم من الشعب السويسرى . ويقيمان هنا بالسجن . وأشارا إلى أنهم ليس لهم حرية الإفصاح عن اسم السجن . إلا أنهم أعطيا تلميحات واضحة تفيد بأن السجن موجود في

اسرائيل . وأظهرها تصاريح لافتة للنظر خاصة بالسجن ومحفوظة في أكياس من البلاستيك ومنزودة بصورة فوتوغرافية لها وبصلبان حمراء على هيئة خطوط متموجة مثل أوراق البنكنوت بهدف منع التزوير السهل . وأوضحا أن مهمتها تتحصر في التأكيد من أن الاسرائيليين يراغعون تطبيق القوانين التي تتعلق بالأسرى وسجناء الحرب والتي تم التوصل إليها في مؤتمر جنيف، ولكنها أوضحا أن ذلك ليس بالأمر السهل، وأوضحا أنها يهدفان إلى ربط يانوكا بالعالم الخارجي بقدر ما تسمح به قوانين السجن. وأشارا إلى أنها يمارسن ضغوطاً من أجل إخراجه من الحبس الانفرادي وربطه بالكتلة العربية. إلا أنها أدركت أن «استجواباً صارماً» بقصد البدء في القريب العاجل. وبذلك فإن الاسرائيليين يرغبون في الإبقاء عليه في حالة من العزلة. وأوضحا أن الاسرائيليين في بعض الأحيان يفقدون أنفسهم بسبب تعرضهم لهواجس غير سوية وبالتالي ينسون صورتهم أمام العالم تماماً. ونطقاً كلمة «استجواب» في شيء من الاستثناء كما لو كانوا يرغبان في استخدام الكلمة أخرى أفضل من ذلك. وعند هذه المرحلة دخل أو ديد - وفقاً للتعليمات الصادرة إليه - وظاهرة بالانشغال ببعض الأمور الصحية وعدم انتشار الأمراض. وعندها توقف المستجوبان عن الكلام على الفور إلى أن غادر أو ديد المكان .

وبعد ذلك استخرجوا استماراة مطبوعة كبيرة الحجم. وساعدوا يانوكا على ملء الاستماراة بخط يده : الاسم وتاريخ الميلاد وأسماء الأقارب والمهنة - وهي مهنة طالب. أليس كذلك ؟ والمؤهلات والديانة. نحن نأسف لكل ذلك ولكنها التعليمات والتنظيمات هي التي تنص على ذلك. استجاب يانوكا بالقدر الكافي. رغم أنه أحجم عن ذلك في بداية الأمر. وهذه الدلائل الأولى التي تشير إلى تعاونه قد سجلتها «لجنة القراءة والكتابة» الموجودة بالدور الأول في ارتياح هادي . ولو أن خط يده كان يبيو صبياناً تحت تأثير المخدرات .

ولدى استئذانهما قدم المستجوبان ليانوكا نشرة صغيرة مطبوعة تتضمن حقوقه. وغمزا له بالأعين. وربتا على كتفه وأعطياه قضيبين من الشيكولاتة السويسرية . وخطاباه بالاسم الأول له: ألا وهو: سالم وعلى مدى ساعة ومن الغرفة

الملائكة كانوا يرقبونه بواسطة الأشعة تحت الحمراء بينما كان هو مستلقياً في الظلام الحالك ومنخرطاً في البكاء ومطروحاً برأسه من وقت لآخر. وبعدها زانوا من الإضاعة وأقحموا أنفسهم في ابتهاج. وقالوا بصوت مرتفع.. «أنظر لترى ما أحضرنا لك، انهض يا سالم، لقد حل الصباح» لقد كان خطاباً موجهاً اليه بالاسم. وكان عليه خاتم بريد بيروت، ومرسل إليه بمعرفة هيئة الصليب الأحمر، ومكتوب عليه عباره.. «حصل على موافقة الرقابة الخاصة بالسجن» والخطاب مرسل من أخته الحبيبة فاطمة التي أعطته التعويذة ليرتدية حول عنقه. وكان شوالي قد قام بتزوير هذا الخطاب. وكان المس باخ هي التي ألقته، وكانت موهبة ليون هي التي قدمت النبض الحقيقي لمحة فاطمة التي تميل إلى النقد القاسي. وكانت النماذج التي استرشدوا بها هي الخطابات التي استلمها يانوكا من فاطمة أثناء فترة وضعه تحت المراقبة. لقد أبدت فاطمة رغبتها أن يظهر سالم الشجاعة عندما يجيء الوقت العصيّ الخاص به، وهي على ما يبدو كانت تعنى بكلمة «الوقت» ذلك الاستجواب الرهيب الذي سيتّم. وأشارت في خطابها إلى أنها قررت أن تقطع علاقاتها مع صديقها الخاص بها، كما قررت ترك وظيفتها المكتبية واستئناف العمل في مجال تقديم الرعاية والإإنقاذ في منطقة صيدا. لأنها لم تعد تستطيع أن تحمل أن تكون بعيدة للغاية عن منطقة الحدود الخاصة بفلسطين الحبيبة بينما يانوكا يمر بأوقات عصيبة مليئة باليأس. وأشارت في خطابها إلى أنها معجبة به وأنها ستكون دائماً معجبة به، وقد أقسم ليون على ذلك. ولقد تقبل يانوكا هذا الخطاب في شيء من عدم المبالاة، ولكنهم عندما تركوه بمفرده مرة أخرى ربع جاثماً ومتضرعاً وقد نشر ذراعيه لأعلى مثل شهيد ينتظر نزول السيف عليه بينما كان ممسكاً بخطاب فاطمة ويضغط بكلماتها على خده.

وقال للحراس عندما عانوا بعد ساعة لكي ينظفوا زنزانته:

- إنني أطلب ورقاً وأطلب مجيء ممثل الصليب الأحمر، أريد أن أكتب خطاباً
- وفقاً لما تنص عليه اتفاقية جنيف - إلى أختي فاطمة! نعم! وتلك الكلمات أيضاً

قد لاقت الترحيب في الدور الأرضي نظرا لأنها برهنت أن أول عرض قدمته لجنة «القراءة والكتابة» قد حاز القبول من جانب يانوكا. وقد تم إرسال نشرة خاصة إلى أثينا. وتسلل الحراسان خارجين في خلسة وعادوا ومعهما كمية كبيرة من الأوراق والأدوات الكتابية الخاصة بهيئة الصليب الأحمر. كما قاما بإعطاء يانوكا نسخة من نشرة مطبوعة تحت عنوان «نصائح إلى السجناء» توضح أنه ينبغي الكتابة باللغة الإنجليزية فقط وأنه «لن تُقبل الخطابات التي تتضمن رسالة مخبأة بين طيات الخطاب» واكتشف يانوكا عدم وجود قلم فطالب بإحضار قلم وتوسل لكي يتم تزويده بقلم. ثم صرخ فيهما وبكي. وتم كل ذلك بالحركة البطيئة. إلا أن الحراسين قالا على نحو حاسم وفيوضوح تام أن معاهدته جنيف لم تتعرض لمسألة الأقلام. وبعد مرور ساعة جاء المستجوبان مهرولين وقد اعترافهما الغضب. وقدما قلماً بمبادرة منها. وكان القلم مكتوباً عليه عبارة «من أجل الإنسانية» واستمرت التمثيلية التحذيرية على مدى ساعات عديدة أخرى بينما يانوكا يكافح لكي يرفض اليد الممدودة له بالصداقة ولكن دون جدوى. وكان ردّه الكتابي على فاطمة كلاسيكيا؛ إذ كتب خطاباً يتكون من ثلاث صفحات ويتسم بعدم ترابط الأفكار. وهو خطاب مليء بالنصائح والإشراق على الذات والرثاء والمواقف الشجاعية مقدماً بذلك لشوبيطى أول عينة «نظيفة» من خط يد يانوكا الواقع تحت الضغوط العاطفية ومقدماً للبيون دلالة ممتازة عن أسلوبه النثري باللغة الإنجليزية.

إذ كتب يانوكا مايلى «ياأختي الحبيبة، إنني الآن وعلى مدى أسبوع أواجه الاختبار المشئوم في حياتي. وهو الاختبار الذي ستصاحبني فيه روح العظيمة». وهذه الأنباء أيضاً كانت موضوع نشرة خاصة: إذ كان كيرتز قد أبلغ مس باخ بتعليمات صريحة قائلاً لها «إرسلى لى أى شيء وكل شيء. فائنا لا أريد أى حالات من الصمت. وإذا لم يكن هناك شيء ما يحدث ينبغي عليك أن ترسل اشارات لى تقولين فيها إن شيئاً ما لا يحدث». كما قال كيرتز للبيون:

- ينبغي عليك أن تتأكد أنها ترسل اشارات لى كل ساعتين على الأقل.
والأفضل كل ساعة.

وكان خطاب يانوكا المرسل إلى فاطمة هو أول خطاب من سلسلة خطابات عديدة. وفي بعض الأحيان كانت خطاباتها تتلاقى في الطريق: وفي بعض الأحيان كانت تجيب فاطمة على تساؤلاته بمجرد أن يوجه الأسئلة إليها. ثم توجه الأسئلة الخاصة بها ردًا على أسئلتها .

.....

وكان كيرتز قد أبلغهم بأن يبدأوا من النهاية. والنهاية في هذه الحالة كانت بمثابة أميال من الدردشة التي تبدو غير وثيقة الصلة بالموضوع. وعلى مدى ساعات متلاعبة راح المستجوبان يدرشان مع يانوكا ويشجعانه من خلال الإخلاص السويسري المتبلد الحسن علوا على تدعيم مقاومته ضد اليوم الذي قام فيه الإسرائيليون بجره إلى الاستجواب. وفي بادئ الأمر تم السعي للحصول على آرائه فيما يتعلق بكل شيء يرغب في مناقشته علوا على تملقه من خلال إبداء حب الاستطلاع والاحترام والتجاوب معه.

وقد اعترفا له في نوع من الخجل والارتباك بأن السياسة لم تكن في أيّ وقت من الأوقات مجال اهتمامهما : فهما يميلان دائمًا لأن يضعا الإنسان فوق الأفكار. بل وقام أحدهما بالاقتباس من أشعار روبرت بيرنر الذي اتضح أنه من الشعراء المفضلين لدى يانوكا أيضًا. ووجهها إليه أسئلة عن ردود فعله إزاء العالم الغربي طالما أنه أمضى بالعالم الغربي عاماً أو أكثر بحيث يعطي انطباعه في بادئ الأمر بوجه عام ثم انطباعه إزاء الدول الواحدة تلو الأخرى. وكانا يصفيان في انتباه شديد إلى التعميمات التي يديها : أنانية الفرنسيين وحرصهم على تحقيق مصلحتهم الشخصية وشرامة الألمان وانحطاط وتفسخ الإيطاليين .

وتساءلا في براعة : وماذا عن إنجلترا ؟

فقال على نحو حاسم : «إنجلترا هي أسوأ الدول جمِيعاً، وإنها متفسخة. ومفلسة. وعديمة الشخصية وإنها عميلة الاستعمار الأمريكي. وبمثابة كل شيء ردئ». لقد ارتكبت أكبر جريمة لأنها أعطت بلاده للصهاينة». وشن نقدا ساخرا

عنيفاً ضد إسرائيل فسمح له بذلك. إذ لم يرغبا في هذه المرحلة أن يثيراً أدنى شك في داخله من حيث أن أسفاره إلى إنجلترا كانت لها طبيعة خاصة. وبدلًا من ذلك سأله عن فترة طفولته .

- عن والديه وعن منزله في فلسطين. ولقد لاحظا في ارتياح هادئ أنه لم يذكر اسم أخيه الأكبر ولو مرة واحدة ، ولاحظا أن يانوكا سيظل يتحدث عن أمور تعتبر غير ضارة بقضيته .

وراحا يصفيان في تعاطف إلى القصص التي أوردها والتي تتعلق بالأعمال الوحشية التي مارسها الصهاينة . والتي تتعلق بذكرياته عن أيامه عندما كان يلعب كحارس مرمى في فريق كرة القدم المظفر الخاص به في مدينة صيدا .

وقال له : حدثنا عن أفضل مباراة لعبتها . وعن أفضل إنقاذ للكرة وعن الكأس الذي كسبته ومن الذي كان هناك عندما قام أبو عمار العظيم بوضع الكأس في يديك ! وفي تلعثم وارتباك أجاب يانوكا على أسئلتهم . وفي الدور الأرضي دارت أجهزة التسجيل وأدخلت مس باخ الشرائط الواحد تلو الآخر ومررت النشرات إلى صمويل من أجل أن يبعث بها إلى القدس وإلى نظيره: دافيد الموجود في أثينا . وفي تلك الثناء كان ليون غارقا في عالمه الخاص به . وكانت عيناه شبه مغلقتين وكان منهمكا في دراسة لغة يانوكا الانجليزية المفرطة في الحساسية: وفي أسلوبه في الأداء والإلقاء وتدفقه نحو الإزدهار الأدبي والإيقاع ومفردات لغته وتغييره لموضع الكلام الذي كان يحدث في منتصف العبارات . ولكن في بعض الأحيان كان ليون يلاحظ أن يانوكا يتعرض لنوبات من اليأس . وبعد لحظات قليلة كان ليون يشاهد وهو يتمشى في أرجاء غرفته ويقدر أبعادها .

ولم يتحدثا معه عن المذكرات اليومية الخاصة به - وهو موضوع ينطوى على المخاطر - إلا في اليوم الثالث . كان المراقبون قد عثروا على تلك المذكرات اليومية في نفس اليوم الذي تم فيه اختطاف يانوكا . حيث قام ثلاثة منهم باقتحام شقته . وكانوا يرتدون أفرولات عليها بادجات تفيد بأنهم عمال يعملون في شركة تجارية

متخصصة في أعمال النظافة. وأخرجوا من العربية الفان أدوات النظافة وسلماً من النوع الذي يُطوى ثم أغلقوا باب الشقة عليهم وجذبوا الستائر وانطلقا يعملون في داخل الشقة على مدى ثمان ساعات مثل الجراد حيث قاموا بتفحص كل شيء ، وتصوير كل شيء . ثم أعادوا كل شيء إلى حاليه .

ومن بين الأشياء التي عثروا عليها مفكرة الجيب اليومية التي أهديت له من خطوط طيران الشرق الأوسط . وكانوا يعرفون أنه لديه مذكرات يومية ولكنها لم تكن موجودة معه بالسيارة أثناء القبض عليه. ولذلك ابتهجوا لدى العثور عليها في شقته. وكان يوجد بالمذكرات بعض المداخل والأبواب المكتوبة باللغة العربية والبعض مكتوب بالفرنسية أو الانجليزية. أما البعض الآخر فلا يمكن فك رموزه بأية لغة. وكانت المذكرات الموجزة تتعلق بالمواعيد واللقاءات التي ستتم مستقبلا. إلا أن البعض قد أضيف على سبيل تأمل الأحداث الماضية. «تقابلت مع ج . واتصلت تليفونيا بـ بـ .» اكتشفوا هدية أخرى كانوا يبحثون عنها. ظرف مانيلا ممتلئاً بلفائف من الإيصالات المرتبة وفق تواريختها من أجل أن يعده يانوكا الحسابات الخاصة بعماله .

وقد صدرت التعليمات للفريق بأن يسرق هذه الإيصالات أيضاً ولكن كيف يمكن تفسير المدخل الحاسم في المذكرات اليومية ؟ وكيف يمكن حل الشفرة بدون مساعدة يانوكا ؟

وبالتالي كيف يمكن الحصول على العنوان والمساعدة من يانوكا ؟ وفكروا في مسألة زيادة حجم المخدرات التي تُعطى له. إلا أنهم رفضوا هذه الفكرة ؛ إذ خشوا أن يُصاب بالتشویش التام. كما أن اللجوء إلى العنف يعني التخلص من كافة النوايا الطيبة التي غرسوها. بالإضافة إلى أنهم كمئين استهجنوا نفس هذه الفكرة. وفضلوا الاعتماد على الأمور التي شيدوها بالفعل : الاعتماد على الخوف أن الاستجواب الإسرائيلي الرهيب على وشك الحدوث. لذلك

قاموا بإحضار خطاب عاجل إليه مرسل من فاطمة وهو من أحسن الخطابات التي صاغها ليون : «لقد سمعت أن الاستجواب سيحدث في القريب العاجل وأتوسل إليك - وأدعوك الله - أن تكون شجاعاً أضاءوا له الأنوار لكي يتمكن من قراءة ذلك الخطاب ثم اطفأوا الأنوار مرة أخرى. ثم ظلوا بعيدين لفترة أطول مما هو معتاد. وتحت الظلام الحالك شغلوا شرانت مسجل عليها صرخات مكتومة ورنين أبواب الزنزانات البعيدة وأصوات جسد يتم جره في السلسل والقيود على طول دهليز حجري. وبعدئذ شغلوا صوت المزمار البلدي الجنائزي الذي تعزفه فرقة عسكرية فلسطينية موسيقية. فاعتقد أنه قد مات . واستيقن صامتاً لبعض الوقت. وأرسلوا له الحراس الذين جربوه من ملابسه. ووضعوا القيود في يديه مع ربطها وراء ظهره. ثم وضعوا قيوداً جديدة في رسفيه وقدميه. وبعدئذ تركوه بمفرده مرة أخرى. كما لو كانوا سيتركونه للأبد. وسمعوه وهو ينتصب ويقول «لا. لا مستحيل» ويكرر تلك العبارة بصفة مستمرة .

وألبسوا صمويل سترة قصيرة بيضاء وأعطوه سماعة طبيب . وجعلوه ينصلت لعدلات دقات قلب يانوكا. وتم كل ذلك في الظلام الحالك. ولكن ربما كان المغطى الأبيض مرئياً بالنسبة ليانوكا. ثم تركوه بمفرده مرة أخرى. ومن خلال الأشعة تحت الحمراء شاهدوه يتفضّد عرقاً ويرتعد. ويداً عليه أنه يفكر في الانتحار لأن يضرب رأسه في الحائط وهي الحركة الوحيدة التي يمكنه القيام بها وهو مكبّل بالأغلال. إلا أن الحائط كانت مبطنة باللبار والألياف. ولو راح يضرب رأسه في الحائط طوال العام لما حدث له أية إصابات. وشغلوا اسطوانات مليئة بالصراخ لكي يسمعها. ثم لأنوا بالصمت المطبق. وبعدئذ أطلقوا رصاصه في الظلام. فجفل لدى سماع طلقة الرصاص. وبعدئذ شرع في العواء. ولكنه عواء هادئ وكأنه لم تُعد لديه القوة التي تعينه على العواء بصوت مرتفع .

وبعدئذ قرروا التحرك .

سار الحارسان في بادئ الأمر إلى داخل زنزانته ورفعاه لكي يقف على قدميه .
كانا قد ارتديا ملابس خفيفة يستعدان للقيام بأنشطة شاقة وعنيفة . وما إن تمكنوا من جر جسده المرتعش لمسافة تصل إلى باب الزنزانة حتى ظهر منقذا يانوكا السويسريان وسدّا الطريق وقد بدا على وجهيهما الشفوقين دلائل الاهتمام الشديد والغضب . وبعدها تفجر نقاش بين الحارسين والرجلين السويسريين باللغة العبرية .
فلم يفهم يانوكا من الحوار سوى قدر ضئيل .

وقال الرجلان السويسريان إن استجواب يانوكا يجب أن يصدق عليه أولاً الحكم : فالقانون رقم ٦ الفقرة رقم ٩ من معاهدة جنيف أوضحت بكل تأكيد أنه لا ينبغي احتجاز أحد لفترة طويلة بدون موافقة من المحاكم وبدون وجود طبيب . إلا أن الحارسين لم يكتترثا باتفاقية جنيف . واعتراضا على كل ماقاله السويسريان . وقالا إنهم لا يعترفان باتفاقية جنيف . وكاد أن ينشب الشجار والعراك . إلا أن التجمل بالصبر السويسري هو الذي منع حدوث الشجار . وتم الاتفاق على أن يذهبوا الأربعة إلى المحاكم من أجل الحصول على قرار فوري . لذلك خرجوا جميعا من الزنزانة تاركين يانوكا بمفرده في الظلام مرة أخرى . وسرعان ما شوهد وهو ينحدن على الحائط ويصل إلى ربه رغم أنه لم يكن لديه فكرة عن الجهة التي يوجد بها الشرق .
وبعدها عاد السويسريان بدون أن يكون معهما الحارسان وقد بدا عليهم الوقار والحزن الشديد . وأحضرا معهما المذكرات اليومية الخاصة بيانوكا . وكأن المذكرات قد غيرت الأمور تغييرا جذريا .

وكان معهما أيضا جوازا سفره الإضافي : أحدهما جواز سفر فرنسي والأخر جواز سفر قبرصي وللذان قد عثرا عليهما مخبأين تحت ألواح خشب الأرضية في شقته علامة على جواز السفر القبرصي الذي كان مسافرا به في الوقت الذي تم فيه اختطافه .

وبعدها راحا يشرحان المشكلة التي تواجههما . في كد وجهد . وأوضحوا أنه بناء

على طلب الإسرائييين فإن السلطات في ألمانيا الغربية أجرت تفتيشاً في شقته الموجودة في أواسط ميونيخ. وقالا إنهم وجدوا هذه المذكرات اليومية وجوازي السفر. كما عثروا على كميات من مفاتيح الألغاز الأخرى التي تتعلق بتحركاته على مدى الشهور القليلة الماضية وهم مصممون الآن على فحص تلك الأمور. وأشار السويسريان أنهم أوضحوا للحاكم أن مثل هذا الإجراء غير قانوني ولا لزوم له.

وأقرحاً على الحاكم أن يقوم الصليب الأحمر بوضع هذه الوثائق أمام السجين والحصول منه على شرح وتوضيح للأمور الرئيسية الواردة في هذه الوثائق. وليرقم الصليب الأحمر بكل أدب واحتشام بتوجيهه الدعوة للسجين بإعداد بيان، إذا وافق الحكم، مكتوب بخط يد السجين عن الأماكن التي وُجِدَ فيها السجين خلال الشهور الستة الأخيرة مع ذكر التواريف والأماكن وذكر أسماء الأشخاص الذين تقابل معهم علامة على بيان بالأماكن التي أقام بها وبينان بالأوراق التي استخدمها في أسفاره.

وهنا تجراً وعرضًا على يانوكا - أو سالم كما يسمونه الآن - نصيحة خاصة من جانبهما . إذ توسل إليه أن يلتزم أولاً وقبل كل شيء بالدقة الشديدة. ثم أجلساه إلى منضدة وزوداه ببطانية وقاما بفك قيود يديه وأوضحوا له بذلك يقول شيئاً عن الأمور التي يرغب في أن يجعلها في طي الكتمان ولكن ينبغي عليه أن يكون متاكداً تماماً من أنه يقول الصدق بالنسبة للأمور التي يتحدث عنها. وقال له : «تذكرة أنت لدينا سمعتنا الطيبة من حيث المحافظة على الأسرى. وفك في أمثالك والذين يجيئون بعدك. ولبذل كل ما في جهودك من أجلهم إن لم يكن من أجلنا». أوحى الطريقة التي قالا بها هذا الكلام أن يانوكا في سبيله إلى الاستشهاد من أجل مبادئه. وعندما أمسك يانوكا بالقلم المعروض عليه فانهما قرأا في عينيه أنه يتossl إليهما بأن يستمرا في خداعه.

.....

وفي اليوم التالي الذي أعقب هذه المشاهد الدرامية وصل كيرتز قادماً من أثينا مباشرةً، وكان وصوله في وقت تناول طعام الغداء.

ولقد جاء لكي يتفحص الأعمال اليدوية التي يقوم بها شويالى، ولكن يعطى موافقته الشخصية على المذكرات اليومية وجوازات السفر والإيصالات وبحيث تعود كل هذه الأشياء إلى أماكنها الأصلية.

وكان يقع على عاتق كيرتز أيضاً مهمة الرجوع إلى البداية، ولكنه جلس أولاً في شقة النور الأرضي، وقام باستدعاء كل شخص باستثناء الحارسين وجعل كل شخص يعطيه فكرة مختصرة عن أسلوبه في العمل ومدى التقدم الذي أحرزه، وكان كيرتز يرتدي القفازقطنی الأبيض ويداً عليه وكأنه أكثر تشديداً مما كان عليه أثناء الاستجواب الذي أجراه على تشارلی والذي استمر طوال الليل.

وراح يتفحص الأمور التي عرضوها عليه، وراح يصفى في انتباه إلى التسجيلات التي سُجلت على شرائط عن اللحظات الخامسة، كما راح يرقب في إعجاب بينما الكمبيوتر الخاص بالمس باخ يطبع يوماً وراء يوم الفترة الأخيرة من حياة يانوكا بخط أخضر على الشاشة التليفزيونية الخاصة بالكمبيوتر: التواريف وأرقام رحلات الطيران ومواعيد الوصول بالطائرة وأسماء الفنادق، ثم راح يرقب مرة أخرى عندما قامت مس باخ بتركيب الرواية: «يكتب خطاباً لتشارلی من فندق المدينة في زيوريخ - الخطاب يصل إلى مطار دى جول الساعة ١٨٢٠ يتقابل مع تشارلی في فندق إكسليور هيثرو... يتصل تليفونياً بتشارلی من محطة السكة الحديد بميونيخ».

وبعد أن انتهى كيرتز من كل ذلك، وكانت الفترة المسائية قد حلّت آنذاك خلع القفاز وارتدى النزى الرسمي للجيش الإسرائيلي الذي عليه بادج برتبة كولونيل علاوة على بعض الشرائط القليلة الموجودة على جيبه الأيسر، وغير من ملامحه الخارجية بحيث أصبح صورة طبق الأصل من رجل عسكري يعمل ضابطاً في السجن، ثم صعد فوق أطراف أصابعه إلى النور العلوى نحو نافذة المراقبة حيث

راح لبعض الوقت يرقب يانوكا عن كثب. ثم أرسل أويديد ورفيقه إلى الدور الأرضي وأصدر لهما الأوامر المشددة بأنه ينبغي تركه على انفراد مع يانوكا في خلوة تامة. وتكلم كيرتز باللغة العربية بصوت بيروقراطي رمادي مع يانوكا موجهاً إليه بعض الأسئلة القليلة البسيطة السخيفة التي تتعلق بأمور صغيرة : من أين جاء فتيل معين أو متفجرات معينة أو سيارة معينة. أو سؤال عن المكان على وجه الدقة مثل أين تقابل يانوكا مع الفتاة قبل أن تقوم الفتاة بزرع قنبلة . بادنسبرج . وكان كيرتز يستعرض معلوماته التفصيلية بطريقة عرضية للغاية مما تسبب في شعور يانوكا بالرعب الشديد. بل إن يانوكا اضطر إلى الصراخ في وجه كيرتز لكي يجعله يتلزم بالهدوء والصمت لأسباب تتعلق بالأمن. وشعر بالحيرة والدهشة بسبب ردود الفعل هذه التي ظهرت على يانوكا .

فقال كيرتز متحجاً وقد ظهر عليه الغباء الذي يلازم الناس عادة الذين يمضون فترة طويلة في السجن سواء أكانوا حارساً أم نزلاً : ولكن لماذا ينبغي على أن التزم بالصمت والهدوء ؟ وأضاف : إذا كان أخوك الأكبر لا يتلزم بالصمت فما هي الأسرار التي تبقيت لي لكي أحافظ عليها ؟

ووجه ذلك التساؤل ليس من حيث هو إفصاح عن شيء ولكن من حيث هو نتيجة منطقية لمعلومة من المعلومات العامة المعروفة وبينما كان يانوكا ما زال مستمراً في الحملة فيه في وحشية قام كيرتز بإبلاغه ببعض الأمور الأخرى القليلة عن نفسه والتي لا يعرفها سوى أخيه الأكبر. ولم يكن هناك شيء متسم بالسحر والشعوذة في ذلك . فبعد مرور أسبوع من التفحص الشديد في الحياة اليومية ليانوكا ومراقبة مكالماته التليفونية ومراسلاتيه . ناهيك عن دراسة الملف الخاص به والموجود في القدس منذ عامين - فإنه لم يكن هناك ما يدعو للدهشة إذ أصبح كيرتز وفريق العمل التابع له على معرفة دقيقة بكل شيء مثل يانوكا نفسه . وما كان يميز كيرتز عن السابقين عليه هو تلك اللامبالاة التي يظهرها عندما يتناول كافة تلك الأمور علامة على عدم اللامبالاة إزاء ردود الفعل التي تترجم عن يانوكا .

وبدأ يانوكا في الصراخ قائلاً أين هو ؟ وماذا فعلتم به ؟ إن أخي لا يتكلم . إنه لا يتكلم على الإطلاق !
كيف أقيمت القبض عليه ؟

لقد تمت الصفقة في لحظات . وفي الشقة الموجودة بالدور الأرضي وبينما كانوا يتجمهرون حول مكبر الصوت فإن نوعاً من الرهبة سيطرت على الغرفة باكملها عندما سمعوا كيرتز في خلال ثلاث ساعات من وصوله وهو ينسف ويحطم الدفاعات الأخيرة الخاصة ببيانوكا . وأوضح كيرتز أنني كحاكم تكون مهمتي مقصورة على الأمور الإدارية . وأخوه موجود حالياً في زنزانة على هيئة مستشفى موجودة بالدور الأرضي وهو مرافق بعض الشيء . ونحن نأمل بالطبع أن يتمكن من البقاء على قيد الحياة . ولكنه لن يتمكن من السير على قدميه إلا بعد مرور شهور قليلة . وإذا قمت بالإجابة على الأسئلة التالية فإني سأصدر أوامرى بالسماح لك بالوجود إلى جواره بالمستشفى لكي تقوم بتمريضه إلى أن يتماشى للشفاء . وإذا رفضت الإجابة على الأسئلة ستبقى هنا في هذا المكان . وبعدئذ استخرج كيرتز من جيبي صورة فوتوغرافية ملونة وعرضها على يانوكا . وهى صورة توضح وجه شقيق يانوكا الذى يطل من باطنية السجن الملوثة بالدماء بينما يقوم حارسان بحمله عقب استجوابه .

ولكن أسلوب كيرتز العقلى لم يكن متسمًا بالجمود على الإطلاق . فعندما بدأ يانوكا في التكلم تحول كيرتز على الفور إلى طابع العطف والحنان لكي يتمشى مع عاطفة الولد المسكين . وفجأة أصبح السجان القديم بحاجة لأن يسمع كل شيء عن الأمور التي قالها المحارب العظيم لأخيه الأصغر . وعندما عاد كيرتز إلى شقة الدور الأرضي كان الفريق قد حصل بالفعل على كل ما يمكن الحصول عليه من يانوكا . ولكن كيرتز أوضح لهم أن كل تلك المعلومات لاتهمه بقدر ما يهمه الأماكن التي يوجد فيها أخيه الأكبر . ولقد أوضح لهم كيرتز أن العنف الفيزيقى مضاد لأخلاقيات ودروح المهنة وإذا كان على المرء أن يستخدم العنف فإنه ينبغي ألا يوجه إلى الجسد وإنما إلى العقل . وقد سبق له أن أوضح هذه النقطة أيضاً لجافرون .

ورغم هذا الإنجاز لم يهدأ له بال .

فمع حلول صباح اليوم التالي تم إرسال المعلومات عن يانوكا . ثم عاد كيرتز إلى قلب المدينة لكي يواصي فريق المراقبة الذي هبطت روحه المعنوية هبوطا عموديا مع اختفاء يانوكا . ثم انطلق كيرتز في اتجاه الشمال من أجل عقد لقاء آخر مع أليكسيس حيث كان غير خائف من الحقيقة التي مفادها أن الطبيعة الشاذة الطبية للدكتور قد جعلت ميشا جافرون يضنه من بين الناس المحظوظ التعامل معهم .

وكان كيرتز يموج بالتفاؤل المشوب بالحزن . وقال موجهها كلامه للি�تفاك : إننا نتحرك . وميشا لا يضربني إلا إذا كنت جالساً في صمت وهدوء .

الفصل العاشر

كانت الحانة أكثر خشونة من تلك الحانات الموجودة في ميكونوس، بها تليفزيون أبيض وأسود يرفرف مثل علم لا يلقى تحية من أحد. وكان رجال التلال الطاعنون في السن يعتزون بأنفسهم لدرجة كبيرة بحيث لا يبدون اهتماماً بالسياح ولا حتى بالفتيات الانجليزيات الجميلات نوات الشعر الأحمر اللائى يرتدين ثياباً زرقاء اللون وأسوراً ذهبية. ولكن في القصة التي حكاها يوسف الآن فإن تشارلى وميشيل هما اللذان كانوا يتناولان الطعام بمفردهما في مطعم الشواء التابع لنزل ريفي يقع على مشارف نوتنجهام حيث قام ميشيل بتقديم الرشوة من أجل أن يظل المطعم مفتوحاً. وكانت السيارة المثيرة للشفقة الخاصة بتشارلى كالمعتاد تقف بعيداً عن الطريق بالجراج الأخير المفضل لها في كامدين. ولكن ميشيل كان لديه سيارة صالون مرسيدس، إنه لا يحب ماركات السيارات الأخرى مثل حبه للمرسيدس. لقد وضع سيارته المرسيدس في حالة انتظار عند المدخل الخلفي للمسرح على مدى عشر دقائق أثناء مطر نوتنجهام الأبدى. ولا توجد نوبة من نوبات تشارلى العارضة ولا توجد هناك شكوك سريعة يمكنها أن توقف جاذبية السرّد القصصي الذي يقوم به يوسف الذي قال: إنه يرتدى قفازاً للقيادة. وهذا القفاز بمثابة بدعة أو موضة أو دلع يلجلج إلية. ونحن نلاحظ هذا. ولكننا لا نعلق عليه.

فقالت لنفسها: والقفاز به ثقب على الظهر. ثم تسألاً: كيف يقود هو السيارة؟

«إنه ليس سائقاً طبيعياً. ولكن لا يمكن لك أن تأخذى هذه الغلطة عليه. وأنت تسألينه عن المكان الذي يعيش فيه وهو يجب قائلاً إنه انطلق بالسيارة قادماً من لندن من أجل أن يشاهدك. تسألينه عن وظيفته فيقول: «طالب». تسألينه عن المكان الذي يدرس فيه فيرد قائلاً: «أوربا» مشيراً على نحو ما إلى أن أوربا هي كلمة

ردية. وعندما تشكلين ضغوطا عليه فإنه يقول إنه يحصل على حلقات دراسية في مدن مختلفة وأن ذلك يتوقف على حالته النفسية وعلى الشخص الذي يلقي المحاضرات. ويقول إن الانجليز لا يفهمون المنهج . وهو عندما ينطق كلمة «انجليز» فإن الكلمة تبدو معادية لك. وأنت لا تعرفين السبب. ولكنها متسمة بالروح العدائية.
وَمَا هُوَ سُؤالُكُ التالِي؟

- أين يعيش الآن؟

إنه غامض ومراوغ. مثلث تماما. وهو يقول في شيء من الفموض إنه في بعض الأحيان يعيش في روما وأحيانا في ميونيخ ويمضي فترات قصيرة في باريس أو شيئا. لا يقول إنه يعيش في كوخ ولكنه يوضح أنه غير متزوج وهو أمر لا يسبب لك الفزع والرعب الشديد تسأله عن المدينة التي يفضلها ولكنه يرفض هذا السؤال ويستنكره على أساس أنه سؤال غير ملائم . تسأله عن الموضوع الذي يدرسه فيرد قائلا إنه يدرس موضوع «الحرية» وتسأله عن مكان وطنه فيرد أن وطنه يرذح حاليا تحت الاحتلال فما هو رد الفعل لديك إزاء هذا؟

الاضطراب والتشويش .

- على كل حال فأنك من خلل الإلحاح الذي تعاتدين عليه تشكلين ضغوطا عليه مرة أخرى. فيضطر لأن يذكر اسم وطنه قائلا إنه «فلسطين». وينطق كلمة فلسطين في عاطفة فياضة وتسمعين كلمة: فلسطين منطقه بصوته وكأنها كلمة مرادفة لكلمة: التحدى وكلمة صيحة حرب - فلسطين .

وكانت عيناه متركزتين عليها بشدة مما جعلها تضطر لأن تبتسم ابتسامة مليئة بالتوتر وتشيح بوجهها بعيداً .

ولعلى ذكرك ياتشارلى أنه على الرغم من أنك متورطة بشدة مع الستير في هذه الفترة إلا أنه حاليا في حالة من الأمان والأمان في أرجيل حيث يقوم ببرنامج تجاري إعلانى لصالح منتجات استهلاكية عديمة القيمة تماما . وأنت تعرفين

بالصدفة أنه يتصادق مع الممثلة الأولى في الفيلم . أهذا صحيح ؟
فقالت : هذا صحيح . واكتشفت لدهشتها أن وجهها يحمر خجلاً وارتباكاً .
لذلك ينبغي عليك الآن أن تقولي لي - لو سمحت - مامعنى كلمة فلسطين التي
ينطقها هذا الولد الشغوف بهذه الطريقة بالنسبة لك وأنت موجودة في نُزُل ريفي
في نوتنجهام في ليلة ممطرة . ودعينا نقول إنه يسألك هذا السؤال بنفسه . نعم . إنه
يسألك هذا السؤال . ولم لا ؟

وراحت تفكر وقالت لنفسها إن قطعة من فئة البنسات الثلاث لها وجوه كثيرة . ثم
قالت بصوت مرتفع «إنني معجبة بالفلسطينيين» .
قال: ناديني باسم ميشيل لو سمحت .
- إنني معجبة بالفلسطينيين يا ميشيل .
- وما السبب في ذلك ؟
- بسبب كفاحهم ومتابرتهم واستمرارهم في النضال .

قال : هذا كلام فارغ . فنحن بمعية مجموعة من الإرهابيين غير المتعلمين
الذى ينبغي عليهم أن يروضوا أنفسهم منذ فترة طويلة على فقدان وطنهم فنحن لم
نكن فيما مضى سوى أولاد يعملون في مهنة مسح الأخذية والتجول في الشوارع
لبيع الأشياء ولم نكن سوى أطفال ينتهكون القوانين ويحملون في أيديهم البنادق
والدافع الرشاشية ولم نكن سوى رجال عجائز يرفضون نسيان الذكريات الأولى .
لذلك منْ نكون نحن إذن لو سمحت ؟ قوله لي رأيك وأنا سوف أقدر وأقيم رأيك .
ولا تننس أنتي مازلت أناريك باسم : جان دارك .

فأخذت نفساً عميقاً . وقالت: وهو كذلك . ما هو رأيي . إن الفلسطينيين - أنتم -
هم أناس مهنيون وهم فلاحون مهذبون لهم تراث عظيم وتقالييد عظيمة . ولقد طربوا
من أراضيهم في ظلم فادح اعتباراً من عام ١٩٤٨ بهدف استرضاء الصهيونية

العالمية ، وبهدف تمهيد الطريق أمام خلق موطئ قدم للغرب في المنطقة العربية بالشرق الأوسط .

كلامك لا يسبب لي الإزعاج. استمرى لو سمحت .

ومن العجيب أن اكتشفت تدفق الكثير من المعلومات إلى ذهنيا تحت إلحاحه العنيف على مواصلة كلامها. إذ تدفق إلى ذهنيا فقرات متفرقة وردت في نشرات منسية ومحاضرات وخطب سبق أن ألقاها المدافعون عن الحرية علاوة على معلومات كانت قد قرأتها في بعض الكتب. فاستطردت قائلاً : أنت بمثابة الابتكار الخاص بعقدة الذنب الأوروبية إزاء اليهود ... وأنتم أرغمتم على أن تحملوا العقاب على الهولوكست الذي لم تشاركوا فيه... وأنتم ضحايا سياسة الاستيلاء على أراضي العرب وطرد العرب من وطنهم وهي سياسة عنصرية امبريالية مناهضة للعرب .

فقال يوسف في هدوء : وهي سياسة اغتيالات أيضاً فقالت في تلعثم « وهي سياسة اغتيالات» وأحسست بحملقة الرجل الأجنبي مثبتة عليها. ومثثما حدث في ميكونوس أدركت فجأة أنها ليس لديها فكرة عما قرأت هناك . ثم قالت في هدوء «على أية حال. هذا هو رأيي عن الفلسطينيين. طالما أنك تسأل عن رأيي» ثم اكتشفت أنه لاز بالصمت .

استمرت في النظر إليه متظاهرة منه أن يبدأ في الكلام .

فقال لها في لهجة أمراء كما لو أنها لم ييتسموا لبعضها البعض طوال حياتهما: لاحظت أنه لا يدركش في الشئون التافهة، ولاحظت أنه توافق بسرعة مع الجانب الجاد في داخلك. وهو أيضاً من النوع الموسوس الذي يدقق كثيراً ، مثل ذلك لقد أعد في هذه الليلة كل شيء ، الطعام والخمور والشمعون. بل وأعد المحادثة الخاصة به. ويمكن القول إنه استخدم أسلوب الكفاعة الإسرائيلية من أجل أن يشن حملة كاملة تهدف إلى الاستيلاء على جان دارك الخاصة به .

قالت في وقار وهي تتفحص السوار الخاص بها «ياللشناعة» وهو في تلك الأثناء يقول لك إنك أعظم ممثلاً على وجه الكرة الأرضية. وهو أمر لن يسبب لك الرعب . يصرّ على الخلط بينك وبين جان دارك. ولكنك لم تعودى تتضايقين من أن الحياة والمسرح غير منفصلين لديه. ويقول لك إن القديسة جان دارك كانت ولا زالت هي البطلة التي تشد إعجابه منذ أن قرأ عنها لأول مرة. كانت امرأة. ومع ذلك أثارت في نجاح الوعي الطبقي الخاص بطبقة الفلاحين الفرنسيين وقادتهم في معركة ضد الطغاة الاستعماريين البريطانيين . كانت إنسانة ثورية صادقة وتمكنـت من إشعال لهيب الحرية بين جميع الشعوب المستغلة في العالم كله. وحولت العبيد إلى أبطال. وهذه هي خلاصة تحليلاته النقدية. وصوت الله الذي يخاطبها ليس سوى الضمير الثوري الخاص بها والذي يحثها على مقاومة المستعمرين. لا يمكن أن يكون هو الصوت الحقيقي للله. لأن ميشيل اعتقاد أن الله خارج نطاق هذا الموضوع. وربما لا تدركى كافة التعقيدات عندما قمت بتمثيل دور جان دارك .

وكانـت تشارلى لا تزال تبعث بالسوار الخاص بها. ثم قالت في عدم اهتمام : -
حسنا. ربما أغفلت بعض الأمور. ورفعت رأسها لأعلى لكي تواجه رفضـه
الجرانيـتـيـ. وأضافت : يالـلـسـيدـ المـسـيـحـ .

ياتشارلى . إنـىـ انـبهـكـ بـالـأـلـاـ تـضـايـقـيـ مـيـشـيلـ بـدـهـائـكـ وـذـكـائـكـ الغـرـبـيـ. إنـ دـوـحـ الفـكـاهـةـ لـدـيـهـ تـنـسـمـ بـتـقـلـبـ الـأـهـوـاءـ. وـهـوـ لـاـ يـحـبـ أـيـةـ نـكـاتـ ضـدـهـ وـخـاصـةـ إـذـاـ
كـانـتـ نـكـاتـ تـتـمـ بـمـعـرـفـةـ السـيـدـاتـ. حـسـنـاـ. الطـعـامـ شـنـيـعـ لـلـغـاـيـةـ. وـلـكـنـكـ غـيرـ مـبـالـيـةـ
بـذـلـكـ تـمـامـاـ. لـقـدـ أـصـدـرـ أـوـامـرـهـ بـإـحـضـارـ شـرـائـعـ مـنـ اللـحـومـ. وـلـاـ يـعـرـفـ أـنـكـ تـمـرـينـ
بـمـرـحـلـةـ مـنـ الـمـراـحـلـ النـبـاتـيـةـ خـاصـةـ بـكـ. وـأـنـتـ تـلـوـكـيـنـ بـعـضـ اللـحـومـ لـكـ لـاـ تـسـيـئـيـ
إـلـيـهـ. وـفـىـ خـطـابـ لـاـحـقـ تـخـبـرـيـنـ أـنـ شـرـائـعـ اللـحـومـ كـانـتـ أـسـوـأـ لـحـومـ تـنـاـولـتـيـهاـ فـىـ
حـيـاتـكـ وـلـكـنـهاـ مـعـ ذـلـكـ أـفـضـلـ لـحـومـ. وـكـلـ مـاـ تـفـكـرـيـنـ فـيـ أـثـنـاءـ حـدـيـثـهـ هـوـ صـوـتـهـ المـفـعـمـ
بـالـحـيـوـيـةـ وـالـعـاطـفـةـ وـوـجـهـ الـعـرـبـيـ الـجـمـيلـ الـذـيـ يـبـدوـ عـبـرـ الشـمـعةـ. نـعـمـ ؟

فتردلت ثم ابتسمت وقالت : نعم .

- انه يحبك . يحب موهبتك . يحب القديسة جان دارك . يقول لك . (وهي كانت مجرمة من وجهة نظر المستعمرات البريطانيين). وهكذا كان ينظر إلى جميع المدافعين عن الحرية، وهكذا كان جورج واشنطن وهكذا كان المهاجم غاندي، وهكذا كان روبين هود، وهكذا كان الجنود السوريون الذين يناضلون من أجل تحقيق الحرية لأيرلندا .

وهذه ليست على وجه الدقة أفكاراً جديدة يعبر عنها ولكن هذه الأفكار تحدث تأثيراً مغناطيسياً عليك من خلال الحماس الشرقي الذي يتسم به صوته لأنه صوت مليء بالسمات الطبيعية الحيوانية إن صحَّ هذا التعبير. إن صوته يضفي حياة جديدة على الكليشيهات القديمة. إن صوته شبيه بإعادة اكتشاف الحب من جديد. وهو يقول لك . إن أي شخص يحارب الرعب الذي يبثه المستعمرون يعتبر إرهابياً من وجهة نظر البريطانيين. إن البريطانيين هم أعدائي. كلهم أعدائي باستثنائك أنت. لقد أعطى البريطانيون وطني للصهاينة وشحذوا يهود أوروبا إلى فلسطين مع إعطاء تعليمات للصهاينة بأن يحولوا الشرق إلى الطابع الغربي. انهوا وروضوا الشرق من أجلكنا. هذا هو ما قالوه للصهاينة . إن الفلسطينيين سيعملون عند اليهود في الأعمال اليدوية غير البارعة. لقد كان المستعمرون البريطانيون القدامى مرهقين ومنهزمين لذلك قاموا بتسليمها للمستعمرات الجدد الذين لديهم الحماس وعدم الرأفة التي تعينهم على فك العقدة. لقد قال البريطانيون للصهاينة : لا تقلقوا ولا تهتموا بالعرب. نعدكم بأن نتفاوضى تماماً عندما تتعاملون بقسوة مع العرب. هل تتصفين إلى في انتباه ؟

- يا يوسف . متى لم أكن مصفية إليك ؟

- إن ميشيل هو القائد الملهم لك في هذه الليلة لا أحد سبق له من قبل أن ركز

كل قوى التعصب لديه عليك بمفردك . إن قوة الاعتقاد لديه والتزامه وإخلاصه وتفانيه - كل هذه الأمور تتفجر من داخله عندما يتكلم . وهو بالطبع من الناحية النظرية يقوم بالوعظ بين الناس المتحولين إلى المذهب الجديد ولكنه في حقيقة الأمر يقوم بزرع القلب الإنساني في مجموعة الأشياء المختلطة الخاصة بمبادئك اليسارية الفاسدة . وأنت تريدين منه أن يلقى عليك الوعظ والمحاضرات . وهو يقوم بذلك . وأنت تريدين له أن يلعب على عقدة الذنب البريطانية الخاصة بك . إنه يفعل ذلك أيضا . ولذلك تصبحين إنسانة جديدة تماما . وهو بمعزل عن تحيزاتك إزاء الطبقة المتوسطة . وهو بمعزل عن تعاطفاته الغربية التي تتكون في بطء . أليس كذلك ؟ . وتساول في بطء وهدوء مستفسرا كما لو كانت هي قد وجهت سؤالا . فهزت رأسها . فسرح بذهنه مرة أخرى كما لو كان قد امتلاه بالحماس المستعار الخاص بالبديل العربي له .

إنه يتجاهل تماما أنك من الناحية النظرية واقفة إلى جانبه وفي صفة بال فعل . يطالب باستغراقك الكامل في قضيته أو يطالب بتحولك تماما إلى المذهب الجديد . يلقي بالبيانات الإحصائية في وجهك . إن ما يزيد على مليوني عربي من المسيحيين والمسلمين طردوه من وطنهم فلسطين وحرموا من حقوقهم الشرعية منذ عام ١٩٤٨ . وتم هدم منازلهم وقراهم بالبلدوزرات يقدم لك إحصاء عن عدد البيوت والقرى التي دُمرت ونُسفت - كما أن أراضيهم سُرقت وفقا لقوانين لم يشاركا في صياغتها - وهو يذكر لك عدد الدونومات الزراعية التي سُرقت . والدونم الواحد يساوي ألف متر مربع . أنت تسأله يجيب عليك . وهم عندما يصلون إلى المنفى يقوم بعض العرب بذبحهم . كما يقوم الإسرائيليون بقصف معسكراتهم بالقنابل لأنهم يستمرون في أعمال المقاومة . ولأن اليهود يعتقدون أن من يقاوم الاغتصاب والاحتلال يعتبر

إرهابياً كما يعتقدون أن استيلاعهم على أراضي الغير وقصفهم للاجئين وإهلاك الجزء الأكبر من الفلسطينيين يعتبر مجرد ضرورات سياسية تعيسة. لأن موت عشرة آلاف عربي لا يعادل موت شخص يهودي واحد. انتبهى لما أقول لا يوجد شخص ليبرالي غربي يتزدد في التكلم علينا وبصراحة ضد ممارسات الظلم التي تتم في شيلي وجنوب إفريقيا وبولندا والأرجنتين وكمبوديا وإيران وشمال أيرلندا وغيرها من الأماكن التي تشهد القلاقل ومع ذلك فمن هو الذي لديه الشجاعة لكي يتحدث بصراحة عن أكبر مهزلة تتم في تاريخ البشرية وهي أن ثلاثين عاماً على قيام إسرائيل قد حُولت الفلسطينيين إلى ما يمكن أن يُسمى باليهود الجدد على وجه الكرة الأرضية؟ هل تعرفين كيف وصف الصهاينة بلادى فلسطين قبل أن يستولوا عليها؟

لقد قالوا عنها

(إنها أراضٍ بدون شعب من أجل شعب بدون أرض) .

نحن لم نكن موجودين ! عجب ! لقد ارتكب اليهود ما يمكن أن يسمى بالإبادة الجماعية ضد الشعب الفلسطيني. وأنتم أيها البريطانيون كنتم المهندسين الذين وضعوا هذه المؤامرات . هل تعرفين كيف ولدت إسرائيل ؟

لقد قامت دولة أوربية عظمى بتقديم أرض فلسطين هدية للوبي اليهودي. ولم تقم باستشارة مواطن فلسطيني واحد بشأن هذه الأراضي الفلسطينية. وكانت هذه الدولة الأوربية العظمى هي بريطانيا . هل لى أن أصف لك كيف ولدت إسرائيل ؟ ... هل الوقت متاخر أكثر من اللازم ؟ هل أنت مرهقة ؟ أينبغى أن تعودى إلى الفندق الخاص بك ؟

وبينما راحت تقدم له الإجابات التي يريدها كانت لا يزال لديها الوقت لكي تتعجب في داخل كيانها إزاء التناقضات .

الموجودة لدى رجل يستطيع أن يرقص مع العديد من الظلال المتصارعة الخاصة به ومع ذلك لا يزال يتمكن من الوقوف على قدميه . كانت هناك شمعة موجودة بينهما وأخذة في الاحتراق . بينما راح يوسف يحكي قصته حولها وشاهدت وجهه وهو يتبادل مع وجه ميشيل كصورتين مطبوعتين فوق لوحة فوتografية واحدة .

- استمعي إلى . هل أنت مصافية إلى؟

- يا يوسف إنني مصافية . يا ميشيل إنني مصافية .

لقد ولدت في عائلة يسيطر فيها الأب على مجريات الأمور وولدت في قرية قريبة من مدينة الخليل التي يطلق عليها اليهود اسم «هبرون» .

«الخليل ... تذكرى هذا الاسم . إن هذا الاسم له أهمية عظمى بالنسبة لي وذلك لأسباب عديدة . عليك بتذكر اسم : الخليل . انطقى هذا الاسم» فنطقت بهذا الاسم . الخليل .

«إن الخليل هي إحدى المراكز العظمى للديانة الإسلامية . وكلمة الخليل باللغة العربية تعنى : الصديق . وأهالى مدينة الخليل أو مدينة «هبرون» هم صفوة القوم بين الشعب الفلسطينى ، سأقول لك نكتة ظريفة ستجعلك تضحكين كثيراً . فهناك اعتقاد بأن المكان الوحيد الذى لم يطرد منه اليهود هو جبل «هبرون» الذى يقع جنوب مدينة الخليل . ولذلك من المحتمل جداً أن تكون الدماء اليهودية مناسبة فى داخل عروقى وشرايينى . ومع ذلك لست خجولاً من ذلك . فأنما لست مناهضاً للسامية ولكننى متاهض للصهيونية . أتصدقينى؟ .

ولم ينتظر لكي ترد عليه مؤكدة له أنها تصدقه . إذ لم يكن بحاجة لذلك حيث استطرد قائلاً : -

أسرتنا تتكون من أربعة إخوة وختين ، وأنا أصغرهم جميعاً في السن . وكان كل فرد في العائلة يعمل في فلاحة الأرض . وكان والدى هو (المختار) أو العمدة حيث تم اختياره بمعرفة الناس الكبار في السن الحكماء العاقلين . وكانت

قريتنا شهيرة بانتاجها الممتاز من التين والعنب . ومشهورة بالمقاتلين الأشداء وبنسائها الجميلات . فنساؤها جميلات ومطبيات مثلك تماما . ومعظم القرى تكون مشهورة بشيء واحد فقط . أما قريتنا فمشهورة بأمور كثيرة للغاية .

تمتت تشارلى قائلة : على نحو طبيعي .

- كانت قريتى مشهورة للغاية بسبب الخطط والنصائح التى يسديها والدى . حيث يعتقد والدى أنه ينبغى على المسلمين أن يعيشوا فى مجتمع مشترك مع المسيحيين واليهود تماما مثلما عاش الأنبياء فى توافق سويا فى السماوات تحت إله واحد . إننى أتحدث إليك كثيرا عن والدى وعائالتى وقريتى . كان والدى معجبا باليهود . درس والدى الصهيونية . وكان يروق له أن يستدعي اليهود للمجيء إلى قريتنا لكي يتحاور ويتناقش معهم . ولقد أرغم والدى إخوته الأكبر منى على دراسة اللغة العبرية . وعندما كنت ولدا صغيرا رحت أنصت فى الليل للرجال الذين يُتفنون بأغانيات الحروب القديمة . وفي النهار أخذت حسان جدى إلى منطقة المياه وسمعت قصص المسافرين والباعة الجائعين . وعندما أصف لك هذه الجنة التى هى قريتى سأبدو لك وكأننى أنطق بالشعر الجميل أمامك . بمقدوري أن أتحدث بالشعر فائنا لدى موهبة قرص الشعر . كنا فى الميدان الرئيسي بقريتنا نرقص رقصة الدبكة ونصنف إلى عزف على العود بينما كان الرجال العجائز يلعبون التردد (الطاولة) ويدخنون النرجيلة .

لم تفهم تشارلى على وجه الدقة معانى بعض الكلمات مثل : الدبكة والعود والنرجيلة . ولكنها فضلت ألا تقاطعه أثناء كلامه .

وفي حقيقة الأمر ، لا أتذكر سوى القليل من مثل هذه الأمور . وحقيقة الأمر أننى أتناول ذكريات الناس الكبار فى السن الذين هم أكبر منى سنًا لأن تلك هي الطريقة التى تعيش بها التقاليد الخاصة بنا وتظل على قيد الحياة فى داخل معسكرات المنفى . ومع مرور الأجيال ينبغى علينا أن نعيش وطننا الحبيب فى مزيد من العمق من خلال ذاكرة آبائنا وأجدادنا . ولسوف يقول لك الصهاينة إننا لم تكن

لنا ثقافة ، ولم يكن لنا وجود . ولسوف يقولون لك إننا كنا متفسخين ومنحلين وكنا نعيش في أكواخ مصنوعة من الطين وكنا نتجول ونحن نرتدي ثياباً بالية تتبعت منها الروائح الكريهة . ولسوف يقولون لك بالحرف الواحد نفس الكلام الذي كان يقال عن اليهود بمعرفة المناهضين للسامية ببوربا . والحقيقة في كلا الحالتين لها معنى واحد : إننا كنا شعباً نبيلاً .

وأوحت إيماعنة من رأسه الداكن أن الشخصيتين الخاصتين به قد وافقتا على هذا الجانب من الحقائق .

إنني أصف لك حياتنا الريفية وأصف لك الأنظمة العديدة المعقّدة التي كانت توجد في المجتمع بقررتنا . وأصف لك موسم حصاد العنب والكرום وكيف أن جميع سكان القرية كانوا يخرجون سوياً إلى حقول العنب بناءً على تعليمات صادرة إليهم من «المختار» الذي هو والدى . وأصف لك كيف أن إخوتي الكبار بدأوا تعليمهم في مدرسة كانت قد أنشئت بمعرفة البريطانيين في عهد الانتداب البريطاني على فلسطين . إنك سوف تضحكين على ذلك إلا أن والدى كان يؤمن بالبريطانيين أيضاً . وأصف لك كيف أن القهوة في بيت الضيافة بقررتنا كانت ساخنة دائماً على مدى جميع أوقات اليوم لكي لا يقول أي «شخص عنا» : (هذه القرية فقيرة ومسكينة للغاية وسكانها ليسوا كرماء مع الأجانب) أتريدين أن تعرفي ماذا حدث للحصان الخاص بجدى ؟ لقد باع جدى حصانه واشترى بندقية لكي يتمكن من إطلاق الرصاص على الصهاينة عندما يهاجمون قررتنا . فكانت النتيجة أن الصهاينة تمكناً من إطلاق الرصاص على جدنا . وأرغموا والدى على الوقوف إلى جوار جدى أثناء إطلاق الرصاص عليه .

- وهل حدث هذا بالفعل ؟ .

- بالطبع .

ولم تستطع أن تعرف ما إذا كان يوسف أم ميشيل هو الذي يردّ على تساؤلها . وأدركت أنه لم يكن يريد لها أن تعرف .

- في رأيي أن حرب ١٩٤٨ هي بمثابة الكارثة . وأنا أطلق على هذه الحرب اسم : الكارثة . وأقول لك إنه خلال كارثة ١٩٤٨ ظهر الضعف المميت الذي يتسم به شعب مسالم هو الشعب الفلسطيني ؛ إذ لم يكن لدينا أي تنظيم وبالتالي لم نستطع أن ندافع عن أنفسنا ضد المعدين المسلحين . وكانت ثقافتنا تلقى الرعاية والعناية في داخل مجتمعات مغلقة صغيرة حيث كانت كل جماعة صغيرة متكاملة في حد ذاتها ومتفصلة اقتصادياً عن الجماعات الصغيرة الأخرى . والأهم من ذلك كله أنه كانت تنقصنا الوحدة السياسية شأننا في ذلك شأن اليهود في خلال الفترة السابقة على الهولوكوست . وعدم وجود وحدة سياسية بيننا هو الذي أدى إلى سقوطنا . بل وكثيراً ما دخلت مجتمعاتنا الصغيرة المغلقة في قتال ضد بعضها البعض وهذه هي اللعنة التي مني بها العرب في كل مكان . وربما هذه هي اللعنة التي مني بها اليهود أيضاً . هل تعرفين ما فعله هؤلاء الصهاينة بقريتنا ؟ بسبب أننا لم نهرب من قريتنا مثل باقي جيراننا ؟

كانت تدرك أنها لم تكن تعرف . ولكن هذا لم يهمه حيث لم يلتفت إليها ولم يبال بسماع ردّها .

لقد ملأوا براميل بالبنزين والمتفجرات ودحرجوها على سفح التل مما أدى إلى اشتعال النيران في نسائنا وأطفالنا . إنني على استعداد لأن أستمر في الكلام في هذا الموضوع على مدى أسبوع لكي أوضح لك مدى التعذيب الذي لاقاه شعبنا . لقد قام الصهاينة بقطع الأيدي واغتصاب النساء وحرقهن وفقاً عيون الأطفال .

وراحت تشارلى تتفحصه محاولة اكتشاف ما إذا كان هو يصدق نفسه :

- إنني أهمس لك بكلمة (دير ياسين) . هل سبق لك أن سمعت عن كلمة: دير ياسين ؟ وهل تعرفين ما معنى كلمة دير ياسين ؟

- لا يا ميشيل . لم يسبق لي أن سمعت عن هذه الكلمة . ويدا عليه أنه قد سرّ من ذلك . ثم قال : إذن عليك أن توجهى إلى هذا السؤال : (ما هي دير ياسين ؟) .

- لو سمحت يا سيدى . ما هى ياسين ؟

- مرة أخرى أجياب عليك كما لو أنتى قد شاهدت تلك الأحداث بالأمس بعينى هذه المفتوحتين . فى القرية العربية الصغيرة التى تُسمى دير ياسين وفي يوم ٩ إبريل ١٩٤٨ تم ذبح ٢٥٤ من القرويين من الرجال والعجائز والنساء والأطفال على أيدي فرق الإرهاب الصهيونية بينما الرجال والشباب التابعون لهذه القرية يعملون بعيداً فى حقولهم . وتم قتل الأطفال الموجودين فى داخل بطون النساء الحوامل . وتم إلقاء معظم الأطفال القتلى فى أحد الآبار . ونتيجة لهذه المذبحة هرب حوالى مليون فلسطينى من ديارهم خلال أيام قليلة . إلا أن أهالى قرية والدى لم يهربوا من قريتهم حيث قال والدى (لسوف نظل باقين فى قريتنا لأننا إن ذهبنا كلاجئين إلى أى مكان آخر لن يسمح لنا الصهاينة بالعودة إلى ديارنا مرة أخرى) . أعتقد أن البريطانيين الذى غادروا فلسطين سيعودون مرة أخرى لكي ينقضونا من الصهاينة . فهو فى ذلك لم يدرك أن الطموحات الاستعمارية كانت ت يريد خلق حليف غربى لها وزرعه فى قلب الوطن العربى بالشرق الأسط .

وأحسست بالنظرة التى ألقاها عليها وساعلت نفسها فى تعجب عما إذا كان مدركاً للانسحاب الداخلى الذى هبط عليها أو عما إذا كان مصمماً على تجاهل ذلك الانسحاب الداخلى . ثم خطر على ذهنها فيما بعد أنه كان يتعمد تشجيعها على الابتعاد عن ذاتها وبحيث تدخل إلى المعسكر المعارض .

- وعلى مدى عشرين سنة تقريباً عقب الكارثة تشتت والدى بالأراضى المتبقية من قريتنا . ولقد وصفه البعض بأنه عنيد ووصفه آخرون بالغباء . وفي خارج فلسطين وصفه أبناء بلده الفلسطينيون بأنه إنسان متعاون مع العدو المحتل للبلاد . وكانوا لا يعرفون شيئاً عن حقيقة الأوضاع ؛ إذ لم يكونوا يشعرون بالأحزية الصهيونية المسلطة على رقابهم . وفي جميع الأقاليم المحيطة بنا كان الناس يساقون ويطردون ويتم القاء القبض عليهم . وقام اليهود بمصادررة أراضيهم وتدمير بيوتهم وتسويتها بالأرض بالبلوزرات . مع إنشاء مستوطنات جديدة لا

يُسمح للعرب بالسكنى فيها . ولكن والدى كان رجل سلام ويتسم بالعقل والحكمة . وتمكن لبعض الوقت من إبعاد الصهاينة عن أبوابنا .

ومرة أخرى أرادت أن تسؤاله : هل هذه الأمور قد حدثت بالفعل ؟ ولكنها لم تجد متسعاً من الوقت .

وفي حرب عام ١٩٦٧ اقتربت الدبابات من قريتنا . فاضطررنا إلى الفرار أيضاً إلى الأردن . وملأت الدموع عيني والدى واستدعانا جميعاً . وطلب منا أن نجمع ممتلكاتنا وحاجياتنا . وقال لنا (المذابح الجماعية على وشك أن تبدأ) . فسألت والدى وكنت أنا أصغر الموجودين سننا ولا أعرف شيئاً مما يحدث (يا والدى . ما معنى المذابح الجماعية ؟) فردَّ علىَّ قائلاً (إنها ما فعله الغربيون باليهود . وهذا هو ما يفعله الصهاينة فينا الآن . لقد تمكنا من إحراز انتصار عظيم للغاية بحيث يمكن لهم أن يكونوا كرماء . إلا أن الفضيلة عندهم لا يمكن العثور عليها في سياساتهم) . وإلى أن أموت لن أنسى أبداً والدى المعترض بنفسه وهو يدخل الكوخ البائس الذي كان آنئذ بمثابة منزلاً . لقد وقف لفترة طويلة عند عتبة الباب متقدراً مجده القوى الغاشمة . ولم ييك . ولكنه ظل لأيام جالساً على صندوق مليء بكتبه مع عدم تناول أي طعام . وأعتقد أنه قد أصبح أكبر من سنه الحقيقي بعشرين عاماً في خلال هذه الأيام . وقال والدى (لقد دخلت إلى قبرى . وهذا الكوخ هو مقبرتى) ومنذ اللحظة التي وصلنا فيها إلى الأردن أصبحنا مواطنين بدون وطن وبدون أوراق رسمية وبدون حقوق وبدون مستقبل وبدون عمل . وماذا عن مدرستى ؟ إنها بمثابة زريبة أو حظيرة محشوة حتى السقف بالنباب السمين والأطفال الذين يعانون من النقص في التغذية . إن منظمة «فتح» هي التي تعلمني . وهناك الكثير الذي ينبغي أن أتعلمه . كيف أطلق الرصاص . وكيف أقتل المعتمد الصهيوني .

وتوقف عن الكلام فظلت في بادئ الأمر أنه يبتسم لها . إلا أن التعبيرات على وجهه كانت خالية من أي مرح أو طرب .

ثم أعلن في هدوء : (إنتي أقاتل . إذن فأنتا موجود) . هل تعرفي من الذي

قال هذه العبارة يا تشارلى ؟ لقد قالها شخص صهيوني . شخص صهيوني محب للسلام ومثالى ومغالٍ في الوطنية وقام بقتل العديد من البريطانيين والكثير من الفلسطينيين باستخدام الوسائل الإرهابية . ولكن نظراً لأنَّه شخص صهيوني فإنه لا يعتبر إرهابياً وإنما يعتبر بطلاً ومتسماً بالفجالة في الوطنية . هل تعرفين من هو ذلك الرجل الذي قال تلك العبارة والذي يعتبر صهيونياً متحضرًا ومحبًا للسلام ؟ لقد كان ذلك الشخص هو رئيس الوزراء في دولة يسمونها إسرائيل . هل تعرفين من أين جاء رئيس الوزراء الصهيوني الإرهابي هذا ؟ جاء من بولندا . هل يمكنك أن تقولي لي - أنت المرأة الانجليزية المتعلمة وأنا الفلاح الفلسطيني البسيط الذي أصبح بدون وطن - كيف حدث أن أصبح شخص بولندي حاكماً على بلدي فلسطين .. شخص بولندي يعيش من أجل أن يحارب ؟ هل يمكن أن توضحي لي لو سمحت تحت أي مبدأ من مبادئ العدالة الانجليزية وعدم التحيز الانجليزي يمكن لهذا الرجل أن يتحكم في بلادي ؟ وبعدئذ تقولون عنا أننا إرهابيون ؟ .

قالت : «حسناً . هل يمكن لك أنت أن توضح» . وكان لديها انطباع سريع بأنه يتوقع ذلك التساؤل من جانبها . فضحك في غير ابتهاج . ومدّ يده إلى الكأس الخاص به ورفع الكأس في اتجاهها . ثم قال : «إرفعي كأسك نحوى .. في صحتك . التاريخ ينتمي إلى المنتصرين . هل نسيت هذه الحقيقة البسيطة ؟ . تناولي الخمور معى .

وفي نوع من الشك والارتياح رفعت كأسها في اتجاهه . وقال : في صحة إسرائيل الصغيرة . وفي صحة بقائها على قيد الحياة وذلك بفضل المعونات الأمريكية التي تصل إلى 7 ملايين دولار يومياً وبفضل القوى الكاملة للبناة الذين ترقص على أنغام إسرائيل .

وأنت يا تشارلى . أنت تصفين . أنت مُروعة . أنت مندهشة . من رومانتيكيته ومن جماله ومن تعصبه إنه لا يوجد لديه تكم وتحفظ . ولا موانع غربية . هل هذا يصلح وينفع - أم أن نسيج خيالك يرفض العضو المزروع في غير تربته والذي يسبب الإزعاج ؟

فأمسكت تشارلى بيده وبدأت تجوب راحة يده باستخدام طرف إصبعها .

ثم تسامعت بهدف كسب الوقت : ولغته الانجليزية تستطيع مواجهة كل هذا ؟

- إنه لديه لغة هجينة مبسطة ومخزون من العبارات الخطابية والأرقام الإحصائية والاقتباسات الملتوية . وعلى الرغم من هذا فإنه له عقلية شابة عاطفية مثيرة . بل وعقلية أخذة في التوسيع .

- وما الذي ستفعله تشارلى طوال هذا الوقت ؟ إننى واقفة فى تجمد هناك . أتشبث بكل كلمة يقولها ؟ هل أقوم بتشجيعه ؟ وما الذي أفعله أنا ؟

- طبقا للنص المكتوب أو المخطوطة المسرحية فإن أدائك لا صلة له بالموضوع من الناحية العملية . ومشيل يقوم بتتويجه مفناطيسيا بعض الشيء عبر الشمعة . وذلك هو ما تصفينه له فيما بعد في إحدى خطاباتك (طوال حياتي لن أنسى أبداً وجهك الحبيب المتجلّى عبر ضوء الشمعة خلال تلك الليلة الأولى التي أمضيناها سويا) هل هذا الكلام يعتبر فظيعا للغاية بالنسبة لك أو يعتبر مادة فنية رديئة للغاية ؟

فردت إليه يده وتساءلت : أية خطابات ؟ ومن أين نحصل نحن على الخطابات طوال الوقت ؟

بشكل مؤقت حاليا . فلننافق فقط على أنك سوف تكتبين خطابات إليه فيما بعد . ودعيني أسألك مرة أخرى : هل هذا يصلح ويجيء بالنتيجة المرجوة ؟ أم أنها سنقوم بتصوير الكاتب ونعود للمنزل ؟

فتناولت تشارلى جرعة من الخمور . ثم تناولت جرعة أخرى . وقالت : إنه يصلح ويأتي بالنتيجة المرجوة إلى حد بعيد .

- والخطاب ، هل يمكن لك أن تعيشى معه ؟

- إذا لم يكن باستطاعتك أن تجعله خطابا غراميا . فلما يمكّنك لك ؟

- عظيم : إذن فتلك هي الكيفية التي تكتبين بها إليه وتلك هي الطريقة التي

تسير عليها الرواية إلى حد بعيد . باستثناء نقطة واحدة صغيرة . وهي أن هذه ليست أول مرة تلتقط فيها مع ميشيل .

وعلى نحو غير مسرحي بالمرة وضعت الكأس في عنف على المنضدة . فاستحوذت عليه إثارة جديدة . وانحنى للأمام وعندئذ هبط ضوء الشمعة على صدفة البرونزي مثل سقوط ضوء الشمس على خوذة . قال «استمعي إلى . هل أنت مصغيةً لى الآن ؟

ومرة أخرى لم يهتم بالانتظار لحين سماع إجابتها :

- قال فيلسوف فرنسي (إن أكبر جريمة هي عدم اتخاذ أي إجراء لأننا نخشى ألا نستطيع أن نفعل سوى القليل) هل يتواافق هذا معك ؟
فقالت تشارلي في نعومة «أوه : أيها السيد المسيح» ثم طوت ذراعيها عبر صدرها في نوع من حماية الذات .

- هل لي أن أستمر ؟

- ألا يذكرك هذا بشخص ما ؟ (لاتوجد سوى حرب واحدة تدور بين الطبقات الاجتماعية . إنها الحرب بين الاستعماريين والشعوب الرازحة تحت الاستعمار . أنها الحرب بين الرأسماليين والجماهير الواقعه تحت الاستقلال . مهمتنا أن نجعل الحرب ترتد إلى صدور وأوطان الذين أشعلوها . وترتد إلى المليونيات العنصرية الذين ينظرون إلى العالم الثالث على أنه مزرعة خاصة بهم) .

وتوقف عن الكلام وهو يلاحظ كيف أن رأسها قد انزلق بين يديه .

قالت في تتمة «توقف عن الكلام يا يوسف هذا فوق ما أحتمل . انصرف إلى منزلك» .

قال هامساً ولكن صوته كان يتغلغل ويخترق : (وفيما يتعلق بمثيري الحروب الامبرialisين الذين يسلّحون المعدين الصهاينة وفيما يتعلق بالبرجوازية الغربية المعتوهه الذين هم أنفسهم بمثابة عبيد مناصرين للنظام الخاص بهم أود أن أوضح لهم أن العالم يقول لنا إنه لا ينبغي علينا أن نهاجم النساء والأطفال الأبرياء بعد

اليوم . وفي مواجهة كل طفل يموت جوعاً في العالم الثالث يوجد طفل في الغرب قد سرق طعامه .

قالت مرة أخرى من خلال أصابعها : توقف عن هذا الكلام . هذا فوق ما أحتمل . إنني أسلُم بوجهة نظرك .

إلا أنه استمر في الترتييل : (عندما كنت في السادسة من عمرى طردت من أراضينا . وعندما أصبحت في الثامنة من عمرى التحقت بالأشبال . وما هي الأشبال لو سمحت؟) هيَا ياتشارلى . هذا هو السؤال الذى قمت بتوجيهه . ألم يكن أنت التي وجهت لي هذا السؤال - إذا رفعت يدك وقلت (ما معنى الأشبال لو سمحت؟) فعلى أيّ نحو أجبتك؟

قالت وهي تتضع رأسها بين يديها : «ميليشيا الأطفال . إننى بصدّد التعرّض للدوار والدوخة يا يوسف الآن .

(وعندما أصبحت في سن العاشرة جئتُ رابضاً في ملوي ريفي مصنوع بالأيدي بينما راح السوريون يصبون صواريختهم على معسكتنا . وعندما صرت في الخامسة عشرة من عمرى قُتل أخي وأختي أثناء غارة جوية صهيونية) استطرد ياتشارلى لو سمحت وأكمل لى قصة حياتى نيابة عنِّي .

كانت قد أمسكت بيده مرة أخرى . وفي هذه المرة أمسكتها بكلتا يديها وراحت تدقّها في رفق على المنضدة في شيء من التأنيب . فقال مذكراً إياها : (وإذا كان الأطفال يتعرضون للقصف بالقنابل فإنه يمكنهم أن يحاربوا أيضاً) وإذا استعمروا؟ ماذا إذن؟ استمرى !

قالت تشارلى في تتممة على الرغم منها : يجب أن يقتلوا وإذا قامت أمهاتهم بإطعامهم وتعليمهم كيف يسرقون بيوتنا ومنازلنا ويقصّون شعبنا الموجود في المنفى بالقنابل؟

- عندئذ تكون أمهاتهم موجودات في الخط الأمامي مع أنواجهن .
يا يوسف .

إذن ما الذي نفعه حيالهن ؟

يجب أن يتعرضن للقتل أيضاً . ولكنني لم أصدقه آنذاك . ولا أصدقه الآن .
فتجاهل احتجاجاتها . واستطرد قائلاً : استمع إلى إبني ! إبني من خلال
فتحتى العينين الموجودين فى خوذتى السوداء وبينما أبلغك برسالتى فى المنتدى
الجماهيري العام فإبني لاحظت أن وجهك المتلهج يتراكم على إبني . ولفت نظرى شعرك
الأحمر وملامحك الثورية القوية . أليس من قبيل السخرية أثناء أول لقاء يتم بيننا
أن أكون موجوداً على المسرح بينما أنت بين جماهير الناس المشاهدين ؟

لم أكن مبتهجة إلى أقصى حدّ . اعتدت أنك كنت بعيداً فوق القمة . وكان
لدى من التفكير السليم ، ما يجعلنى أقول لك ذلك .

ولم يكن شاعراً بالندم أو الأسف : مهما كانت مشاعرك في ذلك الوقت فإنك
هنا في فندق نوتنجهام تحت التأثير المغناطيسي لى تراجعين على الفور ذاكرينك .
وعلى الرغم من أنه لم يكن بمقدورك مشاهدة وجهي فإنك تقولين لى إن كلماتي ظلت
محفورة في داخل ذاكرتك منذ ذلك الوقت . فلم لا ؟ ... هيا ياتشارلى ! لقد جاء
ذلك في الخطاب الذي أرسلته إلى إبني !

ولم تكن من النوع الذى يُجر ويسحب . ليس بعد . وفجأة ولأول مرة منذ
بدأت قصة يوسف . أصبح ميشيل مخلوقاً حياً منفصلًا بالنسبة لها . وحتى هذه
اللحظة أدركتْ تشارلى أنها استخدمت لاشعوريا ملامح يوسف لكي تصف محبوبها
الخيالي واستخدمت صوت يوسف لكي تحدد الملامح المميزة لخطبه الرنانة . والآن
ومثل خلية تُقسم نفسها أصبح الرجالن مستقلين وصارا كيانين متصارعين مما
جعل ميشيل يكتب *البعد* الخاص به في الواقع الملموس . وشاهدتْ مرة أخرى غرفة
الحاضرات المليئة بالصور الفوتوغرافية للزعيم ماو والمليئة بالمقاعد الطويلة
المدرسية المليئة بالخرشات . وشاهدت صفوف الرءوس غير المتساوية ابتداءً من
أفرو إلى المسيح وبالعكس أو شاهدت لونج آل متكوناً إلى جوارها في حالة من السأم
الناجم عن الإكثار من تناول الكحوليات . كما شاهدت على المنصة الهيكل المنعزل

غير الواضح المعالم لمنصب فلسطين - وهو أقصر من يوسف وربما يكون أكثر امتلاءً أيضاً - رغم أنه كان من الصعب معرفة ذلك لأنه كان ملفوفاً في قناعه الأسود وردائه الكاكى الذي لا شكل له علاوة على اتساحه بكونيته السوداء / البيضاء . إلا أنه كان أصغر سنا - بكل تأكيد - وأشدَّ تعصباً . وتذكرت شفتيه الشبيهتين بالسمكة . وتذكرت خلوه من التعبيرات وهو في داخل القفص . وتذكرت منديله الأحمر المربوط في تحدي حول رقبته وتذكرت يديه المرتديتين للقفاز واللتين تؤمنان أثناء الكلام . بل وتذكرت صوته : لم يكن صوته حلقياً بل عمومياً وفقاً لما كانت تتوقع وإنما كان صوتها متسماً بالبساطة وعدم الزخرفة ومراعاة شعور الآخرين وذلك على النقيض تماماً من رسالته المتعطشة للدماء . ولكن صوته لم يكن مثل صوت يوسف أيضاً . وتذكرت كيف أن صوته . توقف لكي يعيد صياغة عبارة ، سعياً وراء الالتزام بالدقة في قواعد اللغة : البنية والعودة هما شيء واحد بالنسبة لنا ... الشخص الاستعماري هو الشخص الذي لا يساعدنا في الثورة التي نخوضها ... عدم فعل أي شيء معناه إقرار الظلم والموافقة عليه ..

قال يوسف متأنلاً في الأحداث الماضية : لقد أحببتك على الفور . أو هكذا أقول لك الآن . وب مجرد أن انتهت المحاضرة تساعلتُ عمن تكونين أنت . إلا أنني شعرت أنني غير قادر على الاقتراب منك والتحدث إليك أمام هؤلاء الناس . كنت أدرك أنني غير قادر أن أريك وجهي الذي يعتبر من أعظم مصادر القوة لدى لذا قررت أن أسعى لمقابلتك في المسرح . وقمت ببعض التحريرات والاستفسارات ، وتعقبتك إلى نوتجهام .وها أنا موجود . أحبك حباً أبدية خالداً . توقيع : ميشيل .

وكما لو كان يدخل تعديلات وتنقيحات أظهر يوسف قدرًا أكبر من الاهتمام فيما يتعلق برفاهيتها ورعايتها حيث ملأ لها كأسها مرة أخرى وطلب لها قهوة مضبوطة بالطريقة التي تحبها . أتریدين الاغتسال ؟

- لا شكرًا جزيلاً . إنني على ما يرام . وكان التليفزيون يعرض جانباً من

نشرة الأخبار المصورة حيث ظهر أحد رجال السياسة وهو ينزل من طائرة مبتسمـا .
ونزل إلى آخر سلمة بدون وقوع حادث أو حظ عاشر .

بعد أن استكمل يوسف تقديم خدماته نظر في اهتمام حول الحانـة ، ثم
نظر إلى تشارلى وأصبح صوته متـخذـا الطابع العمـلي :

- إذن أنت يا تشارلى بمثابة جان دارك الخاصة به . أنت بمثابة حبه . أو
الاستحواذ الذى يسيطر تماما على مشاعره . انصرفت هيئة العاملين إلى منازلهم .
وأصبحنا بمفردنا فى صالة الطعام . المعجب بك غير المقنـع ، وأنت . والوقت هو ما
بعد منتصف الليل وأنا قد ظلت أتحدث لفترة طويلة للغاية ورغم ذلك لم أكن بدأت
بالفعل في الإفضـاء لك بما يجيش في قلبـي من حب عميق . بل ولم أسألك عن
نفسك رغم أنـنى أحـبـكـ حـبا يـفـوقـ الوـصـفـ . فـمـثـلـ هـذـهـ التـجـرـبـةـ تـعـتـبرـ جـدـيـدةـ تمامـاـ
عـلـىـ . . . إـلـخـ إـلـغـ غـدـاـ هوـ يـوـمـ الأـحـدـ . ولـذـلـكـ لـيـسـ لـدـيـكـ اـرـتـبـاطـاتـ . لـقدـ اـسـتـأـجـرـتـ
غـرـفـةـ فـيـ الـفـنـدقـ . ثـمـ لاـ أـبـذـلـ مـحاـوـلـةـ لـكـ أـقـنـعـكـ . فـهـذـاـ لـيـسـ أـسـلـوبـيـ . وـهـذـهـ لـيـسـ
طـرـيـقـتـىـ . لـعـلـىـ أـشـعـرـ بـالـاحـتـراـمـ وـالـتـبـجـيلـ الشـدـيدـ نـحـوـ الـوـقـارـ الـذـىـ تـقـيمـيـزـيـنـ بـهـ . أـوـ
رـبـماـ أـنـاـ مـعـتـزـ بـنـفـسـىـ لـلـغـاـيـةـ بـحـيـثـ لـاـ أـعـتـدـ أـنـكـ تـحـتـاجـيـنـ لـلـإـقـنـاعـ . إـمـاـ أـنـكـ
سـتـجـيـئـ إـلـىـ كـرـفـيـقـةـ فـيـ السـلـاحـ أـوـ عـشـيقـةـ صـادـقـةـ وـإـمـاـ أـنـكـ لـنـ تـجـيـئـ . فـعـلـىـ أـىـ
نـحـوـ يـكـونـ رـدـ الـفـعـلـ لـدـيـكـ ؟

فـراـحتـ تـحـمـلـقـ فـيـ وجـهـهـ . ثـمـ أـشـاحتـ بـوـجـهـهاـ بـعـيـداـ عـنـهـ . لـقـدـ كـانـ لـدـيـهاـ
نـصـفـ دـسـتـةـ مـنـ الإـجـابـاتـ الـظـرـيفـةـ . إـلاـ أـنـهاـ كـبـحـتـ جـمـاحـ تـلـكـ الـاجـابـاتـ . فالـشـخـصـ
المـفـمـىـ بـالـقـلـنـسـوـةـ الـمـوـجـودـ عـلـىـ الـمنـصـةـ أـصـبـحـ مـرـةـ أـخـرىـ بـمـثـابـةـ تـجـرـيدـ . لـقـدـ كـانـ
يـوسـفـ - وـلـيـسـ ذـلـكـ الرـجـلـ الـأـجـنبـىـ - هـوـ الـذـىـ وـجـهـ التـسـاؤـلـ . وـمـاـ الـذـىـ كـانـ هـنـاكـ
لـكـ تـقـولـهـ عـنـدـمـاـ كـانـاـ - فـيـ دـاـخـلـ خـيـالـهـاـ - مـضـطـجـعـينـ بـالـفـعـلـ فـيـ السـرـيرـ سـوـيـاـ
حـيـثـ كـانـ يـوسـفـ مـسـتـقـيـاـ عـلـىـ كـتـفـهـاـ وـكـانـ جـسـدـهـ الـلـيـءـ بـالـجـرـاحـ مـتـمـدـداـ مـعـ
جـسـدـهـ بـيـنـمـاـ هـىـ تـسـتـخـرـجـ طـبـيـعـتـهـ الـحـقـيقـيـةـ مـنـ دـاـخـلـ كـيـانـهـ ؟

على كل حال ياتشارلى - ومثئما قلت لنا بنفسك - فقد نمت في السرير مع العديد من الرجال في مقابل أمور أقل .

فقالت موافقة على رأيه : أوه !! في مقابل أمور أقل بكثير .

- فأنت ترتدين الحلى الغالية الخاصة به . وأنت وحيدة في مدينة موحشة وكئيبة . والمطر ينهر مدراراً . وهو قد جذب انتباحك وسحرك - وتملّق الممثلة وألهم الإنسنة الثورية فكيف يمكن لك أن ترفضيه ؟

فأضافت مذكرة إياه : وهو قد أطعمنى أيضاً حتى ولو كنت فاقدة الشهية

للحوم .

« يمكننى القول إنه بمثابة كل شيء تحلم به فتاة غريبة تعانى من الملل والسام » .

فتمتّمت تشارلى وهي غير قادرة على النظر إليه « يا يوسف إكراما للسيد المسيح » .

فقال في انتعاش ونشاط وهو يشير إلى الفاتورة « إذن . إليك التهاني . لقد تقابلت مع خليلك وحببيك أخيراً » .

وظهرت وحشية غامضة على أسلوبه . هبط عليها إحساس بأن رضوخها أغضبه . شاهدته وهو يسدّد الفاتورة كما شاهدته وهو يضع الإيصال في جيبه . واتخذت خطوات خلفه خارجة إلى هواء الليل . وقالت لنفسها في تفكير : إنني الفتاة الموعودة بشخصين . إذا كنت تحبين يوسف تزوجي ميشيل فقد اقتادني إلى الوهم الخاص به والموجود على مسرح الواقع الحقيقي .

قال يوسف بطريقة عرضية لدى دخولهما إلى السيارة : « وفي السرير يقول هولك إن اسمه الحقيقي هو : سالم إلا أن ذلك الاسم يعتبر سراً هائلاً . فهو يفضل استخدام اسم : ميشيل وذلك لأسباب تتعلق بالأمن وأيضاً لسبب آخر وهو أنه حالياً يعتبر معجباً بعض الشيء بالتفسخ والانحطاط الأوربي .

- أحب سالم أكثر .

- ولكنك تستخدمني ميشيل .

وقالت لنفسها : هذا هو ما تقولونه جمِيعاً . إلَّا أن سلبيتها كانت بمثابة خداع حتى بالنسبة لنفسها . وكان باستطاعتها أن تشعر بالغضب وهو يتحرك في أسفل كيانها ويتضاعد تدريجياً لأعلى .

.....

كان الفندق عبارة عن كتلة من المباني المنخفضة . وفي بادئ الأمر لم يكن يوجد مكان لركن السيارة . وبعدئذ تحركت في تناقل عربة أتوبيس صغيرة فولكس فاجن للأمام من أجل أن تفسح لها مكاناً . فلمحت هيكيل ديمترى جالساً عند عجلة القيادة . ثم أمسكت بنباتات السحلبية على النحو الذي أوضحته لها يوسف وطلت تنتظر لحين أن فرغ من جذب الرداء الأحمر الخاص به على جسده ثم سارت وراءه عبر المساحة المرصوفة نحو الفراندة الأمامية إلَّا أنها كانت تحرص - على الرغم منها - أن توجد مسافة بينهما . وكان يوسف يحمل حقيبة الكتف الخاصة بها علامة على حمل حقيقته السوداء الأنique . اعطنى تلك الحقيقة فهى حقيقتي . وفي البهو ومن خلال زاوية عينها شاهدت راويل وراشيل واقفين تحت الإضاءة المنخفضة الضعيفة يقرآن الملاحظات التي تتعلق بجولات الغدّ . راحت تحملق فيهما . اتجه يوسف إلى المكتب فاقتربت منه وشاهدته يوقع في السجل رغم أنه كان قد نبهها إلى عدم الاقتراب الشديد منه . الجنسية لبنانية والاسم عربي والعنوان : شقة في بيروت . وأسلوبه ازدرازي : رجل له مركز اجتماعي رفيع ومستعد لأن يغضب في أي وقت . راحت تفكر في حزن واكتئاب : أنت على مايرام . كانت تحاول أن تكرهه . وألقى عليها المدير الليلي التفليز الظل نظرة مليئة بالشبق إلَّا أنه لم يظهر أى شيء من عدم الاحترام الذي اعتادت عليه . وكان الباب يحمل أمتعتها على عربة يد تروللى ضخمة من النوع الذى يوجد فى المستشفيات . إننى مرتدية قفطاناً أزرق اللون وسواراً جميلاً ذهبياً وملابس داخلية فاخرة مشتراه من محلات بيرسون

ميونيخ . ولسوف أقوم ببعضَ أول قروى يقول عنى إنى مومس . أمسك يوسف بذراعها . فحرقتْ يده بشرتها . فحررت نفسها منه . وسارا وراء أمتعتها فى نفق رمادى به أبواب مطلية بالباستيل بينما كانت أغنية جريجورية تنساب من شريط تسجيل . وكانت غرفة النوم الخاصة بهما مزودة بسريرين وفاخرة ولوكس ومعقمة مثل مسرح فى حالة تشغيل .

انفجرت قائلة «يا الله !» وهى تحملق حولها فى عداء أسود .

التفت الباب إليها فى دهشة . إلا أنها تجاهله . وشاهدت سلطانية مليئة بالفواكه وجردلاً مليئاً بالثلج علاوة على وجود كأسين وزجاجة فودكا إلى جوار السرير . وزهرية من أجل نباتات السحلبية ، فوضعت نباتات السحلبية في الزهرية ، وأعطى يوسف بقشيشاً للباب وصدر صراخ عن الترولى أثناء الرحيل . وفجأة أصبحا بمفردهما مع السرير الذى له حجم ملعب كرة القدم ومع إطارين للوحتين عن ثيران مرسومة بالفحم تعبان عن جو مليء بالأمور الجنسية ومع شرفة تتطل على جراج السيارات . فأمسكت تشارلى بزجاجة الفودكا وأخرجتها من الجردن وصبت لنفسها كأساً . ثم ألقت بنفسها على حافة السرير .

وقالت : «في صحتك أيها الرجل العجوز»

كان يوسف ما زال واقفاً حيث راح يرقبها بدون أن تظهر على وجهه أية تعبيرات معينة . ثم قال «في صحتك يا تشارلى» ، رغم أنه لم يكن ممسكا بالكأس .

تصاعد صوتها قائلة : إذن ما الذى نفعه الآن ؟ هل نلعب لعبة الاحتقار ؟ أم أن هذا هو المشهد الكبير الذى اشترينا التذاكر من أجله ؟ أعني منْ نكون نحن بالنسبة لهذا ؟ مجرد المعرفة والمعلومات . منْ نكون نحن ؟

- أنت تعرفين جداً يا تشارلى منْ نحن . نحن عشيقان يستمتعان بشهر العسل اليونانى الخاص بهما .

- لقد ظننت أنتا موجودان في فندق .

- نحن نلعب كلا الدورين فى آن واحد . كنت أعتقد أنك تدركين ذلك . نحن نرسخ حالياً الماضي والحاضر .

- لأننا نعاني من النقص في الزمن .

- دعينا نقول إن حياة الأدميين عرضة للأخطار .

قامت تشارلى بجذب زجاجة الفودكا مرة أخرى . ويدها راسخة وثابتة مثل الصخرة فهكذا تكون يدها عندما تتضاعد الحالة النفسية السوداء في داخل كيانها ثم صحت له عبارته بأن قالت « لأن حياة الأدميين اليهود في خطر » .

- وهل حياة اليهود مختلفة عن حياة الآخرين ؟

- إننى أقول إنها مختلفة ! يا الهى !! أعنى أن كيسنجر باستطاعته أن يتصف الكمبوديين المساكين إلى أن تعود الأبقار إلى موطنها . ولا أحد يرفع إصبعاً . والإسرائيليون باستطاعتهم تقطيع أجساد الفلسطينيين إرباً إرباً في أي وقت يشأون . ولكن اذا قُتل اثنان من حاخامات اليهود في فرانكفورت أو في أي مكان آخر فإن ذلك يعتبر بمثابة كارثة دولية من الدرجة الأولى . أليس كذلك ؟ وكانت تحملق أمامها إلى ما وراءه نحو عدوٍ خيالي .

ولكنها شاهدته من زاوية عينها يتخذ خطوة في اتجاهها . ثم يتخطاها سائراً نحو النافذة . وبعدئذ فتح النافذة وربما كان يرغب في أن يجعل صوت حركة المرور بالشارع تغطى على صوتها المرتفع .

وردَ في صوت يخلو من العاطفة وهو ينظر إلى الخارج من النافذة : إنها كلها بمثابة كوارث . أسأليني عن المشاعر التي يحس بها سكان كيريات شمونه عندما تتتساقط قذائف الفلسطينيين عليهم . إسألني السكان في الكيبوتس لكي يحكوا لك عن صرير وأصوات صواريخ الكاتيوشا حيث يتتساقط . صاروخاً في كل مرة . بينما هم يخبيئون أطفالهم في الملاجئ متظاهرين بأن المسألة ليست سوى لعبة يلعبونها . وعلى كل حال في المرة التالية التي تسوقين فيها تلك المجادلة والحجة

فإننى أقترح عليك أن تتذكري أن كيسنجر نفسه رجل يهودى . وذلك أيضا له مكان فى المفردات السياسية اللغوية الأساسية لدى ميشيل إلى حد ما .

ووضعت عقلات أصابعها فى فمها واكتشفت أنها تبكي . فجاء إليها وجلس إلى جوارها على السرير . وانتظرت منه أن يلف ذراعه حولها أو يعرض عليها مناقشات تتسم بالزىد من الحكمة أو يستحوذ عليها بكل بساطة وهو الإجراء الذى تفضله أكثر . إلا أنه لم يفعل أى شئ من هذا القبيل . إذ كان مقتنعا بأن يدعها تحزن وتتفجع إلى أن يتكون لديها تدريجيا التخيل بأنه قد لحق بها فى أحزانها على نحو ما وأنهما أصبحا يتפגعان سويا . وبدا على صمته وكأنه يلطف مما كان ينبغي عليهم أن يفعلاه . وظلا على ذلك النحو لفترات طويلة للغاية جالسين إلى جوار بعضهما إلى أن سمحت لبكائهما أن يتحول إلى تنهيدة عميقه مليئة بالإرهاق . ولكنه كان لايزال ملتزما بعدم التحرك . سواء فى اتجاهها أو بعيدا عنها .

همست فى يأس وهى تمسك بيده مرة أخرى : من تكون أنت بحق الجحيم يا يوسف ؟ وما الذى تشعر به فى داخل كافة تلك الشراك والورطات المحاطة بالأسلاك الشائكة ؟ .

رفعت رأسها وبدأت تصفى لأصوات الحيوان الأخرى المنبعثة من الغرف المجاورة . البقية المليئة بالتبريم الصادرة عن طفل يعاني من الأرق . ومناقشات حادة بين زوج وزوجته . ثم سمعت وقع أقدام فى الشرفة فحملقت حولها فى الوقت المناسب فشاهدت راشيل . ترتدى بدلة مصنوعة من قماش المناشف . وتحمل فى يدها حقيبة اسفنج وورق ترموس . وخطت من العتبة إلى داخل الغرفة .

..

وكانت راقدة ومستيقظة ، إذ كانت تشعر بالإرهاق الشديد مما أطار النوم من عينيها . لم تكن نوتنجهام على هذا النحو على الإطلاق . ومن الباب المجاور تراهى صوت مكتوم لشخص يتكلم فى التليفون . واعتقدت أنها تعرفت على صوت الشخص الذى يتكلم . إنها كانت مستلقية بين ذراعي ميشيل وإنها مستلقية بين

ذراعي يوسف . وشعرت بالاشتياق إلى «آل» لقد كانت في نوتها مع الحبِّ
الخاص ب حياته وكانت آمنة في السرير الخاص بها في كامدين موجودة في الغرفة
التي كانت أمها اللعينة مازالت تسمى غرفة الحضانة ترقد كطفلة عقب قيام
حصانها بإلقائها بعيداً وتشاهد عرضاً لحياتها وتتجول في داخل ذهنها تستكشف
جسدها على نحو تجريبى وتحفص كل جزء لمعرفة مدى الدمار الذي لحق به .
وعلى مسافة ميل عند الجانب الآخر من السرير كانت راشيل تقرأ كتاباً لتوomas
هاردى تحت ضوء مصباح صغير .

تساءلت تشارلى: منْ هى الإنسانة التي حصل عليها يا راشيل ؟ ومنْ هى
التي تحيك له جواربه وتنظف له الغليون الخاص به ؟

- أليس من الأفضل أن توجهى له هذا التساؤل يا عزيزتى ؟

- ألسنت أنت التي تقومين بذلك ؟

- هذا لن يأتي بالنتيجة المرجوة .. ليس على المدى البعيد .

وانغمست تشارلى في نعاس خفيف وهي مازالت تحاول فهم جوانب
شخصيتها . ثم قالت : لقد كان مقاتلاً .

قالت راشيل في تأكيد : أفضل المقاتلين . ومازال .

- كيف كان يختار مشاجراته ومعاركه إذن ؟

فقالت راشيل وهي مازالت غارقة في كتابها : كانت المعارك تُختار له لكن
يخوضها . أليس كذلك ؟

قالت تشارلى : لقد كان له زوجة ذات يوم ؟ بما الذي حدث لها ؟

ردت راشيل : أسفه . يا عزيزتى .

علقت تشارلى في تأمل : إن المرء ليسأل نفسه .

هل هي قفزت أم أنها دُفعت ؟ أقول أن إنساناً لعبناً دفعها . يا لها من
إنسانة مسكونة . لقد كان ينبغي عليها أن تكون متلونة كالحرباء من أجل أن تستقل
أتوبيساً معه .

ولاذت بالصمت والسكون لبعض الوقت .

ثم تسأعلت «يا راشيل .. كيف دخلت في هذا القدر أو القسمة ؟ » ولدهشتها وضعت راشيل الكتاب وتحدثت معها . لقد كان والدها من اليهود الأرثوذوكس في بوميرانيا . ثم استقرا في ماسليفيلد عقب انتهاء الحرب . وأصبحا من الأثرياء في صناعة النسيج . وكان لهما فروع تجارية في أوروبا . كما كان لهما شقة فوق سطح عمارة في القدس . وكانوا يريدان لراشيل أن تلتحق بجامعة أكسفورد ثم تعمل في الشركة التجارية الخاصة بالعائلة الا أنها فضلت القيام بدراسة التوراة والإنجيل والتاريخ اليهودي في الجامعة العبرية .

عندما سألتها تشارلى عن الخطوات التي حدثت بعد ذلك قالت راشيل ثم حدث ما حدث .

أصرت تشارلى : ولكن كيف ؟ ولماذا ؟ ومن الذي اختارك يا راشيل ؟ وما الذي قالوه لك ؟

لم تتحدث راشيل عن كيف أو من . ولكنها راحت تتحدث عن الأسباب . وقالت إنها كانت تعرف أوروبا معرفة جيدة . وكانت تدرك مدى العداء الموجود ضد السامية وأرادت أن تبين لأبطال حرب الصابرا بالجامعة أنها باستطاعتها أن تقاتل أيضا مثل أى ولد لصالح إسرائيل .

فتتساءلت تشارلى : وماهى حكاية روز ؟

قالت راشيل إن روز انسانة معقدة كما لو كانت راشيل نفسها ليست معقدة . وقالت إن روز أنشأت حركة الشباب الصهيوني في جنوب إفريقيا . ثم جاءت إلى إسرائيل وهى لا تدرى عمما إذا كان ينبغي عليها البقاء في جنوب إفريقيا من أجل أن تحارب التفرقة العنصرية .

وأضافت راشيل في توضيح : إنها تبذل جهوداً مضنية لأنها لا تعرف أى الأمور التي ينبغي عليها أن تفعلها ولكن تخضع حداً نهائياً للحوار والمناقشات فإنها عادت إلى كتابها «عمدة كاستر بردرج» بقلم توماس هاردي .

راحت تشارلى تفكّر : هذا قدر كبير من المثل العليا . منذ يومين فقط، لم يكن لدى مثل هذا الإفراط والقدر الكبير من المثل . وساعلت نفسها في تعجب : هل لدى أى منها الآن ؟ هذه الأسئلة ينبغي أن توجهها إلى نفسها في الصباح . ولبعض الوقت انغمست في المانشetas والعناوين الرئيسية بينما النعاس يغلبها «أنت شهيرة خيالية تواجه الحقيقة الواقعة» . «جان دارك تحرق شاباً فلسطينياً نشطاً» . حسناً يا تشارلى حسناً . تصبحين على خير . طابت لي ليلتك .

..

كانت غرفة بيكار تقع على مسافة ياردات قليلة في الطرقة وكان يوجد بالغرفة سريران . وكان مستلقياً على سرير محملاً في السرير الآخر . بينما التليفون موجود على المنضدة التي تقع بين السريرين . بعد عشر دقائق ستتصبح الساعة الواحدة والنصف . وكان الوقت المحدد هو الواحدة والنصف . وكان الباب في نوبته الليلية قد حصل على البخشيش الخاص به . ولذلك وعد بأن يقوم بتوصيل المكالمة التليفونية على الفور . وكان بيكار شديد التيقظ كعادته دائماً في مثل هذا الوقت من الليل . ودقَّ جرس التليفون في الموعد المحدد وحياة صوت كيرتز على الفور . أين يوجد هذا الرجل ؟ هكذا سائل بيكار نفسه في تعجب . وسمع بيكار صوت موسيقى مسجلة متراوحة وراء صوت كيرتز فخطر على ذهنه أن كيرتز موجود في فندق . وكان مصرياً في توقعه . وتذكر أنه يتحدث من ألمانيا . فندق في ألمانيا يتحدث مع فندق في دلفي . كان كيرتز يتحدث باللغة الانجليزية لأنها لغة أقل وضوها بالنسبة للآخرين . وكان يتحدث بطريقة عرضية هادئة وعلى نحو لا يثير انتباه أي شخص يسترق السمع . وقال بيكار مؤكداً له : «نعم كل شيء يسير على ما يرام . فالصفقة تسير على نحو جيد ، ولا توجد عقبات في الطريق ثم تسأله بيكار : وماذا عن الإنتاج الأخير ؟ »

رد كيرتز في تأكيد نحن نحصل على قدر كبير من التعاون من الدرجة الأولى . عليك بالذهاب مباشرة إلى المستودع وفقاً لما يتراوح لك ومن المؤكد أنك لن تصاب بالاحباط فيما يتعلق بالإنتاج . وهناك شيء آخر .

ونادراً ما كان بيكار يستكمل محادثاته التليفونية مع كيرتز بوجه عام. لقد كان ذلك شيئاً قد ينبع بينهما . حيث يتنافس كل منهما لكي يكون هو أول من ينهي المكالمة مع رفيقه . إلا أن كيرتز في هذه المرة راح يصفى حتى النهاية وكذلك فعل بيكار . ولكن عندما وضع بيكار سمعة التليفون شاهد ملامع وجهه الجذابة في المرأة . وراح يحملق في تلك الملامع في كراهية شديدة . واجتاحته رغبة كثيرة وساحقة في تحطيم تلك الملامع تحطيمها نهائياً : من تكون أنت بحق الجحيم ؟ .. وما الذي تشعر به ؟ واقترب أكثر من المرأة . إنني أشعر كأنني أنظر إلى صديق ميت أملأ أن تدب فيه الحياة من جديد أشعر وكأنني أبحث عن آمال القديمة في شخص ما آخر دون جدوى . أشعر أنت ممثل - مثلاً أنت ممثل - وأحيط نفسي بنسخ معدلة من هويتي لأن النسخة الأصلية تعرضت على نحو ما لفقدان في الطريق . ولكنى في حقيقة الأمر لا أشعر بأى شئ لأن الشعور الحقيقي هو شعور مدمر ومُخرب ومتعارض مع أسلوب النظام العسكري . ولذلك أشعر وأنا أحارب إنني موجود .

وفي المدينة سار في تلهف ونفاد صبر بخطوات واسعة وهو ينظر في جمود أمامه كأنما المشى يسبب له الضيق والتبرّم . لقد كانت مدينة تنتظر الهجوم عليها . وعلى مدى عشرين عاماً أو أكثر فإنه عرف مدننا كثيرة للغاية تمر بتلك الحالة . حيث لم يكن هناك طفل يمكن سماع صوته بعد أن هرب الناس من الشوارع . إهدموا البيوت والمنازل . واطلقوا النيران على أي شئ يتحرك . وكانت عربات وأتوبيسات السياح قد وقفت في إهمال بعد أن تركها أصحابها . والله وحده هو الذي يعرف متى سيراها أصحابها في المرة القادمة . ومن وقت لآخر كانت نظراته السريعة تنزلق نحو مدخل مفتوح أو نحو مدخل يؤدي إلى طرقة غير مضاءة ولكن ملاحظة الأمور كانت من الخصال التي اعتاد عليها . ولم تضعف خطواته الواسعة السريعة . ثم وصل إلى شارع جانبي ورفع رأسه لكي يقرأ الاسم ولكنه تجاوزه مرة أخرى قبل أن يتوجه بسرعة إلى مكان يشغله مبني . وكان هناك أتوبيس صغير واقفاً بين كومات عالية من الطوب . وهناك موسيقى خافتة تتراقص من داخل

المبني ، فتح الباب . وعندئذ شاهد ماسورة مسدس موجهة نحو وجهه مثل عين واحدة تتفحصه . ثم اختفت الماسورة . وقال صوت متسم بالرزانة والاحترام «شالوم» فاتخذ خطوات إلى داخل المبني . ثم أغلق الباب وراءه . ولم تغطِّ الموسيقى تماماً على صوت الآلة الكاتبة الصغيرة . لقد كان دافيد وهو العامل التابع لبيت أثينا منحنياً على الآلة الكاتبة . واصطحبه ولدان من أتباع ليتفاك . وأواماً بيكار برأسه للتحية . ثم جلس على المهد الخشبي الطويل المبطّن وشرع في قراءة لفقة كبيرة من مقتطفات الصحف التي وضعت على جانب لعرضها عليه عقب وصوله .

كان الولدان ينظران إليه في احترام وتبجيل ، وأحس بهما وهم يحضيان شرائطه وميدالياته في داخل عقليهما الجائعين . وربما كانوا يعرفان أعماله البطولية على نحو يفوق معرفته شخصياً بها .

قال الولد الأكثر جرأة من زميله «إنها جميلة الشكل يا جادى» .

تجاهله بيكار . وكان في بعض الأحيان يضع خطا تحت فقرة معينة وأحياناً أخرى يضع خطا تحت تاريخ معين . وبعد أن فرغ من القراءة أعطى الأوراق للولدين وجعلهما يختبرانه إلى أن أصبح مقتنعاً بأنه يعرف جيداً كل شيء .

وعندما خرج ومرّ بجوار النافذة سمع على الرغم منه أصواتهما المليئة بالبهجة حيث يتناقشان بشأن شخصيته .

قال الولد الجريء «إن الروك قد منحه سلطات واسعة للغاية في إدارة مصنع جديد ضخم للمنسوجات بالقرب من حيفا» .

فقال الولد الآخر «عظيم ، إذن هيا بنا نقدم استقالتنا ونجعل الروك جافرون يحولنا إلى مليونيرات» .

الفصل الحادى عشر

ومن أجل تدعيم الصداقة من جديد مع الدكتور أليكسيس الطيب فى نفس تلك الليلة - وهو أمر ممنوع ولكنه حيوى - اتخذ كيرتز اتجاهها يتسم بالألفة والزماله بين المهنيين علاوة على الاتسام بالصداقة القديمة . لقد تقاولا - بناء على اقتراح من كيرتز - ليس فى فيز بادن ولكن فى قلب مدينة فرانكفورت حيث الجماهير أكثر ثقافة . وتجولا . تم اللقاء فى فندق كبير كان يستضيف فى خلال ذلك الأسبوع مؤتمرا يضم رجال الصناعات الخفيفة . وكان أليكسيس قد اقترح عقد اللقاء فى منزله الخاص به ولكن كيرتز رفض هذه الفكرة فى تلميح أدرك أليكسيس كنهه على الفور .

كانت الساعة تدق العاشرة ليلاً عندما تقاولا وحيث كانت معظم الوفود بالمؤتمر قد انتشرت فى المدينة بحثا عن تشكيلات أخرى من الصناعات الخفيفة . وكانت ثلاثة اربع الأماكن فى البار شاغرة وكانت الموسيقى الخفيفة تتبع من جهاز ستيريو . ولكن الرجل المسئول عن البار جلس يستمع إلى موسيقى من العزف المنفرد للموسيقار باخ من جهاز الراديو الترانزستور الخاص به .

وفى خلال الوقت الذى انقضى منذ أن تقاولا لأول مرة كان العفريت الموجود فى داخل كيان أليكسيس قد خلد إلى النوم على ما يبدو فى نهاية الأمر . وكانت الظلل الخفيفة الأولى للفشل تخيم عليه مثل البوادر الأولى للمرض وبحيث اتخذت ابتسامته التليفزيونية توافضاً جديداً غير لائق . أحضر كيرتز معه تذكارا حقيقيا من القدس ، أحضر زجاجة مليئة بالمياه العكرة بها بطاقة تفيد بأنها مأخوذة من نهر الأردن . وكان كيرتز قد سمع أن الزوجة الجديدة السيدة أليكسيس تنتظر مولوداً . وبالتالي عمل الترتيبات لإحضار هذه المياه لها . وكانت هذه لفتة كريمة جعلت أليكسيس يشعر بالامتنان .

قال أليكسيس عندما حملق في الزجاجة في دهشة :

- لكنك علمت بهذا الأمر قبل أن أعرف . بل إنني لم أبلغ هيئة العاملين بمكتبي حتى الآن بذلك .

قال كيرتز : «أخبرهم عندما تتم الولادة» ثم شربا نخب ابن الدكتور أليكسيس الذي لم يولد بعد مع التمنيات له بمستقبل باهر .

قال كيرتز «يقولون إنك تقوم في هذه الأيام بدور المنسق العام» .
فرد أليكسيس في وقار : «إنني أشرف على المنسقين» .

وارتشف كل منهما رشفة تذكارية من الخمور مرة أخرى . واتفقا أن يخاطب كل منهما الآخر باسمه الأول . إلا أن كيرتز احتفظ بالأسلوب الرسمي إذ لم يكن يرغب في تقويض سلطوته وهيمنته على أليكسيس .

تساءل كيرتز «هل لي أن أسألك عن الأمور التي تقوم بتنسيقها يا بول؟
يا سيد شولمان ينبغي أن أقول لك إن العلاقة مع الخدمات الودية لم تعد واردة ضمن واجباتي الرسمية .

ولكن بدلاً من ذلك راح كيرتز يخمن إلا أنه لم يكن تخمينا على الإطلاق «أن المنسق تكون له مسؤوليات إدارية بالنسبة لأمور حيوية كالنقل والمواصلات والتدريب والتجنيد علاوة على المسؤوليات المالية لقطاعات التشغيل وأيضاً بالنسبة لتبادل المعلومات بين الوكالة الفيدرالية ووكالة الدولة» .

وذهب أليكسيس من نوعية المعلومات الموجودة لدى كيرتز الذي يستمع لوجهة نظر أليكسيس في تعاطف مليء بالاحترام وبعد أن تبادلا أطراف الحديث على نحو مستحب قال كيرتز «هل تعرف يا بول إنني كنت أعمل منسقا ذات يوم . وكان رئيسي في العمل يعتقد أنني ولد مشاغب ومتسم بالشقاوة ولذلك جعلني منسقا وبعد ذلك شعرت بالملل الشديد وبعد شهر كتبت خطاباً للجنرال جافرون أخبرته رسمياً أنه شخص ردئ .

يا جنرال أقول لك هذا الكلام بصفة رسمية . إن مارتن شولمان يقول إنك انسان ردئ وصاحب ومعبد . فاستدعاني . هل سبق لك أن تقابلت مع جافرون هذا ؟ لا ؟ إنه شخص ضئيل الحجم خارج على جماعته . وله كتلة شعر كثيفة . ولا يوجد هناء أو سلام في داخل كيانه . إنه يموج بالقلق دائما . ويصرخ في وجهي (يا شولمان ماذا تقول بحق الجحيم ؟ بعد مرور شهر واحد تصنفي بأنني انسان ردئ ؟) كيف اكتشفت هذا السر المظلم الخاص بي ؟) وكان صوته معطوباً ومشروحاً .
وكأن شخصاً ما رماه في عزف على الأرض عندما كان صغيراً . فقلت له :

يا سيدي الجنرال . لو كان لديك قدر ضئيل من احترام الذات لبادرت إلى تخفيض رتبتي وإعادتني إلى الوحدة القديمة التي كنت فيها حيث لا أستطيع أن أسبك علينا مرة أخرى هل تعرف ما الذي فعله ميشا ؟ لقد طردني . وبعد ذلك قام بترقيتي . وبذلك رجعت إلى الوحدة السابقة الخاصة بي .

وكانت هذه قصة مسلية للغاية حيث إنها ذكرت أليكسيس بالأيام الماضية الخاصة به عندما كان شخصاً خارجاً على الجماعة بين المسؤولين عن النظام الإداري في بون . وكان من الطبيعي أن ينتقل الحديث بينهما إلى الاعتداء الشنيع الذي حدث في بادنسبurg والذي كان سبباً في تعرفهما على بعضهما البعض .

قال كيرتز معلقاً : سمعت أنهم يحزنون بعض التقدم في نهاية الأمر . وتمكنوا من معرفة أن الفتاة قد ذهبت إلى مطار أودل بباريس . وهذا في حد ذاته يعتبر اختراقاً حتى وإن كانوا لا يعرفون حتى الآن من تكون الفتاة .

لم يكن أليكسيس متوقراً قليلاً لدى سماعه هذا المديح المقسم بالاستهان الصادر عن شفتى شخص ما يكن له قدرًا كبيراً من الإعجاب والتقدير . وقال «أتسمى بذلك اختراقاً ؟ لقد حصلت بالأمس على أحد تحليل صدر عنهم . فتاة ما تطير من مطار أودل إلى مطار كولونيا في نفس يوم تفجير القنبلة . ويعتقدون أنها كانت ترتدى «بنطلون جينز» . ويظنون أنها كانت تتضع «إيشارب» حريري على رأسها . ولها قوام جميل . وربما تكون شقراء . إلا أن الفرنسيين لا يستطيعون التأكيد بأنها أقلعت على متن الطائرة . أو يقولون إنهم لا يستطيعون ذلك .

قال كيرتز «ربما السبب في ذلك هو أنها لم تصعد إلى الطائرة المتجهة إلى كولونيا . يا بول» .

رد أليكسيس معترضاً : «كيف تطير هي إلى كولونيا بينما لم تصعد إلى الطائرة المتجهة إلى كولونيا ؟ إن أولئك المعتوهين لم يكن بمقدورهم اقتداء أثر فيل بين كومة من نبات الكاكاو .

كانت المناضد المجاورة مازالت شاغرة . وما كان ينبعث من موسيقى باخ من الراديو الترانزistor علاوة على موسيقى أوكلادوما عبر مكبرات الصوت كان كافيا للتغطية على العديد من أصوات المناقشات بين الناس ، قال كيرتز في نفاذ صبر : فلنفترض أنها تأخذ تذكرة للذهاب إلى مكان ما آخر . من أجل الذهاب إلى مدريد على سبيل المثال . إنها تصعد على متن الطائرة في أورلي ولكنها تأخذ تذكرة إلى مدريد .

فتقبل أليكسيس هذا الافتراض الجدل .

إنها تحصل على تذكرة أورلي / مدريد وعندما تصل إلى أورلي فإنها تسجل اسمها من أجل الذهاب إلى مدريد . ثم تذهب إلى صالة المغادرة ومعها بطاقة الركوب ل مدريد . ثم تختار مكاناً معيناً تنتظر فيه وربما تختار مكاناً قريباً من بوابة مغادرة معينة . ولم لا ؟ ولنفترض أنها انتظرت عند بوابة المغادرة رقم ١٨ . ثم تقترب منها فتاة وتتحدث معها بالكلمات المتفق عليها . وبعدئذ تذهب الفتاتان إلى غرفة التواليت الخاصة بالسيدات وتقومان باستبدال التذاكر على نحو منظم تماماً . تنظيمياً لطيفاً بالفعل . وتتبادلان جوازَ السفر أيضاً . اذ لا توجد مشكلة في هذا الشأن بالنسبة للفتيات . فالملكياج والباروكـة - يا بول - يجعل جميع الفتيات الجميلات متشابهات تماماً أمام مناظيرك حتى ولو قمت بتدقيق النظر .

وشعر أليكسيس بالغبطة لدى سماعه هذه الحكمة أو القول المأثور نظراً لأنه قد توصل أخيراً إلى نفس هذا الرأي الكثيب فيما يتعلق بزواجه الثاني . إلا أنه لم يمنع النظر في هذا الأمر لأنه أحس بالفعل بأنه على وشك أن يسمع بعض

المعلومات المهمة الخطيرة . فتيقظ رجل الشرطة الموجود في داخل كيانه مرة أخرى . وتساءل « وماذا بعد أن تصل هي إلى بون ؟ ». ثم أشعل سيجارة لنفسه .

- إنها تحصل حاملة معها جواز سفر بلجيكيا . جواز سفر مزورا . وهو واحد من جوازات السفر الكثيرة التي زيفت في ألمانيا الشرقية . ويقابلها في المطار ولد مُلتح يركب دراجة بخارية مسروقة ولها لوحات مزيفة . إنه شاب طويل نو الحية : وذلك هو كل ما تعرفه الفتاة . وذلك هو كل ما يعرفه أي شخص . لأن هؤلاء الناس ممتازون في الأمور السرية والأمن . وهو أيضا لم يخلع خوذته على الإطلاق . هؤلاء الناس ممتازون من حيث الالتزام بالنواحي السرية . ويمكنني القول إنهم مشهورون في هذا الشأن .

قال أليكسيس إنه سبق له أن لاحظ ذلك بالفعل . واستطرد كيرتز « إن مهمة الولد في هذه العملية أن يخرج فجأة عن الطريق الذي كان يسير فيه .. وذلك هو كل ما عليه أن يفعله . إنه يكسر الدائرة . ويتقابل مع الفتاة ويتأكد أن أحدا لا يتبعها . ويقتفي أثراها . ويضعها على دراجته البخارية وينطلق بها لبعض الوقت . وياخذها إلى المنزل الآمن من أجل تزويدها بالتعليمات وتوجد مزرعة بالقرب من مهليم بمثابة حظيرة تقع عند نهاية الممر الجنوبي . وهذا المر يتجه في خط مستقيم إلى أن يلتقي مع الطريق السريع . وتحت غرف المبيت يوجد جراج به سيارة أوبل في حالة انتظار . واللوحات مسجلة في سالزبورج وبداخلها سائق في حالة استعداد وممسك بعجلة القيادة .

وفي هذه المرة أصيب أليكسيس بالبهجة المشوية بالذهول وقال بصوت منخفض : « إنه أخمان انه ذلك الرجل الذي يسمى أخمان وهو من أهالي دوسلدورف وهو خبير في الشئون العامة ! هل نحن مجانيين ؟ لماذا لم يفكر أي شخص في هذا الرجل ؟

فقال كيرتز موافقا على رأي تلميذه « نعم هو أخمان والمزرعة من ممتلكات الدكتور أخمان الذي هو من أهالي دوسلدورف والذي تملك أسرته المشهورة شركة

مزدهرة تعمل في مجال تجارة الأخشاب ، كما تمتلك بعض دور الصحف وال محلات ، علاوة على سلسلة من المحلات المتخصصة في بيع الكتب الأدبية الإباحية . و كنشاط إضافي فإنه يصدر وينشر أيضاً تقاويم رومانتيكية عن المناظر الطبيعية الألمانية . وهذه الحظيرة من ممتلكات ابنة الدكتور أخمان والتي تسمى أنجي . ولقد شهدت هذه الحظيرة العديد من المؤتمرات التي تتناول الأمور المتطرفة والتي يحضرها أثرياء متحررون من الأوهام ، يبحثون بعمق في طبيعة النفس البشرية . وفي خلال الفترة التي تخضنا أجرّت إنجي هذا المنزل لصديق في مسيس الحاجة إلى المنزل .. فهو ولد له عشيقه .

فاستكمل أليكسيس العبارة له في إعجاب قائلًا : إلى ما لانهاية .
ردد أليكسيس : هل لي أن أسألك عن الأساس الذي وضعته لهذه النظريات المثيرة ؟

تظهر كيرتز بالانغماس في التفكير رغم أن المعلومات التي حصل عليها من يانوكا كانت واضحة في ذهنه تماماً كما لو كان لا يزال جالساً مع يانوكا في ميونيخ في زنزانته المبطنة الحوائط وقد أمسك برأسه أثناء انحرافه في السعال والبكاء . ثم قال : حسناً يا بول لدينا رقم الرخصة الخاصة بالسيارة الأول ولدينا صورة من عقد استئجار السيارة ، ولدينا شهادة خطية موقع عليها من أحد المشاركين .

- والولد الملتحى يترك الفتاة عند حظيرة السيارات ويرحل ولا يشاهد مرة أخرى على الإطلاق . وتقوم الفتاة بتغيير ملابسها وترتدى ثوبها الأزرق الجميل وتضع على رأسها الباروكية الخاصة بها وتجعل من نفسها فتاة جميلة للغاية وبطريقة محسوبة بحيث تدخل السرور على الملحق العمالى الساذج سهل الانقياد . وتدخل إلى السيارة الأول . ويقوم شاب آخر بقيادة السيارة الأول إلى المنزل المراد أو الهدف . وفي أثناء الطريق يتوقفان بالسيارة من أجل تطعيم القنبلة بالفتيل . عظيم ؟

فتساول أليكسيس في شغف : وهل تعرف هذا الولد أم هو شخص غامض بالنسبة لها ؟

ونظرا لأن كيرتز يرفض التوسع في الدور الذي قام به يانوكا فإنه شعر أن السؤال معلقا بدون إجابة . فاكتفى بالابتسام . ومع ذلك فإن تملصه من الإجابة لم يسبب الإساعة لأليكسيس لأنه آتى ذلك كأن يتحرق شوقا لسماع كافة التفاصيل ولم يكن يتوقع لأن ثلبَي رغبته في كل مرة .

استطرد كيرتز قائلا «وتم استكمال المهمة . ويقوم نفس السائق بتغيير أرقام اللوحات والأوراق ويدهب بالفتاة إلى منتجع راينلاد للمياه المعدنية الموجودة في باد نيوناهر حيث ينزلها هناك .

- وماذا بعدئذ ؟

وبدا كيرتز يتحدث في ببطء شديد كأن كل كلمة صارت تشكل خطاً جسيماً على خطته المعددة : وهناك يمكنني القول - من خلال التخمين - إن الفتاة يتم تعريفها على شخص سرى معين معجب بها - شخص ما ربما يتم تدريبه على دورها بعض الشئ في ذلك اليوم . فمثلاً من حيث القيام بتسليح القنبلة . وكيفية تشغيل جهاز التوقيت . وتجهيز قنبلة من طراز «شرك الغفلة» ومن باب التخمين يمكنني القول إن نفس ذلك الشخص المعجب بها استأجر بالفعل غرفة في فندق في مكان ما . وإنهما تحت حافز من الإنجاز المشترك الخاص بهما قد انهمكا في الكثير من ممارسات الحب العاطفية بينهما . وفي صباح اليوم التالي وبينما كانوا مستغرقين في النوم عقب الانغماس في ملذاتهما انفجرت القنبلة في موعد متأخر عن الوقت المفترض لها ولكن منْ يهتم ؟

فإنحنى أليكسيس بسرعة للأمام وقال «والأخ يا مارتي / ذلك المحارب العظيم الذي سبق له أن قتل الكثرين من الإسرائيelin بالفعل ؟ أين كان هو أثناء كل ذلك ؟ أظن أنه كان في باد نيوناهر يقضى وقتاً ممتعاً ومسليناً مع الفتاة الصغيرة التي أعددت القنبلة ؟ أليس كذلك ؟

اتخذت ملامح كيرتز طابعاً من السلبية الصارمة وقال : بعض النظر عن المكان الذي توجد فيه فإنه أدار عملية فعالة ومقسمة إلى مراحل وفقاً لخطة موضوعة مع تفحص كل شيء بدقة فالولد الملتحى لديه أوصاف الفتاة وليس أكثر بل وليس له علم بالهدف على الإطلاق . والفتاة كانت تعرف رقم لوحة دراجته البخارية وسائق السيارة كان يعرف الهدف ولكنه لا يعرف الولد الملتحى . والعملية كانت مخططة بأسلوب دقيق .

وبعد ذلك بدا على كيرتز وكأنه أصيب بصمم في أنفيه وهو يواجه المزيد من الأسئلة العقيمة . وشعر أن الأمر يستلزم المزيد من الويسكي وحقيقة الأمر أن الدكتور الطيب كان يعاني من نقص في الأوكسجين . وبدا الأمر وكأن حياته قد أمضها في الحضيض وخاصة في الفترة الأخيرة . ولكن الآن وعلى نحو فجائي كان شولان يدفعه ويسوقه نحو مرتفعت لم يكن يحلم بها على الإطلاق .

قال أليكسيس في شيء من الاستفزاز : أنت موجود هنا في ألمانيا لكي تنقل هذه المعلومات إلى زملائك الألمان الرسميين على ما أظن .

لكن كيرتز لم يردّ . ولاذ بصمت طويل مليء بالتفكير وبدا وكأنه في خلال ذلك الصمت يختبر أليكسيس بعيئه وأفكاره وبعدئذ قام بتلك الحركة التي كثيرة ما أثارت إعجاب أليكسيس حيث شمرَ عن كُمه . ورفع معصمه لأعلى لكي يتأمل في ساعته . وهذه الحركة جعلت أليكسيس يدرك أنه في حين أن وقته أخذ في الانحسار بعيداً أمام عينيه إلا أنه لا يوجد هناك أبداً وقت كاف بالنسبة لكيرتز .

قال أليكسيس «أؤكد لك أن كولونيا ستكون ممتنة وشاكرة لك . وخليفتي في الوظيفة ممتاز ، هل تتذكره يا مارتى ؟ سوف يحرز نصراً شخصياً هائلاً . فهو من خلال مساعدة وسائل الإعلام الكبرى سيصبح أشهر رجل شرطة في ألمانيا الغربية . أليس كذلك ؟ والفضل كله يرجع إليك .

وابتسم كيرتز ابتسامة عريضة تسلّم بأن الأمر هكذا . ثم أخذ رشبة صغيرة من كأس الويسكي ومسح شفتيه بمنديله الكاكي الخاص به ثم وضع ذقنه

في راحة يده . وأطلق تتهيدة تفيد ضمناً أنه لم يكن يقصد أن يقول هذا ولكن طالما أن أليكسيس أثار هذه النقطة فإنه ليس لديه مانع من التحدث بشأنها قال معتبراً : قد أعطت إسرائيل قدراً كبيراً من التفكير لهذه المسألة يا بول . ولسنا متاكدين تماماً من أن خليفتك من النوع الذي يحظى بمحاسنا ورغبتنا في دفعه نحو التقدم للأمام اذن ما الذي يمكن أن يفعله المرء إزاء ذلك ؟ وبذا تجهمه وكأنه يوجه هذا التساؤل . وعلى كل حال خطر على عقولنا أن هناك بدلاً متاحاً أمامنا . ولربما ينبغي علينا أن نبحث هذا معك ونختبر ردود فعلك على ذلك . ولقد قلنا لأنفسنا ربما توجد هناك وسائل يمكن من خلالها للدكتور أليكسيس الطيب أن ينقل معلوماتنا إلى كولونيا نيابة عنا ؟ بطريقة خاصة وسرية . أو بطريقة غير رسمية ولكنها طريقة رسمية إذا كنت تدرك ما أهدف إليه . على أساس من حبه الشخصي للمغامرة وادارته الحكيم العاقلة . وهذا تساؤل ظللنا نوجهه لأنفسنا مراراً وتكراراً . ربما كان بمقولتنا أن نذهب إلى بول وكثيراً ما كنا نسائل أنفسنا لماذا دائماً ما نرقى الرجل غير المناسب في هذه الأمور ؟ ولماذا لا تتم ترقية الرجل المناسب في هذه المرة فقط . ولماذا لا نتعامل مع الأصدقاء بما يتمشى مع مبادئنا ؟ ولماذا لأنرقى أصدقاءنا ؟ ونكافئهم على إخلاصهم لنا .

وتطاير أليكسيس بأنه لا يفهم . وتصاعدت الدماء الحمراء إلى وجهه بعض الشيء . وظهرت إشارة خفيفة هستيرية نحو الرفض . وقال : اسمعني يا مارتى . إنني ليس لدى مصادر ! أنا رجل بيروقراطي . هل سأقوم برفع سماعة التليفون وأقول : هنا كولونيا . وأنا أليكسيس الذي يتكلم . إنني أصدر أوامر لكم بالذهاب على الفور إلى مزرعة سومر لكي تلقوا القبض على ابنة أخمان وعلى جميع أصدقائهما وصديقاتها من أجل استجوابهم ؟ هل أنا ساحر أو مشعوذ أو مشتغل بالكيمياء القديمة بحيث أستخرج مثل هذه المعلومات العجيبة من الحجارة ؟ وما الذي يفكرون فيه هناك في إسرائيل - هل يعتقدون أن المنافق العام يمكن أن يتحول فجأة إلى رجل يشتغل بالسحر والشعوذة ؟ وأصبح احتقاره لنفسه متsuma بالإزعاج ومتخذًا على نحو متزايد طابعاً غير حقيقي هل لي أن أطلب إلقاء القبض على كافة

الشبان الملتحين الذين يركبون دراجات بخارية والذين من الممكن أن يكونوا إيطاليين؟ سوف يسخرون مني !!

لا أحد يتطلع إلى إلقاء القبض على الناس يا بول . ليس بعد . ليس الآن .
ولا أحد يتطلع إلى أى شئ مكشوف وعلني على الإطلاق .

فقال أليكسيس فى حدة فجائية إذن ما الذى تريدونه ؟

فقال كيرتز فى عطف وحنان : نريد العدالة . الأأن ابتسامته المباشرة غير المتسمة بالإحجام كانت تنقل رسالة من نوع آخر للعدالة . وشيء من الصبر وشيء من الأعصاب . وقدر كبير من الروح الخلقة وقدر كبير من الابتكارية من أى شخص يلعب اللعبة الخاصة بنا نيابة عنا . ودعنى أسائلك شيئاً ما يا بول ولنفرض أن مخبراً سرياً مجهول الاسم - وأنا أشاهد هنا شخصية عربية يا بول . شخصية عربية من الوسط المعتدل وهو رجل يحب ألمانيا ومعجب بألمانيا ويمتلك معلومات تتعلق ببعض العمليات المعينة الإرهابية التي لا يوافق عليها - ولنفرض أن رجلاً كهذا شاهد أليكسيس العظيم على شاشات التليفزيون منذ فترات قصيرة .
ولنفرض على سبيل المثال أنه كان جالساً في غرفته بالفندق الذي يقيم فيه ذات ليلة في بون ، ونقل في نوسلدورف حيث يحب دائماً أن يقيم ثم تصادف أن أدار مفتاح التشغيل في جهاز التليفزيون الخاص به من أجل الاستمتاع بالتسليمة وعندئذ شاهد الدكتور أليكسيس الذي هو محامي ورجل شرطة على نحو أكيد ولكنه أيضاً رجل يتسم بخفة الظل والمرونة والطابع البراجماتي العملي علاوة على اتسامه بالطابع الإنساني بكل ما في الكلمة الإنسانية من معنى - قصارى القول أنه رجل بكل المقاييس ، أليس كذلك ؟

فقال أليكسيس وقد تشوّش ذهنه «لنفرض ذلك» .

استطرد كيرتز قائلاً : وهذا الرجل العربي - يا بول - قد انبهرك وقرر أن يجري اتصالات معك . ولم يكن على استعداد لأن يتكلم مع أى شخص سواك . فهو قد وضع ثقته فيك . ورفض عقد لقاءات مع أى مندوب ألماني آخر وقدر أن يتخبط

الوزارات والشرطة وكافة العاملين في أجهزة الاستخبارات . ثم راح يبحث عن رقم تليفونك في دليل التليفونات . واتصل بك تليفونيا في منزلك . أو في مكتبك . على النحو الذي يروق لك . فالقصة قصتك . ثم تقابل معك هنا في هذا الفندق . في هذه الليلة . وأثناء تناول الكؤوس قدم لك معلومات وحقائق معينة . فهل يمكن لأندرويد العظيم أن يشاهد في هذا الموقف خطا من المزايا والفوائد التي تعود عليه من حيث هو رجل حرم من تحقيق الازدهار الصحيح لمستقبله ؟

ومع العيش في هذا المشهد فيما بعد . وهو أمر كثيرا ما كان يفعله أندرويد في ضوء العديد من الحالات النفسية المتصارعة التي تتعلق بالدهشة والفخر والرعب الفوضوي الشامل فإنه بدأ ينظر بعين الاعتبار للخطبة التي أعقبت ذلك على أنها بمثابة التبرير المنحرف الذي ساقه كيرتز مقدما لما كان موجودا في ذهنه .

قال كيرتز متبرما في الكتاب : إن الإرهابيين يحرزن المزيد من التقدم في هذه الأيام . ويصرخ ميشا جافرون في وجهي من منتصف المسافة في داخل مكتبه (وازدع عميلا يا شولمان) وأنا أقول له (بكل تأكيد يا جنرال . لسوف أتعثر على عميل . ولسوف أدربه وأساعدته أن يكون متيقظا وقوى الملاحظة في الأماكن المهمة . ولسوف أنفذ كل التعليمات التي تصدرها . وأنت تعرف أول شيء سيفعلونه ؟ إنهم سيدعونه لكي يثبت لنفسه أنه أصيل . سيدعونه لكي يطلق الرصاص على حارس أحد البنوك أو على جندي أمريكي . أو إلقاء قنبلة على مطعم أو تسليم حقيبة جميلة إلى شخص ما . هل هذا هو ما تريده ؟ هل هذا هو ما تدعوني لأن عمله يا جنرال تدعوني لأن أزرع عميلا ثم أجلس وأشاهده وهو يقتل شعبنا لصالح العدو ؟ إن المنظمات الإرهابية لا تحمل معها مسافرين يا بول . وهذا هو ما قلته لميشا . فهم ليس لديهم سكرتارية أو كتبة على الآلة الكاتبة أو كتبة يعملون في مجال حل الشفرة أو أيّ أنس لainخرطون في خط المواجهة الأمامي . إنهم بحاجة إلى نوع معين من الاختراق والتغلغل ولقد أخبرته أنه إذا كان يريد أن يقترب هدفا إرهابيا في هذه

الأيام فسيكون بحاجة من الناحية العملية لأن يُنشئ لنفسه الإرهابي الخاص به
فهل هو يصفى بكلامى ؟

ولم يستطع أليكسيس أن يكبح جماح انبهاره واعجابه ثم قال مستندا
للأمام وقد لمعت عيناه مع سحر ويريق سؤاله . وأنت قد فعلت ذلك يا مارتى ؟ هنا
في ألمانيا ؟

وكالعادة لم يقدم كيرتز إجابة مباشرة . وبذا على عينيه أنهما تتنظران
بالفعل إلى ما وراء أليكسيس نحو الهدف الثاني الذي يقع على طريقه الموحش
المحتوى . قال كيرتز على سبيل الافتراض بلهجة شخص ينتقى اختياراً بعيداً من
بين العديد من الاختيارات التي تبلورت في عقله الواسع الحيلة والدهاء . ولنفرض
أن الأمر يستلزم أن أقدم تقريراً لك عن حادثة . حادثة على وشك أن تحدث في
خلال حوالي أربعة أيام - على سبيل المثال .

وكان العزف المنفرد لموسيقى باخ والذى يستمع اليه الرجل المسئول عن
البار قد انتهى . ثم أخذ هذا الرجل يغلق فاترينيات البار كدليل على أنه بقصد
الانصراف والذهاب للنوم . وبناء على اقتراح من كيرتز ذهبا سويا إلى صالون
الفندق وجلسا وقد اقترب رأساهما من بعضهما البعض مثل مسافرين فوق ظهر
مركب تجتاحه الرياح الشديدة . وأنثناء المناقشات ألقى كيرتز نظرتين خاطفتين على
ساعة يده القديمة واستأذن لكي يجري مكالمة تليفونية . وعندما سأله أليكسيس فيما
بعد عن المكالمتين بداع من مجرد حب الاستطلاع أشار كيرتز أنه قد تحدث مع
فندق في دلفي باليونان على مدى اثنى عشرة دقيقة ودفع الثمن نقداً . ثم تحدث
إلى رقم تليفون بالقدس وهو رقم يتبعه معرفته واكتشافه . وفي حوالي الساعة
الثالثة أو ما يزيد على ذلك ظهر عمال من النزلاء بالفندق لهم شكل شرقي مرتدین
أفرولات بالية قديمة وراحوا يجرؤون آلة تنظيف ضخمة شبيهة بمدفع تابع لشركة
كروب . إلا أن كيرتز وأليكسيس ظلا يتكلمان بصوت يعلو على ضجيج الآلة . ولم
يتوقف الرجالان عن الكلام إلا بعد الفجر حيث خرجا وتصافحا بالأيدي في تهنئة

على الاتفاق الذى توصلوا اليه . كان كيرتز حريصا على عدم الإسراف فى توجيه الشكر للأليكسيس الذى يعتبر أحد شخص تمكן من تجنيده لصالحه . وذلك لأنه يدرك جيدا أن أليكسيس لم يكن من النوع الذى ينفر فى ابتعاد إذا وجه إليه الشكر والامتنان أكثر من اللازم .

.....

وسارع أليكسيس الذى ولد من جديد إلى منزله . وقام بحلق ذقنه وتغيير ملابسه وتعمد أن يترك انطباعا فى ذهن زوجته عن مدى سرية وأهمية المهمة التى يقوم بها . ثم وصل إلى مكتبه الزجاجى وعلى وجهه ارتياح غامض . ارتياح لم يظهر منذ فترة طويلة للغاية . لاحظ الموظفون العاملون تحت رئاسته أنه مبتهج ومنخرط فى بعض النكات المرحة بل ويعلق تعليقات غير محشمة على زملائه . وطلب تزويده بأوراق شاغرة لكي يكتب عليها . ومنع الناس من الدخول إلى مكتبه بما فى ذلك السكرتارية الخاصة به وشرع يكتب تقريرا مطولا مرفوعا إلى رؤسائه عن عرض تلقاه من «مصدر شرقى على مستوى رفيع معروف لى منذ أن كنت أشغل وظيفتى السابقة» وتضمن التقرير كميات هائلة من المعلومات الجديدة تماما والتى تتعلق بمسألة الاعتداء الوحشى الذى تم فى بادنسبرج . وطلب فى التقرير تزويده بسلطات معينة وتسهيلات خاصة وتخصيص ميزانية مفتوحة لا تخضع لديوان المحاسبة أو الرقابة فى سويسرا وبحيث يتم الصرف من هذه الميزانية وفقا لما يراه ويرون قيد أو شرط . وهو لم يكن رجلا متسم بالجشع والطمع رغم أن زواجه الجديد للمرة الثانية كان باهظ التكاليف بالإضافة أن طلاقه من زوجته الأولى كان متسم بالخراب والدمار .

وأخيرا أشار فى تقريره لتبؤ أملاه كيرتز بالحرف الواحد وجعله يقرأه أمامه لكي يصفى إليه . وكان تنبؤا يتسم بالغموض وعدم الدقة بحيث يبدو عديم الجدوى ، ولكنه فى نفس الوقت يتسم بالدقة التى تكفى لاحداث تأثير كبير فى حالة تحقيقه وحدوثه بالفعل . إذ أشارت تقارير غير مؤكدة أن كميات كبيرة من

المتجرات قد قُدمت أخيراً بمعرفة متطرفين من الأتراك المسلمين في استانبول بهدف القيام بأعمال مناهضة للصهيونية في أوروبا الغربية . وبالتالي ينبغي توقع حدوث موجات من الغضب والحقق الجديد في خلال الأيام القليلة القادمة . وقد أشارت الشائعات أن التفجير سيتم في جنوب ألمانيا . ومن تمّ ينبغي تنبيه وتحذير كافة نقاط الحدود وقوات الشرطة المحلية . ولم يتم التمكن من الحصول على المزيد من التفاصيل . وفي فترة مابعد الظهر من ذلك اليوم قام رؤساء أليكسيس باستدعائه . وفي نفس تلك الليلة أجرى أليكسيس اتصالاً هاتفياً سرياً مطولاً مع صديقه العظيم شولمان لكي يتلقى تشجيعه علامة على تلقى المزيد من التعليمات منه .

وصاح في اثارة باللغة الانجليزية : انهم غاضبون وحانرون يا مارتى! انهم واقعون تحت سيطرتنا تماماً !

وقال كيرتز للি�تفاك الموجود في ميونيخ إن أليكسيس يعلم بفاعلية إلا أنه سوف يكون بحاجة إلى قدر كبير من الرعاية والتوجيه . وأضاف في تتمة : لماذا لا يقوم جازى باستعمال تلك الفتاة وحثها على الإسراع ؟ بينما كان يحملق في ساعته في شيء من الاضطراب النفسي .

فصاح ليتفاك في ابتهاج لم يستطع السيطرة عليه . لأنه لم يعد يميل إلى القتل ! أتظن أننى لا أستطيع أنأشعر بذلك ؟ أتظن أنك لا تستطيع ؟
فقال له كيرتز : التزم بالهدوء .

الفصل الثاني عشر

انبعثت رائحة نبات الزعتر في قمة التل . وكانت مكاناً خاصاً ومفضلاً لدى يوسف . وكان قد بحث عن ذلك المكان على الخريطة ، وقاد تشارلى إليه في عزم وتصميم من خلال استخدام السيارة أولاً وبعدئذ من خلال السير على الأقدام واللجوء إلى التسلق وتجاوز صفوف من خلايا النحل المتشابكة في ضفائر والعبور بين أرض فضاء تخللها أشجار السرو والحقول الحجرية الملبدة بالأزهار الصفراء اللون . ولم تكن الشمس قد وصلت إلى أقصى ارتفاعها . وفي الداخل تتراكم سلاسل الجبال البنية اللون وإلى جهة الشرق تحت تشارلى السهول الفضية لبحر ايجي إلى أن حوالها السديم والضباب إلى الالتحام بالسماء . وكان الهواء مليئاً برائحة مادة الراتينج وعسل النحل بضجيج أجراس الماعز . وحرقت لفحة من النسيم الجديد جانباً من وجهها وجعلت ثوبها الخفيف يلتصق بجسدها . وأمسكت بذراع يوسف الغارق في تفكير عميق . خيل إليها أنها لاحت ديمترى جالساً فوق بوابة ولكنها عندما صاحت حذّرها يوسف في حدة وطلب منها عدم إلقاء التحيّة عليه . ومرة أخرى كان بمقدورها أن تحلف مؤكدة أنها شاهدت الصورة الظلية لروز حيث كانت موجودة فوقهما على خط السماء . ولكنها عندما أمعنت النظر مرة أخرى لم تشاهد شيئاً .

وكان يومهما حتى آنئذ له اللحن الخاص به والرقص الخاص به لقد تركته لكي يقودها ويوجهها عبر ذلك اليوم من خلال قلقه وضجره الاعتيادي استيقظت في الصباح الباكر لتجد راشيل تراقبها في انتباه وتقول لها أنه ينبغي عليها أن ترتدي الفستان الأزرق فأخذت حماماً سريعاً وسارت بسرعة عائدة إلى غرفة النوم وهي عارية تماماً ، ولكن راشيل كانت انصرفت وظهر أمامها يوسف حيث يجلس رابضاً

أمام صينية عليها وجة إفطار لشخصين وكان يستمع إلى نشرة الأخبار اليونانية التي تتبث من الراديو الصغير الخاص به . فعادت بسرعة إلى الحمام وناولها يوسف فستانها من خلال فتحة صغيرة بالباب . ثم تناولا طعام الإفطار على وجه السرعة في صمت . وفي البهو سدد الثمن نقدا ووضع الإيصال في جيبه . وعندما نقل أمتعتها إلى السيارة المرسيدس رأت الصبي رأوف الهبي مستلقيا على مسافة ستة أقدام من المصد الخلفي للسيارة حيث كان يعبث بموتور دراجة بخارية محملة بأمتעה . كما شاهدت روز مضطجعة على العشب وقد رفعت مؤخرتها لأعلى أثناء مضغها رغيف خبز بصوت مرتفع . سألت تشارلى نفسها في تعجب : ترى منذ متى ظلا موجودين هنا ؟ ولماذا عليهما أن يحرسا السيارة ؟ وقاد يوسف السيارة لمسافة ميل على الطريق إلى الواقع الأثيرية القديمة . ثم أوقفت السيارة مرة أخرى . وقبل أن يبدأ أدميون آخرون في الوقوف في طوابير والتصبب عرقا فإنه عبر بها من بوابة جانبية ودعاهما إلى رحلة أخرى خاصة نحو وسط الكون . وأراها معبد أبواللو وحانط دوريك المليئة بنقوش التراتيل كما أراها الحجر الذي يعتبر سرّ العالم وجعلها تشاهد الكنوز ومرّ الجري . وانخرط في شرح وتعليق مستفيض عن الحروب العديدة التي شنت من أجل الحصول على معبد التنبؤات . ولكنه لم يكن متسمًا بذلك المرح وتلك الرشاشة اللتين ظهرتا عليه عندما كان في الأكروبوليس . عندما عادا إلى السيارة ناولها المفتاح .

فقالت : لي أنا ؟

– ولم لا ؟ ظننت أن السيارات الجميلة هي نقطة الضعف لديك .

اتجهوا شمالاً على الطرق الشاغرة المتلوية وهو في بادئ الأمر لم يفعل شيئا سوى مراقبة وتقدير طريقها في قيادة السيارة وكأنه يُجرى لها اختبارا متقدما على قيادة السيارات مرة أخرى . ولكنه لم يسبب لها الشعور بالتوتر لأنه سرعان ما نشر الخريطة على ركبتيه وتجاهل قيادتها للسيارة انطلقت السيارة كالحلم . وبدأ الطريق يتحول من مساحات مرصوصة إلى مساحات مليئة بالحصى . ومع كل

مندرج تتضاعد سحابة من التراب يتخللها ضوء الشمس الساطع ثم ينجرف التراب نحو المناظر الطبيعية الرائعة المدهشة . وفجأة طوى الخريطة وأعادها إلى الجيب الموجود إلى جواره .

وتساءل كما لو كانت جعلته في حالة من الانتظار أكثر من اللازم : اذن يا تشارلى ؟ هل أنت جاهزة ؟ ثم استأنف سرد حكايته .

فقال : في بادئ الأمر كانا لا يزالان في نوتنجهام وكان جنونهما المؤقت قد وصل إلى الذروة . لقد أمضيا ليلتين ويوما واحداً في الفندق . ودفتر السجلات بالفندق يؤيد ذلك . والعاملون بالفندق سوف يتذكرون وجود فتاة وشاب في حالة حب وهيام تتطبق عليهما أوصافنا . وكانت حجرة النوم الخاصة بنا تقع عند الطرف الغربي من المبنى وتطل على الحديقة الخاصة بالمبنى . وبعد برهة قصيرة سيتم اصطحابك إلى هناك لكي تشاهدى بنفسك الشكل الذي كانت تبدو عليه . وقال إنهم أمضيا معظم وقتهم في السرير يتحدثان في الشؤون السياسية ويفحصان لقطات من حياتهما ويمارسان الحب . والشيء الوحيد الذي قطع هذا الروتين هو قيامهما برحلتين قصيرتين إلى الريف في نوتنجهام . إلا أن رغبة العشق لديهما جعلتهما يسارعان إلى العودة إلى الفندق .

تساءلت وهي تبذل مجهوداً لكي تخرجه من الحالة النفسية القاتمة التي أحدثت به لماذا لم نحسن الأمر ونمارس الحب في السيارة ؟ فأنا أحب تلك الحالات التي لا يحدد لها موعد سابق .

- إننى أحترم ذوقك . ولكن من سوء الحظ أن ميشيل إنسان خجول فى مثل هذه الأمور فهو يفضل توفر السرية التامة فى غرفة النوم .

ثم استأنف كلامه : وفي وقت مبكر من صباح يوم الاثنين عاد ميشيل إلى لندن ولكن تشارلى التى لم تقم بأية بروفات حتى فترة مابعد الظهر قد ظلت باقية فى الفندق وقد اجتاحتها نوبة من الاكتئاب الشديد . وراح فى نشاط يصف حزنها واكتئابها ، اليوم قاتم وكئيب مثل الجنازة . والمطر ما زال ينهر . تذكرى الطقس .

فى بادئ الأمر ظللت تبكين باستمرار حتى أنك لم تعودى تطيقين ذلك . ثم تستيقظين على السرير الذى ما زال دافئا بفعل استلقاء جسده عليه لقد أخبرك أنه سيحاول لمجيئك إلى يورك فى خلال الأسبوع资料 . ولكنك متاكدة من أنك لن تشاهديه مرة أخرى على الإطلاق فى حياتك ، ولذلك فماذا ستفعلين

أعطها الاختيار لكي تجيب . واستطرد : «أنت تجلسين نفسك إلى المزينة (السراحة) الضيقة أمام المرأة وتحملقين فى انطباعات يديه على جسدك وتحملقين فى دموعك لدى استمرارها فى الانسياق ثم تفتحين درجأ . وتستخرجين المطوية الخاصة بالفندق وتستخرجين منها الأدوات الكتابية والقلم الذى له سن على شكل كرة . وتكتبين له خطابا وأنت جالسة هناك . تصفين فيه نفسك وأحوالك وتعبرين فيه عن أفكارك الداخلية . وتكتبين خمس صفحات . وهو أول خطاب من بين العديد من الخطابات التى ترسلينها إليه . أيمكنك أن تفعلى هذا ؟ وأنت فى حالة من اليأس وعلى كل حال فأنت إنسانة مندفعه ومتهورة بالنسبة لتحرير وكتابة الخطابات .

- انتى أكتب الخطابات إذا كان لدى عنوانه

- لقد أعطاك عنوانا فى باريس . وهو عنوان تاجر تبغ فى مونبارناس . ومنه يصل ويُسلم إلى ميشيل . ولا يوجد اسم اللقب أو اسم الأسرة بعد كلمة ميشيل فالامر لا يستلزم ذلك . وفي نفس الليلة ويدافع من البؤس المهيمن على استرال كوميرشىال وعلى الفندق ، تكتبين له مرة أخرى . وب مجرد أن تستيقظى فى الصباح تكتبين مرة أخرى . وأثناء فترات الاستراحة التى تتخلل البروفات تكتبين فى عاطفة جياشة وفي غير تدبر وفي صراحة تامة ستفعلين ذلك ؟ هل يمكنك أن تكتبى مثل هذه الرسائل ؟

وساءلت نفسها فى تعجب : إلى أى حد يحتاج الرجل إلى التوكيد وإعادة الطمأنينة ؟ وعلى الرغم من تكهناها المتسمة بالتشاؤم فإن ميشيل لم يجئ فقط إلى يورك وإنما جاء أيضاً إلى برسنل ثم إلى لندن حيث أمضى ليلة كاملة رائعة

فى شقة تشارلى بكامدين حيث انتابته موجة من البهجة والغبطة . وقال يوسف فى امتنان وكأنه يختتم مقدمة منطقية رياضية معقدة : وهنالك فى السرير الخاص بك وفي شقتك وبين تأكيدات الحب الخالد قمنا بوضع خطة من أجل نفس هذه الأجازة اليونانية التى نستمتع بها هنا الآن .

وسادت فترة طويلة من الصمت انخرطت أثناعها فى قيادة السيارة والتفكير . نحن هنا أخيرا . من نوتجهام إلى اليونان فى خلال ساعة من الانطلاق بالسيارة .

وقالت فى تردد : للحاق بميشيل عقب ميكونوس .

- ولم لا ؟

- ميكونوس مع آل والعائلة . وأغادر السفينة . وأقابل بميشيل فى مطعم أثينا وننطلق بعيدا ؟

- صحيح . تمام

ثم قالت أخيرا : ولا «آل» ولو كنت قد استحوذت عليك لما أخذت آل إلى ميكونوس . ولكن قد طردته . ولم يكن قد تلقى دعوة من المتكلفين .

رفض اعتراضها على الفور قائلا : إن ميشيل لا يسعى للحصول على هذا النوع من الإخلاص والولاء إنه جندى مقاتل . وهو عدو مجتمعك الخاص بك . وهو عرضة لأن يلقى القبض عليه فى أى وقت . وربما ينقضى أسبوع أو ستة شهور قبل أن تشاهدية . أتقنن أنه يريد أن تعيشى كراهبة فجأة ؟ بحيث تجلسين فى تحرق وشوق وتتعرضين لنوبات من التوتر والغضب، وتحكين أسرارك لصديقاتك من الفتيات ؟ هذا كلام فارغ . إنك على استعداد لأن تنامى مع جيش كامل إذا طلب أن تفعلى ذلك .

ومرا بجوار كنيسة صغيرة فأصدر أوامره لها قائلا «هدئى من السرعة» . ثم راح يدرس الخريطة مرة أخرى .

هدئي من السرعة . أوقفى السيارة هنا . سيرى على الأقدام .

- - - - -

زاد من سرعة خطواته . كان الممر الذى يسيران فيه يؤدى إلى مجموعة من الحظائر القديمة المهجورة . وتجاوزا تلك الحظائر ووصلوا إلى محجر غير مستخدم ومقطع إرباً إرباً مثل فوهة بركان عند قمة التل . وعند سفح الوجه المشقوق توجد علبة زيت قديمة . ودون أن يتكلم راح يوسف يضع فى العلبة كميات من الحصى الصغير بينما راحت تشارلى تنظر فى ارتياب وقد اعتبرتها الحيرة . ثم خلع يوسف رداءه الأحمر وطواه ، ووضعه فى حرص على الأرض . وكانت البن دقية موجودة عند خصره وهابطة فى عروة جلدية مربوطة فى حزامه . ولكن عقب البن دقية كان يميل ميلاً خفيفاً للأمام على خط أسفل إبطه الأيمن مكان يرتدى جراباً جلدياً آخر فوق كتفه الأيسر . إلا أن ذلك الجراب كان شاغراً وأمسكها من معصمها وجذبها لكي تجلس القرفصاء على الأرض إلى جواره بالأسلوب العربى .

والآن أقول إن نوتجهام موجودة فى الماضى وكذلك الحال بالنسبة ليورك ولبرистول وللندن اليوم هو اليوم . إنه اليوم الثالث فى شهر العسل اليونانى العظيم الخاص بنا . نحن فى المكان الذى نوجد فيه الآن لقد مارسنا الحب طوال الليل فى الفندق ونهضنا مبكرين . وقام ميشيل بتزويدك بتبصر جدير بأن يذكر يتعلق بمهد الحضارة الخاصة بك . وأنت قمت بقيادة السيارة . قلت لك إنك تحبين القيادة من حيث إنك امرأة لقد أحضرتك إلى هنا ، إلى قمة هذا التل . لكنك لا تعرفين السبب فى ذلك . وربما لاحظت أن حالتى النفسية منسحبة إلى الداخل وأننى غارق فى التفكير العميق ، وربما اتصارع مع قرار كبير . والجهود التى تبذلها لإخراجى من أفكارى تسبب لى الضيق . وأنت تسألين نفسك فى تعجب : ترى ماذا يحدث ؟ هل حبنا يشق طريقه نحو التقدم والتزايد ؟ أم أنه قد فعلت شيئاً ما من شأنه عدم إدخال السرور على ؟ وإذا كان الحب يحرز تقدماً . فعلى أى نحو وبأية كيفية ؟ إننى أجلسك هنا إلى جوارى - على هذا النحو وأسحب البن دقية .

راحت ترقبه فى انبهار واعجاب وهو يخرج البنديقة فى انزلاق ورشاقة من الكيس الجلدى وجعلها فى وضع امتداد طبيعى ليده:

- كامتياز عظيم وفريد من نوعه سأدخلك فى تاريخ هذه البنديقة . ولأول مرة سأحدثك عن أخي العظيم الذى يعتبر وجوده فى حد ذاته بمثابة سرّ عسكري لا يعرف إلا عدد قليل للغاية من المخلصين تماماً . أفعل هذا لأننى أحبك . ولأننى ... أصابه شيء من التردد فقالت لنفسها فى السرّ : ولأن ميشيل يحب أن يحكى عن الأسرار.

أضاف : ولأننى اليوم أنوى أن اتخذ الخطوة الأولى نحو اعطائك العهد وادخالك معنا كرفيقه مقاتلة فى جيشنا السرى . كم عدد المرات التى توسلت فيها لكى أمنحك الفرصة من أجل أن تبرهننى على ولائك وإخلاصك برهنة عملية ؟ واليوم نحن نتخذ الخطوة الأولى على هذا الطريق .

ومرة أخرى أدركت أن لديه مقدرة فائقة على ارتداء الملابس العربية والظهور بالطابع العربى . وراحت تصفى إليه فى انبهار وبهجة وهو يتذبذب الأسلوب العربى المزخرف الذى يتسم به سرد القصص والحكايات .

- طوال حياتى البدوية من حيث إننى ضحية للمغتصبين الصهاينة ، كان أخي الأكبر يشرق ويستطيع أمامى مثل نجم . فى الأردن وفي أول معسكر لنا عندما كانت المدرسة بمثابة كوخ من الصفيح مليء بالبراغيث . وفي سوريا حيث هربنا إليها عقب اقتحام القوات الأردنية لمعسكرنا بالدبابات وإرغامنا على الفرار . وفي لبنان حيث راح الصهاينة يمطروننا بالقذائف من جهة البحر ويلقون القنابل علينا من الجو ووسط هذا الخضم من حالات الحرمان والاضطهاد ما زلت أذكر نفسى بالبطل الغائب العظيم : ألا وهو أخي . حيث كانت أخي العظيمة فاطمة تهمس لى بالتقارير عن الأعمال البطولية الفذة التى يقوم أخي مما يجعلنى أشتاق دائمًا أن أحذو حنوه وأقلده وأنافسه .

ولم يعد يسألها عمًا إذا كانت هي مصافية إليه فى انتباه .

إِنْتَ نَادِرًا مَا أَشَاهِدُهُ . وَإِذَا شَاهِدْتَهُ فَإِنْ ذَلِكَ يَتَمُّ فِي سُرِّيَةٍ تَامَةً . أَحِيَا نَا
أَشَاهِدُهُ فِي دَمْشَقَ . وَأَحِيَا نَا أُخْرَى فِي عُمَانَ . ثُمَّ صُدِرَ اسْتِدْعَاءٌ لِي .. إِحْضُر
فُورًا . وَبِعِدَئِذٍ وَعَلَى مَدِي لَيْلَةٍ كَامِلَةٍ جَلَسْتُ إِلَى جَوَارِهِ . وَرَحْتُ أَتَشَرَّبُ كَلْمَاتَهُ وَنَبْلُ
قَلْبِهِ وَذَهْنِهِ الْقَيَادِيِّ الصَّافِيِّ وَشَجَاعَتِهِ . وَفِي إِحْدَى الْلَّيَالِي أَصْدُرَ لِي الْأَوْامِرُ
بِالْذَّهَابِ إِلَى بَيْرُوتَ . كَانَ قَدْ عَادَ لِتَوْهِ مِنْ مَهمَةٍ بِالْغَةِ الْأَهْمَىِّ وَالْجَرَأَةِ . مَهمَةٌ لَا
أَعْرِفُ عَنْهَا شَيْئًا سَوْيًا أَنَّهَا كَانَتْ بِمَثَابَةِ نَصْرٍ كَامِلٍ وَعَظِيمٍ ضِدَّ الْفَاشِيَّسِ .
وَتَقْرَرَ أَنَّ أَذْهَبَ مَعَهُ لِكِي نَسْتَمِعَ إِلَى خَطِيبٍ سِيَاسِيٍّ عَظِيمٍ لِيَبِرِّي لِهِ قَدْرَاتٍ عَظِيمَةٍ
مِنْ حِيثِ الإِقْنَاعِ . وَكَانَتْ أَعْظَمُ خَطْبَةٍ سَمِعْتُهَا فِي حَيَاتِيِّ . وَهَنْتَ يَوْمَنَا هَذَا
بِاسْتِطَاعَتِي أَنْ أَقْتَبِسَ عَبَاراتَ مِنْ تِلْكَ الْخَطْبَةِ . وَفِي رَأْيِي أَنْ جَمِيعَ الشَّعُوبِ
الْمَطْحُونَةِ الْمَظْلُومَةِ فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ كَانَ يَنْبَغِي عَلَيْهَا سَمَاعُ تِلْكَ الْخَطْبَةِ الَّتِي أَلْقَاهَا
هَذَا الْلَّيْبِيُّ الْعَظِيمُ . وَكَانَتِ الْبَنْدِيقِيَّةُ مُسْتَلْقِيَّةُ فِي مَسْتَوْيِي فِي رَاحَةِ يَدِهِ . وَكَانَ يَرْغُبُ
لَهَا فِي أَنْ تَحْبُّ الْبَنْدِيقِيَّةَ وَتَتَطَلَّعَ إِلَى امْتِلَاكِهَا . وَاسْتَطَرَدَ (وَمَعَ قَلْوَبِنَا الَّتِي تَدَقَّ فِي
عَنْفِ بِسْبِبِ الإِثَارَةِ نَخْرَجَ مِنْ مَكَانِ الْمَحَاضِرَةِ السَّرِّيَّةِ وَنَسِيرَ عَائِدِينَ خَلَالَ فَجْرِ
بَيْرُوتِ . ذَرَاعَا فِي ذَرَاعِ . عَلَى الطَّرِيقَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، الدَّمْوعُ تَمْلَأُ عَيْنِي ، ثُمَّ يَتَوَقَّفُ
أُخْرَى عَنِ السَّيِّرِ وَيَعْانِقُنِي . وَنَقْفُ هَنَالِكَ عَلَى الرَّصِيفِ بِالشَّارِعِ . بِاسْتِطَاعَتِي الْآنِ
أَنْ أَشْعُرَ بِوجْهِهِ الْحَكِيمِ وَهُوَ يَنْضَغِطُ عَلَى وَجْهِيِّ . وَيَسْتَخْرُجُ مَسْدِسُهُ مِنْ جِيَّبِهِ
وَيَضْعُهُ فِي يَدِيِّ . هَكَذَا) ، ثُمَّ أَمْسِكَ بِيَدِ تِشَارِلِيِّ وَوَضَعَ الْبَنْدِيقِيَّةَ فِي يَدِهِ . وَلَكِنَّهُ
ظَلَّ وَاضِعًا يَدَهُ عَلَى يَدِهِ بَيْنَمَا كَانَ يَوْجِهُ الْمَاسُورَةَ نَحْوَ حَائِطِ الْمَحْجَرِ . وَيَقُولُ لِي
«هَذِهِ هَدِيَّةٌ . لِكِي تَحرَّرَ شَعْبُنَا وَأَهْالِنَا . هَدِيَّةٌ مِنْ مَحَارِبِ إِلَى مَحَارِبِ ،
وَمَعَ هَذِهِ الْبَنْدِيقِيَّةِ أَلْقِيَتِ الْقُسْمُ فَوْقَ قَبْرِ وَالْدِيِّ .

وَأَشْعُرُ أَنِّي صَامِتُ وَمَعْقُودُ اللِّسَانِ .

كَانَتْ يَدُهُ الْبَارِدَةُ مَا زَالَتْ مُسْتَقْرَةً عَلَى يَدِهِ وَمُمْسَكَةً بِالْبَنْدِيقِيَّةِ نِيَابَةً عَنْهَا .
وَكَانَ بِاسْتِطَاعَتِهِ أَنْ تَحْسُنَ بِيَدِهِ وَهِيَ تَرْتَعِشُ فِي دَاخِلِ يَدِهِ وَكَأْنَهَا مَخْلُوقٌ
مَنْفَصِلٌ عَنْهَا .

- يا تشارلى هذه البنديقة شئ مقدس بالنسبة لي . أقول لك هذا لأننى أحب أخي ولأننى أحببت أبي ولأننى أحبك ، وفى خلال دقائق سوف أعلمك كيف تستخدمن هذه البنديقة وتطلقين منها النيران . ولكننى أطلب منك أولاً وقبل كل شيء أن تقبلى هذه البنديقة .

فحملقت فى وجهه ، ثم فى البنديقة . إلا أن تعبيرات الإثارة على وجهه كانت تدل أنه لا يرغب فى التأجيل . ثم وضع يده الأخرى حول ذراعها وجذبها لكي تقف على قدميها .

- نحن عشيقان . ألا تتذكرين ذلك ؟ نحن رفيقان فى السلاح . نحن خادمان للثورة . أنا شخص عربى عاطفى ولذلك فائنا أحب الكلمات والحركات . وأطلب منك الآن أن تقبلى البنديقة .

- يا يوسف لا أستطيع أن أفعل ذلك . خاطبته باسم يوسف وبهذا الاسم رد عليها .

- أظنين أن هذا حفل شاي يا تشارلى ؟ وتعتقدين ذلك لأن ميشيل ولد جميل وبالتالي ينبغي أن يلعب الألعاب ؟ أين كان ينبغي عليه أن يتعلم الألعاب بينما البنديقة هى الشئ الوحيد الذى يعطى قيمة له كرجل ؟ .

هزت رأسها وهى مازالت تحملق فى البنديقة . إلا أن المقاومة التى أبدتها لم تسبب له الشعور بالغضب : قال استمعى إلى يا تشارلى . فى الليلة الماضية وأثناء ممارستنا للحب سألتني يا ميشيل . أين ميدان المعركة ؟ أتعرفين ما الذى فعلته ؟ لقد وضعت يدى على قلبك وقلت لك : نحن نقاتل فى حرب تسمى الجهاد ، وميدان المعركة موجود هنا وأنت تلميذتى . وإحساسك بالرسالة المقدسة لم يسبق له أن كان قويا على النحو الذى هو عليه الآن . هل تعرفين معنى كلمة «الجهاد» ؟

فهزت رأسها :

- الجهاد هو ما كنت تبحثين عنه إلى أن تقابلت معى .

الجهاد هو حرب مقدسة . وأنت على وشك أن تطلقى أول رصاصة لك في الجهاد
الخاص بنا . قبلى البنديبة .

فأصابها التردد بعض الشئ . وبعده ضغطت شفتتها على المعدن الأزرق
اللون الخاص بالمسورة وقال وهو يبتعد في رشاقة عنها : إذن ، من الآن فصاعداً
فهذه البنديبة هي جزء من الكيان الذي يجمعنا سوياً . وهذه البنديبة هي الشرف
الخاص بنا وهي العلم الخاص بنا . هل تؤمنين بهذا ؟

نعم يا يوسف أنا أؤمن بهذا . نعم يا ميشيل أؤمن بهذا . ولا تجعلنى بعد
ذلك أفعل هذا مرة أخرى ، ثم مسحت شفتتها بمعصمها كما لو كانت هناك دماء
موجودة في شفتتها . وشعرت أنها تكره نفسها وتكرهه في آن واحد . بل وشعرت
أنها مصابة بمس من الجنون .

وقال يوسف موضحاً : هذه البنديبة ماركة وولتر . وهي ليست ثقيلة ولكن
تذكري أن كل بندقية صغيرة تجمع بين خصائص الإخفاء وسهولة الحمل والكافحة
وهذه هي الطريقة التي يتحدث بها ميشيل معك عن البنادق . هذه هي الطريقة التي
تحدث بها أخوه معه عن البنادق .

وقف خلفها ، ثم أدار رديفيها إلى أن أصبحت على زواية قائمة مع الهدف
مع انفراج قدميها . ثم وضع جماع يده على يدها مع خلط أصابعه مع أصابعها
ومع الإبقاء على ذراعها ممتداً امتداداً كاملاً ومع جعل ماسورة البنديبة متوجهة نحو
الأرض في منتصف المسافة بين قدميها .

الذراع اليسرى تكون متحررة ومستريحة . وهكذا ، وحرر لها ذراعها الأيسر
بحيث يكون مسترخيًا . واستطرد وتكون العينان مفتوحتين . ثم ترفعين البنديبة في
بطء إلى أن تصبح في خط طبيعي مع الهدف . مع جعل ذراع البنديبة في خط
مستقيم . على هذا النحو . وعندما أقول لك : أطلقى النيران . ينبغي عليك أن
تطلقى مرتين . انزلى ماسورة البنديبة لأسفل مرة أخرى . انتظري .

وفي طاعة أنزلت ماسورة البنديبة إلى أن أصبحت مصوبة نحو الأرض مرة

أخرى . ثم أصدر لها الأمر . فرفعت ذراعها بسرعة على النحو الذي بينه لها ، ثم جذبت الزناد . إلا أنه لم يحدث أى شيء .

فتح صمام الأمان . وكررت نفس الحركة ، وجدبت الزناد مرة أخرى . فوثبت البندقية في يدها في عنف كأن يدها ذاتها أصبت برصاصة ، ثم أطلقت رصاصة ثانية ، فامتلا قلبها بنفس الإثارة المحفوفة بالمخاطر والتي أحسست بها عندما قفزت لأول مرة على حصان أو سبحت عارية تماما في مياه البحر وأنزلت ماسورة البندقية في اتجاه الأرض مرة أخرى ثم أصدر لها يوسف أمرا جديدا . فطوحت البندقية لأعلى في سرعة أكبر وأطلقت النيران مرتين في تتبع سريع . وبعدها تلقت مرات من أجل جلب الحظ ، ثم راحت تكرر نفس الحركة دون أن تصدر الأوامر لها حيث راحت تطلق النيران كما يحلو لها بينما قعقة الطلقات تملأ الجو في جميع الأركان المحيطة بها مما جعل ارتداد صوت الطلقات عقب اصابتها سطحا مستويا يحدث صوتا كالعوااء أو الأنين ، وراحت تطلق النيران في تتبع مستمر إلى أن أصبح مخزن الطلقات بالبندقية شاغرا ثم وقفت منتصبة بينما البندقية واقفة إلى جوارها . وكان قلبها آنئذ يدق في عنف بينما تتنفس روائح نبات الزعتر .

تساءلت وهي تستدير نحوه : كيف كان أدائي ؟

- ابحثي بنفسك .

فتركته وجرت إلى الأمام نحو علبة الزيت ، ثم حملقت في تلك العلبة وهي لا تصدق عينيها . حيث لم يكن بها أية آثار تدل على إصابتها بطلقات الرصاص صاحت في استياء : ولكن ما الأخطاء التي حدثت ؟ فقال يوسف وهو يأخذ البندقية منها : « لقد أخطأت في إصابة الهدف » .

- لقد كانت خرطوشات تحتوى على بارود فقط بدون رصاصة .

- لا . لم تكن خرطوشات من هذا القبيل .

- لقد نفذت كل التوجيهات التي أصدرتها لي !

- أنت كإنسانة مبتدئة . ما كان ينبغي عليك أن تطلقى الرصاص وأنك ممسكة بالبنديقة بيد واحدة . وبالنسبة لفتاة يبلغ وزنها ١١٠ أرطال ولها معصماً يدين مثل نبات الزنبقية فإن الأمر يدعو للسخرية .

- إذن لماذا بحق الجحيم قلت إن هذه هي الطريقة التي ينبغي إطلاق الرصاص بها ؟

وبدأ يسير متوجهها نحو السيارة وهو يوجهها من خلال الإمساك بذراعها . إذا كنت تتلقين التدريب والتعليم على أيدي ميشيل عندئذ ينبغي أن تطلقى الرصاص وفقاً لأسلوبه ، فهو لا يعرف شيئاً عن الإمساك بالبنديقة بكلتا يديه . وميشيل نفسه قد اقتدى بأسلوب أخيه في إطلاق الرصاص أتريدين مني أن أطبع على كل أنحاء جسدك عبارة «صنعت في إسرائيل » ؟

فقالت في غضب وهي تمسك بذراعه : ولماذا لا يستخدم هو كلتا يديه؟ ولماذا لا يعرف هو كيف يطلق الرصاص بالأسلوب السليم؟ ولماذا لم يتم تعليمه؟ أخبرتك أنه تعلم على يدي أخيه .

إذن لماذا لم يقم أخيه بتعليمه على النحو الصحيح؟ وكانت متلهفة بالفعل للحصول على إجابة شافية على تساؤلها ، إذ كانت تشعر بشيء من الخزي . وأصبحت على استعداد للانفجار في ثورة من الغضب ، ويبدو أنه أدرك ذلك لأنه ابتسم وأذعن بالطريقة الخاصة به .

وقال : «إنها إرادة الله التي تجعل خليل يطلق الرصاص وهو ممسك بالبنديقة بيد واحدة» .

- لماذا؟

فهزَ رأسه وطرد سؤالها من ذهنه ، وعادا إلى السيارة .

- هل أخيه الأكبر يسمى خليل؟

- نعم .

- لقد سبق لك أن قلت لي إن هذا هو الاسم العربي لكلمة هيلون .

فشعر بالسرور ، وإن كان ذهنه مشتتا على نحو عجيب . وقال «الكلمتان» :
كلمة خليل هي اسم مدینتنا ، وكلمة خليل هي اسم أخي ، وكلمة خليل بمعنى صديق
الله وكلمة خليل هي اسم النبي ابراهيم الذي ينال كل تبجيل واحترام من الدين
الإسلامي والذي يوجد جسده في الجامع القديم الخاص بنا .

فقالت في ترجمة : خليل

رد : «خليل تذكرى هذا الاسم تماماً ، وتذكري الظروف التي قال لك فيها
هذا الاسم . لأنك يحبك ، ولأنك يحب أخيه . ولأنك قد قمت بتقبيل بندقية أخيه
وأصبحت متنمية لدمائه » وانطلقوا هابطين بالسيارة على سطح التل . وكان يوسف
هو الذي يقود السيارة . ولم تعد تعرف ذاتها إذا كانت قد عرفت ذاتها في أي وقت
من الأوقات ، وكان صوت النيران التي أطلقتها مازال يدوي في أذنيها . وكان مذاق
ناسورة البندقية مازال ملتصقا على شفتيها . وعندما أشار لها بيده نحو أوليمبوس
فإن كل ما شاهدته بمثابة ركام من البياض والسود الشبيه بسحابة ذرية . وكان
ذهن يوسف مشغولا تماماً مثل ذهنتها . إلا أن هدفه كان يكمن على مسافة أبعد
أمامهما ، وأنثناء قيادته للسيارة استائف روایته داخلاً في تفاصيل وراء تفاصيل
خليل مرة أخرى الأوقات التي أمضياها سويا قبل أن يرحل من أجل الانخراط
في القتال . ونوتوجهما التي هي بمثابة اللقاء العظيم لروحيهما ، وأخته فاطمة وحبه
العميق لها . وتحدث عن إخوته الآخرين الذين لاقوا حتفهم جميعا واستشهدوا .
ووصلنا إلى الطريق الساحلي ، وأصبحت حركة المرور متوية مثل الرعد وسرعة
للغاية ، وكانت البلجاجات الملطخة بالبقع مليئة بالأكواد المتداعية المتهدمة . وكانت
أبراج المصنع مثل السجون التي تتطل عليها من أماكن علوية .

وحاولت الإبقاء على نفسها في حالة من الاستيقاظ من أجله . إلا أن
المجهود في نهاية الأمر كان أكثر مما تحتمل . فوضعت رأسها على كتفه . وهربت
بعض الوقت .

.....

كان الفندق الموجود في سالونيكا مبني كبيرا قديما من الطراز الادواري . كانت له قباب مضاءة بنور باهر هناك ما يدل على وجود مناسبة معينة بالفندق . أما الجناح الخاص بهما بالفندق فيوجد في الطابق العلوى الأخير علبة على وجود فجوة في جدار الغرفة خاصة بالأطفال . وكان يوجد بالجناح حمام تبلغ مساحته عشرين قدما علبة على وجود أثاث يرجع إلى طراز العشرينات . وقامت تشارلى بإضاءة اللمبات ، ولكنه أمرها بإطفائها . وكانت توجد مشربية أو نافذة ناتئة .

فوقف فيها وقد أعطى ظهره إليها . وراح يحملق في الميدان الملىء بالخضرة وفي الواجهة المائية التي تقع إلى ما وراء الميدان .

جلست تشارلى على السرير . وكانت الحجرة مليئة بموسيقى يونانية شاردة متراصة من الشارع .

- إذن . يا تشارلى .

فردلت نفس كلامه في هدوء : إذن . يا تشارلى .

- إذن فأنت قد أخذت على نفسك عهدا بالالتزام بمعركتي . ولكن ما هي طبيعة المعركة ؟ وكيف تخاض ؟ وأين ؟ لقد تحدثت عن السبب تكلمت عن العمل : نحن نؤمن ومن ثم فنحن نعمل قلت لك إن الرعب هو مسرح الأحداث . وأن العالم في بعض الأحيان ينبغي أن يرتج لكي نرغمه على الإصغاء للعدالة .

فتحرت في جلستها في شيء من القلق .

- أخبرتك مرارا وتكرارا في خطاباتي وخلال مناقشاتنا المطولة أنتي أعدك بأن أوصلك إلى نقطة الانطلاق والعمل . ولكنني راوغت وأبطأت وأجلت . حتى حلول هذه الليلة . ربما أنتي لا أثق فيك ، أو أنتي تعلمت كيف أحبك حباً جماً وبالتالي أصبحت لا أرغب في أن أضعك في الخطوط الأمامية . أنت لا تعرفين أي الاحتمالين هو الصحيح ولكنك في بعض الأحيان شعرت بأن مشاعرك قد أذيت بسبب التزامي بالسرية . وذلك وفقا لما يتضح من خطاباتك .

. وراحت تفكر مرة أخرى : الخطابات ، والخطابات دائما .

إذن كيف يمكن من خلال الأسلوب العملى أن تصبحى مقايلتى أو جنديتى الصغيرة ؟ وذلك هو ما سنقوم بمناقشته فى هذه الليلة . هنا . فى ذلك السرير الذى تجلسين عليه ، وفى الليلة الأخيرة من شهر العسل اليونانى الخاص بنا . وربما تكون هذه هى آخر ليلة لنا وإلى الأبد . لأنه لن يكون بمقدورك أبداً التاکد من أنك سوف تشاهدينى مرة أخرى .

استدار لكي يواجهها . وقال معلقا : أنت من النوع الذى يبكي كثيرا . وأظن أنك تبكين فى هذه الليلة . بينما تمسكين بي ، وتقسمين بأنك ستحببتنى للأبد . نعم ؟ أنت تبكين وأثناء انحرافك فى البكاء أقول لك لقد حان الوقت غداً سوف تحصلين على فرصتك . غداً سوف تردددين القسم الذى حلفتِ أمامي على بندقية خليل العظيم . إننى أمرك بل أطلب منك أن تقودى السيارة المرسيدس عبر الحدود اليوغوسلافية والاتجاه شمالاً والدخول إلى النمسا . وهناك فى النمسا سيدتم أخذ السيارة منك . ولسوف تكونين بمفردك . هل يمكن لك أن تفعلى ذلك ؟ ما رأيك ؟ فراحت تحملق فيه فى تمعن وهى معقودة اللسان وبنفس الطريقة التى تحملق بها فى الناس عندما تريد أن تكذب عليهم .

ثم سالها فى ملاظفة ومزاح بعض الشئ : حسنا ما هى ردود فعلك وما هو ردك عليه ؟ ولسوف تكونين بمفردك . وأنت تعرفين أن المسافة طويلة . وتبلغ حوالي ٨٠٠ ميل عبر أراضى يوغوسلافيا - وهذا مشوار طويل بالنسبة للمهمة الأولى التى تقومين بها . فما قولك ؟

فتساءلت : وما هى الأشياء التى ستكون موجودة بالسيارة ؟

واختار أن يسيء فهمها . ولم تعرف ما إذا كان قد تعمد ذلك أم لا . حيث قال : نقود . الظهور الأولى لك على المسرح الواقعى الحقيقى . وكل شئ وعدك به مارتقى وبدأ عقله مغلقا بالنسبة لها مثلاً هو ربما مغلق بالنسبة لنفسه . وكانت نغمة صوته مطوقة ومثيره للastonkar .

فقالت : إننى أعنى : ما هى الأشياء الموجودة بالسيارة ؟

ومرت ثلاثة دقائق . وبعدها أصبح صوته مليئا بالغطرسة والوعيد والضغوط . « وما هى الأهمية بالنسبة للأشياء الموجودة بالسيارة ؟ ربما تكون رسالة عسكرية . ربما تكون أوراقاً مهمة ، هل تعتقدين أن باستطاعتك أن تعرفي كل سر من أسرار الحركة العظيمة الخاصة بنا فى اليوم الأول لك معنا ؟

- هل ستقولين السيارة أم لا ؟ وذلك هو الشيء المهم فى هذا الموضوع .

لم تكن تريد الرد من جانب ميشيل وإنما تريد رده هو .

وقالت : لماذا لا يقوم هو بقيادة السيارة بنفسه ؟

- يا تشارلى . أن هذه هى المهمة التى ألقيت على عاتقك . ومن حيث إنك مجندة جديدة فلا ينبغي عليك أن تشکى وترتابى فى الأوامر التى تصدر إليك . وبالطبع اذا صدمت ، اذا ساورتك الشكوك فجأة - فى داخل نطاق الرواية - أنت قد تعرضت للتلاعب والمناورات على أيدي هذا الرجل وأن كل عبادته لك وكل سحره وفتنته وجماله وكل تأكيداته عن الحب الحالى .

ومرة أخرى بدا عليه كأنه يفقد الأرض الصلبة الراسخة التى يقف عليها وكان ذلك بمثابة التفكير الخاص بها القائم على الرغبة وليس على الحقائق أم أنها تفترض أن قدرًا من العاطفة زحفت عليه تحت جنح الظلم غير المكتمل فى تسلل غير ملحوظ وهو أمر كان يفضل أن يمنعه ويوقفه ؟

واستعاد صوته قوله : إننى أعنى فقط أنه فى هذه المرحلة إذا زالت الغشاوة عن عينيك وأصبحت تشاهدرين الأمور على حقيقتها أو إذا خانتك شجاعتك فمن الطبيعي أن تقولى : لا بكل تأكيد .

- كنت أوجه لك سؤالاً ، لماذا لا تقوم بنفسك - أنت يا ميشيل - بقيادة السيارة ؟

فتحرك بسرعة عائدا إلى النافذة ، وبدأ لتشارلى أن لديه الكثير من الأمور التي يريد أن يخدمها قبل أن يجيب على سوالها . وقال في تجلد وصبر « إن ميشيل

يقول لك هذا . ولا شيء أكثر من ذلك ، ومهما كانت نوعية الأشياء الموجودة بالسيارة فإنها أشياء حيوية ومهمة للغاية بالنسبة لكافاحنا ونضالنا ولكنها أيضاً أشياء خطيرة للغاية . فمثلاً شخص يقبض عليه متلبساً بقيادة تلك السيارة في أي نقطة تفتيش على مدى الـ ٨٠٠ ميل – وسواء أكانت السيارة تحتوى على منشورات هدامة أو أي مواد من نوع آخر ربما مثل الرسائل – فإنه سيقع في ورطة كبيرة . وليس بمقدور الضغوط الدبلوماسية أو المحامين الممتازين أن ينقذوا ذلك الشخص من التعرض للأوقات العصبية للغاية . فإذا كنت تنتظرين بعين الاعتبار إلى تجنب الأذى وذلك هو ما ينبغي عليك أن تفكري فيه فأنك على كل حال لك الحياة الخاصة بك . فأنك لست واحدة واحدة .

إلا أن تلعثمه – مهما كان خفيماً – أعطى لها ثقة بالنفس لم يسبق أن شعرت بها أثناء مراقبتها له من قبل . وقالت : سأله عن السبب في عدم قيادته للسيارة بنفسه . وأنا مازلت في انتظار سماع إجابته .

ومرة أخرى استجمع قواه ، وقال يا تشارلى ! إنني رجل فلسطيني نشيط مشهور بأنني مقاتل من أجل القضية . أنا أسافر بجواز سفر زائف مما قد يثير الشكوك في أي وقت . أما أنت .. فإنك فتاة إنجليزية جميلة وجذابة ذات مظهر حسن ومتسمة بالذكاء والسحر والجاذبية ولذلك فمن الطبيعي ألا يكون هناك خطر بالنسبة لك .

– لقد سبق لك أن قلت توا إنه توجد أخطار .

– هذا كلام فارغ . فمي Shirley يؤكد لك أنه لا توجد أخطار . توجد أخطار عليه أما بالنسبة لك أنت فلا توجد . وأنا أقول لك أفعل ذلك من أجلني . أفعل ذلك وكوني فخورة . من أجل حبنا من أجل الثورة . من أجل الأمور التي أقسمنا عليها بعضنا البعض . أفعل ذلك من أجل أخي العظيم . أكان كل القسم الذي نتفق به خاوياً من المعنى ؟ أكنت تتshedدين بحالات من النفاق الغربي عندما تظاهرت بذلك إنسانة ثورية ؟ وتوقف عن الكلام مرة أخرى ، ثم أضاف قائلاً «أفعل ذلك لأنك إذا

لم تفعلي ذلك ستكون حياتك أكثر خواء وتفاهة عمّا كانت عليه عندما قمت بالتقاطك عند الشاطئ».

فصححت له عبارته قائلة : تقصد في المسرح ولم يهتم بالتصحيح الذي أبدته . وظل واقفاً معطياً ظهره لها بينما نظراته مازالت متركزة على السيارة المرسيديس . لقد اتّخذ طابع يوسف مرة أخرى ، يوسف الذي يضغط على الحروف اللينة أثناء النطق بالكلام والذي يختار عباراته في حرص وحذر والذي يتحدث عن المهمة التي ستنتقد أرواح الناس الأبرياء .

اذن ها أنت . وهذه هي الروبيكون (★) الخاصة بك . هل تعرفين معنى الروبيكون ؟ يمكن لك أن تنفضي يديك من هذا الموضوع الآن وتعودي إلى وطنك - ويمكن أن تأخذى بعض النقود وتنسى الثورة وتنسى فلسطين وتنسى ميشيل وتنسى كل شيء .

- أو ؟

- أو تقودي السيارة . وتشنّي أول هجوم تقومين به من أجل القضية . وبمفردك ، وتقطعين مسافة ٨٠٠ ميل ما هو رأيك ؟

- وأين ستكون أنت ؟

وأصبح هدوئه أكثر رسوحاً مرة أخرى ثم اتّخذ من ميشيل ملذاً وملجاً: من الناحية الروحية سأكون قريباً منك . لكنني لا أستطيع تقديم يد العون لك . فلسوف تكونين بمفردك وتؤدين عملاً إجرامياً يوحى للعالم بأنّ الذين قاموا به هم عصابة كاملة من الإرهابيين ، ثم استطرد مرة أخرى ولكنه يوسف في هذه المرة ولسوف يقوم بعض الأولاد بتتبعك كمرافقين ، ولكنهم لا يستطيعون عمل أي شيء إذا سارت

(★) الروبيكون : نهر في شمال إيطاليا كان يشكل جزءاً من الحدود بين الجمهورية الرومانية والولايات التابعة لها . وقد اجتازه يوليوس قيصر في عام ٤٩ ق . م مشعلاً بذلك نار الحرب الأهلية التي جعلته سيد روما .

الأمور على غير ما يرام - باستثناء أنهم سيقدمون تقريراً عما حدث لمارتن ولـ شخصياً . فيوجوسلافيا ليست صديقة حميمة لإسرائيل .

ورفضت تشارلى التخلى عن موقفها . فكل الغرائز المتعلقة بالبقاء على قيد الحياة وال موجودة لديها أشارت إليها بـأن ترفض ، وأدركت أنه استدار لـكى ينظر إليها مرة أخرى . والتقت عيناهما مع حملقته السوداء وهـى تدرك أن وجهها كان مـرئياً بينما وجهه غير ذلك . وراحت تـفكـر : من الذى تحاربه ؟ هل تحارب نفسك أم تحاربـنى ؟ ولـماذا أنت بمثابة العدو فى كلا المعـسكـرين ؟

قالـت مـذـكـرة إـيـاه : لم نـسـتـكـمـلـ المشـهـد .

أـسـأـلـكـ - أـسـأـلـ كلـتاـ الشـخـصـيـتـيـنـ المـوـجـوـدـتـيـنـ فـىـ كـيـانـكـ - ماـذـىـ يـوـجـدـ فـىـ دـاـخـلـ السـيـارـةـ ؟ـ تـرـىـدـ مـنـىـ أـقـوـدـ السـيـارـةـ .ـ وـأـنـاـ أـرـىـدـ أـنـ أـعـرـفـ الـأـشـيـاءـ المـوـجـوـدـةـ بـالـسـيـارـةـ عـلـىـ وـجـهـ الدـقـةـ .ـ الـآنـ .

قالـ فـىـ صـوـتـ مـتـحـرـرـ :ـ مـتـفـجـرـاتـ مـائـتـىـ رـطـلـ مـنـ مـتـفـجـرـاتـ الـبـلـاسـتـيـكـيـةـ الـرـوـسـيـةـ مـقـسـمـةـ إـلـىـ مـجـمـوعـاتـ مـنـ الـأـصـابـعـ يـبـلـغـ وـزـنـ كـلـ مـنـهـ نـصـفـ رـطـلـ .ـ مـتـفـجـرـاتـ مـنـ نـوـعـ جـدـيدـ قـادـرـ عـلـىـ تـحـمـلـ أـقـسـىـ درـجـاتـ الـحرـارـةـ وـالـبـرـودـةـ .ـ إـنـهـ لـدـائـنـيـةـ تـحـتـ كـافـةـ درـجـاتـ الـحرـارـةـ .

فـقـالـتـ تـشـارـلـىـ :ـ وـمـاـ هـىـ الـأـمـاـكـنـ الـتـىـ خـبـيـتـ فـيـهاـ فـىـ دـاـخـلـ السـيـارـةـ ؟ـ

-ـ فـىـ الـسـتـارـ الـلـوـجـوـدـ أـعـلـىـ النـافـذـةـ ،ـ وـفـىـ الـقـضـبـانـ الـمـقـاطـعـةـ .ـ وـفـىـ بـطـانـةـ السـقـفـ .ـ وـفـىـ الـمـقـاعـدـ .

-ـ وـفـىـ أـىـ شـىـءـ سـيـتـمـ اـسـتـخـدـامـ هـذـهـ مـتـفـجـرـاتـ ؟ـ

-ـ سـوـفـ تـسـتـخـدـمـ مـنـ أـجـلـ الـكـفـاحـ الـخـاصـ بـنـاـ .

-ـ وـلـكـنـ لـمـاـذـاـ يـتـمـ نـقـلـ هـذـهـ مـتـفـجـرـاتـ عـلـىـ طـولـ هـذـهـ مـسـافـةـ الرـهـيـةـ ؟ـ وـلـمـاـذـاـ لـاـ يـتـمـ الـحـصـولـ عـلـىـ مـتـفـجـرـاتـ فـىـ أـورـوـبـاـ ؟ـ

-ـ إـنـ لـأـخـىـ مـبـادـئـ الـخـاصـةـ بـهـ وـالـتـىـ تـتـعـلـقـ بـالـالـتـزـامـ بـالـسـرـيـةـ الـتـامـةـ .

ويرغمى على الالتزام بتلك المبادئ بكل دقة . والدائرة التي يثق فيها خصيصة ومحبودة للغاية . وهو لن يتسع في هذه الدائرة ، حقيقة الأمر إنه لا يثق في العرب أو الأوروبيين .

تساءلت تشارلى في هدوء . وفي هذه الحالة ما هو الشكل الذي يمكن أن يتتخذ كفاحنا على وجه الدقة ؟

فقال على الفور : قتل يهود الشتات . نظرا لأنهم قد شتتوا الشعب الفلسطينى فإننا نقوم بمعاقبتهم في شتاتهم . ونعلن عن كفاحنا لكي يصل إلى أسماع العالم كله . وبهذه الطريقة أيضاً يمكن لنا إيقاظ الضمير النائم للطبقات العاملة .

- حسنا ، هذا الكلام يبدو معقولا بما فيه الكفاية .

- شكرا جزيلاً .

- وأنت ومارتنى - اعتقدتما أنه من الملائم أن أقوم بقيادة السيارة إلى أن أصل إلى النمسا ، وذلك نيابة عنهم . ولكن أسدى لهم معروفا .

- لو سمحت يا يوسف أرجو أن تلف ذراعيك حولى ممكناً ؟ إننى لست منفحة في الملذات . كل ما هناك أنتى أحسست بمشاعر الوحدة والاكتئاب بعض الشئ .

فمد ذراعاً واحدة حول كتفها . وعندئذ ارتعشت تشارلى في عنة ، ثم أمالت جسدها . ولفت ذراعيها حوله واحتضنته وعانته . وابتهرت عندما أدركت أنه تجاوب بشدة معها ، وراح ذهنها يعمل في كل مكان في وقت واحد على الفور مثل عين تشاهد بانوراما شاسعة وغير متوقعة . لكنها بدأت تشاهد في وضوح شديد في نهاية الأمر تلك الرحلة الطويلة التي تمتد أمامها على طول الطريق وتشاهد الرفقاء عديمى الوجوه للجيش الآخر الذى هي بقصد الانضمام إليه . ساءلت نفسها في تعجب : ترى هل يرسلنى أم يكبح جماحى ؟ انه يستيقظ ويخلد إلى النوم في نفس الوقت . وكانت ذراعاه مازالت تطوقها . فأعطتها ذلك شجاعة

جديدة . وحتى الآن وتحت الطهارة والغففة التي يصر على الالتزام بها فإنها اعتقدت أن جسدها الذي لم تخصصه لرجل واحد أصبح غير ملائم بالنسبة له . والآن ولأسباب لم تعرفها بعد فإن ذلك كراهية النفس قد تلاشت عنها قالت وهي ما زالت ممسكة به : استمر في اقناعي والتزم بتائدة المهمة الخاصة بك .

- ألا يكفي أن ميشيل يرسلك رغم أنه لا يريد لك أن تذهبى ؟

لم ترد .

- أينبغي على أن أورد اقتباسا من شيلي الجمال العاصف للرعب ؟ أينبغي على أن أذكرك بوعودنا العديدة بأننا على استعداد أن نقتل لأننا مستعدون لأن نموت ؟

دفت وجهها في صدره ، وقالت مذكرة إياه :

- وعدتني بأن تبق قريبا مني ، ثم شعرت بقبضته تتراخي مع تزايد الحدة في صوته .

وقال في لهجة محسوبة بحيث تصدها أكثر مما تقنعها :

- لسوف أكون في انتظارك في النمسا ، وذلك هو وعد ميشيل لك ، وهو أيضاً الوعد الخاص بي .

فتراجعت عنه بعض الشيء وأمسكت بيده بين يديها بنفس الطريقة التي أمسكت بها يده عندما كانا في الأكروبوليس . وراحت تتفحص يده في تمعن تحت الأضواء المترامية من الميدان وأحسست بأن يده أوصدت في وجهها مثل باب لا يجعلها تدخل أو تخرج ، وشعرت بالبرد والإثارة في نفس الوقت . فسارت عائدة إلى السرير ، وجلست عليه مرة أخرى ، وظهر في صوتها أيضاً ثقة جديدة أحدثت تأثيراً عليها وكانت عيناها واقعة على سوارها حيث راحت تدبر السوار وهي تفك في الجو المشوب بالظلم الخفيف .

تساءلت : اذن ما هو الطريق الذي تريده . هل تبقى تشارلى وتتجز هذه المهمة ؟ أم تأخذ تشارلى النقود وتهرب ؟ ما هو السيناريو الشخصى الخاص بك ؟

- تعرفي المخاطر والأخطار . وعليك أن تقرري .

- وأنت تعرف المخاطر . وعلى نحو أفضل مني ، فائت قد عرفت تلك المخاطر منذ البداية .

- وأنت سمعت كافة المناقشات . من مارتي ومني أيضاً .

وقامت تشارلى بفك السوار . وجعلته ينزلق في راحة يدها ، وقالت : نحن ننقذ حياة الأبرياء . هذا على فرض أننى سأقوم بتسليم المتفجرات . وبالطبع يوجد أولئك الناس السذج المغفلون الذين يفترض أن المرء يمكنه أن ينقذ المزيد من الأرواح في حالة عدم قيامه بتسليم المتفجرات . ولكنهم سيكونون مخطئين في رأيهم أليس كذلك ؟

- على المدى البعيد . وإذا سارت كل الأمور على ما يرام فإنهم سيكونون مخطئين في رأيهم .

أولاها ظهره ثم راح يتفحص المنظر المترامي أمامه من النافذة استطردت في الكلام وهي تضع الإسورة في معصمها مرة أخرى : لو كنت أنت ميشيل الذي يتحدث إلى هذا أمر سهل لقد فاجأتني وأذهلتني وقمت بتقبيل البندقية وأنا لا أستطيع الانتظار من أجل الوصول إلى الحاجز والمتاريس . وإذا كنت لاتؤمن بذلك فإن أفضل مساعدتك ومحاولتك خلال الأيام القليلة الماضية تكون قد فشلت ولكن المساعي لم تفشل . فتلك هي الطريقة التي تختارني بها للقيام بهذا الدور ، وتلك الطريقة التي حصلت بها على وخلاصة الكلام : لسوف أذهب .

شاهدته يومئ برأسه بعض الشيء متقلاً كلامها : وإذا كنت أنت يوسف الذى يتكلم . فما هو الفارق ؟ ماذا قلت : لا فإننى لن أتمكن من روبيك مرة أخرى على الإطلاق ، حيث سأرجع إلى نوہير سفیل بعد مصافحة ذهبية باليد .

ولدهشتها أدركت أنه فقد الاهتمام بها . وارتقت كتفاه وهو يطلق نفسها طويلاً . ظل رأسه ملتفتا نحو النافذة ، وظل نظراته مثبتة على الأفق . واستأنف كلامه ، فاعتقدت فى بادئ الأمر أنه كان يتتجنب النتائج المترتبة على الكلام الذى

تقوله . ولكنها لدى استمرارها في الإصغاء أدركت أنه كان يوضح السبب في أنه لم يكن هناك أي اختيار حقيقي بالنسبة له وبالنسبة لها في آن واحد .

وأعتقد أن ميشيل كان مسرورا من هذه المدينة وإلى أن بدأ الألمان يحتلون هذا المكان فإنه كان يعيش ستون ألف يهودي في سعادة على سفح ذلك التل . عمال وتجار وأصحاب بنوك ، وسافارديم . جاءوا إلى هنا قادمين من أسبانيا عبر البلقان . ومع حلول الوقت الذي غادر فيه الألمان هذا المكان لم يكن قد تبقى أي يهود . فأولئك الذين لم يتعرضوا للإبادة شقوا طريقهم إلى إسرائيل .

كانت مستلقية في السرير . أما يوسف فما زال موجودا عند النافذة حيث يرقب تلاشى الضجيج والتأجج في الشارع وساعلت نفسها في تعجب بما إذا كان سيترك النافذة ويجيء إليها رغم أنها تعرف أنه لن يفعل ذلك ، ثم سمعت صريراً عندما مدد جسده على الأريكة وحيث أصبح جسده موازيًا لجسمها ولم يعد يفصل بينهما سوى المسافة الطويلة التي تشغلهما يوغوسلافيا . كانت تشعر بالرغبة فيه أكثر من شعورها بالرغبة في أي شخص آخر على مدى حياتها السابقة ، وكان خوفها من المستقبل هو الذي عمق من رغبتها وتساءلت : هل لك إخوة وأخوات يا يوسف ؟

- أخ واحد .

- ماذا يعمل ؟

- مات في حرب عام ١٩٦٧ .

فقالت «إنها الحرب التي طردت ميشيل عبر الأردن» لم تتوقع أبداً أن يعطيها إجابة صادقة . ولكنها تدرك أنه لديه الإجابة الحقيقية . سأله : هل اشتراكك في تلك الحرب أيضاً ؟

- كنت أتوقع ذلك .

- وهل اشتراكك في الحرب السابقة على حرب عام ١٩٦٧ . وهي تلك الحرب التي لا أذكر تاريخها ؟

- تقصدين حرب عام ١٩٥٦

- نعم؟

- نعم

- وهل اشتراكك في الحرب التي حدثت بعد عام ١٩٦٧ . أعني حرب عام

١٩٧٣؟

- من المحتمل

- وما هي الأسباب التي دعوك للمشاركة في هذه الحروب؟

- اشتراكك في حرب عام ١٩٥٦ لأنني كنت أريد أن أصبح بطلاً ، واشترك في حرب ١٩٦٧ سعياً وراء تحقيق السلام ، واشترك في حرب عام ١٩٧٣ من أجل إنقاذ إسرائيل .

- وماذا عن الآن؟ ما الذي تقاتل من أجله هذه المرة؟

راح تفكّر : لأن الحرب موجودة هناك . من أجل إنقاذ حياة الناس ، لأنهم طلبوا مني أن أحارب ، حتى يمكن للأهالي والقرويين أن يرقصوا رقصة الدبكة ويستمعوا إلى قصص المسافرين عند البئر .

- يوسف؟

- نعم . يا تشارلى

- كيف أصبت بتلك الندبات الغائرة المقرعة؟

وتحت جنح الظلام اكتسبت فترات صمته الطويلة الإثارة التي تكتنف نيران التخييم وحفلات السمر الخاصة بالجنود والكتشافة .

- آثار الحروق حدثت لي أثناء جلوسي في داخل الدبابة . والندبات الناجمة عن طلقات الرصاص حدثت لي أثناء خروجي من الدبابة .

- كم كان عمرك آنئذ؟

- عشر . واحد وعشرون عاماً

• وتساءلت وهي مصممة على البقاء على القوة الدافعة : ومن هو والدك ؟

- كان من الرواد الأوائل . من أوائل المستوطنين .

- ومن أين جاء والدك ؟

- من بولندا .

- متى ؟

- في العشرينات . في خلال الهجرة الثالثة .

- ماذا كانت حرفته ؟

- كان يشتغل في أعمال البناء . كان بناء يعمل مستخدما يديه . ولقد تمكن من تحويل الكثبان الرملية إلى مدينة تسمى حاليا تل أبيب . يؤمن بالذهب الاشتراكي من النوع الذي يهتم بالطابع العملي البراجماتي ، لم يشغل ذهنه كثيراً بالأمور الألهية . لم يشرب الخمور في حياته . ولم يمتلك أبداً أى شيء تزيد قيمته على دولارات قليلة .

تساءلت : وهل ترغب في أن تكون على شاكلته ؟

راحـت تـفـكـر : إنـه لـن يـجـب أـبـداً عـلـى هـذـا التـسـاؤـل ، لـقـد غالـبـه النـعـاسـ. لا تـكونـي وـقـحةـ . ولا تـدخلـي فـي تـفـاصـيلـ غـير مـرـتـبـطةـ بـالـمـوـضـوـعـ الرـئـيـسـيـ .

رد بطريقة جافة : إنـى اخـتـارـتـ المـهـنـةـ الـأـعـلـىـ ، وـرـاحـتـ تـفـكـرـ أوـ المـهـنـةـ الـأـعـلـىـ هـىـ الـتـىـ اخـتـارـتـ ، اـذـ لـاـ مـجـالـ لـأـنـ تـخـتـارـ لـأـنـ وـلـدـتـ فـيـ جـوـ مـنـ الـعـبـودـيـةـ وـالـأـسـرـ وـعـلـىـ نـحـوـ مـاـ وـبـسـرـعـةـ كـبـيرـةـ اـسـتـغـرـقـتـ فـيـ النـومـ فـجـأـةـ .

.....

الـأـنـ جـادـىـ بـيـكارـ الجـنـدـىـ المـقـاتـلـ المـتـرـسـ ظـلـ مـسـتـيقـظـاـ فـيـ صـبـرـ وـجـلـدـ حيثـ كـانـ يـحـملـقـ فـيـ الـظـلـامـ وـيـصـفـيـ لـلـتنـفـسـ غـيرـ الـمـنـظـمـ الصـادـرـ عنـ الـجـنـدـةـ الشـابـةـ الـخـاصـةـ بـهـ . لـمـاـذاـ تـكـلمـ مـعـهـ عـلـىـ ذـلـكـ النـحـوـ ؟ـ لـمـاـذاـ كـشـفـ عـنـ نـفـسـهـ أـمـامـهـ فـيـ نـفـسـ الـلـحـظـةـ الـتـىـ كـانـ يـوـفـدـهـ فـيـهاـ فـيـ أـوـلـ مـهـمـةـ تـكـلـفـ بـهـ؟ـ لـمـ يـعـدـ يـثـقـ فـيـ

نفسه فى بعض الأحيان . وسائل نفسه فى تعجب : ترى ما الذى أحلم أنا به : هل أتطلع إلى الحرب أم إلى السلام ؟ وحس أنه كبير فى السن للغاية سواء بالنسبة للحرب أو السلام . إنه عجوز بحيث إنه لا يستطيع مواصلة المشوار . ومع ذلك فهو غير قادر أن يكبح جماح نفسه . وهو عجوز بحيث أنه يعرف رائحة الموت قبل أن يمارس عملية القتل .

راح يصفى مرة أخرى لدى استقرار إيقاع تنفسها حيث صار تنفسها أكثر هدوءاً لدى استفراقها فى نوم عميق . ورفع معصمه فى الظلام على طريقة كيرتز فشاهد القرص المضيئ فى ساعته . وعلى وجه السرعة ارتدى رداءه الأحمر اللون وتسلل خارجاً من الغرفة فى هدوء .

وكان حارس نوبة الليل يتسم بالذكاء والتيقظ وما إن شاهد الجنتمان المرتدى للثياب الأنثية يقترب نحوه حتى أحس على الفور أنه على وشك أن يحصل على بقشيش كبير .

وقال بيكار فى لهجة أمرة : هل لديك الاستثمارات الشاغرة التى تحرر من أجل إرسال البرقيات ؟

وشرع بيكار فى الكتابة . بحروف كبيرة وواضحة مستخدماً الحبر الأسود . كان العنوان محفوراً فى داخل ذهنه - وهو عنوان محامى فى جنيف . اذ كان كيرتز قد أبلغه بذلك العنوان من خلال إشارة بعث بها إليه من ميونيخ بعد التأكد من خلل يانوكا أن ذلك العنوان مازال مستخدماً وسارى المفعول . وكان نص الكلام الذى يكتبه محفوراً فى داخل ذهنه أيضاً . اذ بدأ النص كالتى : «أرجو أن تبلغ الزبون الخاص بك» وأشار إلى الروابط القوية التى تتمشى مع التعاقد القياسى الخاص بنا . وتضمنت الصيغة ٤٥ كلمة . وبعد أن قام بمراجعة أضاف التوقيع الذى مرته عليه شوياللى فى صبر . ثم ناول الحارس الصيغة وأعطاه ٥٠٠ دراخمة بقشيش :

- أريد أن ترسل هذه الصيغة مرتين هل تفهمنى . نفس الرسالة تبعث بها

مرقين . تبعث بها الآن تليفونيا ، ومرة أخرى ترسلها في الصباح من مكتب البريد ولا تكلف أى ولد من الأولاد لكي يقوم بهذه المهمة . يجب أن تقوم بهذا الإنجاز بنفسك . وبعد ذلك ترسل لى نسخة الضمان إلى غرفتي .

كان الحارس على استعداد تام لأن ينفذ كل التعليمات التي أصدرها له ذلك الجنلمان بكل دقة . فقد سمع عن البقشيشات الخيالية التي يدفعها العرب وكان يحلم دائماً بهذه البقشيشات . وفي هذه الليلة وعلى نحو فجائي وغير متوقع قد اصطاد بقشيشاً عظيماً في نهاية الأمر وكانت هناك خدمات أخرى عديدة يرغب في تقديمها لذلك الجنلمان . إلا أنه كان غير مستعد لتقدير اقتراحاته ، ثم شاهد الباب الغنية الخاصة به وهي تسير بخطوات واسعة في الشارع ، ثم الاتجاه نحو الواجهة المائية . وكانت السيارة الفان الخاصة بالاتصالات واقفة في مكان الانتظار ، لقد حان الوقت لكي يقوم جادى بيكار بإرسال تقريره مع التأكيد بأن كل شيء يسير على ما يرام من أجل القيام بالهجوم الكبير .

الفصل السادس عشر

كان الدير يقع على مسافة كيلومترتين من الحدود في وادٍ مليء بالصخور الجلمودية ونباتات البردي الصفراء اللون.. لقد كان مكاناً حزيناً كثيراً منتهك القدسية وله أسقف ساقطة ومنهارة، وبه فناء يضم صومعات متهدمة مع وجود رسومات عن فتيات ترقصن رقصة الهولا الوطنية الخاصة بجزر هاواي على الجدران الحجرية. لقد قام أحد الأشخاص خلال الفترة التي أعقبت ظهور المسيحية بإنشاء حانة للرقص في هذا المكان، ولكنه اضطر للهرب من ذلك المكان شأنه في ذلك شأن الرهبان، وعلى الوسادة الخرسانية التي كانت تستغل كأرضية للرقص وقفت المرسيدس الحمراء مثل جواد حربي يلقي الرعاية ويستعد لدخول معركة، وإلى جوار السيارة توجد البطلة التي سوف تستقلها. كان يوسف واقفاً بالقرب من البطلة من أجل الإشراف، على كافة التفاصيل. ياتشارلي: هذا هو المكان الذي أحضرك إليه ميشيل من أجل تغيير لوحات أرقام السيارة ومن أجل توديعك، وهذا هو المكان الذي قام فيه بتسليمك الأوراق المزيفة والمفاتيح. ياروز إمسحى لوحة الباب تلك مرة أخرى لوسمحت. ويا راشيل ما هي قطعة الورق الملقة على الأرض؟ لقد أصبح يوسف الذي ينشد الكمال في عمله مرة أخرى، حيث راح يلقي الأوامر التي تتعلق بكافة التفاصيل. وكانت العربية «الفن» الخاصة بالاتصالات واقفة في مواجهة السور الخارجي بينما يهتز الهوائي بها في رفق في النسيم الساخن.

وكانت لوحات أرقام ميونيخ قد تم تثبيتها بالفعل في أماكنها، وتم وضع اللوحة الألمانية المليئة بالتراب لكي تحل محل الورقة المصمفة الدبلوماسية المتتصقة، وتم التخلص من النفايات التي لا لزوم لها، ثم بدأ بيكار يدخل الهدايا التذكارية لكي تحل محلها: كتاب للإرشاد السياحي إلىacropolis قد دفع به في جيب أحد

الأبواب ونسى هناك. وينور العنبر وضعت في طفافية السجائر. وقشر برتقال ألقى على الأرضية. واثنتان من عصى الأيس كريم اليوناني وقطع من ورق الشيكولاتة. وتذكرتان ملغيتان من أجل زيارة الأماكن الأثرية لمعبد دلفي. علاوة على خريطة لبلاد اليونان صادرة عن شركة «إسو» وقد أشرَّ على الطريق الواقع ما بين دلفي وتيسالونيكا بقلم فلوماستر علاوة على تعليقين هامشيين بمعرفة ميشيل باللغة العربية قربين من تلك النقطة الموجودة في التلال حيث قامت تشارلى بإطلاق البنديبة باستخدام يد واحدة مع عدم التمكن من إصابة الهدف. ومشط به قليل من الشعر الأسود اللون بينما أسنان المشط ملطخة بدهان الشعر الألماني اللاذع الخاص بمشيل. وقفاز جلدى للقيادة به قليل من الاسبراي الذى يستخدمه مشيل. وعلبة نظارة تتناسق مع نظارة الشمس التى تهشممت نتيجة خطأ ناجم عن الإهمال وذلك عندما حاول صاحب هذه النظارة أن يلتقط راشيل عند نقطة الحدود.

وأخيراً أخضع تشارلى نفسها لتفحص دقيق يشمل كل جسدها المغطى بالملابس ابتداء من حذائهما حتى رأسها علاوة على تفحص كافة محتويات حقيبة يدها التي أفرغت محتوياتها فوق منضدة صغيرة.

أخيراً قال: عليك الآن - أن تعيدي كافة الأشياء إلى حقيبة اليد، ثم راح يرقبها وهي تعيد كل شيء بنفسها - المنديل وأحمر الشفاه ورخصة القيادة والعملات المعدنية والمحفظة والهدايا التذكارية والمفاتيح وكل الأشياء التي إذا فحست فإنها تؤكد الرواية المعقدة الخاصة بمراحل حياتها العديدة.

تساءلت: وماذا عن خطاباته؟ فهو إذا كان قد كتب كل تلك الخطابات المتوجة من أجلى فإنه من الطبيعي أن أحمل معى تلك الخطابات إلى كل مكان أذهب إليه. أليس كذلك؟ فلاذ يوسف بالصمت. ثم قال أخيراً: إن مشيل لا يسمع بذلك. وأنت لديك تعليمات مشددة بأن تحتفظى بهذه الخطابات في مكان آمن في شققك وعدم عبور نقاط الحدود بينما هذه الخطابات معك على الإطلاق، واستخرج من الجيب الجانبي لسترتته مفكرة يومية صغيرة ملفوفة في ورق السيلوفان الوقائي. وكانت مجلدة بالقماش ومزودة بقلم رصاص صغير عند الظهر. واستطرد: «نظراً

لأنك لا تحفظين معك بمفكرة يومية فإننا قررنا أن نجهز واحدة من أجلك». فتقبلت هذه المفكرة في انتعاش. ونزعـت ورق السيلوفان. واستخرجـت القلم الرصاص. واكتشفـت أنـ به آثار عـضـات الأسـنان وهـى العـادـة التـى مـازـالت تـفعـلـها معـ أـقلـامـ الرـصـاصـ: حيثـ اـعـتـادـتـ أـنـ تـقـضـمـ بـأـسـنـانـهـاـ أـقلـامـ الرـصـاصـ. وـراـحتـ تـتـصـفحـ سـتـ صـفـحـاتـ مـنـ المـفـكـرـةـ. وـوـجـدـتـ الـمـقـدـمـاتـ التـىـ كـتـبـهـاـ شـوـيـالـىـ مـتـطـابـقـةـ مـعـهـاـ تـمـاماـ وـذـلـكـ مـنـ خـلـالـ دـقـةـ لـيـونـ وـمـنـ خـلـالـ الـذـاـكـرـةـ الـالـكـتـرـوـنـيـةـ الـخـاصـةـ بـالـمـسـ باـخـ. وـلـاـ يـوـجـدـ كـلـامـ عـنـ الفـتـرةـ الـخـاصـةـ بـنـوـتـجـهـاـمـ: اـذـ هـبـطـ عـلـيـهـاـ مـيـشـيلـ فـجـأـةـ وـبـدـونـ سـابـقـ اـنـذـارـ. وـبـالـنـسـبـةـ لـفـتـرـةـ يـوـرـكـ يـوـجـدـ حـرـفـ الـمـيمـ كـبـيرـاـ وـبـجـوارـهـ عـلـامـةـ اـسـتـفـهـاـمـ مـعـ وـجـودـ دـائـرـةـ حـولـ عـلـامـةـ اـسـتـفـهـاـمـ. وـفـىـ رـكـنـ مـنـ نـفـسـ الـيـوـمـ يـوـجـدـ رـسـمـ عـابـثـ طـوـيـلـ مـلـىـءـ بـالـتـأـمـلـ. وـهـوـ الرـسـمـ الـذـىـ تـمـارـسـهـ عـنـدـمـاـ كـانـتـ تـسـتـسـلـمـ لـأـحـلـامـ الـيـقـظـةـ. وـوـرـدـ وـصـفـ عـنـ سـيـارـتـهـاـ الـفـيـاتـ فـىـ السـاعـةـ التـاسـعـ صـبـاحـاـ. وـوـرـدـ كـلـامـ عـنـ وـالـدـتـهـاـ أـيـضـاـ: لـمـ يـتـبـقـ سـوـىـ أـسـبـوـعـ عـلـىـ عـيـدـ مـيـلـادـ وـالـدـتـىـ. إـنـنـىـ أـشـتـرـىـ هـدـيـةـ الـآنـ. كـمـ وـرـدـ كـلـامـ عـنـ أـلـستـيرـ: «ـآـلـ»ـ يـذـهـبـ إـلـىـ جـزـيرـةـ وـاـيـتـ. وـبـالـنـسـبـةـ لـفـتـرـاتـ الـعـادـةـ الـشـهـرـيـةـ الـخـاصـةـ بـهـاـ كـانـتـ تـوـجـدـ خـطـوـطـ مـتـمـوـجـةـ. وـتـصـفـحـتـ الـمـزـيدـ مـنـ الصـفـحـاتـ. وـوـصـلـتـ إـلـىـ الـأـجـازـةـ الـيـونـانـيـةـ فـوـجـدـتـ اـسـمـ «ـمـيـكـونـوسـ»ـ مـكـتـوبـاـ بـحـرـوفـ كـبـيرـةـ كـئـيـةـ. وـإـلـىـ جـوارـهـ جـدـولـ موـاعـيدـ المـغـادـرـةـ وـالـوصـولـ لـلـسـفـيـنـةـ التـشـارـتـرـ، وـلـكـنـهـاـ عـنـدـمـاـ وـصـلـتـ إـلـىـ الـيـوـمـ الـذـىـ شـهـدـ وـصـولـهـاـ إـلـىـ أـثـيـنـاـ فـإـنـ الصـفـحـتـيـنـ كـلـتـيـهـمـاـ أـصـبـحـتـاـ مـضـاءـ تـينـ بـسـرـبـ مـنـ الطـيـورـ الـمـحـلـقـةـ فـىـ الـجـوـ...ـ الـمـرـسـومـةـ بـقـلـمـ ذـىـ سـنـ كـرـوـىـ بـالـلـوـنـينـ الـأـزـرـقـ وـالـأـحـمـرـ. فـأـسـقطـتـ الـمـفـكـرـةـ الـيـوـمـيـةـ فـىـ حـقـيـقـيـةـ الـيـدـ الـخـاصـةـ بـهـاـ وـأـغـلـقـتـهـاـ فـىـ حـدـةـ وـبـصـوتـ مـسـمـوـعـ. وـأـحـسـتـ أـنـهـاـ قـذـرـةـ وـمـنـتـهـةـ وـمـعـتـدـىـ عـلـيـهـاـ. كـانـتـ تـرـيدـ أـنـاسـاـ جـدـداـ بـحـيـثـ يـكـونـ بـمـقـدـورـهـاـ أـنـ تـفـاجـئـهـمــ.ـ أـنـاسـاـ لـاـ يـسـتـطـيـعـونـ تـزـيـيفـ مـشـاعـرـهـاـ وـتـقـلـيدـ خـطـهـاـ فـىـ الـكـتـابـةـ عـلـىـ نـحـوـ دـقـيقـ بـحـيـثـ لـاـ يـمـكـنـهـاـ التـمـيـزـ بـيـنـ الـخـطـ الـحـقـيقـيـ وـالـخـطـ الـرـائـفـ. رـبـماـ كـانـ يـوـسـفـ يـدـرـكـ ذـلـكـ. وـرـبـماـ قـرـأـ ذـلـكـ فـىـ سـلـوكـهـاـ الـجـافـ. كـانـتـ تـأـمـلـ فـىـ ذـلـكـ. رـاحـ يـفـتـحـ بـاـبـ السـيـارـةـ لـهـاـ بـيـدـهـ الـمـرـتـديـةـ لـلـقـفـازـ. فـدـخـلـتـ إـلـىـ السـيـارـةـ عـلـىـ وـجـهـ السـرـعـةــ.

وقال في لهجة آمرة: أنظر إلى الأوراق مرة أخرى فقالت وهي تنظر في خط مستقيم أمامها: لست بحاجة لأن أفعل ذلك.

ما هو رقم السيارة؟

فذكرت له رقم السيارة.

ما هو تاريخ التسجيل؟

فذكرت له تاريخ التسجيل: قصة في داخل القصة في داخل القصة. وكانت السيارة من الممتلكات الخاصة لطبيب من ميونيخ ينتمي للطبقة الاجتماعية العليا وهو الحبيب الحالي لها. وهي قد نزودت باسمه. والسيارة مؤمن عليها ومسجلة باسمه وكل ذلك وارد في الأوراق الزائفة.

— وهذا الطبيب النشط لماذا لا يوجد معك؟ انه بميشيل الذي يسألك هذا السؤال. هل تفهمين؟

وفهمت: لقد اضطر لأن يعود بالطائرة من سالونيكا في هذا الصباح من أجل حالة مرضية عاجلة. ولقد وافقت أن أقود له السيارة نيابة عنه. كان موجوداً في أثينا من أجل إلقاء محاضرة. ولقد قمنا ببعض الجولات السياحية سويا.

— وكيف تقابلت معه لأول مرة في بادئ الأمر؟

— تقابلت معه في إنجلترا. فهو الطبيب الذي يعالج والدى — فهو يعالجهما من الآثار التي تترتب على الإفراط في تناول الخمور والكحوليات. ووالدай يعيشان في ثراء فاحش.

— وبالنسبة للطوارئ فأنت لديك مبلغ الألف دولار الخاصة بميشيل في حقيبة يدك. وهو المبلغ الذي أقرضك إياه من أجل الرحلة. وفي مقابل ساعات العمل الإضافية وفي مقابل الازعاج الذي سببته لهؤلاء الناس فإنهم قد يفكرون في صرف اعانت مالية صغيرة. ما هو اسم زوجته؟

— رينات كم أكره هذه المرأة العاهرة.

- وما هي أسماء الأطفال؟

- كريستوف ودوروثيا، وأنا على استعداد لأن أكون أما ممتازة لهذين الطفلين اذا ما تتحت رينات ووقفت بعيداً على جانب. أريد أن أنطلق الآن. أتريد أي شيء آخر؟

- نعم.

فأوحت له في داخل ذهنتها: يبدو عليك وكأنك تحبني وتريد أن تقبلني. يبدو عليك أنك تشعر بالأسف بعض الشيء لأنك تطلقني عبر أوروبا مع شحنة من المتجرات البلاستيكية الروسية.

قال موجهاً النص لها في مشاعر عاديه وكأنه يقوم فقط بتفحص رخصة القيادة الخاصة به: لا تكوني واثقة من نفسك أكثر من اللازم. فليس كل جندى من حرس الحدود مهوساً بالأمور الجنسية.

كانت قد وعدت نفسها بعدم الدخول في مراسم التوديع. وربما كان يوسف قد وعد نفسه بنفس الشيء.

قال: هيا يا تشارلى ثم أدارت موتور السيارة. ولم يلوح لها بيده. بل ولم يبتس لها. وربما رد عليها قائلاً: «هيا يا تشارلى» لم تسمعه. ووصلت إلى الطريق الرئيسي واحتفى الدير. واحتفى سكانه المؤقتون من مرآة سيارتها. وانطلقت بسرعة كبيرة لمسافة كيلومترتين ووصلت إلى سهم إرشادي قديم مكتوب عليه: «يوجسلافيا» فواصلت الانطلاق في ببطء بدون أن تتخبط السيارات المنطلقة أمامها. ثم أصبح الطريق عريضاً ومتسعًا وشبيها بجراج للسيارات. وبعدئذ شاهدت طابوراً من الأتوبيسات السياحية علاوة على طابور من السيارات والأعلام التابعة لكافة الدول وقد اتخذت كلها لوناً فاتحاً بسبب سقوط ضوء الشمس الباهر عليها. إنني إنجليزية وألمانية وأسرائيلية وعربية. واتخذت مكاناً لها خلف سيارة رياضية مكشوفة ومنخفضة وسريعة. يجلس بها صبيان في المقاعد الأماميين وفتاتان في المقاعد الخلفيين. وساعلت نفسها في تعجب: ترى هل هم تابعون

ليُوسف؟ أم تابعون ليشيل؟ أم هل هم من نوع ما من الشرطة؟ كانت قد بدأت تتعلم أن تشاهد العالم على ذلك النحو: كل فرد ينتمي إلى شخص آخر.

ولوح لها شخص يرتدى زيا رسميا رمادى اللون بـأن تتقدم للأمام فى غير صبر، كان كل شئ جاهزا معها، الأوراق الزائفة والمبررات الزائفة، ولم يظهر أحد رغبة فى الاطلاع على الأوراق.

.....

كان ي يوسف واقفا على قمة التل فوق الدير، ثم أنزل منظاره ثنائي العينين، وعاد إلى السيارة الفان الواقفة فى انتظاره.

قال فى اقتضاب للفتى دافيد: «لقد تم ارسال الطرد» فقام دافيد بكتابه هذه الكلمات على الآلة الكاتبة فى طاعة وامثال، وهو كان على استعداد لأن يكتب أى شئ من أجل إرضاء بيكار، بل وكان على استعداد لأن يخاطر بأى عمل من أجله، ولأن يطلق الرصاص على أى شخص اذا رغب بيكار فى ذلك، اذا كان بيكار بمثابة أسطورة حية من وجهة نظر دافيد، بل كان انسانا كاملا فى قدراته، فهو المثل الأعلى الذى يحتذى به من وجهة نظر دافيد.

وقال الفتى دافيد فى وقار وتبجيل «مارتى يرد باعثا بالتهئة». إلا أن بيكار العظيم بدا عليه وكأنه لم يسمع كلام دافيد.

.....

وطلت تقود السيارة بلا نهاية، وكانت ذراعاها تؤلمها بسبب إمساكها بعجلة القيادة فى إحكام شديد، ورقبتها تقلها بسبب الإبقاء على ساقيها فى حالة من التصلب والتخشب، وتشعر ببعض الغثيان فى بطنه لأنها كانت فى حالة من الاسترخاء الشديد، أحست بالغثيان بسبب شعورها بالخوف، وراحت تفكّر: ترى ماذا لو تعطل موتور السيارة؟ لقد سبق أن قال لها يوسف: اذا حدث عطل فى السيارة، ينبغى عليك أن تتخلصى منها، وأوقفيها فى ممر جانبي، ثم وجهى

إشارات من إصبعك للسيارات المارة على الطريق لكي تقف إحداها وتلتقطك وتوصلك إلى مكان ملائم. وتخفضي من الأدوات الموجودة معك. حاولى أن تستقلين قطاراً بعد ذلك. وأهم شيء أن تبتعدى عن السيارة الخاصة بك بأكبر قدر من المسافات. وشعرت بالصدم بسبب كثرة ما تسمعه من الموسيقى. فأغلقت الراديو. ولكنها شعرت بالصدمة مرة أخرى بسبب الضوضاء المتراكمة من اللوريات والشاحنات الضخمة. وأصبحت غارقة في الحمام البحارى. وبدأت تشعر بأنها تتجمد حتى الموت. ولكنها انخرطت في الغناء لكي تسلى نفسها. الطريق لانهائي. وشعرت أنها لا تحرز تقدماً ولا شيء سوى حركة مستمرة، وراحت تترثر وتتحدث في غير كلفة مع أبيها الميت ومع أمها اللعينة: حسناً. لقد تقابلت مع هذا الشاب العربي الجميل يا أمى. إنه متعلم ومتثقف على نحو رائع للغاية يا أمى. إنه غنى ومحظوظ تماماً يا أمى.

وأرغمت نفسها أن تظل في خارج نطاق التجربة:

أوه أنظرى. ها هي قرية. أوه أنظرى. ها هي بحيرة. ولم تسمح لنفسها بأن تنفذ إلى الفوضى الموجودة تحتها. إنني ممتعة بالحرية والانطلاق. إنني أشعر بالاسترخاء. إنني أقضى وقتاً رائعاً. وعندما حل وقت الغداء فإنها تناولت بعض الخبز والفاكهة التي اشتريتها من أحد الأكشاك. وأحسست بالرغبة الشديدة في تناول الآيس كريم على نحو فجائي مثل الرغبة التي تجيء فجأة للمرأة الحامل. آيس كريم يوجوسلافى أصفر اللون ملفوف في ورقة مرسوم عليها حلمات للثدي كبيرة. ثم شاهدت صبياً واقفاً على الطريق ويشير بإصبعه لها لكي توصله بسيارتها لمسافة معينة. فشعرت برغبة عارمة في أن تتجاهل أوامر يوسف وتقوم بتوصيله. إذ كانت قد تعرضت فجأة لمشاعر الوحيدة الطاغية وأصبحت على استعداد لأن تفعل أي شيء من أجل أن تصطحبه معها: مثل أن تتزوجه في إحدى الكنائس الصغيرة المبعثرة فوق قمم التلال الخالية من الأشجار أو تغتصبه فوق العشب الأخضر الموجودة إلى جوار الطريق الرئيسي. إلا أنها لم تعرف لنفسها ولو

مرة واحدة أنها كانت تنقل مائتى رطل من المتفجرات الروسية البلاستيكية المقسمة إلى مجموعات من الأصابع تزن كل مجموعة منها نصف رطل والمخبة في أماكن مختلفة بالسيارة.

قالت لنفسها في تصميم: «استمرى في الانطلاق أيتها الفتاة، إنه يوم مشمس، أنت موسم غنية تقودين السيارة المرسيدس الخاصة بعشيقك، ثم راحت تتلو النص المسرحي الخاص بها في مسرحية «كما تحبها». وبعدئذ أخذت تتلو أبياتاً من مسرحية «جان دارك».

وفي الساعة السادسة مساء وعلى الرغم من أنها كانت تفضل الاستمرار في القيادة طوال الليل شاهدت لافتاً مدهونة لم يكن أحد قد طلب منها أن تلتف إليها، فقالت لنفسها: «أوه، حسناً، إن ذلك المكان يبدو جميلاً، لسوف أجريه» فاتجهت نحو التلال لمسافة ميل تقريباً، وهناك وجدت فندقاً مشيداً في داخل خرابة وبه حمام سباحة علاوة على ملعب مصغر للجولف، وما إن دخلت إلى البهو حتى شاهدت ديمترى وروز وهما اللذان شاهدتهما لأول مرة في ميكونوس وقالت روز: «أوه، ها هي تشارلى، يا لها من مصادفة!! لماذا لا نتناول جميعاً طعام العشاء سوياً؟ ثم تناولوا جميعاً اللحوم المشوية بجوار حمام السباحة ثم قاموا بالاستمتاع بالسباحة في حمام السباحة، الذي عندما أغلق أبوابه لم تشعر تشارلى بالرغبة في الخلود إلى النوم، بل راحوا جميعاً يلعبون لعبة «سکرابيل» معها في غرفة نومها، وكانوا مثل سجناء موجودين في الليلة التي سيتم فيها تنفيذ حكم الإعدام فيها، ثم استسلمت للنعاس لساعات قليلة، لكنها استأنفت القيادة على الطريق في تمام الساعة السادسة صباحاً، وفي منتصف فترة ما بعد الظهر وصلت إلى الطابور عند الحدود النمساوية.

كانت تشارلى ترتدي بلوزة بدون أكمام مأخوذة من جهاز العرس الخاص بميشيل، وقد مشطت شعرها فبدت رائعة في كل مرأة من المرايات الثلاثة، وكان يتم التلويع لمعظم السيارات بمواصلة المسير، ولكنها لم تكن تعتمد على ذلك، حيث كانت

باقي السيارات تظهر الأوراق التي لديها بينما سيارات قليلة كانت تسحب على جانب من أجل القيام بفحصها في مزيد من الدقة. وساعلت نفسها في تعجب: ترى هل يتم ذلك على نحو عشوائي أم لديهم إنذار مبكر؟ أم أنهم يعتمدون على بعض الدلائل المعينة غير القانونية؟ وكان هناك رجلان مرتديان الذي الرسمى ويسيران في بطء بين طابور السيارات. حيث يتوقفان عند نافذة كل سيارة. وكان أحدهما يرتدي بدلة خضراء بينما الآخر يرتدي بدلة زرقاء. وقد أحني قبعة المستدقه الرأس لكي يجعل نفسه شبيها بالطيار. تطلعا إليها. ثم سارا في بطء حول السيارة. وسمعت أحدهما وهو يركل بقدمه الإطار الخلفي لسيارتها. فشعرت بالرغبة في أن تقول : «هذا أمر مثير للإستياء» ولكنها كبحت جماح نفسها. لأن يوسف سبق له أن قال لها «لا تتسطى معهم. وكوني متعالية عليهم. وقررت ما هو ضروري بالنسبة لك ثم خضبي إلى النصف». وسأل الرجل المرتدى للحلة الخضراء عن شيء ما باللغة الالمانية فردت عليه باللغة الانجليزية قائلة: «آسفه؟ وأمسكت بجواز السفر الانجليزي الخاص بها لأعلى أمام عينيه والذي يشير الى أنها تعمل ممثلة . فأمسك بجواز سفرها وراح يقارنها مع الصورة الفوتوغرافية الموجودة فى جواز السفر ثم ناوله لزميله.

كانا شابين جميلين ووسيمين ولم تكن قد أدركت أنهما صغيران في السن للغاية وأشقران وملئان بالحيوية ولهم بشرة برونزية بسبب التعرض باستمرار لأشعة الشمس مثل سكان الجبال، وفي نزوع رهيب نحو تحطيم الذات أرادت أن تقول لهما: إننى تشارلى فكروا مليا فى أمري.

واستقرت عيونهما الأربع على وجهها أثناء قيامهما بتوجيه الأسئلة إليها - هذا دورك وذاك دورى. وقالت : لا حسنا مجرد مائة سيجارة يونانية وزجاجة أوزو، ثم قالت : لا بكل صدق وأمانة لا توجد معى أية هدايا . وأشارت بوجهها بعيدا عنهما وهى تقاوم الرغبة الجامحة فى مغازلتهما . حسنا. لا يوجد سوى شيء تافه قد يرى من أجل والدتها ولكنه شيء لا قيمة له بل ولا تزيد قيمته على عشرة دولارات

وقاما بفتح باب سيارتها وطلبا مشاهدة زجاجة الأوزو إلا أنها خامرتها الشكوك العميقه فى أنهم بعد أن شاهدا الجزء الأسفل من بلوزتها أصبحا يرغبان فى مشاهدة ساقيها. وكانت زجاجة الأوزو موجودة فى دلو على الأرضية بجوارها فانحنى تشارلى عبر الكرسى المجاور لها واستخرجت زجاجة الأوزو من الدلو. وأثناء قيامها بهذه الحركة انفتحت جونلتها بطريق الصدفة فانكشف فخذها الأيسر على طول المسافة شمالة حتى مفصل الورك. ثم رفعت الزجاجة لأعلى لكي يلقا نظرة عليها وفي نفس هذه اللحظة أحسست بشيء ما رطب ويارد يرتطم ببشرتها العارية. «أيها السيد المسيح! لقد قاما بتوجيه طعنة إلى» وصدرت عنها صيحة ووضعت يدها فوق بشرتها وأصابتها الدهشة عندما أدركت أن فخذها ختم بخاتم الدخول ذى الحبر الأزرق والذى يسجل وصولها إلى جمهورية النمسا فتصاعد الفض الشديد فى داخلها وأصبحت على وشك أن تهاجمهما فى عنف ولكنها شعرت بالامتنان الشديد عندما وجدت نفسها تتفجر فى ضحكات هستيرية ولو لا التنبيهات والتحذيرات التى قالها يوسف لها لكان قد عانقتهما واحتضنتهما كرد على كرمهما وحبهما البرىء. لقد تمكنت من اجتياز الحدود بنجاح وأحسست أنها رائعة للغاية ونظرت فى المرأة فشاهدت هذين الشخصين الحبيبين وهما يلوحان لها فى خجل بآيديهما بتحية التوديع بشكل مستمر وقد أغفلـا كافة العربـات الأخرى القادمة . أحسـت أنها لم يسبق لها أن أحـبـت السـلـطـاتـ الـحـكـومـيـةـ حـبـاـ جـمـاـ علىـ هـذـاـ النـحوـ منـ قـبـلـ .

.....

إن المراقبة الطويلة التى قام بها شيمون ليتفاك قد بدأت فى الصباح المبكر وقبل ثمانى ساعات من وصول التقرير الذى أشار إلى عبور تشارلى للحدود بنجاح وأيضا قبل ليلتين ويوم واحد منذ أن قام يوسف الذى يتصرف نيابة عن ميشيل بإرسال البرقيتين اللتين هما نسخة طبق الأصل إلى المحامى الموجود فى جنيف من أجل استئناف إرسالهما إلى العميل الخاص به وكان الوقت آنذاك قد أصبح فى

منتصف فترة مابعد الظهر وكان ليتفاك قد غير الحراسة ثلاثة مرات. إلا إن أحدا لم يشعر بالملل وكان الجميع في غاية اليقظة والحدر وكانت مشكلته لا تكمن في جعل الفريق في حالة من التيقظ وإنما في إقناعهم بالخلود إلى الراحة التامة أثناء ساعات الاستراحة من العمل.

ومن موقع القيادة الخاصة به عند النافذة بالجناح العرسى بفندق قديم راح ليتفاك ينظر لأسفل إلى ميدان سوق «كارينث» حيث تتمثل المعالم الرئيسية في هذا الميدان في فنادقين صغيرين تقليديين لهما مناضد خارج الباب الرئيسي ومكان لجراج السيارات ومحطة سكة حديد قديمة لها قبة شبيهة بالبصلة موجودة فوق مكتب ناظر المحطة وكان الفندق القريب منه يسمى بلاك سوان يوجد به عازف أكورديون. وهو ولد شاحب اللون يقوم بتفحص رغبات الآخرين ويقوم بالعزف على نحو جيد أما الفندق الآخر فيسمى كاربنتر آرمز له لافتة ذهبية جميلة تتالف من الأدوات اليدوية وبه مقارش للمناضد بيضاء اللون وكان هناك عدد قليل من الناس الذين يسيرون على الأقدام في هذا الوقت من النهار. وكانت هناك حرارة ثقيلة تضفي نعasa لذا على المنظر . وخارج فندق سوان توجد فتاتان تحتسيان الشاي وتضحكان وهما تشاركان في كتابة خطاب. وكانت مهمتهما هي كتابة أرقام السيارات التي تدخل إلى الميدان أو تغادره وخارج فندق كاربنتر آرمز يوجد قسيس شاب متخصص يرتشف الخمور ويقرأ في كتاب الصلوات اليومية الخاص به. وفي المناطق الجنوبية بالنمسا لا أحد يطلب من قسيس أن ينصرف وكان الاسم الحقيقي للقسيس هو : يودى وهو اختصار لاسم «إيهود» القاتل الأشول للك الشعوب الموابي وهو من الشعوب السامية القديمة وهو مثل الشخص الذي سمي على اسمه كان مسلح تماما وأشولا وكان موجوداً هناك من أجل مواجهة الموقف اذا تطلب الأمر الدخول في قتال وكان يلقى المساعدة من جانب شخصين من الانجليز متوسطي العمر يجلسان في السيارة اللاندروفر الموجودة في المساحة المخصصة لوقف السيارات وكان لديهما أسلحة نارية محشورة عند أقدامهما بين تشيكلة من الأدوات المعدنية الأخرى القريبة من متناول اليد وكان جهاز اللاسلكي الخاص بهما

محولاً على السيارة «الفان» الخاصة بالاتصالات والواقفة على مسافة مائة متر على الطريق المتجه إلى سالزبورج.

كان الفريق الذي يعمل مع ليتفاك يتتألف من تسعة من الرجال وأربع فتيات، وهو كان بحاجة لفريق يتتألف من ستة عشر فرداً ولكنه لم يعرض ولم يبيث بشكواه وكان التوتر يجعله يشعر بأنه على مايرام. وكان دائماً ما يقول لنفسه في تفكير: إنني ولدت من أجل القيام بمثل هذه الأعمال وكان يشعر بالهدوء أتئذ وكان ذهنه وجسده في حالة من الهدوء العميق وكانت العصابة المسلحة الخاصة به مستلقياً على ظهر السفينة وغارقة في أحلام اليقظة عن الأصدقاء والصديقات والتجول بدون هدف في منطقة الجليد. ومع ذلك فإنه مع ظهور أي همس للنسيم فإن كل واحد منهم يبادر إلى اتخاذ موقعه قبل أن تمتليء الأشرعة بالنسائم الأولى.

وتمتم ليتفاك بكلمة روتينية من أجل المراجعة عبر جهاز الرأس الخاص به وتلقى كلمة روتينية كرد على كلامه كانا يتكلمان باللغة الألمانية لكن لا يشيرا المزيد من الانتباه . وكان الغطاء الخاص بهما آتئذ عبارة عن شركة للتاكسيات باللاسلكي موجودة في «جراز» والتي أصبحت الآن بمثابة خدمة للإنقاذ بالهليوبكتر متمركة في إنسبروك وكثيراً ما كانوا يتداولون الموجات اللاسلكية علامة على استخدام تشيكيلة متنوعة من النداءات المثيرة للارتباك والحيرة.

وفي تمام الساعة الرابعة دخلت تشارلى في هدوء إلى الميدان بالسيارة المرسيدس فقام أحد المراقبين الموجودين في موقف السيارات بالنفح في البوق ثلاث نفخات عبر جهاز الرأس الخاص به وواجهتهما مشكلة عدم وجود مكان شاغر بالميدان لكن توقف فيه السيارة المرسيدس ولكن ليتفاك قرر عدم تقديم المساعدة لها في هذا الشأن. دعواها تتصرف بمفردها ولا تقدموا أية مساعدات . وبعد لحظات ظهر لها مكان شاغر . فأوقفت السيارة ثم خرجت وراح تتمطى وتدعى مؤخرتها ثم استخرجت حقيبة الكتف والجيتار من شنطة السيارة الخلفية وقال ليتفاك الذي كان يرقبها من خلال نظارته أنها على مايرام وتبعد طبيعية والآن

أغلقى السيارة فأغلقت السيارة ثم أغلقت الحقيبة الخلفية للسيارة كآخر عمل تقوم به والآن ضعى المفتاح فى أنبوبة العادم. ففعلت ذلك أيضاً فى حركة رشيقه وذلك لدى انحنائها لكي تلتقط متعاعها ثم اتجهت فى إرهاق وإغياه إلى محطة السكة الحديد بدون أن تنظر على يمينها أو يسارها وهذا ليتفاک وعکف على الانتظار مرة أخرى . وقال لنفسه: المعاذه قد ربطة فى حبل طویل بحيث یسمح لها بحرية الحركة. متذكراً تلك العبارة المفضلة لدى کيرتز والتى كثيراً ما كان يستخدمها والآن فان كل مانحتاجه هو: الأسد وتحدى بكلمة فى جهاز الرأس الخاص به وسمع مايؤکد الأوامر التى أصدرها وتخيل کيرتز الموجود فى شقة ميونيخ وقد انحنى على جهاز الارسال بينما السيارة الفان الخاصة بالاتصالات تبلغ الإشارة وقال ليتفاک وهو يرقب الشفق الأحمر المبكر الذى يزحف على المكان : ها نحن ندخل فى طيات الظلام أخيراً فالظلام هو كل ماكنا نتطلع إليه على مدى تلك الأشهر .

ومرت ساعة وقام القسيس الطيب أودى بتسديد ثمن الفاتورة المتواضعة الخاصة به واختفى فى شارع جانبي من أجل الخلود إلى الراحة علاوة على تغيير ملامحه فى الشقة الآمنة. وكانت الفتاتان قد انتهيتا من كتابة خطابهما وأصبحتا فى حاجة إلى طابع بريد وعندما حصلتا على طابع رحلتا لنفس الغرض وراح ليتفاک يرقب فى ارتياح عندما حل الآخرون محلهما: عربة غسيل ملابس معطوبة وشخصين قاما بنزهة طويلة سيراً على الأقدام يحتاجان لوجبة غذاء فى وقت متأخر وشخصاً إيطاليا فى حاجة إلى القهوة وصحف ميلانو. ودخلت سيارة شرطة إلى الميدان وقامت بثلاث دورات من أجل التفتيش . إلا إن سائق السيارة وزميله لم يظهر أدنى اهتمام بالسيارة المرسيدس الحمراء التى خبيء مفتاح التشغيل الخاص بها فى أنبوبة العادم. وفي تمام الساعة ٤٠.٧ ووسط إنارة صادرة عن المراقبين سارت إمرأة ممثلة إلى الباب الخاص بالقيادة بالسيارة ودفعت بمفتاح في القفل ثم صدر رد فعل متأخر وانطلقت في سيارة أودى حمراء بدلاً من السيارة المرسيدس إذ كان الأمر قد اختلط عليها فيما يتعلق بماركات السيارات وفي الساعة الثامنة مرت دراجة بخارية قوية بسرعة داخلة إلى الميدان قبل أن يتمكن أى شخص

من قراءة رقمها ثم زارت خارجة من الميدان. وكان يوجد بها مسافر آخر له شعر طويل وربما كان فتاة وبدأ الاثنان فوق الدراجة كمثل شخصين صغيرين في السن منخرطين في مرح صاحب.

تساءل ليتفاك عبر جهاز الرأس الخاص به هل تجري الاتصالات؟

وانقسمت الآراء وجاء أحد الآراء : لماذا نغامر ونتعرض لاحتمال قيام الشرطة باعتراضنا؟ وكان للি�تفاك رأي مختلف اذا كان واثقا من أن ذلك بمثابة استطلاع أولى إلا أنه لم يقل ذلك لكي لا يحدث تأثيرا على رأيهم وأثر الخلود إلى الصمت والانتظار مرة أخرى وقال لنفسه: لقد بدأ الأسد في التشمم فهل سيعود مرة أخرى؟

.....

كانت الساعة قد بلغت العاشرة وبدأت المطاعم تخلو من الزبائن وبدأ هدوء ريفي عميق يهبط على المدينة الصغيرة إلا أن السيارة المرسيدس ظلت في مكانها بدون أن تمس كما أن الدراجة البخارية لم ترجع بعد.

لو قدر لك أن ترقب سيارة فإنك ستدرك أن الحملة في أية سيارة شاغرة يعتبر أمرا سخيفا للغاية. لقد سبق للি�تفاك أن قام بمراقبة العديد من السيارات الشاغرة فمع مرور الوقت ومع تركيز البصر على سيارة شاغرة فإنك تجد نفسك تتذكر أن السيارة تكون شيئا سخيفا للغاية بدون أن يكون بها رجل لأن وجود رجل في داخلها يعطي للسيارة معنى. ومن حيث المبدأ فإن اختراع السيارات يعتبر أمرا سخيفا للغاية، وبعد مرور ساعتين تبدو السيارة وكأنها أسوأ حديد خردة وقع عليه بصرك في حياتك وعندئذ تنخرط في أحلام عن الخيول أو عن عالم من المشاهة الذين يعتمدون في حياتهم على السير على الأقدام تحلم بالابتعاد عن الحديد الخردة الذي طفى على أسلوب الحياة والعودة إلى كل ما هو نابض بالحياة، وتبدأ في التفكير في الكيوبتز الخاص بك وما يضمه من بساتين البرتقال . تحلم باليوم الذي سيدرك فيه العالم كله في نهاية الأمر مدى الأخطار التي تكتنف سفك الدماء اليهودية.

انك ترحب فى نصف جميع سيارات العدو فى العالم وتمزيقها إربا إربا وإطلاق سراح اسرائيل للأبد . أو أنك تتذكر أن اليوم هو يوم السبت وأن القانون ينص أنه من الأفضل أن تنفذ روها من خلال العمل على أن تراعى تقاليد يوم السبت وتمتنع عن إنقاذ الروح أو أنك يتوقع لك أن تتزوج فتاة تتسم بالبساطة والورع والتقوى لاتشعر نحوها بالاهتمام وتستقر فى حياة عائلية وتدخل فى مصيدة الأطفال بدون أن تبدي كلمة احتجاج واحدة. أو أنك نتخرط فى التأمل فى الاله اليهودى وفي نظائر انجيليه معينة للموقف الحالى الخاص بك.

لكنك اذا كنت مدربا على النحو الذى تدرب عليه ليتفاك اذا كنت فى موقع القيادة مثله فإنه لن يخطر على بالك أبدا ولو لثانية واحدة أن ترفع عينيك عن تلك السيارة.

.....

وعادت الدراجة البخارية .

ظلت موجودة فى ميدان المحطة على مدى ٥، ٥ دقيقة وفقا لساعة ليتفاك المضيئة فمن مكانه عند نافذة الفندق المظلمة كان يرقب الدراجة طوال ذلك الوقت. إنها دراجة بخارية من أحدث طراز .. دراجة يابانية مسجلة فى فيينا والمقودات الممتازة الخاصة بها من النوع المصنوع خصيصا بناء على طلب الزيون وكانت الدراجة قد دخلت إلى الميدان بفعل الجاذبية وبدون تشغيل المотор يقودها سائق يرتدى خوذة على رأسه ولم يكن من الواضح ما اذا كان هذا السائق ذكرأ أم أنثى كما كان يوجد على الدراجة أيضا شخص عريض الكتفين وله شعر طويل ويرتدى «بنطلون جينز» وكوفيه منقطة عند مؤخرة العنق. وكانت الدراجة قد توقفت فى مكان قريب من السيارة المرسيدس ولكنها لم تكن قريبة للغاية على نحو يوحى بأنهما لديهما خطط تتعلق بالسيارة المرسيدس .

وقال ليتفاك فى هدوء عبر جهاز الرأس: « مجموعة ... انتباه» فتلقي على

الفور أربعة إشعارات بالاستلام وكان ليتفاک واثقا من موقفه من حيث أنه إذا فر هذان الشخصان طلبا للنجاة في تلك اللحظة فإنه يبادر إلى اعطاء الأوامر على الفور بدون أي تردد ولو أن هذا كان يعني انتهاء العملية، حيث كان سيف هارون القابع في الجزء المغطى من السيارة «الavan» لكي يطلق الرصاص عليهم ويمزقهما في الميدان إلا أنهما لم يفرا طلبا للنجاة وهو وضع أفضل بكثير إذ ظل موجودين على الدراجة البخارية، وراح يتفحصان المكان على وجه الدقة والنوافس الجانبية والسيارات المتوقفة في أماكن وقوف السيارات بالميدان مع تفحص النوافذ العلوية التي تشبه النافذة التي يطل منها ليتفاک رغم أن الفريق حرص منذ فترة طويلة لا يظهر أي شيء على الاطلاق.

وبعد أن انتهت فترة التأمل والتفحص نزل الشخص ذو الشعر الطويل من فوق مقعده بالدراجة البخارية في بطة ويتناقل ثم سار الهويني متخطيا السيارة المرسيدس ومالت رأسه في براءة وهو يتفحص تأرجح مفتاح التشغيل الذاتي من ثقب فتحة العادم، ولكنه لم يندفع نحو ذلك المفتاح وهو أمر استحسن ليتفاک ثم سار الهويني متخطيا السيارة واتجه نحو ميدان محطة السكة الحديد من أجل الدخول إلى المرحاض العمومي ثم خرج على الفور بهدف تضليل أي شخص أحمق يحاول أن يتبعه ولم يكن هناك أحد يتبعه فالفتيا لم يكن باستطاعتهن تعقبه والأولاد كانوا ملتزمين بالحرص والحذر الشديدين ومر لونج هير (ذو الشعر الطويل) بجوار السيارة للمرة الثانية، وراح ليتفاک يتسل إلية بشدة لكي ينحني ويأخذ المفتاح لأنه يريد أن يشاهد حركة حاسمة ونهائية، إلا أن لونج هير رفض أن يؤدي هذه الخدمة، إذ استدار نحو الدراجة البخارية ونحو زميله الذي ظل موجودا فوق سرج الدراجة البخارية وذلك لكي يكون قادرا على أن ينسل هاربا في هدوء اذا تطلب الموقف اللجوء إلى الفرار والهرب، وقال لونج هير بعض الكلمات لزميله ثم رفع خوذته وأدار وجهه في غير اكتراث نحو الضوء .

قال ليتفاك في جهاز الرأس الخاص به : «لويجي» معطيا بذلك الاسم السري المتفق عليه، وعندما فعل ذلك شعر بالرضا التام. وراح يفكر في هدوء : أنه أنت روسينيو رسول الحلول السلمية لقد كان ليتفاك يعرفه جيدا في حقيقة الأمر. بل وكان يعرف أسماء وعنوانين صديقاته من الفتيات وأصدقائه ويعرف والديه المنتسبين للجناح الأيسر في روما بل يعرف أستاذه ومعلمه المنتسب للجناح الأيسر والذي يعمل بالأكاديمية الموسيقية في ميلانو وكان يعرف جريدة نيبوليتان التي تنشر له مقالاته التبشيرية التي تناهى بأن عدم استخدام العنف هو الوسيلة المقبولة وكان يعرف الشكوك القوية التي تحوم حوله منذ فترة طويلة لدى المسؤولين بالقدس ويعرف القصة الكاملة للجهود المتكررة عديمة الجدوى من أجل الحصول على الدليل القاطع والبرهان الساطع وكان يعرف الرائحة المميزة الخاصة به ويعرف مقاس الحذاء الذي يرتديه وكان قد بدأ يخمن الدور الذي لعبه في عملية بادنسبرج وفي عمليات أخرى عديدة بأماكن أخرى. ولذلك كانت لديه أفكار واضحة للغاية عن أفضل الإجراءات التي ينبغي اتخاذها حياله ولكن ليس بعد . ليس بعد على مدى فترة طويلة.

راح يفكر في ابتهاج : إنها تجنبت الدين . إنها مع هذه الهوية الواحدة قد أنجزت رحلتها الكاملة الطويلة إلى إن وصلت هنا . إنها من سلالة صالحة غير يهودية بل وهي من سلالة نادرة من وجهة نظر ليتفاك.

والآن وأخيرا بدأ السائق نفسه ينزل من فوق الدراجة كان ينزل ويتمطى ويفك أزرار الذقن الخاصة به وبدأ روسينيو يحل محله عند مقود الدراجة .

وهنا ظهر أن السائق فتاة.

إنها فتاة رشيقه شقراء وفقا لنظارة ليتفاك التي تقوى الضوء فتاة لها ملامح نحيلة عظمية علاوة على إتسامها بالرقابة الشديدة على الرغم من سيطرتها الكاملة على الدراجة البخارية. وعند هذه المرحلة الحرجية رفض ليتفاك تماما أن يشغل ذهنه بما إذا كانت أسفارها قد أخذتها من مطار أورلي بباريس إلى مدريد

أو بما اعتادت على تسليم حقائب تضم اسطوانات جراموفون إلى صديقات سويديات لأنه لو كان قد ركز ذهنه على هذا الاتجاه ل كانت الكراهية المتراءكة لدى الفريق التابع له قد تغلبت على الشعور بالنظام والالتزام بالنظام الموجود لديهم حيث أن معظمهم سبق لهم أن أطلقوا النيران على أناس أثناء فترة خدمتهم العسكرية وهم في مواقف وحالات مثل هذه لم يكن لديهم أى وحز للضمير أو الندم . لذلك لم يقل أى شيء على الاطلاق في جهاز الرأس الخاص به.

جاء الدور على الفتاة لكي تذهب إلى نورة المياه وبعد أن استخرجت حقيبة صغيرة من شبكة الأمتعة وبعد أن ناولت روسيينو خوذتها لكي يعني بها سارت عارية الرأس عبر الميدان ومنه مباشرة إلى حشود الناس حيث ظلت هناك . ومرة أخرى انتظر ليتفاك متوقعا منها أن تغطس من أجل الحصول على مفتاح التشغيل إلا أنها لم تفعل ذلك وكانت مشيتها متسمة بالرشاقة وعدم بذل الجهد تماما مثل مشية روسيينو ولم تترنح في مشيتها على الاطلاق كانت فتاة بالغة الجاذبية والجمال ولاعجب أن ذلك الملحق العمالي التعيس قد وقع في حبها وغرامها . وعادت نظارته إلى روسيينو وكان قد ارتفع بجسده قليلا فوق السرج الأمامي ورفع رأسه لأعلى كما لو كان يصفى في انتباه لكي يسمع شيئا ما . واعتقد ليتفاك أنه كان يرهف السمع من أجل أن يسمع تلك الدمدمة الخفيفة : دمدمة قطار الساعة ١٠،٢٤ القادم من كلاجنفورت المتوقع وصوله في أية لحظة وفي ارتعادة خفيفة طويلة توقف القطار عند الرصيف ، وظهر بين حشود جماهير الناس الطلق الأولى من المسافرين الذين لهم عيون غائمة بسبب الارهاق واتجه اثنان من التاكسيان في تثاقل إلى الأمام ثم توقفا مرة أخرى وانطلقت سيارتان من السيارات الخاصة في ابعاد وظهرت مجموعة من الأشخاص المرهقين المنتظمين في رحلة واحدة وعدهم يكفي ملء عربة حيث كانت أمتعة كل فرد منهم تحمل نفس البطاقة الموحدة .

وناشد ليتفاك : نفذ العملية الآن . اخطف السيارة . واخرج مع زحام حركة المرور . تذكر الهدف الذي أنت موجود هنا من أجله .

وكان لا يزال غير مستعد لمواجهة ما أقدموا عليه بالفعل وكان هناك شخصان متقدمان في السن يقفان عند صف السيارات وخلفهما توجد فتاة محتشمة رزينة تبدو وكأنها مربية لطفل صغير أو وصيفة. ترتدي بدلة بنية اللون ذات صدر ناتئ وترتدي قبعة بنية صغيرة لها حافة متجهة لأسفل راح ليتفاكم يرقبها علامة على مراقبة أناس عديدين آخرين بعين صافية مدربة متيقظة من خال التوتر. فتاة جميلة تحمل معها حقيبة سفر صغيرة والشخصان المتقدمان في السن قاما بالمناداة على تاكسي سويا في آن واحد وظلت الفتاة موجودة في مكان قريب خلفهما وراحت ترقب التاكسي لدى وصوله.

ودخل الشخصان المتقدمان في السن بصعوبة في السيارة الاجرة وقامت الفتاة بمساعدتها على الركوب وناولتهما حاجياتهما وأمتعتها الشخصية - وكان من الواضح أنها ابنتهما وتحول ليتفاكم ببصره إلى السيارة المرسيدس ثم إلى الدراجة البخارية وإذا كان قد فكر في أي شيء يتعلق بهذه الفتاة المرتدية ثوبا بنريا فإنه افترض أنها استقلت التاكسي وانطلقت مع والديها وهذا أمر طبيعي ثم وجه انتباهه إلى مجموعة السياح المرهقين الذين يسيرون على الرصيف في اتجاه عربتين واقفتين في حالة انتظار فأدرك أن الفتاة هي الفتاة المنشودة .. الفتاة التي كانت تستقل الدراجة البخارية فهي كانت قد غيرت ملابسها بسرعة في دورة المياه وخدعته وبعد أن فعلت ذلك انضمت إلى المجموعة السياحية لكي تعبر الميدان في داخل العربة السياحية .

وبدأ ليتفاكم يشعر بالابتهاج عندما شاهدها تفتح باب السيارة المرسيدس بالفتح الخاص بها ثم تلقى بحقيقة السفر في داخل السيارة وتجلس في مقعد القيادة في احتشام ووقار وطهارة وكأنها متوجهة بالسيارة إلى الكنيسة. وبعدئذ تحركت السيارة بينما ذيل السمكة مازال تلمع في داخل أنبوبة العادم ادخلت عليه هذه اللمسة السرور ياله من أمر واضح نسخة ثانية من البرقيات ونسخة ثانية من المفاتيح إن قائدنا يؤمن مضاعفة الفرصة الخاصة به.

وأعطى الأمر الذى يتكون من كلمة واحدة وشاهد الأتباع ينسخون بعيداً فى حرص وحذر : الفتاتان فى سيارتهما البوش وأودى فى سيارته الأول الكبيرة ثم شريك أودى الذى استقل دراجة بخارية أقل جمالاً من دراجة روسيينو وظل ليتفاكم قابعاً عند النافذة الخاصة به وراح يرقب الميدان وهو يخلو من الناس فى بطء تدريجى اذ رحلت السيارات كما رحل المترجلون السائرون على الاقدام كما حفت الأضواء حول ميدان المحطة ثم سمع رنينا معنينا كأن شخصاً ما قد قام بغلق بوابة حديدية بسبب حلول الليل والظلام ولم يبق أى شيء فى حالة استيقاظ سوى الفندقين الصغيرين.

وأخيراً فان الكلمة الشفوية التى كان ينتظرها طقطقت وخشخت فوق جهاز الرأس الخاص به . «أو سيان» : السيارة تتجه نحو الشمال .
فتساءل : إذن إلى أين تتجه لويجى؟

- إلى فيينا .

فقال ليتفاك : «انتظر» ثم قام بطبع جهاز الرأس الخاص به حتى يتمكن من التفكير فى مزيد من الوضوح .

كان عليه أن يتخذ اختياراً على الفور وقد كانت التدريبات تتصل بالاختيارات الفورية اذ كان من المتعذر عليه أن يتبع كلًا من روسيينو والفتاة فى أن واحد . حيث تنقصه الوسائل التى تعينه على ذلك . ينبغي عليه من الناحية النظرية أن يتبع المتجولات وبالتالي يتبع الفتاة - إلا أنه مع ذلك ظل متربداً لأن روسيينو كان مراوغًا فى حين أن السيارة المرسيدس واضحة المعالم وبازة علوة على أن المكان الذى ستصل إليه كان معروفاً على وجه التحديد . واجتازه التردد لفترة أطول وخشش جهاز الرأس الخاص به ولكن تجاهله وراح يقلب الأمور فى داخل ذهنه . لم يكن يرغب فى أن يدع روسيينو يفلت من قبضته فهذا أمر لا يطاق من وجهة نظره ومن المؤكد أن روسيينو كان بمثابة حلقة مهمة فى سلسلة المعارضة : ومثلما قال كيرتز مراراً وتكراراً فإن السلسلة اذا لم تصمد فكيف يمكن لها أن تجذب تشارلى

إلى الشباك والشراك الخاصة بها ؟ وروسينيو يمكن له أن يعود إلى فيينا وهو مقتنع بأنه لم يتم تسوية أى شئ فهو بمثابة حلقة حاسمة، وكان أيضاً بمثابة شاهد حاسم في حين أن الفتاة كانت بمثابة موظفة وسائقه للسيارات وواضعة للقنابل أو بمثابة كتبة المشاة القابلة للاستهلاك وعلاوة على ذلك فإن كيرتز كانت لديه خطط حيوية بالنسبة لمستقبلها في حين أن مستقبل روسينيوا يمكن أن يوضع في قائمة الانتظار .

ارتدى ليتفاك جهاز الرأس مرة أخرى ثم قال تتبعوا السيارة ودعوا لويجي يذهب وبعد أن انتهى ليتفاك من اتخاذ هذا القرار سمح لنفسه بان يبتسم ابتسامة مليئة بالارتياح وكان يعرف تشكيل الموكب على وجه الدقة أودى يتصدر الموكب على الدرجة البخارية الخاصة به ثم الفتاة الشقراء في السيارة المرسيدس الحمراء وخلفها توجد السيارة الأولي وبعد السيارة الأولي وعلى مسافة بعيدة توجد الفتاتان في السيارة البورش الاحتياطية من أجل استبدال الأماكن مع أى فرد بمجرد صدور الأوامر لها بذلك ، واستعاد ليتفاك لنفسه النقاط الثابتة التي تقوم بمراقبة السيارة المرسيدس إلى أن تصل إلى الحدود الألمانية وتخيل نوع تلك الحكاية غير القابلة للتصديق التي لفتها إليكسيس لكن يتأكد من عبورها للحدود بدون أية تعقيدات .

تسائل ليتفاك وهو يلقى نظرة خاطفة على ساعته : كم تبلغ السرعة ؟ وجاء الرد بما يفيد أن أودى يشير إلى أن سرعتها معتدلة للغاية فهذه الفتاة لا تريد الدخول في متابع مع القوانين وهي تشعر بالقلق بسبب الحمولة التي تنقلها .

وازاح ليتفاك الجهاز عن رأسه وقال لنفسه : من المؤكد أنها تشعر بالقلق والتوتر ولو كنت أنا الذي يقود هذه السيارة بدلاً من هذه الفتاة لكنت قد شعرت بالذعر الشديد .

وسار في الدور الأرضي حاملاً حقينته في يده كان قد سدد قيمة الفاتورة الخاصة به بالفعل .

وكان سفارة القيادة الخاصة به متطرفة أيام في المساحة المخصصة لوقف السيارات بجوار الفندق وفي اتزان شديد ناجم عن الخبرة الطويلة انطلق ليتفاكر لكي يلحق بالقافلة وانصب ذهنه على كيرتز وتخيل البهجة الشديدة التي ستتحتاج كيرتز وتخيل صوته الجهوري وهو يمتدحه بلغته العربية وشعر ليتفاكر بالسعادة لأنّه يحضر لـ كيرتز ضحية أو ذبيحة ممثلة ورائعة للغاية.

.....

بدت أجواء الصيف مازالت موجودة في سالزبورج وهبت نسمة ربيعية متراحمية من الجبال وكان لنهر سلزاخ نفس رائحة البحر وكان وصولهم إلى هناك مازال سرا غامضاً بالنسبة لها لأنها استغرقت في النوم مرات عديدة طوال الرحلة وهم قد سافروا بالطائرة من جراز إلى فيينا إلا أن الرحلة قد استغرقت حوالي خمس ثوان ومن ثم فمن المؤكد أنها استغرقت في النوم أثناء وجودها في الطائرة وفي فيينا هناك سيارة مستأجرة في حالة انتظار وهي سيارة أنيقة ماركة B.M.W واستغرقت في النوم مرة أخرى ولدى دخولهم إلى المدينة اعتقدت للحظات أن السيارة اشتعلت فيها النيران ولكن الأمر لم يكن سوى سقوط أشعة الشمس المساء على الطلاء القرمزي في اللحظة التي فتحت فيها عينيها.

عندما سأله : ولماذا سالزبورج؟

رد : لأنها على الطريق.

فتساءلت الطريق إلى أين ؟ ولكنه فضل التحفظ وعدم الرد على ذلك التساؤل.

وكان الفندق الخاص بهما له فناء داخلي مسقوف وله داربزينات قديمة وبه نباتات موضوعة في أوعية رخامية وكان الجناح الخاص بهما يطل على النهر البنى اللون السريع وخلف النهر توجد قباب تزيد على عدد القباب الموجودة في السماوات وخلف القباب توجد قلعة. وقالت إنّي بحاجة للتربيض سيراً على الأقدام.

وأخذت حماماً وغلبها النوم وهي في داخل الحمام فاضطر لأن يطرق بشدة على الباب لكي يوقظها من النوم ثم ارتدت ملابسها ومرة أخرى كان يعرف الأماكن التي يريها لها ويعرف الأشياء التي تدخل السرور عليها.

وقالت هذه هي آخر ليلة لنا ، هذه ليتنا الأخيرة أليس كذلك؟ وهو في هذه المرة لم يلتزم بالتحفظ وراء اسم ميشيل.

وقال نعم أنها ليتنا الأخيرة ياتشارلى وغدا سنقوم بزيارة وبعد ذلك تعودين إلى لندن وراحت تتجلو معه، وهي ممسكة بذراعه بكلتا يديها، في الشوارع الضيقة وفي الميادين التي تتدخل مع بعضها البعض مثل قاعات الاستقبال ووقفا أمام المنزل الذي ولد فيه الموسيقار موزار وكان السياح يبدون لها وكأنهم جمهور المشاهدين في حفلة ماتينيه مسرحية حيث كانوا غافلين ومنخرطين في البهجة والانشراح.

لقد أديت المهمة على نحو جيد. أليس كذلك يا يوسف؟
فقال : لقد كان أداؤك رائعًا وممتازًا ولكن على نحو ما كان يهمها ملاحظاته أكثر مما يهمها مدحه .

وكانت الكنائس أجمل من أي شيء كانت تخيله بما فيها من منابر ذهبية وملائكة وقبور تضم موقى ما زلوا على ما يبدو يحلمون بالملائكة .

وراحت تفكّر :

شخص يهودي يزعم أنه مسلم يرينى التراث المسيحي الخاص بي .. ولكنها عندما طلبت منه تزويدها بالمعلومات عن هذه الكنائس سارع إلى شراء كتيب سياحي جميل ووضع الإيصال في محفظته.

وقال موضحاً «أخشى أن ميشيل لم يكن لديه بعض الوقت لكي يدخل في عصر الباروك بطريقة جافة بعض الشيء» .

ثم تساعل هل نرجع الآن؟

فهزت رأسها بالنفي وبدأ الظلام يتزايد وبدأت جماهير الناس تختفى

تدريجيا وجلسا عند النهر لبعض الوقت ثم شرعا في السير مرة أخرى وفجأة أصيبت بالترنح والتخبط الشديد مما جعلها بحاجة لأن يلف ذراعه حول خصرها لكي تتمكن من الوقوف في اعتدال.

ولدى مساعدتها على الدخول إلى المصعد الكهربائي أصدرت أوامرها: أريد طعاما وشمبانيا وموسيقى.

وبحلول الوقت الذي اتصل فيه تليفونيا بخدمة الأدوار استغرقت في نوم عميق على السرير ولم يكن هناك شيء ما في أرض الله ولا حتى يوسف بمقدوره أن يوكلها من نومها.

.....

كانت مستلقية مثلاً استلقت على الرمال في شاطئ ميكونوس إذ كان ذراعها الأيسر معقوفاً وملتوياً وجهها مضغوطاً على ذراعها ظل بيكار جالساً في الكرسي يرقبها أثناء نومها وبدأت تباشير الفجر تتضح من خلال الستائر كان بمقدوره أن يشم الرائحة الطازجة لأوراق الأشجار والغابات ولقد شهد الليل عاصفة مطرية فجائية للغاية حتى أنها كانت شبيهة بقطار سريع يجتاز الوادي في صخب ومن خلال النافذة شاهد المدينة وهي تهتز تحت وطأة الهجوم الضاري البطيء الطويل الناجم عن البرق والرعد علاوة على الأمطار التي تترافق فوق القباب اللمعة إلا أن تشارلي كانت استلقت في سكون تام يخلو من أي حركة مما اضطره إلى الانحناء على جسدها ووضع أذنه عند فمها لكي يتتأكد من أنها تتنفس بالفعل.

ألقي نظرة خاطفة على ساعته وكانت منضدة العشاء المليئة بالطعام الذي لم يتناوله أحد واقفة في المشربية أو النافذة الثانية كما يوجد جردن الثلج الذي يضم زجاجة شمبانيا مغلقة. وبدأ يجرف لحوم سمك جراد البحر من الغلاف الصدفي الخاص بها مستخدماً الشوكة وراح يخلط أنواع السلطات مع بعضها البعض علاوة على اتلاف الفراولة. ثم أخذ زجاجة الشمبانيا إلى الحمام وأغلق الباب وراءه لكي لا يتسبب الصوت الذي ينجم عن فتح فلينية الزجاجة في إيقاظ تشارلي ثم صب

الشمبانيا فى الحوض وفتح صنبور المياه عليها. ووضع لحوم السمك والفراولة والسلطة فى المرحاض وشد السيفون عليها مرتين لكي تختفى تماما. وترك قدرا ضئيلاً من الشمبانيا فى الزجاجة لكي يصب لنفسه كأسا وبالنسبة لكأس تشارلى فإنه استخرج أحمر الشفافيف من حقيبتها ورسم به آثارا على حافة الكأس قبل أن يضيف بعض البقايا من الزجاجة ثم أتجه إلى النافذة مرة أخرى حيث أمضى معظم فترات الليل وراح يحملق فى التلال الزرقاء التى تشربت مياه الامطار.

وقال لنفسه : اننى متسلق للجبال قد أصبحت اشعر بالسأم والملل من التسلق.

حلق ذقنه وارتدى رداءه الأحمر الفضفاض وذهب إلى السرير ومد يده لكي يوopezها ثم سحب يده مرة أخرى اذ هبط عليه أحجام شبيه بالتعب الشديد جلس فوق الكرسى مرة أخرى وأغلق عينيه ولكنه أرغم نفسه على فتحهما ثانية أحس بنفسه وهو يستيقظ فجأة فى اهتزاز مع الشعور بثقل الندى الصحراوى الذى إلتصق بملابس القتال الخاصة به علوة على شم رائحة الرمال الرطبة قبل أن تسقط عليها أشعة الشمس وتتجفها.

ومد يده مرة أخرى قائلا: تشارلى؟ لكي يلمس خدتها لكنه لم يزاعها بدلًا من خدتها ياتشارلى إنه لنصر عظيم يقول عنك مارتنى أنك نجمة ساطعة وأنك مثلت مجموعة من الأدوار الجديدة تماما. لقد اتصل تليفونيا بجادى فى الليل ولكن لم تستيقظى يقول أنك أفضل من جريتا جاربو إنه لا يوجد هناك شيء ما لا يمكن لنا انجازه سويا استيقظى ياتشارلى فنحن أمامنا عمل يتطلب الانجاز.

نطق باسمها بصوت مرتفع مرة أخرى وبعد اذن تركها ونزل السلالم وسدد فاتورة الحساب ووضع الايصال الأخير فى جيبه وخرج من الباب الخلفى للفندق لكي يأخذ السيارة المستأجرة W.B.M. وكان الفجر منعشًا مثلما كان الجو منعشًا عند غروب الشمس.

وقال لها «عليك أن تلوحى لى بيديك وبعدين تقومين بالترىض والتنزه سيرا على الأقدام ولسوف يقوم دميترى باحضارك بمفردك إلى ميونيخ.

الفصل الرابع عشر

ودخلت إلى المصعد الكهربائي دون أن تتكلم وكان المصعد مليئاً برائحة المبيدات الحشرية وكانت قد دفعت الخشونة الموجودة في داخل كيانها لأعلى لكي تظهر على السطح على النحو الذي تفعله عند الاختلاط مع جماهير الناس ولدى القيام بكافة أنواع الرحلات تشعر بالاثارة أن هناك أشياء على وشك أن تحدث ضغط ديمترى على الجرس ففتح كيرتز الباب بنفسه ووراءه يوسف الذى تدلى خلفه درع مصنوع من النحاس الأصفر وعليه صورة معدنية مطروقة للقديس كريستوفر وهو يدلل طفلًا.

قال كيرتز في رقة ياتشارلى هذا أمر عظيم حقاً أنت إنسانة عظيمة ثم ضمها بشدة إلى صدره وأضاف ياتشارلى هذا أمر رائع وهائل ولا يمكن أن يصدقه العقل.

قالت تشارلى وهي تنظر إلى ما وراء يوسف نحو الباب المغلق «أين هو؟» ولم يكن ديمترى قد دخل فبعد أن قام بتسليم تشارلى دخل إلى المصعد وهبط به لأسفل مرة أخرى.

وظل كيرتز يتحدث كما لو كانوا موجودين في كنيسة سوياً وأشار أن يرد على سؤالها: ياتشارلى إنه على مايرام صحيح إنه مرهق بعض الشيء، بسبب الأسفار التي قام بها ولكنه على مايرام، النظارة السوداء يا يوسف إعطها نظارة سوداء هل لديك نظارة سوداء يا عزيزتي؟ وهاهي كوفية للرأس لكي تخفي تحتها ذلك الشعر الجميل، احتفظى بهذه الكوفية.

لقد كانت كوفية مصنوعة من الحرير الأخضر اللون وهي كوفية جميلة بعض الشيء وكان كيرتز قد جهزها ووضعها في جيبه وراح الرجال يرقبانها بينما هي تشكل الكوفية لتكون غطاء للرأس شبيها بالغطاء الخاص بالمرضى.

قال كيرتز موضحاً: مجرد نوع من الحذر والتدابير الوقائية ففي هذه المهمة
لا يمكن لنا أن نكون حريصين للغاية لهذا كلام سليم يا يوسف؟

كانت تشارلى قد استخرجت من حقيبة اليد الخاصة بها علبة المساحيق
الجديدة وراحت تخضع المكياج لنفسها وقال كيرتز : محذراً ياتشارلى هذا يمكن أن
يكون مثيراً للعاطفة بعض الشيء.

ووضعت تشارلى علبة المساحيق على جانب ثم استخرجت أحمر شفاعة فقال
كيرتز موجهاً لها النصائح «إذ أصبت بالغثيان الذي يشبه دوار البحر عليك أن
تتذكرى أنه قد قتل عدداً كبيراً من الناس الأبرياء فلكل شخص وجه أدمي وهذا
الولد ليس استثناءً في هذا الشأن فهو وسيم وجميل الطلعة ويتمتع بقدر كبير من
الموهبة والذكاء والقدرات غير المستخدمة إلا أنه بدد كل هذه القدرات وليس من
الطريف مشاهدة ذلك على الأطلاق وما أن نصل إلى هناك فاننى لأريد منك أن
تتكلمي وتذكرى جيداً . عليك أن تتركى الكلام لى ثم فتح الباب لهم وأضاف قائلاً
ولسوف تجدينه مطيناً وسهل الانقياد فقد حرصنا على ترويضه وجعله مطيناً اثناء
شحننا له وعلينا أن نجعله كذلك اثناء وجوده معنا هنا ومن حيث النواحي الأخرى
 فهو في حالة طيبة ولا توجد مشكلات كل ما هنالك أنه يجب عليك عدم التكلم معه .
لاحظت تشارلى بسطة السلم المتسمة بالذوق الحسن وصالة العرض المبسطة
والدرازين الحديدى المصنوع يدوياً وشاهدت مستودعاً من الطراز الانجليزى ورأت
مسابح فوق حوامل للكاميرات ثلاثة القوائم كما كان يوجد جهاز تسجيل يعمل
بالشروط علاوة على اريكة استوديو من طراز ماربيلا جلست تشارلى على الاريكة
ثم جلس يوسف إلى جوارها فقالت تشارلى لنفسها في تفكير :

ينبغي علينا أن نتماسك بالآيدي . كان كيرتز قد التقى سماعة تليفون
رمادي اللون وراح يضغط على زرار التليفون الامتدادى الموصل بالخط الأصلى ثم
قال كلاماً باللغة العبرية ووضع سماعة التليفون وابتسم لتشارلى التي شمت رائحة
أجساد بشريّة مذكورة ورائحة غبار وقهوة وسجق محشو بالكبدة علاوة على رائحة

ملايين من أعقاب السجائر كما تعرفت على رائحة أخرى، إلا أنها لم تستطع معرفة كنهها لأنها كانت هناك احتمالات عديدة في داخل ذهنها إبتداءً من رائحة الفرش الصغير الخاص بها إلى رائحة عرق أول عشاقها.

وغير ذهنا من سرعته، كادت تغفو مستغرقة في النوم وقالت لنفسها: إنني مريضة وانتظر نتائج التحاليل والاختبارات يادكتور أفصح لي عن تشخيص حالي بكل صراحة لاحظت وجود كومة من مجلات غرفة الانتظار وتمتن لو استطاعت أن تحصل على أحدها وتضعها في حجرها وفتح باب الشرفة وظهر شاب ملتح وله مشية منكفة مثل عامل في المسرح ، وكان يوحى بأن شيئاً ما سيظهر وراءه.

والحظات لم يظهر شيئاً .. ويعيئ ظهرت حزمة قرمذية منخفضة ثم ظهر شاب حليق الذقن.

أخيراً أدركت جوانب الموقف لقد ظهر ثلاثة من الشباب وليس شابان فقط إلا أن الشاب الموجود في الوسط كان يتربع في صعب بينهما مرتدياً رداء الأحمر اللون الفضفاض الفتى العربي النحيل .. حبيبياً .. الفتى الدمية المصابة بالانهيار والذي سقط من مسرح الحياة الواقعية.

.....

راحت تشارلى تفكّر : التشابه ليس ردّينا على الاطلاق اذا وضعنا في الاعتبار السنوات القليلة التي هي الفارق في السن واذا وضعنا في الاعتبار النضج الخاص بيوفس الذي يتعرّد تحديده. وهي في بعض الاحيان استخدمت في خيالاتها ملامح وجه يوسف مع جعله يحل محل حبيب أحلامها وفي مرات أخرى تكون هيكل مختلف مرتكزاً على ذاكرتها غير السليمة عن الشخص الفلسطيني المرتدى للقناع والذي ظهر في المؤتمر الجماهيري الشعبي شعرت بالتأثير لأنه صار الآن قريباً من الحقيقة الواقعية وساعلت نفسها: ألا تعتقدين أن الفم يعتبر طويلاً بعض الشيء إلا يبالغ هو في الأمور الحسية بعض الشيء؟ هل فتحتا الأنف متسعتان قليلاً نحو الخارج؟ ألا يوجد الكثير من العض عند الخصر؟ وخطر على

ذهنها أن تنهض على الفور وأن تعسى توفير الحماية له إلا أن المرأة لا يستطيع أن يفعل ذلك على المسرح اللهم إلا إذا كان ذلك واردا في النص المكتوب وعلوقة على ذلك فانها تدرك أنه من المتعذر عليها أن تتحرر من يوسف.

على كل حال فانها على مدى ثانية فقدت السيطرة على نفسها وفي خلال تلك اللحظة كانت بمثابة كل شيء قاله يوسف عنها .. فهى المنقذة لميشيل والمحررة له وهى القديسة جان دارك الخاصة به وعابدة جسده ونجمته الخاصة لقد أدى دورها على المسرح فى اتقان شديد من أجله وتناولت معه طعام العشاء فى فندق حquier مضاء بالشمع شاركته سريره واضطجعا فوقه وانضمت إلى ثورته الخاصة وارتدى سواره واحتست فودكا ومزقت جسده اربا اربا وجعلته يمزق بدوره جسدها اربا اربا ، قادت سيادته المرسيدس نيابة عنه ثم قبلت بندقيته ونقلت مادة TNT الروسية الجيدة الخاصة به إلى جيوش الحرية الواقعة فى الأسر احتفلت بالانتصار معه فى فندق يطل على شاطئ النهر فى سالزبورج رقصت معه عند الاكروبوليس ليلا وأحسست بعقدة الذنب الشديدة عندما كانت تفك فى الدخول فى مغامرة أخرى عاطفية.

كان جميلا ووسيما للغاية - وعلى النحو الذى سبق أن قاله يوسف من قبل بل وكان أكثر جمالا من الاوصاف التى قالها يوسف كان يتمتع بجازبية مطلقة حتى أن تشارلى وأمثالها من الفتيات تعرف فى حتمية حزينة : أنه ينتمى لتلك الملكية ويدرك تلك الحقيقة كان نحيلا لاتشوبيه شائبة وله كتفان يتشكلان على نحو رائع وله ردافان نحيلان للغاية . له جبين مثل جبين الملوك وجه طفل بريء وشعر أسود فاحم لاشيء مما فعلوه من أجل ترويضه قد استطاع ان يخفى عنها العاطفة الغنية التى تتسم بها طبيعته أو أن يطفئ ضوء التمرد والثورة الموجود فى عينيه السوداويين مثل سواد الفحم .

كان شخصا عاديا للغاية - ولد فلاحا صغيرا كأنه سقط من فوق شجرة زيتون ومعه ذخيرة من العبارات التى درسها وحفظها وله عين غراب تشთاق للعب

الجميلة والفتيات والسيدات الجميلات والسيارات الجميلة وهو فلاح يموج بالسخط والاستياء ازاء أولئك الذين طردوه من مزرعته . تعال إلى سريري أيها الفتى الصغير ودع أمك تعلمك بعض الكلمات الطويلة الخاصة بالحياة.

كانوا يساندونه ويمسكون به من تحت إبطه وبينما كان يسير على السالم ظل حذاؤه يخطئ الواقع مما سبب له الكثير من الخجل والحرج حيث هبطت ابتسامة خفيفة على وجهه وهو ينظر في خجل إلى قدميه الواقعتين في الأخطاء.

أوقفوه في اتجاهها ولم تكن واثقة من أنه يمكنها أن تتحمل ذلك. استدارت نحو يوسف لكي تخبره بذلك فشاهدت عينيه تنظران مباشرة إليها سمعته يقول كلاما ما ولكن في نفس اللحظة فان جهاز التسجيل الضخم بدأ في التكلم بصوت مرتفع للغاية ولدى الدوران حول نفسها شاهدت مارتي مرتدية سترة من صوف محبوك منحنيا فوق الأرضية في محاولة لإدارة المقابض وتخفيض حدة الصوت.

وكان الصوت الآدمي المسجل رخيما وهادئا ومطابقا للصوت الذي سبق أن استمعت إليه في المؤتمر الجماهيري الشعبي وكانت الكلمات في صيغة شعارات من التحدي التي تقرأ في حماس.

نحن الرازحون تحت الاستعمار نعبر عن آراء ومشاعر المواطن الذي يواجه سكان المستعمرات نتحدث نيابة عن الآخرين والآباء ونحن نطعم ونغذي الأفواه الكيفية ونشجع الآذان الخرساء البكماء نحن الحيوانات نوات الحوافر الصابرة والتي نفذ صبرها في نهاية الأمر!.. نعيش تحت ظل القانون الذي يولد في كل يوم تحت وابل من النيران !.. إن العالم كله باستثنائنا لديه شيء مايفقده !.. ولسوف نحارب أي شخص يجعل من نفسه مشرفا على شئون أرضنا نيابة عنا !

وكان الفتى قد ساعده لكي يجلس على الأريكة بحيث يكون في مواجهة تشارلى بدا توازنه غير سليم على الاطلاق وكان منحنيا بشدة للأمام مستخدما ساعديه لكي يكونا بمثابة دعامتين له وكانت يداه في حالة استلقاء فوق بعضها

البعض كما لو كانا مكبلين بالاغلال ووقف الفتى الملتحى عابساً ومتوجهما خلفه بينما زميله حليق الذقن جالساً في خشوع إلى جواره وبينما كان صوت المسجل مستمراً في الانطلاق فانها شاهدت شفتى ميشيل يتحركان في بطاء حيث يحاول أن يتطابق مع الكلمات المسجلة إلا أن الصوت المسجل كان أسرع بكثير من صاحبه وكان أقوى من صوت صاحبه . وتدريجياً كف عن محاولة اللحاق بكلماته المسجلة ثم ظهرت على وجهه ابتسامة اعتذار واهنة سخيفة مما جعلها تتذكر والدها عقب الضربة التي تلقاها .

«إن أعمال العنف لا تعتبر أ عملاً اجرامية عندما تمارس في مواجهة البطش والظلم والأكراد الذي تستخدمه الدولة ...» وظهر حفيظ الأوراق عندما قلب صفحة جديدة ثم صار صوته متمسماً بالحيرة «أنت أحبك .. أنت حريري .. وانت الان واحدة منا .. فأجسادنا ودماؤنا صارت مختلطة وجسدي ودمي قد أصبح مختلطاً بجسدي ودمائك يا جنديتي الخاصة بي .. لماذا أقول هذا الكلام؟ لأننا نحن سوياً سوف نشعّل الفتيل باستخدام عود كبريت» ران صمت مليء بالحيرة «لو سمحت يا والدى ما هذا لو سمحت انتى أسالك» .

قام كيرتز باغلاق جهاز التسجيل وأصدر أوامره قائلاً : أريها يديه .
فسارع الفتى حليق الذقن بالتقاط إحدى يدي ميشيل ونشرها وعرضها عليها وكأنه يعرض عينة تجارية .

وقال كيرتز موضحاً في خلال فترة وجوده في المخيمات كانت يداه جافتين نتيجة لمارسته العمل اليدوى أما الآن فهو أصبح من كبار المثقفين وأصبحت لديه أموال كثيرة وفتيات كثيرات وطعام جيد وأوقات سلسلة سعيدة أليس كذلك أيتها الزميل؟» ثم اقترب كيرتز من الأريكة من الجهة الخلفية ووضع يده السميكة على رأس ميشيل وأدار رأسه لكي يواجهه وقال : «أنت مثقف عظيم أليس كذلك؟» لم يكن صوته متسمًا بالقسوة أو التشفي أو الإغاظة إذ كان يبدو عليه وكأنه يتحدث إلى ابنه العاق المخطئ بل وظهر على وجه كيرتز نوع من الاعجاب المشوب بالحزن

وأضاف قائلا: «انت تدفع الفتيات لكي ينجذن الأعمال نيابة عنك أليس كذلك أيها الزميل الصغير؟»

تعرفت على نوع الرائحة التي لم تكن قادرة على تحديد نوعيتها أنها رائحة لوسيون بعد الحلاقة الذي يضعه يوسف في كل حمام لم يشاركها فيه أبداً وربما يكونوا قد نثروا عليه قدراً من هذا اللوسيون من أجل هذه المناسبة.

تساءل كيرتز ألا تريد التحدث مع هذه السيدة؟ ألا تريد أن ترحب بها في هذه الفيلا الخاصة بنا هنا؟ لقد بدأت أسائل نفسى فى تعجب عن السبب الذى جعلك تكف عن التعاون معنا ! وتدرجياً تحت اصراره والحاجه استيقظت عيناً ميشيل وانتصب جسده في تماسك بعض الشيء في طاعة وادعاء «أتريد أن تلقي التحية على هذه السيدة الجميلة في أدب؟ أترغب في أن تتمنى لها يوماً سعيداً؟ أتريد أن تقول لها طاب يومك أيها الزميل الصغير؟

وبالطبع فعل ذلك اذ قال ميشيل «يوم سعيد» في صوت فاتر وبطيءٍ ومختلف بعض الشيء عن صوته الوارد في التسجيلات .

وقال يوسف محذراً تشارلى لا تردى عليه وكان يوسف موجوداً بجوار تشارلى.

قال كيرتز في إصرار بدون أى قدر من الضعف أو الحقد : «طاب يومك يا سيدتي »

فقال ميشيل طاب يومك يا سيدتي
ثم أصدر كيرتز أوامره قائلا: دعوه يكتب شيئاً ما . وبعدئذ دعوه يذهب .
فأجلسوه إلى منضدة ووضعوا أمامه قلماً وورقة ثم قال كيرتز انظروا كيف يمسك بالقلم وانظروا إلى الطريقة التي تتشكل بها أصابعه على نحو طبيعي من أجل أن يكتب باللغة العربية .

وكانت تشارلى تتحدث في داخل ذهنها موجهة كلامها ليوسف: «أخرجني من هنا» أظن أننى على وشك أن ألفظ أنفاسى الأخيرة وأموت ثم سمعت وقع اقدام

ميشيل لدى اصطحابه ليصعد على السلالم وبعدئذ تلاشى وقع اقدامه تدريجيا ولكن كيرتز لم يسمح لها بالحصول على فترة من الاستراحة مثمنا لم يسمح لنفسه بالحصول على الراحة : ياتشارلى لدينا مرحلة واحدة أخرى من هذا الشيء وأعتقد أنه ينبغي علينا أن نجتازها الآن ولو كلفنا بعض الجهد هناك أمور ينبغي انجازها».

كانت قاعة الاستقبال هادئة للغاية امسكت بذراع يوسف وصعدت على السلالم وراء كيرتز ووجدت أنه من المريح لها أن تعرج في مشيتها وهي تصعد السلالم مثل ميشيل ولم تعرف السبب.

..

وكان الدرازين الخشبي مازال لزجا بسبب العرق الموجود عليه.. وكانت السلالم عليها شرائط من مادة تشبه ورق الصنفحة ولكنها عندما وطأت بقدميها على السلالم فإن لم ينجم عن هذا ذلك الصوت الخشن المثير للأعصاب والذي كانت تتوقع سماعه . لقد حرصت على التقاط هذه التفاصيل في شيء من الدقة لأنه توجد هناك أوقات يمكن فيها للتفاصيل أن تقدم الرابطة الوحيدة مع الحقيقة الواقعية وكان باب نورة المياه مفتوحا لكنها عندما ألقت نظرة أخرى أدركت أنه لا يوجد هناك باب حيث لا يوجد سوى مدخل يؤدي إلى نورة المياه بل لا توجد سلسلة متسلية من الخزان ثم أدركت أنها قد دخلت إلى غرفة مبطنة يوجد بها سرير مفرد واحد موجود عند الحاجط بعيداً وفوق ذلك السرير يوجد ميشيل مرة أخرى في هذه المرة كان عاريا تماما باستثناء ارتدائه للميدالية الذهبية الكبيرة الخاصة به بدت يداه متماسكتين فوق أعضائه التناسلية وكانت هناك تجاعيد خفيفة عند طيات بطنه وكانت عضلات كتفيه ممثلة ومستديرة كما كانت عضلات صدره منبسطة وعرية وكانت الظلال تحتها متوجة في تجعد مثل خطوط مرسومة بالحبر الهندي. ووفقا للأوامر التي صدرت عن كيرتز قام الشابان بمساعدته على النهوض لكن يقف على قدميه ثم جذبا يديه وظهر الختان في عضوه التناسلي وفي صمت وعبوس أثار

الولد الملتحى الى الوجمة البيضاء التى تشبه بقعة من اللبن على جنبه الايسر كما أشار الى الندبة الغائرة على كتفه اليمين والناجمة عن الضرب بالسكين ثم أشار الى نهر الشعر الاسود الجميل المحب للنفس الذى يتوجه لأسفل من عند السره وفى صمت جعلوه يلف ويدور عنده تذكرت لوسي وتذكرت ذلك النوع من الظهر المفضل لديها العمود الفقرى المنحسر بين العضلات ولكن لا توجد فى ظهر ميشيل ثقوب ناجمة عن الاصابة بطلقات الرصاص ولاشى على الاطلاق من شأنه أن يفسد جماله ووسامته متكاملة.

وأوقفوه على قدمين مرة أخرى.. ولكن يوسف رأى آنئذ أن تشارلى قد شاهدت بما فيه الكفاية شيئاً جيداً لأنه قد بدأ يقودها بسرعة للهبوط على السلالم وهو يضع ذراعاً حول خصرها بينما الذراع الآخر ممسكة بمعصمها بقوة شديدة حتى أنها شعرت بالألم يسرى في يدها . وفي المرحاض بعيد عن الصالة توقفت تشارلى لفترة طويلة من أجل أن تتقيأ إلا أن كل ما كانت تريده بعد ذلك هو أن تخرج من ذلك المكان وتخرج من تلك الشقة وتخرج مبتعدة عن أنظارهم وتخرج مبتعدة عن ذهنها وعن جسدها .

كانت انطلقت تجرى وتعدو إنه يوم من أيام الرياضة البدنية تجرى بأقصى سرعة ممكنة الأسنان المتماسكة لخط السماء المدق بها تتذبذب وتتأرجح متخطية إياها من عند الاتجاه الآخر وكانت الحدائق المرتفعة متصلة مع بعضها البعض بمرات جميلة من الطوب اللبن راحت تجرى لكي تصل إلى أبعد مسافة ممكنة ضاغدة على سلالم وهابطة على سلالم أخرى مع النظر في شغف إلى التنوع البستانى وتنوع الخضراء التى تصادفها أثناء جريها كما استمتعت بمشاهدة نباتات إبرة الراعى وشجيرات مزهرة وأعقاب للسجاير ومساحات من الأرض الخالية التى تشبه القبور الخالية من الشواهد ، وكان يوسف يجري إلى جوارها إنها تصرخ في وجهه لكي ينصرف بعيداً عنها هناك رجل وزوجته طاعنان في السن يجلسان على أريكة طويلة بالحديقة فابتسمَا في حنين للماضى عندما وقع

بصريها على هذا المشهد من شجار العشاق وجرت تشارلى على طول مسافة رصيفين على ذلك النحو إلى أن وصلت إلى سور والى مساحة مخصصة لوقوف السيارات الا انها لم تنتحر حيث أنها ليست من ذلك النوع من الناس الذى يلجأ للانتحار ولأنها ت يريد أن تعيش مع يوسف ولا ترغب في أن تموت مع ميشيل توقفت عن الجري بدون أن تنتقطع أنفاسها وبدون أن تلهث الا بقدر ضئيل لقد أفادها الجري وشعرت بتحسن حالتها النفسية وطلبت من يوسف أن يتناولها سيجارة ولكنه لم يكن لديه سجائر ثم جذبها لكي تجلس على مقعد خشبي طويل فجلست ثم وقفت مرة أخرى لكي تفرض عليه الاعتراف بحقوقها وشخصياتها كانت قد علمت أن المشاهد العاطفية لا تؤدي على نحو فعال بين العشاق الذين ينخرطون في المشي ولذلك حرصت على أن تقف في صمت وسكون .

قال يوسف لها في تحذير : انصحك بأن ينصب عطفك وتعاطفك على الأبراء فقط

فقالت : كان بريئا الى أن اخترعته وابتكرته !

وبطريق الخطأ فسرت صمته على أنه تشوش أو فوضى في داخل ذهنه ثم فسرت هذه الفوضى على أنها بمثابة ضعف وتخاذل ولذلك لاذت بالصمت وفضلت أن تنخرط في التأمل في خط السماء الهائل الرهيب ثم قالت في انتقاد مليء بالقسوة : اقتباس انه لأمر ضروري أننى لم أكن لأوجد هنا إذا لم تكن هناك ضرورة أو حاجة لذلك . اقتباس آخر لا يمكن لأى محكمة عادلة على وجه الكرة الأرضية ان تديننا على مانطلب منه أن تفعله . هذه هي كلماتك على ما أعتقد أتريد أن تراجع وتسحب هذا الكلام ؟

— لا . لا أظن ذلك .

— لا أظن ذلك . حسنا . من الأفضل أن تكون متاكدا تماما لأنه لو كانت هناك أية شكوك حولنا هنا فأننى أفضل أن تكون شكوكا خاصة بي وأثناء استمرارها في الوقوف تحول انتباها إلى نقطة تقع أمامها مباشرة .. في مكان ما

في جسد المبني المقابل الذي راحت تدرسه الآن باهتمام شديد وكأنها تفكّر في شرائه. إلا أن يوسف ظل جالسا على المقدّس الخشبي مما جعل المشهد يبدو خاطئاً على نحو ما. إذ كان ينبغي أن يكونوا مواجهين لبعضهما البعض وجهاً لوجه في لقطة سينمائية مأخوذة عن قرب، أو أن يكونا واقفاً وراءها ومتوجهاً ببصره إلى نفس علامة الطباشير البعيدة.

تساءلت: أليدك مانع من أن نضيف بعض الأمور القليلة؟

ـ لا مانع. تفضل.

ـ لقد قتل يهوداً.

ـ قتل يهودا كما قتل متفرجين أبرياء لم يكونوا من اليهود ولم يكن لهم أي علاقة بالصراع.

ـ أود أن أُولف كتاباً بالفعل عن ذنب جميع أولئك المتفرجين الأبرياء الذين أشرت إليهم. ولسوف أشير في بداية هذا الكتاب إلى قصصكم اللبنانيين بالقنابل وأنطلق في الكتابة من هذه الزاوية.

وسواء أكان جالساً أم لا فإنه قال بسرعة تفوق توقعاتها: «إن هذا الكتاب قد تم تأليفه بالفعل ياتشارلى، وعنوانه «الهلوكت».

وضمت تشارلى اصبع الأبهام وأصبع السبابية لبعضهما البعض مما أوجد ثقباً صغيراً للتجسس ثم راحت تحدق من خلال هذا الثقب نحو شرفة بعيدة. وقالت:

ـ ومن ناحية أخرى فأنا أقول لك أنك شخصياً قتلت أشخاصاً من العرب.

ـ بالطبع.

ـ قتلت كثيرين من العرب؟

ـ قتلت أعداداً كثيرة.. بما فيه الكفاية ولكن فقط من أجل الدفاع عن النفس فالإسرائييون لا يقتلون أبداً إلا من أجل الدفاع عن النفس. فلم يرد على كلامها.

أكملت: «حسناً، هذه نقطة بداية أخرى لكتاب الذي ساكتبه، إذ يمكن أن يبدأ الكتاب بهذه العبارة: الإسرائيلي الذي قتل عدداً كافياً من العرب».

كانت جونتها المصنوعة من قماش الطرطان الصوفى المقلم مأخوذة من جهاز العروس الخاص بميشيل وكان لهذه الجونلة جيوب على كلا الجانبين، هو أمر لم تكتشفه إلا أخيراً. فدفعت يديها في الجيوب وجعلت الجونلة تتمايل وتظاهرت بأنها تدرس التأثير الناجم عن ذلك.

قالت متسائلة في عدم اكتراث: «أنتم أولاد حرام، أليس كذلك؟» أنتم بكل تأكيد أولاد حرام أيمكن لك أن تقول ذلك؟ وكانت لا تزال تنظر إلى جونتها وقد شغفت بالفعل بالطريقة التي تمثلني بها الجونلة وتدور، واستطردت: «وأنت تعتبر أسوأ شخص ابن حرام بينهم جميعاً، أليس كذلك؟ لأنك تختار أحد أمرئين، ثانيهما تؤمننا لمصالحتك أو تأييدها لحجتك. فأنت تبدو في بعض الأحيان بمثابة قلبنا الدامي وأحياناً أخرى تبدو بمثابة المقاتل الشرس الخاص بنا. بينما أنت في حقيقة الأمر شخص يهودي متغطش للدماء والاستيلاء بيون وجه حق على المزيد من أراضي العرب».

فهب واقفاً وضربها على وجهها مرتين وذلك بعد أن انتزع عنها نظارة الشمس الخاصة بها. وكان هذا الضرب هو أقوى وأسرع لطمتيں تهبطان على وجهها على مدى حياتها حيث هبطتا على نفس الصدغ من الوجه وكانت اللطمة الأولى ثقيلة للغاية حتى أنها قالت لنفسها وهي تتذكر منزل أثينا أن ذلك يعتبر بمثابة تصفيّة للحساب أو أخذ بالثأر. وكانت اللطمة الثانية بمثابة تفجر جديد في نفس فوهة البركان. وعندما انتهى من اللطمتين جذبها لأسفل لكي تجلس على المقدس الخشبي فجلست وانخرطت في بكاء مرير. وساعت نفسها في تعجب: «هل ضربتني إكراماً له أو إكراماً لي؟». وتمتنت في يأس أن يكون ذلك إكراماً له كما تمنت أن تخترق سره عقب مرور اثنى عشرة ساعة على زواجهما الجنون، ولكنها عندما ألقت نظرة واحدة على وجهه المغلق وعلى حملقته المشتتة المتشائمة جعلتها تدرك أنها

– وليس يوسف – هي التي تحلت بالصمود والصبر. راح يمد منديله نحوها ولكنها دفعت بمنديله بعيدا عنها.

تمتلت قائلة : انس ما حدث.

امسكت ذراعه. ثم سارا سويا في بطء عائدين على المشى الخرسانى. فابتسم لها نفاس الرجل العجوز وزوجته لدى مرورهما بجوارهما. وقال الرجل العجوز وزوجته لبعضهما البعض: إنهم طفلان مثلما كنا طفلين في يوم ما. التشاجر في عنف مثل السفاحين القاتلة للحظات ولكن في اللحظة التالية يذهبان إلى السرير للممارسة على نحو أفضل من ذي قبل.

.....

كانت الشقة السفلية تشبه كثيرا الشقة العلوية باستثناء أنها لا يوجد بها شرفة ولا يوجد بها سجين. وهي في بعض الأحيان بينما تقرأ أو تصفي فانها تحاول أن تقنع نفسها أنها ليست في الدور العلوى على الإطلاق – اذ كان الدور العلوى بمثابة غرفة من الرعب في العليات الداكنة لذهنها. وبعدئذ بدأت تسمع أصوات حزم الأمتعة من خلال السقف وذلك أثناء قيام الفتىان بحزم معداتهم الفوتوغرافية. وكان عليها أن تعرف بأن الدور العلوى كان حقيقيا وواقعا شأنه في ذلك شأن الدور الأرضى: بل وأكثر واقعية نظرا لأن الخطابات كانت مزيفة في حين أن ميشيل كان لحما ودماً .

وجلس ثلاثتهم في حلقة أو دائرة وابتدا كيرتز باحدى المقدمات التمهيدية الافتتاحية الخاصة به الا أن أسلوبه كان أكثر وضوحا وأقل التواء عما هو معتمد. ربما لأنها أصبحت الآن جندية مثبتة وصارت جندية قديمة محنكه. وكانت الخطابات في داخل حقيقة موجودة فوق المنضدة. وقبل أن يفتح الحقيقة فإنه ذكرها مرة أخرى «بالرواية» وهي كلمة متداولة بينه وبين يوسف. فالرواية لم تكن فقط بمثابة حببية عاطفية وإنما أيضا بمثابة مراسلة عاطفية كانت محرومة خلال غياب ميشيل الطويلة من كافة التنفسات والخارج الأخرى. وبعد أن أوضح ذلك قام بارتداء قفاز

قطني ولذلك فان الخطابات لم تكن بمثابة مجرد مشهد ثانوى جانبي فى العلاقة وإنما كانت «المكان الوحيد الذى يمكن لك العيش فيه يا عزيزتى» إن الخطابات تسجل حبها الاستحواذى المتزايد لميشيل - وغالبا فى صراحة ملطفة واسترضائية - ولكنها تعبر أيضا عن يقظتها السياسية وعن تحولها إلى «استخدام القوة لتحقيق الأغراض السياسية» الذى يسلم بوجود «الرابطة» التى تربط ما بين جميع أنواع الكفاح المناهض للقمع فى أى مكان فى جميع أنحاء العالم. وهذه الخطابات اذا ضمت إلى بعضها البعض تتتألف منها المذكرات اليومية «لأنسانة مثاره عاطفيا وجنسيا» لدى تقدمها من مرحلة الاحتجاجات إلى مرحلة العمل النشيط الذى يتقبل استخدام العنف بكل صراحة.

وأضاف وهو يفتح قفل الحقيقة «ونظرا لأنه لا يمكن لنا الاعتماد عليك من حيث قيامك بتزويدنا بالتوسيع الكامل لأسلوبك الأدبى فاننا قررنا أن نؤلف الخطابات نيابة عنك.

وراحت تفكر وقالت لنفسها: بالطبع. ثم ألقت نظرة خاطفة على يوسف الذى جلس معهلا وبرئا على نحو رائع وغير مألوف بينما ضغطت يديه على بعضهما البعض بين ركبتيه مثل رجل لم يسبق له أن ضرب أى شخص فى حياته على الإطلاق.

كانت الخطابات ملفوفة فى عبوتين محزومتين لهما لون بنى. وإحدى العبوتين أكبر بكثير من العبوة الأخرى. واختار كيرتز العبوة الصغيرة وراح يفضلها بأطارف أصابعه المتوارية تحت القفاز. ثم نشر الخطابات لكي تكون منبسطة. وتعرفت تشارلى على خط ميشيل فى الكتابة وهو خط بالحبر الأسود وشبيه بخط أولاد المدارس. ثم قام كيرتز بفتح العبوة الثانية. وعلى نحو يشبه الحلم الذى يتحقق تعرفت على خط يدها فى الكتابة. وكان كيرتز يقول: إن الخطابات المرسلة من ميشيل إليك هى نسخ فوتostatic.. فنحن لدينا النسخ الأصلية فى انتظارك فى إنجلترا. أما الخطابات الخاصة بك فهي النسخ الأصلية وهى خطابات تخص ميشيل. أليس كذلك يا عزيزتى؟

فقالت بصوت مرتفع في هذه المرة: «هذا أمر طبيعي. ثم ألقت نظرة خاطفة في اتجاه يوسف ولكن نظرتها انصبت في هذه المرة على يديه المغلقتين المصممتين على انكار التأليف.

وقامت بقراءة خطابات ميشيل أولا لأنها كانت تشعر أنها تكون له المجاملة والاهتمام. وكانت مجموعة خطابات ميشيل تضم اثنى عشر خطابا وكانت تتراوح ما بين خطابات حسية عاطفية إلى خطابات مختصرة وفاشستية. «أرجو أن تتقربى بترقيم خطاباتك وتحرصى على هذا الترقيم. وإذا لم تلتزمى بالترقيم فلا داعى لأن تكتبى لى خطابات. فأننا لا أستطيع الاستمتاع بخطاباتك إذا كنت غير متأكد تماما من أننى استلمتهم جميعا: فهذا يتعلق بالأمن الشخصى الخاص بي». وبين عبارات الامتداح الصوفى الوجданى المنصب على أدائها فى التمثيل كانت تظهر نصائح جافة تحثها على ضرورة الالتزام فقط بتمثيل الأنوار «ذات الأهمية الاجتماعية والتى يمكن أن توقد الوعى». وهى فى نفس الوقت ينبغى عليها أن تتجنب القيام بالأنوار الجماهيرية التى تكشف عن اتجاهاتها السياسية الحقيقية. اذ ينبغى عليها عدم الذهاب إلى اجتماعات جماهيرية راديكالية أخرى ويجب عليها عدم الاشتراك مرة أخرى فى اضرابات أو مؤتمرات جماهيرية. كما ينبغى عليها أن تدخل نفسها فى نطاق «السلوك البرجوازى» بحيث تبدو وكأنها تتقبل المستويات الرأسمالية. وعليها أن يجعل الناس يعتقدون أنها «قد تخلت تماما عن التمرد والثورة» بينما هي فى حقيقة الأمر وعلى نحو سرى «تستمر بكل الوسائل الممكنة فى القراءات الراديكالية». وكان هناك الكثير من التشويش فى النواحى المنطقية علاوة على وجود أخطاء فى التركيبات اللغوية بالإضافة إلى العديد من الأخطاء الهجائية. وكان هناك كلام عن «اتحادنا الجديد المرتقب فى القريب العاجل» بما يعنى اللقاء من جديد فى أثينا. كما كانت هناك اشارتان خجولتان إلى العنب الأبيض والفودكا «والحصول على قدر كاف من النوم قبل أن تلتقي سويا مرة أخرى».

ولدى استمرارها فى قراءة الخطابات بدأت تكون فى ذهنها صورة جديدة عن ميشيل تقسم بأنها أكثر تواضعا أو صورة قد اتخذت فجأة تشابها كبيرا مع

السجين الموجود في الدور العلوي. وقالت في تتمة: «إنه طفل صغير» ثم نظرت إلى يوسف في نوع من الاتهام وقالت له: «لقد نفخت في صورته أكثر من اللازم. فهو فتى صغير».

وعندما لم يرد عليها تحولت إلى الخطابات الخاصة بها والتي أرسلتها إلى ميشيل حيث التقettaها في نشاط كما لو أنها تحل لغزاً كبيراً. وقالت بصوت مرتفع «كتب مدرسية». وابتسمت ابتسامة بلاءً لدى إلقاءها أول نظرة عليها في توبر و كان ذلك بسبب - وبفضل إدارة الأرشيف لدى نيد كويالي - قام الرجل الجورجياني العجوز باستخراج نسخة طبق الأصل من الآلات الكتابية من ورق وأقلام والتي تخص تشارلي - ظهور قوائم الطعام والفوائير وورق الرسائل المعنون الخاص بالفنادق والمسارح وبيوت الطلبة والطالبات على طول طريقهما بل وقام أيضاً بالتقاط التغييرات الثقافية التي ظهرت في طريقة كتابتها اليدوية إبتداءً من الشبطة الطفولية المتسمة بالأحزان المبكرة إلى خطها وهي امرأة مفعمة بالحب وغارقة في العاطفة. وابتداءً من شبطة خط يد الممثلة الغارقة في الارهاق الراغبة في الحصول على قدر من الراحة إلى خط يد الانسانة الثورية التي يهمها أن تكتب رسالة مطولة بها عبارات مقتبسة من تروتسكي ولكنها مع ذلك تقع في أخطاء إملائية.

شعرت تشارلي بالخجل والارتباك عندما أدركت كيف أنهم قد قلدوا تماماً مغالاتها الرهيبة وقلدوا وقوعها في التفسف المقسم بالارتباك وعدم الإكمال وقلدوا غضبها العنيف من حكومة حزب المحافظين المتولية للسلطة. وهي على النقيض من ميشيل من حيث أن كلامها عن ممارستها للجنس كان نابضاً بالحياة ومتسمًا بالصراحة الشديدة. وكان كلامها عن والديها مليئاً بالاساءات وعن فترة طفولتها مليئاً بالحنق والغيظ والغضب. وتقابلت مع تشارلي الكاتبة الرومانسية، ومع تشارلي الشاعرة بالندم الراغبة في التوبة، ومع تشارلي المؤمن وتقابلت مع ما يسميه يوسف الطابع العربي الموجود في داخل كيانها... مع تشارلي التي كانت تعشق فن الخطابة الخاص بها والتي كانت تستوحى أفكارها عن الحقائق من الأمور التي

حدثت وليس من الأمور التي ينبغي لها أن تحدث. وعندما انتهت من قراءة كافة الخطابات فانها وضعت مجموعتها الخطابات مع بعضها البعض ثم راحت تعيد قرائتها كلها مرة أخرى – وقد وضعت رأسها بين يديها – من حيث مجموعة كاملة من خطابات التراسل تضم خطاباتها الخمسة التي تحررها كرد على كل خطاب واحد مرسلاً منه وتضم اجاباتها كرد على أسئلته وتضم مراوغاته وتهربه من حيث الرد على أسئلتها.

وأخيراً، قالت تشارلى بدون أن ترفع رأسها «شكراً يا يوسف. شakra جزيلاً. لو قمت باعاراتي بندقيتنا الجميلة لفترة قصيرة سأقوم باطلاق الرصاص على نفسي على الفور».

كان كيرتز غارقاً بالفعل في الضحك ولكنه بدا غارقاً بمفرده في هذا المرح والطرب، وقال: «والآن يا تشارلى، لا أعتقد أن ذلك أمراً منصفاً تماماً لصديقنا يوسف هنا على الاطلاق. فهذا كان أمراً يتعلق بإنجازات قامت بها لجنة، فنحن لدينا كميات كبيرة من الأذهان التي تعمل هنا».

وكان لكيرتز مطلب آخر: المظاريف التي ضمت خطاباتك يا عزيزتي. لقد كانت موجودة معه هنا. أنظري. إنها لم يكن عليها علامات تفيد بأنّ أجر البريد مدفوع أو ملغى، لم يكن قد وضع الخطابات في داخل المظاريف لكن يقوم ميشيل باستخراجها مرة أخرى في الحفلة الافتتاحية. فهل يمكن أن تتفضل تشارلى لكي تؤدي هذه الخدمة؟ وقال أن هذا أمر حيوى من بصمة أصابعها: أولاً بصمات أصابعك يا عزيزتي وبعد ذلك بصمات أصابع فارز الرسائل في مكتب البريد وأخيراً بصمات أصابع ميشيل. ولكن كنت هناك نقطة أخرى تتعلق بوضع لعب فمهما على لسان ظرف الرسالة تحت طوابع البريد. فهذا يتعلق بفصيلة الدم الخاصة بها وذلك خشية أن يقوم أي شخص ذكي بالتفكير في عمل مراجعة لأنّه ينبغي عليك ألا تتنسى أن لديهم أناساً يمتازون بالمهارة الشديدة.

تذكرت المعانقة الطويلة المتسمرة بالطابع الأبوى التي قام بها كيرتز لأنّها بدت أمراً حتمياً وضرورياً مثل الأبوة، لكنها لم تتذكر على الاطلاق توديعها ليوسف

ولا الكيفية التي تم بها التوديع ولا المكان الذي شهد التوديع. صحيح أنها تذكرت التعليمات النهائية وتذكرت العودة السرية إلى سالزبورج: حيث قضت ساعة ونصف الساعة في السيارة «الفان» الخاصة بديمترى حيث لم يكن هناك أى كلام عقب اطفاء الأنوار. وتذكرت أيضاً الهبوط في لندن حيث كانت تشعر بالوحدة على نحو لم تشاهده في حياتها على الأطلاق. تذكرت رائحة الحزن الانجليزي التي هجمت عليها وهي مازالت على المر بالمطار حيث ذكرها ذلك بالأمور التي دفعتها إلى التحول إلى الحلول الراديكالية في بادئ الأمر: الكسل الخبيث للسلطة واليأس الحبيس الذي يعاني منه الخاسرون. كان هناك اضراب جزئي يقوم به الحمالون كما كان هناك اضراب يقوم به عمال السكة الحديد وكانت مراحيل النساء شبيهة بالسجن. وكالمعتاد أوقفها المسئول عن الجمارك ووجه إليها أسئلة. ولكن مع وجود فارق، وهو أنها ساءلت نفسها في تعجب مما إذا كان لديه سبب آخر بخلاف الرغبة في مجرد التحدث والدردشة معها.

قالت تشارلى لنفسها لدى انضمامها لطابور المكتتبين المتوجهين للركوب في الاتوبيس أن العودة للوطن تشبه تماماً السفر إلى خارج الوطن. هيا ننسف ونفجر كل شيء ونبداً من جديد.

الفصل السادس عشر

كان الفندق يسمى رومانز يقع بين أشجار الصنوبر على ربوة تطل على الأتوبان (الطريق البري السريع). لقد شيد منذ ١٢ شهرا من أجل الذين يعشقون أساليب العصور الوسطى حيث يضم أروقة مسقوفة مزخرفة بالأسمنت وبنادق ذات طراز قديم مصنوعة من البلاستيك واضاءات خفيفة منبثقة عن لمبات النيون. كان كيرتز قد حصل على الشاليه الأخير في الصف والذي به نافذة ذات حصيرة تطل على الحارة المتجهة نحو الغرب. كانت الساعة آنئذ الثانية صباحا وهو الوقت المفضل لديه . لقد أخذ حماما وحلق ذقنه وأعد لنفسه القهوة مستعينا بالماكينة الخاصة بالقهوة كما تناول كوكا كولا من الثلاجة وعلى مدى الوقت المتبقى فعل ما كان يفعله الآن جلس إلى منضدة الكتابة الصغيرة وقد أطفأ جميع الأنوار ووضع منظارا عند مرفة وراح يرقب زنوار المصابيح الأمامية لدى تحركها بين جنوط الأشجار لدى انطلاق السيارات في طريقها إلى ميونيخ بدت حركة المرور خفيفة في تلك الساعة من الصباح بمعدل خمسة سيارات في كل دقيقة .

كان يوما طويلا وليلا طويلا أيضا اذا أحصيت الليالي، إلا أن كيرتز كان يعتقد أن الكسل يصيب الرأس بغشاوة وتعتمم مثل السحب بل يعتقد أن المرء يكتفي نوم لمدة خمس ساعات فقط، ولكنه هو شخصيا يكتفي أن ينام فترة أقل من ذلك بكثير. كان يوما طويلا على كل حال، وهو يوم لم يبدأ الا بعد أن غادرت تشارلز المدينة. اذ كانت هناك أعمال تنظيف شقق القرية الأولبية حيث قام كيرتز بالاشراف على تلك العملية بنفسه . لأن ذلك يعطي المزيد من الحماس للأولاد عندما يتذكرون تصميمه على تناول التفاصيل . كما كانت هناك الخطابات التي ينبغي وضعها في شقة يانوكا إهتم كيرتز بذلك أيضا.

ومن مركز المراقبة عبر الشارع كان قادرًا على الاشراف على الملاحظين وظل

موجوداً لكي يمتحن أعمالهم لدى عودتهم ولكن يؤكد لهم أن يقظتهم البطولية الطويلة سرعان ما تستجلب لهم المكافآت المالية.

كان ليني قد تساءل في نوع من التبرم: ماذا يحدث له؟ ي Amarthy إن ذلك الولد له مستقبل، الآن عليك فقط بتذكر ذلك.

كان رد كيرتز متسمًا بالغموض والابهام: يا ليني، إن ذلك الولد له مستقبل ولكن ليس معنا.

وجلس شيمون ليتفاكر خلف كيرتز على حافة السرير المزدوج كان قد خلع معطف المطر وألقى به عند قدميه وقد بدت عليه ملامح الضيق والغضب أما بيكار فيجلس بمعزل عن كلّهما فوق كرسٍ مريح.

قال ليتفاكر في سخط موجهًا كلامه لظهر كيرتز : الفتاة لا تعرف أي شيء فهى حمقاء وبلهاء، أنها هولندية تسمى لارسين تعتقد أن يانوكا إنقطها بينما تجلس القرصاء مع لجنة ثورية في فرانكفورت، ولكنها غير متأكدة تماماً ان لديها العديد من الرجال بالإضافة إلى أنها مصابة بداء النسيان لقد اصطحبها يانوكا في رحلات قليلة وعلمتها كيف تطلق النار من بندقيته وأغارها لآخر كبير من أجل أن تروح عنه، أنها تتذكر تلك الجزئية وحتى بالنسبة للحياة الجنسية لخليل فانهم استخدموا الحذف والاختصار ولم يستخدموا نفس المكان مرتين وقد وجدت ذلك الأمر متسمًا بالترتيبية والنطوية ومن وقت آخر كانت تقود السيارات نيابة عنهم علاوة على وضع قنبلتين نيابة عنهم بالإضافة الى سرقة عدد قليل من جوازات السفر من أجلمهم. كل ذلك من أجل الصداقة لأنها إنسانة فوضوية بلهاء وحمقاء .

قال كيرتز في رؤية : أنها فتاة للترفيه

– أنها تعترف بعملية بادنسبرج وتعترف إعترافاً جزئياً بعملية زيوريخ ولو كان لدينا متسعاً من الوقت لاعترفت إعترافاً كاملاً بعملية زيوريخ وهي لم تعرف بعملية أنتويرب.

تساءل كيرتز : وماذا عن ليدن؟

وبيكاري هناك عقدة في صوت كيرتز أيضا، حتى أنه من المكان الذي يجلس فيه بيكار بدا الأمر وكأن الرجلين يعانيان من مرض بالحلق يطبق على الأحوال الصوتية.

فأجاب ليتفاك قائلاً: إنها ليست لها علاقة بعملية ليدن على الاطلاق فقد كانت تقضي أجازة مع والديها في ذلك الوقت في منطقة سيلت أين تقع سيلت؟
قال بيكار: على الساحل الشمالي لألمانيا.

وقال ليتفاك وهو يحملق فيه معبرا عن تبرمه إنها بطيئة وغبية للغاية، موجها كلامه لكيرتز مرة أخرى وأضاف قائلاً: لقد بدأت في التكلم في منتصف النهار تقربيا ولكنها بحلول فترة مابعد الظهر كانت قد بدأت تتراجع عن كل كلام قالته حيث قال (لا لم أقل ذلك الكلام أبدا أنت تكذب على) فادرنا شريط التسجيل من جديد لكي تسمع كلامها ولكنها قالت إن ذلك الكلام المسجل مزيف وليس بصوتها، وبدأت تسبنا وتتصدق علينا، إنها فتاة هولندية عنيدة ومجونة.

قال كيرتز: أدرك ذلك جيدا

لكن ليتفاك كان يريد ما هو أكثر من الفهم:

إذا قمنا بالحاق الأذى بها فسوف نثير غضبها مما يجعلها تصبح أكثر عنادا
وإذا توقيتنا عن إلحاق الأذى بها فانتنا نتيح لها الفرصة لكن تستجمع قواها مما يجعلها بالتالي أكثر عنادا وبحيث تبدأ في صب السباب واللعنة علينا .

وبدأ كيرتز يستدير بعض الشيء إلى أن أصبحت نظراته متوجهة نحو بيكار إذا كان مستغرقا في النظر إلى أي شخص وأضاف ليتفاك في تذمر قائلاً : إنها تساوم إذا حدثتك عن هذا الموضوع فتعهد بالبقاء على حياتي ؟ موافق . وإذا أعطيتكم معلومات عن ذاك الموضع تطلق سراحى ؟ موافق ؟

ثم استدار فجأة في اتجاه بيكار وقال متسائلاً: إذن ما هو طريق البطل؟ أينبغي على أن أسحرها وأفتنها على أن يجعلها تقع في حبى وغرامي؟

وكان كيرتز ينظر إلى ساعته وقال معلقاً : أى شيء تعرفه هي يعتبر في عداد التاريخ بالفعل والأهم من ذلك هو ما الذي ينبغي أن نفعله معها ومتى؟ تكلم مثل رجل ينبغي عليه أن يقدم الإجابة النهائية بنفسه ثم سأله بيكار كيف تسير الرواية يا جادى؟

قال بيكار الرواية تتلاعماً لقد استخدمنا روسيين في بينما لمدة يومين ودفعها في اتجاه الجنوب وسلمها للسيارة . كل ذلك حقيقي وقامت هي بقيادة السيارة إلى ميونيخ وتقابلت مع يانوكا وهذا غير حقيقي ولكنها الشخصان الوحيدان فقط اللذان يعرفان ذلك .

ومن هذه النقطة أضاف ليتفاك مستكملاً القصة:

– وهما تقابلاً في أوتوبران وتلك قرية تقع إلى الجنوب الشرقي من المدينة ومن هناك ذهباً إلى مكان ما وقاما بممارسة الحب ومن الذي يهمه أن يعرف المكان؟ ليس كل شيء ينبغي أن يتلاعماً مع إعادة البناء ربما تمت الممارسة في السيارة فهي تحب الممارسة في كل الأوقات ولا تقول لا أبداً ولكنها تفضل ممارسة الحب مع المقاتلين كما تسميهما ربما قاما باستئجار غرفة في مكان ما وكان صاحب الغرفة خائفاً للغاية بحيث لم يستطع أن يعرض خدماته والتغيرات الشبيهة بذلك هي أمر طبيعي . والمعارضة سوف تتوقع مثل هذه الثغرات .

قال كيرتز وهو ينظر نحو النافذة والليلة ؟ والآن ؟

لم يكن ليتفاك يرغب في أن يحاصر ويضيق عليه الخناق من خلال توجيه الأسئلة الدقيقة إليه . « ولذلك فهما الآن في السيارة وفي طريقهما إلى المدينة . لكن يمارسوا الحب لكي يقوما بعمل ويختفيا خلال الفترات التي تعقب الانفجار ومن الذي سوف يعرف في أي وقت من الأوقات؟ ولماذا ينبغي علينا أن نوضح الأمور أكثر من اللازم؟ »

تساءل كيرتز: إذن أين هي في هذه اللحظة؟

قال ليتفاك: في السيارة الفنان.

- أين السيارة الفان؟

- إلى جوار المرسيديس أنت تعطى الأوامر ونحن ننقل هذه الفتاة.

- وماذا عن يانوكا؟

« في السيارة الفان أيضا آخر ليلة لهما سويا لقد قمنا بتهدئتهم وتخييرهما
» سويا

فاللتقط كيرتز المنظار الخاص به مرة أخرى وجعله مبتعدا عن عينيه بعض
الشيء ثم اعاده إلى المنضدة ووضع يديه مع بعضهما البعض ونظر إليها في تجهم
وتفكير.

قال موجها كلامه لبيكار حدثني عن طريقة مختلفة نرسلها بالطائرة إلى الوطن
ونحبسها هناك في صحراء النقب وماذا بعدئذ؟ ما الذي حل بها أو حدث لها؟ هذا
هو السؤال الذي سيوجهونه فمنذ اللحظة التي تختفي فيها فانهم سوف يفترضون
أسوء الأمور سيعتقدون أنها تراجعت عن اتجاهها السياسي.

وأن اليكسيس قبض عليها وأن الصهاينة أمسكوا بها وعلى كل حال سيعتقدون
أن العملية الخاصة بهم أصبحت محفوفة بالأخطار ولذلك فهم سيتخذون قرارا بعدم
توجيه أية أسئلة:

سرحوا فريق العمل وابعثوا بكل شخص إلى وطنه. ثم لخص الموقف قائلاً:
وي ينبغي أن يحصلوا على الدليل الذي يؤكد أن أحدا لم يحصل عليها باستثناء
يانوكا ينبغي عليهم أن يعرفوا أنها أصبحت ميتة مثل يانوكا هل تخالفني في
الرأي ياجادي؟ أم أنني أدرك من التعبيرات التي ظهرت على وجهك أنك تدرك
الأمور على نحو أفضل؟

واللتزم كيرتز بمجرد الانتظار إلا أن نظرات ليتفاك المترکزة على بيكار ظلت
 مليئة بالاتهام والروح العدائية ربما يشك في براعته في اللحظات التي هو فيها
بحاجة إليه لكي يشاركه الذنب قال بيكار بعد لحظات طويلة ممتدة من الصمت: «لا»
 إلا أن وجهه كان متسمًا بصلابة الأخلاص المليء بارادة من نوع معين.

وفجأة وجه ليتفاك هجومه ضده . وظهرت الرعشة في صوته يقول مكرراً كلمة «لا»؟ وأضاف لا بالنسبة لماذا ؟ لا عملية ؟ مازا تعنى بكلمة : لا ؟

قال بيكار لا بمعنى أننا ليس أمامنا حل بديل ولا مناص ولا مفر انهم اذا استغنو عن الفتاة الهولندية فانهم لن يتقبلوا تشارلى على الاطلاق والمس لارسين هي نفس خطورة يانوكا . وإذا كان علينا ان نستمر في العملية فهذا هو المكان الذي ننجزها فيه .

قال ليتفاك في ازدراه : اذا .

فأعاد كيرتز الهدوء والنظام من خلال توجيه سؤال آخر إذ سأله ليتفاك وقد بدا عليه وكأنه يريد الإجابة بكلمة: نعم حيث قال ألا يوجد لديها أية أشخاص مشهورين مفهدين على الاطلاق؟

فهز ليتفاك كتفيه وقال إنها تعرف شخصية كبيرة من شمال ألمانيا تسمى إيدا وهي لم تقابلها سوى مرة واحدة فقط والى ماوراء إيدا هناك فتاة أخرى تظهر في تليفزيون باريس . يساندها خليل ولكن خليل لا يوزع بطاقات الزيارة إنها فتاة بلها وحمة وهي مدمنة للمخدرات بدرجة كبيرة .

قال كيرتز : اذن فهي بمثابة طريق مسدود . كان ليتفاك قد بدأ يغلق أزرار معطف المطر الداكن وقال : نعم إنها بمثابة طريق مسدود، ابتسامة خالية من البهجة الا انه لم يتحرك نحو الباب اذ كان ما زال متظراً إصدار أوامر محددة له .

كان لدى كيرتز سؤال أخيراً : كم تبلغ من العمر ؟
- في الأسبوع القادم سيصل عمرها واحداً وعشرين عاماً .

هل ذلك سبب ؟

ببطء ويعني بالذات نهض كيرتز واقفاً على قدميه وواجه ليتفاك عبر الغرفة الصغيرة الضيقة التي بها أثاث قديم مزخرف ثم أصدر أوامره .. ياشيمون إسال كل شخص على انفراد إن كان يرغب في الانسحاب؟ لا حاجة للحصول على

تبيرات وايضاحات لا توضع علامة ضد اسم اى شخص يرحب في الانسحاب
مجرد قرار يتخذ بالتصويت عبر اللوحة .

قال ليتفاك : لقد سألكم بالفعل .

فرفع كيرتز معصمه الأيسر ونظر إلى ساعته وقال: اسألهم مرة أخرى وبعد
ساعة واحدة من الان اتصل بي تليفونيا وليس قبل انقضاء ساعة ولا تفعل أى شيء
قبل أن تتكلممعي .

كان كيرتز يعني: عندما تكون حركة المرور ضعيفة للغاية .

وانصرف ليتفاك بينما بيكار باقيا .

وأجرى كيرتز المكالمة التليفونية الأولى له مع زوجته أيلى وكان حريصا على أن
تسدد زوجته التكاليف والنفقات الخاصة بالمكالمة وقال في هدوء عندما ادرك أن
بيكار نهض مستعداً لمغادرة المكان: ابق في مكانك لو سمحت يا جادي لأن كيرتز
كان يحب أن يفتخر بأنه يعيش حياة مكشوفة للغاية، لذلك ظل بيكار يصغي على
مدى عشر دقائق إلى أمور تافهة مثل: كيف أن أيلى تتقدم في دراسة التوراة أو
تتغلب على مشكلات التسويق، بينما السيارة موجودة بعيداً عن الطريق لم يكن
بحاجة لأن يسأل عن السبب الذي جعل كيرتز يتصل تليفونيا في مثل هذه اللحظات
 فهو في يومه قد فعل الشيء نفسه على وجه الدقة . أن كيرتز يريد أن يلمس
القاعدة قبل القيام بالقتل، كان يريد أن يسمع إسرائيل تتحدث إليه بصوت حتى
وليس بصوت مسجل على أسطوانات أو شرائط قال كيرتز في حماس لدى وضعه
سماعة التليفون مؤكداً لبيكار «أيلى على مايرام وهي ترسل تحياتها لك وتقول لك
يا جادي أسرع بالعودة إلى الوطن لقد التقيت بطريق الصدفة منذ يومين مع فرانكي
وكانت فرانكي على مايرام أيضاً إنها تشعر بالوحدة والاشتياق لمشاهدتك ولكنها
على مايرام .

أما المكالمة التليفونية الثانية لـ كيرتز فقد اجراها مع أليكسيس واستمع كيرتز
للأنباء العائلية للعميل الخاص به، وسأل عن الطفل القادم في الطريق - نعم الأم
والطفل في صحة جيدة . ولكن ما أن انتهت هذه العبارات التمهيدية حتى استجمع

كيرتز قواه ودخل في لب الموضوع لأنّه من خلال محادثاته القليلة الأخيرة مع إليكسيس كان قد شعر بنوع من الاهتمام والاسترخاء من جانب إليكسيس .

وقال في بهجة : يابول يبدو هناك حادثة معينة : - وهي حادثة سبق لنا أن تحدثنا عنها أخيرا - على وشك أن تحدث في أي لحظة وليس بمقدوري أنا ولا أنت عمل أي شيء من أجل منع حدوثها لذلك أرجو أن تحضر ورقة وقلما ثم غير نغمة صوته وراح يصب أوامره وتعليماته على مدى الـ ٢٤ ساعة الأولى عقب استلامك هذه الاشارة الرسمية سوف تقصير تحرياتك واستفساراتك على احياء ومساكن الطلبة في فرانكفورت وميونيخ ولسوف تشيع أن الشكوك الرئيسية تحوم حول مجموعة من الاشخاص النشطاء المتنمرين للجناح الأيسر والذين لهم علاقات مع خلية موجودة في باريس. هل كتبت ذلك ؟ وفي اليوم الثاني وعقب فترة الظهيرة تقدم نفسك إلى مكتب البريد الرئيسي في ميونيخ وتحصل على رسالة مكتوب عليها عباره (تحفظ في شباك البريد) * وهي رسالة مرسلة إليك وعليها اسمك « واستمر كيرتز في الكلام بعد أن حصل على التأكيدات اللازمة » وهذا سوف يزودك بهوية المتهمة أو المجرمة الأولى وهي فتاة هولندية بالإضافة إلى خلفية من البيانات والمعلومات التي تتعلق بتورطها في حوادث سابقة .

بدأت الأوامر التي يلقاها كيرتز تتدفق وفق سرعة الاملاء : لا ينبغي أن يتم عمليات تحري في مدينة ميونيخ حتى حلول اليوم الرابع عشر ونتائج كافة الاختبارات الشرعية ينبغي أن ترسل إلى إليكسيس وحده في اللحظات الأولى ولا يتم نشر وتوزيع هذه الاختبارات إلا بعد أن يوافق كيرتز على ذلك والمقارنة العامة مع الحوادث الأخرى لاتتم إلا بموافقة كيرتز فقط الذي عندما سمع صوت إليكسيس وهو يسمع بأنفه أبعد سماعة التليفون عن أذنه لكي يتمكن بيكار من سماع ذلك ولكن يامارتى - استمع إلى - ياصديقى - ينبغي على أن أسأل عن شيء ما بالفعل

* وهي عباره يكتبها المرسل على غلاف الرسالة مبديا رغبته في احتفاظ اداره البريد بها حتى يأتي المرسل إليه بنفسه فيطلبها .

- اسأله كما يحلو لك .

- ما الذى نتصفحه هنا؟ فوقع حادثة ليس على كل حال بمثابة رحلة خلوية يامارى ونحن هنا يامارى دولة ديمقراطية متحضره هل تدرك ما أعنيه ؟
كان كيرتز قد أدرك هذا لذا أحجم عن قول ذلك .

- استمع الى يامارى ينبغي على أن أطلب شيئاً ما وأننا أطلب ذلك الشيء
واصر عليه لا أريد دماراً وتخريباً ولا أريد إزهاقاً للأرواح .

وهذا هو الشرط الذى أضعه. نحن أصدقاء. هل تتتابع كلامي فى انتباه؟
كان كيرتز يتتابع الكلام حيث رد فى أسلوب مهذب: يا بول، بالتأكيد لن يكون
هناك تدمير للملكيات والعقارات الألمانية. وربما تكون هناك بعض الخدوش القليلة.
ولكن لا تدمير.

وماذا بالنسبة لازهاق الأرواح؟ يا مارى. نحن لسنا أناساً بدائيين وهمجيين
هنا.

فرد كيرتز فى صوت هادئ «يا بول، لن تسفك دماء بريئة. وهذا وعد شرف من
جانبى، لن يصاب أى مواطن ألمانى بخدش واحد» .

- أيمكننى الاعتماد على كلامك هذا؟

فقال كيرتز: عليك أن تعتمد على كلامي .

فى الظروف العادية لم يكن بمقدور كيرتز أن يستخدم التليفون بمثل هذه
الحرية، ولكن نظراً لأن أليكسيس أصبح مسؤولاً عن التجسس على المكالمات
التليفونية وتسجيلها فإنه شعر بأنه يمكن له أن يخاطر ويستخدم التليفون فى حرية.
واتصل ليتفاكر تليفونياً بعد عشر دقائق فقال كيرتز: اذهب وانطلق. اتنى
إعطيك الضوء الأخضر،نفذ العملية.

وظلا منتظرین. حيث كان كيرتز موجوداً عند النافذة بينما جلس بيكار فى
كرسيه مرة أخرى ينظر نحو سماء الليل القلقة. هنا أمسك كيرتز بالمزلاج الرئيسى،
وقف الترباس وفتح مصراعى النافذة إلى أبعد مسافة ممكنة مما سمح بدخول هدير

حركة المرور المتزامن من الطريق البري الرئيسي تتم كيرتز قائلاً: «لماذا أقوم بمخاطر لا لزوم لها؟»، كما لو كان قد ضبط نفسه متلبساً بالاهمال.

فبدأ بيكار يحسى مستخدما سرعة الجندي المقاتل. إن ذلك من أجل القيام بالمراجعة النهائية قبل أن تصدر إدارة المرور إشارة بغلق حركة المرور من كلا الاتجاهين. ومن أجل التفكير في قيمة الحياة البشرية حتى بالنسبة لأولئك الذين ينتهكون الروابط الإنسانية تماما.

وكالمعتاد كان الانفجار هو أشد الانفجارات التي سمعها أي شخص في حياته. ونجم عنه صوت رهيب عال، وأعلى من بادنسبرج ومن هيروشيمما من كافة المعارك التي خاضها المتحاربون. وظل بيكار جالسا في الكرسي الخاص به ينظر إلى ما وراء ظل كيرتز. فشاهد كرة برتقالية من اللهيب تتفجر منبعثة من الأرض ثم اختفت بعد ذلك آخذة معها النجوم الأخيرة المتبقية في السماء علوة على تعقيم الخيوط الأولى للصباح الباكر. وعلى الفور ظهرت موجة من الدخان الأسود الزيتي التي اندفعت لتملأ الفراغ بالغازات الآخذة في التوسيع والانتشار. كما شاهد الحطام والأنقاض تتطاير في الهواء ورأى رذاذًا من الشظايا السوداء تلف وتدور من الخلف — عجلة وقطعة غليظة من الأسفلت وشينًا ما بشرى يتطاير أيضًا في الهواء. كما شاهد الستارة تلمس في رفق وعاطفة ذراع كيرتز العاري وأحس بلفحة دافئة مثل تلك التي تنجم عن أداة تجفيف الشعر في محلات الحلقة. وسمع أزيزًا شبهاها بأزيز الحشرات ينبئ عن أشياء صلبة ترتعش متصادمة مع بعضها البعض. وقبل أن يتلاشى الأزيز سمع صيحات الاستياء الأولى ونباح الكلاب وأصوات أقدام بشريّة خائفة لدى تجمع أناس يلبسون شبابش في أقدامهم في الممر المغطى الذي يربط الشاليهات مع بعضها البعض، كما سمع العبارات اللامعقولة التي يقولها الناس لبعضهم في الأفلام التي تتناول السفن الغارقة: «يا أمي! أمي! لقد فقدت مجهراتي». وسمع صوت امرأة انتابتها الهستيريا وهي تقول: «الروس قادمون» فرد عليها صوت خائف يؤكد لها أن الأمر ليس سوى انفجار شاحنة تتحول. قال شخص ما أن ذلك الانفجار يتعلق بالأمور العسكرية وأشار أن الأشياء

التي ينقلها العسكريون في الليل تعتبر مصدر خزي وعار! كان هناك راديو بجوار السرير. وبينما قبع كيرتز عند النافذة، أدار بيكار الراديو على برنامج محلّي يتناول دردشة عن الإصابة بالأرق وترك الراديو مفتوحاً على هذه المحطة المحلية حيث توقع أن يتم قطع البرنامج فجأة من أجل إذاعة معلومات عن الحادث. وسمع ولولة سرينة سيارة حيث تسرع سيارة شرطة بينما الضوء الأزرق يومض منبعثاً منها ثم ظهرت بعد ذلك سيارة المطافي تعقبها سيارة إسعاف. وتوقفت الموسيقى من الراديو من أجل إصدار أول بيان عن الحادث: انفجار غامض لا يعرف سببه قد وقع في غرب ميونيخ ولا توجد أية معلومات تفصيلية. تم إغلاق الطريق الرئيسي من كل الاتجاهين. وينبغي على سائقى السيارات اتخاذ طريق بديل.

أغلق بيكار الراديو. وأضاء الأنوار. ثم أغلق كيرتز النافذة وأسدل الستائر. ثم جلس على السرير وخلع حذاءه دون أن يفك الأربطة.

قال كيرتز لأن شيئاً ما أنشعش ذاكرته فجأة: لقد تلقيت رسالة من رجالنا الموجودين بالسفارة في بون منذ أيام قليلة يا جادي. طلبت منهم أن يقوموا ببعض التحريات عن أولئك البولنديين الذين تعمل معهم في برلين. من حيث مراجعة النواحي المالية الخاصة بهم.
لم يرد بيكار بأى تعليق.

فأضاف كيرتز: يبدو أن الأنباء ليست على ما يرام تماماً. وإن علينا أن نعثر على المزيد من النقود أو البولنديين.

وعندما لم يتلق كيرتز أى رد، رفع رأسه في بطء فشاهد بيكار يحملق فيه وهو واقف عند فتحة الباب. وكان هناك شيء ما في وقفة الرجل الأطول تسبب في اشعال غضب كيرتز الذي قال: أترغب في أن تقول لي شيئاً ما يا بيكار؟
ويبدو أن بيكار لم يكن لديه شيء يقوله، وفي هدوء شديد أغلق الباب وراءه.
وانصرف خارجاً.

وكان على كيرتز أن يجري اتصالاً هاتفياً واحداً مع جافرون مستخدماً الخط

المباشر مع وطنه، ومد يده نحو سماعة التليفون، ولكنه أصابه التردد وسحب يده. قال لنفسه لدى تصاعد الغضب في داخله مرة أخرى: ينبغي على أن أدع الروك الضئيل في حالة انتظار، لكنه مع ذلك رفع السماعة واتصل به تليفونياً، وابتدأ كلامه بطريقة مهذبة ومعقولة، وعلى النحو الذي يبتداها فيه الكلام سوياً باستمرار. كان يتحدث باللغة الإنجليزية مع استخدام الأسماء السرية المخصصة لذلك الأسبوع. «يا ناتان». أنا هاري الذي يتحدث معك، مرحباً، كيف حال زوجتك؟ عظيم، بلغ سلامي إليها، يا ناتان، هناك معرantan صغيرتان من معارفنا أصبتا ببرد شديد توا، ومن المؤكد أن ذلك سوف يدخل السرور على الذين ينبغي إرضاؤهم من وقت آخر».

وعندما أصفي كيرتز لريود الفعل الملتبسة غير الواضحة الصادرة عن جافرون بدأ يشعر بالارتياح، إلا أنه حاول السيطرة على صوته، وقال: «يا ناتان أعتقد أن المرحلة المهمة في تطور الأحداث وهي المرحلة الخاصة بك تبدأ الآن، عليك أن تصد ضغوطاً معينة وتدع هذا الشيء ينضج، إن الوعود قد تم تقديمها كما تم الإيفاء بها وتنفيذها، وهناك قدر من الثقة الآن، والأمر يستلزم القليل من الصبر»، ومن بين كافة الرجال والنساء الذين يعرفهم كان جافرون وحده هو الذي يحثه على قول أشياء يندم عليها فيما بعد.

وكان لا يزال يتحكم في نفسه ويكتب جماحها على الأرجح لا يتوقع أحد كسب مباراة في الشطرنج قبل فترة تناول طعام الافطار يا ناتان، إنني أحتاج يا سيدي، هل تسمعوني؟ أحتاج إلى الهواء... أحتاج إلى قدر ضئيل من الحرية والمرونة في التصرف... أريد أرضاً أو منطقة خاصة بي.

لذلك أريد منك أن تربط وتقيد حركة أولئك الناس المجانيين المعوهين، ممكن؟ أخرج إلى السوق التجارى واشتري بعض العون والتأييد.

وتعطل الخط التليفوني، ولم يعرف كيرتز أبداً ما إذا كان التعطل قد نجم عن الانفجار أو عن ميشا جافرون لأنه لم يحاول الاتصال تليفونياً مرة أخرى.

الفصل السادس عشر

على مدى ثلاثة اسابيع لانهائية وبينما كانت لندن تنزلق من الصيف إلى الخريف عاشت تشارلى حياة شبه واقعية . حياة تتذبذب وتتأرجح من عدم التصديق إلى الصبر ومن الاستعداد الملىء بالاثارة إلى الرعب التشنجي .

ظل يقول : إن عاجلاً أو آجلاً سيجيئون من أجلك وينبغى عليهم أن يجيئوا وراح يهوى ويعد لها ذهناً وفقاً لذلك .

ولكن لماذا ينبعى أن يجيئوا ؟ لم تكن تعرف السبب وهو لم يوضح لها السبب وإنما استخدم انزعاله ليكون نوعاً من الوقاية والحماية هل سيقوم مايك ومارتن على نحو ما يجعل ميشيل الرجل الخاص بهما مثلاً جعلاً تشارلى الفتاة الخاصة بهما ؟ لقد شهدت أياماً تخيلت أثناعها أن ميشيل سوف يلحق ذات يوم بالرواية أو الحكاية التي ألفها من أجله بحيث يظهر أمامها متھمساً من أجل حق حبيبته عليه . وفي هدوء ورفق قام يوسف بتشجيعها على الانخراط في حالة الفضام النفسي التي تردد إليها مع توجيهها أكثر وأكثر نحو التفويض الغائب الخاص به .

ياعزيزى ميشيل تعالى إلى . يجب عليك أن تحبى يوسف ولكن يجب عليك أيضاً أن تحلمى بميشيل . فى بادئ الأمر لم تكن تجرؤ على النظر إلى نفسها فى المرأة اذ كانت مقتنة أن سرها أصبح مكشوفاً وكان وجهها ممطوطاً وممتداً فى احكام بسبب المعلومات الهائلة الشنيعة المتوارية خلف وجهها وكان صوتها وحركاتها يتسمان بالتروى والتفكير مما جعلها بمعزل وعلى مسافة أميال من باقى البشرية : أنا العرض المسرحي المكون من فتاة واحدة على نحو مستمر ودائماً .

ولدى مرور الوقت تدريجياً أفسح خوفها من الافتراض والانكشاف المجال أمام ظهور ازدراء خفيف ازاء الأبراء الموجودين حولها والذين فشلوا في مشاهدة

ما كان يُقْحَم ويُدْفع تحت أنوفهم في كل يوم وراح تفكّر: إنهم موجوّدون في المكان الذي جئت منه أنا قبل أن أنظر في المرأة بطريقة روتينية.

وازاء يوسف نفسه استخدمت الوسيلة التي أتقنّتها أثناء قيادة السيارة عبر يوجوسلافيا فقد كان هو الرفيق المألف الذي تعزو اليه كل عمل من أعمالها وهو الحبيب الذي من أجله تخضع المكياج على وجهها وتطلق النكات المرحة من أجل ادخال البهجة والسرور عليه. انه الملاز الخاص بها هو أفضل صديق وبكل ما في هذه الكلمة من معنى انه بمثابة العفريت الصغير الذي ظهر فجأة في جميع الأماكن الغريبة وقد تزود بمعرفة مسبقة عن كل تحركاتها - أحياناً عند محطة الأتوبيس وأحياناً في المكتبة وأحياناً أخرى يجلس تحت أضواء النيون بين زهور الأقحوان. الا أنها لم تعرف بوجوده على الاطلاق اذ كان خارج حياتها تماماً وخارج نطاق الزمن والملمس باستثناء المواعيد الفرامية الخاصة بهما وهي المواعيد المختلسة التي تدعّمها وتعزّزها وباستثناء التفويض الغائب الخاص به : ميشيل

ومن أجل التدريب على مسرحية «كما تحبها» فان الشركة استأجرت صالة تابعة للجيش بالقرب من محطة فيكتوريَا وكانت تذهب إلى هناك في كل صباح وفي كل مساء تزيل رائحة البيرة العسكرية الكريهة من شعرها .

سمحت لكويللى بأن يقدم لها طعام الغداء في مطعم بيانكي وأدركت أنه كان غريب الأطوار اذ بدا وكأنه يرغب في أن يحضرها من شيء ولكنها عندما طلبت منه أن يحدثها عن طبيعة ذلك الشيء لاذ بالصمت ثم أشار أن النواحي السياسية تعتبر من الشئون الخصوصية للناس. ولكنه بدا عليه وكأنه مخمور للغاية. وبعد أن ساعدته لكي يتمكن من التوقيع على الفاتورة انضمت إلى الجماهير بالشارع وكان لديها شعور بالصمود في مواجهة نفسها وشعور بالشكل المراوغ الخاص بها لدى انزلاقه بعيداً عنها بين الجمهور المتمايل المترنح انتى منفصلة عن الحياة ولن أتمكن ابداً من العثور على طريري. ولكن حتى وهي تفكّر في ذلك أحسست بتلامس يد على مرفقها لدى اقتراب يوسف منها قبل ذهابه إلى ماركس وسباركس وكان تأثير هذه المشاهد عليها غير عادي خلال فترة قصيرة اذا جعلتها في حالة مستمرة من اليقظة والحدّر

بل وجعلتها - اذا كانت هي أمينة مع نفسها - في حالة مستمرة من الرغبة فال يوم الذي يمر بدون وجوده هو يوم مفقود لا قيمة له واذا القت عليه مجرد نظرة خاطفة فان قلبها وجسدها يهتزان طربا وكأنها فتاة في السادسة عشرة من عمرها .

وكانت تقرأ جرائد الصنادى المحترمة الوقورة وتدرس أحدث الأنباء المدهشة عن ساكفيل ويست، تعجب من عدم عقلانية العقلية الانجليزية الحاكمة . ونظرت إلى لندن التي نسيتها فوجدت في كل مكان تأييدا ازاء هويتها ذات الاسلوب العنيف فالمجتمع كما عرفته كان نبتا جافا ميتا وكانت مهمتها هي ازالة النباتات الميتة واستخدام التربة من أجل شيء ما أفضل وكانت الوجه اليائسة للمتسوقين الذين يمشون في تناقل مثل عبيد مكبلين بالاغلال في أرجاء السوبر ماركت المضاء بلعبات النيون تقول لها ذلك . وكذلك الحال بالنسبة للعجائز اليائسين ورجال الشرطة الذين لهم عيون حقوية وملئية بالسموم كما كانت تستشف ذلك من الاولاد السود المتسكعين الذين يرقبون سيارات الرولز رويس تمرق بجوارهم وكذلك الشيء نفسه بالنسبة للبنوك اللامعة وجو العبادة الدينية ومديريها المتشددين في فرض النظام وكذلك جمعيات المباني التي تغرس المخدوعين لكي يقعوا في شراك ومصايد التملك والملكية وكذلك محلات العربدة والمرح الصاحب والسكر و محلات القمار والمراهنات . والتقيؤ الذي يتم بجهود بسيط من جانب تشارلى . كانت لندن بمثابة صندوق زبالة ممتهن بالقمامه وبالآمال المحبطة والأنفس البشرية المصابة بخيبة الأمل والاحباط وبفضل الالهام الذي قدمه ميشيل لها تمكنت من تشيد الكبارى الذهنية الخاصة بها والتي تربط ما بين الاستغلال الرأسمالي بالعالم الثالث وبين عتبة بابها الموجودة هنا في مدينة كامدين .

ومع العيش في اشراق شديد فان الحياة أرسلت لها رمزا ثقيلا عن انجراف الانسان وسيره على غير هدى وبعد أن خرجت للتربيض والنزهة في الصباح الباكر يوم الأحد - وذلك في حقيقة الأمر من أجل أن يتم لقاء من ضمن اللقاءات القليلة المتყق عليها مع يوسف سمعت صوت آلة وترية تشنو وتنغنى بأنشودة دينية زنجية وفتحت القناة فشاهدت في منتصف المستودعات المهملة للميناء رجالا زنجيا عجوزا

شبيه بالبطل في رواية كوخ العم توم جالسا فوق زورق مربوط طويلاً ويعزف على الكمنجة الخاصة به أمام مجموعة من الأطفال المشدوهين المنبهرين كان ذلك مشهداً مأخوذاً عن فيلم الفيلالينى ، كان مادة ردئه أو سرابا ووهما خادعاً أو رؤيا مستلهمة ناجمة عن لوعيها .

ونامت في السرير مع «آل» مرات قليلة لأنها لم تكن ترغب في نشوب أزمة معه ولأنها عقب فترة الجفاف الطويلة مع يوسف أصبح جسدها في حاجة إليه. هذا بالإضافة إلى أن ميشيل أصدر أوامره لها لكي تفعل ذلك. لم تسمع لآل بأن يزورها في شقتها لأنه قد أصبح بلا مأوى مرة أخرى ولأنها كانت تخشى أن يحاول الإقامة معها في شقتها حيث فعل ذلك من قبل فظل مقيناً عندها إلى أن قامت بالقاء ملابسه وماكينة حلاقته في الشارع وعلى كل حال فان شقتها أصبحت توجد بها أسرار جديدة، وهي ليست مستعدة إطلاقاً أن تدعه يشاركها هذه الأسرار: فسريرها هو سرير ميشيل وبندقية ميشيل الصغيرة موضوعة تحت الوسادة. ولم يكن هناك شيء يمكن أن يفعله «آل» أو أي شخص آخر بحيث يرغمهها على تدليس السرير وهي أيضاً قد تونخت الحذر مع «آل» لأن يوسف حذرها وأبلغها أن صفة التعاقد معه على التمثيل في السينما قد فشلت وهي أيضاً كانت تعرف من قبل كيف أنه يتحول إلى إنسان رهيب عندما تجرح كرامته وكبرياته .

لقد تم أول لقاء جديد متقد بالعاطفة بينهما في الحانة التي يعتاد الجلوس فيها، حيث وجدت الفيلسوف العظيم مستكتنا مع اثنتين من تلاميذاته ولدي سيرها عبر الصالة لكي تنضم اليه فانها راحت تفكر سوف يشم رائحة ميشيل لأنها موجودة في ملابسي وفوق بشرتي وابتسمتى إلا أن «آل» كان مشغولاً للغاية ولم يهتم بت shamم آية روانح ودفع بكرسى إلى الوراء بقدمه كى تجلس عليه وبينما هي تجلس قالت لنفسها في تفكير: ساعدنى يا اللهى منذ شهر واحد فقط كان هذا القزم بمثابة المستشار والناصح الأول لي فيما يتعلق بالأمور التي تجعل العالم يتكتك وعندما أغلقت الحانة أبوابها وذهبا إلى شقة صديق وقامت بالاستيلاء على الغرفة الاضافية الاحتياطية الخاصة به شعرت بالرعب عندما تخيلت أن ميشيل موجود في

داخل كيانها وأن وجهه يحملق نحوها وأن جسده الزيتونى اللون يندفع نحوها فى الجو المشوب ببعض الظلام - ميشيل الولد الصغير القاتل يدفعها نحو الحافة. وفيما وراء ميشيل يوجد هيكل آخر.. انه يوسف وقد تفجرت قواه الجنسية المحبوسة وجسده الملئ بالندبات الفائرة وذهنه الملئ بالندبات وقد أصبحا ملكا لها .

.....

وباستثناء أيام الأحاداد فانها كانت تقرأ صحف رأسمالية من وقت لآخر كما كانت تستمع إلى نشرات الأخبار المذاعة بالراديو، الا أنها لم تسمع أى كلام عن فتاة انجليزية شعر رأسها أحمر اللون ويعتقد أن لها صلة بتهريب متفجرات بلاستيكية روسية إلى داخل النمسا . لم يحدث أن أذيع نبأ من هذا القبيل على الإطلاق . كان هناك كلام يتعلق بفتاتين آخرين إحداهما لها نفس اهواي وزنواتي، وفي معظم المجالات الأخرى فان حالة العالم الأرحب لم تعد تشد انتباها وتثير اهتمامها. وقرأت عن قيام الفلسطينيين بالقاء قنابل في «آخين» كما قرأت عن قيام الإسرائيليين بشن غارة جوية انتقامية على معسكر لللاجئين في لبنان مما أدى إلى وفاة أعداد كبيرة من المدنيين كما قرأت عن تصاعد الغضب بين الجماهير في إسرائيل وشعرت بالقشعريرة الشديدة عندما وعد جنرال اسرائيلي أثناء حوار صحفي بأنه سيحل المشكلة الفلسطينية «بحيث يقتلعها من جذورها تماما» ولكنها بعد أن حصلت على مجموعة من الدروس والمحاضرات عن التآمر، فانها لم تعد تؤمن بالوصف الرسمي للأحداث ولم تعد على استعداد لأن تصدق شيئاً بالمرة . وكانت الأخبار الوحيدة التي تتبعها في اهتمام هي تلك التي تتعلق بحيوان الباندا الانتى العملاقة الموجودة في حديقة الحيوانات في لندن والتي رفضت الزواج وإن كان المنادون بالمساواة بين الجنسين أصرروا أن الغلطة هي غلطة الذكر. فحديقة الحيوان من الأماكن التي يتتردد عليها يوسف حيث يتقابلان سويا على أريكة خشبية طويلة ولو مجرد أن يعتصرا أيدي بعضهما البعض مثلاً يفعل العشاق قبل أن يذهب كل منهما إلى سبيله .

انها تهيم شاردة على هذا النحو حيث أنها تمثل طوال الوقت أمام جمهور غير مرئي مع التحكم في كل كلمة وكل حركة في مواجهة الطيش والاهمال المتكرر في أية لحظة. ووجدت تشارلى نفسها تعتمد إعتمادا كبيرا على الطقوس ففي أجزاء نهاية الأسبوع كانت تذهب عادة إلى نادى «الأولاد» في بيكمام وفي صالة هائلة ضخمة يمكنها أن تستوعب بريخت كانت تستحدث مجموعة الدراما المكونة من «الأولاد» لكي يتفانوا في العمل أثناء تدربهم على مسرحية صامتة من أجل عرضها في الكريسماس .

وفي أيام الجمعة تذهب إلى الحانة التي يجلس فيها «آل». وفي أيام الأربعاء تأخذ زجاجتين من البيرة من أجل إعطائهما للانسة دابر التي تعيش عند الناصية وهي امرأة كانت تعمل في الكوراس أو الانشاد الجماعي ثم استقالت واعتزلت العمل، أنها مصابة بالتهاب المفاصل وكساح الأطفال والتسوس علاوة على العديد من الأمراض الخطيرة كانت تلعن جسدها الذي منحته ذات يوم للعشاق الذين لا يستأهلونها والذين يتسمون بالبخل وعدم الكرم. كانت تشارلى بدورها تملأ دابر أذنها بالعديد من القصص الملفقة العجيبة التي تتعلق بالعروض المسرحية المليئة بالفضائح والتي تعرض في المسارح وعندئذ كانتا تتخرطان في عاصفة مدوية من الضحكات كان الجيران يرفعون صوت أجهزة التليفزيون من أجل أن تغطي على صوت ضجيج الضحكات .

ويخالف هذا لم تهتم تشارلى بزيارة عائلات أخرى رغم أن مستقبلاها التمثيلي قد زودها بالعديد من العائلات التي يمكن لها القيام بزيارتتها اذا شعرت بالرغبة في ذلك .

وكانت تدردش مع لوسي تليفونيا تتفقان على اللقاء الا أنها كانتا تتركان الموعد مفتوحا بدون تحديد ، وأجرت اتصالات مع روبرت الموجودة في «فترسى» الا أن جمهور ميكونوس كانوا يشبهون أصدقاء المدارس منذ عشر سنوات حيث ليس هناك حياة متباعدة لكي تشاركها معهم . كما أجرت اتصالات مع «ويللى» وبيولى إلا أنها كانتا يفكران في الانفصال وكان ذلك بمثابة تغيير فجائى في الأوضاع . كما

قامت بمحاولات قليلة مع أصدقاء حميمين منذ فترات سابقة، وقامت تشارلى بكتابه خطابات لنهائية إلى رجلها المفقود إلا أنها تدريجياً توقفت عن وضع الخطابات في صندوق البريد .

عزيزى ميشيل : عد إلى بداع الشفقة .

الا أنها امتنعت عن الجلوس القرفصاء كما تجنبت الذهاب إلى محلات بيع الكتب الموجودة في ازلنجتون حيث اعتادت على زيارتها من أجل حضور جلسات القهوة المخدرة. كما تجنبت الذهاب للشلة الساخطة الموجودة في شارع بانكراس حيث اعتادت على توزيع النشرات التي تصدر من وقت لآخر عن الكوكايين لأن أحدا لا يرغب في توزيعها سواها. استردت سيارتها من إيوستاس أنها سيارة «فيات» متينة كان «آل» قد حطمها وفي عيد ميلادها قادت السيارة وذهبت لكي تزور والدتها اللعينة ولكن تأخذ معها مفرش المنضدة الذي سبق أن اشتراه من أجلها من ميكونوس كانت تخشى مثل هذه الزيارات بوجه عام : وجبة اللحوم في غداء يوم الأحد مع ثلاثة أنواع من الخضراوات علبة على فطيرة محشوة بأعشاب الراوند يعقب ذلك التلخيص التفصيلي الذي تسوقه والدتها مما فعله الزمن بها من أمور شنيعة منذ آخر مرة تقابلتا فيها. وأمضت الليلة مع والدتها وفي صباح اليوم التالي ارتدت تلفيفة داكنة اللون واصطحبت والدتها إلى الكنيسة وحرست على عدم التفكير في آخر مرة ارتدت فيها التلفيفة وبينما هي ترکع وجدت نفسها متاثرة بسبب ظهور بقايا غير متوقعة من الاحساس بالشفقة وفي حماس وضعت هوياتها العديدة في خدمة الله. ومع الاستماع إلى موسيقى الأرغن بدأت تنخرط في البكاء بالدموع مما جعلها تسائل نفسها في تعجب : ترى إلى أى حد أتمكن من السيطرة على ذهني ؟

قالت في تفكير : السبب في ذلك هو أنتي لا أستطيع مواجهة العودة إلى شقتي .

ومما سبب لها القلق والارتباك هي تلك الطريقة التي تم بها تغيير شقتها لكي تتلاعم مع الشخصية الجديدة التي تدخل نفسها فيها في حرص وحذر شديدين .

وكان اعادة التشديد لشقتها المقسم بالمكر والدهاء والذى تم أثناء فترة غيابها من الشقة هو أشد الأمور التى سببت لها الارتباك، انها الآن تتنظر إلى شقتها باعتبارها أكثر الأماكن أمنا وأمانا . كانت قد حصلت على تلك الشقة من ممثل عاطل دأب على السطو على المنازل وسرقة البيوت ثم اعتزل العمل فى مجال التمثيل وهاجر مع صديق له إلى أسبانيا . وكانت هذه الشقة تقع عند الطرف الشمالى من مدينة كامدين موجودة فوق مقهى هندي يدب فيه النشاط فى الساعة الثانية صباحا ويظل ساهرا لكي يقدم وجبات الافطار حتى الساعة السابعة صباحا ولكلى تصل إلى السلالم الخاصة بها فانه يتبع عليك أن تسير مابين دورة المياه والمطبخ وتعبر فنا وعندئذ يقوم بتفحصك صاحب المطعم والطاهى وصديق الطاهى الواقع المتلىء الخدين بالإضافة الى تعرضك للفحص من جانب أى شخص يتصادف أن يكون موجود فى دورة المياه ، وعندما تصل إلى قمة السلالم يوجد أمامك باب رئيسي يتبع عليك أن تدخل منه قبل أن تدخل إلى المنطقة المقدسة المملوكة لها، والتى تتألف من غرفة فوق السطوح بها أفضل سرير فى العالم، وحمام ومطبخ منفصلين عن بعضهما البعض، ولكنهما بمثابة وحدة واحدة من خلال عقد الإيجار .

والآن ، وعلى نحو فجائى فقدت ذلك العزاء المتعلق بالأمن والطمأنينة لقد سرقوا منها الأمان اذ احسرت كأنهم أجروا الشقة إلى شخص ما أثناء غيابها، فقام بممارسة كافة الخطايا ومع ذلك كيف أمكن لهم الدخول إلى الشقة بدون أن يلحظهم أحد؟ وعندما سألت فى المقهى أخبروها انهم لا يعرفون أى شيء وكان هناك درج الكتابة الخاص بها على سبيل المثال انحضرت فى داخله كافة الخطابات التى أرسلها ميشيل اليها – كافة الخطابات الأصلية وهى نفس الخطابات التى شاهدت نسخا مصورة منها فى ميونيخ . وكان هناك الاعتماد المالى الخاص بها والذى يبلغ ٣٠٠ جنيه من فئة الجنيهات الخمس القديمة كانت مخبأة خلف لوحة مفاتيح الحمام الكهربائية وهو المكان الذى اعتادت أن تضع فيه الاعشاب الخاصة بها خلال تلك الأيام التى تدخن فيها السجائر ونقلت النقود إلى مكان يقع تحت الألواح الخشبية

للأرضية، ثم نقلتها مرة أخرى إلى الحمام ثم إلى أسفل الألواح الخشبية مرة أخرى. كانت أشياء تذكارية تتصل بقصة غرامها في نوتونجهام : علب كبريت مأخوذة من الفندق والقلم الرخيص ذو السن الكروي والذى كتبت به خطاباتها الأولى المرسلة الى باريس ونباتات السحلبية الأولى الموجودة بين صفحات كتاب الطهو وأول فستان اشتراه من أجلها في يورك والحلق الشنيع الذي أعطاها لها في لندن والذي لا تضعه في أذنيها إلا من أجل ارضاها وادخال السرور عليه . كانت قد توقعت إلى حد ما وجود مثل هذه الأشياء . وكان يوسف قد حذرها بالفعل من هذه الأشياء وما كان يزعجها أن هذه اللمسات الدقيقة مع بدأها في العيش معها قد أصبحت لا تعبر عن ذاتها الحقيقية ففي خزانة الكتب الخاصة بها توجد تلك الكتب الضخمة المليئة بالمعلومات عن فلسطين والتي يوجد عليها اهداء حذر من جانب ميشيل كما يوجد على الحائط ذلك الملصق الموالي للفلسطينيين ، والتي يظهر فيه رئيس الوزراء الإسرائيلي بملامحه الضفادعية والى جوار الملصق توجد مجموعة من الخرائط توضح التوسعات الاسرائيلية منذ عام ١٩٦٧ والتي يوجد عليها عالمة استفهام مكتوبة بخط يدها حول منطقة Tyre ومنطقة صيدا وهي عالمة استفهام مستوحاة من قراءاتها عن مطالبة بن جوريون بهاتين المنطقتين. كما كانت توجد كومة من المجلات الصادرة باللغة الانجليزية في طباعة ربيئة والتي تتناول دعاية مناهضة للإسرائيليين .

قالت لنفسها في تفكير : هكذا أنا باستمرار طوال حياتي بما أن أجد نفسي محاصرة أخرج وأشتري الدكان . قالت ذلك بينما كانت تشق طريقها في بطل بين مجموعات الأشياء .

«باستثناء أننى لم أفعل ذلك أبدا . فهم الذين فعلوا ذلك». لم يساعدها هذا القول بل لم تستطع مع مرور الوقت أن تبقى على الفارق أو التميز في داخل ذهنها .

– ياميشيل اكراما لشارلى هل هم قد أمسكوا بك ؟

وعقب عودتها إلى لندن ووفقاً للتعليمات الصادرة إليها قامت بزيارة مكتب البريد في مايدا فال وقدمت له أوراق الاعتماد الخاصة بها وحصلت على خطاب واحد فقط عليه خاتم بريد استانبول كان من الواضح أن الخطاب وصل بعد أن غادرت لندن إلى ميكونوس .. عزيزتي لم يمر وقت طويل الآن في أثينا أحبك . توقيع «م» إنها اشارة مكتوبة لكي تتحثها على الاستمرار الا ان منظر هذا الاتصال المفعم بالحياة سبب لها ازعاجا حيث تقافز حشد من الصور المدفونة من أجل احكام السيطرة عليها والاستحواذ بها منظر قدمي ميشيل وما ينزلقان لأسفل على السلالم في حذائه الجوشى وجسده الضعيف المحب للنفس المتساند على سجانيه وجهه الذى يشبه وجه الغزال الصغير والذى يعتبر صغيرا بالنسبة للخدمة العسكرية . وصوته الرخيم المتسنم بالبراءة الشديدة والميدالية الذهبية التى تصفع فى رفق صدره الزيتونى العارى : أقبل يا يوسف .

راحت تذهب يوميا إلى مكتب البريد وفي بعض الاحيان كانت تذهب مرتين يوميا بحيث أصبحت من الملامة المميزة لهذا المكان لأنها دائما ما كانت تغادر مكتب البريد وقد بدا عليها الذهول وهو اجراء تمثيلي موجه كانت تؤديه في عناية اجراء كان يوسف من حيث هو المعلم السرى الخاص بها يشهده شخصيا أكثر من مرة أثناء قيامه بشراء طوابع بريد .

وفي الفترة نفسها وعلى أمل أن تتلقن الحياة منه، وضعت في صندوق البريد ثلاثة خطابات مرسلة لميشيل بباريس تتسلل اليه ان يكتب لها وتعبر عن حبها له وغفوها عنه مقدما واغتفارها للصمت الذي التزم به وتلك هي الخطابات الأولى التي كتبتها لنفسها وعلى نحو غامض أحسست بالراحة النفسية عقب ارسالها لتلك الرسائل اذ أعطت تلك الخطابات مصداقية أكثر من سابقتها فبعد كل مرة تكتب فيها الخطاب تأخذه إلى صندوق البريد الذي تم اختياره لها وهي تعرف أن هناك أناسا يرقبونها الا أنها تعلمت عدم الحملة فيما حولها وعدم التفكير في هذا الشأن .

وفي إحدى المرات اكتشفت وجود راشيل في نافذة حانة « ويمبى » حيث بدت في ملابس قديمة خالية من النوق كما بدت متذكرة الطابع الانجليزي أكثر من اللازم، وفي مرة أخرى انطلق راوفل وديمترى إلى جوارها فوق دراجة بخارية . أما الخطاب الأخير الذي أرسلته لميشيل كان مرسلا بالبريد المستعجل السريع من نفس مكتب البريد حيث كتبت على ظهر المظروف - عقب لصق طابع البريد عليه - عباره « عزيزى » عزيزى .. أرجوك وأرجوك وأرجوك أن تكتب الرد على خطاباتى ، بينما كان يوسف يقف خلفها منتظرا في صبر .

وتدرجيا بدأت تنظر إلى حياتها عبر هذه الأسابيع على أنها تمتلك نشرة مطبوعة كبيرة ونشرة مطبوعة صغيرة كانت النشرة الكبيرة بمثابة العالم الذى تعيش فيه. أما الصغيرة فبمثابة العالم الذى تنسل منزلقة إلى داخله وتنسل خارجه منه بينما العالم الكبير لا يرقبها فلم تكن ممارسة الحب حتى مع الرجال المتزوجين أمرا سريا بالنسبة لها فى أى وقت .

تمت رحلتها إلى نوتنجهام فى اليوم الخامس لها . اتخد يوسف تدابير وقائية استثنائية تتسم بالحذر والحيطة وقام بالتقاطها فى سيارة لاندروفر من محطة بعيدة لمترو الانفاق فى مساء يوم السبت وقاد بها السيارة عائدا فى فترة مابعد الظهر يوم الأحد . كان قد اشتري لها باروكة شقراء ممتازة للغاية علامة على ملابس جديدة . خاصة معطف من الفراء ، وحقيبة وكان قد رتب لها عشاء متأخرا وفي أثناء العشاء اعترفت تشارلى لنفسها أنها اصيئت بهلع وخوف سخيف حيث كانت تخشى من احتمال تعرف مجموعة العاملين معها على شخصيتها رغم ارتدائها للباروكة ومعطف الفراء ثم يطلبون منها أن تحكى لهم عما حدث لحبيها الأحد الحقيقي .

ثم توجهها إلى غرفة نومها غرفة تضم سريرين بسيطين وفي الرواية قاما بضم السريرين وللحظات اعتقادا بالفعل أن ذلك بقصد أن يحدث خرجت هي من الحمام بينما تمدد يوسف على السرير مسددا نظراته إليها واضطجعت إلى جواره ووضعت رأسها على صدره ثم رفعت وجهها لكي تواجهه وشرعت في تقبيله بقبلات خفيفة

انتقامية حول صدغيه ووجنتيه وراحت تقبل شفتيه مد يده ليبعدها قليلا عنه ثم ارتفع برأسه لكي يواجهها وراح يقبلها بدوره مبقيا يده على خدتها وعينها مفتوحتان. ثم فى رفق شديد أبعدها عنه وجلس معتدلا ثم قبلها قبلة أخرى : مع السلامه .

وقال لدى إلتقاطه معطفها هل تسمعى ؟

كان يبتسم ابتسامته الجميلة الشغوفة التي تعتبر أفضل ابتسامة لديه. وأصفت وسمعت أمطار نوتنجهامشایر ترتطم بالنافذة الخاصة بهما – وهو نفس المطر الذي أبقاها فى السرير على مدى ليالٍتين ويوم واحد طويلا .

وفي صباح اليوم التالي راحا يسترجعان ويذكران في حنين تلك الرحلات القصيرة التي قامت بها مع ميشيل في الأماكن الريفية المجاورة لدرجة أن الرغبات الجامحة في داخلهما كانت تدفعهما للعودة بسرعة إلى الفندق وأكد لها يوسف في حماس أن كل ذلك من أجمل الذكريات المرئية البصرية ومن أجل الثقة الإضافية في عملية المشاهدة . وفي الأوقات التي تخلل مثل هذه الدروس كان يعلمها أشياء أخرى مثل الاشارات الصامتة على حد تسميته لها علاوة على طريقة الكتابة السرية على الجوانب الداخلية لعلب سجاير مارلبورو.

تقابلا مرات عديدة في محل تأجير الملابس المسرحية وعادة ما كان يتم اللقاء عقب الإنتهاء من البروفات.

قالت امرأة شقراء ضخمة الجثة تبلغ من العمر ستين عاما وترتدي ثوبًا طويلا ستكونين بحاجة لأن تجيء من أجل ملائمة الملابس لكي تكون على مقاسك . أليس كذلك يا عزيزتي ؟ وكانت تقول نفس هذه العبارة في كل مرة تخطو فيها تشارلى إلى المدخل ثم تضيف قائلة: ذلك هو الطريق يا عزيزتي وبعدئذ تدخلها إلى غرفة نوم خلفية حيث ينتظرها يوسف أشبه بزبون ينتظر عاهرة .

إن أهم ما كان يقلقها هو عدم معرفتها كيفية الوصول اليه : «أين يقيم ؟ وكيف يمكن لي أن اتصل بك؟

وعندئذ كان يرد عليها قائلاً لها أنها يمكن لها أن « تتصل به عن طريق كاتى، لديك اشارات الامان عند كاتى »

كانت كاتى هي حبل السلامة والإنقاذ بالنسبة لها أنها بمثابة المكتب الأمامي ليوسف بل وهي التي تحافظ على عدم اختلاطه بمن هم أدنى منه. وفي كل مساء في الفترة ما بين السادسة والثامنة تدخل تشارلى إلى كابينة تليفون مختلفة - وتحتاج رقم في الويسـت اند وذلك حتى يمكن لكاتـى أن تصـحبـها وـتـعـرـفـ منـهـاـ كلـ شـيـءـ: علىـ أـىـ نـحـوـ سـارـتـ البرـوفـاتـ وـأـخـرـ الـأـنبـاءـ التـىـ تـتـعـلـقـ بـ «ـأـلـ»ـ الشـلـةـ وـالـكـيـفـيـةـ التـىـ كـانـ عـلـيـهاـ كـويـلـىـ وـهـلـ هـمـ تـنـاقـشـواـ فـىـ أـجـزـاءـ أـخـرىـ وـهـلـ أـجـرـيـتـ لـهـاـ الـاـخـتـيـارـاتـ مـنـ أـجـلـ الـالـتـحـاـقـ بـالـتـمـثـيلـ فـىـ السـيـنـماـ وـهـلـ هـىـ بـحـاجـةـ إـلـىـ أـىـ شـيـءـ؟ـ وـغـالـبـاـ مـاـ يـتـمـ ذـلـكـ عـلـىـ مـدـىـ سـاعـةـ أـوـ أـكـثـرـ .ـ وـفـىـ بـادـىـءـ الـأـمـرـ كـانـتـ تـشارـلـىـ تـسـتـاءـ مـنـ كـاتـىـ مـنـ حـيـثـ أـنـهـ تـقـومـ بـتـخـفـيـضـ عـلـاقـاتـهـ مـعـ يـوـسـفـ،ـ إـلـاـ أـنـهـ بـدـأـتـ تـتـطـلـعـ تـدـرـيـجـياـ إـلـىـ الدـرـدـشـةـ التـىـ تـتـمـ بـيـنـهـمـ خـاصـةـ حـيـنـ اـتـضـحـ أـنـ كـاتـىـ تـتـمـتـعـ بـقـدرـ كـبـيرـ مـنـ الذـكـاءـ وـالـحـكـمةـ .ـ كـانـ لـدـىـ تـشارـلـىـ صـورـةـ ذـهـنـيـةـ عـنـ اـنـسـانـةـ مـاـ كـرـيمـةـ وـعـطـوـفةـ وـوـبـودـةـ وـمـسـتـقـلـةـ وـرـبـماـ كـنـديـةـ :ـ وـاحـدـةـ مـنـ السـيـدـاتـ التـىـ اعتـادـتـ أـنـ تـزـورـهـنـ فـىـ عـيـادـةـ تـافـيـستـوكـ عـقـبـ طـرـدـهـاـ مـنـ المـدـرـسـةـ،ـ وـشـعـورـهـاـ بـأـنـهـاـ عـلـىـ وـشـكـ أـنـ تـصـابـ بـالـهـوـسـ وـالـسـخـافـةـ كـانـ ذـلـكـ يـدـلـ عـلـىـ ذـكـاءـ تـشارـلـىـ لـأـنـهـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ أـنـ المـسـ باـخـ اـمـرـيـكـيـةـ وـلـيـسـ كـنـديـةـ فـإـنـ أـسـرـتـهـاـ تـضـمـ أـطـبـاءـ عـلـىـ مـدـىـ أـجيـالـ .ـ

كان المنزل الذي استأجره كيرتز في هامبورغ من أجل المراقبين واسعاً للغاية في مكان خلفي منعزل للتدريب على قيادة السيارات وأصحاب هذا المنزل - وبناء على اقتراح من صديقهم الطيب مارتى القادم من القدس - كانوا قد رحلوا في صمت إلى مارلو إلا أن منزلهم ظل مكاناً يتسم بالهدوء والأناقة الثقافية إذ كانت توجد هناك لوحات زيتية للفنان نولده في غرفة الجلوس علاوة على وجود صورة فوتوغرافية لتوomas مان في الكونسيرفاتوار، وطاائر في قفص يغنى عندما تدير الزمبرك الخاص به بالإضافة إلى وجود مكتبة بها كراس رائعة جلدية وغرفة للموسيقى . وفي البدروم توجد صالة للبينج / بونج وفي الخلف حديقة متشابكة

الأغصان وتضم ملعبا للتنس ، وعند الواجهة يوجد كشك بوابة صغير وعند هذا الكشك توجد لافتات منكتوب عليها : « طلبة الدراسات العبرانية والأنسانية يسمح بالدخول للطلبة والأساتذة فقط » لم تتسبب هذه اللافتات في إثارة أى انتباه فى هامبستيد .

كان عددهم الإجمالي ١٤ فردا بما في ذلك ليتفاك لكنهم وزعوا أنفسهم على الطوابق الأربع في نظام يتسم بالتكلم والحدى وعلى نحو يوحى بأنه لا يوجد هناك أى شخص على الاطلاق . أما روحهم المعنوية فلم تكن بمثابة مشكلة كانوا يحبون الأثاث الداكن والعمل طوال اليوم وحتى منتصف الليل في بعض الأحيان، يحبون العودة إلى هذا المعبد الذي يتسم بالحياة اليهودية وعندما يعزف ليتفاك مقطوعات موسيقية من تأليف برامز على نحو جيد تماما فانه راشيل المهووسه بالموسيقى الشعبية تسارع بالنزول على السلالم إلى الدور الأرضي لكي تستمع إلى غرفة رغم أنها في بادئ الأمر كانت ترفض بشدة فكرة العودة إلى إنجلترا بل مجرد السفر بجواز سفر بريطاني .

ويروح الفريق الجماعي هذه انخرطوا في العمل يجنبون - من تلقاء أنفسهم ويدون أن تصدر إليهم تعليمات بذلك - الحانات والبارات والمطاعم المحلية ويتجنبون الاختلاط مع أحد . ومن ناحية أخرى يهتمون بارسال خطاباتهم بأنفسهم ويشترون الالبان والصحف بأنفسهم بحيث يبدون طبيعيين وبحيث يبتعد عنهم الفضوليون وكثيرا ما كانوا يركبون الدراجات وكان اسطبل النقل والمواصلات الخاص بهم بمثابة جراج أنيق صغير مطلى باللون الأحمر الوردي ويحتوى على سيارة رولز رايس قديمة فضية اللون موجودة في نافذة العرض المكتوب عليها عبارة «ليس للبيع» مع الاشارة إلى أن المالك يسمى بيرنى إنه رجل ضخم الجثة نو وجه داكن وبدلة زرقاء اللون وقبعة بنفس اللون . كانت لديه سيارات وموتوسيكلات ودراجات بخارية وكثيفات وفيه من لوحات الأرقام وفي اليوم الذي وصلوا فيه وضع لافتة كبيرة مكتوب عليها : من أجل أعمال التعاقد فقط . غير مسموح للزوار بدخول المكان .

في كل يوم تجبيء أنباء سارة من خلال سفارة لندن مثل الأنباء التي تجيء عن معركة بعيدة لقد ذهب روسينو لزيارة شقة يانوكا في ميونخ واصطحب معه امرأة شقراء تنطبق أوصافها على الفتاة «إيدا» فلان وفلان زاروا فلاناً وفلاناً في باريس أو بيروت أو دمشق أو مرسيليا ومع تحديد هوية روسينو تفتحت طرق ومجالات جديدة في اثنى عشر اتجاهًا جديداً كان ليتفاكر يعقد ثلاثة اجتماعات أسبوعياً لكي يقدم بياناً موجزاً ويفتح الباب أمام المناقشات الحرة. وفي الحالات التي تم فيها التقاط صور فوتوغرافية كان ليتفاكر يعرض الموضوع مستعيناً بالفانوس السحري علامة على القاء محاضرات موجزة عن الأسماء المستعارة المعروفة ونماذج السلوك والأهواء الشخصية والخداع التجاري. ومن وقت لآخر كان يعقد امتحانات مختصرة مع بث روح المنافسة من خلال جوائز مسلية للفائزين .

ومن وقت لآخر كان جادى بيكار العظيم يتسلل داخلاً من أجل سماع أحدث الانباء والقرارات حيث يجلس في الجزء الخلفي من الغرفة بعيداً عن جميع الحاضرين مع مغادرة القاعة بمجرد انتهاء الاجتماع. لم يكن بمقدورهم أن يعرفوا أى شيء عن حياته الخاصة بل لم يتوقعوا أن يعرفوا أى شيء .

كان من سلالة مختلفة عنهم انه بيكار كانوا يتحدثون عنه في محبة وعاطفة ويطلقون عليه اسم «ستيبنولف» يرددون لبعضهم البعض حكايات عن أعماله الفذة .

جاء الاستدعاء في اليوم الثامن عشر اذ ورد تلكس من جنيف مما جعلهم يقفون في حالة استعداد تام . كما وردت برقية من باريس تؤكد ما جاء بالتلكس ففي خلال ساعة أصبح ثالثاً فريق العمل على الطريق متوجهين غرباً تحت المطر الأسود .

الفصل السابع عشر

كانت الفرقة تسمى هيرتيكس وقد بدأت جولتها في اكريتيار أمام حشد من المصلين خارجين مباشرة من الكاتدرائية : نساء يرتدين فساتين بنفسجية لها طابع شبيه بالحداد وقساوسة عجائز على وشك الانفجار في البكاء وعندما لا تكون هناك حفلة ماتينيه فان مجموعة الممثلين والممثلات يتجلون في أرجاء المدينة ويتشابون وفي الأمسيات وعقب الانتهاء من العروض يتناولون الخمور والأجبان مع تلاميذ الفنون المتحمسين لأن الاتفاق ينص على تبادل الخبرات مع المواطنين .

ومن «اكريتيار» ذهبوا إلى بلايموث وقدموا عرضا مسرحيا في القاعدة البحرية أمام ضباط شبان ، كانوا يشعرون بالقلق ازاء ما اذا كان ينبغي على عمال المسرح الذين يقومون بنقل أثاث المسرح وستائره أو ترتيبها أن يمنحوا صفة الجنلمان وبحيث يُسمح لهم بتناول الطعام في مطعم الضباط .

ولكن كل من اكريتيار وبلايموث كانتا مدینتين تتسمان بالسلوك الشيطاني والحياة الجامحة بالمقارنة مع مدينة التعدين الجرانيتية التي تقع في جنوب شبه جزيرة الكورنيش التي تمتلك بضباط البحر والأشجار الموعقة النمو والتي أصبحت مهدّبة بسبب كثرة العواصف الهروجاء كان الممثلون والممثلات موزعين على ستة من بيوت الضيافة كان من نصيب تشارلي جزيرة مليئة بالأسقف الجملونية ومحاطة تماما بنباتات «الكونية» التي لها ثمار شبيهة بكوب الماء وحيث يجعلها هدير القطارات المتجهة إلى لندن أثناء نومها في السرير تشعر وكأنها أشبه بشخص أنقذ نفسه من الغرق بعد أن شاهد سفنا بعيدة . وكان المسرح موجوداً في داخل قاعة رياضية بمقابورها أن تشم رائحة الكلور المترامية من حمام السباحة وباستطاعتها سماع الأصوات المكتومة الناجمة عن كرات الاسكواش المترامية من

وراء الحائط . كان جمهور المشاهدين هم افراد فرقة عسكرية ، وكانت غرفة الملابس هي غرفة لتخزين الأطعمة المثلجة تمتلكها امرأة وذلك هو المكان الذي أحضروا لها فيه نباتات السحلبية بينما كانت تضع المكياج لنفسها قبل رفع الستار بعشرين دقيقة .

رأى نباتات السحلبية لأول وهلة في داخل المرأة الطويلة الموجودة فوق حوض غسيل الأيدي حيث شاهدت النباتات تناسب في رفق من فتحة الباب وقد لفت حتى العنق بورق أبيض رطب . وشاهدتهم وهو يصابون بالتردد ثم يتقدمون نحوها في شيء من التردد .

الآن استمرت في عمل المكياج الخاص بها وكأنها لم تشاهد أيَّ هذه النباتات قط في حياتها كان غصناً واحداً من النبات محمولاً مثل طفل ملفوف في ورق عبر ذراعي انسانة تبلغ من العمر خمسين عاماً تسمى «فال» ذات ضفائر سوداء وابتسمة مبتذلة متسمة بالاستخفاف .

قالت «فال» في خجل وارتباك : أعلن هنا أنك روزاليند بطلة رواية «كما تحبها» ولكن على نحو غير مفيد .

ساد صمت مليء بالروح العدائبة خلال ذلك بدا أن الممثلات يستمتعن بالللاعقلانية التي أبدتها «فال» انه الوقت الذي يصاب فيه الممثلون بحالة من العصبية الشديدة وحالة من الهدوء الشديد .

قالت تشارلى «أنا روزاليند لماذا تتسعلين؟» واستأنفت أعمال المكياج لكي تبين أنها لا تهتم كثيراً بالحصول على إجابة على تساؤلها .

وفي طقوس مراسمية قامت فال بوضع نباتات السحلبية في حوض غسيل الأيدي ، ثم خرجت بسرعة بينما قامت تشارلى بالتقاط المظروف أمام أعين كل شخص يرغب في المشاهدة . كان المظروف مكتوب عليه عبارة «إلى الآنسة روزاليند» وفي داخل المظروف توجد بطاقة زيارة شديدة المعان . أما الاسم

فمكتوب بحروف كبيرة شائكة عديمة اللون على الجزء المائل : انتون مستار باين / جنيف / أ. وتحت الاسم توجد كلمة واحدة : العدالة .

ونقلت مكياجها إلى حاجب العين الأخرى في حرص وعناء شديدين كأن حاجب عينها هو أهم شيء على وجه الكرة الأرضية .

قالت «الفتاة الريفية» الواقفة عند حوض الفسائل المجاور متسائلة : من يكون هذا يا تشارلى ؟ وكانت قد خرجت توا من الكلية وكان عمرها الذهني ١٥ عاماً .

فراح تشارلى تدرس نتيجة صنع يديها في مجال المكياج وتتجهم وهي تنظر لنفسها في تركيز في المرأة .

قالت الفتاة الريفية من المؤكد أن تكلفة ذلك هي قبلة . أليس كذلك يا تشارلى ؟

فردت تشارلى نفس العبارة : أليس كذلك يا تشارلى ؟

- إنه هو !

- إنها كلمة عنه !

- اذن لماذا هو ليس موجوداً هنا ؟ ولماذا الاشارة ليست مكتوبة في يده ؟
لقد سبق لميشيل أن حذرها : لا تثق في أي شخص . وبصفة خاصة
لاتثق في أولئك الذين يزعمون أنهم يعرفوننى .

انها مصيدة . انهم الخنازير . لقد اكتشفوا مسألة قيامي بقيادة السيارة
عبر يوجوسلافيا . انهم يدفعوننى لكي أوقع حبيبي في المصيدة .

يا ميشيل !! ميشيل يا حبيبي يا حياتي . قلْ لى ماذا ينبغي علىَّ أن أفعله!
سمعت شخصاً ما ينادي عليها باسمها «يا روزاليند - أين تشارلى بحق
الجحيم ؟ يا تشارلى» .

وفي الدهليز حملق مجموعة من السباحين الذين يضعون فوطة حول عناقهم بدون أن تظهر تعbirات ما على وجوههم في منظر سيدة لها شعر أحمر ترتدي ملابس رثة وتبرز خارجة من حجرة الأدراج المقفلة الخاصة بالسيدات .

.....

وعلى نحو ما أدى دورها . وأثناء فترة الاستراحة قام المخرج - ويسمى الأخ ميكروفت - بتوجيه سؤال لها وهو ينظر إليها نظرة غريبة : « هل يمكن لك أن تخفى من حدة الأداء بعض الشئ؟ » فوعده في خنوع واستسلام بأنها ستعمل على تنفيذ توجيهاته إلا أنها لم تكن منتبهة إليه تماما حيث كانت مشغولة للغاية في تفحص الصحف والمقاعد شبه الشاغرة على أمل أن تشاهد رداء فضفاضا أحمر اللون .

ولكن دون جدوى .

لقد شاهدت وجهها أخرى . فعلى سبيل المثال شاهدت وجه راشيل وجه ديمترى . إلا أنها لم تتعرف على شخصيتها . وقالت لنفسها في يأس: انه ليس موجودا هناك . أنها خدعة أنها الشرطة .

وفي حجرة الأدراج المقفلة قامت بتغيير ملابسها على وجه السرعة وارتدى التلفيفة البيضاء على رأسها وتلكلأت بعض الشئ في داخل الحجرة إلى أن اضطرت الباب إلى اخراجها . وانتظرت في تلكر مرة أخرى في الردهة حيث تقف مثل شبح ذى رأس أبيض بين اللاعبين الرياضيين الخارجين وقد ضمت نباتات السحلبية إلى صدرها . وسألتها سيدة عجوز عما إذا كانت قد زرعت هذه النباتات بنفسها . كما طلب منها تلميذ أن توقع له في الأتوغراف الخاص به وأمسكتها الفتاة الريفية وجذبتها من كعها وقالت : « فالبيح عنك في كل مكان » .

وانغلقت خلفها الأبواب الأمامية لصالات الرياضيين خرجت إلى هواء الليل وكانت أن تسقط على الأرض أمام الرياح الهوجاء الشديدة التي تضرر بها واتجهت في تمايل إلى سيارتها وفتحت بابها بالمفتاح ووضعت نبات السحلبية على المقعد

الأمامي وسحبت الباب لتغلقه وأدارت مفتاح التشغيل إلا أن المotor لم يدر في بداية الأمر ولكنه عندما دار انطلقت السيارة كالحصان الذي يجاهد لكي يصل إلى المنزل . وعندما تركت الطريق الفرعى لكي تنطلق على الطريق الرئيسي شاهدت فى مرأتها المصابيح الأمامية لسيارة أخرى تنطلق وراءها ثم تتبعها على مسافة ثابتة إلى بيت الضيافة الخاص بها .

وقفت بسيارتها فى المكان المخصص لوقوف السيارات وسمعت نفس الرياح العاتية تمزق فى نباتات الكوبية . فلفت معطفها حول جسدها ووضعت نباتات السحلبية فى داخل معطفها ، وانطلقت نحو الباب الأمامي كان هناك أربع درجات تعلق خلفها شخص ما . ولم يكن هناك نزلاء عند مكتب الاستقبال أو فى قاعة الانتظار أو فى الصالة . كان الشخص الوحيد المتبقى على قيد الحياة هو : همفري أنه صبي ممتلىء اشبه بشخصيات تشارلز ديكينز وهو الذى كان يقوم بدور البواب فى النوباتجية الليلية .

قالت فى ابتهاج عندما مد يده لكي يحضر لها مفتاحها : ليس المفتاح رقم ٦ يا همفري . وإنما المفتاح رقم ١٦ . هيأ . يا عزيزى المفتاح فى الصف العلوى . كما يوجد خطاب غرامى هناك أيضا . أعطه لي قبل أن تسلمه بطريق الخطأ لشخص ما آخر .

أخذت منه قطعة الورق المطوية وهى تأمل أن يكون خطابا مرسلا من ميشيل . وبعدين ظهرت على ملامح وجهها مشاعر خيبة الأمل عندما اكتشفت أنه خطاب مرسى من اختها تقول فيه «أتمنى لك الحظ السعيد فى العرض الذى تقدمينه الليلة» وتلك كانت هي الطريقة التى يهمس بها يوسف قائلا : «نحن معك» .

وانفتح باب الصالة وانفلق خلفها . سمعت أقدام رجل تتقدم عبر سجادة الصالة وسمحت لنفسها بأن تلقى عليه نظرة واحدة سريعة مجرد أن تعرف ما إذا كان هو ميشيل أم لا . ولكنه لم يكن ميشيل وفقا لتعبيرات الاحباط التى ظهرت على وجهها كان شخصا ما ينتمى لباقي العالم وليس له أية فائدة بالنسبة لها . كان

رجلًا نحيلًا مسالماً وهادئاً ذا عينين داكتتين بهما مشاعر الحب للألم ويرتدى معطف مطر ويرتدى ربطة عنق بني اللون يتمشى فى لونه مع لون عينيه اللتين تتمشيان مع لون المعطف . وله حذاء بني اللون له قطع من الجلد تغطى مقدم الحذاء مع وجود غُرز مزدوجة . قالت لنفسها : إنه ليس رجل عدالة على الاطلاق - ولكنه محروم من العدالة . أنه رجل فى سن الأربعين يرتدى السترة الطويلة التى يرتديها اليهود فى القرون الوسطى .

السيدة تشارلى؟

ثم أضاف : السيدة تشارلى . أبلغك تحيات صديقنا المشترك ميشيل .

وكان تشارلى قد نشفت وصليب وجهها مثل شخص ما يعد نفسه لكي يلقى عقاباً . وقالت : من هو ميشيل الذى تعنى ؟ وأدركت أن شيئاً لم يتحرك في داخله مما جعلها بدورها تقف هادئة وساكنة تماماً بنفس الطريقة التي نصف بها ساكنن لكي يرسمنا الفنانون أو كانت ساكنة مثل التماثيل ومثل رجال الشرطة الذين يقفون وقفه انتباه خالية من الحركة تماماً .

- «ميشيل الذى هو من نوتجهام يا تشارلى» وكانت النبرة السويسرية متسمة بالحزن علاوة على اتسامها بالاتهام بعض الشئ . كان الصوت مكسوا بالفراء كما لو أن العدالة أمر سرى «لقد طلب مني ميشيل أن أحضر لك نباتات السحلية الذهبية وأن أصطحبك لكي تتناولى طعام العشاء من أجله وهو مصر على ضرورة مجيئك لو سمحت فانا الصديق الوفى لميشيل . تعالِ».

وراحت تفكّر : أنت ؟ صديق له ؟ ميشيل ليس على استعداد لأن يكون له صديق مثلك من أجل إنقاذ حياته اللعينة . إلا أنها جعلت حملتها تقول هذه الأفكار نيابة عنها .

وأنا أيضاً مكلف بمهمة تقديم ميشيل على نحو قانونى وشرعى يا تشارلى فهو له الحق فى الحصول على الحماية القانونية الكاملة . هيا . تعالِ الآن لو سمحت .

وطلبت الحركة مجهوداً كبيراً ولكنها كانت تهدف إلى ذلك . اذ كانت نباتات السلاحف ثقيلة للغاية وكانت مسافة طويلة عبر الهواء نقلت خلالها السلاحف إلى ذراعيه . ولكنها تمكنت من فعل ذلك .

قالت «لقد وصلت إلى العرض المسرحي الخاطئ . فأننا لا أعرف شخصاً من نوتجهام يُسمى ميشيل . ولا أعرف شخصاً ينتمي إلى أي مكان ويُسمى ميشيل ونحن لم نتقابل في موتنى في خلال الموسم الأخير أن تلك محاولة متقدة وخبيثة ولكنني أشعر بالارهاق والساں منكم جميعاً» .

وبينما تستدير لكي تلتقط مفتاحها أدركت أن همفري الباب كان يتكلم معها في موضوع له أهمية كبيرة . وكان وجهه اللامع اللزق يرتعش ثم رفع قلم رصاص فوق دفتر كبير . قال في استحياء في لهجة الريف الشمالي المنحدرة المطروطة : في أي وقت تريدين شاي الصباح يا سيدتي ؟

قالت : في الساعة التاسعة صباحاً يا عزيزي وليس قبل ذلك بدقيقة واحدة ثم تحركت في اعياء نحو الكرسي .

وتتساءل همفري : «وماذا عن الصحف والمجلات يا سيدتي ؟» .

فاستدارت ورمقته بنظرة ثقيلة وهمست : «أيها السيد المسيح» .

وفجأة ظهرت الإثارة الشديدة على وجه همفري . وبدا عليه وكأنه يعتقد أن الانعاش فقط يمكن أن يوقظها الجريدة الصباحية ! من أجل القراءة فيها ! ماهي الجريدة التي تفضلين قرأتها ؟

فقالت : جريدة التايمز يا عزيزي .

ففاص همفري في فتور متسم بالرضا والاطمئنان . وكتب وهو يتكلم بصوت مسموع : «جريدة التلغراف» وجريدة التايمز هي مجرد أوامر فقط وعندئذ كانت قد بدأت تصعد في تثاقل على السلام الضخمة متوجهة نحو الظلام .

- تشارلى !

راحـت تـفـكـر : أـنـتـ تـنـادـيـ عـلـىـ بـهـذـهـ الطـرـيقـةـ وـأـنـاـ اـكـفـىـ بـمـجـرـدـ النـزـولـ عـلـىـ سـلـالـمـ قـلـيلـةـ وـأـضـرـيكـ بـقـوـةـ عـلـىـ المـرـ الجـبـلـ السـوـيـسـرىـ .ـ سـارـتـ خـطـوـتـيـنـ أـخـرـيـنـ قـبـلـ أـنـ يـتـكـلـمـ هـوـ مـرـأـةـ أـخـرـىـ لـمـ تـكـنـ قـدـ تـوقـعـتـ وـجـودـ مـثـلـ هـذـهـ القـوـةـ فـىـ دـاخـلـ كـيـانـهـ .

- سـيـشـعـرـ مـيـشـيلـ بـالـسـرـورـ لـلـغـاـيـةـ عـنـدـمـاـ يـعـرـفـ أـنـ رـوزـالـينـدـ كـانـتـ تـرـتـدـىـ السـوـارـ الـخـاصـ بـهـ فـىـ هـذـهـ اللـيـلـةـ !!ـ أـمـ أـنـ ذـلـكـ بـمـثـابـةـ هـدـيـةـ مـنـ رـجـلـ أـخـرـ ؟

وـاجـهـتـهـ بـرـأـسـهـ ثـمـ بـكـلـ جـسـدـهـ أـسـفـلـ السـلـالـمـ .ـ كـانـ قـدـ نـقـلـ نـبـاتـاتـ السـحـلـيـةـ إـلـىـ زـرـاعـهـ الـأـيـسـرـ .ـ أـمـاـ الـيـمـنـىـ فـكـانـ مـتـدـلـيـةـ إـلـىـ جـوارـهـ مـثـلـ كـُـمـ شـاغـرـ .

- قـلـتـ لـكـ اـنـصـرـفـ .ـ اـخـرـجـ .ـ لـوـ سـمـحـتـ

- أـمـرـنـىـ مـيـشـيلـ بـأـنـ أـشـتـرـىـ لـكـ سـمـكـةـ طـازـجـةـ مـنـ نـوـعـ جـرـادـ الـبـحـرـ عـلـوـةـ عـلـىـ زـجـاجـةـ مـنـ خـمـورـ الـبـوتـارـيـسـ أـنـهـ يـرـىـ أـنـ الـخـمـورـ يـنـبـغـىـ أـنـ تـكـونـ مـنـ النـوـعـ الـأـبـيـضـ الـمـلـلـجـ .ـ وـأـنـاـ لـدـىـ رـسـائـلـ أـخـرـىـ مـنـهـ أـيـضاـ .ـ وـهـوـ سـيـغـضـبـ لـلـغـاـيـةـ عـنـدـمـاـ أـبـلـغـهـ أـنـكـ رـفـضـتـ كـرـمـ الـضـيـافـةـ .ـ كـمـ سـيـشـعـرـ بـالـاهـانـةـ .

كـانـ ذـلـكـ أـمـرـأـ لـاـ يـحـتـمـلـ أـنـهـ مـلـاـكـهـ الـمـظـلـمـ وـالـذـىـ يـطـالـبـ بـالـرـوحـ التـىـ رـهـنـتـهـ فـىـ اـهـمـالـ .ـ وـسـوـاءـ أـكـانـ يـكـذـبـ اـمـ كـانـ رـجـلـ شـرـطـةـ فـانـهـ عـلـىـ اـسـتـعـدـادـ اـنـ تـتـبعـهـ إـلـىـ مـنـتـصـفـ الـعـالـمـ السـفـلـىـ اـذـاـ كـانـ باـسـتـطـاعـتـهـ أـنـ يـقـوـدـهـ إـلـىـ مـيـشـيلـ وـتـقـاـفـزـتـ عـلـىـ كـعـبـيـهـ هـابـطـةـ السـلـالـمـ فـىـ بـطـءـ وـمـتـجـهـةـ إـلـىـ مـكـتبـ الـاسـتـقبـالـ .

أـلـقـتـ بـمـفـاتـحـهـ اـمـامـهـ وـهـيـ تـقـولـ :ـ «ـهـمـفـرـىـ»ـ ثـمـ أـخـذـتـ الـقـلـمـ الرـصـاصـ مـنـ يـدـهـ الـمـسـتـسـلـمـ وـكـتـبـتـ كـلـمـةـ «ـكـاثـىـ»ـ عـلـىـ بـلـوكـ الـأـورـاقـ ثـمـ أـضـافـتـ «ـأـنـهـ سـيـدةـ أـمـرـيـكـيـةـ .ـ أـفـهـمـتـ ذـلـكـ !ـ أـنـهـ رـفـيقـةـ لـىـ .ـ فـاـذـاـ اـتـصـلـتـ بـىـ تـلـيـفـونـيـاـ أـخـبـرـهـاـ أـنـتـ خـرـجـتـ مـعـ سـتـةـ مـنـ الـعـشـاقـ .ـ أـنـتـ رـبـماـ أـقـوـدـ السـيـارـةـ حـتـىـ حلـولـ وـقـتـ الـغـداءـ غـدـاـ أـفـهـمـتـ ذـلـكـ ؟ـ »ـ .

ثـمـ قـطـعـتـ قـصـاصـةـ الـوـرـقـ وـلـوـتـهـاـ وـوـضـعـتـهـ فـىـ جـيـبـهـ الـعـلـوـىـ .ـ ثـمـ قـبـلـتـهـ قـبـلـةـ مـتـسـمـةـ بـالـلـهـ وـالـتـسـلـيـةـ بـيـنـمـاـ مـاـسـتـارـيـبـيـنـ يـتـفـرـجـ وـقـدـ اـعـتـرـاهـ اـسـتـيـاءـ مـقـنـعـ مـثـلـ ذـلـكـ ،ـ

الاستيء الذى يحس به عاشق ينتظر قضاء الليل معها . وعند الشرفة استخرج بطارية سويسريّة أنيقة . وتحت ضوئها شاهدت ملصق هيرتز الأصفر ملتصقا باللوح الزجاجي الأمامي لسيارته . وفتح لها باب المسافرين بالسيارة وتمتم «لو سمحت» إلا أنها اتجهت مباشرة نحو السيارة الفيّات وفتحت الباب وجلست وأدارت المотор وظلت منتظرة . ولاحظت لدى انطلاقه بسيارته أمامها انه ارتدى بيりه أو قلنسوة سوداء اللون . وكانت حافة القلنسوة منبسطة تماماً مثل قبة الاستحمام باستثناء أنها جعلت أذنيه تبرزان إلى الخارج .

..

راح ينطلقان في موكب بطيني بسبب مساحات متفرقة من الضباب . أو ربما يقود ماستاربين سيارته على هذا النحو البطئ دائماً . تسلقا جبلأ واتجها شمالاً فوق أراضٍ شاغرة . ثم انقضع الضباب فظهرت أعمدة البرق والتليفون مثل الإبر الملضومة على صفة السماء الليلية . وحملق قمر يوناني ممزق في اقتضاب قبل أن تجره السحب إلى الوراء في داخل كيانها . وعند مفترق الطرق توقف ماستاربين لكي ينظر في خريطة . وأخيراً أعطى إشارة تفيد الاتجاه إلى اليسار مستخدماً الأضواء في بادئ الأمر ثم مستخدماً يده البيضاء اللون التي راحت تدور على محور . نعم يا أنتون . لقد تلقيت الاشارة . ثم تتبعته هابطة من فوق تل ثم مخترق أرجاء قرية . وأنزلت زجاج نافذتها وملأت عربتها برائحة البحر وأرغمتها الهواء المندفع على فتح فمها في شبه صيحة . وتتبعته تحت راية ممزقة مكتوب عليها عبارة : «الشركة المحدودة بشاليهات شرق / غرب بالمشاركة لبعض الوقت» . ثم صعدا على طريق جديد ضيق يخترق كثباناً رملية في اتجاه منجم للقصدير محطم وجاثم فوق خط السماء مثل اعلان عن «تعالوا إلى كورنوول» وعلى يمينها وعلى يسارها توجد شاليهات غير مضاءة ومكسوة بالألواح خشبية أوقف ماستاربين سيارته وأوقفت سيارتها خلفه . وحرضت أن تكون سيارتها معشقة التروس بسبب وجود الميل المنحدرة . وراحت تفكّر : هناك أنين جديد في فرملة اليد .. الأمر

يستلزم اعادة السيارة إلى ايosteas خرجت سيارته ففعلت هي نفس الشئ وأغلقت سيارتها بالمفتاح . كانت الرياح قد خفت حدتها حيث أصبحا عند الجانب المحجوب من الرياح لشبه الجزيرة . وكانت طيور النورس تحلق على ارتفاعات منخفضة وتصدر صراخها . وكأنها فقدت شيئا هاما على الأرض . مدّ ماستاربين يده لكي يمسك بمرافقها ويرشدتها نحو السير للأمام بينما يده الأخرى ممسكة بالبطارية .

قالت «دعني وشأنى» فدفع بوابة أطلقت صريراً . وتسابق ضوء أمامها كان المفتاح جاهزا مع ماستاربين وقف على جانب لكي يجعلها تمر بحانة وكيل عقارات يفسح المكان لزبونه محتملاً . لم يكن يوجد هناك شرفه وعلى نحو ما لا يوجد تحذير تبعته إلى الداخل ثم قام باغلاق الباب وراءها ووجدت نفسها في غرفة جلوس شمت رائحة ملابس مبللة ورطبة ، كما شاهدت بقعاً من الفطريات السوداء مبعثرة في السقف . كانت توجد امرأة طويلة شقراء مرتدية بدلة قطنية سميكة مضلعة تقوم بحشر قطعة نقود معدنية في العداد الكهربائي . وعندما شاهدتها يدخلان عليها حملقت بسرعة فيما حولها في ابتسامة مشرقة ثم قفزت ناهضة على قدميها .

قالت «أنتون ! أوه هذا أمر لطيف للغاية ! لقد أحضرت لي تشارلى ! مرحبا بك يا تشارلى . ولسوف يكون الترحيب بك مضاعفا اذا تكررت على وأوضحت لي كيفية تشغيل هذه الماكينة الرهيبة» . ثم أمسكت بكتفي تشارلى وقبلتها في اثارة على وجنتيها . وقالت «يا تشارلى . استمعي إلى لقد كنت خيالية للغاية في هذه الليلة في تلك الرواية التي ألفها شكسبير . أليس كذلك ؟ ألم تكن هي رائعة وممتازة يا أنتون . انتى هيلاجا . أوكي ؟ وكانت تعنى أن الأسماء بمثابة لعبة بالنسبة لي . «هيلاجا . أليس كذلك ؟ ومثلك ؟ وأنك تشارلى فأنتا هيلاجا » .

وكانت عيناهما رماديتين ورائقتين بل ويريتين على نحو خطير مثل عيني ماستاربين . بل وكانت هناك بساطة قتالية تطل من عينيها على العالم المتسم بالتعقيبات وانخرطت تشارلى في التفكير : أن تكون صادقا هو أن تكون غير أليف

وغير مُروض حيث اقتبست تلك العبارة لنفسها من احدى الخطابات التي أرسلها ميشيل لها . إننيأشعر اذن فأننا أفعل .

ومن زاوية بالغرفة عرض ماستاربين إجابة متأخرة على سؤال هيلجا . حيث قال : أوه لقد كانت بالطبع مؤثرة للغاية .

وكانت يدا هيلجا مازالتا مستقرتين على كتف تشارلى وتساءلت وهى تحملق فى اشراق فى وجه تشارلى أمن الصعب أن يحفظ المرء كلمات كثيرة للغاية يا تشارلى ؟

ردت تشارلى : أنا لا أعاني من تلك المشكلة .

- اذن فأنت تحفظين الكلام بكل سهولة ؟ ثم أمسكت بيد تشارلى ووضعت فى راحة يدها قطعة نقدية من فئة الخمسين بنساً . وقالت هيا . أرينى أرينى كيف يمكن تشغيل هذا الاختراع الانجليزى الخيالى الذى يسمى: النيران .

فجثمت تشارلى عند العداد وأدارت الراافعة فى اتجاه واحد ودفعت بالعملة لکى تنزلق لأسفل ثم ادارت الراافعة فى الاتجاه الآخر وجعلت العملة تسقط بصوت مرتفع . وكان هناك طنين احتجاجى لدى ظهور النيران .

فصاحت هيلجا على الفور قائلة : « هذا شئ لا يصدقه العقل يا تشارلى . ولكنى كما ترين ليس لدى موهبة تكنيكية اننى ضد فكرة امتلاك الاشياء تماماً ، ولذلك فاننى اذا كنت لا امتلك شيئاً فكيف لي أن أعرف طريقة تشغيله ؟ ولسوف يتولى أنتون مهمة الترجمة . إننى أؤمن بالمبداً الذى يقول أن تكون ولكن لا أن تمتلك » .

هل قرأت كتاباً من تأليف اريك فروم يا تشارلى ؟

وقال ماستاربين فى اكتئاب وهو ينظر إلى المرأةين : انها تعنى الوجود الكينونى وليس الامتلاك هذا هو جوهر المبدأ الأخلاقى الذى تؤمن به الانسة هيلجا . فهى تؤمن بالخير والطيبة الأساسية . كما تؤمن بأن الطبيعة تعلو فوق العلم ونحن الاثنان نؤمن بذلك .

كررت هيلجا سؤالها هل قرأت كتابا من تأليف اريك فروم ؟ انتي أعشقة إلى أقصى درجة فانا اذا أعجبت بفيلسوف فانتي أعشقه ، وتكل أيضا صفة جوهرية من صفاتي . وكانت حركاتها مكتسبة رشاقة وسطحية وكسل وتشاقل الشباب الذين هم تحت سن العشرين . وكانت ترتدي حذاء بدون كعب لكي يساعدها ذلك بالنسبة لطولها .

وتساءلت تشارلى : أين ميشيل ؟

فترامى صوت ماستاربين فى اعتراض حاد قائلا : الانسة هيلجا لا تعرف أين يوجد ميشيل انها ليست محامية لقد جاعت فقط من أجل الرحلة ومن أجل العدالة انها ليست لديها معلومات عن الانشطة التى يقوم بها ميشيل أو الأماكن التى يوجد فيها .

لو سمحت اجلسى .

طلت تشارلى واقفة . الا أن ماستاربين أجلس نفسه فوق مقعد وطوى يديه النظيفتين البيضاوين فوق حجره . وكان قد خلع معطف المطر فظهرت البذلة البنية الجديدة التى يرتديها .

قالت تشارلى : « اخبرتني انك لديك أخبار عنه » وظهرت رعشة فى صوتها وهى تتكلم كما أحست بظهور تخشب وتصلب فى شفتها .

تساءل ماستارباين : منذ متى شاهدتني فى آخر مرة لو سمحت ؟

ردت : شاهدته فى سالزبورج فاعترضت هيلجا قائلة سالزبورج . ذلك لا يعبر عن وقت محدد أو تاريخ معين على ما أظن .

- منذ خمسة أسابيع أو ستة أسابيع . أين هو الآن ؟

فتساءل ماستاربين : ومنذ متى سمعت أخباراً عنه فى آخر مرة ؟

اتجهت تشارلى نحو هيلجا وقالت « أريد فقط أن تخبريني أين هو ! وماذا حدث له ؟ »

أين هو الآن ؟

تساءل ماستاربين ألم يجي إليك أى شخص؟ ولا أصدقاء له؟ ولا الشرطة؟.

أضافت هيلجا : ربما لا تكون ذاكرتك قوية مثلكما تقولين يا تشارلى .

قال ماستاربين : حديثنا عن الأشخاص الذين أجريت اتصالات معهم لو سمحت يا سيدة تشارلى . الآن وعلى الفور . فهذا أمر بالغ الأهمية فنحن هنا من أجل أمور عاجلة

قالت هيلجا : أن ممثلاً كهذه يمكن لها أن تكذب بالفعل بكل سهولة . إنها امرأة مُدرِّبة على التظاهر . فكيف يمكن للمرء أن يصدق أى كلام تقوله ؟

علق ماستاربين اذن : ينبغي أن نكون حريصين للغاية .

وكان العمل المزدوج الذي يقومان به له طابع السادية . اذ كانوا يلعبان على الآلام الخاصة بها . فراحت تحملق في هيلجا ثم في ماستاربين وانسابت الكلمات متزلقة منها . حيث لم يصبح بمقدورها الاحتفاظ بالكلام في داخل كيانها لفترة أطول ، همست قائلة «لقد مات . أليس كذلك؟» .

وبدا على هيلجا أنها لم تسمع ذلك الكلام وكانت منهكمة تماماً في متابعة الموقف .

وقال ماستاربين نعم . لقد مات وأنا بالطبع آسف لذلك كل الأسف . والأنسة هيلجا تشعر أيضاً بالأسف . ونحن كلانا غارقان في الأسف . ومن واقع الخطابات التي أرسلتها اليه فانتنا نفترض أنك ستشعرين بالأسف أيضاً .

فقالت هيلجا مذكرة ماستاربين ولكن يا أنتون ربما تكون الخطابات متسمة بالادعاء والتظاهر .

لقد حدث لها ذلك من قبل في حياتها أثناء فترة وجودها بالمدرسة . ثلاثة فتاة واقفات في طابور عند حائط قاعة الجمباز بينما ناظرة المدرستواقفة في الوسط حيث الجميع في انتظار سماع اعترافات الإنسانة المتهمة بارتكاب الجريمة وكانت تشارلى تحملق فيما حولها باحثة عن الفتاة المذنبة - أهي الإنسانة المذنبة؟

ولم تتصاعد الدماء إلى وجهها كدليل على الارتباك أو الخجل إذ كانت تبدو وقورة وبريئة فهي لم تسرق أى شيء على الإطلاق وهو أمر حقيقى تماماً وثبت صحته بشكل إيجابى . ورغم كل ذلك شعرت بالخاazel فى ركبتيها وسقطت على قدميها مع شعورها بأنها على ما يرام تماماً فيما بين الخصر والرأس أما الجزء الأسفل من وسطها فقد أصبح مشلولاً الآن يحدث لها نفس الشئ . وهو أمر ليس مدروساً على الإطلاق فقد فعلت ذلك قبل أن تدرك ما يجرى لها بل ، وقبل أن تفكر بعض الشئ فى مدى فداحة المعلومة التى هبطت عليها وسجدت على الأرض وراحت تضرب الأرضية بالغرفة فى ضربات قوية مكتومة مما جعل أنوار السقف تتلاطم . فركعت هيلجا بسرعة إلى جوارها وتممت بكلام ما باللغة الألمانية ووضعت يدها على كتفها محاولة التهدئة من روعها - وهو تصرف متسم بالصدق وعدم التكلف . وانحنى ماستاريين يحملق فيها إلا أنه لم يلمسها بيده . وكان اهتمامه منصباً بصفة خاصة على تحضير الطريقة التى تبكي بها .

كانت تشارلى قد أمالت رأسها على جانب ووضعت خدها على جماع يدها حتى أن دموعها راحت تتسلق عبر وجهها بدلاً من الاتجاه إلى أسفل نحو ذقنها . وتدرجياً ومع استمراره فى مراقبتها والنظر إليها بدت دموعها وكأنها تدخل عليه البهجة والسرور . وأوْمأ برأسه إيماءة هادئة مثل الإيماءة التى تعنى الموافقة بينما قامت هيلجا بنقلها إلى الأريكة حيث استلقت ودفت وجهها فى الوسائد المليئة بالأشواك اللاستعنة . وهى تبكي مثلاً يبكي الأطفال الذين فقدوا آباءهم . اهتياج غضب وشعور بالذنب والندم والرعب كانت تدرك كل واحد منها مثل إدراكها لأداء تمثيلي عميق متحكم فيه . أنتم أيها الفشاشون . أيها القتلة . أيها الفشاشون الفاشيست أنتم يا أولاد الزنا قد قتلتم حبيبي على مسرح الحياة .

من المؤكد أنها قالت بعض تلك العبارات بصوت مرتفع . كانت قد راجعت واختارت عبارتها المخنوقة بينما الحزن الهائل يمزق كيانها : أنتم أولاد حرام وفاسخين . أنتم خنازير . أوه أيها السيد المسيح . أوه يا ميشيل .

وأسادت فترة من الصمت وبعدئذ سمعت صوت ماستاربين وهو يدعوها للإسهاب في هذا الكلام . ولكنها تجاهلت واستمرت في لف رأسها من جانب آخر خلف يديها . وشعرت بالاختناق وحاولت أن تتنفس . وانحشرت كلماتها في حلقها ، وتعثرت كلماتها عند شفتيها . إن الدموع والكرب العظيم وشهقات البكاء المتكررة كانت أموراً سهلة بالنسبة لها ولا تعتبر بمثابة مشكلة - فهي على وفاق تام مع مصادر حزنها وموارد غضبها الهائل . فهي لم تكن بحاجة لأن تتذكر أباها الراحل ولا لأن ترسم في مخيلتها صورة لطفلة تراجيدية تجتاز قفار الحياة المراهقة ، وهي أمور تلجم إليها عادة لكي تستجلب أحزانها العميق . كان عليها فقط أن تتذكر الولد العربي المُرْوَض نسبياً الذي أعاد لها مقدرتها على الحب والذى أعطى لحياتها الاتجاه الذى تتطلع إليه والذى أصبح الآن ميتاً وجثة هامدة لكي تنهار دموعها مدراراً .

قال ماستاربين موجهاً كلامه باللغة الانجليزية لهيلجا : إنها تقول إن الصهاينة هم الذين قتلواه فلماذا تقول هي إن الصهاينة هم الذين قتلواه في حين أن موته قد نجم عن حادث ؟ لقد أكدت لنا الشرطة أنه حادث فلمَ هي تُنكر الشرطة ؟ إن تكذيب الشرطة يعتبر من الأمور الخطيرة للغاية .

وعلى نحو فجائى ظهر الغليان والفقاقع فى إماء القهوة . فنهضت هيلجا لإنجاز مهمة إعداد القهوة ، وجلست تشارلى على الأريكة ممسكة بفنجان القهوة بكلتا يديها وكانتها تستنشق البخار بينما تجرى دموعها باستمرار هابطة على خديها كانت هيلجا قد لفت ذراعها حول كتف تشارلى بينما كان ماستاربين جالساً فى مواجهتهما محملقاً فى المرأتين من بين ظلال العالم المظلم الخاص به .

قال لقد كان حادث انفجار . على الطريق السريع بين سالزبورج وميونيخ . وطبقاً لما قالته الشرطة كانت سيارته مليئة بالمتفجرات . مئات الأرطال فلماذا ؟ لماذا ينبغي أن تنفجر هذه المواد فجأة على طريق ناعم ومنبسط وخالي من أي مطبات ؟

وهمست هيلجا قائلة : خطاباتك في مكان آمن ثم قال ماستاربين : لقد كانت السيارة من نوع المرسيديس وكانت الرخص الخاصة بها صادرة من ميونيخ ولكن الشرطة قالت ان الرخص زائفة . وكذلك كل الأوراق . كل المستندات كانت زائفة . ولماذا يقوم عميلي الخاص بقيادة سيارة بأوراق زائفة وملينة بالمتغيرات ؟ لقد كان طالبا . ولم يكن قادرًا للقنابل . أنها مؤامرة بالفعل . وهذا هو اعتقادى .

قالت هيلجا متمتمة في أذنها : هل تعرفين هذه السيارة يا تشارلى ؟ ثم ضمتها إلى صدرها في محاولة منها لانتزاع إجابة على تساؤلها إلا أن كل ما استطاعت تشارلى أن تشاهده في داخل ذهنها هو حبيبها الذي تم نصف جسده لدى انفجار ٢٠٠ رطل من المتغيرات البلاستيكية الروسية المخبأة في أماكن مختلفة بالسيارة مما أدى إلى تمزيق وحرق الجسد الذي كانت تعبد ، وكل ما استطاعت سماعه هو سماع صوت المعلم الآخر الخاص بها الذي ليس له اسم وهو يقول لها : لا تخضعي ثقتك فيهم . اكذب عليهم وارفضي كل شيء واعترضي على كل شيء والتزمي بالرفض .

وقال ماستاربين في نغمة متسمة بالاتهام لقد قالت كلاماً ما .

قالت هيلجا : نطقت باسم ميشيل . وراحت تمسح هجوماً آخر من الدموع المتدفقه مستخدمة منديلاً سحبته من حقيبة يدها .

وقال ماستاربين : وماتت فتاة أيضا . يقولون إن تلك الفتاة كانت معه في السيارة .

قالت هيلجا بصوت منخفض : إنها فتاة هولندية شقراء وجميلة للغاية . فاستطرد ماستاربين بصوت مرتفع نسبياً لقد ماتا سويا على ما يبدو وأوضحت هيلجا الأمور قائلة : فأنتم لم تكوني الفتاة الوحيدة التي يحبها يا تشارلى . لم تكوني أنت الإنسنة الوحيدة التي استغلت هذا الشاب الفلسطيني . ولأول مرة منذ أن أُعلن نبأ وفاة ميشيل تنطق تشارلى بعبارة متماسكة

ومترابطة منطقياً حيث قالت في همس : إنني لم أنسد استغلاله في أي وقت من الأوقات على الإطلاق .

وقال ماستاربين الشرطة تقول إن الفتاة الهولندية كانت إرهابية .

قالت هيلجا : وتقول أيضاً إن ميشيل كان إرهابياً .

وأكمل ماستاربين : ويقولون إن الفتاة الهولندية سبق لها أن قامت بزرع القنابل مرات عديدة تنفيذاً لتعليمات صادرة من ميشيل وإنهما كانا يخططان للقيام بعملية أخرى حيث وصلوا بالسيارة خريطة لمدينة ميونيخ مع وجود علامة بخط يد ميشيل حول المركز التجاري الإسرائيلي بالخريطة . عند نهر «إيسار» وهو هدف صعب بالفعل هل حديثك عن هذه العملية يا تشارلي ؟

وفي رعشة وارتباك ارتشفت تشارلي قليلاً من القهوة مما جعل هيلجا تشعر بالسرور من هذه الحركة وكأنها إجابة على التساؤل . قالت هيلجا إنها تتيقظ أخيراً . أتريدين المزيد من القهوة يا تشارلي ؟ هل لي أن أسخن لك بعض القهوة ؟ أو بعض الطعام ؟ لدينا هنا جبنة وبهارات وسجق بل وكافة أصناف الطعام . كل شيء هنا .

هزت تشارلي رأسها بما يفيد الرفض . ثم سمح لها هيلجا أن تصطحبها إلى بورصة المياه حيث ظلت باقية هناك لبعض الوقت وراحت تلقى بالماء على وجهها وتحاول التقيؤ . وكانت تتمى لو كانت تعرف قدرًا كافياً من اللغة الألمانية بحيث يسمح لها بتتبع الحوار المتقطع الذي يتراكم إليها من خلال باب الحمام .

وعندما رجعت من الحمام وجدت ماستاربين واقفاً عند الباب الأمامي وقد ارتدى معطف المطر الجباريني الخاص به قال «يا سيدة تشارلي . أذكرك بأن الأنسنة هيلجا تتمتع بالحماية الكاملة للقانون» ثم خرج من الباب الأمامي .

..

بمفردهما أخيراً . فتاتان مع بعضهما البعض ووجهها لوجه .

قالت هيلجا ضاحكة : أنتون رجل عبقري . وهو الملك الحارس بالنسبة لنا . وهو يكره القانون . ولكنه على نحو طبيعي يقع في حبّ الأمود التي يكرهها هل تتفقين معى في هذا الرأي ؟ يا تشارلى ، ينبغي عليك دائماً أن تتفقى معى في الرأى . وإنما فإننى سأشعر بالإحباط الشديد . العنف ليس هو المسألة على الإطلاق . نحن نتخذ عملاً يتسم بالعنف ونقوم بعمل يتسم بالسلم . فهذا أمر غير مهم ولا يقدم ولا يؤخر . المسألة معنا هي أن نكون منطقين ولا نقف على أ جانب : بينما العالم يدير شئون نفسه . وإنما نحول وجهة النظر إلى إيمان راسخ ونحوّل الإيمان الراسخ إلى عمل .

وتوقفت عن الكلام وراحت تدرس مدى تأثير هذا الكلام على تلميذتها . وكان رأساًها متقاربين للغاية إن العمل هو تحقيق الذات والعمل أيضاً يتسم بالموضوعية . أليس كذلك ؟ وتوقفت عن الكلام مرة أخرى ولكنها لم تتلق أىً أجابة وأننا لدى علاقات ممتازة مع والدى . ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة لك . ويمكن للمرء أن يدرك ذلك من خطاباتك . وأنتون أيضاً . ووالدى هي الأكثر ذكاءً ولكن والدى .

.....

توقفت عن الكلام مرة أخرى ولكنها في هذه المرة شعرت بالضيق والغضب بسبب التزام تشارلى بالصمت ويسرب تجدد انحرافاتها في البكاء .

ـ يا تشارلى . توقفى عن البكاء على الفور هه ؟ لسنا عجائز في نهاية الأمر . لقد شعرت بالحب نحوه ، ونحن نقبل ذلك كأمر منطقي . لكنه أصبح ميتاً الآن . أصبح صوتها جافاً على نحو مثير للدهشة لقد مات . لكننا لا نؤمن بالذهب الفردي بالنسبة للتجربة الخاصة فنحن مقاتلون وعُمال توقفى عن البكاء .

أمسكت هيلجا بمرفق تشارلى ورفعتها لكي تقف على قدميها وسارت بها في بطاء عبر الغرفة .

استمعى إلى . على ذات يوم كان لي عشيق بالغ الثراء والفنى . كورت وهو فاشستي وبدائى لقد استخدمته من أجل الجنس مثلاً استخدم أنتون حالياً ولكننى

حاولت أيضا أن أعلمك . وفي يوم ما تم تنفيذ حكم الإعدام في السفير الألماني لدى بوليفيا بمعرفة المدافعين عن الحرية . هل تتذكرين هذا العمل ؟ ولكن كورت الذي لا يعرف هذا السفير شعر بالغضب الشديد على الفور وقال «الخنازير . هؤلاء الإرهابيون ! إن هذا العمل متسم بالعار !» فقلت له «يا كورت . على من تحزن وتتفجع ؟ فالناس يموتون من الجوع يوميا في بوليفيا . فلماذا ينبغي علينا أن نهتم بشخص واحد ميت ؟» . أنت توافقين على هذا التقييم يا تشارلى ؟ نعم ؟

فلمّا تشارلى بإيماءة خفيفة . ثم أدارتها هيلجا وسارت بها في رحلة العودة عبر الغرفة .

والآن أدخل معك في مزيد من المناقشة الجادة . إن ميشيل شهيد . ولكن الشهيد لا يستطيع أن يقاتل كما يوجد هناك أيضا العديد من الشهداء الآخرين . جندى واحد أصبح ميتا ولكن الثورة مستمرة . أليس كذلك ؟

فهمست تشارلى : نعم .

ووصلنا إلى الأريكة . ورفعت هيلجا حقيبة يدها واستخرجت منها نصف زجاجة مفلطحة من الويسلكي . وشاهدت تشارلى ورقة تفيد أن الزجاجة غير خاضعة للرسوم الجمركية . ثم فتحت هيلجا غطاء الزجاجة وتناولتها لتشارلى . قالت : نحن نشرب تكريما للشهيد ميشيل من أجل ميشيل . قوله ذلك .

وارتشفت تشارلى رشفة ضئيلة . وبذا على الاكتتاب الشديد . فاستردت هيلجا الزجاجة منها :

- لو سمحت يا تشارلى . اجلس أريدك أن تجلس على الفور الآن .

فجلست تشارلى في قبور وترax على الأريكة ووقفت هيلجا إلى جوارها مرة أخرى :

- أنت تصفين إلى وتجيبين على أسئلتي هـ ؟ أنا لم أحضر هنا من أجل العبث . أتفهميني ؟ ولا من أجل المناقشات والمجادلات . وأنا أحب النقاش ولكن ليس الآن . قوله «نعم»

قالت تشارلى فى إعفاء : نعم

- انه كان منجذبا اليك . وهذه حقيقة علمية بل كان متينا ومحظونا بك في حقيقة الأمر . وكان هناك خطاب غير مكتمل موجه إليك موجود على مكتبه في شقته وهذا الخطاب مليء بالعبارات الرائعة التي تتعلق بالحب والجنس . كما توجد أيضا بعض العبارات التي تتعلق بالنواحي السياسية .

وعلى نحو تدريجي دب الشغف والاهتمام في وجه تشارلى الملطخ الملتوى .

وقالت : أين يوجد هذا الخطاب ؟ أعطيني الخطاب ؟

- انه يتم حاليا دراسة هذا الخطاب وتحليل محتوياته . ففي العمليات ينبغي تحليل وتقييم كل شيء وأسلوب موضوعي .

فنهضت تشارلى واقفة على قدميها وقالت : هذا الخطاب ملكي أنا .

أعطيه لي !

إنه من ممتلكات الثورة . وربما ستحصلين عليه فيما بعد . ولسوف نرى ما سيتقرر بشأن ذلك الخطاب ثم قامت بدفع تشارلى في شيء من القوة لكي تعيدها إلى الجلوس على الإريكة . واستطردت وهذه السيارة . السيارة المرسيدس التي صارت الآن صنثروقا من الرماد . هل قمت بقيادةتها عبر الحدود إلى داخل ألمانيا ؟ من أجل ميشيل ؟ أكانت هذه مهمة أو مأمورية ؟ أجيبي على أسئلتي .

فتمتّمت قائمة : النمسا - من أين ؟

- عبر يوغسلافيا

- يا تشارلى . أعتقد أنك رديئة للغاية من حيث الالتزام بالدقة : من أين ؟

- تسالونيكا

- اصطحبك ميشيل طوال هذه الرحلة . بالطبع هو فعل ذلك . وأعتقد أنه كان من الطبيعي أن يصطحبك .

- لا

- ماذَا تعنِّين بـ «لا» ؟ هل قدت السيارة بمفردك ؟ على مدى هذه المسافة الطويلة ؟ لا يمكن له أن يعهد لك بمثل هذه المسؤولية . إننى لا أصدقك على الإطلاق القصة كلها مليئة بالأكاذيب .

قالت تشارلى وقد عاد إليها الفتور واللامبالاة : ومنْ الذى يهتم ؟

بدت هيلجا مهتمة . وكانت قد أصبحت تموج بالغضب بالفعل : بالطبع أنت لاتهتمين ! فإذا كنت جاسوسة فلماذا ينبغي عليك أن تهتمي ؟ إن ما حدث قد أصبح واضحًا في ذهنى بالفعل . لستُ بحاجة لأن أسأل المزيد من الأسئلة . لقد قام ميشيل بتجنيدك وجعل منك حبه السرى . وبمجرد أن أصبحت قادرة نقلت قصتك إلى الشرطة لكي تحمى نفسك ولتكوني لنفسك ثروة من الأموال . أنت جاسوسة تابعة للشرطة . ولسوف أقدم تقريرًا بذلك إلى أنساس لهم نفوذ كبير على اتصال بنا . وبالتالي سيتم إعدامك حتى ولو بعد مرور عشرين عاماً من الآن .

قالت تشارلى عظيم ، بل شيء رهيب أفعلى ذلك يا هيلجا . فذلك هو ما أريده على وجه الدقة . أرسليهم إلىْ . ممكن ؟ الغرفة رقم «١٦» بالفندق .

كانت هيلجا قد ذهبت إلى النافذة وأزاحت الستائر وكانت تريد على ما ي يبدو استدعاء ماستاريين فنظرت تشارلى إلى ما وراء هيلجا فشاهدت سيارته المستأجرة الصغيرة وقد أضيئت أنوارها الداخلية كما شاهدت الخطوط الخارجية لмаسترلين جالساً في هدوء في مقعد القيادة بالسيارة .

وطرقت هيلجا على النافذة وقالت : أنتون ؟ يا أنتون تعال إلى هنا على الفور . فنحن لدينا جاسوسة موجودة بيننا لماذا لم يحدثنا ميشيل عنك ؟ لماذا لم يقسمك معنا ؟ أنت - بمثابة المفاجأة غير المتوقعة الخاصة به . فالامر يدعوه للسخرية الشديدة !

- كان يحبنى

- بل كان يستخدمك . ألا زالت خطاباته موجودة معك ؟

أمرني بأن أدمّر الخطابات

- ولكنك لم تدمّر الخطابات . بالطبع لم تدمّر الخطابات فأنّت انسانة بلهاه مهتمة بالعواطف وهذا يتضح من الخطابات التي أرسلتها له . لقد قمت باستغلاله وهو أنفق عليك الكثير من الأموال واشترى لك الثياب والمجوهرات وسدّد لك فواتير الفنادق وبعدئذ فأنّت قمت ببيعه للشرطة بالطبع أنت فعلت ذلك .

ووُجِدَتْ هيلجا نفسها قريبة من حقيبة اليد الخاصة بشارل . فقامت فجأة بالتقاط الحقيبة وأفرغت محتوياتها على منضدة الطعام . ظهرت المفاتيح التي كانت قد زرعت بالحقيقة : المفكرة اليومية وقلم الحبر الذي له سن على هيئة كرة من نونتجهام وعلب الكبريت التي من أثينا . لكنّها كانت تبحث عن دليل واضح يدل على خيانة شارل وليس إخلاصها .

- هذا الراديو

إنه الراديو الياباني الصغير والذي به منه من أجل البروفات .

- ما هذا ؟ إنه جهاز خاص بالتجسس .

من أين جاء هذا الجهاز ؟ ولماذا تحمل امرأة مثلّك جهاز راديو في حقيقة يدها ؟

فأشاحت شارل بوجهها بعيدا عنها . وراحت تحملق في شرود في النيران . وأخذت هيلجا تعبث بمؤشر الراديو والتقطت شيئاً من الموسيقى . ثم أغلقته ووضعته على جانب في توتر وقلق .

- في الخطاب الأخير لم يشيل الذي لم يضعه في صندوق البريد عبارة تفيد بأنّك قمت بتقبيل البنديقة فما معنى ذلك ؟

- هذا يعني أنّني قبلت ببنديقتي . ثم صحت كلامها وقالت في استدرالك قبلت ببنديقة أخيه » .

فارتفع صوت هيلجا فجأة ، أخوه ؟ من هو أخوه ؟

- إنه له أخ أكبر منه . وهو بمثابة البطل الخاص به . وهو محارب عظيم .
وقام هذا الأخ الأكبر بإعطاء أخيه ميشيل بندقيته . ولقد جعلنى ميشيل أقبل هذه
البندقية كنوع من الدخول في العهد أو إعطاني العهد .

وراحت هيلجا تحملق فيها في غير تصديق : لقد قال لك ميشيل هذا ؟

- لقد قرأت هذا في الأوراق . أليس كذلك

- متى قال لك هذا

- فوق قمة تل في اليونان .

قالت في صوت مرتفع شبيه بالصراخ : وما هي الأشياء الأخرى التي قالها
عن أخيه ؟ ردَّى على بسرعة ؟ !

- أخبرتك أن ميشيل كان يعبد ويقدس آخاه .

- قدَّمَ لى الحقائق . ولا شيء سوى الحقائق . ما هي الأمور الأخرى التي
قالها عن أخيه ؟

ولكن الصوت السري لشارلى كان يوحى بأنها تجاوزت حدودها بما فيه
الكافية . وقالت تشارلى : إنه سر عسكري .

اقربت هيلجا من تشارلى وقالت : هل أخبرك عن مكانه ؟ هل كلمك عن
الأمور التي يفعلها ؟ يا تشارلى إننى أمرك أن تجيبى على أسئلتي هذه الشرطة
والاستخبارات وربما الصهاينة كل شخص يقوم بالبحث عنك . ونحن لدينا علاقات
ممترزة مع عناصر مهمة في الشرطة الألمانية . وهم يعرفون بالفعل أن الفتاة
الهولندية ليست هي الفتاة التي قادت السيارة عبر يوغوسلافيا . فهم لديهم بعض
الأوصاف . وهم لديهم الكثير من المعلومات التي تدينك وتهمك بالتورط في الجريمة .
ونحن يمكن لنا أن نقدم لك يد العون والمساعدة إذا رغبنا في ذلك . ولكن ليس قبل
أن تحكى لنا عن كل شيء قاله ميشيل عن أخيه وانحنت بشدة للأمام إلى أن
أصبحت عيناه الشاحبتان على مسافة بوصات قليلة للغاية من عيني تشارلى . ثم

أضافت : فهو لم يكن له الحق في أن يحديك عن أخيه . وأنت ليس لك الحق في الحصول على هذه المعلومات . أفضى لي بهذه المعلومات التي قالها عن أخيه .

راحت تشارلى تفكير في هذا المطلب الذي طلبت هيلجا ولكنها بعد تفكير عميق رفضت ذلك المطلب . وتممت : لا .

كانت تهدف إلى أن تستطرد قائلاً : لقد وعدت بالحفظ على السر وذلك هو كل ما في الأمر ، وأنا لا أثق فيك ، انزل من فوق ظهرى .

عندما أصفت الكلمة «لا» المتسنة بالبساطة فإنها قررت الالتفاء بهذه الكلمة بمفردها لأنها معبرة على نحو أفضل .

كان يوسف قد قال : إن مهمتك هي أن تجعلهم في حاجة إليك . وفكري في هذا الأمر من حيث هو نوع من التودد والمغازلة إنهم سوف يعجبون كثيراً بالأمور التي لا يستطيعون الحصول عليها .

..

كانت هيلجا قد اتخذت نوعاً من الهدوء المثالى ورباطة الجأش . لقد انتهت التمثيل المسرحي وانتهى التكلف في السلوك والكلام لقد دخلت في مرحلة من الانفصال المتسنم بالبرود الثلجي وهو أمر كانت تدركه تشارلى على نحو غريزى لأنه أمر تستطيع أن تفعله بنفسها .

- إذن قد قمت بقيادة السيارة إلى النمسا . وماذا بعدئذ ؟

- لقد تخلصت من السيارة في المكان الذي حدده هو ثم تقابلت بعد ذلك وذهبنا سوية إلى سالزبورج .

- كيف ؟

- باستخدام الطائرة والسيارة .

- ثم ؟ في سالزبورج ؟

- ذهبنا إلى فندق .
- ما هو إسم الفندق . لو سمحت ؟
- لا أتذكر إسم الفندق .
- اذن قدمى لي وصفا لهذا الفندق .
- كان فندقا قديما وضخما وقريبا من النهر . وكان فندقا جميلاً .
- لقد مارست الحب . فهو كان شهوانيا ومكتمل الرجولة ولديه العديد من هزات التهيج كالمعتاد .
- ذهبنا سويا للنزهة والتريض سيرا على الأقدام .
- وبعد الانتهاء من النزهة مارست الحب معه . أرجوك لا تكوني سخيفة .
- فقالت تشارلى : كنا نهدف إلى ممارسة الجنس . لكنني استغرقت في نوم عميق بمجرد الانتهاء من تناول طعام العشاء سويا . فقد كنت أشعر بالإرهاق الشديد الناجم عن قيادة السيارة . لقد حاول إيقاظي من النوم مررتين ثم توقف عن محاولاته . وفي الصباح ارتدى ملابسه بحلول الوقت الذي استيقظت فيه .
- وبعدئذ ذهبت معه إلى ميونيخ - أليس كذلك ؟
- لا
- اذن ماذا فعلت ؟
- ركبت طائرة في فترة ما بعد الظهر متوجهة إلى لندن .
- وما هي السيارة التي كانت معه ؟
- سيارة مستأجرة
- وما هي ماركة السيارة ؟
- فقط ألمحت بأنها لا تذكر ماركة السيارة .

- ولماذا لم تذهبى معه إلى ميونيخ ؟
- لم يرد لنا أن نعبر الحدود سويا .
لقد قال إن لديه أعمالاً يتبعى عليه إنجازها .
- هو قال لك هذا الكلام ؟ عمل ينبغي عليه إنجازه ؟ هذا كلام فارغ !
وما هو ذلك العمل ؟ لا عجب في أنك كنت قادرة على خيانته !
- قال إن أوامر قد صدرت له لالتقاط السيارة المرسيدس وتسليمها في
مكان ما لأخيه .

وفي هذه المرة لم تظهر هيلجا أى قدر من الدهشة . وبل ولم يظهر عليها
مشاعر السخط والاستياء وذلك وفقاً لما اشتهر به ميشيل من طيش مطبق . وكان
ذهنها متركزاً على العمل . وكان العمل هو الأمر الذي تؤمن به . وسارت بخطوات
واسعة نحو الباب وفتحته في عنف على مصراعيه وأشارت بيدها في غطرسة
لماستاربين لكي يعود إلى داخل الغرفة . ثم استدارت ووضعت يديها على رديفيها
وحملقت في تشارلي . وكانت عيناهما الكبستان الشاحبتان مثيرتين للذعر والرعب .
قالت : أنت يا تشارلي أصبحت فجأة مثل روما . فجميع الطرق تؤدي إليك
. فالأمر متسم بالحماقة الشديدة فأنت واقعة في حبه السرى وأنت تقودين له
سيارته . وأنت تقضين معه آخر ليلة له على وجه الكرة الأرضية . أكنت تعرفين ما
كان موجوداً بالسيارة عندما قمت بقيادة السيارة .

- متفجرات .
- كلام فارغ . وما نوع تلك المتفجرات ؟
- متفجرات بلاستيكية روسية . حوالي ٢٠٠ رطل من هذه المتفجرات .
- الشرطة أخبرتك بهذه المعلومة إنها الكذبة التي قالتها الشرطة . فالشرطة
تكتب دائماً .

- إن ميشيل هو الذى قال لى هذه المعلومة .

أصدرت هيلجا صحة غاضبة زائفة وقالت : أوه يا تشارلى ! أنا لا أصدق أى كلمة تقولينها . أنت تكذبين على تماماً وفى خطوات عديمة الصوت لاح ماستاريين فى شكل ضخم مقسم بالتهديد خلفها . يا أنتون كل شيء أصبح معروفاً . فهذه الأرملة الصغيرة الخاصة بنا انسانة كذابة تماماً . وأنا متأكدة الآن من ذلك تماماً . ولن نفعل أى شيء لمساعدتها على الإطلاق . سوف نغادر الآن على الفور .

وراح ماستاريين يحملق فيها وراح هيلجا تحملق فيها أيضاً كانت تشارلى تجلس مثل امرأة جميلة مسترخية بل وغير مبالغة بأى شيء باستثناء فقدانها لحبيبتها .

جلست هيلجا إلى جوار تشارلى مرة أخرى ولفت ذراعها حول كتفها وتساءلت : ما هو اسم أخيه ؟ هيا أجيبني على يا تشارلى . وراح تقبلها فى رفق على عظمة خدّها . واستطردت «وربما نصبح أصدقاء لك . ينبغي علينا أن نلتزم بالحرص والحذر . ويجب أن نلجم للخداع بعض الشيء . وهذا أمر طبيعي . وهو كذلك . أخبريني أولاً باسم ميشيل الحقيقي

- إنه يسمى : سالم . ولكنني أقسمت بالآلة أستخدم هذا الاسم على الإطلاق .

- وما هو اسم أخيه ؟

فقالت فى تتممة : «خليل» ثم انخرطت فى البكاء مرة أخرى . وأضافت «ميشيل كان يعبد ويقدس أخيه خليل»
- وما هو اسمه الحركى .

ولم تفهم معنى كلمة «الاسم الحركى» ولم تشغل بالها بذلك .
وأضافت : لقد كان سراً عسكرياً .

..

كانت قد قررت أن تواصل قيادة السيارة إلى أن تسقط فجأة وتصاب بالانهيار والموت - يوجوسلافيا مرة أخرى . سأسير خارجة من العرض المسرحي ولسوف أذهب إلى نوتنجهام ثم أقتل نفسي في سرير الموتيل الخاص بنا .

وأصبحت فوق الأرض السبخة مرة أخرى وكانت بمفردها وكانت منطلقة على سرعة ٨٠ كم / ساعة قبل أن تخرج عن الطريق تقريباً . ثم أوقفت السيارة ورفعت يديها في حدة عن عجلة القيادة . وكانت العضلات في مؤخرة رقبتها تتلوى مثل أسلك ساخنة وشعرت بالمرض يزحف على كيانها

كانت جالسة على حافة الطريق تضع رأسها بين ركبتيها . وجاء حصانان صغيران بريان إليها مثل . لكي يحملقا فيها . وكان العشب طويلاً و مليئاً بندى الفجر . ومدت يديها في تثاقل ويللتهما بالندى ووضعتهما على وجهها لكي تبردّه وترطبه . ومرت بجوارها دراجة بخارية في بطء وشاهدت صبياً ينظر إليها في تردد كما كان لا يُعرف ما إذا كان عليه أن يتوقف ويساعدها . ومن بين أصابعها شاهدته يختفي تحت خط السماء . إنه واحد تابع لنا . انه واحد تابع لهم ؟ وعادت إلى السيارة وكتبت رقم الدراجة البخارية . أنها لأول مرة لم تعد تثق في ذاكرتها . وكانت نباتات ميشيل السحلبية موجودة بالمقعد إلى جوارها فقد طالبت بأخذ هذه النباتات معها عندما استأنفت للانصراف .

كانت هيلجا قد قالت في احتجاج : ولكن يا تشارلى لا تكوني سخيفة تماماً ! فأنت عاطفية أكثر من اللازم .

- أنت إنسانة غريبة الشأن أيضاً يا هيلجا فهذه النباتات تخصنني أنا .

وأصبحت فوق هضبة عالية خالية من الأشجار ولها ألوان وردية وبنية ورمادية . وظهر منظر شروق الشمس منعكساً على مرآة القيادة الخاصة بها . ولم يقدم راديو سيارتها أى شيء سوى اللغة الفرنسية . ويبدو أن البرنامج كان بمثابة سؤال وجواب عن مشاكل فتيات المدارس إلا أنها لم تستطع فهم الكلمات .

ومرت بجوار سيارة نوم زرقاء اللون واقفة في حقل توجد إلى جوارها سيارة لاندروفر شاغرة . وإلى جوارها توجد ملابس أطفال معلقة على حبل غسيل لا يرى إلا بالتلسكوب . أين شاهدت حبل غسيل يشبه هذا من قبل ؟ إنها لم تشاهد مثله في أي مكان آخر من قبل .

استلقت على سريرها في بيت الضيافة وراحت ترقب النهار وهو يشرق فوق السقف . وراحت تصفى لهديل الحمام الموجود فوق قاعدة نافذتها . لقد سبق أن حذرها يوسف قائلاً : إن أخطر الأمور تحدث عندما تنزلين هابطة من فوق الجبل . وسمعت وقع أقدام مكتومة في الطرقة . إنهم هم . ولكن أي نوع منهم ؟ دائمًا نفس السؤال . أكانت السيارة حمراء ؟ لا أيها الضابط فانا لم يسبق لي على الإطلاق أن قدمتُ سيارة مرسيدس حمراء لذلك ينبغي عليك أن تخرج من غرفة نومي . وجرت نقطة من العرق البارد على بطئها العارية . وفي داخل ذهنها راحت تتبع مجريها عبر سرّتها وإلى ضلوعها ثم إلى ملبيتها . تزييق في الألواح الخشبية التي تكسو الأرضية وأنفاس مكتومة لجهد مبنول : إنه ينظر من خلال ثقب مفتاح الباب .. ظهرت زاوية ورقة بيضاء تحت بابها . وشققت الورقة طريقها في تموج والتواء .. وتزايد حجم الورقة كان همفي الصبي السمين يدفع بجريدة «الديلي تلغراف» من تحت عقب الباب .

.....

استحملت وارتدت ثيابها . ثم قادت السيارة في ببطء متخذة طرقاً قليلة مع التوقف عند دكаниن على طريقها وفقاً للتعليمات التي أصدرها لها . لقد ارتدت ملابس غير أنيقة وسرحت شعرها كيما اتفق كان مظهرها المتسنم بالإهمال يوحى لمن يشاهدها أنها تمر بحالة من الهم والقلق . وأظلم الطريق : إذ تشابكت أشجار الدردار المريضة فوقها على الطريق بينما توجد كنيسة قديمة كورنيشية جائمة بين الأشجار . فتوقفت السيارة مرة أخرى ودفعت البوابة الحديدية فانفتحت أمامها كانت المقابر قديمة للغاية . والقليل منها كانت توجد لها شواهد وشاهدت قبرا يقع

بعيداً عن القبور الأخرى . أهو قبر لشخص متجر ؟ أهوا قبر لشخص قاتل ؟ خطأ : إنه قبر لزعيم ثورى متطرف . فركعت وقامت فى تبجيل واحترام بوضع نباتات السحلبية عند نهاية القبر وفى المكان الذى اعتقدت أنه يحتوى على رأس الرجل الثورى . خطت خارجة من الهواء البارد الثلجى الموجود فى داخل الكنيسة وهى تشعر بجو من الحداد التام . وهو إجراء ما كانت ستقدم عليه تشارلى فى مسرح الحياة الواقعية تحت الظروف الواقعية .

استمرت لساعة أخرى تتجول على غير هدى بهذه الطريقة حيث توقفت بسيارتها بدون أن يكون هناك داع لذلك على الإطلاق اللهم إلا من أجل أن تستند على بوابة أو من أجل أن تحملق فى إحدى الحقول . أو من أجل أن تستند على بوابة وعدم الحملقة فى أى شئ على الإطلاق . وبعد الساعة الثانية عشرة أصبحت واثقة أن راكب الدراجة البخارية توقف عن تعقبها تماما . ورغم ذلك فانها دخلت فى العديد من الانعطافات والالتفافات ، كما جلست فى كنيستين آخرين قبل أن تدخل إلى الطريق العمومى الرئيسي المتوجه إلى «فالماؤث» .

كان الفندق بمثابة مزرعة لها سور من القرميد الموج تقع فى منطقة هلفورد وبداخل الفندق يوجد حمام سباحة وحمامات ساونا وأرض ممهدة للجولف لها تسعه ثقوب ونزلاء يشبهون أصحاب الفنادق . لقد سبق لها أن نزلت فى فنادق عديدة أخرى ، لكنها لم تنزل فى هذا الفندق من قبل ، كان قد ملا الاستمارة بالفندق على أساس أنه صاحب دار نشر ألمانية وأحضر معه كومة من الكتب غير المقروعة لكي يثبت صحة ذلك . كان قد قدم بخشيشا للسيدات العاملات على لوحة المفاتيح موضحا لهن أن لديه مراسلين دوليين لا يحترمون مواعيد نومه . وكان السفرجية والبوابون يعرفون عنه أنه إنسان غريب الأطوار لأنه يظل ساهرا طوال ساعات الليل . كان يعيش على ذلك النحو تحت أسماء مختلفة على مدى الأسبوعين الأخيرين ، وذلك أثناء قيامه بتعقب تشارلى فى رحلتها الانفرادية كان قد استلقى على الأسرة محملاً فى الأسفف مثما فعلت تشارلى لقد تحدث تليفونيا مع كيرتز .

وجعل نفسه متوافقاً مع العمليات الميدانية الخاصة بليتفاك ساعة وراء ساعة يتحدث مع تشارلز مرات قليلة توفيراً للنفقات كما كان يطعمنها بوجبات قليلة ويعلمها المزيد من الألعيب الكتابة السرية . كان سجيننا خاضعاً لها مثماً هي خاضعة له .

فتح الباب فسارت متخطيئة إياه في تجهم مليء بالذهول والحيرة حيث كانت لا تعرف المشاعر التي عليها أن تشعر بها . قاتلة متنمرة . غشاشة . إلا أنها لم تكن لها شهية إزاء المشاهد الإجبارية . فهي قد لعبت كل تلك الأنوار إنها إنسانة محترقة في حداد وتوقع منه أن يتقدم للأمام ويعانقها إلا أنه ظل مكانه لم يسبق لها أن شاهدته وقورا على هذا النحو ومكبوح الجماح إلى هذه الدرجة . كانت ظلال الهم والقلق مرتبطة حول عينيه يرتدي قميصاً أبيض اللون وقد شمرَ كميه حتى المرفقين مصنوعاً من القطن وليس الحرير . حملقت في القميص وهي تدرك المشاعر التي تجتاحها . لا توجد أصفاد حديدية في اليدين ولا توجد ميدالية حول الرقبة ولا حذاء جوشى قالت أنت الآن تتمتع بالفردانية والوحدانية . لم يستطع أن يدرك المعنى الذي تهدف إليه . فأضافت : يمكنك أن تتسى الرداء الأحمر الفضفاض ليس كذلك ؟ فقد أصبحت «أنت» وليس شخصاً آخر لقد قتلت حارسك الخاص . ولم يتبق شخص ما لكى تختفى وراءه .

فتحت حقيبة اليد وناولته الراديو المنبه الصغير . قال ضاحكا وهو يطلق حقيقتها : أوه إن علاقتنا لم تعد بحاجة إلى الاستغراق في التفكير .

قالت تشارلز : على أي نحو كنت أبدو ؟ ظننت أنني كنت أفضل شيء منذ بيernard . ومن وجهة نظر مارتي كنت أفضل منذ نزل سيدنا موسى هابطاً من فوق الجبل . وربما أفضل شيء قبل أن يصعد موسى إلى قمة الجبل . إذا كنت ترغبين يمكنك التوقف الآن مع مرتبة الشرف . فهم مدينون لك بالكثير . وأكثر من اللازم . راحت تفكر إنه يقول «هم» ولا يقول «نحن» تساملت : ومن وجهة نظر

يوسف ؟

- أولئك أناس كبار يا تشارلز . أناس كبار من الوسط .

- هل أنا استغفلتهم؟

فجاء جلس إلى جوارها . ليكون قريبا وليس من أجل التلامس .

قال : طالما أنك مازلت على قيد الحياة ينبغي علينا أن نفترض أنك استغفلتهم إلى درجة كبيرة .

وقالت «هيا بنا» وكان جهاز تسجيل أنيق صغير يعمل بالشروط مستلقيا وجاهزا فوق المنضدة فسارت متخطية إياه أداته وبدون الدخول في المزيد من المقدمات انتقلا إلى مرحلة استخلاص المعلومات على النحو الذي يصبح عليه زوجان تزوجا منذ سنين طوال . لأنه على الرغم من أن عربة اللاسلكي الخاصة بيتفاك أصفت لكل كلمة وردت في محادثة الليلة الأخيرة حيث إنها أرسلت باللاسلكي بواسطة الراديو الصغير الموجود في حقيبة يد تشارلى فإن الذهب الخالص لدركاتها كان ينبغي التنقيب عنه واستخراجه والتفرقة ما بين الجيد والردي منه .

الفصل الثامن عشر

كان شاب السريع الحركة الذى قام بزيارة السفارة الاسرائيلية فى لندن يرتدى معطفا جلديا طويلاً وقال إنه يسمى ميدوز . وكانت السيارة اللاندروفر خضراء اللون ونظيفة ومزودة بسرعة إضافية جلس كيرتز فى المقعد الأمامى لكي يكون برفقة ميدوز . أما ليتفاك فظل قابعا فى المقعد الخلفي بالسيارة . وبدت طريقة كيرتز متسمة بعض الشئ بالخسنة والدناءة، فهو يصبح كذلك عندما يوجد المتفوقون الاستعماريون .

تسائل ميدوز فى بهجة وحيوية : هل وصلت توا بالطائرة يا سيدى ؟

رد كيرتز : وصلت بالأمس كالمعتاد .

- من المؤسف أنك لم تخبرنا بمجيئك . فالقائد كان سيسهل لك الأمور فى المطار .

قال كيرتز . متحجاً : أوه . الأوضاع مختلفة الآن بعض الشئ .

واتجهوا بالسيارة إلى آيليسبرى ومنها عبر الحارات والأزقة الجميلة . حتى وصلوا إلى مدخل من الحجر الرملى تحدد معالمة ديوك صغيرة . وظهرت لافتاً زرقاء / حمراء مكتوب عليها : رقم ٣٠ كانت هناك نراع رافعة بيضاء اللون تسد الطريق أمامهم . فترك ميدوز كيرتز وليتفاك بمفردهما وذهب إلى كشك البوابة كانت هناك عيون داكنة تتفحصهما من داخل نوافذ الكشك . ولم تمر أية سيارات ولم تظهر أصوات زقزقة صادرة عن جرار بعيد . وبدا الأمر وكأنه لا يوجد هناك شئ تدب فيه الحياة سوى القليل .

فقال كيرتز بالعبرية أثناء انتظارهما : هذا المكان يبدو ظريفاً وجميلاً علق ليتفاك : إنه مكان جميل والناس طيبون أيضاً .

قال كيرتز : إنهم أناس من الدرجة الأولى . إنهم قمة أهل المهنة . ما في ذلك شك .

وعاد ميدوز إليهما . ثم ارتفع ذراع الرافعه لأعلى . وعلى مدى وقت طويـل سلكوا طريقاً ملتوياً في الأراضي المخصصة للمعدات العسكرية البسيطة لانجلترا

أراضٍ مخصصة للهجوم ومهبط خاص بالطائرات محدد بكزان برتقاليـة اللون، ومحروطـية الشكل . وأماكن تضم خفراً للحراسـة من الجنود بالـغـي التـدـريـب والـبرـاعـة الذين يـرـتدـونـ الزـىـ العـسـكـرىـ أـزـرقـ اللـونـ وـالـأـحـذـيةـ ذاتـ الرـقـبةـ العـالـيـةـ . كانتـ هـنـاكـ كـبـارـ مـصـنـوعـةـ منـ الـحـبـالـ وـمـشـدـوـدـةـ عـبـرـ جـادـولـ مـائـيـةـ .

قال كيرتز في تبجيل : هذا بمثابة حلم جميل يا سيد ميدوز . ينبغي أن يكون لدينا مثل هذا في وطننا . ولكن كيف يتمنى لنا ذلك ؟ .

قال ميدوز : حسنا . شكراً

كان المنزل ذات يوم قدـيـماً ، إلا أن واجـهـتهـ أـتـلـفـتـ بـسـبـبـ دـهـانـهاـ بـطـلـاءـ فـذـارـىـ حـكـومـىـ كـمـاـ أـنـ الأـزـهـارـ الـحـمـرـاءـ المـزـرـوـعـةـ فـىـ إـصـيـصـ النـوـافـذـ قدـ شـذـبـتـ فـىـ دـقـةـ بـمـعـرـفـةـ الرـادـيـكـالـيـينـ . وـقـفـ رـجـلـ آـخـرـ عـنـ الدـخـلـ سـرـعـانـ مـاـ أـشـارـ لـهـمـ بـصـعـودـ السـلـامـ الـلـامـعـ المـصـنـوعـةـ مـنـ خـشـبـ الصـنـوـبـرـ .

قال الرجل لاهـثـاـ كـمـاـ لوـكـانـ قدـ أـصـبـحـواـ مـتـأـخـرـينـ : «أـنـاـ اـسـمـىـ لـاوـسـونـ» ثـمـ طـرـقـ بـمـفـاـصـلـ أـصـابـعـهـ عـلـىـ بـابـ مـزـيـوجـ . فـبـعـدـ صـوتـ مـتـرـامـيـاـ مـنـ الدـاخـلـ قـائـلـاـ: أـدـخـلـ .

قال لاؤسون : السيد رفائيل يـاسـيـدىـ . مـنـ إـسـرـائـيلـ . وـأـخـشـىـ أـنـ يـكـونـ قدـ تـعـرـضـ لـبـعـضـ الإـزعـاجـ بـسـبـبـ حـرـكةـ المـرـورـ الـخـاصـةـ بـالـسـيـارـاتـ .

وـظـلـ بـيـكـتـونـ نـائـبـ القـائـدـ جـالـساـ إـلـىـ مـكـتبـهـ لـفـتـرـةـ طـوـيـلـةـ تـكـفىـ لـأـنـ يـبـدوـ وـقـحاـ . وـالتـقـطـ قـلـماـ وـوـقـعـ باـسـمـهـ عـلـىـ خـطـابـ . ثـمـ نـظـرـ لـأـعـلـىـ وـرـقـ كـيرـتزـ بـنـظـرةـ صـفـرـاوـيـةـ . ثـمـ أـمـالـ بـرـأـسـهـ إـلـىـ الـأـمـامـ كـأـنـهـ عـلـىـ وـشكـ أـنـ يـنـطـحـ شـخـصـاـ مـاـ . ثـمـ

رفع جسده فى بطة لکى يقف على قدميه إلى أن أصبح واقفاً وقفه ساكنة منتصبة
وقال أتمنى لك نهاراً طيباً يا سيد رفائيل .

ثم ابتسامه خفيفة كما لو أن الموسم ليس هو موسم الابتسامات
كان ضخم الجثة وله ملامح الجنس الآرى . شعر أشقر متوج وفرق في شعره
أشبه بجرح ناجم عن استخدام موسى للحلقة . بدا عريضاً وممتليئاً الوجه وعنيفاً
له شفتان مضغوطتان ونظرات تشبه حملة حامي العاهرة . وضع منديلاً منقطاً
في كمه الأيسر . إنه شخص عصامي مقاوم للارهاب «هو أحياناً جندي وأحياناً
شرطى وأحياناً أخرى وغد ونذل» وفقاً لما كان يحب أن يقوله عن نفسه إنه ينتمي
للجيل المؤمن بحرفته . سبق له أن اصطاد شيوعيين في ماليزيا - ماو في كينيا
ويهود في فلسطين وأيرلنديين في كل مكان . سبق له أن نسف أناساً في المحميات
البريطانية السبعة التي تقع شرق الجزيرة العربية . وفي قبرص لم ينجح في
اصطياد جريفاس إنه عندما يصبح مخموراً يتحدث بأسف عن فشله هذا . وهو
الذى كان يقوم بدور الرجل الثانى في العديد من الأماكن ونادرًا ماقام بدور الرجل
الأول لأنه كانت هناك ظلال أخرى أيضاً .

تساءل : «هل ميشا جافرون في حالة جيدة؟»

رد كيرتز في حماس «ايها القائد . ميشا على ما يرام !

كان هناك صندوق فضي لامع خاص بالسجاير فوق مكتبه على نحو لافت
للأنذار . وكان غطاء الصندوق يحتوى على توقيعات إخوانه الضباط بأسلوب
الحفر على الغطاء . فتح بيكتون الصندوق ومهنحو كيرتز ، إلا أنه أشار بأنه لا
يدخن فأعاد بيكتون الصندوق إلى مكانه الصحيح . وكان هناك طرق على الباب .
وتم السماح لرجلين بالدخول . أحدهما يرتدى بدلة رمادية والأخر يلبس بدلة «تovid»
كان ملاكمًا ويبلغ من العمر حوالي ٤٠ عاماً ، وبه آثار خلوش على فكهة الأسفل
ووصفه بيكتون بأنه «المفتش الرئيسي» .

قال المفتش الرئيسي .. لم يسبق لي الذهاب إلى إسرائيل على الإطلاق .

ولكن زوجتى تفضل قضاء الكريسماس فى بيت لحم ولكن كارديف كانت تناسبنى

أما الرجل الذى يرتدى بدلة التويد فهو الكابتن مالكولم الذى كان يتمتع بالمنزلة الاجتماعية يرثى إليها بيكتون فى بعض الأحيان ويكرهها دائمًا
قال لكيرتز فى صدق : «حقيقة إنه لشرف عظيم يا سيدى» ثم مد يده
مصافحا قبل أن يكون كيرتز مستعداً لصافحته .

وعندما جاء الدور على ليتفاك بدا على الكابتن مالكولم أنه لم يستوعب
اسمه تماماً فقال : أخبرنى باسمك مرة أخرى أيها الولد العجوز ؟
فكدر ليتفاك اسمه مرة أخرى : ليفين ومن حسن حظى أنه سبق لى العمل
مع السيد رفائيل هنا .

وتم إعداد مائدة طويلة من أجل عقد اجتماع . ولم تكن هناك صور زيتية -
ولا فوتografية . كانت النوافذ ذات الإطارات تتطل على فناء شاغر . وكانت
المفاجأة الوحيدة تمثل فى رائحة الزيت الساخن التى ظلت منتشرة فى الهواء كما
لو أن غواصة مرت توأ قال بيكتون : حسناً . لماذا لم تقم بإطلاق الرصاص يا
سيد رفائيل ؟

وكان لهذه العبارة أثر عجيب . في بينما قام كيرتز بفتح محفظته الجلدية
المسطحة التى تحفظ بها الأوراق وبدأ فى إخراج الملفات اهتزت الغرفة بسبب ذلك
الصوت الطويل المكتوم الناجم عن تفجير شحنة فى ظروف متحكم فيها . قال
بيكتون وهو يرفع جلدة الملف الموجودة أمامه ويحملق فى داخله وكأنه يلقى نظرة
أولى خاطفة على قائمة الطعام :

كنت أعرف شخصاً باسم رفائيل ذات يوم . وقد جعلناه عدداً لبعض
الوقت . لقد نسيت اسم المدينة . أكنت أنت هو ذلك الشخص ؟
وفى ابتسامة حزينة أبدى كيرتز أسفه لأنه لم يكن هو ذلك الشخص سعيد
الحظ .

كان كيرتز يتحلى بالصبر على نحو خارق للطبيعة . ولا حتى ليتفاک الذى سبق له أن شاهده من خلال مئات الظلال المختلفة لشخصيته ، كان بمقدوره أن يتتبأ بهذا الكبح المثالى لشياطينه . إن نشاطه المتسم بالاصطخاب والعربدة قد اختفى تماماً وحل محله إبتسامة ذليلة تبدو على وجه الشخص الخاسر . بل وحتى صوته كان له نغمة مليئة بالاعذار والحياء وعدم الثقة بالنفس .

قرأ المفتش بصوت مرتفع : ماستاريين هل تلك هى الطريقة التى ننطق بها

ذلك الاسم ؟

توقف كيرتز عن الكلام لكي يجعلهم يتصرفون ملفاتهم لفترة أطول . وأضاف : أيها القائد . ينبغي علينا أن نحصل على تعهدكم الرسمى فيما يتعلق بالاستخدام والتوزيع .

وفي ببطء رفع بيكتون رأسه الأشقر . وتساءل : تعهد مكتوب ؟ فابتسم كيرتز باستخفاف وقال : إن كلمة الشرف التى يقولها ضابط بريطانى ستكون كافية تماماً بالنسبة لميشا جافرون .

قال بيكتون فى غضب مفاجئ : «اتفقنا إذن» ثم انتقل كيرتز بسرعة إلى شخصية أنتون ماستاريين الذى تتسم بائتها أقل مشاكسة .

الأب جنتلمان سويسرى محافظ يمتلك فيلاً جميلة تطل على شاطئ البحيرة – ولا توجد لديه اهتمامات معروفة لما هو وراء تكوين الثروات . وأما الأم فسيدة ذات آراء حرة وتنتمي لليسار وتمضى نصف العام فى باريس لها صالون فكرى وشعبية كبيرة بين الجالية العربية فى باريس .

قال بيكتون : هل تحقق نجاحاً فى هذا الشأن ؟

ـ إنها تتحقق نجاحاً ضئيلاً يا سيدي .

وأضاف كيرتز : وأنتون الدين الشاب يعمل محامياً فى مجال العقارات والممتلكات لقد درس العلوم السياسية فى باريس والفلسفة فى برلين . وتتلمذ على

يدى بيركلى لمدة سنة حيث درس القانون والعلوم السياسية . وأمضى نصف سنة دراسية فى روما كما أمضى أربع سنوات فى زيورخ . وتخرج بتقدير امتياز .

قال بيكتون : هذا يعني أنه إنسان مثقف . رد كيرتز : يمكننا القول إن السيد ماستربين يميل إلى آراء والدته من الناحية السياسية . ولكن يفضل والده من الناحية المالية .

أطلق بيكتون ضحكة عالية ضخمة . وتوقف كيرتز عن الكلام لفترة طويلة تسمح له بمشاركة النكتة معه

- الصورة الموجودة أمامكم قد التقطت فى باريس إلا أن الممارسة القانونية لмаستربين تتم فى جنيف التى تعتبر مقرا للقوانين بالنسبة للطلبة الراديكاليين والشخصيات المنتمية للعالم الثالث . وهناك أيضاً تشكيلة من منظمات تقدمية فقيرة تعتبر أيضاً من الزبائن ثم قلب صفحة ودعا المستمعين أن يسايروه فى تقليب الأوراق . كان يرتدى نظارة متدرلة فوق طرف أنفه وكان له هدوء وفئرانية كاتب فى أحد البنوك .

استطرد كيرتز قائلاً : فى نوفمبر الماضى حضر ماستربين مؤتمراً يسمى «محاميو العدالة» فى برلين الشرقية . وأعطى هذا المؤتمر اهتماماً خاصاً بالوفد الفلسطينى حيث استمعوا له فترة طويلة للغاية . وعلى كل حال ربما تكون هذه وجهة نظر متحيزه ومغرضة . وفي إبريل قام ماستربين بأول زيارة لبيروت تلبية لدعوة وجهت إليه فى تلك المناسبة . وقدم ولاءه واحتراماته لنظمتين من أكثر المنظمات العسكرية الرافضة هناك .

تساءل بيكتون : أكان يطوف فى المدينة من أجل عقد الصفقات التجارية ؟

استمر كيرتز قائلاً : وأثناء عود ماستربين من هذه الرحلة توقف فى استانبول . وعقد لقاءات وحوارات مع بعض العناصر التركية النشطة السرية التى تلتزم بالقضاء على الصهيونية حيث إن ذلك هدف من بين أهدافهم الأخرى .

فقال بيكتون : إذن فهم رجال نوو طموح وفي هذه المرة ولأنها النكتة التي أطلقها بيكتون ماج كل فرد بالضحك باستثناء ليتفاك وفي سرعة مذهلة عاد مالكولم من المهمة القصيرة التي قام بها . وقال في تتمة بعد أن مرر قصاصه الورق إلى بيكتون : «أخشى ألا يكون هناك قدر كبير من البهجة» ثم ابتسم في وجه ليتفاك وهو يستأنف الجلوس على مقعده . إلا أن ليتفاك كان قد استغرق في النوم . إذ كان قد وضع ذقنه بين يديه الطويلتين وأمال رأسه للأمام فوق ملفه المغلق . وبفضل يديه كان التعبير على وجهه غير محدد المعالم .

تساءل بيكتون وهو يلقى بقصاصه الورق التي قدمها مالكولم على جانب :
هل أخبرت السويسريين بأى شيء عن هذا ؟

فقال كيرتز معترضاً : اعتقدت أنكم أيها الرجال كنتم قريبين بعضنا لم نبلغ السويسريين بعد

فقال بيكتون معترضاً : اعتقدت أنكم أيها الرجال كنتم قريبين بعض الشيء من السويسريين .

نحن قريبون بكل تأكيد من السويسريين . ومع ذلك فإن ماستاربين لديه عدد من الزبائن الذين يسكنون بشكل كامل أو جزئي في جمهورية ألمانيا الفيدرالية . وهذه حقيقة تضمننا في موقف صعب بعض الشيء .

فقال بيكتون في عناد : لم أتبع كلامك . ظننت أنكم سويتم الخلافات بالطرق الودية منذ فترة طويلة .

ربما كانت ابتسامة كيرتز قد نُشِّيت في داخل جلده إلا أن إجابته كانت نموذجاً للمراوغة : أيها القائد . الأمر كذلك . ولكن إسرائيل ما زالت تشعر في ضوء حساسية مصادrnنا وتعقيدات التعاطف السياسي الألماني في هذه الأوقات حالياً - أنه لا يمكن أن ننصح أصدقاءنا السويسريين بدون أن ننصح أيضاً نظراً لهم الألمان ولكن نفعل ذلك فإن هذا يعني أن نضع عبئاً من الصمت على السويسريين في تعاملاتهم مع فيزبادن .

تساءل بيكتون فجأة وعلى نحو غير متوقع : إننى أفترض أنك سمعت أنهم قد أعادوا أليكسيس إلى المبعد الساخن . فهل سمعت عن ذلك ؟

قال كيرتز إنه كان قد سمع عن هذه الأنباء بالطبع . إلا أن ذلك لم يؤثر عليه على ما يبدو لأنه انتقل في ثبات إلى المستند القانوني التالي .

علق بيكتون في هذه «انتظر» . كان يحملق في المستند رقم ٢ في ملفه . وأضاف أعرف ذلك الجمال . إنه العبرى الذى أحرز هدفا خاصا به على الطريق الرئيسى لميونيخ منذ شهر . وأخذ معه الفتاة الهولندية الجميلة

قال كيرتز على وجه السرعة الأمر كذلك أيها القائد ولدينا معلومات تفيد أن كلًا من السيارة والمتفجرات فى تلك الحادثة المشوهة قد تم تقديمها بمعرفة أشخاص تابعين لمستاربين موجودين فى استانبول وأن هذه المتفجرات نقلت بتلك السيارة عبر يوجوسلافيا إلى النمسا .

القطبي بيكتون قصاصة الورق التى أعادها مالكولم إليه ، وبدأ يحركها أمام ناظريه ثم قال متظاهرا بعدم الالكتراس لقد أبلغت بأن الصندوق السحري الموجود بالدور الأرضى لا يتضمن مستاربين واحدا . ولا شخصا فى قائمة بيضاء ولا شخصا فى قائمة سوداء . ولا شخصا تافها .

وبدأ الابتهاج على كيرتز وقال : أيها القائد . هذا لا يعكس عدم كفاءة من جانب إدارة السجلات ويمكننى القول إنه منذ يومين فقط لم نكن ننظر إلى مستاربين على أنه إنسان ضار . ونفس هذا الرأى ينطبق على شركائه .

فتساءل مالكولم راجعا إلى النقطة التى تتعلق بزميله مستاربين : بما فى ذلك بلوندى الشقراء ؟

اكتفى كيرتز بالابتسام وشد نظارته كوسيلة لجذب انتباه المستمعين إليه للصورة الفوتوغرافية التالية . إنها واحدة من الصور العديدة التى التقاطها فريق ميونيخ للمراقبة عبر الشارع . إنها تبين يانوكا وهو يدخل ليلاً إلى الباب الرئيسى بالشارع الذى يؤدى إلى شقتة كانت الصورة ضبابية ومشوشة شأنها شأن كافة

الصور التي تلتقط تحت الأشعة الحمراء مع استخدام السرعة البطيئة . إلا أن الصورة مع ذلك أظهرته في وضوح يكفي للتعرف على شخصيته . وكان برفقة امرأة طويلة شقراء تقف إلى الوراء قليلاً بينما هو يضع مفتاح المنزل في الباب الأمامي . إنها المرأة التي ظهرت في الصورة الفوتوغرافية السابقة والتي سبق أن استحوذت على إعجاب الكابتن مالكولم وتساءل بيكتون : أين نحن الآن ؟ هذه المناظر لا تدل على باريس . فالمبانى ليست شبيهة بمبانى باريس .

قال كيرتز : بل ميونيخ .

فتساءل بيكتون في حدة وكان كيرتز كان أحد الموظفين التابعين له : ومتى كان ذلك ؟

ولكن كيرتز فضل أن يسمع السؤال بطريقة خاطئة حيث قال إن اسم السيدة هو أستريد بيرجر ، ومرة أخرى تركزت نظرات بيكتون الصفراء عليه في مسحة من الشك وفي تلك اللحظة فإن رجل الشرطة الوليزي الذي حرم منذ فترة طويلة من إلقاء خطب كبيرة فضل أن يقرأ البيانات التفصيلية عن السيدة بيرجر بصوت مرتفع من الملف : بيرجر أستريد التي تعرف باسم آيدا وأيضاً باسم هيلجا . بالإضافة إلى عديد من الأسماء المستعاره الأخرى . ولدت في برلين في عام ١٩٥٤ ، ابنة لرجل ثرى يمتلك شركة للشحن : يمكنني القول يا مسieur رفائيل إنك تحرك في دوائر ممتازة . تلقت تعليمها في جامعات برلين وفرانكفورت وحصلت على الليسانس في الفلسفة والعلوم السياسية في عام ١٩٧٨ . تكتب مقالات في بعض الأحيان في الجرائد الراديكالية التي تصدر في ألمانيا الغربية . آخر عنوان معروف لها كان في عام ١٩٧٩ بباريس وهي تكثر من زياراتها لمنطقة

الشرق الأوسط

قاطعه بيكتون وطلب منه الكف عن الكلام . وقال : إنها إنسانة أخرى مثقفة . الققبض عليها يا مالكولم .

وعندما انزلق مالكولم خارجا من الغرفة مرة أخرى استرد كيرتز المبادرة

في رشاقة :

- أيها القائد . لو قمت بمقارنة التوارييخ الموجودة هناك فسوف تكتشف أن آخر زيارة قامت بها السيدة بيرجر لبيروت تمت فى ابريل هذا العام وهذا يتوافق زمنيا مع الرحلة التى قام بها ماستاريين . كما كانت موجودة فى استانبول أثناء توقف ماستاريين هناك . سافرا فى رحلات طيران مختلفة ولكنهم كانوا يقيمان فى نفس الفندق . نعم . يا مايك ، لو سمحت .

وقدم ليتفاك نسختين مصورتين لاستمارتى تسجيل بفندق إحداهما خاصة
بأن تكون ماستربين والأخرى باسترید بيرجر . وتاريخ الاستمارتين هو ١٨ أبريل .
وإلى جوار الاستمارتين توجد نسخة مصورة طبق الأصل من فاتورة ، مؤشر
عليها بأن القيمة قد سددت بمعرفة ماستربين .

قال مالكوم فى ابتسامة بائسة : يا سيدى ليس هناك ما يسترعى الانتباه بالنسبة لاسترید بيرجر . هل يمكن لك أن تصدق ذلك ؟

فتاوى كيرتز بسرعة : هل ذلك بمعنى : لا شيء مسجل ضدها .

أمسك بيكتون بقلمه الرصاص الفضى اللون بطرفى يديه وأداره أمام حملقته الكثيبة المتشائمة قال فى تفكير : نعم وكانت الصورة الفوتوغرافية الثالثة التى عرضها كيرتز أو كما قال عنها فيما بعد ليتفاک بأنها بطاقة الثالثة فى الخدعة - قد زيفت على نحو رائع للغاية لدرجة أن أفضل الخبراء فى تل أبيب فشلوا فى التقاطها من بين مجموعة كبيرة من الصور الأخرى التى دعوا لفحصها وهى صورة تبين تشارلى وبيكار يقتربان من السيارة المرسيدس الواقفة فى الساحة الأمامية لفندق دلفى صباح يوم رحيلهما . كان بيكار يحمل حقيبة الكتف الخاصة بـ تشارلى وحقيقة الخاصة بالسفر أما تشارلى فكانت ترتدى ملابسها اليونانية وتحمل الجيتار الخاص بها . ارتدى بيكار الرداء الأحمر الفضفاض والقميص الحريرى والحزاء الجوشى .

- أيها القائد التقطرت هذه الصورة من حسن الحظ قبل وقوع حادث الانفجار خارج ميونيخ بأسابيعين فقط . وهو الحادث الذي قام فيها اثنان من

الإرهابيين بتفجير نفسيهما، والفتاة ذات الشعر الأحمر الموجودة في الجزء الأمامي بالصورة هي بريطانية . ومرافقها كان يخاطبها باسم «جان دارك» وكانت تخاطبه باسم «ميشيل» إلا أن ذلك الاسم لم يكن هو اسمه المدون في جواز سفره. وكان التغير في الجو شبيها بحدث انخفاض فجائي في درجة الحرارة .

ابتسام المفترس في تكلف مصطنع في وجه مالكولم الذي بدا عليه وكأنه يرد على الابتسامة بابتسمة من جانبه . إلا أنه اتضحت تدريجيا أن ابتسامة مالكولم لم تكن ذات علاقة بما يظنه الناس عادة بأنه فكاهة . فالجمود الذي أبداه بيكتون قد سيطر على الموقف - إذ إن رفضه لأن يحصل على معلوماته من أي مصدر آخر بخلاف الصورة الفوتوغرافية كان واضحاً .

ردد بيكتون من خلال شفتيه المزمومتين عبارة «من حسن الحظ» صديق ممتاز تصادف أن كان جاهزا بالكاميرا الخاصة به . إننى أفترض وجود مثل هذا الحظ السعيد أو مثل هذه الفرصة اللعينة السعيدة .

ابتسام كيرتز في خجل وارتباك ولكنه لم يقل أي كلمة .

جهز إطارين على وجه السرعة ، وأرسلهما إلى تل أبيب .

اتسعت ابتسامة كيرتز . ولدهشته شاهد بيكتون يبتسم هو الآخر كرد على ابتسامته وإن لم تكن ابتسامته ظريفة للغاية .

- نعم . حسنا . أظن أننى أتذكر بالفعل أصدقاء على ذلك النحو . . أنتم أيها الناس لديكم أصدقاء في كل مكان وأنا أفكر في هذا الأمر الآن . أماكن عالية وأماكن منخفضة وأماكن غنية .

وللحظات غير سعيدة اتضحت أن احباطات قديمة معينة عن أيام بيكتون في فلسطين قد أحبت نفسها على نحو غير متوقع وأصبحت تهدد بالتدفق خارجة من كيانه في حدة وانفعال . إلا أنه تمالك نفسه ولطف من حدة ملامحه وأخفض من حدة صوته . وأرخي من ابتسامته إلى أن أصبحت متسمة بعض الشيء بالطبع الودي .

سلك المفتش الرئيسي الرمادي صوته في وداعه وخاطر بالتدخل مرة أخرى حيث قال : حسنا حتى ولو افترضنا أنها إنجليزية يا سيدى ، فإنه ما زال لا يوجد هناك قانون في هذه الدولة يحرم الاضطجاع مع الفلسطينيين . هل يوجد هناك قانون من هذا القبيل ؟ لا يمكن لنا أن نفتتش تفتيشا دقيقا عن سيدة في جميع أرجاء الأمة بناء على ذلك فقط ! ونحن إذا .

وقال بيكتون وهو يحملق في كيرتز : أن لديه الكثير . الكثير جدا .
لكن نغمة صوته ذهبت إلى ما هو أبعد من ذلك . حيث قال : إنهم دائما لديهم الكثير بالفعل .

ودعا كيرتز المستمعين إليه لكي يدرسوها السيارة المرسيدس الموجودة بالجهة اليمنى . من الصورة وأوضح أنه لا يعرف معلومات كثيرة عن ماركات السيارات ولكن تابعيه أكدوا أنها من نوع السيارة الصالون بها هوائي للراديو فوق الجناح مراتان ولها نظام إغلاق مركزي وأحزنة للمقاعد في المقعد الأمامي فقط . قال إنه طبقاً لكافة هذه التفصيات وغيرها فإن السيارة المرسيدس التي ظهرت في الصورة تتمشى في أوصافها مع السيارة المرسيدس التي انفجرت خارج ميونيخ والتي ظل معظم الجزء الأمامي منها متبقياً على نحو أشبه بالمعجزة .

وكان لدى مالكولم حل فجائي : ولكن هل من المؤكد تماماً يا سيدى أنها ليست فتاة هولندية ؟ شعر أشقر وشعر أحمر - إن ذلك لا يعني شيئاً . فكلمة انجليزى في هذه الحالة تعنى فقط لغتهم المشتركة

قال بيكتون في لهجة أمراة : الهواء ، دعوه يستمر في الكلام .

كان صوت كيرتز في تلك الأثناء قد أصبح غليظاً وكذلك أصبحت كتفاه للحظات . كان قد وضع جماع يديه على المنضدة عند جانبي الملف .

أعلن كيرتز في مزيد من القوة : أيها القائد . إن معلوماتنا التي حصلنا عليها من مصدر مختلف تفيد أن نفس هذه السيارة المرسيدس في رحلتها شمالاً

من اليونان عبر يوجوسلافيا كانت بقيادة فتاة شابة تحمل جواز سفر بريطانيا . وعشيقها لم يصطحبها في هذه الرحلة وإنما سبقها مسافرا بالطائرة إلى سالزبورج على طائرة تابعة للخطوط الجوية النمساوية . ونفس شركة الطيران النمساوية هذه قد حجزت له في فندق بسالزبورج حيث توضح تحرياتنا أن الفتاة والشاب أطلقا على نفسيهما اسم «المسيو لاسير» وزوجته رغم أن الفتاة لم تكن تتكلم باللغة الفرنسية وإنما الأنجلizية فقط . وتشير التقارير إلى أن الفتاة كانت جميلة للغاية ذات شعر أحمر ليس في إصبع يدها دبلة الزواج تحمل معها جيتارها مما تسبب في ظهور تعليقات مرحة كما أشارت التقارير أنها رغم مغادرتها للفندق في الصباح الباكر مع زوجها إنها عادت فيما بعد خلال النهار لاستخدام التسهيلات الموجودة بالفندق . وأشار بواب الفندق أنه استدعي سيارة أجرة من أجل المدام لاسير لكي ينقلها إلى مطار سالزبورج وهو يتذكر الوقت الذي استدعي فيه السيارة وهو الساعة الثانية بعد الظهر أى قبل أن تنتهي نوباتجيته مباشرة . عرض عليها أن يؤكّد لها على الحجز بالطائرة علامة على معرفة ما إذا كانت الطائرة لن تتأخر عن الموعد المحدد لرحيلها من المطار ، إلا أن المدام لاسير لم تسمع له أن يفعل ذلك . ربما السبب في ذلك أنها لم تكن مسافرة تحت ذلك الاسم . وهناك ثلاث رحلات طيران خارجة من سالزبورج تتلاءم مع ذلك التوقيت . أحدها طائرة نمساوية متوجهة إلى لندن . والسيدة الموجودة في مكتب مبيعات الخطوط الجوية الاسترالية تتذكرة في وضوح فتاة انجلزية ذات شعر أحمر كانت لديها تذكرة تشارتر غير مستخدمة تسالونيكا / لندن ، وكانت ترغب في أن تعاد كتابة هذه التذكرة مرة أخرى إلا أن ذلك كان أمراً مستحيلاً . ولذلك اضطرت لأن تشتري تذكرة كاملة بدون عودة سددت ثمنها بالدولارات الأمريكية ومعظمها أوراق مالية من فئة العشرين دولاراً .

زمر بيكتون قائلًا : ما اسمها ؟

وكرد على هذا السؤال كان ليتفاک قد بدأ يوزع نسخاً مصورة من قائمة تضم أسماء مسافرين . بدا شاحب الوجه كأنه يعاني من بعض الآلام . وعندما

انتهى من التوزيع شرب كمية ضئيلة من الماء من ابريق زجاجى رغم أنه لم ينطق بكلمة واحدة طوال الصباح إلا فيما ندر .

قال كيرتز عندما شرع الجميع فى النظر إلى القائمة التى تضم أسماء المسافرين : لم يكن هناك اسم : جان مما سبب لنا ذعرا فى بداية الأمر . وكان الاسم الذى التقينا به هو : «تشارميان» . ويوجد أمامكم اسم أسرتها . وموظفة الخطوط الجوية النمساوية تؤكد تحديداتنا لهويتها بل أن الموظفة تتذكر جيتارها . فمن حسن الحظ أن هذه الموظفة ذاتها من أنصار فرقه مانيتاسى دى بلاط العظيمة . ومن ثم فإن الجيتار ترك انطباعا عميقا على ذاكرتها .

كان آخر شيء عرضه كيرتز قد جاء من المحفظة الجلدية المسطحة الخاصة بليتفاك . إذ مد كيرتز يديه لأعلى لكي يحصل على ذلك الشيء فقام ليتفاك بوضعه فى يديه : لفيفة من الصور ما زالت لزجة عقب خروجها من آنية الطبع . كانت تلك الصور تبين وجود كل من ماستربين وهيلجا فى أحد المطارات هو يحملق فى الكتاب فى الهواء الشاغر . أما هي فتقف خلفه حيث تشتري زجاجة من السوق الحرة . وكان ماستربين يحمل فى يديه كمية من نباتات السحلبية ملفوفة فى ورق رقيق شبه شفاف .

وقال كيرتز : مطار شارل ديغول منذ ٣٦ ساعة مضت «بيرجر وماستربين على وشك السفر جوا باريس / إكزيتار . وطلب ماستربين توفير سيارة بدون سائق بحيث تكون تحت تصرفه فى مطار إكزيتار . وعادا إلى باريس بالأمس بدون نباتات السحلبية سالكين نفس الطريق . كانت بيرجر مسافرة تحت اسم مستعار جديد يمكن لنا أن نضيفه إلى باقى أسمائها المستعاره الأخرى . وكان جواز سفرها هو واحد من جوازات السفر العديدة التى يدها ويجهزها الألمان الشرقيون من أجل الاستخدام الفلسطينى .

لم ينتظر مالكولم لحين صدور الأوامر إليه . إذ كان قد دخل من الباب بالفعل . قال بيكتون فى تلميح بينما هم ينتظرون : من المؤسف أنكم لم تحصلوا على لقطة لها لدى وصولهما إلى إكزيتار أيضاً

قال كيرتز : لم يكن بمقدورنا أن نفعل ذلك . وهو أمر تعرفونه جيداً
فقال بيكتون : أعرف ذلك ؟

إن رؤساغنا لديهم اتفاقية تبادل تجاري . يا سيدى . فلا صيد فى مياه
بعضهم البعض بدون الحصول على موافقة مسبقة مكتوبة .

فقال بيكتون : أوه ذلك

راح رجل الشرطة يستخدم دهانا دبلوماسيا ، هنا سألك كيرتز قائلا: إنها
من مدينة إكزيتار . أليس كذلك ياسيدى ؟ فهى فتاة من إقليم ديفون ؟ وأنا
أفترض أنك لا تومن بأن فتاة ريفية يمكن أن تكرس نفسها لأعمال الإرهاب
والرعب ؟ فهذا ليس من طبيعة الأمور ؟

بدت معلومات كيرتز كأنها قد توقفت تماما عند الشاطئ الانجليزى .
وسمعوا وقع أقدام تصعد على السالم الضخمة ، ثم سمعوا صرير حذاء مالكولم
السويدى . فالرجل الويلزى الذى لا تشط همه أبداً كان يحاول مرة أخرى .

قال فى تفجع ورثاء : لا أعتقد أبداً أن أولئك الذين لهم رuous ذات شعر
أحمر ينتمون إلى إقليم ديفون . ولا أعتقد أن شارميان يمكن أن تكون أمينة على
نحو صادق . والأكثر احتمالاً أن تكون شارميان من لندن .

وجاء مالكولم فى إعفاء . وكان يحمل معه كومة من الملفات: إنها ملفات حول
نزوات تشارلى فى اليسار المناضل المقاتل .

وكانت قصاصات الصحف والنشرات بارزة من الحواف والأطراف . قال
مالكولم فى زمرة ارتياح وهو يضع هذه الحمولة الثقيلة على المنضدة : يا سيدى
. ينبغي أن أقول إنها اذا لم تكن فتاتنا فينبغي أن تكون هى فتاتنا !

قال بيكتون فى حدة : «حان وقت الغداء» وتمتم بسلسلة من الأوامر
الغاضبة الموجهة للشخصين التابعين له ثم سار مع ضيوفه إلى صالة طعام
شاسعة تفوح منها رائحة الكرنب وورنيش الأثاث .

كانت هناك نجفة على شكل نبات الأناناس تتدلى فوق المنضدة التي يبلغ طولها ٢٠ قدماً . وقام اثنان من السفرجية يرتديان معطفين لهما لون أبيض لامع بالتخديم عليهم . وتناول بيكتون طعامه في تخشب أما ليتفاك الذي بدا شاحبا للغاية فكان يتناول الطعام وكأنه مريض . وراح كيرتز يثرثر بعيداً عن الموضوعات التي تتعلق بالأعمال : إذ قال إنه يشك في أن القائد بامكانه أن يتعرف على كل أبيب إذا أتيحت له الفرصة للعودة إلى هناك . وعبر عن إعجابه بأول وجبة يتناولها في ميس للضباط الانجليز . وحتى ذلك الحين لم يواصل بيكتون تناول الطعام حتى النهاية . إذ استدعاه الكابتن مالكولم مرتين إلى الباب لكنه يهمس له بكلام . كما أن رئيسه استدعاه على التليفون أيضاً . وعندما جاء طبق البودينج نهض فجأة وكان عقراً لدغه وأعطى فوطة السفرة للخادم وسار بخطوات واسعة لكنه يجري بعض الاتصالات التليفونية .

باستثناء خفراء الحراسة الموجودين دائمًا كانت المساحة المخصصة للسيارات شاغرة تماماً مثل الملاعب الرياضية في مدرسة في أول يوم من أيام الأجازات . وراح بيكتون يمشي الهويني وقد ظهر عليه القلق الشديد حيث راح يرقب في حذر الأسوار ويطعن بعصاه كل شيء لا يحب منظره . أما كيرتز الذي كان أقصر من بيكتون بتسعة بوصات فراح يتمايل في ابتهاج إلى جواره . ومن على مسافة كانا شبيهين بسجين وسجان رغم أنه لم يكن من المعروف على وجه الدقة من هو السجين ومن هو السجان . ووراءهما كان يمشي ليتفاك ممسكا بالمحفظتين تتبعه السيد أفلاهيرتى وهي المرأة الالزاسية رفيقة السيد بيكتون .

انفجر بيكتون قائلاً بصوت مرتفع على نحو يكفي لأن يسمع ليتفاك الكلام : هل المستر ليفين يود أن يصفني ويستمع؟ هل هو مستمع جيد؟ هل له ذاكرة قوية؟ كم أحب ذلك .

رد كيرتز في ابتسامة متسمة بالطاعة : أيها القائد إن مايك قريب إنه يجيء إلى كل مكان إنه يبدو لي مثل شخص عابس متجمهم . لقد قال رئيسى العين بالعين ..

استدار كيرتز وتكلم إلى لি�تفاك باللغة العبرية . فتقهقر لি�تفاك إلى الوراء إلى أن أصبح بعيداً عن مرمى السمع وما لبث أن هبط إحساس بالود والزمالة على كل من كيرتز وبيكتون بمجرد أن أصبحا بمفردهما .

وكانت فترة ما بعد الظهر رمادية وعاصفة . وكان بيكتون قد أغار كيرتز مغطفا له نسيج صوفى خشن مما جعل كيرتز يبدو أشبه بكلب البحر . أما بيكتون فقد أكفر وأصبح قاتما فجأة مع استنشاقه للهواء الطلق قال على نحو أشبه بالتحدي إنه لأمر لطيف أن تجيئ بطول هذه المسافة لكي تحدثنا عنها . إن رئيسى سوف يرسل خطابا إلى ميشا العجوز . الشيطان .

فقال كيرتز بدون أن يستفسر من بيكتون عن الشخص الذى يشير إليه بكلمة الشيطان : من المؤكد أن ميشا سوف يرحب بذلك .

إنه لأمر يدعو للسخرية على كل حال . فأنتم تقومون بتزويدنا بمعلومات سرية عن الإرهابيين . فى أيامى كانت حركة المرور تميل إلى السير فى الاتجاه الآخر .

قال كيرتز كلاما استرضائيا ملطفا يتعلق بعجلة التاريخ إلا أن بيكتون لم يكن أحد الشعراء ، قال : بالطبع العملية الخاصة بكم . والمصادر الخاصة بكم . ورئيسى يتخذ موقفا صلبا إزاء هذا . مهمتنا أن نلتزم الهدوء وتنفذ التعليمات التى تصدر إلينا .

وأشار كيرتز أن التعاون هو أهم شيء فى هذه الأيام . وبدا على بيكتون كأنه على وشك أن ينفجر ويفقد السيطرة على أعصابه . واتسعت عيناه الصفراوان ولكى يهدى من نفسه أشعل سيجارة ثم أعطى ظهره للرياح وكور يديه لكي يحمى اللهب .

قال بيكتون فى سخرية شديدة وهو يطفئ عود الكبريت : وفي تلك الأثناء سوف تذهبون عندما تسمعون بأن معلوماتكم قد تأكّدت صحتها لقد سافر بيرجر وماستاربين بالطائرة باريس / اكزيتار مع العودة . واستقلوا سيارة لدى

وصولهما إلى مطار أكزيتار . وقطعوا مسافة ٤٢٠ ميلًا وسدّد ما ستاربين الحساب عن طريق بطاقة ائتمان تحمل اسمه . ولا تعرفون أين أمضيا الليلة لكنكم ستقومون في الوقت المناسب بإبلاغنا بذلك .

فاللزم كيرتز بالصمت المطبق الشديد واستطرد بيكتون بنفس الخفة المصطنعة : وبالنسبة للسيدة طرف هذا الموضوع فإنكم سوف تندهشون عندما تعرفون أنها منضمة إلى فريق التمثيل الدرامي الكلاسيكي . وهو فريق يسمى : الهرطوقيون وأنا أحب هذا الاسم أنتم لا تعرفون هذه المعلومة أليس كذلك ؟ ويقال في فندقها إن رجلا له نفس أوصاف ما ستاربين التقاطها عقب انتهاء العرض . لم ترجع إلى فندقها حتى طلوع النهار .

فضل التوقف عن الكلام للحظات ولكن كيرتز تجاهل ذلك . واستطرد بيكتون قائلاً : وأنا أقول لك إن رئيسى هو ضابط وهو جنلمن وهو سوف يقدم كل المساعدة لكم . ورئيسى إنسان مستحب ولطيف . وهو ممتن ومن النوع الذى يتأثر عاطفيا . وهو لطيف مع اليهود ويعتقد أنه لأمر جميل للغاية من جانبكم أن تتذبذبوا المشاق وتجيئوا إلى هنا من أجل أن تطلعوا على شئونها، رئيسى إنسان شاب يتفجر بالحيوية . وغير مثال للإصنفاء لأن شكوك رديئة قد تراودنى .

وتوقف بيكتون أمام حظيرة خضراء كبيرة وطرق بعصاہ على الباب الحديدى . فقام صبي يرتدى بدلة زرقاء بإدخالهما إلى قاعة جمباز شاغرة . وقال بيكتون : «يوم السبت» ربما لكي يقدم تفسيراً لهذا الجو الكئيب الحالى من الناس . ثم راح يتفقد المبانى ووضع أصابعه على قضبان جهاز المتوازين لكي يرى ما إذا كان هناك غبار على القضبان أم لا .

قال بيكتون في نغمة مليئة بالاتهام : سمعت أنكم قدمتم بقصص تلك المعسكرات مرة أخرى بالقنابل . وتلك هي فكرة ميشا . أليس كذلك ؟

بدأ كيرتز يعترف في صدق تام بأن عمليات اتخاذ القرار على المستويات العليا بالمجتمع الإسرائيلي كانت دائمًا بمثابة سر غامض بالنسبة له . إلا أن بيكتون لم يكن لديه متسع من الوقت لسماع مثل هذه النوعية من الإجابة .

- حسناً . لن يفعل أمراً منكراً بدون أن يتعرض للعواقب الوخيمة . ويجب أن تبلغه برأيي هذا الذي يتعلق به . فتلك الأعمال ستترد عليكم وتطاردكم حتى نهاية العمر

وفي هذه المرة اكتفى كيرتز بالابتسام وهز رأسه في تعجب من تصرفات الأقدار قال بيكتون في فضول : لقد كان ميشا جافرون من فرقة الأرجون . أليس كذلك ؟

فصحح كيرتز المعلومة قائلاً : بل كان من فرقة الهاجاناه .

فتتساءل بيكتون : وإلى أى فرقة كنت تنتمي ؟ فاختار كيرتز أن يبدي الأسف المتسم بالخجل الذي يبديه الشخص الخاسر . وقال . سواء أكان ذلك من حسن الحظ أم لا فإننا نحن مجموعة الرفائيليون وصلنا إلى إسرائيل في وقت متاخر للغاية بحيث لم نشكل أى إزعاج للبريطانيين .

فقال بيكتون لا تغشني وتخدعني . فأنا أعرف من أين ينتقى ميشا أصدقائه . قد منحته وظيفته اللعينة .

قال كيرتز مبتسمًا ابتسامته المضادة للماء : لقد أخبرني بذلك أيها القائد .

أمسك الشاب الرياضي بأحد الأبواب لكي يظل مفتوحاً . كي يمرروا من خلاله . وفي داخل صندوق زجاجي طويل كان يوجد عرض لأسلحة القتل الصامتة المصنوعة محلياً : نبوت به مسامير تغرز في الرأس + دبوس القبة + السرنجات المصنوعة محلياً .

قال بيكتون موجهاً كلامه في حدة إلى الشاب : أصبحت البطاقات الورقية التي تحتوي التفسيرات باهتة ومع حلول يوم الاثنين القادم يجب أن تضع لافتات وبطاقات جديدة . هل تسمعنى والا سأضعك في موقف حرج لا تحسد عليه ؟

خرج بيكتون إلى الهواء النقي بينما كيرتز يتهادى في تثاقل إلى جواره .

وسارت السيدة أفلاهيرتى في أعقاب سيدتها قال بيكتون : وهو كذلك ماذا تريد ؟

لا تخبرني أنك جئت إلى هنا لكي تحضر لي خطاباً غرامياً من زميلي القديم ميشا الروك لأنني لن أصدقك.

ابتسم كيرتز وهز رأسه معبراً عن إعجابه بالذكاء الانجليزي الذي يتميز به بيكتون، قال موضحاً في نغمة من يقظة من يقوم بدور الرسول فقط: حسناً يا سيد، إن ميشا الروك يشعر أن مجرد إلقاء قبض في هذه الحالة هو أمر مستحيل وغير وارد.

قال بيكتون في شيء من الاشمئزاز: لقد ظننت أن مصادركم كانوا جميعاً أصدقاء حميمين.

استطرد كيرتز وهو ما زال مبتسمًا: وحتى لو افترضنا أن ميشا يوافق على إصدار أمر رسمي بإلقاء القبض فإنه يسائل نفسه عن الاتهامات التي يمكن أن تجمع ضد السيدة وفي أي محكمة تتم المحاكمة. ومن يمكنه أن يبرهن أن المتفجرات كانت داخل تلك السيارة في تلك الفترة. ستقول إن المتفجرات وضعت بالسيارة فيما بعد وفي فترة لاحقة. وهذا من شأنه - على ما أعتقد - أن يتركنا مع تلك المخالفة البسيطة نسبياً... ألا وهي قيادة سيارة عبر يوغوسلافيا بأوراق زائفة. أين توجد تلك الأوراق؟ ومن هو الذي يمكنه أن يبرهن أن تلك الأوراق موجودة في أي وقت من الأوقات؟ إنها أسانيد واهية وضعيفة للغاية.

قال بيكتون: نعم إنها أسانيد واهية للغاية. هل أصبح ميشا يشتغل بالمحاجة وهو عجوز في أواخر أيامه؟ يا إلهي. إن الأمر أشبه بشخص يصطاد الطيور يتحول إلى شخص يمنع المتطفلين من صيد الطيور. ويشير ميشا أيضاً إلى مسألة مدى أهميتها بالنسبة لنا وبالنسبة لكم وفقاً لوقفها الحالى. وما هي الأمور التي تعرفها في نهاية الأمر؟ وما هي الأمور التي يمكنها أن تكشف عنها؟

وخذ حالة الميس لارسين

- لارسين؟

الفتاة الهولندية التي كانت متورطة في حادث السيارة التعرض خارج ميونيخ

واللقت بيكتون نحو كيرتز وحملق نحوه في شكوك متزايدة وتساءل : ماذَا
عنها ؟

هز كيرتز رأسه ، وقال : كانت أيضا تقود السيارات وتقوم بمهام ورحلات
ومأموريات من أجل عشيقها الفلسطيني . إنه نفس العشيق بل إن لارسين زرعت
القنابل نيابة عنه . فعلت ذلك مرتين وربما ثلاثة مرات . ووفقا لما هو وارد في
الأوراق فإنها كانت سعيدة للغاية ولكنها من حيث ذكائها كانت بمثابة إنسان شاغر .
 مجرد فتاة صغيرة أحببت هذه المشاهد ، والمخاطر والأولاد . كانت تحب إدخال
السرور على الآخرين . وهم لم يخبروها بأية معلومات ولا أية عناوين أو أسماء أو
خطط .

قال بيكتون في شيء من الاتهام : وكيف تنسى لك معرفة ذلك ؟

- لقد تحدثنا معها لفترة قصيرة .

- متى ؟

- منذ فترة مضت . إذ عقدنا معها صفقة سرية محدودة قبل أن نعيدها
إلى المستنقع القذر . أنت تعرف الكيفية التي تسير عليها مثل هذه الأمور .

ـ قال بيكتون وهو يحملق بعينيه الصفراويتين في وجه كيرتز : يبدو أن لقائمكم
معها تم قبل قيامكم بتغييرها بخمس دقائق فقط

ـ إلا أن ابتسامة كيرتز كانت هادئة على نحو عجيب ، قال في تنهيدة : لو
كان الأمر فقط سهلاً إلى هذه الدرجة أيها القائد .

- لقد سألت عما تريده يا سيد رفائيل .

- نحن نريد تحريكها . أيها القائد

- اعتقدت أنه يمكن لكم أن تفعلوا ذلك

- نحن نريد أن نخرجها من مخبئها السرى ونجعلها تدوخ بعض الشيء ،
لكن بدون أن يتم القبض عليها . ونريدها أن تجرى وهي خائفة - بل وشديدة

الخوف مما يجعلها تضطر لعقد مزيد من الاتصالات مع رفاقها أو يضطّرُّهم إلى عقد اتصالات معها . وبالطبع سوف نشارك في العمل معكم . وعندما تنتهي العملية سنوجه لكم الدعوة لاستخدام الفتاة .

قال بيكتون معتبراً : لقد تمت اتصالات بالفعل . لقد جاءوا وقابلواها في كورنوفل . وأحضروا لها باقة من الأزهار اللعينة . أليس كذلك ؟

- أيها القائد . أن قراءتنا لذلك اللقاء توحى لنا بأنه كان بمثابة مناورة استكشافية إلى حد ما . نحن نخشى من عدم احتمال ظهور نتائج أخرى من وراء الاجتماع .

فامتلاً صوت بيكتون بالغضب ، وهو يقول : كيف تعرف ذلك بحق الجحيم ؟ سوف أخبرك كيف يتمنى لك أن تعرف . لقد وضعت أذنك على ثقب المفتاح اللعين ! ماذا تظنني يا سيد رفائيل ؟ هل تظنني مغفلة ؟ فهذه الفتاة تنتهي إليكم يا سيد رفائيل . وأنا أعرف ذلك ! أنا أعرفك جيداً وأعرف أمثالك وأعرف ذلك القزم الذي يسمى ميشا . الآن ، أصبح لدى سيناريyo ظريف للغاية يا سيد رفائيل أود أن أشارككم فيه . هل لي أن أفعل ذلك ؟

قال كيرتز في ابتهاج : سيكون ذلك بمثابة متعة كبيرة . أيها القائد .

- شكراً . الخدعة تتم عادة من خلال استخدام لحوم ميتة . أنت تحصل على جثة رجل في حالة جيدة ويلبس الجثة ملابس لائقة وتتركه في مكان ما بحيث يعثر عليه العدو . ويقول العدو «آه . ما هذا ؟ إنه جسد ميت يحمل محفظة جلدية مسطحة هيا بنا ننظر إلى الأشياء الموجودة في المحفظة وينظرون في داخل المحفظة فيعثرون على رسالة صغيرة . فيقولون «من المؤكد أن ذلك الرجل كان يعمل ساعياً هيا بنا نقرأ مضمون الرسالة فيقرأون مضمون الرسالة ويقعون في المصيدة . وبذلك نحصل جميعاً على الميداليات . لقد اعتدنا على أن نسمى هذه العملية بـ «التضليل» ويراد بها تضليل عيون العدو إنها عملية ظريفة للغاية أيضاً . إلا أن هذا أمر بسيط للغاية بالنسبة لك وبالنسبة لميشا . فلكونكم شخصين

متعصبين فإنكما تتخذان أسلوباً أبعد من ذلك «لا لحوم ميتة بالنسبة لنا . فنحن سوف نستخدم اللحوم الحية . لحوم عربية . لحوم هولندية » هكذا فعلتم . وتم تفجير سيارة مرسيدس جميلة . سيارة تملكونها . والشئ الذى لا أعرفه بالطبع ، ولن أعرفه أبداً لأنك أنت و Mish'a ستنكران العملية كلها حتى وأنتما على فراش الموت . أليس كذلك ؟ هو أين زرعتم ذلك التضليل . لقد زرعتم ذلك التضليل بالفعل في مكان ما . وهم الآن قد أكلوا الطعام . والا لما كانوا أحضرروا لها بتلك الأزهار الجميلة . أليس كذلك ؟

هز كيرتز رأسه إعجابا بخيال بيكتون المслى ثم بدأ يتحرك مبتعدا عنه . إلا أن بيكتون من خلال لمسات رجل الشرطة السديدة تمكّن من إيقاف كيرتز في مكانه .

- عليك أن تقول هذا للسيد جافرون اللعين . فإذا كنت أنا على صواب وأنتم قد جندتم واحدة من فتياتنا الانجليزيات بدون الحصول على موافقة منا فإنني سأحضر شخصيا إلى دولته الصغيرة الرديئة الكريهة واستخرج أمياعه . أفهمت ذلك ؟

ثم أسترخى وجه بيكتون فجأة ، وظهرت عليه ابتسامة رقيقة تتعلق بالذكريات القديمة وبدأ ذلك وكأنه ضد رغبته ثم تحجرت ملامحه مرة أخرى . وقال : وعلى المستوى الرسمي يا سيد رفائيل أقدم لك تحيات رئيسى في العمل .

ثم استدار على عقبه وسار في نشاط عائدا إلى المنزل تاركا كيرتز والسيدة أفلاهيرتى يهرولان وراءه للحاق به وأضاف بيكتون قائلا : وهو يلوح بعصاه في وجه كيرتز في تأكيد نهائى لسلطاته الاستعمارية : وأخبره أن يكف عن استخدام جوازات السفر اللعينة التي تحمل هويتنا . فإذا كان الآخرون يستطيعون تدبير شئونهم بدون استخدام جوازاتنا فإن الروك يستطيع ذلك أيضا لعنة الله على الروك .

ولدى رحلة العودة إلى لندن جعل كيرتز ليتفاک يجلس في المقعد الأمامي للسيارة لكي يعلمه الأساليب الانجليزية . وكان ميدوز يرحب في مناقشة مشكلة الضفة الغربية : كيف يمكن حل هذه المشكلة حلاً فعلياً حقيقياً يا سيدى من خلال عقد اتفاقية عادلة مع العرب بالطبع من وجهة نظرك ؟ أبعد كيرتز نفسه عن حديثهم العقيم وانخرط ذهنه في الذكريات القديمة التي مرت عليه في حياته .

هناك مشانق صالحة للعمل حيث لم يعد يشنق أى شخص . وكيرتز يعرف هذه المشانق معرفة جيدة : إنها ملائقة لمجموعة المنازل والمتاجر المسورة الروسية القديمة حيث تقع على الجانب الأيسر لدى قيادتك للسيارة هابطا على الطريق شبه المرصوف مع التوقف أمام بوابتين قديمتين تؤديان إلى ما كان يسمى ذات يوم بالسجن المركزي للقدس . واللافتات مكتوب عليها عبارة «إلى المتحف» ولكنه هناك رجل عجوز شبه معتوه يتسع بالخارج وينحنى أمامك موجها لك الدعوة بالدخول . ورسوم الدخول هي ١٥ شيكل ولكن هذه الرسوم أخذة في الارتفاع . أنه المكان الذى قام فيه البريطانيون بمحاكمة اليهود أثناء فترة الانتداب البريطاني على فلسطين . وحقيقة الأمر أنهم لم يشنقوا سوى عدد ضئيل للغاية منهم بينما قاموا بشنق عدد كبير للغاية من العرب إنه المكان الذى قاموا فيه بشنق اثنين من أصدقاء كيرتز خلال السنوات التى انضم فيها للهاجاناه مع ميشا جافرون . كان من المحتمل أن يحاكم كيرتز هو الآخر ويلحق بصديقيه . إذ سبق لهم أن سجنوه مرتين واستجبوه أربع مرات .

قال كيرتز لنفسه على كل حال فإن بيكتون يعتبر رجلاً ظريفاً

ثم ابتسم في نفسه ابتسامة داخلية لدى تأمله في اتخاذ خطوة ناجحة أخرى على الطريق ، صحيح أن بيكتون ربما يعتبر جافاً بعض الشيء وهو حزين بسبب ولعه بالخمور ولكنه في نهاية الأمر منصف مثل معظم الرجال وهو أيضاً صاحب مهنة . له عقل ممتاز في داخل إطار العنف . ودائماً ما كان ميشا جافرون يقول إنه تعلم منه الكثير .

الفصل التاسع عشر

كان الموقف يتمثل في العودة إلى لندن والانتظار . على مدى أسبوعين ممطرين من أيام الخريف ومنذ أن أخبرتها هيلجا بذلك النبأ الرهيب ، فإن ذلك الجانب من تشارلز النابع من خيالها دخل في جحيم مرضى مليء بالرغبة في الانتقام، وأخذ يشتعل ويحترق « إننى أعانى من صدمة نفسية، أنا إنسانة فى حالة حداد أنا إنسانة استحواذية غير سوية ، وليس لى صديق يمكننى اللجوء إليه . أنا جندية حُرمت من جنرالها أنا إنسانة ثورية عُزلت وقطعت علاقاتها مع الثورة . حتى كاتى قد هجرتها » . قال لها يوسف فى ابتسامة مسحوبة إلى الداخل : « من الآن فصاعداً ستديرين شئون نفسك بدون مربية . لن ندعك تذهبين إلى كابينات التليفونات مرة أخرى » . كانت لقاءاتهما خلال هذه الفترة نادرة وشبّيهة بلقاءات إنجاز الأعمال حيث يتم التقاطها بالسيارات وفقاً لخطط مسبقة . وهو فى بعض الأحيان يصطحبها إلى المطعم البعيدة التى تقع عند مشارف لندن . وفي إحدى المرات اصطحبها إلى بلاجات بيرنهاام من أجل التريض سيراً على الأقدام ، وفي مرة أخرى اصطحبها إلى حديقة الحيوان . فى كل مكان يوجدان فيه يحدثها عن حالتها الذهنية ودائماً ما كان يحدثها فى اختصار عن الأحداث المتوقعة التى يمكن أن تحدث دون أن يصف لها طبيعة تلك الأحداث .

تساءلت : وما الذى سيفعلونه بعد ذلك ؟

إنهم يقومون ب أعمال الفحص والمراجعة . إنهم يرقبونك . ويفكرون فيك . وفي بعض الأحيان كانت تزعج نفسها بأن تتفجر في مشاعر عدائية نحوه .

ولكنه يسارع إلى التأكيد لها بأن الأعراض تعتبر طبيعية بالنسبة لحالتها . « إنني العدو البديئي أو الأولى . يا إلهي ! لقد قتلت ميشيل ولو كانت قد أتيحت لي شبه فرصة لقتلتك . وينبغي أن تنظرى إلى في هوا جس وشكوك خطيرة . ولم لا ؟ شكرًا للغفران .. هكذا راحت تفكر في تعجب سرى في الواجهات والمظاهر الانهائية للفحصان النفسي التي يشاركان فيها سويا : أن تفهم هو وأن تعفو .

جاء اليوم الذي أُعلن فيه أنه ينبغي عليهما إلغاء أية لقاءات من أي نوع بصفة مؤقتة اللهم إلا إذا حدثت حالة من الطوارئ . كان يبيو أنه يعرف أن هناك شيئاً ما على وشك أن يحدث ولكنه رفض أن يحدثه عن طبيعة ذلك الشيء خشية أن تستجيب على نحو غير ملائم . أو خشية ألا تستجيب على أي نحو على الاطلاق وأخبرها أنه سيكون قريباً منها مذكراً إليها بوعوده في بيت أثينا : قريب - ولكن ليس موجوداً - من يوم إلى يوم . وهو بذلك ربما يكون قد تعمد أن تتواتر حاسة عدم الأمان لديها إلى أن تصل إلى درجة الانهيار تقريباً . لقد أعادها مرة أخرى إلى حياة العزلة التي اخترعها لها ولكن في هذه المرة مع موت حبيبها كلحن رئيسى أو كفكرة أساسية .

أصبحت شقتها التي كانت تحبها ذات يوم تلقى كل الإهمال من جانبها بحيث صارت بمثابة الضريح المهمل لذكرى ميشيل . فالكتب والنشرات التي أعطاها لها ملقاء على الأرضية وفوق المنضدة . وفي الليل عندما يطير النوم من عينيها تجلس إلى مكتبتها وتقوم بكتابة فقرات مقتبسة من خطاباته . تهدف من ورائها إلى حشد أفكار عنه بحيث تظهره على أنه « شى چيفارا » العربي . بل وفكرة فى إجراء اتصالات مع ناشر له آراء متطرفة كانت تعرفه : « خطابات ليلية من شهيد فلسطيني » . كتاب مطبوع على ورق رديء مليء بالأخطاء المطبعية . وكانت تشارلى تدرك أن طبع مثل هذا الكتاب يعتبر أمراً محفوفاً بالجنون . ولكنها كانت تدرك أيضاً أنه بدون الجنون لا توجد هناك سلامـة عـقل .

كانت نزهاتها ورحلاتها الخلوية إلى العالم الخارجى قليلة للغاية . ولكنها في

إحدى الليالي - ولكن تبرهن لنفسها على أنها مصممة على حمل لواء ميشيل إلى المعركة نيابة عنه إذا ما أمكنها فقط العثور على ميدان معركة - حضرت اجتماعاً للرفاقي تُمَّ في الغرفة العلوية لحانة بشارع القديس بانكراس . وجلست مع فريق «المجانين» ومعظمهم كانوا في حالة غير طبيعية ألا أنها أدركت حقيقة الأمور ومراميها الخفية . لقد أثارت الرعب في نفسها وفي نفوسهم عندما ألقى خطبة رائعة ضد الصهيونية المتمثلة في كافة تجلياتها الفاشية وأساليبها المتسنة بالإبادة الجماعية . مما أدى إلى ظهور إحتجاجات عصبية من ممثلِيِّ الجناح الأيسر اليهوديِّ الراديكاليِّ .

وفي أوقات أخرى أظهرت إزعاجها الراديكالي فيما يتعلق بمستقبلها الفني - ما الذي حدث بالنسبة للاختبارات التي تمت بشأن العمل في السينما؟ يا نيد إنني بحاجة إلى العمل ! بحق السماء ، ولكن حقيقة الأمر أن حماستها تجاه المسرح الاصطناعي كان آخذًا في الانحسار والذبول . إذ كانت قد بدأت ترتبط بمسرح الحياة الواقعية على الرغم من المخاطرة المتزايدة التي تكتنفه وتحدق به .

وبعدئذ بدأت التحذيرات في الظهور مثل أصوات الصرير التي تصدر عن حبال الأشرعة والصوارى لدى اقتراب هبوب عاصفة بحرية .

..

جاء التحذير الأول من جانب نيد كويالى المسكين ، إذ اتصل بها تليفونياً في وقت مبكر للغاية بالنهار بما يتعارض مع عادته في الاتصال بها ، حيث إنه معتاد أن يتصل بها في أوقات متاخرة كان من الواضح أنه يرد على المكالمة التليفونية التي أجرتها معه في اليوم السابق . إلا أنها أدركت على الفور أن ذلك كان شيئاً ناجماً عن إصدار «مار جوري» الأوامر له بأن يفعل ذلك في اللحظة التي يصل فيها إلى مكتبه - قبل أن ينسى أو قبل أن تضعف عزيمته أو قبل أن ينخرط في تناول الخمور قال كويالى إنه ليس لديه شيء يقوله لها . لكنه يرغب في إلغاء طعام غدائهما في ذلك اليوم . ردت عليه قائلة بأنه لا توجد مشكلة في ذلك حاولت

إخفاء مشاعر الإحباط التي هبطت عليها لأنهما اتفقا على تناول الغداء سوياً بمناسبة الاحتفال بانتهائهما من رحلتها مع التطرق إلى ما ينبعى عليها أن تفعله بعد ذلك . كانت تتطلع بالفعل إلى حفلة الغداء من حيث هي متعة تقدمها لنفسها .

قالت في إصرار : « ذلك شيءٌ ظريفٌ للغاية » وانتظرت منه أن يسوق الأعذار ولكنه بدلاً من ذلك قال كلاماً يتسم بالغباء والوقاحة .

قال في غطرسة : لا أظن أن ذلك من الأمور المناسبة في هذه المرة .

يا نيد . ماذا في الأمر ؟ لسنا الآن في فترة الصوم الكبير . ماذا دهاك ؟ ما الذي أصابك ؟ ولكن طيشها الزائف الذي تهدف من ورائه إلى تسهيل الأمور بالنسبة له لم يؤد إلا إلى حفزه إلى المزيد من الافتخار بأهميته الذاتية .

ثم بدأ يقول من فوق منبره العالى : يا تشارلى أنا لا أعرف الأمور التي كانت تشغلك وتستحوذ على تفكيرك . لقد كنت شاباً صغيراً في يوم ما ولم أكن ضيق التفكير على النحو الذي تظنينه ، ولكن لو أن نصف ما يتم الإيعاز به صادق فلا يسعنى إلا أنأشعر أنتى أنا وأنت يمكن لنا أن نفعل أموراً أفضل بالنسبة لكلا الجانبين . ولسوف أؤجل الموعد المرتقب بيننا إلى أن تعودى إلى طريق الرشاد وتفوقى من حالة الإغماء . وعند هذه النقطة ووفقاً لسيناريو «مارجوري» ينبعى عليه أن ينهى المحادثة التليفونية بأن يضع السماعة وقد تم ذلك بالفعل . فأجرت اتصالاً تليفونياً معه على الفور فردت عليه أليس . وهو ما كانت تريده .

- ماذا في الأمر ؟ ولماذا حصلت أنا على هذه الأنفاس الرديئة فجأة ؟

فقالت أليس بصوت منخفض للغاية لأنها كانت تخشى أن يكون التليفون موضوعاً تحت المراقبة « أوه تشارلى . ما هي الأمور التي كنت مشغولة بها ؟ فالشرطة جاءت هنا وأمضت الفترة الصباحية بأكملها بسبب أمور تتعلق بك .

قالت في شجاعة : حسناً ، سُحْقاً لهم .

وقالت لنفسها : هذه إحدى المراجعات والتقييمات الموسمية التي يقومون

بها . ففرقة المباحث السرية يُقْحِمُون أنفسهم وهم يرتدون أحذية ذات مسامير غليظة في النعل من أجل استكمال الملف الخاص بها قبل حلول الكريسماس . لقد اعتابوا أن يفعلوا ذلك على فترات دورية منذ أن بدأت هي في الذهاب إلى المؤتمرات الجماهيرية . وفيما عدا ذلك فإن الأمر لم يهد شبيها بالروتين . ليس فترة صباحية بأكملها وثلاثة منهم في آن واحد . فذلك أمر يتعلق بالشخصيات البالغة الأهمية » . V.I.P. « .

وبعد ذلك جاء موضوع محل الكواifer .

لقد حددت موعدا لتصنيف شعرها في الساعة الحادية عشرة . وقد التزمت بذلك الموعد . كانت صاحبة هذا المحل سيدة إيطالية كريمة الخلق تسمى بببي . تجهمت عندما شاهدت تشارلى تدخل المحل وقالت إنها ستقوم بتصنيف شعر تشارلى بنفسها اليوم .

تساءلت وهي تضع الشامبو على شعر تشارلى : أكنت تضطجعين مع شخص متزوج مرة أخرى ؟ أدركتن أنك لا تدينين إنسانة ملتزمة بالأخلاق الحميدة ؟ لقد كنت إنسانة رديئة لأنك سرقت زوج إنسانة ما ؟ ما هسدا الذي تفعلينه يا تشارلى ؟ .

وعندما ضيق تشارلى الخناق على بببي ، قالت هذه أن ثلاثة من الرجال جاءوا إليها بالأمس . وقالوا إنهم من مفتشي الضرائب ويرغبون في عمل مراجعة على دفتر الحجوزات والمواعيد الخاصة بدعك بببي ، علاوة على مراجعة دفاتر الحسابات الخاصة بها من أجل معرفة القيمة المضافة .

إلا أن كل ما كانوا يريدون معرفته كان يتعلق بتشارلى .

قالوا لي من تكون تشارلى التي يوجد اسمها هنا ؟ هل تعرفينها معرفة جيدة يا بببي ؟ فقلت لهم « إننى أعرفها بكل تأكيد . فتشارلى فتاة طيبة ومنتظمة فى مواعيدها » . أوه . أهى منتظمة فى مواعيدها ؟ وهل هى تححدث معك عن أصدقائهما وعشاقها ؟ ومن هم هؤلاء العشاق الذين حصلت عليهم ؟ وأين تنام هى

في هذه الأيام ؟ وتحذوا عن الأجازة التي قمت بها - ومن هم الناس الذين ذهبت معهم لقضاء الأجازة . وما هي الأماكن التي ذهبت إليها بعد أن غادرت اليونان .. فلم أزورهم بأية معلومات ويجب أن تبقى في كلام بيبي . ولكن عند الباب وبعد أن قامت تشارلى بتسيديد فاتورة الحساب في أمن وأمان ظهرت المشاعر الرديئة على وجه بيبي لأول مرة حيث قالت « لا داعي لأن تجيئي إلى هنا لبعض الوقت . هه ؟ فائنا لا أحب المتابع . ولا أحب الشرطة » .

- ولا أنا ياببيبي . صدقيني أنا لا أحب الشرطة .

ثم جاء موضوع الصبي الجميل بعد ساعتين . لقد شرعت في السير على الأقدام رغم المطر الغزير المنهمر ، كانت تؤمن بالفكرة السخيفة التي تقول إنها تصبح في حالة من الأمان والأمان أثناء سيرها على الأقدام وتصبح في مزيد من الأمان عندما يكون المطر منهمراً . ثم غيرت رأيها وقفزت إلى داخل أوتوبيس . ولكنها عندما ألقت نظرة إلى رصيف المغادرة ، شهدت رجلاً يدخل في سيارة أجراة على مسافة ٥٠ ياردة خلفها .

وفي هلع فكرت في أن تفر هاربة إلى دكان الترزي وتطلب التحدث مع يوسف على الفور . إلا أن ولاعها له منعها من اتخاذ هذه الخطوة . فهي تحبه بدون خجل وبدون أمل . ففي هذا العالم الذي قلبه رأساً على عقب من أجلها كان هو بمثابة الشخص الوحيد الدائم الباقي لها سواء في الرواية الخيالية أو في الحقيقة الواقعة .

لذلك ذهبت إلى السينما بدلاً من ذلك . وفي السينما حاول الرجل الجميل أن يلتقطها ، كادت أن تسمع له بالتقاطها .

كان فارع الطول وخبيثاً ومؤذياً . يرتدي معطفاً جلدياً ونظارة . تقدم نحوها أثناء فترة الاستراحة التي تخلل العرض السينمائي . اعتقدت أنها تعرفه ، واجتاحتها اضطراب كبير مما جعلها لا تستطيع تحديد اسم أو مكان خاص به . لذلك ردت على ابتسامته .

صاحب قائلًا وهو يجلس إلى جوارها « هالوا . كيف حالك ؟ أنت شارميان . أليس كذلك ؟ يا الهى . لقد كنت رائعة فى تمثيل دورك فى مسرحية « ألفا بيتا » فى السنة الماضية . أتريدين تناول بعض الفشار .

وفجأة لم تتلاعِم الأمور مع بعضها لم تتلاعِم الابتسامة البهيجَة مع الفك الشبيه بالجمجمة . ولم تتلاعِم نظارة المرضَة مع عيني الفَأْر ولم يتلاعِم الفيشار مع الحذاء اللامع ولم يتلاعِم المعطف الجَلْد مع الطقس . لقد وصل هنا قادماً من القمر . ولا يوجد أى شئ في ذهنه سوى انتزاعها وتمزيقها .

تساءلت : أتريدني أن استدعى المدير أم ستبعد في هدوء ؟

فظل في مكانه ، وراح يحتج ويُسأّلها عما إذا كانت أشبه بسد منيع . ولكنها عندما اندفعت متوجهة إلى الصالة الأمامية اكتشفت أن موظفي السينما اختفوا مثل اختفاء ثلوج الصيف باستثناء فتاة صغيرة سوداء في كابينة صرف التذاكر وقد تظاهرت بأنها مشغولة في عد النقود .

كان ذهابها إلى منزلها يتطلب منها شجاعة تفوق ما تملكه من شجاعة . وعلى طول الطريق إلى منزلها راحت تدعوا الله أن تنكسر ساقها أو يدهمها أتوبيس أو تتعرض لاحدي نوبات الإغماء التي تهاجمها من وقت لآخر . وكانت الساعة قد بلغت السابعة مساءً . وكانت المقهي في حالة من الهدوء المؤقت . وابتسم لها رئيس الطهاة ابتسامة مشرقة . ولوح لها مساعد رئيس الطهاة بيده كما لو كانت معتوهة . وفي داخل شقتها لم تقم بإضاءة الأنوار . واكتفت بالجلوس على السرير ، وترك الستائر مفتوحة . راحت ترقب من خلال المرأة الرجلين الموجودين على الرصيف المقابل وهما يتسلكان ولا يتحدين أبداً مع بعضهما البعض ولا ينظران أبداً في اتجاهها . كانت خطيبات ميشيل مازالت موجودة تحت أخشاب أرضية الغرفة . ومع هذه الخطيبات يوجد جواز السفر الخاص بها وما يتبقى من الاعتماد المالي الخاص بكفاحها . لقد حذرها يوسف في الخطبة التي ألقاها عليها فيما يتعلق

بوضعها الجديد الذى طرأ عقب موت ميشيل : إن جواز سفرها أصبح الآن بمثابة وثيقة خطيرة ... وما كان ينبغي على ميشيل أن يدعك تستخدمين جواز السفر هذا وأنت تقودين السيارة ... إن جوازك ينبغي أن يوجد فى الحفظ والصون مع باقى أسرارك الأخرى .

وانصب تفكير تشارلى على : سيندى .

إنها فتاة متشردة تعمل فى نوبة المساء بالدور الأرضى . وكان عشيقها الهندي الغربى موجود فى السجن بتهمة الإساءة الجسدية البالغة . وكانت تشارلى تعطىها دروسا خصوصية مجانية فى العزف على الجيتار من وقت لآخر لكي تساعدها على قضاء أوقات الفراغ .

وحررت تشارلى رسالة اليه : ياسيندى . توجد هنا هدية عيد ميلاد من أجلك . عليك أن تأخذى هذه الهدية وتنقلها إلى منزلك وتمارسى العزف عليها إلى أن تصابى بالإغماء . فأنت موهوبة . لذلك لا تتوقفى عن العزف . وخذى الصندوق الموسيقى أيضاً . لقد تركت المفتاح فى منزل أمى ولكننى سأحضر المفتاح عندما أقوم بزيارة أمى فى المرة القادمة . مع خالص حبى وتقديرى ، تشارلى .

كان صندوق الموسيقى مملوكاً لوالدتها . فقامت بوضع خطابات ميشيل فى ذلك الصندوق . كما وضعت فيه نقودها وجواز سفرها والكثير من النوت الموسيقية . ثم حملت الصندوق والجيتار إلى الدور الأرضى . ثم قالت لرئيس الطهاة « هذه الأشياء من أجل سيندى » فانفجر رئيس الطهاة فى نوبة من الضحك . ووضع الأشياء فى دورة مياه السيدات المليئة بالزجاجات الفارغة .

وعادت تشارلى إلى الدور العلوى . وأضاعت الأنوار . وجذبت الستائر . وارتدى الزى الرسمى الكامل لأن الليلة هى ليلة بيكمام . ولن يتمكن كل رجال الشرطة فى العالم ولا كل عشاقها المرضى من منعها من عمل البروفات مع أولادها الصغار من أجل المسرحية الصامتة [البانتوميم] الخاصة بهم . ورجعت إلى منزلها عقب الساعة الحادية عشرة مباشرة . كان الرصيف شاغراً . فأخذت

سيندى صندوق الموسيقى والجيتار . ثم اتصلت تليفونيا بـ «آل» لأنها في مسيس الحاجة لأى رجل . ولكن أحداً لم يرفع السماعة ليرد عليها . لقد خرج ابن الحرام للصلعة مرة أخرى . وحاولت الاتصال تليفونيا باثنين من الرجال القدامى . ولكن بدون جدوى . وبينما هي على وشك النوم في سريرها ألقت نظرةأخيرة من النافذة . وعندئذ شاهدت حارسيها وقد عادا إلى موقعهما على الرصيف .

وفي اليوم التالي لم يحدث أى شيء باستثناء أنها عندما قامت بزيارة لوسى على أمل أن تتعثر على «آل» عندها ، أخبرتها لوسى أن «آل» اختفى من على وجه الأرض واتصلت تليفونيا بالشرطة والمستشفيات . عندما رجعت إلى شقتها كان «آل» العجوز الرهيب على التليفون وهو في حالة من الهisteria الكحولية .

تعالى إلى على الفور . عليك فقط بالمجن فوراً .

وذهبت إليه .

..

كان المقام قد استقر «بآل» عند ويللى وبولى اللذين لا يفترقان أبداً . ووصلت إلى هناك لتكتشف أنه أنشأ نادياً كاملاً من المؤيدين . وكان روبرت قد أحضر صديقة جديدة له . وهي فتاة بلاء تصبغ شعرها باللون البنفسجي وتضع على شفتيها مادة بيضاء تسمى سماتنا . وكالمعتاد راح «آل» يتزعم المجموعة . وصرخ لدى دخول تشارلى قائلاً : وأنت يمكنك أن تخبريني بالأمور التي تحبينها ! هذه حرب ! نعم هذه حرب !

ظل منفعلاً في غضب إلى أن صرخت تشارلى في وجهه : اخرس .
واخبرنى ماذا حدث .

- ماذا حدث أيتها الفتاة ؟ ماذا حدث ؟ إن ما حدث هو أن الثورة المضادة أطلقت أول انفجار لها . وكان الهدف منصبا على «چوصوب» هنا !

ثم صرخت فى وجهه مرة أخرى . ولكنها كادت تصاب بالجنون قبل أن تتمكن من انتزاع الحقائق منه .

عندما خرج « آل » من الحانة هاجمه الفدائيون الثلاثة . كان بمقدوره أن يتغلب على شخص واحد أو اثنين . ولكنهم كانوا ثلاثة أشداء مثل برينجتون روك اللعين الدموى . راحوا يتناوبون عليه كفريق عمل موحد . وعندما تمكنا من وضعه فى سيارة الشرطة بعد أن أصبح مشوها وشبه مخصوصاً أدرك أنهم خنازير يتهمونه كذباً بالبذاعة .

وهل تعرفين ماذا يريدون كانوا يريدون التحدث عنك أيتها الفتاة ! وعن اتجاهاتنا السياسية اللعينة ! وهل يوجد من بين أصدقائنا ومعارفنا أشخاص نشطاء فلسطينيون ؟ قالوا إنهم سبقتدعون أظافر أصابعى الواحد تلو الآخر ويضعوننى فى السجن لمدة عشر سنوات بتهمة قيامى بتدبير مؤامرات مناهضة للسلطات الحاكمة بالاشتراك مع أصدقائى الراديكاليين فى الجزر اليونانية لقد حدث بالفعل أيتها الفتاة ! ولذلك فنحن الموجودون فى هذه الغرفة نعتبر بمثابة خط المواجهة أو الخطوط الأمامية .

كانوا قد صفعوه بعنف شديد على أذنه فلم يعد يمكن من سماع نفسه عندما يتكلم . وسببو له كدمات لعينة فى ذراعه . واحتفظوا به فى السيارة الفان لمدة ٢٤ ساعة وراحوا يستج gioونه لمدة ست ساعات . وعندما طلب منهم إعطاءه دليل التليفونات أدعوا أن الدليل ضائع ، وذلك لكي لا يتمكن من الاتصال بوكيله . وبعد ذلك وعلى نحو غير قابل للتفسير أسقطوا تهمة البذاعة وسمحوا له بالانصراف مع توجيه التحذيرات له .

كان هناك صبي يدعى ماتيو ضمن هذه الشلة . وكان يمتلك شقة . دُهش عندما ذهبت تشارلى إلى شقته وضاجعته . وفي اليوم التالي لم تكن هناك بروفات لذا فكرت تشارلى في زيارة والدتها . ولكنها عندما استيقظت في فترة الظهيرة من

نومها فى سرير ماتيو أصبحت لا تشعر بالرغبة فى الزيارة . ولذلك اتصلت تليفونيا بوالدتها وألغت الزيارة . وعندما وصلت إلى خارج مقهى جونيز وجدت سيارة شرطة واقفة عند حافة الطريق . كما شاهدت رقيب شرطة مرتدية الذى الرسمى عند المدخل بينما راح رئيس الطهاة الواقف إلى جواره يبتسم ابتسامة متسمة بالخجل .

كان رقيب الشرطة من النوع الذى يكره العالم كله ، إلا أن كراهيته تنصب أكثر على الهنود والفتيات الجميلات . وقال لشارلى فى حدة : المقهى مغلق بصفة مؤقتة . ابحثى عن أى مكان آخر .

إن موت الحبيب يولد ردود الفعل الخاصة بذلك الموت . فتساءلت فى ذعر : هل مات شخص ما ؟

لم يخبرونى بأن شخصا ما مات . ولكن تحوم الشكوك حول لص شوهد فى المبنى ويقوم ضباطنا بالفحص . والآن أذهبى واغربى عن وجهى .

لعله كان فى الخدمة لفترة طويلة مما جعل النوم يداعب عينيه . وربما لم يكن يعرف كيف أن الفتاة المتهورة يمكنها أن تفك بسرعة فتهرب من الأخطار بسرعة . وعلى كل حال فإنها كانت تحت حراسته . وتمكنت من الدخول إلى المقهى فى لمح البصر وضفت الأبواب خلفها أثناء انطلاقها فى الجرى . كان المقهى شاغرا . وكان الباب الأمامي مغلقا . إلا أنها تمكنت من سماع أصوات رجال يتحدثون من خلال الباب . وفي الدور الأرضى راح رقيب الشرطة يصرخ ويطرق الباب فى عنف . سمعته يقول « أنت . توقفى عن ذلك . أخرجى » ولكن صوته كان خافتا . وراح تفك : المفتاح . ثم فتحت حقيبة يدها . فشاهدت تلفيحة الرأس البيضاء . فوضعتها على رأسها . مجرد تغيير بسيط بين المشاهد المسرحية . ثم ضغطت على الجرس مرتين . ثم دفعت لسان صندوق الخطابات .

– تشارلى ؟ هل أنت موجودة بالداخل ؟ أنا ساندى .

توقف هدير الأصوات فجأة . ثم سمعت وقع أقدام وهمسا يقول « هيا . أسرعوا » . وفتح الباب ووجدت نفسها تحملق في عيني رجل ضئيل الحجم رمادي الشعر يرتدي بدلة رمادية ويميل إلى التوحش . واستطاعت أن تشاهد خلفه القطع الأثرية الغالية الخاصة بميشيل حيث كانت مبعثرة في كل مكان . كما شاهدت سريرها مقلوباً وملصقاتها التي أنزلت من على الحوائط، وسجادتها التي طويت بالإضافة إلى فتح الألواح الخشبية الموجودة في الأرضية . كما شاهدت كاميلا فوق حامل وقد اتجهت عدستها إلى أسفل . كما رأت رجلاً ثانياً يحملق من خلال العدسة بينما العديد من خطابات أمها قد نشرت تحتها . شاهدت أزميلات ومناقشات وكماشات صغيرة بالإضافة إلى مشاهدة عشيقها المرتقب من السينما مرتدية نظارته وراكعاً بين كومة من ملابسها الغالية الجديدة . وأدركت من أول لحظة أنها لم تعرقل عملية فحص الأشياء ، وإنما عرقلت اقتحام الشقة في حد ذاته . وقالت أنتي أبحث عن أخي شارميان فمن تكونون بحق الجحيم ؟

قال الرجل ذو الشعر الرمادي : « إنها ليست موجودة هنا » . لاحظت أن بفمه آثار خدوش . ظل ينظر إليها في تفاسير . ثم قال في حدة صارخة : أيها الرقيب ماليس . أخرج هذه السيدة من هنا . ودون بياناتها التفصيلية !

وأغلق الباب في وجهها . ومن أسفل كان بمقدورها سماع رقيب الشرطة المشئوم ، وهو ما زال يصرخ ويولول . ونزلت في هدوء على السلالم وحشرت نفسها بين صناديق الورق المقوى واتجهت نحو باب الفناء . فوجده مغلقاً بالترباس . أفضى الباب إلى مجموعة من الاسطبلات . التي تؤدي إلى الشارع الذي تعيش فيه الآنسة نوبير . وعندما مررت تشارلى بجوار نافذتها طرقت على النافذة وألقت عليها التحية . كيف فعلت ذلك ومن أين حصلت على هذه المهارة ؟ . ذلك ما لن تعرفه أبداً . ظلت مستمرة في سيرها إلا أنه لم يتراهم من ورائها وقع أقدام ولا هدير أصوات غاضبة . بل لم تطلق سيارة صرخات في ذعر إلى جوارها . حتى بلغت الطريق

الرئيسى . وفي مكان ما أثناء سيرها على الطريق ارتدت فردة واحدة من القفاز الجلدى حيث سبق أن طلب منها يوسف أن تفعل ذلك إذا أثاروا ذعرها . ثم شاهدت سيارة تاكسي شاغرة . فنادت عليها . وراحت تفك فى ابتهاج : أنا حرة الآن . ثم خطر على ذهنها أنهم تعمدوا أن يتركوها تذهب وشأنها .

كان يوسف قد اتخذ قراراً بعدم استخدامها لسيارتها الفيات . رغم أنها كانت تدرك أنه على حق . ولذلك راحت تتحرك على مراحل ودون اللجوء إلى التسرع . وهى تقنع نفسها بالتحدث مع نفسها بصوت عالٍ . قائلة بعد التاكسي نأخذ الأتوبيس ثم نسير قليلاً على الأقدام ثم نواصل باستخدام مترو الأنفاق . كانت تتمتع بذكاء خارق . لكن ينبغى عليها أن تضع أفكارها فى الاتجاه الصحيح . تدرك أنه ينبغى عليها أن تتحكم فى ردود أفعالها قبل أن تتخذ خطواتها التالية . لأنها إذا أخطأت فى ذلك فسوف تفشل فى أداء دورها فى المسرحية . لقد حدثها يوسف عن ذلك وصدق كلامه .

أنتى مثل مجرمة تلوذ بالفرار . إنهم يقتلون أثرى . يا الهى ما الذى أفعله يا هيلج ؟

يمكن لك الاتصال برقم التليفون فى حالات الطوارئ القصوى ياتشارلى وإذا اتصلت تليفونيا بدون أن تكون هناك حاجة ملحة تستدعي ذلك فأننا سنغضب بشدة أتسمعيننى ؟

نعم يا هيلج . إنتى أسمعك .

وجلست فى أحدى الحانات . وتناولت كأسا من الفودكا التى يفضلها ميشيل وراحت تتذكر باقى النصائح التى قالتها هيلجا بينما توارى ماستاربين فى السيارة . تأكدى أن أحداً لا يرقبك ويتبعدك . لا تستخدمي تليفونات الأصدقاء أو العائلة : لا تستخدمي مقصورة التليفون الموجودة على ناصية الشارع أو عبر الطريق أو فى أول الشارع أو فى نهاية الشارع الذى توجد فيه شقتك .

أبداً . أبداً . هل تسمعيننى ؟ فهم جميعاً خطرون للغاية . هؤلاء الخنازير

يمكنهم وضع كبسولات تَتَصَّتُ في أي تليفون في ثانية واحدة لا تستخدمني أي تليفون مرتين على الإطلاق . هل تسمعيني يا تشارلى ؟ .

إنى أسمعك تماما يا هيلج .

وخطت إلى الشارع وشاهدت رجلاً يحملق في فاترينة دكان غير مضاعة . كما شاهدت رجلاً آخر يتسلع ويمشي الهويني بعيداً عن الرجل الأول حيث كان يتجه نحو سيارة تقف في المكان المخصص لوقف السيارات وهي سيارة مزودة بـ إيرال هوائي . لقد اجتاحتها الرعب الآن . كان رعباً هائلاً حتى أنها كانت ترحب في الاستلقاء في أنين على الرصيف مع الاعتراف بكل شيء والتوصل إلى العالم الذي يعود بها ويرجعها . كان الناس أمامها مرعبين تماماً مثل الناس الذين خلفها . وكانت الخطوط الشبحية للحاجز الحجري عند حافة الطريق تؤدي إلى نقطة رهيبة تؤدي إلى نقطة التلاشي لكيانها بأكمله . راحت تتسلل : هيلجا . اخرجيني من هذا الذي يحذق بي . وصعدت إلى أتوبيس في الاتجاه الخاطئ . وانتظرت ثم صعدت إلى أتوبيس آخر . ثم سارت على الأقدام مرة أخرى . لكنها أحجمت عن استخدام مترو الأنفاق . لأنها تعتقد أن وجودها تحت الأرض يسبب لها الذعر لذلك استقلت تاكسي للمرة الثانية . وراحت ترقب الشارع من خلال الزجاج الخلفي للتاكسي . لا أحد يرقبها ويتبعها . إذا كان الشارع شاغراً . سحقاً للمشي وسحقاً لخطوط مترو الأنفاق وسحقاً للأتوبيسات .

قالت لسائق التاكسي : « بيكهام » واتجهت إلى البوابات ذات الديكورات الحديثة .

كانت الصالة التي استخدموها من أجل إجراء البروفات تقع في الجزء الخلفي من الكنيسة . وهي مكان يشبه الشونة ويجاور ساحة اللعب التي حطمها الأولاد منذ فترة طويلة . ولكن تحصل تشارلى إلى الصالة كان عليها أن تسير في ممشى تصطف على جانبيه أشجار الطقوس الصنوبرية . لم تكن هناك أنوار مضاعة ولكنها ضغفت بأصابعها على الجرس بسبب لوفتي الملائم المعزل . إنه

الحارس الليلي . ولكنه منذ حذف بعض المشاهد والأجزاء أصبح يجيء ثلاثة ليالٍ أسبوعياً على الأكثر . ولكن أحداً لم يرد على الجرس . فقامت بفتح الباب بالفتاح وخطت إلى الداخل . وعندئذ ذكرها الهواء البارد الموجود بالداخل بالكنسية الكورنيشية التي ذهبت إليها عقب وضع أكاليل الزهور على قبر الإنسان الثورى المجهول . وأغلقت الباب ورائحتها وأشعّلت عود كبريت . فرفف اللهيب فوق الرقائق المطاطية الخضراء التي تكسو الأرضية والقبو العالى للسقف . وراحت تنادى بصوت متناغم من أجل رفع معنوياتها « يا لوفتى » . وانطفأ عود الكبريت . ولكنها وجدت سلسلة الباب فازاحتها قبل أن تشعل عود الكبريت آخر . وراحت أصوات صوتها ووقع أقدامها ورنين السلسلة تتلاطم في جنون على مدى ساعات .

وراحت تفكّر في الخفافيش وغيرها من الأشياء البغيضة للغاية . وراحت تفكّر في أعشاب البحر التي تتجذب عبر وجهها . كانت السلالم ذات الدرازين الحديدى تؤدى لأعلى إلى رواق صنوبرى يعرف باسم « الغرفة العمومية » . وهى غرفة تذكرها بمشييل منذ أن قامت بتلك الزيارة السرية لشقة ميونيخ أمسكت تشارلى بالدرابزين وصعدت على السلالم . ثم وقفت بدون حراك في الرواق بين ظلام الصالة . وراحت تصفي بينما أخذت عيناها تتبعوان على الظلام . وتبيّنت الخطوط الخارجية لخشب المسرح . ثم السحب المتلاطمة المخدرة لستارة المسرح الخلفية وتمكنـت من مشاهدة جمالونات السقف . ثم التقطت التوهج الفضى للكشاف الضوى المسـرحـى الوحـيد . وهو بمثابة مصباح أمامي لسيارة تم تحويله إلى كشاف مسرحي بمعرفة ولد باهامى يسمى جامـز . كان قد استخرج مصباح السيارة من مقلب نفايات السيارات القديمة . وهناك كتبـة قديمة في الرواق . وإلى جوارها منضدة ذات قرص بلاستيك شاحـب ينعكس عليه توهج المدينة المتـسربـ من خـلال النـافـذـة . وفـوقـ المـضـنـدةـ يوجدـ التـليفـونـ الأـسـودـ الذـىـ لاـ يـسـتـخدـمـهـ الاـ طـاقـمـ العـاملـينـ فقطـ .

جلست تشارلى على الأريكة ، وانتظرت حتى استرخت بطنها . وهبط معدل نبضات القلب عندها إلى أقل من ٣٠٠ نبضة . ثم رفعت التليفون وحامل السماعة

في أن واحد ووضعهما على الأرضية تحت المنضدة . وأدارت القرص . ثم ترجمى إليها الصوت الحاد لهيلجا التى شرعت فى التكلم باللغة الألمانية .

قالت تشارلى : أنا جان دارك . هل تذكرينى ؟ ثم تلقت صمتا يتسم بالاستغراق فى التفكير .

- أين أنت يا جان ؟

- لا تتدخل فيما لا يعنيك .

- هل أنت تواجهين مشكلة يا جان ؟

- في حقيقة الأمر لا أواجه مشكلة . أردت فقط أنأشكرك لأنك أحضرت الخنازير إلى عتبة بابى الخارجى .

.....

وداحت هيلجا تستمع إليها فى صمت حتى النهاية . ثم قالت عندما خيل إليها أن تشارلى قد انتهت تماما من كلامها « أين أنت الآن » . وكانت تتكلم على الرغم منها كما لو كانت تخرق القواعد والقوانين الخاصة بها .

قالت تشارلى : انس هذا الموضوع .

- هل بالإمكان الوصول إليك فى أى مكان ؟ أخبريني أين ستكونين فى خلال الـ ٤٨ ساعة القادمة .

- لا .

- أيمكنك أن تتصل بي مرة أخرى بعد ساعة ؟

- لا أستطيع ذلك .

وسادت فترة طويلة من الصمت . ثم تسائلت هيلجا :

- أين الخطابات ؟

- فى أمن وأمان .

وأسادت فترة صمت أخرى . ثم قالت هيلجا : أحضرى ورقة وقلماً .

- لست بحاجة لإحضار ورقة أو قلم .

- لابد أن تحضرى ورقة وقلماً . فأنت لست في حالة تساعدك على التذكر على نحو دقيق . هل أنت مستعدة الآن ؟

- لا عنوان . ولا رقم تليفون . وإنما اتجاهات شارع ووقت محدد والطريق الذي ينبغي عليها أن تسلكه .

- أفعلى على وجه الدقة ما أقوله لك . فإذا لم تستطعي تنفيذ ما أقوله لك . وإذا واجهت المزيد من المشكلات . اتصل بـ رقم التليفون الموجود في البطاقة الخاصة بأن تكون قولى إنك ترغبين في الاتصال بـ بيتر وأحضرى الخطابات . هل تسمعيننى ؟ بيتر وأحضرى الخطابات . وإذا لم تحضرى الخطابات سنشعر نحوك بالغضب والضيق الشديد .

ووضعت تشارلى سماعة التليفون . ثم سمعت صوت يدين تصفقان في خفة . حيث ترامى التصفيق من قاعة الاستماع بالدور الأرضى . فاتجهت نحو حافة الشرفة . وراحت تنظر . فاجتاحتها غبطة هائلة عندما شاهدت يوسف جالساً بمفرده في منتصف الصف الأول . ثم استدارت ونزلت بسرعة على السلالم لكي تقابلها . وعندما وصلت إلى آخر سلمة وجدته وقد فتح ذراعيه لكي يستقبلها بالأحسان . وراح يقبلها . واستمر في التقبيل . ثم عاد بها إلى الرواق وقد لف ذراعه حول خصرها حتى أثناء صعودها على السلالم الضيقة بينما كان يحمل سلة في يده الأخرى .

كان قد أحضر معه سلمون مدخن وزجاجة من الخمور ووضعها على المنضدة بدون أن يفك الأغلفة التي تربطها .. وكان يعرف المكان الذي فيه الأطباق تحت حوض الغسيل بالإضافة إلى معرفته كيفية توصيل النيران الكهربائية إلى جهاز الطهو . كان قد أحضر معه «ترموس» مليئاً بالقهوة بالإضافة إلى إحضار بطانيتين

من فوق السرير الموجود بالدور الأرضي . ثم استدار ليقوم بالمراجعة على الأبواب الضخمة مع غلقها بالترابيس من الداخل . ثم جلس إلى جوارها على الأريكة . ووضع بطانية على جسدها لأنها كانت ترتعش بشكل متواصل بسبب برد القاعة . لقد سببت لها المكالمة التليفونية مع هيلجا ذعراً شديداً . بالإضافة إلى أن عيني رجل الشرطة الذي وجد في شقتها سبب لها الكثير من الخوف .

وكان الضوء الوحيد يتراحمى من النيران الكهربائية . وكانت النيران تسقط على وجهه مثل أضواء مقدم خشبة المسرح الشاحبة التي كانت تستخدم ذات يوم في المسارح . تذكرته عندما حدثها في اليونان بأن إنارة الأماكن الأثرية بالضوء الغامر هو بمثابة تخريب متعمد من النوع الحديث . لأن المعابد شيدت من أجل أن تشاهد مع وجود الشمس فوقها وليس تحتها . ولف ذراعه حولها تحت البطانية . قالت له كنوع من لفت انتباهه وتحذيره : لقد انخفض وزنى بشكل كبير .

لم يرد عليها . وضمنها أكثر إليه من أجل أن يسيطر على الرعشة التي تسري في كيانها ويمتص تلك الرعشة ويجعل منه رعشته هو . خطر على ذهنها أنها كانت تعرف دائماً - على الرغم من مراوغاته وتذكراته - أنه في جوهره إنسان طيب ولديه تعاطف غريزى إزاء كل شخص وأنه في الحرب والسلام بمثابة رجل قلق يكره أن يسبب الآلام للآخرين . ووضعت يدها على وجهه وشعرت بالسرور عندما أدركت أنه لم يحلق ذقنه لأنها لم تكن ترغب أن تعرف أنه أعد لكل شيء عدته .

أزاح يدها في رفق وجذبها إليه . وقبل فمها فاستجابت في غير مبالغة . وانتظرت منه أن يشعل العواطف التي كثيراً ما كان يتكلم عنها . كانت تحب معصمييه ويديه ؛ إذ لم تكن هناك أيدٍ لها نفس هذه الحكمة الكبيرة . وراح يلمس وجهها ورقبتها وثدييها . أحجمت عن تقبيله لأنها تريد أن تتذوق كل طعم على حدة : إنه الآن يقبلني . الآن يلمسنـي . الآن يخلع لـي ملابسي . الآن مستلقي بين ذراعـي . نحن عاريان تماماً . ونحن على البلاج مرة أخرى وفوق الرمال . نحن بمثابة اثنين

من المباني المخربة بينما الشمس تحرقنا من أسفل وضحك وتدحرج مبتعدا عنها واتجه عائدا إلى النيران الكهربائية . وهي في كل تجاربها السابقة المتعلقة بالحب لم يسبق أن شاهدت أى شيء في مثل جمال جسده المنحنى فوق وهج النار . عاد إليها . وركع إلى جوارها . وشرع مرة أخرى في التقبيل والتلامس . سرعان ما فقد حياعه . إلا أنه دائما ما كان يعود إلى وجهها لأنهما كانا بحاجة لأن يشاهد كل منهما الآخر إنه الحبيب الذي لا يقارن معه أى حبيب آخر سبق أن تعرفت عليه . كان بمثابة النجم البعيد الذي تهتم به في جميع أرجاء هذه الدولة المتعفنة . وحتى لو كانت هي مكفوفة البصر ل كانت قد أدركت ذلك من خلال لمساته لها .

وأفاقت فوجده جالساً إلى جوارها ينتظرها أن تعود إلى وعيها . كان قد حزم وعبأ كل شيء . قال « إنه ولد » . وابتسم .

فردت عليه قائلة « إنهم توأم » ثم جذبت رأسه لأسفل إلى أن أصبحت رأسه مستندة على كتفها . وشرع في الكلام . إلا أنها أوقفته في تحذير حازم : لا أريد سماع صوت يصدر عنك مثل الصرير . ولا أريد قصصا للاعتذارات . ولا أكاذيب . وإذا كان ذلك جزءا من الطقوس الخدمية فلا تخبرني بذلك . كم الساعة الآن؟

- منتصف الليل .

- إذن . إرجع إلى السرير .

قال : مارتي يريد التحدث معك .

- كان هناك شيء ما في صوته وطريقة إلقاء الكلام جعلها تدرك أن ذلك اللقاء المرتقب ليس من تدبير مارتي ، وإنما من تدبيره هو .

..

إنه المكان الخاص بي يوسف لقد أدركت ذلك بمجرد أن دخلت : حجرة صغيرة مستطيلة الشكل زاخرة بالكتب تقع في مستوى الشارع بها ستائر مزر堪شة .

ومساحة تتسع لمستأجر واحد . وعلى هذا الحائط تتدلى خرائط عن الأماكن الداخلية في لندن . وعلى طول الحائط توجد منضدة مائدة عليها اثنان من التليفونات . والجانب الثالث يشغله سرير مُبيت في جدار الحائط . وعلى الجانب الرابع يوجد مكتب من خشب الصنوبر فوقه مصباح قديم وإناء من القهوة بجوار التليفونين . لم ينهض مارتي لدى دخولها . وإنما اكتفى بالالتفات برأسه نحوها مبتسمًا . وكانت أفضل وأحرًّا ابتسامة حصلت عليها منه في أي وقت من الأوقات . ولكن ربما كان السبب في ذلك أنها كانت تنظر إلى العالم على أنه شفوق للغاية في تلك اللحظات . وفتح ذراعيه لها مرحبا . فانحنت لأسفل . ودخلت في أحضانه الأبوية : ها هي ابنتى قد عادت من أسفارها . وجلست تشارلى في مواجهته بينما جثم يوسف قابعاً على الأرض بالطريقة العربية وبنفس الطريقة التي جثم بها فوق قمة التل عندما جذبها وألقى عليها محاضرة تتعلق بالبندقية .

قال كيرتز مشيراً إلى جهاز تسجيل موجود إلى جواره : أتریدين الاستماع إلى نفسك ؟ لقد كنت رائعة للغاية يا تشارلى . لم يكن ترتيبك الثالث أو الثاني وإنما كان ترتيبك الأول من حيث الأفضلية .

قال يوسف محذراً : إنه يمتدحك في تمثيل . عن من الذي يريد السُّكر .

قال كيرتز : يا تشارلى لك مطلق الحرية في الانسحاب . ويُوسف هنا يصر أنه ينبغي على أن أذكرك بهذا . هأنا أخبرك بصوت مرتفع وفي وضوح شديد : يمكنك أن تذهبى الآن . مع مرتبة الشرف الأولى . أليس هذا صحيحاً يا يوسف . وكمية كبيرة من النقود والشرف . وتحصلين على كل ما وعدناك به بل وأكثر .

قال يوسف : لقد أخبرتها بذلك بالفعل . شاهدت تشارلى ابتسامة كيرتز تزداد اتساعاً . وربما كان ذلك من أجل إخفاء توتره . قال كيرتز : من المؤكد أنك أخبرتها يا يوسف . وأننا الآن أبلغها بذلك أيضاً . أليس ذلك ما تريده مني أن أفعله ؟ يا تشارلى . لقد فتحت لنا غطاء صندوق كامل مليء بالأفاعى والديدان . إنه صندوق ظللنا نبحث عنه منذ زمن بعيد . فأنت قد أزحت الستار عن المزيد من

الأسماء والأماكن والاتصالات . ولسوف يتم الكشف عن المزيد . سواء بك أو بدونك فلأنك ، إلى حد بعيد مازلت نظيفة وحيث توجد أماكن قذرة اعطنا شهوراً قليلة وسنكون قد انتهينا من تنظيفها . فترة تبريد وتهيئة وخذى صديقاً معك - فلأنك تريدين الأمور على ذلك النحو ولك الحق في ذلك .

قال يوسف : إنه يعني ذلك . لا تقولي فقط إنك سوف تستمررين . عليك بالتفكير ملياً .

ومرة أخرى لاحظت مسحة من الضيق في صوت مارتي لدى عودته للهجوم على الموظف التابع له : أعني بذلك بكل تأكيد .

قالت تشارلى متسائلة : إذن أين نحن ؟ وما هي هذه اللحظة ؟

وشرع يوسف في التكلم إلا أن كيرتز سارع إلى الكلام قبله :

- في هذا الأمر يوجد ما هو فوق الخط وما تحت الخط . وحتى الآن يمكن القول إنك فوق الخط ، ولكنك حاولت على كل حال أن ترينا ما يحدث ويدور في الأعماق . ولكن من الآن فصاعداً قد يكون الأمر مختلفاً بعض الشيء . وتلك هي الطريقة التي ندرك بها هذا الأمر . وربما تكون على خطأ . تلك هي الطريقة التي نقرأ بها الدلائل .

إنه يريد أن يقول : إنك حتى الآن كنت فوق أراضٍ تتسم باللود والصداقة . بحيث يمكننا أن نكون قريين منك وبحيث يمكن لنا أن نظهرك للعيان إذا احتجنا ذلك . ولكن من الآن فصاعداً فإن كل ذلك قد انتهى . لأنك سوف تصبحين واحدة منهم . ستشاركين في حياتهم وعقليتهم ومبادئهم الأخلاقية . ولسوف تقضين الأسابيع وربما الشهور بعيداً عنا وبدون أن يكون لك أية اتصالات بنا .

قال مارتي : صحيح ستكونين بعيدة عنا ولكنك لن تكوني في وضع لا يمكننا من الوصول إليك لكننا سنقف من حولك . ويمكنك أن تعتمد علينا .

فتتساءلت تشارلى : وما هي النهاية ؟

ظهر الارتباك على وجه مارتي على نحو مؤقت . ثم قال :

- ما هو نوع النهاية يا عزيزتي - النهاية أو الهدف الذي يبرر هذه الوسائل ؟ لا أظن أنني قد فهمت سؤالك على وجه الدقة .

- ما الذي أبحث أنا عنه ؟ ومتى ستشعرون بالإشباع والرضا والارتياح ؟

قال مارتي في أدب جم ولباقة : يا تشارلى نحن الآن نشعر بالرضى والارتياح بما فيه الكفاية وأكثر . لقد أدركت أنه كان يراوغ ويتملص .

قال يوسف فجأة : « الهدف يتمثل في رجل ». ثم شاهدت تشارلى رأس مارتي تت hollow لكي تواجهه إلى أن أصبح وجهه غير مرئي بالنسبة لها . بدت حملقته وهو يرد على نظرات مارتي الفاحصة مليئة بتحمّلٍ صريح لم يسبق لها أن شاهدته فيه من قبل على الإطلاق .

وقال كيرتز : أخيراً يا تشارلى . الهدف يتتركز على رجل ، وإذا كنت ستواصلين المشوار معنا فتلك أمور سوف ينبغي أن تعرفيها .

فقالت : خليل .

فقال مارتي : هذا صحيح . إنه خليل . فخليل يرأس كل أعمالهم في أوروبا . وهو الرجل الذي ينبغي أن نحصل عليه .

قال يوسف : إنه خطير للغاية .

وأضاف كيرتز : « خليل لا يثق في أى إنسان . ليست له عشيقه منتظمة . ولا ينام أبداً في سرير واحد ليلترين متتابعين . لقد عزل نفسه عن الناس . وخفض من احتياجاتاته الأساسية إلى درجة أنه قد أصبح لديه اكتفاء ذاتي تقريباً . إنه إنسان يدير الأعمال على نحو رائع ». ثم وجه ابتسامة عذبة للغاية إليها . ولكنه عندما أشعل لنفسه سيجاراً آخر فإنها أدركت من خلال اهتزاز عود الكبريت أنه كان غاضباً للغاية في حقيقة الأمر .

لماذا لم يصبها التردد ؟

هبط هدوء غير عادى على كيانها . شعور بالاستبصار وبُعد النظر على نحو يفوق أى شيء عرفته حتى الآن . فيوسف لم يمارس الجنس معها لكي يرسلها بعيداً وإنما كي يجعلها تتراجع عن الأخطار . كان يعاني نيابة عنها من التردد الذى يعتمل فى داخل كيانها . ولكنها تدرك أيضاً من خلال هذا العالم السرى الذى صنعوه من أجلها أن الارتداد على عقبيها يعني الارتداد إلى الأبد . كما تدرك أن الحب الذى لا يحرز تقدما لا يجد نفسه على الإطلاق حيث يصبح محكوما عليه أن يسقط فى حفرة الجودة المعبدلة أو الضئيلة التى أودع فيها العشاق الآخرون أنفسهم منذ أن بدأت حياتها مع يوسف . حقيقة أنه أراد لها أن تتوقف ولكن ذلك يجعلها تتراجع وإنما على العكس من ذلك جعلها تزيد من تصميمها على عدم التراجع . لقد كانا شريكين . كانوا حبيبين . يربطهما بمصير مشترك .

راحـت تسـأـل كـيرـتز عنـ الـكـيـفـيـة الـتـى يـمـكـن بـهـا التـعـرـف عـلـى الفـرـيـسـة الـتـى يـرـاد اـصـطـيـادـهـا . هل هو يـشـبـه مـيـشـيل ؟ كان مـيـشـيل يـهـز رـأـسـه وـيـسـتـفـرـق فـى الضـحـك . « يا عـزـيزـتـى . إـنـه لـم يـقـف مـتـخـذـا وـضـعـا مـعـيـنا لـكـى نـلـقـطـ لـه صـورـا » .

وـيـعـدـئـذـ وـبـيـنـما حـمـلـقـ يـوـسـفـ بـعـيـداً عنـ كـيرـتزـ فـى اـتـجـاهـ النـافـذـةـ نـهـضـ كـيرـتزـ بـسـرـعـةـ وـاسـتـخـرـجـ مـنـ حـقـيـبـةـ جـلـدـيـةـ مـسـطـحـةـ سـوـدـاءـ اللـونـ مـوـجـوـدـةـ بـجـوارـ الـكـرـسـىـ الـذـىـ كـانـ يـجـلـسـ عـلـيـهـ شـيـئـاـ مـاـ يـشـبـهـ عـبـوـةـ مـسـطـحـةـ لـهـ سـنـ كـروـىـ وـمـكـرـمـشـةـ عـنـ طـرـفيـهاـ ،ـ وـلـهـ سـلـكـانـ رـفـيعـانـ لـهـماـ لـوـنـ أـحـمـرـ نـاتـئـانـ مـنـهـاـ مـثـلـ شـوـارـبـ سـمـكـةـ جـرـادـ الـبـحـرـ .ـ قـالـ وـهـوـ يـقـرـعـ بـخـفـةـ باـصـبـعـهـ الغـلـيـظـ عـلـىـ الـعـبـوـةـ :ـ «ـ هـذـاـ هـوـ مـاـ نـسـمـيـهـ الـمـفـجـرـ أـوـ فـتـيـلـ التـفـجـيرـ وـعـنـ النـهـاـيـةـ هـنـاـ تـوـجـدـ سـدـادـةـ الثـقـبـ هـذـهـ .ـ وـيـلـاحـظـ أـنـ الـأـسـلـاكـ قـدـ أـدـخـلـتـ فـىـ الثـقـبـ الـذـىـ يـحـتـاجـ إـلـىـ كـمـيـةـ قـلـيـلـةـ مـنـ الـأـسـلـاكـ أـمـاـ بـقـيـةـ الـأـسـلـاكـ يـتـمـ حـزـمـهـاـ عـلـىـ هـذـاـ النـحـوـ ثـمـ اـسـتـخـرـجـ مـقـصـاًـ مـنـ الـحـقـيـبـةـ وـقـطـعـ بـهـ كـلـ سـلـكـ مـجـدـولـ عـلـىـ حـدـةـ مـعـ الإـبـقاءـ عـلـىـ حـوـالـىـ ١٨ـ بـوـصـةـ فـىـ حـالـةـ مـتـصـلـةـ .ـ وـفـىـ حـرـكـةـ رـشـيقـةـ مـدـرـبـةـ رـاحـ يـلـفـ الـأـسـلـاكـ الإـضـافـيـةـ بـحـيـثـ تـصـبـحـ عـلـىـ شـكـلـ دـمـيـةـ لـهـاـ

حزام كامل . ثم مررها إليها لكي تمسك بها . هذه الدمية الصغيرة هي ما نسميه توقيعه . وكل شخص إن عاجلاً أو آجلاً يكون له بصمته . وذلك هو بصمته .
وجعلته يأخذ الدمية من يدها .

كان لدى يوسف عنوان على تشارلى أن تذهب إليه . قامت السيدة الضئيلة الحجم المرتدية فستانًا بنىًّا باصطحابها إلى الباب لتوديعها . وخرجت تشارلى إلى الشارع فوجدت سيارة أجرة واقفة في انتظارها متأهبة للرحيل وكان الوقت في اللحظات المبكرة من الفجر حيث شرعت العصافير في الغناء .

الفصل العاشر

بدأت في وقت أكثر تبكيرًا عن الوقت الذي حددته هيلجا . وذلك لأنها على نحو ما كانت إنسانة مناضلة لأنها تعمدت أن تغلف نفسها في شكوك شديدة فيما يتعلق بالخطة كلها . كانت قد اعترضت قائلة : « وماذا لو كان التليفون معطلا ؟ فهذه هي إنجلترا يا هيلجا وليس ألمانيا الأكثر كفاءة » . إلا أن هيلجا رفضت التفكير في هذه المجادلات : « نفذى بالضبط الأوامر الصادرة إليك حرفيًا . واتركى كل ماعدا ذلك لي . ولذلك بدأت من شارع جلوشيسنار . وجلست بالدور العلوي . بدلاً من أن تستقل الأتوبيس الأول عقب الساعة ٧,٣٠ استقلت الأتوبيس الذي يغادر في الساعة ٧,٢٠ . وعند محطة مترو الأنفاق على طريق توتنهام كورت رود بدت سعيدة الحظ . إذ توقف قطار لدى وصولها توا إلى رصيف المسافرين المتجهين إلى الجنوب . ونتيجة ذلك اضطررت لأن تجلس كشخص يقنع بمشاهدة الرقص إما حياء وإما لأن أحدا لم يدعه للرقص عند تقاطع الجسر إلى أن اتخذت الوصلة الأخيرة الخاصة بها . وكان الوقت صباح يوم الأحد . وبخلاف عدد قليل من المصابين بالأرق والمتربدين على الكنيسة باستمرار كانت هي الإنسانة الوحيدة المستيقظة في لندن كلها . وعندما وصلت إلى المدينة وجدتها مهجورة تماماً وإن عثرت على الشارع حتى وجدت مقصورة التليفون على مسافة مائة يارد أمامها وفقاً لما قالت هيلجا تماماً ، لقد قالت هيلجا : « عليك أن تسيرى إلى نهاية الطريق ثم تستديرى وتترجعى مرة أخرى » . فنفذت ذلك . ولكنها لدى رجوعها تضاعت عندما شاهدت رجلاً يدخل مقصورة التليفون ويغلق الباب وراءه . فنظرت إلى ساعتها وأدركت أنه مازال أمامها ١٢ دقيقة أخرى لذلك أوقفت نفسها على مسافة أقدام قليلة . وراح تنتظر . وكان قد أعطى ظهره لها وراح يتكلم باللغة الإيطالية على نحو متواصل وبدون توقف .

انقضت سبع دقائق ، ومازال الرجل منخرطاً في تلك المونولوجات الإيطالية العاطفية ، فبدأت تشعر بالتوتر وأخذت تلعق شفتها ، وراحت تنظر في أرجاء الشارع ، ولكن شيئاً لم يكن يتحرك – لا سيارات سوداء ولا رجال في مداخل البيوت والمنازل ولا سيارة مرسيدس حمراء – كانت السيارة الوحيدة التي على مرمى البصر هي سيارة « فان » صغيرة شبيهة بالكهف وذات جوانب مموجة بينما باب السائق ما زال مفتوحاً وهو واقف أمامها مباشرة، بدأت تشعر بأنها عارية تماماً ، وأصبح الوقت الثامنة صباحاً حيث انطلقت تشكيلة مذهلة من الأجراس العلمانية والدينية . كانت هيلجا قد حددت لها الساعة الثامنة وخمس دقائق ، توقف الرجل عن الكلام ، ولكنها سمعت خشخضة النقود المعدنية الموجودة في جيبه لدى بحثه عن المزيد من النقود . ثم سمعت طرقاً خفيفاً لدى محاولته جذب انتباها . فاستدارت وشاهدته وهو ممسك بقطعة نقود من فئة خمسين بنساً في مواجهتها مع ظهور التجاوب على وجهه .. قالت : أتسمح لي بالاتصال أولاً .. فأننا في عجلة من أمرى .

لم يكن يفهم اللغة الإنجليزية .. قالت لنفسها في تفكير : لسوف تضطر هيلجا إلى مواصلة إدارة قرص التليفون ، وذلك هو بالضبط ما حذرتها منه . وراحت تمسك قطع نقود من فئة عشرة بنسات وخمس بنسات إلى أن جمعت خمسين بنساً ، أيها السيد المسيح ، أنظر إلى العرق الموجود فوق أصابعى ، مدت قبضة يدها المغلقة نحوه بينما أصابعها المبللة بالعرق متوجهة لأسفل وفي حركة استعداد لإسقاط النقود في راحة يده اللاتينية . أدركت أنه كان يصوّب مسدساً صغيراً نحوها من بين طيات جاكته الطويلة ، بدا التصويب نحو المكان الذي تتلاقى فيه معدتها مع قفصها الصدري ، كان المسدس في نفس حجم بندقية ميشيل ، ولكن مثلاً قال لها ميشيل من قبل فإن كل بندقية تحمل في اليد تجمع بين مميزات الإخفاء وسهولة الحمل والكافاعة ، ما زال الرجل ممسكاً بسماعة التليفون بيده الأخرى .. افترضت أن شخصاً ما كان لا يزال يصغي عند الطرف

الآخر، لأنه على الرغم من مخاطبته لشارلى في تلك اللحظات كان لايزال يحتفظ بوجهه قريباً من ذلك الجزء من سماعة التليفون الذي يتكلم فيه المرء.

قال موضحاً بلغة إنجليزية جيدة: ينبعى عليك يا تشارلى أن تسيرى إلى جوارى نحو السيارة، مع الالتزام بالسير عند جانبي الأيمن، تسيرى عند جانبي الأيمن مع التقدم أمامى بعض الشئ ووضع يديك خلف ظهرك بحيث يمكن لى مشاهدتها، وتكون يداك متشابكتين خلف ظهرك، هل تفهميتنى؟ إذا حاولت الفرار أو إعطاء إشارة إلى شخص ما أو صرخت طلباً للنجدة سأطلق الرصاص على الجانب الأيسر لك وأقتلك على الفور، وإذا ظهرت الشرطة فى الشارع بطريق المصادفة أو إذا أطلق شخص ما أى رصاصات أو خامرتنى الشوك ساضطر إلى إطلاق الرصاص على جانبك الأيسر.

ثم أضاف كلاماً ما باللغة الإيطالية فى التليفون ووضع سماعة التليفون، وبعده سار خطوة خارجاً إلى الرصيف، وابتسم بكل الثقة فى اللحظة التى أصبح فيها وجهه قريباً للغاية من وجهها، كان وجهها إيطالياً حقيقياً بمعنى الكلمة، بل وكان صوته إيطالياً أيضاً، وتخيلت صوته وهو يتكلم فى غير تكلف عند أماكن الأسواق القديمة مع النساء الموجودات فى الشرفات والبلكونات الخاصة بهن.

قال: هيا بنا .. لا تسيرى بسرعة كبيرة للغاية .. هه؟ سيرى بطريقة لطيفة وسلسة.

قال أثناء سيره خلفها: عندما تجلسين فى الكرسى الأمامى المجاور لمقعد السائق ضعى يديك أمامك على لوحة أجهزة القياس بالسيارة، فالفتاة الموجودة فى المقعد الخلفى بالسيارة تتميز بالسرعة الفائقة فى إطلاق الرصاص على الناس، بل وأسرع منّى.

ففتحت تشارلى الباب الأمامى .. وجلست .. ووضعت أطراف أصابعها على لوحة أجهزة القياس بالسيارة مثل فتاة طيبة تضع يديها على منضدة.

قالت هليجاً فى ابتهاج من خلفها: استرخى يا تشارلى، واحفظى كتفيك،

ابتسماً الآن يا عزيزتي ، استمرى فى الابتسام ، فكل شخص سعيد اليوم ، وأى شخص لا يشعر بالسعادة ينبغى إطلاق الرصاص عليه .

قالت تشارلى : إبدأ بإطلاق الرصاص على .. ودخل الإيطالى الى مقعد القيادة بالسيارة وفتح الراديو على برنامج دينى عن الذات الالهية .
فأصدرت هيلجا أوامرها : اغلق الراديو .

كانت قد حشرت نفسها بين البابين الخلفيين ، ممسكة بالبنديبة بكلتا يديها ، وأغلق الإيطالى الراديو ، وعندما ساد الهدوء بدأ يتكلم مع تشارلى مرة أخرى :
- حسنا ، إذن ارتدى حزام المقعد .. ثم ضعى يديك فى تشابك على حرك انتظرى ، سوف أفعل ذلك ذلك .

التقط حقيقة يدها وقذف بها إلى هيلجا ، ثم أمسك بحزام المقعد وربطه فى غير حرص مما جعل يديه تتلامسان مع ثدييها ، انه فى الثلاثينات من عمره ، وسيم مثل نجم سينمائى ، وفي هدوء شديد أحضر نظارة شمسية كبيرة من جيبه ، ووضعها على عينيها ، فظلت فى بادئ الأمر أنها أصبحت بالعمى الناجم عن الذعر الشديد لأنها لم تستطع مشاهدة أى شىء من خلال تلك النظارة ، وبعدئذ خطر على ذهنها أن النظارة ربما تكون من النوع ذاتى التلاؤم بحيث ينبغى عليها أن تجلس فى هذه وتنتظر لحين انقشاع المنظر أمامها . أدركت بعدئذ أن عدم مشاهدتها لأى شىء هو أمر متعمد .. قال الإيطالى محذرا ايها لدى البدء فى الانطلاق بالسيارة : لو خلعت النظارة ، فسوف تطلق الرصاص على مؤخرة رأسك .

قالت هيلجا العجوز فى ابتهاج : أوه .. ستفعل ذلك بكل تأكيد .

وانطلقوا .. وفي بادئ الأمر كانت السيارة تنطلق فى اهتزاز فوق مسافة ممدهة بالحصى والحصبا ء ثم انطلقت فى سلاسة ، وأصففت تشارلى على أمل سماع صوت سيارة أخرى ، إلا أنها لم تسمع سوى صوت موتور سيارتهم وهى تتكتك وتتمدم عبر الشوارع ، حاولت أن تخمن اتجاه السيارة إلا أنها كانت قد فقدت تماما الإحساس بالاتجاهات ، وعلى نحو فجائى توقفت السيارة ، بدأ

الإيطالي يساعدها على الخروج من السيارة . ثم وضع عصا في يدها فافتراضت أن لونها أبيض ، وبقدر كبير من المساعدة من جانب صديقتها بدأت تتغلب على الخطوات السنت والسلالم الأربع الصاعدة إلى الباب الأمامي لشخص ما ، وجلست على مقعد جلدي بلا ظهر ، وجعلوها تشابك يديها وتضعهما في حجرها مرة أخرى واحتفظوا بحقيقة يدها معهم ، ثم سمعتهم يقلبون محتوياتها فوق منضدة زجاجية مما أحدث رنينا عندما هبطت مفاتيحيها وبعض العملات المعدنية الصغيرة على السطح الزجاجي ، ثم سمعت صوتاً مكتوماً لدى وضع خطابات ميشيل على المنضدة ، وهي التي جمعت الخطابات في الصباح بناء على أوامر هيلجا ، انتشرت رائحة لوسيون طبى في الهواء ، لوسيون أكثر تهدئة وتنويمًا من لوسيون ميشيل ، وكانت السجادة تحت قدميها من النايلون السميك وخرمية اللون مثل نباتات السحلبية الخاصة بميشيل ، خمنت أن الستائر ثقيلة ومسدلة في إحكام لأن الضوء عند طرف نظارتها كان أصفر اللون لا يشبه ضوء النهار على الإطلاق .

قالت تشارلى فجأة : أنا بحاجة للرفيق ماستارين ، أنا بحاجة للحماية الكاملة للقانون .

انفجرت هيلجا في ضحكات مليئة بالانتعاش والبهجة .

وقالت : أوه .. تشارلى .. هذا أمر متسم بالجنون القائم .. ثم أضافت موجهة كلامها للإيطالي : إنها رائعة .. ألا تعتقد أنها رائعة؟ .
إلا أن هذا السؤال لم يتلق أي إجابة ، كما بدا على هيلجا أنها لا تتوقع إجابة على سؤالها ، فراحت تشارلى تجسّن النبض مرة أخرى .

- البن دقية تناسبك يا هيلجا .. من الآن فصاعداً لن أتخيلك أبداً ، وأنت ترتدين أي شيء آخر .

وفي هذه المرة سمعت تشارلى نفحة الافتخار العصبي في ضحكات هيلجا ، لقد كانت تعرض تشارلى في تباہ على شخص ما ، شخص ما احترمه على نحو يفوق احترامها للإيطالي . سمعت تشارلى وقع أقدام .. وشاهدت قطعة الجلد التي

تزين مقدمة حذاء رجالى غالى الثمن أسود ولامع ، حيث تم عرض الحذاء فوق السجادة الخمرية من أجل أن تتفحصه ، سمعت تشارلى صوت أنفاس تردد ، وسمعت مص لسان موضوع عند الأسنان العليا ، واحتفى القدم وأحسست باضطراب لدى مرور الجسد ذى الرائحة الساخنة عن كثب شديد منها .. وعلى نحو غريزى أمالت جسدها بعيدا عن الهواء ، إلا أن هيلجا أمرتها بالبقاء ساكنة بدون حراك ، سمعت عود كبريت يتم إشعاله وشممت رائحة سيجار الكريسماس الخاص بوالدتها ، ثم راحت هيلجا تحذرها مرة أخرى وتطلب منها عدم التحرك : الالتزام بعدم الحركة تماما وإلا سيتم إنزال العقاب عليك بدون أى تردد .. كانت تهديدات هيلجا بمثابة تعيد على أفكار تشارلى لدى محاولتها بكل الوسائل المعروفة أن تحدد شخصية الزائر المجهول بغية التعرف على هويته ، تخيلت نفسها نوعا من الخفاش الذى يرسل إشارات ، ثم يصفعى للكيفية التى ترتد بها الإشارات إليه .

بدأ الظلام يسبب لها نوعا من الغثيان .. إننى بصدى السقوط على الأرض، من حسن حظى أننى جالسة ولست واقفة ، وكان هو موجودا عند المنضدة الزجاجية يفحص محتويات حقيبة يدها .. تماما مثلما فعلت هيلجا من قبل فى كورنوول ، سمعت تشارلى لمحات خاطفة من الموسيقى عندما عبّثت فى مسجلها الصغير ، كما سمعت صوتا مكتوما عندما وضعته على جانب ، وكان يوسف قد قال: فى هذه المرة نحن لا نلعب أى ألعاب مخادعة وعليك أن تتخذى نموذجك بلا بدائل، سمعته وهو يتصرف أوراق مذكراتها أثناء قيامه بنفح دخان السجائر ، قالت نفسها : انه بصدى أن يسألنى عن معنى (الألعاب البعيدة) وعن معنى (شاهدت م. تقابلت مع م. أحبيب م. أثينا !!) إلا أنه لم يسألها عن شيء ، سمعت نوعا من الزمرة عندما أجلس نفسه على الأريكة ، كما سمعت طقطقة جلوسه على القماش الشيت القطنى المنشى ، إنه رجل قصير وبدين يرتدى حذاء جميلا يدخن سيجار هافانا ويجلس على أريكة امرأة عاهرة ، كان الظلام يتخذ طابع التنويم المغناطيسى ، يداها مازالتا متشابكتين فوق حجرها ولكنها كانتا يدى شخص ما آخر .. سمعت طقطقة حزام مطاط .

ستتضاعق منك لغاية اذا لم تحضرى الخطابات ، يا سيدى .. لقد سددت توأثمن الدروس الخصوصية فى الموسيقى ، لو كنت تعرفين المكان الذى أنا بقصد الذهاب إليه عندما قمت بزيارتكم ، لو كنت فقط قد أخبرتها .

كان الظلام قد جعلها تشعر بأنها أصبحت معتوهة بعض الشئ ، لو وضعونى فى السجن لكننى قد تحملت ذلك .. إلا أن أسوأ شئ لدى هو ذلك الخوف المرضى من الأماكن المغلقة والضيق ، راحت تتلو فى داخلها أشعاراً من تأليف ت. س. اليوت .. أشعارا حفظتها عن ظهر قلب فى الفترة التى شهدت طردتها من المدرسة ، وتدور حول : الزمن الحاضر والماضى كلاهما متضمن داخل المستقبل ، والوقت كله حاضر على نحو أزلتى دوما ، لم تكن قد فهمت على وجه الدقة هذا المعنى آنئذ ، ولكنها أيضا لم تفهم المعنى الآن .

قال صوت رجل فى نغمة رخيمة : اذا أخبرتنا بالحقائق فلن نقوم بقتلك . إنه ميشيل ! يكاد يكون ميشيل .. انه يكاد يكون على قيد الحياة مرة أخرى ! إنها نغمة ميشيل .. نغمة صوته الجميل .. نغمة صوته الغنية النعسانة الصادرة عن الجزء الخلفى من الحلق .

عليك أن تخبرينا بكل شئ قلته لهم وما فعلته من أجلاهم .. وما هي المبالغ التي يدفعونها لك .. هه ؟ وبعيدئذ نطلق سراحك .

قالت هيلجا فى حدة من ورائها : لا تحركي رأسك .. نحن لا نعتقد أنك خنتِ بمعنى الكلمة للخيانة .. هه ؟ فقد تعرضت للخوف .. توغلت أكثر من اللازم ، أنت الآن تلعبين معهم ، حسنا .. وذلك أمر طبيعى .. نحن لا نتنسم بالطابع الإنسانى ونحن سنخرجك من هنا .. ولسوف ننزلك من السيارة عند مشارف المدينة ، وأنت ستقولين لهم كل الأمور التى حدثت لك هنا .. وما زال هذا الأمر لا يهمنا طالما أنك تلتزمين بالأسلوب النظيف .

تنهد .. كأن الحياة أصبحت تشكل بعض الأعباء على كاهله .

ربما تعتمدين على رجل شرطة لطيف وتضـ عين ثقتك فيه .. أليس كذلك ؟ وتقدين له معروفا .. ونحن نفهم تلك الأمور .. ونحن أناس ملتزمون ولكننا لسنا أشخاصا سيكوباتيين أو مضطربين عقليا .. أليس كذلك ؟

قالت هيلجا في ضيق : هل تفهمين ما ي قوله يا تشارلى ؟ أجيبي على سؤالى وإلا ستعرضين للعقاب .

فأصرت تشارلى على عدم الرد .

- متى ذهبت إليهم لأول مرة ؟ أخبريني .. بعد نوتنجهام ؟ بعد يورك ؟ هذا لا يهم .. لقد ذهبت إليهم .. هذا أمر مُسلم به .. ثم شعرت بالخوف .. ثم هرولت إلى الشرطة وقلت لهم : « هذا الفتى العربي المخبول يحاول تجنيدى للقيام بدور فتاة إرهابية .. أنقذوني ، وأنا على استعداد لعمل أي شيء تشيرون علىّ به .. هل الأمور قد حدثت على هذا النحو ؟ استمعى إلى .. لا توجد هناك مشكلة بالنسبة لرجوعك إليهم .. عندما ترجعين إليهم قولى لهم إنك تتسمين بالبطولة والشجاعة إلى درجة هائلة ، لسوف نعطيك بعض المعلومات لكي تتقليها لهم مما يجعلك تشعرين بتحسن موقفك معهم ، ونحن أناس طيبون ، ونحن أناس معقولون .. حسنا .. هيا بنا نتفق على إنجاز أعمال سوية .. ولا نلجم للغش والمخادعة .. وأنت إنسانة طيبة ولكنك غير قادرة على فهم هذا الموضوع .. هيا بنا .

بدأت تشارلى تشعر بالهدوء والسلام ، لقد هبط عليها فجأة تعب وكسل عميق ناجم عن العزلة والعمى ، لقد أصبحت في حالة من الأمان والأمان ، صارت موجودة في داخل الرحم من أجل أن تبدأ من جديد مرة أخرى أو تموت في هدوء وسلام وفقا لإرادة الله ومشيئته ، كانت تنجرف إلى نوم الطفولة أو نوم الطاعنين في السن ، وسحرها صمتها في افتتان واعجاب ، لقد كانوا ينتظرونها في ترقب فهي قد أحست بنفاد صبرهم ولكنها لم تشاركهم في نفاد الصبر والقلق .. وفي مرات عديدة راحت تفكر فيما ينبغي عليها أن تقوله إلا أن صوتها كان يقع على مسافة بعيدة للغاية منها وبدا لها أنه لا يوجد هناك داع لاحضار صوتها ، تكلمت

هيلجا بالألمانية ، ورغم أن تشارلى لم تستطع فهم كلمة واحدة من كلامها إلا أنها أحست بنغمة الإذعان والحيرة التي تسود صوت هيلجا ، ورد عليها الرجل الممتليء ، إلا أن نغمة صوته كانت تتسم بالحيرة أيضا ، بدا صوته خاليا من المشاعر العدائية ، وكأنه يقول : « ربما نعم ، وربما لا » .. هبط عليها احساس أن كلا منهما يتصل من تحمل المسئولية بشأنها حيث كانا يتقاتلانها جيئة وذهابا بينهما مشاجنة بيروقراطية .

وحاول الإيطالي الدخول في المناقشة إلا أن هيلجا أمرته أن يلوذ بالصمت ، واستونفت المجادلات والمناقشات بين الرجل الممتليء وهيلجا وتمكن تشارلى من التقاط كلمة « منطقى » .. ربما بمعنى : أن هيلجا إنسانة منطقية أو أن تشارلى ليست منطقية .. إنه يُقال للرجل الممتليء بأنه ينبغي عليه أن يكون منطقيا .

قال الرجل الممتليء : أين أمضيت ليلاً عقب اتصالك تليفونيا بهيلجا ؟

- مع عشيق .

- وفي الليلة الأخيرة ؟

- مع عشيق .

- مع عشيق آخر ؟

- نعم .. ولكنهم الاثنين من رجال الشرطة .

اعتقدت أنها لو لم تكن مرتدية النظارة ل كانت هيلجا قد ضربتها على وجهها ، إذ انقضت عليها هيلجا في ثورة غاضبة جامحة . كان صوتها خشنا بسبب شدة الانفعال أثناء إصدارها لوابل من الأوامر إليها : ينبغي ألا تتجنى للوقاحة .. عليك الالتزام بعدم الكذب .. عليك أن تجيب على كل سؤال على الفور بدون اللجوء للسخرية ، وبدأت الأسئلة من جديد مرة أخرى وراحت تشارلى تجيب في إعفاء بحيث جعلتهم ينتزعن العبارات منها جملة وراء جملة ، وعبارة وراء عبارة ، لأنه

ليس من حقهم أن يسألوا تلك الأسئلة .. ما هو رقم الغرفة في نوتنجهام ؟ وما هو اسم الفندق في تسالونيكا ؟ وهل هما سبحا في البحر ؟ وما هو الوقت الذي وصل فيه وأكلوا فيه وما هي المشروبات التي أرسلها إلى غرفتهما ؟ لكنها تدريجيا - ولدى إصغائهما أولا لنفسها ثم إصغائهما لهم - كسبت في هذا الموقف على الأقل إنها ظلت ترتدي النظارة الشمسية عند مغادرتها المكان ، وحتى قطعت مسافة طويلة بعيدا عن المنزل .

الفصل الواحد والعشرون

كان المطر ينهمر عندما هبطوا من الطائرة في بيروت . وكانت تدرك أنه مطر ساخن لأن حرارته تسربت إلى الكابينة عندما كانوا يدورون في الهواء وجعلت فروة رأسها تتفجر بالهرش الناجم عن الصبغة التي صبغت بها شعرها وفقاً لتوجيهات صادرة عن هيلجا . لقد طاروا فوق سحابة تشبه صخرة تأججت بالسخونة الحمراء تحت أضواء الطائرة . وتوقفت السحابة وأصبحوا فوق سطح البحر حيث راحوا ينزلقون في سرعة وخفة نحو الجبال الآخذة في الاقتراب . لقد سبق لها أن شاهدت كابوساً متكرراً بنفس الطريقة باستثناء أن طائرتها كانت تطير على ارتفاع منخفض فوق شارع مزدحم يضم ناطحات سحاب على كلا جانبيه . لم يستطع أي شيء إيقاف الطائرة فالطيار كان يمارس الحب معها . ولم يستطع أي شيء إيقاف الطائرة الآن . هبطوا بشكل متقن على المطار . وفتحت الأبواب . فشممت عبر الشرق الأوسط لأول مرة استقبلها العبير مرحباً بها وكأنها مواطنة من الشرق الأوسط عائدة إلى وطنها . وكانت الساعة هي السابعة مساءً ولكنها من الممكن أن تكون الثالثة صباحاً ، أدركت على الفور أن هذا لم يكن عالماً يأوي إلى الفراش والنوم في السرير . وذكرها الضجيج المتفجر في صالة الاستقبال بسباق خيول الدربي الذي يدور في لندن كل عام . قبل انطلاق الخيول بلحظة وكان هناك عدد كافٍ من الرجال المسلحين المرتدين أزياء عسكرية مختلفة بحيث يمكن لهم البدء في الحرب . وضمت تشارلي حقيبة الكتف إلى صدرها . وشققت طريقها نحو طابور الهجرة . واكتشفت أنها كانت تتبع مما آثار دهشتها . فجواز السفر الألماني الشرقي الذي تحمله ومظهرها الزائف الذي كان منذ خمس ساعات فقط في مطار لندن مسألة حياة أو موت بالنسبة لها قد أصبحا من الأمور التافهة في هذا الجو المشحون بالطوارئ المفعمة بالقلق والاضطراب .

وكانت هيلجا قد أصدرت لها الأوامر أثناء جلوسهما في السيارة الستيروين الواقفة في المكان المخصص لوقف السيارات في مطار هيثرو بلندن «اتخذى الطابور الأيسر . وعندما تبرزين جواز سفرك أخبريهم أنك تريدين التحدث مع السيد مرسيدس» .

وماذا يحدث لو تحدث هو معى في طلاقة باللغة الألمانية ؟
لو شعرت بالارتباك والحيرة . خذى «تاكسى» إلى فندق كوموبور . واجلسى في ردهة الفندق . وانتظرى . هذا أمر مني إليك . إنه يسمى مرسيدس مثل اسم السيارة .

وماذا بعديّ ؟

ياتشارلى . أعتقد أنك عنيدة بعض الشى وغبية إلى حد ما . لو سمحت توقفى عن هذا الآن .

قالت تشارلى : **وإلاً ستطلقين النيران علىَ** .

.....

مس بالم Palme . جواز السفر لو سمح !

وكان بالم هو اسمها الألماني . لقد أخبرتها هيلجا أن اسمها يُنطق «بالمار» وكان الشخص الذى نطق باسمها هو رجل عربى صغير السن مبتهج ومجد الشعرا ويرتدى ملابس بالية ولكنها نظيفة وظاهرة . كرر قائلًا «لو سمحت» . بدت سترته مفتوحة وفي حزام وسطه يوجد مسدس اتوماتيكي فضى ضخم . وكان هناك عشرون شخصا في المسافة الواقعه بينها وبين ضابط الهجرة . لم تكن هيلجا قد قالت إن الوضع سيكون على هذا النحو على الإطلاق .

أنا المستردانى . لو سمحت يا آنسة بالم . تعالى .

أعطته جواز السفر . وشق طريقه بين الجماهير ناشرا ذراعيه لكي يفسح لها الطريق ولكى تتمكن من السير وراءه . اختفى دانى للحظات . ولكنها ظهر مرة

آخرى وهو يشعر بالفخر الشديد . حيث كان ممسكا ببطاقة وصول بيضاء اللون فى إحدى يديه . وفي اليد الأخرى أمسك بيد رجل ضخم له الطابع الحكومى الوظيفى يرتدى معطفا جلدياً أسود اللون .

وأوضح دانى الأمور قائلاً : «أصدقاء ، كل الناس أصدقاء لفلسطين» . ظهرت الابتسامة المشرقة التى يتسم بها شخص شديد التحمس لوطنه . راح الرجل الضخم يتفحصها فى وقار . ثم تفحص جواز سفرها وناوله لدانى وأخيراً تفحص البطاقة البيضاء ووضعها فى الجيب العلوى فى سترة دانى .

قال باللغة الألمانية : «مرحباً» فى إيماءة مائلة سريعة . الا أن ذلك كان بمثابة دعوة للإسراع .

كانا عن الأبواب عندما تفجر القتال . وبدأ القتال على نحو ضيق ومحظوظ عندما قال موظف مرتدٍ للزي الرسمي كلاماً ما لسافر تبدو عليه مظاهر الثراء . وعلى نحو فجائى بدأ الاثنان يصيحان بصوت مرتفع ويلوحان بأيديهما فى وجه بعضهما البعض . وفي خلال ثوانٍ اكتسب كل منهما مناصرين له . وبينما وصل دانى إلى مكان لوقوف السيارات هرولت مجموعة من العساكر المرتدية بربىات خضراء نحو مكان الشغب وهم يخلعون بنادقهم الرشاشة . قال دانى موضحاً : «السوريون» . وابتسم بطريقة فلسفية فى وجهها كما لو كان يريد أن يقول لها إن كل دولة لها السوريون الخاصون بها .

وكانت السيارة ماركة بيجو زرقاء قديمة وملينة برائحة السجائر الكريهة . وقف بجوار كشك لبيع القهوة . قام دانى بفتح الباب الخلفي للسيارة . وراح يننظف الوسائل من التراب بيده . ولدى دخولها إلى السيارة انزلق شاب داخلاً إلى السيارة من الجانب الآخر . وعندما أدار دانى موتور السيارة ظهر شاب آخر وجلس فى المقعد الأمامى بجوار السائق . كان الظلام شديداً للغاية بحيث لم تتمكن من مشاهدة ملامح وجهيهما إلا أنها تمكنت من رؤية المدافع الرشاشة الموجودة معهما . وكانا صغيرين فى السن للغاية حتى أنها للحظات لم تصدق أن مدافعينا

حقيقة . وقدم الشاب الجالس إلى جوارها سيجارة لها وقد بدا عليه الاكتئاب عندما رفضت أن تأخذها منه .

بعد لحظات ، سألاها في أدب جمّ واحترام شديد : «أتتكلمين باللغة الأسبانية؟» ، تعرف اذن . أغرى لي ضعفي في اللغة الانجليزية . ولو كنت تعرفين الأسبانية لكنت قد تحدثتُ معك بطلاقـة .

ولكن لفتك الإنجليزية رائعة .

قال في استنكار : «هذا ليس صحيحاً» . وكأنه قد تعرّف بالفعل على نوعية من الخيانة الغربية أو الغدر الغربي . ولاذ بصمت متسم بالاضطراب .

دَوَّت طلقتان ناريتان خلفهم إلا أن أحداً لم يعلق عليهما . راحوا يقتربون من موقع مُحصّن بأكياس مليئة بالرمال . أوقف داني السيارة . وحملق حارس مرتدٍ للزي الرسمي في وجه تشارلى . ثم لوح لهم من خلال مدفعه الرشاش لكي يواصلوا المسير .

تساءلت : أهو سوري أيضاً ؟

قال داني : «إنه لبناني» . ثم تنهد .

أحسست باضطرابه وتوتره .

بل وأحسست أنهم جميعاً يموجون بالقلق والاضطراب - حيث يتمثل ذلك في الندب والعويل والسرعة في العين والذهن . وكان الشارع بمثابة ميدان معركة بالإضافة إلى أنه موقع يضم مبانٍ . وكانت لبات الشارع المتناثرة هنا وهناك تكشف من وقت لآخر عن معالم الشارع في لمحات خاطفة . كما أن قرمات الأشجار المقطوعة المتفحمة تذكر المرء بأن الطريق كان يوماً ما متسمًا بالأناقة والجمال وكانت نباتات البوچنفلية المترعة قد بدأت تغطى الخرائب والاطلال . هناك سيارات متفحمة مليئة بثقوب الطلقات النازية ملقاة هنا وهناك على الأرصفة . مرروا بجوار أكوام مضاءة بداخلها دكاكين مبهجة . كما شاهدوا الصور الظلية لمبانٍ مقصوفة بالقنابل ومحطمة وشبيهة بصخور جبلية شديدة الانحدار . وكان الهلال

فى السماء ينزلق من حفرة لأخرى متمشيا مع إيقاع سرعة سيارتهم . ومن وقت لآخر يظهر مبنى جديد تماماً غير مستكمل البناء وغير مضاء بالكامل وغير أهل تماماً بالسكان.

لقد أمضيتُ عامين فى براغ . وثلاثة أعوام فى هافانا . هل سبق لكِ الذهاب إلى كوبا ؟

كان الشاب الجالس إلى جوارها قد أفاق من حالة الأحباط التي اجتاحته .

فقالت تشارلى : لا ، لم يسبق لي الذهاب إلى كوبا .
أنا مترجم رسمي إسباني / عربي .

علقت تشارلى : هذا شيء رائع . أهنتك على ذلك .

- هل سأقوم بالترجمة لك يا آنسة بالم ؟

ردت تشارلى : «في أيّ وقت» . انقلبت ضاحكة كامرأة غريبة أعيدت لها مكانتها السابقة ببرغم كل شيء .

خفَض داني سرعة السيارة بحيث أصبحت في سرعة منْ يمشي على قدميه وأنزل زجاج نافذته . ظهرت أمامهم مباشرة وفي وسط الشارع مجرمة تتوجه بـ النيران . تجلس حولها مجموعة من الرجال والأولاد يرتدون الكوفيات البيضاء وملابس الميدان الكاكية اللون . وبالقرب منهم أقامت مجموعة من الكلاب البنية اللون معسكراً خاصاً بها . تذكرت ميشيل عندما كان يعيش في قريته في وطنه ، ويستمع إلى حكايات المسافرين . وراحـت تفكـر : هـا هـم أهـالـى مـيشـيلـ قدـ شـيـلـواـ قـرـيـةـ فـىـ وـسـطـ الشـارـعـ . وـعـنـدـمـاـ خـفـضـ دـانـىـ أـنـوـارـ السـيـارـةـ نـهـضـ رـجـلـ وـسـيـمـ عـجـوزـ عـلـىـ قـدـمـيـهـ وـحـكـ ظـهـرـهـ . ثـمـ أـتـىـ إـلـيـهـمـ وـهـوـ مـمـسـكـ بـمـدـفـعـهـ الرـشـاشـ وـانـحـنـىـ بـرـأسـهـ فـىـ نـافـذـةـ دـانـىـ إـلـىـ أـنـ أـصـبـعـ بـإـمـكـانـهـمـاـ أـنـ يـتـعـانـقـاـ اـنـسـابـ الـحـوارـ بـيـنـهـمـاـ جـيـئـةـ وـذـهـابـاـ فـىـ تـدـفـقـ سـرـمـدـىـ لـانـهـائـىـ . رـاحـتـ تـشارـلىـ تـصـفـىـ لـكـلـ كـلـمـةـ مـتـخـيـلـةـ أـنـهـاـ يـمـكـنـهـاـ تـفـهـمـ الـكـلـامـ عـلـىـ نـحـوـ ماـ .

لكنها عندما نظرت إلى ما وراء الرجل الذي يتحدث مع داني شاهدت منظراً لا يبعث على الارتياح : أربعة صبية واقفين في نصف دائرة وقد سدوا مدافعهم الرشاشة في اتجاهها بينما لا يزيد سن أيٍ واحد منهم على ١٥ عاماً .

قال الشاب الجالس إلى جوار تشارلى في السيارة في تمجيل لدى استئنافهم السير على الطريق : إنهم رجالنا إنهم كوماندو فلسطينيون . يوجدون في الجزء الخاص بنا من المدينة .

راح تشارلى تفكّر في فخر واعتزاز : الجزء الخاص بميشيل من المدينة أيضاً .

.....

كان يوسف قد حدثها : سوف تجدينهم أناساً طيبين بحيث تشعرين بالحب نحوهم بكل سهولة .

لقد أمضت تشارلى أربع ليالٍ وأربعة أيام مع الأولاد وأحبتهم فرادى ومجتمعين . كانوا بمثابة المجموعة الأولى من عائلاتها العديدة . وكانوا ينقلونها دائمًا - مثل الكنز - تحت جنح الظلام وفي احترام وتجليل دائمًا . وأوضحاوا لها في اعتذار مهذب أنها قد وصلت بشكل . فجائي . «ولذلك كان من الضروري أن يقوم الكابتن الخاص بنا بعمل استعدادات معينة . وكانوا ينادونها باسم «أنسة بالم» ربما اعتقدوا أن ذلك هو اسمها . وراحوا يبادلونها حباً بحبٍ . ولم يوجهوا إليها أسئلة شخصية أو متسمة بالطابع الفضولي وحب الاستطلاع مما جعلها تتعجب من طبيعة السلطة التي تسيطر عليهم . وكان أول سرير خصص لكي ت تمام عليه موجوداً فوق سطح منزل قديم مزقته قذائف المدفعية . وكان المنزل حالياً من كافة مظاهر الحياة باستثناء البيغاء المملوك لصاحب المنزل الغائب . وكان البيغاء يكح في كل مرة يقوم فيها شخص بإشعال سيجارة . ومن الألاعيب الأخرى التي يقوم بها هذا البيغاء أن يطلق صوتاً حاداً عالياً مثل صوت التليفون حيث كان يفعل ذلك في الساعات الميّة مما كان يجعلها تذهب خلسة إلى الباب على أمل الانتظار .

لحين يقوم أحد بالردد على صوت جرس الباب . كان الأولاد ينامون على بسطة السلم بالخارج بالتناوب بينما المستيقظون منهم يمضون الوقت في شرب الشاي في أكواب صغيرة مع الدردشة بصوت منخفض أثناء لعب الكوتشينة.

بدت الليالي سرمدية ولا نهاية . ولكن لم تكن هناك دقائق متشارهتان بل إن الأصوات في حد ذاتها بدت كأنها في حالة حرب وصراع بين بعضها البعض حيث تتراءى في بداي الأمر من على مسافة بعيدة آمنة ثم تتضاعد وتتقدم وتتجمع، ثم تتدخل في مصادمة ينتج عنها انفجار في شكل موسيقى عالية ، وصرخة إطار سيارات وسarinات وأبواق ثم يعقب ذلك كله صمت مطبق شبيه بصوت الغابات . وفي تلك الأوركسترا أصبح إطلاق النيران من البنادق بمثابة آلة موسيقية فرعية صغيرة : قرع على الطبل هنا وقرع إيقاعي هناك مع وجود الصفير الخاص بقذيفة في بعض الأحيان . وذات مرة سمعت تشارلي ضجيج ضحكات بشريه إلا أن الأصوات البشرية بوجه عام كانت قليلة . وذات مرة في الصباح الباكر وعقب طرق ملح على بابها سار داني والولدان على أصابع أقدامهم سويا إلى نافذتها . فذهبت وراء هم وشاهدت سيارة متوقفة على مسافة مائة يارد بالشارع . يتدفق منها الدخان ارتفعت وتدحرجت على جانبها كشخص يتقلب في السرير . وانتشرت سحابة من الهواء الساخن مما جعلها تندفع عائدة إلى غرفتها . شيء ما سقط من رف . وسمعت صوتا مكتوما متراجعا من داخل رأسها .

قال محمود وهو أكثر الأولاد جمالاً ووسامة : «سلام» . ثم غمز بعينه . ثم انصرفوا جميعا .

وكان الفجر هو الشيء الوحيد الذي يمكن التنبؤ به . وذلك عندما ينطلق صوت المؤذن من المسجد داعيا المسلمين إلى تأدية الصلاة .

أما السرير الثاني الذي نامت عليه فيوجد في أعلى منزل لامع يضم بعض الشقق . ومن نافذتها كان بمقدورها أن تحملق في الواجهة السوداء لبنك دولي جديد، وفي البحر الهادئ المترامي وراء البنك . كان البلاج الشاغر من الناس ذو الكائن المهجورة شبيها بمصيف خارج فترات الموسم بصفة دائمة .

وفي الليلة الثالثة ، نامت تشارلى على سطح مبنى وشبيه بمركز قيادة عسكري، إذ كانت توجد هناك قضبان حديدية على النوافذ ، علاوة على وجود ثقوب في الحوائط عند السالم . كما كانت هناك ملصقات عن أطفال يلوحون بالمدافع الرشاشة أو يلوحون بباقيات من الزهور . كان هناك حرس نوو عيون سمراء يتسلكون عند كل منبسط للدرج . وللمبني كله طابع فيلق للعلاقات الخارجية يموج بالصخب .

وكان داني يردد في رفق من وقت لآخر : سوف يقابلك قائدنا حالاً . إنه يعد العدة لذلك . أنه رجل عظيم .

كانت قد بدأت تتعرف على الابتسامة العربية التي تفيد حلوث تأخير بعض الشيء عن الموعد المحدد .

ولكي يخفف عنها ملل الانتظار راح داني يقص عليها قصة والده . بعد أن قضى الرجل العجوز عشرين عاما في المعسكرات بدا عليه وكأنه أصبح متھوراً بسبب ما يعانيه من اليأس المريض . ولذلك فإنه ذات صباح عباً ممتلكاته القليلة في حقيقة وضع فيها صكوك الملكية التي تثبت امتلاكه لأراضيه . وبدون أن يخبر أى فرد من أسرته انطلق عبر الخطوط الصهيونية بهدف المطالبة بمزرعته . وعلى وجه السرعة انطلق داني وآخوه في أعقابه ووصلوا في الوقت الذي شاهدوا فيه هيكل والدهم المنحنى الضئيل وهو يتغلب أكثر فأكثر في الوادي إلى أن انفجر تحته لغم أرضي . حكى داني الأمر في دقة مذهلة بينما الآخران يقومان بمراجعة لغته الإنجليزية مع الاعتراض عندما يكون التركيب اللغوي غير سليم أو الإيماءة بالرأس عندما تكون العبارة سليمة . وعندما انتهى من روايته راحوا يوجهون عدداً من الأسئلة العامة عن مدى عفة وطهارة النساء الغربيات حيث سبق لهم أن سمعوا أموراً مخزية ومشينة وإن كانت مسلية إلى حد ما .

لذلك ، أحبتهم أكثر وأكثر . أحبت خجلهم وحياتهم وعفتهم وعذريلتهم ونظامهم . بل أحبت سلطانهم ونفوذهم الذي يفرضونه عليها . أحبتهم من حيث هم آسرون لها ومن حيث هم أصدقاء لها .

قال داني وهو يطرق في خفة على بابها لكي يواظبها : هيأً لو سمحت .
قائداً مستعداً الآن .

كانت الساعة أنيذ الثالثة صباحاً . وكان الظلام ما زال سائداً .

.....

تذكرت تشارلى فيما بعد وجود حوالي عشرين سيارة ، ولكن ربما كان عددها خمس سيارات فقط . فقد حدث كل شيء بسرعة كبيرة . تعرج من الرحلات المتزايدة المخاطر عبر المدينة والتي تضم سيارات صالون رملية اللون وذات هواتي في المقدمة والمؤخرة ، ومزودة بحراس مسلحين لا يتكلمون . وكانت السيارة الأولى تنتظر بجوار المبنى . وما إن خرجوا من الفناء وانطلقا بسرعة في الشارع حتى أدركت أنها تركت الأولاد وراءها . وفي عمق الشارع بدا على السائق أنه قد شاهد شيئاً ما لا يشعر بالارتياح نحوه لأنه اندفع بسيارته في التفاف صارخ على هيئة حرف L مما كاد أن يتسبب في انقلاب السيارة . ولدى دخولهم إلى الطريق مرة أخرى سمعت تشارلى قعقة من مكان قريب منها . وأحسست بيد ثقيلة تدفعها إلى أسفل في داخل السيارة . ولذلك افترضت أن إطلاق النيران كان موجهاً ضدهم .

وكسروا إشارة حمراء عند مفترق الطرق وتمكنوا من تفادي شاحنة وهم يبتهلون إلى الله . وصعدوا على رصيف من جهة اليمين ثم اتخذوا مساراً على شكل قوس واسع من جهة اليسار . ودخلوا إلى منحدر مخصص لوقف السيارات يطل على ملهى أنيق مهجور . شاهدت قمر يوسف غير المكتمل مرة أخرى متدايا فوق البحر وتخيلت خلال ثوانٍ خاطفة أنها على الطريق المؤدي إلى معبد دلفي باليونان . وتوقفوا بجوار سيارة فيات وألقوا بتشارلى بداخلها . أصبحت تشارلى في رعاية حارسين جديدين . وانطلقت السيارة على طريق منفرد كالوجه المجنور تحفه مبانٍ مليئة بالثقوب والفتحات على كلا الجانبين . وانطلقت وراءهم مباشرة سيارة تطلق أضواء باهرة . ظهرت الجبال أمامها مباشرة سوداء اللون . إلا أن الجبال التي تقع على يسارها بدت رمادية لأن توهجاً متراهما من الوادي راح يضيء جوانبها .

كان عداد السرعة بالسيارة يشير إلى ١٤٠ كم/ساعة إلا أن المؤشر وصل فجأة إلى الصفر لأن السائق أطفأ أنواره كذلك أطفأت السيارة التي تطلق وراءها أنوارها . وإلى يمينهم هناك صف من أشجار النخيل . وإلى يسارهم توجد الأراضي التي تفصل بين حارتي الشارع .. وهي بمثابة رصيف عرضه ستة أقدام . إنه أحياناً رصيف مليء بالحصى وأحياناً أخرى مليء بالزراعات والنباتات . وفي مطب هائل صعدوا على الرصيف وفي مطب آخر هبطوا على الحارة العكسية من الشارع . تصاعدت أصوات أبواب السيارات التي تطلق تحذيراتها . وصاحت تشارلى قائلة «يا الهى» . إلا أن السائق لم يهتم بكل ذلك . فقد أضاء جميع الأنوار واتجه مباشرة نحو طابور السيارات القادمة قبل أن ينحرف يساراً مرة أخرى تحت كوبرى صغير . وفجأة توقفوا في طريق موحل شاغر . ثم انتقلوا إلى سيارة ثالثة . كانت في هذه المرة من نوع اللاندروفر ، لا نوافذ لها لم تكن قد لاحظت هطول المطر حتى تلك الآونة . ولكنهم عندما ألقوا بها في ظهر السيارة اللاندروفر تغلغل المطر الغزير إلى جسدها كله . ثم شاهدت تفجراً من البرق يضرب في عنف وجه الجبال أو ربما كان ذلك قذيفة مدفعة .

بدأت اللاندروفر في تسلق طريق منحدر متعرج . ومن خلال الجزء الخلفي من السيارة تمكنت تشارلى من مشاهدة الوادي ينحسر بعيداً . ومن خلال الزجاج الأمامي للسيارة وفي المساحة الشاغرة ما بين رأس السائق ورأس الحراس كان بمقدورها مشاهدة المطر يتقاتف فوق الطريق المرصوف مثل أُسراب من سمك المنورة المتراقصين كانت هناك سيارة منطلقة أمامهم أدركت تشارلى من خلال انطلاقهم وراءها باستمرار أنها تابعة لهم . وكانت هناك سيارة أخرى منطلقة وراءهم ومن خلال عدم الاهتمام بها أدركت تشارلى أنها تابعة لهم أيضاً . ثم انتقلوا إلى سيارة أخرى . وبعدئذ اقتربوا من مبنى يبدو عليه أنه بمثابة مدرسة مهجورة . ولكن السائق في هذه المرة أوقف المحرك ثم جلس هو والحراس في النافذتين وقد أمسكا بمدافعهم الرشاشة . ظلا في حالة انتظار لكي يعرفا من هم الآخرون الذين

سيصعدون إلى التلّ . كانت هناك نقاط تفتيش على الطريق يتوقفون عندها بينما نقاط أخرى يكتفى عندها بالتلويح بالأيدي للحراس الكسالى .

أخيراً توقفت السيارة نهائياً . ووجدت تشارلى نفسها في الفناء الأمامي لفيلا قديمة عليها حراس من الشباب المزودين بالمدافع الرشاشة واقفين على السطح كأنهم أبطال فيلم روسي . كان الهواء بارداً ونظيفاً و مليئاً بكافة الروائح اليونانية التي خلفها المطر وراءه رائحة شجر السرو الصنوبرى و عسل النحل ، وكافة الأزهار البرية الموجودة في العالم . كانت السماء مليئة بالعواصف والسحب المتبدلة . واصطحبوها عبر مدخل مسقوف . ثم إلى صالة . وهناك وتحت مصابيح علوية قائمة وقع بصرها لأول مرة على القائد أو «قائمنا» هيكل منكفيء بنى اللون . ذو شعر أسود مستقيم شبيه بشعر التلاميذ . كان ممسكاً بعصا مصنوعة خشبية يتوكة عليها بسبب ساقيه الأعرجين . ابتسם ابتسامة ساخرة مليئة بالترحيب مما كشف عن وجهه الملئ بالندبات التي تنجم عن الإصابة بمرض الجدرى . ولકى يتمكن من مصافحتها باليد علق عصاه على ساعد ذراعه الأيسر .

- يا آنسة تشارلى . أنا الكابتن تايه أحبيك باسم الثورة .

كان صوته رشيقاً وسريعاً ومتسمًا بالطبع العملي . وجميلاً مثل صوت يوسف .

كان يوسف قد حذرها قائلاً : سوف يكون الخوف مسألة اختيار . ومن سوء الحظ أن أحداً لا يمكنه أن يتعرض للتخييف طوال الوقت وباستمرار . ولكن بالنسبة للكابتن تايه - وهو الاسم الذي يطلقه على نفسه - عليك أن تبذل قصارى جهدك . لأنك رجل بارع وذكي للغاية .

..

قال تايه في نفاق مليء بالبهجة «أغفرى لي . وسامحيني» .

لم يكن المنزل منزله . لأنه لم يكن بمقدوره العثور على أي شيء يريده . وحتى بالنسبة لطفافية السجائر فإنه اضطر لأن يبحث فيما حوله ويسأل في مزاج

عماً إذا كانت تلك الأشياء غالبة الثمن للغاية بحيث لا يمكن استخدامها كان المنزل مملوكاً لشخص ما صديق له . وكان الضوء مازال ضعيفاً . ولكن بعد أن اعتادت عيناه على الظلام أدركت أنها موجودة في منزل أستاذ جامعي أو شخصية سياسية أو محامي . إذ كانت الحوائط مليئة بالأرفف الظاهرة بالكتب والمراجع العلمية التي قرئت وأعيدت إلى أماكنها في غير ترتيب . هناك لوحه زيتية معلقة فوق المستوقد تعبّر عن القدس . كما أن هناك مكتبة مستقلة تطل على الوادي الذي جاء ت منه تواً . حيث شاطئ البحر السابع تحت ضوء القمر .

كانت تشارلى تجلس في المكان الذي حدد لها : فوق الأريكة الجلدية . لأن تايه نفسه لا يزال يتتجول في أرجاء الغرفة يتوκأ على عصاه إنه يعمل كل شيء بنفسه ويرمّقها بنظراته من زوايا مختلفة ، يبتسم من وقت لآخر . أحضر فودكا . كان هناك شابان يجلسان عند طرف الغرفة وقد وضع كل منهما مدفعاً رشاشاً عَبر ركبتيه . وهناك كومة من الخطابات ملقاة فوق المنضدة ويدون أن تنظر أدركت أنها الخطابات التي أرسلتها إلى ميشيل .

وكان يوسف قد حذرها قائلاً : لا تعتقدى أن الاضطراب والفووضى الظاهرية هما بمثابة عجز وعدم كفاءة . ولا تصدقى أى أفكار عنصرية عن رداءة الجنس العربى وانخفاضه عن الأجناس الأخرى .

انطفأت الأنوار تماماً . لكن الأنوار كثيرة ما تنطفئ . بل يحدث ذلك في الوادي . راح يرقبها في اهتمام وهو واقف بالقرب منها وقد أعطى ظهره للنافذة الضخمة . وهو يبدو مثل ظل مبتسם في حذر يرتكز على عصا .

تسائل وهو مازال محملاً فيها : هل تعرفيين الشكل الذي ستكون عليه حياتنا عندما نرجع إلى وطننا ؟ هل يمكنك أن تخيلي كيف ستكون الأمور عندما تصبحين في دولتك وتحت نجومك وتقيين فوق أرضك وأنت تحملين بندقية في يدك وتبحثين عن الطغاة والظالمين ؟ أسائلى الأولاد .

كانت صوته أكثر جمالاً أثناء الظلام شأنه في ذلك شأن باقي الأصوات التي عرفتها قال : لقد شعر الأولاد بالحب نحوك . فهل تحبينهم ؟

- نعم .

- أيهم تحبين أكثر ؟

فقالت : أحبهم جميعاً بالتساوي ويدون تفضيل أحد على آخر .
ابتسم وقال : يقولون إنك تحبين كثيراً فلسطينك الميت . هل هذا صحيح ؟

- نعم .

اشار بعصاه إلى النافذة . وقال «إذا كانت لديك الشجاعة فيمكننا أن نأخذك معنا . عبر الحدود . كى نهاجم . ثم نعود ونحتفل . تقول هيلجا إنك ترغبين المشاركة في القتال . فهل تريدين بالفعل أن تحاربى ؟

- نعم .

- تحاربين أي شخص أم تحاربين الصهاينة فقط ؟ . ولم ينتظر الرد منها .
وكان منخرطاً في الشراب . واستطرد قائلاً : لدينا بعض الناس من حثالة القوم
والذين يرغبون في تدمير العالم كله ، هل أنت من ذلك النوع ؟

- إن أمثال هؤلاء الناس يعتبرون من حثالة القوم . واعتقد أن هيلجا
وماستاربين من حثالة القوم أليس كذلك ؟

فقالت : لم يكن لدى الوقت الكافي لكي أكتشف ذلك .

- هل أنت شخصياً من حثالة القوم ؟

- لا .

وعاد التيار الكهربائي . فدبَّ الضوء الخافت في لمبات السقف قال وهو
مازال مستمراً في تفحصها : أنا لا أعتقد أنك من حثالة القوم . ولكن ربما يطرا
عليك تغيير ، هل سبق لك أن قتلت أي شخص في أي وقت من الأوقات ؟

- لا .

- أنت سعداء الحظ . فأنت لديكم شرطتكم وأراضيكم ، وبرمانكم كل
الحقوق والقوانين وجوازات السفر . أين تعيشين ؟

- في لندن .

- في أي حي من أحياه لندن ؟

أحسست بأن الإصابات التي لحقت بساقيه قد جعلته يشعر بالضيق من إجاباتها ، وكان قد عثر على كرسي طويل فراح يجره في عدم اكتتراث في اتجاهها إلا أن أحداً من الأولاد لم ينهض لمساعدته . خطر على ذهنها أنهم لا يجرؤون على تقديم المساعدة له ، وعندما فرغ من وضع الكرسي في المكان الذي يريد أن يضعه فيه راح يجذب كرسي آخر ليصبح بجوار المهد الأول ، ثم جلس ومد رجله على الكرسي الآخر . وأخرج سيجارة من جيب بدلته العسكرية وأشعلها .

قال : هل تعرفين أنك أول انجليزية تنضم لصفوفنا فنحن لدينا هولنديون وإيطاليون وفرنسيون وألمان وسويديون ، وأيرلنديون واثنان من الأمريكيين .

كلهم جاءوا كي يحاربوا معنا . ولم يحضر إلينا أناس من الانجليز حتى الآن ، فالانجليز يجيئون دائمًا متأخرین أكثر من اللازم .

هبطت عليها موجة من الفهم والإدراك والتسليم بصحة كلامه ، وهو - شأنه شأن يوسف - كان يتكلم من خلال ألام لم تجربها هي ومن خلال وجهة نظر لم تسبّر أغوارها بعد . لم يكن كبير السن ولكن لديه الحكمة التي اكتسبها في وقت مبكر اقترب وجهها من المصباح الصغير . وربما ولعل سبب ذلك أنه أراد أن يضعها هناك فالكابتن تايه رجل شديد الذكاء والمهارة .

قال معلقاً : إذا كنت تريدين تغيير العالم ، عليك بنسيان هذا الموضوع لقد فعل الانجليز ذلك عليك بالبقاء في وطنك . والقيام بأدوارك الصغيرة فذلك أكثر أمناً بالنسبة لك .

قالت : ليس الآن .

علق : أوه ، يمكنك أن ترجعي وتعترفي وتحاولى إدخال الإصلاحات وتقضين سنة في السجن . ينبغي على كل إنسان أن يقضي عاماً في السجن . ولماذا تقتلين نفسك من خلال القتال من أجلنا ؟

قالت : بل من أجله .

وفي توتر وقلق أشاح تاييه بيده الممسكة بالسيجارة مبعدا عواطفها الجياشة . واستطرد : مامعنى قولك : من أجله ؟ لقد مات بالفعل وفي خلال عام او عامين سنمومت جميعا . فما معنى قولك : من أجله ؟

- لقد علمني كل شيء

- هل علمك - كيف تلقين بالقنبلة؟ وكيف تطلقين الرصاص؟ وكيف تقتلين؟ لا تهتمي .

ولبعض الوقت انصب اهتمامه على سيجارته إذ راح يرقب سيجارته وهي تحرق ، ويأخذ الأنفاس منها . ثم يطفئها ويشعـل سيجارة جديدة . وخفـمت أنه لا يحب التدخـن ، قال مـعترضا : ما هي الأمـور التي علمـك إـياها ؟

وهل يعلم امرأة مثلـك ؟ لقد كان شابـا صـغيرـا ولم يكن بـمقدورـه أن يـعلم أيـ شخص . لقد كان لـاشـيء

فـقالـت في تـخـشب مليءـ بالإـصرـارـ : « بلـ كانـ كلـ شـيءـ » وـمرةـ آخـرىـ أحـسـتـ أنهـ فقدـ الـاهتمامـ مـثـلـ شـخصـ ماـ شـعـرـ بـالـسـأـمـ وـالـمـلـلـ مـنـ المـنـاقـشـ السـطـحـيـةـ القـلـيلـةـ الخبرـةـ . وـبعـدـئـذـ أـدرـكـتـ أنهـ سـمعـ شـيـئـاـ ماـ قـبـلـ أنـ يـسـمعـهـ شـخـصـ آخرـ : إـذـ أـصـدرـ أـوـامـرـ سـرـيـعـةـ . وـعـنـدـئـذـ قـفـزـ أـحـدـ الـأـوـلـادـ نـحـوـ الـبـابـ . وـتـرـامـتـ إـلـىـ سـمعـهاـ أـصـواتـ خـافـتـةـ أـتـيـةـ مـنـ الـخـارـجـ وـاستـطـرـدـ تـايـهـ قـائـلاـ كـانـ شـيـئـاـ لـمـ يـحدـثـ :

- هلـ يـعـلمـ كـيـفـ تـكـرـهـينـ ؟

قالـتـ : قالـ إنـ الـكـراـهـيـةـ يـنـبـغـيـ أنـ تكونـ مـوجـهـةـ ضـدـ الصـهـاـيـةـ . إنـناـ لـكـيـ نـحـارـبـ يـنـبـغـيـ أنـ نـحـبـ . وـقـالـ إنـ الـمعـادـةـ لـلـسـامـيـةـ هـىـ اـبـتكـارـ مـسـيـحـيـ .

توقفـتـ عنـ الـكـلامـ حـيـثـ سـمعـتـ الـأـشـيـاءـ التـيـ سـمعـهاـ تـايـهـ قـبـلـهاـ بـوقـتـ طـوـيلـ إـنـهـ صـوتـ سـيـارـةـ تـصـعدـ التـلـ . قـالـتـ لـنـفـسـهاـ : إـنـهـ مـرـهـفـ السـمـعـ مـثـلـ الـأـعـمـىـ . وـرـبـماـ كـانـ السـبـبـ فـيـ ذـلـكـ هوـ جـسـدـهـ الـمـعـوقـ . تـسـاعـلـ : أـتـحـبـينـ أمـريـكاـ؟

- لا -

- هل سبق لك الذهاب إلى أمريكا ؟

- لا .

فتساءل : وكيف يمكن لك أن تقولي إنك لا تحبين أمريكا إذا كنت لم تذهبى إلى أمريكا ؟

هنا ، دخلت السيارة إلى الفناء الأمامي . ثم سمعت تشارلى وقع أقدام . سمعت أصواتاً مخفية ومكبوبة . وشاهدت انوار السيارة الأمامية وهي تمر عبر الغرفة أمامها قبل انطفائها . قال لها في لهجة أمراء : إبق حيث أنت وظهر ولدان آخرين . أحدهما يحمل حقيبة من البلاستيك . والآخر يحمل مدفعاً رشاشاً . وقف في صمت دون حراك . وانتظرا في احترام أن يبدأ الكابتن تايه في مخاطبتهما . وكانت الخطابات موجودة بينهما على المنضدة . وعندما تذكرت مدى أهمية الخطابات فإن الفوضى السائدة بين الخطابات بدت مهيبة . قال تايه : لن يتعقبك أحد . وأنت سوف تتجهين جنوباً ، احتسى الفودكا . ثم اذهبى مع الولدين أنا أصدقك . ولا أصدقك . ربما ليس لذلك أهمية كبيرة . ان معهما ملابس من أجلك .

لم تكن سيارة . وإنما كانت سيارة إسعاف مرسوم على جوانبها هلال أخضر اللون . وفوق غطاء محرك السيارة المعدني كميات من الغبار الأحمر كما يوجد شاب ذو شعر أشعث يرتدي نظارة سوداء عند عجلة القيادة . وكان هناك ولدان آخرين يجثمان فوق السريرين المبيتين في جانب السيارة بالجزء الخلفي منها وقد حشرا مدافعتهما الرشاشة في ذلك المكان الضيق ، أما تشارلى فقد جلس متتصبة القامة في شجاعة بجوار السائق . وهي ترتدي زي المستشفى وغطاء الرأس الرمادي . كان معظم الليل قد انقضى حيث بزغ فجر بهيج . وظهرت بعده شمس ثقيلة على يسارهم . ظلت الشمس تختبئ لدى نزولهم في تموّج والتواه وفي حزم شديد من فوق التل . حاولت تشارلى أن تثير باللغة الانجليزية مع السائق . ولكنه ظهرت عليه مشاعر الغضب . فقالت في سعادة « مرحباً » للولدين

القابعين خلفهما بالسيارة إلا أن أحدهما كان متوجه الوجه بينما بدا الآخر شرساً وضارياً . لذلك اكتفت بالتمتع بمشاهدة المناظر الطبيعية . لقد أخبرها بأنها ستتجه جنوباً . إلى أي مسافة ؟ ومن أجل ماذا ؟ كان هناك التزام أخلاقي بشأن عدم توجيه الأسئلة وكان اعتزازها وغريزة حب البقاء يتطلبان منها أن تتواافق مع ذلك الالتزام الأخلاقي .

و جاءت أول نقطة تفتيش لدى دخولهم إلى المدينة . وقابلتهم أربع نقاط أخرى للتفتيش قبل أن يغادروا المدينة على الطريق الساحلي المتجه جنوباً ، وعند نقطة التفتيش الرابعة يتم نقل جثة شاب ميت إلى داخل تاكسي بمعرفة رجلين بينما راحت النساء يصرخن ويطرقن بأيديهن على سقف التاكسي . وكان الميت ملقى على جانبه بينما يده الشاغرة تشير إلى أسفل كأنها لا تزال تحاول الإمساك بشيء ما . راحت تشارلى تتلو من الذاكرة لنفسها : عقب الموت الأول لا يوجد هناك موت آخر . حيث كانت تفكر آنئذ في اغتيال ميشيل وظهور البحر الأزرق على يمينهم . ومرة أخرى أصبح المنظر سخيفاً . وبدا الأمر وكأن حرباً أهلية قد نشببت على طول المصيف الانجليزي . على جانبي الطريق سيارات محطمة وفيلات شطرتها القذائف الصاروخية . وفي أحد الملاعب راح طفلان يقذفان الكرة لبعضهما عبر حفرة ناجمة عن انفجار لغم . كما ظهرت القوارب واليخوت المحطمة وشبه المغمورة في الماء .

توقفوا مرة أخرى عند نقطة مرور على الطريق . إنهم السوريون . لم تجذب المرضيات الألمانيات الموجودات في سيارات إسعاف فلسطينية انتباه أحد . سمعت تشارلى صوت موتور موتسيكل . وحملقت في غير فضول نحوه، إن عليه حقائب مليئة بالموز الأخضر وهناك دجاجة حية معلقة من قدميها في المقود وفوق سرج الموتسيكل كان ديمترى يصفعى في اهتمام إلى صوت الموتور . وكان يرتدى الزي الرسمي للجندي الفلسطيني . علاوة على ارتداء كوف حول رقبته . وكان يوجد غصن من نبات الخلنج الأبيض مثبتاً في الكتفية (*) الكاكية الخاصة بقميصه ...

(*) الكتفية : نسيج مقصب على كتف السترة العسكرية .

كأنه يقول لها « نحن معك » لأن نبات الخليج الأبيض بمثابة الإشارة التي تبحث عنها على مدى هذه الأيام الأربع .

كان يوسف قد قال : من الآن فصاعداً فإن الحسان فقط هو الذي يعرف الطريق . ومهمنك أن تظل باقية فوق السرج .

..

مرة أخرى كونوا عائلة . وانتظروا .

وكان مسكنهم في هذه المرة في منزل صغير بالقرب من صيدا . وهو منزل له شرفة خرسانية شُقِّت إلى نصفين بسبب سقوط قذيفة عليها أطلقت من سفينة حربية إسرائيلية مما أدى إلى ظهور قضبان حديدية صدمة ناتئة في الهواء كأنها قرون استشعار خاصة بحشرة عملاقة . وكانت الحديقة الخلفية بستانًا مليئاً بأشجار اليوسفى . والجزء الأمامي بمثابة مقلب للزيالة والطين وال الحديد الخردة . وكان ذات يوم مكاننا مشهوراً خلال الغزو الأخير أو خلال الغزو الذي حدث قبل الغزوات الخمسة الأخيرة . وفي الاستبل المجاور توجد عربة مدرعة محطمة تقاسم ملكيتها عائلة من الكتاكيت وكلبة مسالمة لاجئة ومعها أبناؤها الأربع من الكلاب الصغيرة . وإلى ما وراء العربة المدرعة يوجد بحر صيدا الأزرق ومن المخزون اللانهائي من الأولاد التابعين للكابتن تايه حصلت تشارلى على ولدين آخرين : كريم وباسر كان كريم ممتنعاً وجلافاً . وبدا طموحاً يرغب أن يصبح مهندساً . يبلغ من العمر ١٩ عاماً . لقد أمضى ست سنوات في القتال المتواصل ويتحدث اللغة الانجليزية بصوت هامس !

قال كريم : عندما تتحرر فلسطين سأدرس في القدس ، وإلى أن يتم تحرير فلسطين فإنني ربما أدرس في ليننجراد أو ربما في ديترويت .

ثم قال في هدوء وأدب جمًّا ، إن أخيه ماتت أثناء الغارة التي قام بها الصهاينة على معسكر النبطية أما أخيه فقد تم نقله إلى معسكر الرشيدية ولكنه مات أيضاً هناك بعد ثلاثة أيام بسبب قيام الصهاينة بقصف معسكر الرشيدية من

جهة البحر . ووصف موت أخيه وأخته في تواضع شديد كما لو أن موتها يعتبر أمراً بسيطاً في خضم المأساة الهائلة الشاملة التي لحقت بالشعب الفلسطيني كله .

ذات صباح قال لشارلى في شيء من الفموض بينما هي واقفة عند نافذة حجرة نومها وقد ارتدت قميص نوم أبيض متلطم بينما قد وضع مدفعة الرشاش في حالة استعداد لإطلاق الرصاص : ان فلسطين أشبه بقطة صغيرة . قطة تحتاج للثير من التمليس والمداعبة والملاطفة وإلا ستتحول إلى قطة شرسه موحشة ضاربة .

وأوضح قائلاً أنه سبق أن شاهد رجلاً قبيح الشكل في الشارع وعندئذ راح يفكر فيما إذا كان ينبغي عليه أن يقتله .

ولكن ياسر - وهو شاب به جبين منخفض يشبه جبين الملوك وله حملقة غاضبة - لم يكن بمقدوره أن يتكلم معها على الإطلاق .

كان يرتدي قميصاً من قماش مرسوم عليه مربيعات علبة على ارتداء حبل عنقى أسود اللون ملفوف في أنشوطه عبر كتفه بما يفيد أنه تابع للاستخبارات الحربية . عندما هبط الظلام وقف في الحديقة يرقب البحر بحثاً عن المغيرين الصهاينة . أوضح كريم في شيء من التعاطف قائلاً أن ياسر يعتبر من كبار الشيوعيين ولذلك يسعى إلى تدمير الاستعمار الموجود في كل مكان في كل أرجاء الأرض . وكان ياسر يكره الغربيين حتى ولو كانوا يدعون أنهم يحبون الفلسطينيين وفقاً لما قاله كريم ، لقد ماتت أمه وجُمِعَ أفراد أسرته أثناء هجوم الصهاينة على معسكر تل الزعتر .

تساءلت تشارلى : ماتوا من ماذا ؟

فقال كريم : من العطش كانت تل الزعتر بمثابة مخيم للاجئين موجود في بيروت . يضم أكواخا ذات أسقف من الصفيح . وفي كل غرفة يعيش أحد عشر شخصاً . وكان المعسكر يضم ثلاثين ألفاً من الفلسطينيين واللبنانيين الفقراء . وقد صمد هؤلاء الفقراء هناك على مدى ١٧ شهراً ضد القصف المتواصل بالقناص .

تساءلت تشارلى : من الذى قام بهذا القصف المتواصل على مدى ١٧
شهر؟

فدهش كريم من سؤالها هذا . وقال : لقد قامت الكتائب بهذا القصف كما شارك فى هذا القصف جنود غير نظاميين من المارون الفاشيست وساعدهم فى ذلك السوريون وكذلك الصهاينة بكل تأكيد ، ولقد مات الآلاف . الا أن أحدا لا يعرف الرقم الحقيقى على وجه الدقة . وعندما دخل المهاجمون المعسكر قاموا بإطلاق الرصاص على معظم الباقيين على قيد الحياة . بل وتم وضع المرضيات والأطباء فى طابور ثم أطلقوا عليهم الرصاص وقتلوهم جميعا . كان ذلك أمرا منطقيا طالما أنهم لم يكن لديهم أية كميات متبقية من الدواء أو الماء أو المرضى .

قالت تشارلى لكريم : هل كنت هناك؟

لا . ولكن ياسر كان هناك .

قال لها الكابتن تايه عندما وصل لكي يصطحبها فى الليلة التالية : لا تأخذى حمام شمس مستقبلاً فنحن لسنا فى الريفيرا .

لم تشاهد الأولاد بعد ذلك مرة أخرى على الإطلاق . وكانت تدخل تدريجيا فى تلك الحالة التى تتباين بها يوسف على وجه الدقة . اذ كانت قد بدأت تتعرف على الحجم الهائل للأسرة .

قال كريم مرددا نفس الكلام الذى قاله الكابتن تايه : سرعان ما سنصبح جميعا فى عداد الموتى . فالصهاينة سوف يقومون بابادتنا إبادة جماعية . ولسوف تشاهدين ذلك بنفسك .

..

قال الكابتن تايه فى إيجاز متسم بالطابع الشفرى الملىء بالألفاظ إن السجن يقع فى وسط المدينة وإنه المكان الذى ينوى فيه الأبريراء فترة الأحكام بالسجن مدى الحياة . ولكى يصلوا إلى السجن عليهم أن يتركوا سياراتهم فى

الميدان الرئيسي ويدخلوا في متاهة من الطرق والمرات القديمة المكشوفة تتسلى منها شعارات مغطاة بالبلاستيك . ولقد اعتقدت بطريق الخطأ أن تلك الشعارات بمثابة ملابس مفسولة ومنشورة على الحال . وكانت مصابيح الشوارع تسقط في عمق على الحوائط الرخامية . فبدت وكأنها تضيء الرخام من الداخل . وكانت الضوضاء تتضاعف في الأزقة تدريجيا . ثم تتوقف في بعض الأحيان عندما يستديرنون عند إحدى النواصي بحيث لا يسمعون سوى وقع أقدامهم التي تمشي في تناقل على الأحجار الرومانية .

راح رجل متسم بمشاعر العداية ومرتدٍ لينطلقون مقوس الساقين يقوم بإرشادهم ويقدمهم على الطرق . قال الكابتن تايه وهو يعرج إلى جوارها: لقد أوضحت للمدير الإداري أنك صحافية غربية . ومشاعره نحوك ليست طيبة لأنه لا يحب أولئك الذين يجيئون إلى هنا لكي يحسنوا معلوماتهم في مجال علم الحيوان . وكان القمر المنزق يسايرهم في مشيتهم ولا يتخلف عنهم . دخلوا في ميدان آخر فحياتهم انفجار من الموسيقى العربية ينبثق من مكبرات الصوت مربوطة في أعمدة . وكانت البوابات العالية مفتوحة تؤدي إلى فناء مضاء تطل عليه مجموعة متتالية من الشرفات .

همست تشارلى وهي مازالت تشعر بالحيرة : من يكونون هم إذن ؟ وما الذي فعلوه ؟

قال الكابتن تايه : لا شيء . تلك هي جريمتهم . فهم اللاجئون الذين هربوا من المعسكرات وهذا السجن ذو حوائط سميكة . وكان شاغرا : لذا استولينا عليه كي نوفر لهم الحماية . يجب عليك أن تحبي الناس في وقار ، ولا تسارع إلى الابتسام لهم باستمرار ، وإنما سيعتقدون أنك تسخرين من البؤس الذي يعيشون فيه .

وحملق رجل عجوز جالس على كرسي في نظرات خاوية نحوهم . وتقدم الكابتن تايه والمدير الإداري للأمام لكي يقروا بتحيته . حملقت تشارلى فيما حولها ، وراحت تفكّر : إنني أشاهد هذا كل يوم . إنني صحافية غربية تصف الحرمان لأولئك

الذين يمتلكون كل شيء ومع ذلك يشعرون بالتعاسة . كانت تشارلى واقفة في وسط مخزن حجرى ذى حوائط عالية وله أبواب ذات قضبان حديدية أما الطلاء الأبيض فيغطي كل شيء مما أعطى إيحاء وهما بوجود النواحي الصحية وتوفراها . وكانت الزنزانات الموجودة بالدور الأرضى مقوسة وذات بوالٍ وتبعد أبوابها مفتوحة وكأنها تعبّر عن كرم الضيافة . ويدت الهياكل الموجودة في داخلها راح الأطفال يتحرّكون ببطء . وكانت الحال التي تتدى منها الملابس المفسولة توجد أمام كل زنزانة . شمعت تشارلى رائحة قهوة ورائحة المجاري المفتوحة . عاد إليها الكابتن تايه والمدير الإداري قال تايه دعيم يتحدثون إليك أولاً ولا تكوني متطرفة وراديكالية مع هؤلاء الناس لأنهم لن يفهموك . فأنت تشاهدرين الآن نوعية من الناس أصبحوا شبه منقرضين بالفعل .

صعدوا السالم الرخامية . وكانت الزنزانات ذات أبواب مصممة ومتينة وبها ثقوب كى ينظر من خلالها السجانون . وبدا الأمر وكأن الضوضاء تتضاعد مع تزايد حرارة الجو . ومررت امرأة مرتدية ملابس فلاحية قروية كاملة . فتحدث معها المدير الإداري . وعندئذ أشارت بيدها على طول balkone إلى لافتة مكتوبة بخط اليد باللغة العربية . وساروا في اتجاه سهم . وسرعان ما أصبحوا عند الجزء الأوسط من السجن . وقالت في نفسها : سأحتاج إلى خيط كى أتمكن من معرفة الطريق أثناء العودة . ألقت نظرة على الكابتن تايه ولكنه لم يرحب في النظر إليها ، لا تأخذى حمام شمس مستقبلاً . ثم دخلوا إلى غرفة كانت فيما سبق مكتباً للموظفين أو ربما كانت مقصفاً . وفي وسط الغرفة توجد منضدة للكشف الطبى عليها مفرش من البلاستيك . وعربة جديدة صغيرة تضم أنوبيّة وجرايل نظافة ومحاقن . كان هناك رجل وامرأة يقومان بأعمال الإسعافات الأولية والتمريض والعون والمساعدة . كانت المرأة مرتدية ثياباً سوداء اللون تقوم بتنظيف عينى طفل بقطعة من القطن الطبى . جلست الأمهات المنتظرات بورهن في صبر على طول الحائط بينما أطفالهن انتابتهن حالة من النوم الخفيف . وقال الكابتن تايه في لهجة أمره . «قفى هنا» شاهدته المرأة وهو يدخل ، وتركزت عيناهما عليه ثم على تشارلى . ثم قالت

كلاما ما لأم الطفل ، وناولتها اية ، ثم ذهبت إلى حوض غسيل الأيدي وغسلت يديها في إتقان ، بينما راحت تتفحص تشارلى في المرأة .

قال الكابتن تايه : «اتبعونا»

إن بداخل كل سجن توجد غرفة صغيرة مشرقة بها أزهار من البلاستيك بمصورة فوتوغرافية لسويسرا حيث يمكن استضافة الناس الأبراء . كان المدير الإداري قد رحل . جلس الكابتن تايه والفتاة على جانبى تشارلى جلست الفتاة في اعتدال مثل راهبة بينما انحنى تايه على عصاہ والعرق يتصبب على وجهه وتململ في عصبية لم تكن الأصوات المترامية من السجن قد توقفت وإنما انضمت لبعضها البعض على هيئة صوت واحد متناقض يضم أحياناً أصواتاً موسيقية وأحياناً أخرى أصواتاً أدمية . وفي بعض الأحيان وعلى نحو مثير للدهشة سمعت تشارلى أصوات ضحكات . كانت الفتاة جميلة وحازمة في وقار . بل كانت مثيرة للرهبة بملابسها السوداء وبملامحها القوية وحملقتها السوداء المباشرة الخالية من النفاق أو الدخاع . قصت شعرها ليصبح قصيراً للغاية وكان الباب مفتوحاً وتحت حراسة الشابين كالمعتاد .

تساءل الكابتن تايه وهو يطفئ سيجارته الأولى :

- هل تعرفين من تكون ؟ هل يمكنك أن تتعرفي على شيء ما مألف في الوجه ؟ دقيق النظر ؟
ولم تكن تشارلى بحاجة لأن تدقق النظر . حيث قالت على الفور : إنها فاطمة .

- لقد عادت إلى صيدا لكي تكون بين أهلها . أنها لا تعرف اللغة الانجليزية ولكنها تعرف من تكوين . فقد قرأت الخطابات التي أرسلتنيها إلى ميشيل وكذلك خطاباته إليك . مترجمة إلى العربية بالطبع ، ولذا فهي مهتمة بك .

تحرك تايه في كرسيه متألماً ، ثم استخرج من جيبه سيجارة ملطخة بالعرق وأشعلها .

وهي في حالة من الحزن والحداد لكننا جميعاً في حداد أيضاً . وعندما تتكلمين معها أرجو ألا تثيرى النواحي العاطفية . فقد فقدت اختاً وثلاثة أشقاء . وفي هدوء شديد بدأت فاطمة في التكلم . وعندما توقفت عن الكلام شرع تائه في الترجمة .

- إنها ترغب أولاً في توجيه الشكر إليك . لأنك قدمت الراحة والعون لأخيها سالم أثناء محاربته للصهيونية . ولأنك شاركت بنفسك في الكفاح من أجل تحقيق العدالة وهي تقول . إنك الآن بمثابة اخت لها . وإنكما أحبيتما ميشيل معاً وأنتما سوياً تفخران بموته البطولي . وهي تسألك : هل أنت أيضاً تفضلين الموت على أن تصبحي عبدة للامبرالية ؟ إنها تهتم بالنواحي السياسية للغاية . قولى لها : نعم .

- نعم .

- إنها ترغب أن تسمع عن الكيفية التي تحدث بها ميشيل عن عائلته وعن فلسطين . ولا تلجمي للفبركة والتلقيق والاختلاف . فلديها حاسة غريزية قوية . نهض الكابتن تايه على قدميه ، وراح يجوب الغرفة في بطء . ويقوم بالترجمة أو بإلقاء أسئلته الثانوية الفرعية الخاصة به من وقت لآخر .

كانت تشارلى تتحدث في صراحة من كل قلبها ومن ذكرياتها الجريحة . ولم تكن إنسانة دجالة أو محatalة بالنسبة لأى شخص أو حتى بالنسبة لنفسها . وقالت إن ميشيل في بادئ الأمر لم يكن يتكلم عن إخوته على الإطلاق وتحدث مرة واحدة بطريقة عابرة عن اخته الحبيبة فاطمة . وبعدئذ وفي يوم ما - وكان ذلك في اليونان - بدأ يتحدث ويستفرق في الذكريات عن إخوته . وأشار أن اخته فاطمة جعلت من نفسها أما لجميع أفراد أسرتها عقب وفاة والدته .

وقام الكابتن تايه بالترجمة . ولم تظهر ريد فعلى وجه فاطمة . إلا أن عينيها تركزتا طوال الوقت على وجه تشارلى تتفحصها وتترقبها وتصفي إليها . و تستفسر منها .

- ما الذى قاله عن إخوته ؟

- قال إنه طوال فترة طفولته كان ينظر إلى إخوته الكبار على أنهم بمثابة الإلهام الساطع أمام عينيه . وفي الأردن وأثناء وجودهم في المعسكر الأول الخاص وعندما كان صغيراً في السن ولا يمكنه المشاركة في القتال كان إخوته يتسللون خارجين في خفية دون أن يقولوا لأحد عن المكان الذي سيذهبون إليه . وبعدئذ تجيئ فاطمة إلى سريره وتهمس في أذنه قائلة له إن إخوته تمكناً من شن هجوم آخر ضد الصهاينة .

قاطعها الكابتن تايه من خلال الدخول في ترجمة سريعة . فقدت أسئلة فاطمة طابع الاستغراب في الذكريات عن إخوتها واتخذت صرامة وخشونة الفحص والتدقيق . ما هي المواد التي كان يدرسها إخوتها ؟ وما هي المهارات والجدرات التي تميزوا بها ؟ وما هي الطريقة التي ماتوا بها ؟ وراحت تشارلى تجيب بقدر ما لديها من معلومات ... شيئاً فشيئاً : إذ أن سالم ميشيل لم يكن قد أخبرها بكل شيء . وفواز كان محامياً عظيماً أو كان يهدف لأن يصبح محامياً . كان غارقاً في حب طالبة في عمان - كانت حبيبة منذ أيام طفولته عندما كانوا يعيشان في قريتهم بفلسطين . لقد أطلق الصهاينة الرصاص عليه فأردوه قتيلاً لدى خروجه من منزلها في الصباح الباكر ذات يوم . وأضاف قائلة : وطبقاً لما قالته فاطمة فإن ...
قاطعها تايه متسائلاً : ماذا عن : طبقاً لما تقوله فاطمة ؟

- طبقاً لما تقوله فاطمة فإن الأردنيين هم الذين أعطوا عنوانها للصهاينة . وكانت فاطمة توجه سؤالها في غضب ، وقام الكابتن تايه مرة أخرى بالترجمة ، فقال :

- أشار ميشيل في أحد خطاباته إلى اعتزازه لأنه تعرض للتعذيب مع أخيه العظيم الكبير . يقول فيما يتعلق بهذا الحدث إن أخته فاطمة هي المرأة الوحيدة على وجه الكرة الأرضية - بالإضافة إليك - التي أحبها جائلاً صادقاً . اشرحى هذا لفاطمة ووضعيه لو سمحت . فائي واحد من الأخوة يعني ؟

فقالت تشارلى : إنه يعني «خليل» فقال تايه : قدمى وصفا كاملا لهذه الواقعه ؟

- تم ذلك في الأردن

- أين ؟ وكيف ؟ قدمى وصفا على وجه الدقة .

- حدث ذلك في الفترة المسائية. إذ جاءت قافلة من سيارات الجيش الأردنية إلى المعسكر عددها ست سيارات ، ثم ألقوا القبض على خليل وميشيل / سالم وأصدروا أوامرهم لميشيل بالذهاب لكي يقطع أغصانا من شجرة رمان - ثم نشرت يديها تماما مثما فعل ميشيل في تلك الليلة في معبد دلفي - ستة أغصان صغيرة طول كل منها متر ، وأمروا «خليل» بأن يخلع حذاه وأمروا «سالم» أن يركع ويمسك بقدمي خليل وراحوا يضربون «خليل» على قدميه بأغصان الرمان . وبعد ذلك غيروا الوضع بحيث يمسك خليل قدمى سالم ، ولم تعد أقدامهما شبيهة بالأقدام على الإطلاق وبحيث لا يمكن التعرف على شكلها ، ومع ذلك أرغمهما الأردنيون على الجري بأن راحوا يطلقون الرصاص خلفهما في اتجاه الأرض .

قال تايه في نفاد صبر : هكذا ؟

- ماذا تعنى به : هكذا ؟

- لماذا تعتبر فاطمة باللغة الأهمية بالنسبة لهذا الموضوع ؟

- لأنها هي التي قامت بتمريضهما ورعايتها ليلاً ونهاراً بأن وضعت الكمامات على أرجلهما ، وكانت ترفع من معنوياتهما وتملؤهما بالشجاعة. بل تقرأ لهم كتابا من تأليف كبار الكتاب العرب جعلتهما يخططان من أجل القيام بهجمات شديدة ، أما هو فقد قال :

إن فاطمة هي قلبنا النابض ، وهي فلسطيننا ، وينبغي علىَّ أن أتعلم من شجاعتها ومن قوَّة شكيمتها .

هل قال ذلك ؟

قال الكابتن تايه : بل قد كتب ذلك إنه «مغفل» ثم أشعل لنفسه سيجارة أخرى .

.....

راح تايه يحملق في حدة نحو الحائط الشاغر كما لو كانت هناك مرأة مثبتة هناك . وأخذ يجفف العرق المتصبب من وجهه بمنديله ، نهضت فاطمة ، وسارت في صمت نحو الحوض ، ثم أحضرت كوبًا من الماء واستخرج تايه من جيبه زجاجة مفلطحة صغيرة وصب لنفسه بعض ال威سكي في الكوب ، ثم استدارت فاطمة بوجهها نحو تشارلى مرة أخرى بينما صاغ تايه سؤالها الأخير :

- ما معنى هذه العبارة التي وردت في خطابه : «الخطة التي اتفقنا عليها عند قبر والدى» أوضحى هذا أيضًا ، ما هي هذه الخطة ؟
وبدأت تشارلى في وصف الطريقة التي مات بها إلا أن تايه قاطعها في الكلام ، وقال :

- نحن نعرف الكيفية التي مات بها . لقد مات بسبب شعوره باليأس المزير . حديثنا عن الجنازة .

- لقد أبدى رغبته في أن يدفن في هبرون .

- أى في الخليل . ولذا أخذوه إلى كوبى النبي ، ورفض الصهاينة السماح له بعبور الكوبى . وعندئذ قام ميشيل وفاطمة واثنان من الأصدقاء بحمل النعش والصعود به فوق تل مرتفع وعندما جاء المساء قاموا بحفر قبر في مكان يمكن منه أن يطل على الأرضى التي اغتصبها الصهاينة منه .

- وأين كان يوجد خليل أثناء قيامهم بهذا العمل ؟

- كان غائبًا فلقد تغيب منذ سنوات . من المتعدد إجراء اتصالات معه، كان يحارب . ولكنه ظهر فجأة في تلك الليلة بينما هم يهيلون التراب ويغلقون القبر .

- وماذا بعد ذلك ؟

- لقد شارك في ملا القبر بالتراب . وبعدئذ طلب من ميشيل المجيء والدخول في القتال .

فقال تايه مكررا نفس العبارة : المجيء والدخول في القتال ؟

- قال إن الوقت قد حان لمقاتلة الكيان اليهودي في كل مكان في العالم . وأشار إلى أنه لا يوجد فارق على الإطلاق بين اليهودي والإسرائيلي . وأوضح أن الجنس اليهودي كله هو بمثابة قاعدة حربية صهيونية . وأن الصهاينة لن يهدأ لهم بال إلا إذا تمكنا تماما من إبادة شعبنا الفلسطيني إبادة كاملة ، وقال إن فرصتنا الوحيدة هي أن نشد العالم كله من أذنيه ونرغمه أن يصفعي لنا . فإذا كان الأمر يستلزم ضرورة تبديد حياة وأرواح الناس الأبرياء فلماذا ينبغي أن ينصب هذا التهديد والتبييد دائما على الفلسطيني ؟ ان الفلسطينيين لن يلجأوا إلى تقليد اليهود والانتظار لمدة ٢٠٠٠ سنة على أمل العودة إلى أراضيهم .

قال تايه في شيء من الإصرار : إذن ما هي تلك الخطة التي وضعتم ؟

- الخطة هي أنه ينبغي على ميشيل أن يذهب إلى أوروبا ويقوم خليل بعمل الترتيبات اللازمة لذلك . أن يدرس ميشيل في أوروبا ولكن في نفس الوقت يصبح أيضا مقاتلاً .

ثم تكلمت فاطمة ، لفترة قصيرة .

قال الكابتن تايه : تقول إن أخاه الصغير كان له فم كبير وإن الله كان حكيمًا عندما أغلق فمه . واستدعي تايه الشابين ، وسار بسرعة في عرج أمامها هابطا على السالم ، ولكن فاطمة وضعت يدها على ذراع تشارلى وأوقفتها وحملقت في وجهها في حب استطلاع مليء بالمشاعر الودية ، وسارت المرأة جنبًا إلى جنب عائدين على طول الدهليز ، وعند باب العيادة حملقت فاطمة في تشارلى مرة أخرى ، وفي هذه المرة كانت حملقتها مليئة بالارتباك والحيرة والذهول ، ثم قبلت تشارلى على خدها . ألقت تشارلى نظرةأخيرة على فاطمة فرأتها تستعيد الطفل مرة أخرى ، وتنهك في تنظيف عينيه بالقطن الطبى . ولو لم يكن تايه قد راح

ينادى على تشارلى ويستحثها على الإسراع ل كانت قد بقيت لمساعدة فاطمة فى العمل طوال الفترات المتبقية لها من حياتها .

.....

قال تايه عندما وصلت بهما السيارة إلى المعسكر :

- عليك أن تنتظري ، فلم نكن نتوقع مجيئك ولم نوجه الدعوة لك .

ظننت أنه جاء بها إلى قرية . لأن صفوف الأكواخ البيضاء الموجودة على منحدر التل تبدو شديدة الجاذبية لدى وقوع أضواء المصابيح الأمامية للسيارة عليها . ولكن ما إن تقدمت بالسيارة حتى بدأت تفاصيل المكان تتكشف . وعندما وصلوا إلى قمة التل وجدت نفسها في مدينة صغيرة بمثابة مكان بديل مؤقت شيد ليضم الآلاف من الناس وليس المئات . استقبلهم رجل رمادي اللون جليل ومهيب . يرتدي حذاء أسود لامعاً وبدلة عسكرية كاكية اللون . أحسست أنه قد ارتدى أفضل ما لديه من ثياب بمناسبة زيارة الكابتن تايه .

قال تايه في بساطة لكي يعرفه على تشارلى : إنه قائمنا هنا . وهو يعرف فقط عنك أنك إنجليزية .

ساروا وداعم إلى غرفة صغيرة بها كتوس خاصة بالمسابقات الرياضية موضوعة في صناديق زجاجية . وعلى على المنضدة طبق كبير مليء بالسجاير من أنواع مختلفة . أحضرت فتاة شابة طويلة الشاي المحلي بالسكر والكعك . إلا أن أحداً لم يتكلم معها . كانت تضع حجاباً على رأسها . وترتدي جونلة تقليدية كاملة الطول وحذاء بدون كعب . أهي زوجة ؟ أهي اخت ؟ لم تستطع تشارلى أن تتبع إيجابية . كانت توجد حول عينيها كدمات زرقاء تنم عن الحزن بدا وكأنها تعيش في عالم من الأحزان . عندما انصرفت رقم الرئيس تشارلى بنظرة ضاربة عميق ، ثم تحدث طويلاً في شيء من الاكتئاب في لهجة اسكتلندية واضحة . وأشار دون أن يبتسם أنه عمل في الشرطة الفلسطينية أثناء فترة الانتداب البريطاني على فلسطين ، وقال إنه مازال يحصل على معاش من الحكومة البريطانية . وأوضح أن

العزم والشجاعة اللتين يتسم بهما شعبه تزايدتا وتعمقتا من خلال معاناته الشديدة، وأعطى بيانات إحصائية. ففي خلال الـ ١٢ عاماً الأخيرة تعرض المعسكر لـ ٧٠٠ غارة تم فيها قصفه بالقنابل والصواريخ . وأعطى أرقاماً عن القتلى والجرحى مع التركيز على النساء والأطفال ، وأشار إلى أن أكثر الأسلحة فتكاً كانت هي القنابل العنقودية المصنوعة في أمريكا . وأوضح أن الصهاينة كانوا يلقون أيضاً الشرار الخادعة التي هي على شكل لعبة للأطفال . وأصدر أوامره فجأة صبياً ومهلاً لعبه أطفال على هيئة سيارة ، ثم رفع غطاء السيارة وكشف عن الأسلاك والمتغيرات في داخلها ، ثم وأشار إلى تنوع النظريات السياسية التي يؤمن بها الفلسطينيون ولكنه أكد في حماس أن جميع الخلافات في الرأي تتلاشى أمام مواجهة الصهيونية ومكافحتها ومحاربتها .

قال : إنهم يقصوننا جميعاً بالقنابل والصواريخ ، كان يخاطبها باسم : «الرفيق ليلى» لأن تايه أعلن أن ذلك هو اسمها . وبعد أن انتهت من خطبته أعلن ترحيبه الشديد بها . وأسلمها في امتحان شديد لفتاة الطويلة الحزينة قائلاً : «من أجل العدالة» وذلك كبديل عن قوله : طابت ليلىتك .

ردت عليه «من أجل العدالة» .

وراح تايه يرقبها وهي تذهب مع الفتاة الطويلة الحزينة ، كان الظلام يسود الشوارع الضيقة . وكانت المجاري المكشوفة تنحدر نحو الأماكن الموجودة في الوسط . انجرف القمر شب المكتمل فوق التلال . راحت الفتاة الطويلة تقود الطريق وتسيير أمامها . وكان الأولاد يسرون وراء تشارلى حاملين مدافعهم الرشاشة وكذلك حقيبة الكتف الخاصة بتشارلى . مروا على ملعب مليء بالأوحال وعلى أكواخ منخفضة ربما كانت بمثابة مدرسة . تذكرت تشارلى انضمام ميشيل لفريق كرة القدم وساطت نفسها في تعجب : ترى هل فاز بإحدى الكؤوس الفضية الموجودة في غرفة الرئيس ؟ كانت هناك أنوار زرقاء شاحبة تسقط فوق الأبواب الصدئة للمخابئ التي يذهب إليها الناس أثناء الغارات الجوية . والضوضاء كانت هي الضوضاء الليلية لأناس مفتربين ومبعدين عن أوطانهم . راحت الموسيقى الوطنية

الصاخبة تختلط مع تمتة العجائز ، وفي مكان ما راح شاب وزوجته الشابة يتناقشان في ضفينة ثم تفجرت أصواتهما في غضب مكبوت .

- والدى يعتذر لك بسبب عدم توافر وسائل الراحة من حيث المبيت . وهناك قانون في المعسكر بشأن ضرورة أن تكون المبانى مبسطة ومؤقتة وغير دائمة ، وذلك لكي لا ننسى المكان الذى فيه وطننا . وإذا حدثت غارة جوية لا تنتظري سماع صفارات الإنذار ، سيرى فى نفس الاتجاه الذى يجرى نحوه كل شخص . وبعد انتهاء الغارة الجوية إحرصى على عدم الإمساك بأى شيء ملقى على الأرض مثل : أقلام الحبر والزجاجات والراديوهات ولعب الأطفال .. الخ

قالت وهي تبتسم في حزن إنها تسمى سلمى وإن والدها هو الرئيس .

تابعت تشارلى سيرها إلى الأمام وراء سلمى . كان الكوخ صغيراً ونظيفاً للغاية مثل جناح في مستشفى به حوض لغسيل الأيدي وبورقة مياه . وله فناء خلفي في حجم منديل الجيب .

- ماذا تفعلين هنا يا سلمى ؟

وبدا السؤال للحظات محيراً من وجهة نظر سلمى . إذ إن مجرد الوجود هنا يعتبر بمثابة عمل أو وظيفة . تسائلت تشارلى : أين تعلمت لغتك الانجليزية ؟ فردت سلمى قائلة إنها تعلمت في أمريكا وأوضحت أنها تخرجت في قسم الكيمياء الحيوية بجامعة منيسوتا .

.....

يوجد سلام رهيب ، ولكنه سلام ريفي ينشأ عن العيش لفترة طويلة بين الضحايا الحقيقيين في العالم . وفي المعسكر عاشت تشارلى أخيراً تجربة التعاطف التي حرمتها منها الحياة حتى تلك الآونة ، فهي بمشاركتها للأسر الخاص بهم بدأت تتخيّل أنها حررت نفسها من الأسر ، وهي بحبها لهم بدأت تتخيّل أنها تحصل على غفرانهم لحالات النفاق والازدواجية التي أنت بها إلى هنا ، ولم يتم تخصيص حرس لها . ولدى استيقاظها في أول صباح لها بالمعسكر راحت في

حرص وحذر تتفحص الحواجز التي تحدّ من حريتها ، بدا لها أنه لا توجد أية قيود أو حواجز ، وسارت عند الخطوط الخارجية للملاعب الرياضية . وشاهدت أولاداً صغاراً مقوسي الأكتاف يتدرّبون في قسوة ومرارة من أجل الوصول إلى اللياقة البدنية الخاصة بالرجلة ، وعثرت على العيادة والمدارس والدكاكين الصغيرة التي تتبع كل شيء ابتداءً من البرتقال حتى زجاجات الشامبو الكبيرة ، وفي العيادة راحت امرأة سويدية عجوز تتحدث معها في ارتياح ورضا عن مشيئة الله وإرادته .

أوضحت الأمور قائمة بطريقة حالمه : لا يمكن لليهود أن يرتحوا بينما ضمائرهم تتلو بحملنا الثقيل لقد ضيق الله عليهم - ولايزال - عليهم الخناق للغاية ولماذا لا يعلم الله هؤلاء اليهود كيف يحبون جميع الناس ؟

وفي وقت الظهيرة قامت سلمى بإحضار فطيرة محسوسة بالجبنه وابريق مليء بالشاي إلى كوخ تشارلى وتناولتا طعام الغداء سوياً ، ثم صعدتا عبر بستان برتقال إلى قمة تل شبيه للغاية بالمكان الذي قام فيه ميشيل بتعليم تشارلى كيفية إطلاق النار من بندقية أخيه ، كانت هناك سلسلة من الجبال البنية اللون تمتد على طول الأفق من الجهة الغربية والجنوبية .

قالت سلمى وهي تشير بيدها عبر الوادي : « تلك الجبال الواقعة إلى الشرق هي سوريا . أمّا تلك الجبال - ثم حركت ذراعها جنوباً وتركت ذراعها يسقط في حركة يأس فجائية - فهي الجبال الخاصة بنا وذلك هو المكان الذي سيجيئ منه الصهاينة من أجل أن يقتلونا .

ولدى النزول من فوق التل لمح تشارلى عربات نقل عسكرية واقفة تحت شباك التمويه . وفي داخل بستان صغير مليء بأشجار الأرض شاهدت لمعان مواسير المدفع المصوبة تجاه الجنوب . قالت سلمى إن والدها جاء من حيفا الواقعة على مسافة أربعين ميلاً . وإن والدتها ماتت عندما أطلقت عليها طائرة مقاتلة إسرائيلية وأبلأ من الرصاص لدى مغادرتها المخبأ ، وقالت إن لها أخا ناجحاً في الحياة يمتلك أحد البنوك بالكويت . ووجهت تشارلى لها سؤالاً صريحاً فقالت سلمى : لا . لم أتزوج لأن الرجال وجذوني طولية للغاية وذكية أكثر من اللازم .

وفي المساء قامت سلمى باصطحاب تشارلى إلى حفلة موسيقية خاصة بالأطفال ، ثم ذهبتا إلى فصل دراسى بالمدرسة ، وقامتا - بالاشتراك مع عشرين امرأة أخرى - بلصق رقعات مثيرة في قمصان الأطفال وذلك من أجل المسيرة الكبرى . كان بعض هذه الرقعات بمثابة شعارات مكتوبة باللغة العربية تؤكد على تحقيق الانتصار الكامل الشامل . والبعض الآخر يتضمن صورا فوتوغرافية للزعيم ياسر عرفات الذي تسميه النساء : «أبو عمار» وظللت تشارلى ساهرة معهن طوال الليل وأصبحت بمثابة البطلة التي تدافع عن القضية الفلسطينية ، وقد تم إنجاز ٢٠٠ قميص بالأحجام الملائمة في الوقت المناسب وكل ذلك بفضل مجهودات الرفيقة ليلي .

سرعان ما كان كوكبها يمتد بالأطفال من الفجر حتى غروب الشمس حيث يرغب البعض في التحدث باللغة الانجليزية . بينما البعض الآخر يريد أن يعلمها كيف ترقص وتغني الأغاني الشعبية الخاصة بهم ، وكانت أمهات الأطفال تحضرن لتشارلى الكثير من البسكويت المحلي بالسكر والفطائر المحسنة بالجبنة من أجل تشجيعها على مواصلة البقاء معهم للأبد وهو أمر تريد أن تعمله بالفعل .

..

بدأت المسيرة العظيمة بعد ثلاثة أيام ، وكانت بداية التحرك من عند الملعب الرياضي تحت وهج حرارة الشمس في الصباح مع التقدم في بطيء حول المعسكر عبر شوارع مزدادة بالرايات والأعلام والشعارات وملائكة بالجماهير المتداقة . كانت تشارلى واقفة عند عتبة كوكبها تحمل فتاة صغيرة للغاية . لا تقوى على السير على قدميها . وبدأ الهجوم الجوى بعد دقيقتين في أعقاب قيام ١٢ طفلا بحمل نموذج لمدينة القدس على أكتافهم . هنا قامت سلمى بالشرح والتوضيح : ها هو نموذج لمسجد سيدنا عمر بن الخطاب وهو مصنوع من الورق الذهبي وأصداف البحر . وبعدها وصل أطفال الشهداء حيث حمل كل طفل منهم غصن زيتون وبعدئذ حللت الضربات الإيقاعية البهيجية الصادرة عن نيران المدفعية المترامية من جانب الجبل .

لا أن أحداً لم يصرخ أو يبدأ في الهرب بعيداً . بل وحتى سلمى التي كانت تقف إلى جوارها لم ترفع رأسها نحو الجبل حيث خيل للجميع أن صوت المدفعية هو جزء من الاحتفالات ذاتها .

وحتى تلك الأونة لم تكن تشارلى قد فكرت في الطائرات على الإطلاق . رغم أنها كانت قد لاحظت وجود طائرتين على ارتفاع شاهق في السماء وأعجبت بذيل الدخان الأبيض الطويل لدى قيامهما بالدوران على صفحة السماء الزرقاء . إذ لم يخطر على بالها أن الفلسطينيين لا يملكون طائرات ، وكانت اهتماماتها منصبة أكثر على الفتيات المرتديات للزي الرسمي اللائني يرقصن مع بعضهن البعض فوق المنصات التي تجرها الجرارات مع تقاذف مدافعن الرشاشة جيئة وذهابا على إيقاع تصفيق الجماهير بالأيدي ، كما كان الأولاد المحاربون يرتدون الكوفية الحمراء اللون والمربوطة حول جباههم .

وبعدئذ ترجمى عواء الطائرة وهى تلف وتستدير في حدة . وعندما انفجرت أول قنبلة شاهدت ومضتها على بعد ربع ميل من سفح التل ، ثم رأت دخاناً أسود اللون لدى اجتياح الضوضاء والانفجار لها في نفس الوقت . والتقت نحو سلمى وصاحت في وجهها رافعة صوتها كأن عاصفة قد هبت رغم أن كل شيء آنئذ قد أصبح هادئاً على نحو مثير للدهشة ، إلا أن وجه سلمى كان يحملق في نظرات ثابتة مليئة بالكراهية والبغضاء وهي تفتشف بنظراتها في السماء .

قالت سلمى : إنهم يضربوننا عندما يريدون ذلك لكنهم اليوم يلعبون معنا .
يكتفون باللعب معنا من المؤكد أنك جلبت علينا الحظ السعيد .

كانت دلالة الإيحاء أكثر مما تتحمله تشارلى . ولذلك رفضت هذا الإيحاء رفضاً تاماً .

سقطت القنبلة الثانية في مكان أبعد من القنبلة الأولى على ما يبدو . وبدأت فرقة موسيقى الأطفال في العزف بصوت أعلى عن ذي قبل وببدأ الموكب . وكانت الفرقة تعزف لحناً لأغنية وطنية عسكرية وراحت الجماهير تصفق بالأيدي مع إيقاع

الحن . فأجلست تشارلى الطفل الصغير على الأرض وراحت تصفق بدورها مع الحن وشعرت بالدغ فى يديها كما شعرت بالآلام تسرى فى كتفيها إلا أنها استمرت فى التصفيق وأفسح الموكب الطريق بأن سار على جانب ومرت سيارة جيب تومض بأنوارها وتبعتها سيارة إسعاف وسيارة إطفاء . وتصاعد حجاب قاتم كثيف من التراب خلف السيارات وبدا شبيها بدخان معركة . وبدد النسيم التراب واستأنفت الفرقة الموسيقية عزفها . ثم جاء الدور على اتحاد صيادى الأسماك متمثلاً فى عربة صفراء مزانة بصورة للزعيم ياسر عرفات . وبعدئذ جاء طابور آخر من الأطفال الممسكين ببنادق خشبية وهم ينشدون أغانيات تتلاع姆 مع المسيرة . تصاعد الغناء وشاركت الجماهير كلها فى الغناء . وقد انضمت إليهم تشارلى تفعل ما يفعلون .

اختفت الطائرات ، لقد أحرزت فلسطين انتصاراً آخر .

قالت سلمى فى ذلك المساء لتشارلى لدى سيرهما على جانب التل : غداً ، سوف يصطحبونك إلى مكان آخر .
قالت تشارلى : لن أذهب .

وعادت الطائرات بعد ساعتين قبل حلول غروب الشمس مباشرة . وكانت تشارلى آنذاك موجودة فى كوخها . وبدأت صفارات الإنذار تدوى متأخرة عن الموعد الملائم . كانت تشارلى لاتزال تجري فى اتجاه المخابىء عندما ظهرت أول موجة من الطائرات تضم طائرتين . وكانت أصوات موتوراتها عالية للغاية . وسقطت أول قنبلة محدثة انفجاراً هائلاً مما أدى إلى إلقاء تشارلى على باب المخبأ الحديدى رغم أن صوت الانفجار لم يكن فى نفس رداعه الزلزال الذى صاحب الانفجار واصطدام جسدها بباب المخبأ مما أدى إلى تنبية شخص ما إلى فتح الباب لها . ثم جذبتها أيدى نساء قويات إلى الظلام فى داخل المخبأ وأجلسنها على مقعد خشبي . شعرت بالصمم القائم فى بادىء الأمر .

إلا أنها تدريجياً سمعت بكاء الأطفال الخائفين . ثم سمعت أصوات أمهاطهم

المتقدة بالحماس ، وقام شخص ما بإشعال مصباح زيتى وثبته فى خطاف موجود فى وسط السقف . ولبعض الوقت بدا تشارلى من خلال الدوار والغثيان الذى أصابها أنها تعيش فى داخل لوحة فنية للفنان هوغارث (★) بينما اللوحة معلقة بطريقة مقلوبة وبعدها أدركت أن سلمى إلى جوارها . ثم تذكرت أن سلمى قد رافقتها منذ أن انطلقت صفارات الانذار . وجاءت طائرتان أخرىتان أو ربما هما نفس الطائرتين لتقوما بجولة أو مهزلة أخرى ؟ وتراجعت ضوء المصباح الزيتى لدى اقتراب نسق القنابل التى تطلق على التتابع من طائرة واحدة . وأحسست بالقنابلتين وكأنهما بمثابة ضربتين على جسدها - لا . ليس مرة أخرى . ليس مرة أخرى لو سمحتم . بدت القنبلة الثالثة أعلى صوتا مما أدى إلى قتلها تماما . إلا أن القنبلة الرابعة والخامسة جعلتها تدرك أنها ما زالت على قيد الحياة .

فجأة صاحت امرأة فى هستيريا وألام فى وجه تشارلى مباشرة : أمريكا ! أمريكا ! أمريكا ! وحاولت إثارة النساء الآخريات لكي يوجهن الاتهامات إلى تشارلى أيضا . إلا أن سلمى طلبت منها فى رفق أن تتلزم بالهدوء .

ظللت تشارلى منتظرة لمدة ساعة . ربما طال انتظارها لمدة ساعتين . وعندما لم يحدث شيء خلال تلك الفترة نظرت إلى سلمى وقالت لها : «هيا بنا فقد أدركت أن المخبأ أسوأ من أي مكان آخر . إلا أن سلمى هزت رأسها وقالت فى هدوء : «إنهم ينتظرون لحين خروجنا من المخبأ ، لا يمكننا أن نخرج قبل حلول الظلام » .

وحل الظلام ، وعادت تشارلى بمفردها إلى كوخها . وأشعلت شمعة لأن الكهرباء كانت مقطوعة . كان آخر شيء شاهدته فى الغرفة كلها هو غصن نبات الخلنج الأبيض الموجود فى كوز فوق حوض الغسيل . راحت تدرس اللوحة التى تعبّر عن الطفل الفلسطينى ، ثم خرجت إلى الفناء حيث لا تزال ملابسها معلقة على

(★) الرسام هوغارث : وليام هوغارث ١٦٩٧ - ١٧٦٤ رسام إنجلزى تغلب على أعماله روح النقد اللاذع .

حبل الغسيل - يا سلام يا للروعه . الملابس أصبحت جافة . لم تكن لديها التسهيلات الخاصة بكى الملابس لذلك فتحت أحد أدراج خزانتها الصغيرة وطوت الملابس ووضعتها بالدرج مع التركيز على النظافة الشديدة شأنها فى ذلك شأن باقى سكان المعسكرات . وعندما تراعى فى ذهنها منظر غصن نبات الخلنج مرة أخرى قالت لنفسها : من المؤكد أن أحد الأولاد وضع الفصن . إنه غصن جميل ذو أشواك ذهبية أطلق عليه اسم : علاء الدين . إنه هدية من سلمى فى آخر ليلة لى هنا . يالها من مشاعر لطيفة من جانبها ومن جانبه .

كانت سلمى قد قالت لدى افتراقيهما : نحن بمثابة صلة غرامية أو قصة حب وأنت سوف تذهبين . وعندما تذهبين بالفعل سنصبح أنا وأنت بمثابة حلم .

راحـت تـفـكرـ : أنتـ ياـ أـلـاـدـ الـحـراـمـ أـيـهـ الصـهـاـيـهـ المـعـفـنـيـنـ أـيـهـ الصـهـاـيـهـ السـفـاحـونـ وـالـقـتـلـةـ ياـ أـلـاـدـ الـحـراـمـ . لوـ لمـ أـكـنـ أـنـاـ هـنـاـ لـقـصـفـتـمـ الـفـلـسـطـيـنـيـنـ بـوـاـبـلـ مـسـتـمـرـ مـنـ القـنـاـبـلـ إـلـىـ أـنـ يـحـلـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ .

هـنـاـ قـالـتـ سـلـمـىـ : إـنـ الـوـلـاءـ الـوـحـيدـ مـنـ جـانـبـيـ يـتـطـلـبـ مـنـ أـنـ أـكـونـ هـنـاـ .

الفصل الثاني والعشرون

لم تكن تشارلى هي الوحيدة التي ترقب الزمن وهو يمر وترقب حياتها وهي تتكتشف أمام عينيها. فمنذ اللحظة التي عبرت فيها الخط كان ليتفاك وكيرتز وبيكار قد أرغموا على ربط تمللهم ونفاد صبرهم بالإيقاع المغاير المختلف الخاص بآعذائهم وخصومهم. كان كيرتز يحلو له أن يقول لأتباعه: إن أصعب الأمور في الحرب هو العمل البطولي الفذ المرتبط بالتراجع وكبح الجماح للنفس.

راح كيرتز يتراجع على نحو لم يفعله من قبل. وهو يسحب جيشه المرهق من ظلاله الانجليزية، فبدا ذلك - من وجهة نظر جنود المشاه التابعين لجيشه على الأقل - أمراً أقرب إلى الهزيمة منه إلى تلك الانتصارات التي أحرزها الجنود إلى حد بعيد، وإن كانوا قد احتفلوا في السر بتلك الانتصارات، ففي خلال ساعات عقب رحيل تشارلى تم إعادة منزل هامستيد إلى يهود الشتات.

كما تم تجريد السيارة الفان من معداتها وأجهزتها اللاسلكية وتم شحن معداتها الالكترونية في حقيبة دبلوماسية مرسلة إلى تل أبيب في شيء من الخزي والعار. أما السيارة في حد ذاتها فقد جزت أرقام الموتور الخاصة بها من الأغلفة الخارجية لدولاب السيارة وأصبحت بمثابة حطام لسيارة محترقة ملقاة في مكان ما يقع ما بين المستنقعات . لم يبق كيرتز من أجل أن يشهد هذه الجنائزات. إذ سرعان ما عاد إلى شارع دزرائيلي وربط نفسه بالأعمال المكتبية التي يكرهها، وأصبح بمثابة المنقق العام مثل اليكسيس والذي وكلت له مهام تدعو للسخرية. كانت القدس تستمتع بشتاء معتدل مليء بالشمس المشرقة . وراح كيرتز ينتقل من مكتب سرى إلى آخر يقاوم حملات الهجوم عليه ويستجدى الموارد بينما الأحجار الذهبية للمدينة المحاطة بالسور تعكس صورتها على صفحة السماء الزرقاء المضيئة ، وفي هذه

المرة فقط فإن المنظر جعل كيرتز يشعر بالتسليم والعزاء ، قال فيما بعد أن آلته الحربية أصبحت مثل عربة تجرها الخيول بينما الخيول تجذب العربية في اتجاهات مختلفة. وهو في خلال العمل الميداني له حرية التصرف رغم كل الجهد الذى يبذلها جافرون ليمنعه من ذلك، وهو في داخل وطنه حيث يرى كل رجل سياسة من الدرجة الثانية وكل محارب من الدرجة الثالثة فى نفسه أنه إنسان عقري فى مجال الاستخبارات ويواجه انتقادات تفوق تلك التى واجهها النبي إلياس الذى كان له من الأعداء أكثر من أعداء السومارييم. وكانت معركته الأولى من أجل الوجود المستمر لشارلى. وربما من أجل الوجود المستمر الخاص به. وكان ذلك مشهدا إجباريا بدأ فى اللحظة التى وضع فيها كيرتز قدمه فى مكتب جافرون.

وقف جافرون الروك وقد رفع ذراعيه لأعلى وكأنه مستعد للشجار والعراك. وكان شعره الأشعث الخشن منكوسا أكثر مما كان عليه فى أى وقت مضى، وصرخ قائلا: هل أمضيت وقتا طيفا؟ هل تناولت بعض الوجبات الشهية. أرى أن وزنك ازداد بعد أن أمضيت تلك الفترة هناك.

ثم طرق بيده فى عنف على المكتب، وبعدئذ راحت أصواتهما تدوى فى كل مكان أثناء قيامهما بالصرارخ والصياح فى وجه بعضهما البعض مع الطرق على المنضدة بجماع الأيدي مثل رجل وزوجته يتشارjan فى عراك شبيه بالإسهال. تساعل الروك فى حدة صارخة: ما هي النتائج التى نجمت عن وعود كيرتز بإحراز تقدم؟ وأين كانت تصفيية الحساب الكبرى التى قد تنجم عنها؟

– هل أنت مندهش لأننى فقدت الثقة فيك؟ – بعد أن استهلكت أموالا كثيرة وعصيت الكثير من الأوامر ولم تخرج إلا بنتائج قليلة للغاية؟

وكنوع من العقاب أرغمه جافرون أن يحضر اجتماعا للجنة الإشراف الخاصة به. وهى لجنة لم تعد تتكلم آنئذ إلا عن الحل النهائى. حاول كيرتز التأثير على أعضاء اللجنة. بل وحاول إقناعهم بإدخال تعديلات على خططهم.

قال أصدقاؤه بأصوات خافتة ملحة فى الأروقة والدهاليز: أخبرنا يا مارتى عن

الإنجازات التي قمت بها. ما هي تلك الإنجازات؟ إعطانا فكرة لكي نتمكن من معرفة الأسباب التي تدعونا لتقديم العون والمساعدة لك.

شعروا بالإساعة بسبب التزامه بالصمت. وتركوه وهو يشعر كأنه إنسان دنى يسترضي الأعداء على حساب المبادئ الأخلاقية.

كانت هناك الجبهات الأخرى التي يحارب فيها أيضا. ولكن يراقب مدى التقدم الذي تحرزه تشارلى في داخل أراضى الأعداء فإنه اضطر للذهاب في تذلل إلى الإداره التي تخصصت في الحفاظ على خطوط الجاسوسية. وكان مدير هذه الإداره وهو سفاردي من مدينة حلب يكره كل شخص. وكيرتز بصفة خاصة. اعترض قائلا إن تعقبا كهذا يمكن أن يقوده إلى أي مكان. وماذا عن العمليات الخاصة به؟ وبالنسبة لتقديم مساعدات ميدانية من أجل ثلاثة من المراقبين التابعين لليتفاك مجرد فقط إعطاء الفتاة إحساسا بالطابع العائلى البهيج في تلك البيئة الجديدة فإن مثل هذا الإسراف في استخدام عدد من الموظفين يزيد عن الحاجة هو أمر غير معروف له ولا يمكن عمله.

اضطر كيرتز إلى اللجوء إلى كافة التنازلات السرية من أجل الحصول على حجم التعاون الذي يحتاج إليه. وظل ميشا جافرون متبعدا عن هذه المحاولات وعن الصفقات المماثلة مفضلا اتاحة الفرصة أمام قوى السوق لكي تتعثر على الحل الطبيعي الخاص بها. فإذا كان لدى كيرتز الإيمان الكافى فإنه سيتمكن من شق طريقه وذلك هو ما قاله سرا لأتباعه كما أوضح جافرون أن قدرًا ضئيلا من كبح الجماح والتأنيب لن يسبب أضرارا كبيرة لرجل مثل كيرتز.

لم يكن كيرتز يشعر بالرغبة في أن يترك القدس ولو لليلة واحدة بينما هذه المؤامرات تشق طريقها. ولذلك أوفد ليتفاك في رحلة مكوكية أوروبية بهدف تدعيم فريق المراقبة والإعداد بكل الطرق الممكنة لما يمكن أن يسمى بالمرحلة الأخيرة. فال أيام السعيدة الخاصة بـ ميونيخ حيث كان يمكن لولدين قائمين بالنوباتجية تلبية احتياجاتهم قد انتهت إلى الأبد. وحتى يمكن الإبقاء على مراقبة مستديمة على

الثلاثى ماستاريين وهيلجا وروسيينو استلزم الأمر تجنيد فصائل كاملة من المتحدين باللغة الألمانية. كما أن شكوك ليتفاك فيما يتعلق باليهود غير الاسرائيليين أدت إلى المزيد من الصداع والمتاعب، لكنه لم يكن على استعداد للتنازل عن رأيه: إذ قال عنهم إنهم لينوا العريكة أكثر من اللازم لدى إنجازهم للأعمال بالإضافة. إلى أنهم منقسمون في ولائهم. وبناء على تعليمات صادرة عن كيرتز سافر ليتفاك إلى فرانكفورت من أجل عقد اجتماع سرى مع أليكسيس فى المطار وذلك بهدف الحصول على مساعدته فى عملية المراقبة وأيضا بهدف «اختبار قوة ارادة أليكسيس» على حد تعبير كيرتز. إلا أن تجديد التعارف بين ليتفاك وأليكسيس كان بمثابة كارثة. لأنهما شعرا بالكراهية نحو بعضهما البعض لدى تقابلهما سويا. والأسوأ من ذلك أن رأى ليتفاك عزز التنبؤ السابق الذى أشار إليه الأطباء النفسيون التابعون لجاقرون: وهو أنه ينبغي عدم الثقة فى أليكسيس.

قال أليكسيس معلناً ليتفاك فى لهجة غاضبة لقد اتخذ القرار. أنا لا أتراجع أبداً عن القرار الذى اتخذه. وهذا أمر معروف عنى. ولسوف أقدم نفسي للوزير بمجرد انتهاءى من الاجتماع وأوضح لسيادته كافة الأمور. فلا بديل عن شخص يتمتع بالشرف والأمانة.

وسرعان ما اتضح أن أليكسيس كان لا يعاني ليس فقط من مجرد تغير فى الاتجاه ولكن أيضاً من انحياز سياسى جديد ناضج ومزدهر:

– لا شئ ضد اليهود بالطبع – ولكن المرء من حيث هو ألمانى يكون له ضميره الخاص به – إلا أنه من خلال التجارب الأخيرة – فإن حادثة قنبلة معينة – والإجراءات التى اضطر المرء لاتخاذها – والابتزاز – بحيث تتم المشاركة – فإن المرء يبدأ أيضاً فى النظر إلى ردود الفعل والنظر فى الأسباب التاريخية التى جعلت اليهود يجلبون الاضطهاد على أنفسهم. أرجو أن تغفر لى قولى.

راح ليتفاك يحملق فيه بنظرات مثبتة. وكأنه لن يغفر له أبداً.

أضاف أليكسيس : وصديقك شولمان – وهو رجل قدير ورائع وعظيم ومحظوظ

أيضا، لا توجد لديه آراء معتدلة سواء في السياسة أو الدين، فقد سبق له القيام بأعمال عنف - بدون الحصول على موافقة مسبقة - فوق الأراضي الألمانية كما أنه يظهر درجة من التجاوزات التي أصبت بنا نحن الألمان منذ فترة طويلة للغاية.

كان ليتفاك قد حصل على ما فيه الكفاية من الإهانات وفاض به الكيل، وبدأ الشحوب يظهر على وجهه، وأشار بوجهه بعيدا، ربما لكي يخفى النيران التي تتآتج في داخل عينيه، ثم قال: لماذا لا تتصل به تليفونيا وتقول له بنفسك كل هذا الكلام؟

هنا لجأ أليكسيس إلى هذا الإجراء بالفعل، إذ اتصل من كابينة تليفونات المطار مستخدما الرقم الخصوصي الذي كان كيرتز قد أعطاه له بينما وقف ليتفاك إلى جواره واضعا السماعة الإضافية على أذنه وبعد أن انتهى أليكسيس من كلامه قال كيرتز بكل ترحيب «حسنا الآن، افعل ذلك يا بول» ثم تغير صوته وهو يضيف قائلا: وأثناء تحديثك مع الوزير يا بول عليك ألا تنسى أن تحدثه عن كل ما يتعلق بحسابك الخاص في البنك السويسري، لأنك إذا لم تحدثه عن الحساب السرى فإنهنـى سأحـنوـنـكـ منـ حـنـوكـ منـ حـيـثـ الـاتـصـافـ بـالـصـرـاحـةـ التـامـةـ وبـالـتـالـىـ سـأـذـهـبـ بـنـفـسـيـ لـقـابـلـةـ الـوـزـيـرـ لـكـ أـخـبـرـهـ بـرـقـمـ حـسـابـكـ السـرـىـ فـيـ الـبـنـكـ .

وعقب انتهاء كيرتز من تلك العبارة أصدر أوامرها للوحة مفاتيح التليفونات بعدم استقبال المزيد من المكالمات الأخرى الواردة من أليكسيس على مدى الـ 48 ساعة القادمة، إلا أن كيرتز لم يكن يحمل في داخله أية ضغائن، فقد حصل على يوم واحد إجازة وسافر بنفسه إلى فرانكفورت؛ حيث وجد الدكتور أليكسيس قد أفاق كثيرا واستعاد هدوئه، إذ إن التلميح إلى الحساب السرى بالبنك السويسري جعله يفيق من غفوته، إلا أن العامل الرئيسي الذي جعله يفيق من غفوته هو ذلك المنظر البهيج الملائم وجهه في الصفحات الداخلية لجريدة ألمانية واسعة الانتشار - وجه مليء بالعزم والإخلاص مع التركيز دائما على ذكاء أليكسيس - مما يجعله يصدق أنه على النحو الذي قالوه عنه، تركه كيرتز مع هذا التخيل السعيد، وكتنوع من

الجائزه أعاد إلى الذاكرة مفتاحاً محيراً للمحللين النفسيين بأن اليكسيس في حنقه وغضبه يراجع نسخة من كارت بوستال موجه لاسترید بيرجار تحت واحد من أسمائها العديدة المستعاره الأخرى.

خط اليد غير مألف والخاتم البريدى خاص بالحى السابع بباريس، وجاء الاعتراض من جانب مكتب البريد الألمانى بناء على أوامر صادرة من كولونيا.

وكان النص على النحو الآتى باللغة الانجليزية: «ستجرى للعم فrai المسكين عملية جراحية فى الشهر القادم وفقا للخطة الموضوعة. ولكن ذلك أمر ملائم على الأقل لأنك يمكن لكم استخدام المنزل الخاص بـ «٧ وإلى اللقاء هناك» توقيع: ك.

وبعد ثلاثة أيام جذبت شبكة الصيد خطابا آخر مكتوبا بنفس خط اليد ومرسلا إلى عنوان آخر من العناوين الآمنة الخاصة بـ «بيرجار». وكان الخاتم البريدي في هذه المرة هو ستووكهولم. إذ إن اليكسيس الذي عاد للتعاون الكامل من جديد كان قد قام بإرساله بالطائرة إلى كيرتز بالبريد المستعجل، وكان النص مختصرا: «استئصال الزائدة الدودية لفrai بالغرفة ٢٥١ الساعة ١٨٠٠ في يوم ٢٤» وكان التوقيع بحرف «م» مما جعل المحللين يدركون أن هناك حلقة اتصال مفقودة في الوسط، وإن ذلك هو الأسلوب الذي يتلقى به ميشيل الأوامر الصادرة إليه من وقت لآخر. لم يتم العثور على البطاقة البريدية لرغم الجهد الذى بذلها كل فرد، وبخلاف ذلك التقطت فتاتان تابعتان لليتفاك خطابا وضع فى صندوق البريد بمعرفة نفس الفريسة وهى فى هذه الحالة «بيرجار» كان الخطاب مرسلًا إلى ماستاربين فى جنيف. تم ذلك على نحو لطيف للغاية، إذ كانت بيرجار فى زيارة لهمبورج فى ذلك الوقت وكانت تقيم مع أحد عشاقها فى بلانكنيز ومع السير وراعها نحو المدينة ذات يوم شاهدتها الفتاتان تسقط خطابا خلسة فى صندوق للبريد. وب مجرد أن غادرت بيرجار المكان قامت الفتاتان بإسقاط مظروف خاص بهما وهو مظروف كبير أصفر اللون جهز من أجل مواجهة مثل هذه المصادفة فاستلقي الخطاب الأصفر فوق خطاب بيرجار. وبعدئذ وقفت الفتاة مثل الحراسة عند صندوق البريد.

وعندما جاء ساعي البريد لكي يفرغ محتويات صندوق البريد راحت تقص عليه حكاية تتعلق بالحب والغضب وقدمت له وعودا صريحة مما جعله يقف على جانب مبتسما بينما قامت باستخراج خطابها من بين الخطابات الأخرى. بالطبع لم تستخرج خطابها وإنما استخرجت خطاب أستريد بيرجارد الذي كان راقدا تحت المظروف الأصفر الكبير. وبعد أن تم فتح خطاب أستريد بالبخار وتصوير محتوياته أعيد لصقه ووضعه في نفس صندوق البريد من أجل أن يأخذه ساعي البريد في المرة التالية.

كانت الجائزة بمثابة ثمانى صفحات من الكتابة السريعة الشبيهة بالخبريشة المليئة بالعاطفة المتدافعه لفتيا المدارس. من المؤكد أنها كانت مخموره أثناء كتابة الخطاب، وكان الخطاب مليئا بالصراحة . حيث امتدح الخطاب القوى الجنسية لمستاربين. كما واصل إطلاق النيران على الالتواءات الأيديولوجية التي تربط على نحو اعتباطي السلفادور بميزانية الدفاع في ألمانيا الغربية وترتبط الانتخابات بأسبانيا ببعض الفضائح الأخيرة التي حدثت في اتحاد جنوب افريقيا.. كما ورد بالخطاب هجوم عنيف ضد قيام الصهاينة بقصف لبنان بالقنابل. كما أشار الخطاب إلى «الحل النهائي» الذي يراه الإسرائيليون بالنسبة لمواجهة الفلسطينيين وإبادتهم إبادة جماعية. وأشار الخطاب أنه ينبغي أن يكون هناك أمل مشرق في الحياة ولكنه أشار إلى الأخطاء الموجودة في كل مكان بالعالم.

ووفقا للافتراض بأن الخطابات المرسلة لمستاربين ربما يتم قراءتها بمعرفة السلطات فإن الخطاب أكد بشدة على الحاجة إلى ضرورة العمل في «نطاق الحدود الشرعية والقانونية في جميع الأوقات». إلا أنه كانت توجد حاشية أو تذيل في الخطاب في حدود سطر واحد مكتوب بخط سريع مثل فكرة مختصرة مؤكدة عليها بشدة ومنتهية بعلامات تعجب كثيرة. تورية أو تلاغع لفظي مليء بالتباهي والألفاظ حيث كانت : الحاشية مكتوبة باللغة الفرنسية على النحو الآتي : «انتبه ! سوف اثير دهشة البرجوازيين!».

شعر المحللون بالحيرة إزاء هذه العبارة. فلماذا وضع خط تحت هذه العبارة؟ وهل كان التعليم الذى تلقته هيلجا فى حياتها محدوداً للغاية بحيث يجعلها تطبق الاستخدام الألمانى على الأسماء الفرنسية؟ بدت الفكرة مداعاة للسخرية. لماذا أضيفت تلك الفاصلة فوق وإلى يسار كلمة البرجوازيين فى حرص وعناية؟ وبينما كان المحللون يكذبون لحل الشفرة وبينما أجهزة الكمبيوتر ترتعش وتخرج تبديلات وتعديلات، فإن راشيل هى وحدها فقط التى استطاعت أن تبحر فى اتجاه الرأى الواضح والاستنتاج السليم. فقد كانت فى أوقات فراغها تمارس هواية حل الكلمات المقاطعة. وكانت تحلم بكسب سيارة مجانية.

ولذلك قالت بكل بساطة «إن كلمة العم فrai هي نصف واحد وكلمة برجوازى هي النصف الآخر». وبذلك يمكن القول إن تعبير «فrai بورجوازى» يعني: أهالى فرايبورج ويعنى أنهم سوف يصابون بالصدمة بسبب «عملية» ستحدث فى الساعة السادسة من مساء يوم ٢٤. وعندما سئلت راشيل عن معنى الغرفة رقم ٢٥١ قالت للخبراء الحيارى: حسنا، ينبغي أن نبحث ونتحرى. أليس كذلك؟ ووافقو على رأيها. نعم ينبغي علينا أن نتحرى. وتم إطفاء أجهزة الكمبيوتر - إلا أن الشكوك ظلت باقية على مدى يوم واحد أو يومين. وكان الافتراض سخيفاً. وسهلاً للغاية. وكان صبيانياً على نحو واضح.

وأشار الخبراء إلى ضرورة تفحص هذا الأمر.

وكانت هناك ست مدن على الأقل تحمل اسم فرايبورج . إلا أن اهتماماتهم انصبت أولاً على المدينة الصغيرة التى تقع فى سويسرا وهى الموطن الأصلى لمستاريين حيث يتم التحدث هناك باللغتين الفرنسية والألمانية وحيث البورجوازية مشهورة بتبلد الحس والبلاهة حتى بين السويسريين أنفسهم.

وبدون المزيد من التأخير أوفد كيرتز اثنين من الباحثين، وأصدر لهم الأوامر للبحث عن أى هدف يمكن تخيله من حيث إنه يجذب هجوماً مناهضاً لليهود مع التركيز على المنشآت التجارية التى عقدت اتفاقيات مع وزارة الدفاع الإسرائىلية.

مع عمل المراجعات - بدون الاستعانة بأية مساعدات حكومية - على كافة الغرف التي تحمل رقم ٢٥١ سواء الموجودة في المستشفيات أو الفنادق أو المباني التي تضم مكاتب رسمية مع عمل مراجعة على كافة أسماء المرضى المقرر إجراء جراحة الزائدة الدودية لهم في يوم ٢٤ من الشهر أو أسماء الذين ستجري لهم أية عمليات من أي نوع في الساعة ١٨٠٠ من ذلك اليوم.

ومن الوكالة اليهودية بالقدس حصل كيرتز على قائمة حديثة بأسماء الشخصيات اليهودية البارزة المقيمة بالمدينة بالإضافة إلى أسماء دور العبادة والجمعيات والاتحادات التي يذهبون إليها. وهل توجد هناك مستشفى يهودية؟ وإذا لم تكن هناك مستشفى يهودية فهل هناك مستشفى تلبى الاحتياجات اليهودية الأرثوذوكسية؟

كان كيرتز يجادل ضد الأمور التي يقتتنع بها شخصياً مثلاً يفعل الجميع. ومثل هذه الأهداف كان ينقصها التأثير الدرامي الذي يميز الأهداف والمشاريع السابقة عليها.

وفي وسط هذا الخضم قام روسيينو السفاح الإيطالي بالسفر بالطائرة من فيينا إلى بازيل حيث استأجر دراجة بخارية. ثم عبر الحدود إلى ألمانيا. وقاد الدراجة على مدى أربعين دقيقة إلى الكاتدرائية القديمة الموجودة في مدينة فرايبورج - والتي كانت ذات يوم هي عاصمة ولاية بادن، هناك تناول وجبة غذاء غالية الثمن ثم قدم نفسه لعميد الجامعة. واستفسر في أدب جم عن مدى إتاحة الفرصة لعدد من الجماهير العامة لحضور سلسلة من المحاضرات عن الموضوعات الإنسانية التي كانت متاحة وذلك على أساس محدودة، تفاعل في مزيد من السرية عن المكان الذي به القاعة رقم ٢٥١ وفقاً لخطيط مباني الجامعة.

كان الأمر بمثابة نقطة من الضوء وسط خضم من الضباب. كانت راشيل على حق وأيضاً كان كيرتز. وكان ميشا جافرون عادلاً.

لكن جادى بيكار هو وحده الذي لم يشارك في تلك الفرحة العامة.

.....

أين كان هو؟

هناك أوقات بدا فيها الآخرون وكأنهم يعرفون الإجابة على نحو أفضل منه شخصياً. وذات يوم راح يمشي الهويني في شارع دزراييلى ويركز نظراته على آلات الشفرة التي تقدم تقارير عن الملاحظات المتعلقة بعملية تشارلى. وفي نفس الليلة ، أو إذا توخيانا الدقة أكثر في الصباح الباكر من اليوم التالي، قام بالضغط على جرس الباب في منزل كيرتز. مما أدى إلى استيقاظ إيللى والكلاب وطلب الحصول على تأكيدات بأنه لن يحدث ضرب الكابتن تايه أو أي شخص آخر إلى أن يتم تسريح تشارلى من العمل. كان قد سمع شائعات مفادها أن ميشا جافرون لا يتحلى أبداً بالصبر.

أما إذا عاد أي شخص من الميدان – مثل الشاب المعروف باسم ديمترى على سبيل المثال أو مثال زميله راؤول فإن جادى بيكار كان يصر على الوجود أثناء استجواب الشخص العائد من مهمته مع قيامه بتوجيهه لسؤال دقيقاً إليه فيما يتعلق بحالة تشارلى.

وبعد مرور أيام قليلة على هذا الوضع بدأ كيرتز في التضليل من جادى بيكار، وقال عنه «إنه يطاردني مثل ضميري السيئ» «بل وهده صراحة بأنه سيمتنع من دخول منزله. قال كيرتز لزوجته: «من الأفضل إدخال التسلية عليه ومساعدته على تمضية الوقت».

وفي سرية تامة وبدون أن يخبر أي شخص باستثناء إيللى قام كيرتز بالاتصال تليفونيا بفرانكى وأخبرها أن زوجها السابق موجود في المدينة وأعطاه رقم تليفونه لكي تتصل به.

قامت فرانكى بالاتصال تليفونيا على الفور، واستمع جادى بيكار لصوتها لبعض الوقت – اذ كان هو الذي رد عليها بالفعل، ثم وضع سماعة التليفون في هدوء بدون أن يهتم بالرد عليها مما جعلها تشعر بالحنق والغضب الشديد.

لكن هذه المناورة أو الحيلة التي أقدم عليها اسفرت عن بعض النتائج. إذ انطلق

بيكار في اليوم التالي في رحلة اعتبرت فيما بعد نوعاً من تقليم الذات فيما يتعلق بظروف حياته السابقة حيث استأجر سيارة وانطلق بها أولاً إلى تل أبيب حيث أجرى بعض الأعمال التجارية المتسمة بالتشاؤم مع مدير البنك الخاص به. ثم زار المقبرة القديمة التي دفن فيها والده، ووضع الأزهار على قبر أبيه. وراح ينظر حول المقبرة مستخدماً مسطرين كان قد استعاره رغم أنه لا هو ولا والده لديهما متسع من الوقت من أجل الدين . ومن تل أبيب اتجه نحو الشمال الشرقي إلى مدينة الخليل. ثم زار مسجد سيدنا إبراهيم الموجود في المدينة والذي أصبح منذ حرب عام ١٩٦٧ بمثابة معبد يهودي بعد أن كان مسجداً إسلامياً راح يدرسه مع الجنود المتحفظين الذين يتسلكون عند مدخل المسجد وشرفاته.

وعقب انصراف بيكار، راحوا يدرشون مع بعضهم البعض عن بيكار مستخدمين اسمه العبرى: إنه «جادى» الأسطورى – إنه الرجل الذى حارب فى الجولان خلف الخطوط السورية – ما الذى كان يفعله بحق الجحيم فى هذا المكان العربى وقد بدا عليه القلق الشديد؟

وتحت حملتهم الملية بالاعجاب راح بيكار يتجلو بين أرجاء السوق القديم المغطى. كان غير منتبه على ما يبدو للهوء الشديد وغير مدرك للنظارات السوداء للرازحين تحت الاحتلال، وفي بعض الأحيان – وعلى ما يبدو مع ظهور أفكار أخرى في داخل ذهنه – كان يتوقف عن المشى ويتحدث مع صاحب دكان باللغة العربية مستفسراً عن نوعية الأحذية وأسعارها بينما يلتقط الأولاد والأطفال الصغار حوله لكي يصفوا إلى كلامه، أو لكي يتجرأوا على لمس يده، ثم ألقى تحية الوداع على الناس وعاد إلى سيارته. واتجه إلى الأزقة والطرقات الضيقة التي تحشر نفسها بين أراضي العنبر الأحمر الرائع إلى أن وصل تدريجياً إلى القرى العربية الواقعة فوق قمة التل وعند الجانب الشرقي من التل. وهى قرى مليئة بالمنازل المبنية بالأحجار وفوق أسطحها توجد هوانئيات برج ايفيل. وثنيج خفيف فوق المنحدرات العلوية . كما أعطت قطعاً من السحب الداكنة الأرض توهجاً قاسياً. عبر الوادي

كانت توجد مستعمرة إسرائيلية جديدة تقف مثل مبعث قادم من كوكب ما ومقتحم للوادي.

وفي إحدى القرى خرج جادى بيكار من السيارة وراح يستنشق الهواء فى عمق، إنه المكان الذى سبق أن عاشت فيه أسرة ميشيل حتى حلول عام ١٩٦٧ عندما شوهد والده وهو يتذهب للهرب.

تساءل كيرتز فى مرارة عندما سمع عن كل ذلك : هل ذهب لزيارة المقبرة الخاصة به أيضا لقد زار أولا قبر والده والآن فهو يزور مقبرته أليس كذلك؟

وظهرت عليه الحيرة للحظات. ثم انفجر الجميع فى الضحك لدى تذكراهم الاعتقاد السائد بين المسلمين بأن يوسف بن يعقوب كان قد دفن أيضا فى الخليل وهو أمر يعتقد كل يهودي أنه غير حقيقي.

ومن الخليل اتجه بيكار بسيارته شمالا فى وادى الأردن إلى أن وصل إلى مدينة بيت شيعان وهى مدينة عربية احتلها اليهود واستوطنوها عندما تركت شاغرة خلال حرب ١٩٤٨. راح بيكار يتسكع هناك لفترة طويلة وأعجب بالدرج الرومانى الموجود هناك. ثم انطلق بسيارته إلى مدينة تبرياش التى أصبحت منتجعا للمياه المعدنية بالمنطقة الشمالية، وصارت تضم فنادق جديدة عملاقة على الطراز الأمريكى على طول الواجهة المائية بالإضافة إلى ملهى أنيق بالشاطئ الرملى، لم يجد اهتماما كبيرا. لذا لم يتوقف بسيارته وإنما اكتفى بالقيادة فى بطء مع الحملة من النافذة فى ناطحات السحاب كأنه يحصل على عددها. ثم ظهر فى الأفق بعد ذلك عند «ميتولا» التى تقع عند الحدود الشمالية مع لبنان. شريط من الأرض المحروقة به أعمق متعددة من الأسلاك التى تحدد معالم الحدود والتى كانت تسمى فيما قبل «السور الجيد» وعند أحد الجانبين وقف المواطنون الإسرائيليون عند منصة مراقبة يحملون فى تعبيرات مليئة بالحيرة من خلال الأسلاك الشائكة فى الأراضى البعيدة. فعلى الجانب الآخر انطلقت المليشيات المسيحية بالسيارات جيئة وذهابا من أجل الحصول على المساعدات الإسرائيلية.

كانت ميتولا في تلك الأيام هي الحافة الطبيعية لخطوط الجواسيس ومهربى البضائع التي تمتد شمالا حتى تصل إلى بيروت، ولقد أنشأ جافرون قسما سوريا هناك لتقديم المساعدات والتوجيهات لعملائه بالترانزيت. وقدم بيكار العظيم نفسه في الفترة المبكرة من المساء، وراح يتصفح سجلات الأداء الخاصة بالقسم السرى. ووجه بعض الأسئلة العابرة عن أماكن وجود القوات التابعة للأمم المتحدة. ثم انصرف. كان يبدو على بيكار القلق والإعياء فقال قائد القسم السرى: ربما يكون بيكار مريضا، فالمرض يبدو في عينيه وعلى بشرته.

قال كيرتز مستفسرا من قائد القسم السرى عندما علم بزيارة بيكار لهذا القسم: «ترى عما كان يبحث هذا الشيطان هناك؟». إلا أن القائد - وهو رجل واقعى ومتبدد - لم يكن بمقدوره تقديم آراء أخرى؛ حيث اكتفى بتكرار عبارة «يبدو عليه القلق والإعياء. وهذه هي الملامة التي يبدو عليها العملاء في بعض الأحيان عندما يجيئون عقب الانتهاء من مشوار طويل».

واستمر بيكار في قيادة سيارته إلى أن وصل إلى طريق جبلي ملتوٍ بالأحاديد الناجمة عن جنائزير الدبابات واستمر فوق الطريق إلى أن وصل إلى الكيبوتز الذي يكن له كل الاعتزاز: عش نسر قابع في الأعلى فوق لبنان على ثلاثة جوانب. لقد أصبح هذا المكان مسكوناً باليهود لأول مرة في عام 1948 عندما شيدت فيه قلعة عسكرية بهدف السيطرة على الطريق الشرقي / الغربي الوحيد الموجود جنوب نهر الليطاني. وفي عام 1952 وصل أول مستوطنين من شباب الصابرا إلى هناك كي يعيشوا حياة التقشف العلمانية التي كانت ذات يوم المثل الأعلى الصهيوني. ومنذ ذلك الحين بدأ هذا الكيبوتز يتعرض من وقت لآخر للقصف بالمدافع مما أدى إلى انخفاض في عدد السكان. وكانت آلات الرش والتنقيط تعمل فوق المساحات الخضراء لدى وصول بيكار إلى هناك. كما كان الهواء معطراً برائحة الورود الحمراء والقرمزية والوردية. واستقبله المضيفون في خجل وارتباك وإثارة كبيرة.

هل جئت لكى تتضم إلينا أخيراً يا جادى بيكار؟

هل انتهت أيام القتال والكافح الخاصة بك؟ استمع إلينا، فلدينا هنا منزل في انتظارك. ويمكنك أن تسكن وتعيش فيه.

وضحك جادى بيكار ولم يقل: نعم ولم يقل: لا. طلب منهم أن يسمحوا له بالعمل معهم لمدة يومين إلا أنهم لم يكن لديهم سوى قدر ضئيل من العمل الذى يمكن إعطاؤه له. أوضحوا له أنهم يجتازون أوقات الموسم الراكد. إذ تم جمع كل القطن والفاكهه وتقطيم الأشجار وحرث الحقول وتجهيزها من أجل فصل الربيع. ونظرا لـإصراره اقتربوا عليه أن يقوم بتوزيع الطعام فى صالة طعام المعسكر. إلا أن ما كانوا يريدونه منه حقا هو معرفة وجهة نظره فى الطريقة التى تسير بها الأمور فى الدولة. فهو أجدر إنسان يمكنه أن يحدثهم فى هذا الشأن. كان ذلك يعني أنهم يريدون منه أن يستمع إلى آرائهم - التى تتعلق بهذه الحكومة الصاخبة ويتفسخ متدهور سياسات تل أبيب.

لقد جئنا إلى هنا لكي نعمل ونحارب من أجل هويتنا، ولكن نحوال اليهود إلى إسرائيليين يا جادى! وهل نحن سنصبح دولة فى نهاية الأمر؟ أم سنكون بمثابة وجهة عرض فى متحف دولى خاص بالشعب اليهودى؟ ما هو مستقبلنا يا جادى؟ حدثنا فى هذا الشأن!.

كانوا يوجهون الأسئلة إليه كما لو كان نبيا جاء إليهم لكي يقدم نبوة لحياتهم الخلوية. لم يكن بمقدورهم أن يعرفوا أنهم يتحدثون إلى الخواء الموجود فى داخل روح جادى. وما هي النتائج التى ترتبت على كلامنا المسؤول الجميل بشأن رغبتنا فى التوصل إلى تفاهم واتفاق مع الشعب الفلسطينى يا جادى؟ لقد حدثت الغلطة الكبرى فى عام ١٩٦٧: كان ينبغي علينا أن نبدى روح الكرم والتسامح. وأن نعرض عليهم اتفاقية عادلة فمن هو الذى يمكن له أن يكون كريما إذا لم يكن المنتصرون كرماء يا جادى: إننا أقوىاء للغاية بينما هم فى غاية الضعف.

وبعد برهة أصبحت هذه المسائل المستعصية مألوفة للغاية بالنسبة لجادى بيكار. الذى كى يحافظ على انطوائيته راح يتسع فى جميع أرجاء المعسكر بمفرده. كان

المكان المفضل لديه هو برج مراقبة محطم يطل مباشرة على مدينة شيعية صغيرة، ويطل من الجهة الشمالية الشرقية على حصن بوفورت الصليبي الذي لا يزال في أيدي الفلسطينيين. وشاهدوه هناك أثناء ليلته الأخيرة معهم متعداً عن أي غطاء وقريباً للغاية من السور الإلكتروني عند الحدود، لقد تمكّن من الوصول إلى هناك بدون أن يتسبّب في إطلاق أجهزة الإنذار.

كان ذا جانب مضى وجانب آخر مظلم وذلك بسبب الشمس الأخذة في الغروب. وبدأ من وقوفه المتتصبة وكأنه يدعو حوض نهر الليطاني كله لكي يعرف أنه هناك.

وفي صباح اليوم التالي عاد جادى بيكار إلى القدس. وقدم نفسه إلى شارع ديزرائيلي. وأمضى اليوم متوجلاً في شوارع القدس. وراح يشاهد الأماكن التي خاض فيها الكثير من المعارك، ورأى سفك الدماء الغزيرة بما فيها دماؤه هو نفسه. وبدأ عليه كأنه يتفحّص كل شيء يشاهده ويوجه إليه الأسئلة: وراح يحملق في دهشة وحيرة في القنطر والبواكي المقوسة المحدبة الموجودة بالحي اليهودي الذي أعيد تشييده. وأجلس نفسه في بهو الفنادق العملاقة العالية التي أصبحت تكسر خط السماء فوق القدس، وراح يفكّر في أمر المجموعات السياحية التي تضم مواطنين أمريكيين من أوسيكتش ودلّاس ودينفر جاءوا إلى إسرائيل بهدف الاتصال بتراثهم القديم وراح يحملن في محلات الخربوات الصغيرة التي تتبع القفاطين العربية المنشاة بالأشغال اليدوية بالإضافة إلى المشغولات اليدوية العربية. وأخذ يستمع إلى الدردشة البريئة الصادرة عن السياح وراح يشم الروائح العطرية غالبية الثمن المنبعثة عنهم واستمع إلى شكوكهم حيث اشتراكوا في أدب من نوعية قطع اللحم البقرى الممتازة التي قدمت على الطريقة الأمريكية ومع ذلك لم يكن لها نفس المذاق التي تكون عليه في أمريكا. وأمضى فترة ما بعد الظهر كلها في متحف الهولوكست وراح ينظر في قلق إلى صور الأطفال ، كانوا سيصبحون من نفس عمره لو قدر لهم البقاء على قيد الحياة.

عندما سمع كيرتز عن كل هذه الأمور التي فعلها جادى بيكار فإنه أصدر أوامره بقطع أجازة بيكار وإعادته إلى العمل، وأصدر له سلسلة من التعليمات: أحصل على كل المعلومات التي تتعلق بفريبيورج، عليك بتمشيط المكتبات والسجلات ، أريد بيانا بالأشخاص الذين نعرفهم هناك ، احصل على الرسومات التخطيطية للجامعة، احصل على رسومات المهندسين المعماريين وخطط المدينة. وانجز لنا كل ما نحتاج إليه. ويتم كل ذلك في موعد أقصاه الأمس .

الصلال والتل والعشرون

كانت نهاية الخط . وكان ذلك هو أسوأ مكان في كل مراحل حياتها . كان مكاناً ينبغي عليها أن تنساه أثناء وجودها هناك . إنه مدرستها الداخلية اللعينة المزودة بمفترضي الفتيات . إنه منتدى للمناظرة والنقاش في وسط الصحراء . كان حُلم فلسطين المسحوق المضروب بالقنابل مستقليا على مسافة قيادة بسيارة تقسم الظهر لمدة خمس ساعات إلى ما وراء التلال . وفي مكان الحلم كان لديهم هذه القلعة الصغيرة التي بها فتحات حجرية صفراء اللون تطلق منها النيران بالإضافة إلى وجود سلم حجري والتي قُصف نصف جانبها بالقنابل . يوجد بالقلعة بوابة رئيسية محصنة بأكياس الرمال وسارية علم تتلاطم أحبالها مع الرياح الحارقة ولا تحمل علماً على الإطلاق . كانت تعرف أن أحداً لا ينام في القلعة . فهي مخصصة لإنجاز أعمال الشئون الإدارية والمقابلات الشخصية ومن أجل تناول الأرز ولحوم الضأن ثلاث مرات يومياً ومن أجل المناقشات الجماعية الطنانة حتى منتصف الليل . وهي المناقشات التي يلقى خلالها الألمان الشرقيون محاضرات على الألمان الغربيين ويلقى فيها الكوبيون محاضرات على كل شخص ويقوم خلالها شخص أمريكي مؤمن بالديانة الودونية^{*} ويسمى نفسه عبدول بقراءة بحث يتكون من عشرين صفحة عن التوصل الفوري إلى السلام العالمي .

كان المركز الاجتماعي الآخر الخاص بهم هو الساحة التي يتدرّبون فيها على استخدام الأسلحة الصغيرة . وهي لم تكن بمثابة محجر غير مستخدم وإنما كانت ثكنة عسكرية قديمة سدت شبابيكها ونواذها وزودت بخط من المصابيح

★ - الديانة الودونية : دين زنجي أفريقي الأصل منتشر بين زنوج هايتي ويرتكز أساساً على أعمال السحر والعرافة .

الكهربائية ووضعت حول حوائطها زكائب من الرمال المليئة بالثقوب التي تجعل الرمال تناسب منها . ولم تكن الأهداف التي يتم التسديد عليها عبّر زيت وإنما كانت تمثيل لأشخاص من جنود البحرية الأمريكية ودائماً ما كان هناك إقبال على هذا المكان . وفي الغالب يكون الإقبال في جوف الليل حيث يضج بالضحكات المليئة بالمرح الصاخب وتؤهلاً للإحباطات الناجمة عن التنافس . وذات يوم جاء مقاتل عظيم في سيارة فولفو يقودها سائق على الفور تم إخلاء المكان أثناء قيامه بالتدريب على إطلاق الرصاص . وفي يوم آخر اقتحم مجموعة من السود المتوجهين فصل تشارلز . وفتحوا أبواب مستودعات الذخائر الواحد تلو الآخر دون إعطاء أية أهمية للشاب الألماني الشرقي المسئول عن المستودعات .

وقال أحدهم بلهجـة جنوبية أفريقية عبر كتفه : أهذا يرضيك أيها الأبيض ؟
فقال الألماني الشرقي : لو سمحـت، أوه، نعم هذا أمر حسن للغاية .

وانصرفوا في تباهٍ وخـلـاء وتخـلـصـوا من الإـحـراج من خـلـال الـانـفـجـار في الضـحـكـاتـ تـارـكـينـ جـنـودـ الـبـحـرـيةـ مـلـيـئـينـ بـالـثـقـوـبـ مـثـلـ مـصـفـاةـ طـهـوـ الطـعـامـ مماـ جـعـلـ الـفـتـيـاتـ يـقـمـنـ فـيـ خـلـالـ السـاعـةـ الـأـوـلـىـ مـنـ ذـلـكـ الـيـوـمـ بـأـعـمـالـ تـرـمـيمـ التـمـاثـيلـ مـنـ الرـأـسـ إـلـىـ الـقـدـمـ .

وبالنسبة لمساكن الإيواء كان لديهم ثلاثة أكواخ طويلة . في أحدها توجد مهاجـعـ النـسـاءـ ، وـفـيـ الثـانـىـ تـوـجـدـ مـهـاجـعـ الرـجـالـ ، وـفـيـ مـاـثـالـثـ مـكـتبـةـ مـزـعـومـةـ منـ أـجـلـ هـيـئةـ المـدـرـبـينـ . وـإـذـاـ وجـهـواـ إـلـيـكـ الدـعـوـةـ لـلـدـخـولـ إـلـىـ الـمـكـتبـةـ – وـذـلـكـ وـفـقاـًـ لـمـاـ قـالـتـ فـتـاةـ سـوـيدـيـةـ طـوـيـلـةـ تـسـمـىـ فـاطـمـةـ – فـلـاـ تـتـوـقـعـينـ أـنـ يـكـونـ هـنـاكـ مـاـ يـسـمـىـ بـالـقـرـاءـةـ . وـلـكـيـ يـتـمـ إـيقـاظـهـمـ فـيـ الصـبـاحـ كـانـ يـتـمـ إـذـاعـةـ الـموـسـيـقـىـ الـعـسـكـرـيـةـ عـبـرـ مـكـبـرـ لـلـصـوتـ يـتـعـذرـ عـلـىـ أـىـ شـخـصـ أـنـ يـغـلـفـهـ . وـبـعـدـ الـاسـتـيقـاظـ تـتـمـ تـمـريـنـاتـ رـياـضـيـةـ فـوـقـ أـرـضـ مـسـطـحةـ رـمـلـيـةـ مـلـطـخـةـ بـخـطـوـتـ مـنـ النـدـيـ الـلـزـجـ . الـأـنـ فـاطـمـةـ قـالـتـ إـنـ الـأـمـاـكـنـ الـأـخـرـىـ أـسـوـاـ مـنـ ذـلـكـ بـكـثـيرـ . وـفـاطـمـةـ نـفـسـهـاـ كـانـتـ بـمـثـابةـ فـلـتـةـ فـيـ التـدـرـيـبـ فـقـدـ سـبـقـ لـهـاـ أـنـ تـلـقـتـ تـدـريـبـاتـ فـيـ الـيـمـنـ وـلـبـنـانـ وـكـيـفـ . كـانـ لـهـاـ اـبـنـ

في الثامنة من العمر ويسمى «كنت» يجري عارياً هنا وهناك وتبعد عليه مشاعر الوحدة والكآبة عندما تحدث معه تشارلى انفجر في البكاء .

كان الحراس المكلفوون بحراستهم نوعاً من العرب الذين لم تقابل مثلهم حتى ذلك الحين كانوا يقفون عند الخطوط التي تطوق القلعة وينطلقون في سيارات الجيب بسرعة هائلة قد تؤدي إلى كسر الرقبة وتحطيم عنق الإنسان .

قالت فاطمة : إنهم ميليشيات خاصة تم إعدادهم عند الحدود مع سوريا . وبعضهم كان صغير السن حتى أن تشارلى ساعدت نفسها في تعجب عن كيفية وصول أقدامهم إلى دوامة السيارات الجيب . وفي الليل كان هؤلاء الصغار يجتمعون في مجموعات تضم كل منها شخصين وأحياناً ثلاثة أشخاص ويحاولون إقناع الفتيات للخروج معهم في سيارات الجيب والانطلاق في عمق الصحراء . لم يتوقفوا عن ذلك إلا بعد أن اشتكت تشارلى وفتاة أخرى يابانية . عادة ما كانت تذهب فاطمة معهم وكذلك فتاة من ألمانيا الشرقية كانتا تعودان وقد ظهرت عليهما ملامح التأثر . أما باقى الفتيات الآخريات فكن يلعبن مع المعلمين الغربيين مما كان يجعل الأولاد العرب أكثر جنوناً .

وكان جميع المدربين من الرجال نوى الخبرة . ومن أجل تأدية صلوات الصباح كانوا يقفون في صف أمام الطلاب الرفقاء بينما يقوم واحد منهم بتلاوة اللعنات على العدو الرئيسي : الصهيونية والاستغلال الرأسمالي الأوروبي ثم الصهيونية مرة أخرى . كان الألمان الشرقيون مقصوصى الشعر . وكانوا ملتزمين بالوقار والتظاهر بأن النساء يسببن لهم المضايقات أما الكوبيون فهم متوجهون كالسعير ومتغطرون بالإضافة إلى شعورهم بالحنين إلى وطنهم . تتبع الروائح الكريهة عن معظمهم . لهم أسنان مسوسية فيما عدا الجنتمان «فيدل» الشخص المفضل لدى الجميع . كان العرب هم أكثر الناس اتساماً بسرعة الغضب . أكثرهم خشونة وفظاظة، يطلقون الرصاص عند أقدام الشاردين حتى أن أحد الأولاد الأيرلنديين عض أصبعه في ذعر مفاجئ مما جعل عبادل الأمريكي يشعر بالتسليمة الشديدة وهو يرقب المشهد من على مسافة وهو دائمًا ما يفعل ذلك وغالباً

ما يتكلف الابتسام ويخوض في الوحل وراء الناس كأنه رجل يريد أن يدون ملاحظات من أجل أن يكتب قصة عظيمة ثورية .

الآن النجم المتألق في هذا المكان خلال تلك الأيام المجنونة الأولى كان شخصاً تشيكيّاً يسمى بوبى قام في أول التدريب بإطلاق رصاصة على خوذته الحربية التي وضعها على الرمال . حيث أطلق عليها أولاً رصاصة من بندقية كلاشنكوف ثم رصاصة أخرى من مسدس ٤٥ . كى يجهز على خوذته تماماً ألقى عليها قنبلة يدوية روسية الصنع على ارتفاع ٥٠ قدماً في الهواء .

وكانت اللغة المشتركة التي تستخدم في المناوشات السياسية هي لغة انجليزية ممزوجة ببعض الكلمات الفرنسية . وكانت المناوشات تدور حول ما يسمى بـ «فجر الثورة» . وراحت تثير بعض الضحك في بعض الأحيان . لم تكن تشارلى تضحك على أي شيء . فهى لم تضحك منذ أن قام أولاد الحرام بتفجير حبيبها على الطريق المؤدى إلى ميونيخ كما أن مشاهداتها الأخيرة للكرب الذى يعيش فيه أنسه وأهله وشعبه قد زاد من شعورها بالمارارة ورغبتها في الانتقام من أولاد الحرام .

كانت أعدادهم متذبذبة وغير ثابتة منذ اليوم الأول . وعندما تركت شاحنتهم مدينة طيرة . كان عددهم يتألف من خمسة أولاد وثلاث بنات وكان الاتصال الجنسي ممنوعاً بينهم وفقاً لأوامر صادرة عن حارسين يركبان معهم في الخلف بينما الشاحنة تتارجح فوق المدق الحجرى للتل . قالت لها الفتاة اتضحت فيما بعد أنها من شعب الباسك^{*} وأنهم كانوا في اليمن وأخبرها شابان تركيان أنهما كانوا في قبرص . وعندما وصلا وجدا عشرة من الطلبة الآخرين المنتظرين ، ولكن بحلول اليوم التالي اختفى التركيان والفتاة . من المؤكد أنهم اختفوا أثناء الليل حيث كان يسمع هدير الشاحنات لدى وصولها ومغادرتها بدون أن تضيّ أنوارها .

ومن أجل مراسم الافتتاح طلب منهم أن يحللوا يمين الولاء للثورة

★ - شعب الباسك : هو شعب مجهول الأصل يسكن مناطق البرانس الغربية في كل من فرنسا وأسبانيا .

المناهضة للاستعمار . كما طلب منهم أن يدرسوا «قوانين المعسكر» التي كانت معلنة مثل الوصايا العشر فوق مساحة من حائط أبيض في «مركز استقبال الرفاق» كانت التعليمات قد صدرت لجميع الرفاق بأن يستخدموا أسماءهم العربية في جميع الأوقات . كما نصت التعليمات على عدم تناول المخدرات وعدم تعريه الأجساد من أجل الأغراض الصحية . كما لا ينبغي أن يكون هناك تعايش بين شخصين وخاصة بأسلوب الأزواج ولا ينبغي أن يتم القسم باسم الله . ولا ينبغي أن تعقد مناقشات خاصة . كما تنص القوانين على عدم تناول الكحوليات وعدم ممارسة الاستئماء . وبينما كانت تشارلى ما زالت تفكك في أول وصية تقوم بكسرها من بين تلك الوصايا سمعت خطاباً مسجلاً يبث من مكبر للصوت :

- أيها الرفاق . من نحن ؟ نحن الذين بلا أسماء وبلا زماني رسمي . نحن الفئران الهازية من الاحتلال الرأسمالي . نجىء من معسكرات لبنان التي استحوذت عليها الآلام ! لسوف نحارب الإبادة الجماعية . نحن نجىء من المقابر الخرسانية الموجودة بالمدن الغربية . ونعتزل على بعضنا البعض . لسوف نشغل سوية الشعلة نيابة عن ثمانمائة مليون يتعرضون للموت جوعاً في جميع أرجاء العالم .

عندما انتهى التسجيل الصوتي شعرت تشارلى بعرق بارد ينساب على ظهرها . وأحسست بغضب ساحق يتتصاعد في صدرها . وراحت تفكك : نحن سوف . نحن سوف . نحن سوف . وعندما ألت نظرة خاطفة على فتاة عربية بجوارها وجدت نفس الحماس يتقد في عينيها .

لقد قال يوسف : ليلاً ونهاراً .. ليل/نهار لذا راحت تكافح ليلاً ونهاراً .. من أجل يوسف، ومن أجل سلامه عقلها الجنون ومن أجل فلسطين وفاطمة وسلمى ومن أجل الأطفال الذين ضربوا بالقنابل في سجن صيدا . راحت تدفع بنفسها نحو الخارج من أجل أن تتمكن من الهرب من الفوضى الموجودة في كيانها .

وراحت تجمع عناصر شخصيتها على نحو لم يسبق أن قامت به من قبل بهدف أن تحدث التحاساماً بين تلك العناصر بحيث تصبح كياناً موحداً متسمًا بالروح القتالية .

إنتي أرملة محزونة غاضبة جئت إلى هنا لكي أواصل القتال نيابة عن حبيبي الميت .

أنا المقاتلة التي استيقظت من سباتها بعد أن أمضت فترات طويلة للغاية منمكمة في أنصاف الحلول وفي الإجراءات الناقصة إنها تقف الآن أمامك وقد أمسكت بالسيف في يدها .

لقد وضعت يدي على القلب الفلسطيني أخذت عهداً على نفسي أن أرفع العالم من أذنيه لكي أرغمه على الإصغاء والاستماع .

إنتي أتقد حماساً . ولكنني ماكرة وواسعة الحيلة .

إنتي الرفيقة ليلى . مواطنة مؤمنة بالثورة العالمية .

ليل نهار . ليلاً ونهاراً .

ولعبت هذا الدور إلى أقصى درجة ابتداء من التعبير بالكلام الملىء بالحيرة والغضب الذي أدت به كفاحها غير المسلح إلى الحملة المشوهة غير الاستسلامية التي تنظر بها إلى وجهها في المرأة لدى قيامها بتمشيط شعرها الطويل الأسود الذي تلوح جنوره الحمراء بالفعل . ومنذ البداية تقريراً تقبل الموجونون بالمعسكر ذلك التحفظ بداخلها مما جعلها تقف على مسافة ما منهم . وتلك العاطفة المتدفقة التي جلبتها على حلقات التدريب - وهي حلقات امتدت قاذفات الصواريخ الروسية التي تطلق بالأيدي إلى صناعة القنابل المزودة بدوائر حمراء وأجهزة تفجير ... ومنها إلى الكلاشينكوف المحتوم الذي لا يمكن الاستغناء عنه - لقد أحدثت تائراً على الجميع بما في ذلك بوببي تشارلي شديدة الحماس . إلا أنها كانت بمعزل عن الآخرين . وعلى نحو تدريجي أحسست بإذعانهم وشعوبهم لها . فالرجال بما فيهم المليشيات السورية توقفوا عن مراودتها عن نفسها . كما توقفت النساء عن إبداء

الشكوك إزاء جمالها المذهل . وبدأ الرفاق الأكثر ضعفاً يلتقطون حولها وبدأ الرفاق الأقواء يعترفون بأنها متساوية معهم .

وكانت هناك ثلاثة أسرة في المجمع الخاص بها في البداية باتت معها زميلة واحدة فقط - فتاة يابانية ضئيلة الحجم كانت تقضي الكثير من أوقاتها في الركوع والصلوة . ولكنها لم تكن تتكلم مع أي شخص من الرفاق إلاً بلغتها اليابانية . وأثناء نومها كانت تطحن أسنانها في صوت مرتفع للغاية حتى أن تشارلى أيقظتها من نومها ذات ليلة . وجلست إلى جوارها . وأمسكت يدها أثناء انحرافها في دموع آسيوية صامتة إلى أن بدأت الموسيقى تتجشأ بعد أن حل موعد الاستيقاظ من النوم . وبعد ذلك بفترة قصيرة اختفت دون أن يكون هناك تعليل واضح لذلك . وحل محلها اختان جزائرية كانتا تدخنان سجائر كريهة الرائحة . وبدا عليهما أنها تعرفان معلومات كثيرة عن البنادق والمدافع والقنابل لا تقل عن المعلومات التي يعرفها بوبي . وكانتا فتاتين تتسمان بالبساطة من وجهة نظر تشارلى . إلاً أن أستاذة التدريب كانوا ينظرون إليهما في تبجيل واحترام شديدين بسبب قيامهما بعمل بطولي حربى فذ ضد الطغاة . وفي الفترات الصباحية كانتا تشاهدان تتجولان في كسل لدى خروجهما من مساكن أستاذة التدريب ترتديان ملابس القفز . هكذا أصبحت تشارلى تبيت بمفردها لبعض الوقت . ورغم أن «فيديل» الجنتلمن الكوبي قد ظهر أمامها ذات ليلة وراح يتلامس معها في رفق مثل المنشد في الجودة ويؤكد لها حبه الثورى لها، فإنها ظلت محفظة بوقارها . ولم تمنحه سوى قبلة واحدة قبل أن تصرفه من عندها .

أما الشخص التالي الذي حاول التوడ إلى تشارلى بعد فيديل فهو عبدول الأمريكي . إذ راح ينادي عليها في وقت متأخر ذات ليلة . وشرع في الطرق بخفة على بابها حتى أنها توقعت أن تشاهد إحدى الفتاتين الجزائريتين . نظراً لأن كلتيهما كانتا تنسيان المفاتيح باستمرار . وبحلول ذلك الوقت بدأت تشارلى في الاعتقاد أن عبدول أصبح شخصاً دائماً في المعسكر . كان وثيق الصلة للغاية بهيئة المشرفين على المعسكر . كان لديه قدر كبير من حرية التصرف . ولم تكن له

أى وظيفة سوى أن يقرأ من أوراقه الكثيبة . ويقتبس عبارات عن المناضل مرجهيللا في لهجة جنونية . وكان فيدل معجباً بعيقول وقال إنه جندى هارب من ثيتام بسبب كراهيته للاستعمار إنه قد جاء هنا عن طريق هافانا .

قال عيقول : «های . مرحباً» وانزلق متخطياً إياها في ابتسام قبل أن تناول لها فرصة غلق الباب في وجهه ومنعه من الدخول . ثم جلس على سريرها وبدأ يلف لنفسه سيجارة .

قالت تشارلى : هذا تهم انصرف حالاً .

فقال مؤكداً : بالتأكيد سوف انصرف لكنه استمر في لف سيجارته . كان طويلاً وأصلع الرأس يبدو نحيلًا في الأماكن الضيقة . يرتدي ثوباً كوبياً . له لحية حريرية بنية اللون تبدو وكأنها أصبحت متساقطة الشعر .

تساءل : ما هو اسمك الحقيقي يا ليلى ؟

- سميث .

- أحب هذا الاسم : سميث . سميث . وراح يكرد اسمها مرات عديدة في نغمات موسيقية مختلفة . ثم تسأله : أنت أيرلندياً يا سميث ؟ سمعت أنك بمثابة ملكية خاصة للمستير تاي . إنني معجب بذوقك . فالكابتن تاي ولد نيق وصعب الإرضاء . وما الذي تفعلينه لكى تكسبى رزقك في الحياة ؟ يا سميث ؟ .

فسارت تشارلى نحو الباب وجذبته لكى تفتحه . إلا أنه استمر في الجلوس على السرير . وراح يبتسم في ضعف من خلال دخان سيجارته .

وفي تكاسل نهض واقفاً وألقى بعقب سيجارته على الأرض بجوار سريرها . وسحق العقب بقدمه ، وقال : أليس لديك كمية صغيرة من الحشيش من أجل رجل مسكون . يا سميث ؟

فقالت : أخرج من هنا على الفور . ومشى متثاقلًا نحوها . ثم توقف ورفع رأسه . وظل صامتاً دون حراك . ولدهشتها أدركت أن عينيه كانتا مليئتين بالدموع . كما لاحظت نتوءات من التضرع الصبياني حول فكه .

قال شاكياً : تايه لن يجعلنى أقفز مبتعداً عن الدوامة . إنه يخشى أن تكون بطارياتي الأيديولوجية قد تناهضت قواها وأنا أخشى ذلك أيضاً . وأنا على ما يبسو نسيت البراهين التي ثبتت كيف أن كل طفل ميت هو بمثابة خطوة على طريق السلام العالمى وكشحاذ حائز أمسك بيدها اليمنى فى كلتا يديه وراح يحملق فى راحة يدها الشاغرة . ثم قال لها موضحاً اسمى آرثر ج . هالوران . وإذا ما قدر لك أن تمرى جوار أى سفارة أمريكية فى أى دولة فإنتهى أكون شاكراً للغاية إذا ذهبت إليهم وتركت مذكرة تقولين فيها إن آرثر هالوران ، وهو مواطن سابق من بوسطن ومحارب سابق فى فيتنام يود العودة إلى وطنه ويسدد ديونه للمجتمع قبل أن يجيء أولئك المكابيون* ويصعدوا إلى التل وينسفوا عدداً كبيراً منا .

ولم تستطع تشارلى التحرك إلا بصعوبة ؛ إذ كان نعاس وخمول لا يمكن مقاومتهما قد هبطا عليها مثل المشاعر الأولى للحمى التى تنتاب جسداً جريحاً . لم تكن تزيد أى شيء سوى أن تنام . مع هالوران . أن تعطيه الراحة وتستخلص الراحة لنفسها وبالتالي . ولن يهمها إذا وشى بها وأبلغ عما حدث فى صباح اليوم资料 . فلتسمع له بذلك . إن كل ما كانت تدركه هو أنها لم يكن بمقدورها أن تواجه - ولو لليلة واحدة أخرى هذه الزنزانة الشاغرة الشبيهة بالجحيم .

كان مازال ممسكاً بيدها . تركته يرفرف مثل رجل يريد الانتحار ويحملق من حافة النافذة إلى أسفل نحو الشارع الذى يقع أسفله على عمق بعيد . وبعدئذ وبجهود كبير حررت يدها . ثم دفعت جسده المتخلى عن المقاومة إلى الدهليز . ثم جلست على سريرها . إنها نفس الليلة بكل تأكيد . إذ كان بمقدورها أن تشم رائحة سيجارته . كما شاهدت عقب سيجارته الموجود عند قدميها .

إذا كنت تريدين أن تذهبى فاذهبهى . هكذا قال الكابتن تايه . ثم أشار إلى الصحراء . إن تايه رجل رياضى للغاية .

كان يوسف قد قال : شجاعتكم شبيهة بالأموال ، ولسوف تنفقين وتنفقين

* - المكابيون : أسرة معروفة فى تاريخ العبرانيين .

و ذات ليلة ستبحثين فى جيوبك وتصبحين مفلسة ، وعندئذ فقط ستبدأ شجاعتك
الحقيقية فى الظهور .

كما قال يوسف : لا يوجد هناك سوى منطق واحد ألا وهو : أنت . ولا
يمكن أن يكون هناك سوى شخص واحد متبقى على قيد الحياة ألا وهو: أنت،
ويمكنك أن تثقى فى شخص واحد هو: أنت .

وقفت عند النافذة وراحت تنظر فى قلق نحو الرمال . لم تكن قد أدركت أن
الرمال يمكن أن تتضاعد عالياً إلى هذه الدرجة الكبيرة . فالرمال فى النهار
تروض بمعرفة الشمس الحارقة ، وعندما يسطع القمر - مثماً هو الآن - فإن
الرمال تتلاطم وتتضخم وتصبح على هيئة أشكال مخروطية حرونة جامحة تتنقل
من منطقة لأخرى في مراوغة ... حتى أنها أدركت أنها في خلال فترة قصيرة
للغاية سوف تسمع صوت الرمال تنسكب من خلال النوافذ وتخنقها أثناء نومها .

.....

وبدأ استجابتها في صباح اليوم التالي . واستمر لمدة يوم واحد ونصف
ليلتين كانت عملية متسمة بالجموح ومتوقفة على من الذي يجيء عليه الدور لكي
يصرخ في وجهها على ما إذا كانوا يتبعون التزامها الثوري أو يتهمونها بالعملاء
لصالح البريطانيين أو الصهاينة أو الأميركيين . وطوال فترة الاستجواب كانت
تحرم من تلقى أي نوع من أنواع التعليم . وفي خلال الفترات التي تفصل ما بين
جلسات الاستجواب تصدر لها الأوامر بالبقاء في كوخها تحت التحفظ رغم أن
أحداً لم يهتم على ما يبيو عندما راحت تتجول حول المعسكر . وكانت النوبات
مقسمة بين أربعة من الأولاد العرب المتقدرين بالحماس والذين كانوا ينبحون
بأسئلتهم المعدة مسبقاً والتي يتلوونها من صفحات المذكرات المكتوبة بخط اليد .
كانوا يغضبون منها عندما لا تتمكن من فهم لغتهم الانجليزية . لم يضربوها إلا
أن غضبهم كان مخيماً للغاية . وفي بعض الأحيان يتبادلون الصياح في وجهها
ويتركونها وهي في حالة من الصداع النصفي الأليم . وفي بعض الأحيان يقدمون

لها كوبا من الماء . ثم يلقون بالماء عندما تكون على وشك أن تند يدها لكي تمسك بالكوب .

وفي مرة أخرى راحوا يهدونها بإطلاق النار عليها نظرا لاتصالاتها المعروفة بالصهاينة وملكة بريطانيا ولكنها عندما أصرت على رفضها الاعتراف بهذه الخطايا بدا عليهم وكأنهم فقدوا الاهتمام بهذا الموضوع . وبدلاً من ذلك راحوا يقصون عليها في افتخار قصصاً عن قراهم الموجودة في وطنهم التي لم يشاهدوها في حياتهم على الإطلاق . وكيف أنها تضم أجمل النساء في العالم وأجمل زيت زيتون وأحسن الخمور . وكان ذلك يحدث عندما تدرك أنها عادت إلى سلامة العقل مرة أخرى وإلى ميشيل .

.....

كانت هناك مروحة كهربائية في السقف . وعلى الحوائط تتسلق ستائر رمادية تحجب الخرائط بعض الشيء . ومن خلال النافذة المفتوحة تمكنت تشارلي من سماع الهدير المكتوم المترامي الناجم عن التدريب على إلقاء القنابل في ميدان الرماية . وكان الكابتن تاي قد أخذ الأريكة ووضع إحدى ساقيه عليها . وقد بدا وجهه الجريح شاحباً وعلياً . وقفت تشارلي أمامه مثل فتاة شقية رديئة . نظرت بعينيها لأسفل . كان فكها مشدوداً في إحكام بسبب مشاعر الغضب التي تجتاحها . حاولت أن تتكلم ذات مرة . إلا أن تاي فوت عليها الفرصة بأن راح يبحث في جيبه ويستخرج زجاجة ويسكنى يتناول منها جرعات كبيرة . ثم راح يمسح فمه بظهر يده في كل الاتجاهين كأن له شارياً . بدا ملتزماً بضبط النفس .

قالت تشارلي : عبدول الأمريكيانى .

- ماذا ؟

كانت تشارلي قد رتبت الأمور في ذهنها . فأجرت البروفات مراراً وتكراراً : إن الرفيقة ليلي لديها حاسة عالية بالواجب الثوري . هذه الحاسة تتغلب على إحجامها عن الوشایة بجندي زميل . كانت تحفظ الجمل والعبارات عن ظهر قلب .

ولكى تنطق بهذه العبارات أبقت على الإشاحة بوجهها بعيداً عنه . وتحدث فى صوت مليء بالغضب الرجالى .

- إن اسمه أرثر ج. هالوران . إنه شخص خائن : إذ طلب منى عندما أغادر المعسكر أن أقوم بابلاغ الأميركيين، بأنه يرغب فى العودة إلى وطنه أمريكا، وأنه على استعداد لمواجهة المحاكمة التى ستعتقد لحاكمته . لقد اعترف لي بكل صراحة بأن لديه معتقدات مناهضة للثورة . وهو بذلك باستطاعته أن يخوننا جميعاً .

تركزت حملقة تايه بصفة دائمة على وجهها . ورفع عصاها، وأمسكها بكلتا يديه، وراح يطرق بها بخفة على ساقه العاجزة كأنه يريد للدماء أن تستمر فى التدفق إليها .

- أهذا هو السبب فى أنك طلبت مقابلتى ؟

- نعم

قال وهو يشيع بوجهه بعيداً عنها : لقد جاء هالوران إليك منذ ثلاثة ليالٍ .
فلم اذا لم تخبريني بذلك فى وقت مبكر ؟ لماذا انتظرت لمدة ثلاثة أيام ؟

- أنت لم تكن موجوداً هنا . كان هناك آخرون موجودون . ولماذا لم تسألى عنى ؟

- كنت أخشى أن تقوم بمعاقبتي .

ولكن تايه لم ييد عليه أنه يعتقد أن هالوران كان مطلوباً من أجل محكمته فى بلاده . راح تايه يكرر كلمة «خائفة» كان ذلك بمثابة اعتراف خطير من جانب تشارلى . «خائفة» ؟ . لماذا ينبغي عليك أن تكونى خائفة على هالوران ؟ وتظلين صامتة على مدى ثلاثة أيام كاملة ؟ هل تتغاضفين فى السر مع موقفه ؟

- أنت تعرف أنت لا تتغاضف مع موقفه .

- أهذا هو السبب فى أنه تحدث معك فى صراحة شديدة للغاية ؟ لأنك قدمت له من الأسباب ما يجعله يثق فيك ؟ أظن ذلك .

- لا .

- هل اضطجعت معه ؟

- لا .

- إذن لماذا كنت ترغبين في حماية هالوران ؟ لماذا تخافين على حياة إنسان خائن بينما أنت تتعلمين كيف تقتلين من أجل الثورة ؟ ولماذا أنت غير صادقة معنا ؟ لقد خبيت ظني فيك

- إننى إنسانة قليلة الخبرة . و كنت أشعر بالأسف من أجله . و كنت لا أرغب في أن أتسبب في إلحاق الأضرار به . وبعديّ تذكرت الواجب الملقى على كاهلى .

ويدا على الكابتن تايه أنه تعرض للمزيد من الارتباك الناجم عن كل ذلك الحوار . فأخذ جرعة أخرى كبيرة من زجاجة الويiskey .

- إجلسى .

- لست بحاجة للجلوس .

- قلت لك أجلسى

فاضطررت للجلوس تنفيذاً لأوامره . واستطرد تايه قائلاً :

- في إحدى الرسائل التي كتبتها لميشيل تحدثت عن طفل . فهل أنت قد أنجبت منه طفلاً ؟

- كنت أتحدث عن البندقية . لقد استغرقنا في النوم سوياً مع البندقية .

- ما نوع هذه البندقية ؟

- أ. وولثار . وهي البندقية التي أعطاها خليل له .

فتنهد الكابتن تايه . وأشار برأسه بعيداً عنها قائلاً :

لو أنك مكانى واستلزم الأمر منك أن تتصرفى إزاء هالوران - الذى يطلب الذهاب إلى وطنه، ولكنك يعرف الكثير من المعلومات المهمة عنا - فما الذى ستفعلينه معه ؟

- أقوم بتحييده .

- هل تطلقين الرصاص علىه ؟

- هذا الأمر يرجع إليك . وهذا هو شغل خاص بك

فقال : نعم . الأمر كذلك .

ولكن لماذا أنفذ حكم الإعدام في رجل يعتبر ميتاً بالفعل ؟ لماذا لا أدعه
يعمل لصالحنا ؟

- لأنه إنسان خائن .

ومرة أخرى بدا على الكابتن تايه بأنه يتعمد أن يسيء فهم المنطق الخاص
بموقعها .

إن هالوران يحاول التقرب من أناس كثيرين في هذا المعسكر . ودائماً ما
يكون لديه الأسباب التي تدعوه لذلك . إنه نسرنا المتتوحش . الذي يبين لنا مواطن
الضعف . وهو الذي ينبهنا إلى الأشخاص الذين يمكنهم أن يصبحوا خونة بين
صفوفنا . فهل تعتقدين أننا يمكن أن تكون أغيباء بحيث تتخلص من مثل هذا
المخلوق المفید لنا ؟ هل مارست الجنس مع فيدل ؟

- لا .

- هل ضاجعت الأولاد العرب .

- لا .

- أنت إنسانة صعبة الإرضاء للغاية على ما أعتقد .

- لم أكن صعبة الإرضاء مع ميشيل .

تنهد الكابتن تايه في ارتباك . وأخذ جرعة ثالثة من زجاجة الويشكى .
ثم تسأله في لهجة متسمة بالذمر : من يكون يوسف هذا ؟ . من
يكون لوسمحت ؟

هل أصبحت روح الممثلة في داخل كيانها ميتة في نهاية الأمر ؟ أم أنها كانت متوافقة للغاية مع مسرح الحياة حتى أن الفارق ما بين الحياة والفن قد اختفى تماماً ؟

لم يخطر على ذهنها أى دور من الأدوار المسرحية التي سبق أن تدربت عليها ولم تقم باختياردور المناسب الذي تؤديه . ولم تفكر في الركوع على قدميها والاستلقاء في صمت دون حراك على الأرضية . لم تشعر بالرغبة في الدخول في اعتراف متسم بالاندفاع بحيث تنفذ حياتها في مقابل الإدلاء بكل المعلومات التي تعرفها ، لقد قيل لها هذا كاختيار وحيد مسموح به . شعرت بالغضب والغثيان بسبب تعريض أمانتها للتفحص من وقت لآخر في كل مرحلة مهمة من مراحل مسيرتها نحو ثورة ميشيل . لذلك انفجرت في الهجوم عليه في اهتياج يخلو من التفكير السليم .

- أنا لا أعرف شخصاً يسمى يوسف .

- هذئي من روحك . وفكري في هلوء . في جزيرة ميكونوس قبل أن تذهب إلى أثينا . قال أحد أصدقائك أثناء حديثه بطريقة عابرة مع شخص تابع لك كلاماً عن رجل يسمى يوسف فإنه انضم إلى مجتمعكم وقال إنك كنت مفتونة به .

لم تكن هناك حواجز متباعدة فقد أزالت كل الحواجز وأصبحت متحركة .

«يوسف ؟ آه . ذلك الرجل الذي يسمى يوسف !» ثم جعلت وجهها يكهر في اشمئاز لدى تذكرها في وقت متاخر عن المعتاد .

وأضافت : لقد تذكرته . كان شاباً يهودياً زيتى الملمس . ظل على مقربة من مجتمعنا .

- لا تتحدثي عن اليهود على هذا النحو . فنحن لسنا ضد السامية . إنما نحن فقط ضد الصهاينة .

فقالت في حدة : قل كلاماً آخر . فهذا الكلام لا ينطلي علىَّ .

قال الكابتن تايه : إذن فانت تعتبريني كذاباً يا تشارلى ؟

- سواء أكان هو صهيونياً أم لا فإنه إنسان بغيض وتابه . وهو إنسان يذكرنى بوالدى .

- أكان والدك يهودياً ؟

- لا والدى كان لصاً .

وراح الكابتن تايه يفكر في هذا الأمر لفترة طويلة مستخدماً وجهها أولأ، ثم جسدها كمصدر لآية شكوك قد تكون مازالت تحوم في داخل ذهنه . وعرض عليها سيجارة . لكنها لم تأخذها : انبأتها غريزتها أنه ينبغي عليها ألا تتخذ آية خطوة نحوه .

راح يطرق بعصاه مرة أخرى على قدمه الميتة . ثم قال :

- هل تذكرين الليلة التي أمضيتها مع ميشيل في تسالونيكا - في الفندق القديم ؟

- ماذا عن تلك الليلة ؟

- لقد سمع موظفو الفندق أصواتاً عالية منبعثة من غرفتك في وقت متاخر من تلك الليلة .

- إذن . ما هو سؤالك ؟

- لا تستعجليني من فضلك . من الذى كان يصبح فى تلك الليلة ؟

- لا أحد . كانوا يستردون السمع عند الباب الآخر .

- من الذى كان يصبح ؟

- لم نكن نصيح . لم يكن ميشيل يريدنى أن أذهب . ذلك هو كل ما فى الأمر . كان خائفاً علىً .

- وأنت ؟

إنها قصة كانت قد نسجتها مع يوسف : لحظة كونها أكثر قوة من ميشيل.

قالت : لقد أعددت له السوار الخاص به .

فثُوماً الكابتن تايه برأسه وقال : وهذا يفسر ويعلل الحاشية الواردة في خطابك : «أنا مسرورة للغاية لاحتفاظي بالسوار» وبالطبع لم يكن هناك صياغ . أنت على حق . أغفرى لى هذه الغلطة العربية الصغيرة التي وقعت فيها .

ألقي عليها نظرة فاحصة محاولاً مرة أخرى أن يحل اللغز . ثم زم شفتيه كالجندى ومثلاً كان يفعل يوسف فى بعض الأحيان كمقدمة تمهدية للتهيؤ لإصدار قرار .

- لدينا مأمورية من أجلك . اذهبى واحضرى حاجياتك وعودى إلى هنا على الفور . فتدريبك أصبح مستكملأ .

كانت المغادرة هي أكثر الأمور غير المتوقعة . لقد كانت أسوأ من الطرد من المدرسة، وأسوأ من التخلص من الشلة عند ميناء بيروس . وضمها فيدل وبيوبى إلى صدريهما بينما دموعهما تختلط بدموعها . قامت إحدى الفتاتين الجزائريتين بإعطائهما قلادة خشبية صغيرة تعبر عن السيد المسيح عندما كان طفلاً .

.....

كان البرفيسور مينكيل يعيش فوق الربوة التي تربط بين جبل سكوبوس والتل الفرنسي في الطابق الثامن بناطحة سحاب جديدة قريبة من الجامعة العبرية . أنها واحدة من سلسلة ناطحات السحاب التي تكسر خط السماء التي سببت الكثير من الآلام للمنادين بضرورة صيانة الموارد الطبيعية في القدس وكانت كل شقة تتطلّع على مدينة القدس القديمة . ولكن هناك مشكلة أن القدس القديمة تطلّ لأعلى نحو كل شقة أيضاً . وناطحة السحاب هذه مثل بقية ناطحات السحاب الأخرى كانت بمثابة قلعة . حيث تم تصميم موقع نوافذها بحيث تسمع بأن ينطلق منها أكبر قدر من النيران بهدف الرد الانتقامي على أي هجوم .

وقام كيرتز بثلاث محاولات خاطئة قبل أن يتمكن من العثور على المكان الذي يريد الوصول إليه . إذ وصل بطريق الخطأ أولاً إلى سوق تجاري مشيد بالخرسانة المسلحة على عمق خمسة أقدام من سطح الأرض . ثم وصل بطريق الخطأ إلى مقبرة بريطانية لضحايا الحرب العالمية الأولى عليها لافتة منحوتة مكتوب عليها عبارة : «هدية مجانية من الشعب الفلسطيني» .

وشاهد بناءات أخرى معظمها هي منحة مجانية من مليونيرات يعيشون في أمريكا . وصل كيرتز أخيراً إلى ناطحة السحاب المشيدة من الأحجار . كانت لافتات الأسماء قد تعرضت للتدمير . لذلك اضطر لأن يضغط على جرس بطريقة عشوائية . فخرج شخص بولندي عجوز لا يعرف سوى اللغة البولندية . وكان ذلك البولندي يعرف مكان المبنى الذي يبحث عنه كيرتز . قال إنه يعرف الدكتور مينكيل شخصياً . إنه معجب بموافقه وأرائه ، وأشار إلى أنه هو نفسه تلقى دراساته في جامعة كراكو التي تحظى بكل تجليل واحترام . إلا أن لديه أيضاً الكثير من الأسئلة التي تهمه شخصياً . اضطر كيرتز إلى الردّ على أسئلته بقدر ما يستطيع: ما هو الموطن الأصلي الذي جاء منه كيرتز ؟ حسناً يا إلهي . هل يعرف كيرتز فلان الفلاني ؟ وما هي المهمة التي يسعى إليها كيرتز هنا في الساعة الحادية عشرة صباحاً بينما الدكتور مينكيل يقوم بإعطاء محاضرات لطلبة الفلسفة ؟

كان عمال المصاعد الكهربائية مضربين عن العمل . لذلك اضطر كيرتز إلى الصعود على السلالم . لم يكن بمقدور أيٍ شئ أن يضعف من معنوياته العالية . وذلك لأسباب عديدة منها أن ابنة أخيه كانت قد أعلنت توا خطبتها على شاب يعمل تحت رئاسته . ومنها أن المؤتمر الانجليزي الخاص بزوجته ايللى مرّ بسلام وسعادة بعد أن قدمت حفلة القهوة في نهاية المؤتمر، وبعد أن حضر كيرتز بنفسه هذه الحفلة مما جعلها تشعر بالامتنان والرضا . إلا أن أهم الأسباب هي أن اختراق فرايبورج تمت متابعته من خلال العديد من المؤشرات المؤكدة ومن بينها المؤشر الذي حصل عليه بالأمس فقط أحد المتنصتين التابعين للاتفاق لدى قيامه باختبار ميكروفون توجيهي جديد فوق سطح أحد المنازل في بيروت : فرايبورج .

فرايبورج ثلاث مرات في خمس صفحات مما أعطى متعة حقيقة . راح كيرتز يفكر في تأمل أثناء صعوده على السلالم : في بعض الأحيان يلعب الحظ دوره بذلك الطريقة . فالحظ هو الذي خلق الجنرالات العظام وهو أمر قد عرفه نابليون جيداً وكل شخص موجود في إسرائيل .

بعد أن وصل كيرتز إلى إحدى درجات السلم توقف لكي يلقط أنفاسه كان بئر السلم مضاء على نحو شبيه بالمخا الخاص بالغارات الجوية حيث هناك أقفاص سلكية حول اللumbas الكهربائية .

وكان باب الشقة به عين سحرية لها لوحة من الصلب، وبه أقفال على طول أحد جوانبه . وقامت مدام مينكيل بفك الأقفال الواحد تلو الآخر مثل شخص يقوم بفك أزرار حذائه . هي تقول : «انتظر لحظة من فضلك» بينما هي تنزل وتهبط لأسفل وأسفل أثناء فك الأقفال . واتخذ كيرتز خطوة إلى الداخل وانتظر لحين قيامها بإعادة الأقفال إلى مكانها في صبر وجلد . كانت امرأة جميلة وطويلة . ولها عينان زرقاوانيان لامعتان . وشعر رمادي طويلاً مثبت أسفل ظهرها في عجيبة أكاديمية .

قالت لکيرتز وهي تمد يدها كى تصافحه :

- أنت السيد سبيلبرج من وزارة الداخلية هانسي في انتظارك مرحبأ بك .
فتحت باب مكتبة صغيرة . وكان زوجها هانسي جالساً . متوعك الصحة وأرستقراطياً . كان مكتبه صغيراً للغاية بالنسبة لحجم جسده . لقد ظل مكتبه على ذلك النحو على مدى سنوات عديدة . وكان مكتبه منحرفاً قليلاً داخل نافذة تشبه المشربية . وكان بها مقعد خشبي مشيد في داخلها . وشق مينكيل طريقه في وقار عبر الغرفة . وقد امتزج ترحيبه بالقلق والتوجس . عندما أجلسا نفسيهما داخل المشربية جذبت زوجة مينكيل كرسيا وأجلست نفسها في ثبات عليه بينهما كأنها حريصة على مشاهدة مباراة نظيفة .

أعقب ذلك صمت متسنم بالقلق والتوتر . ابتسם كيرتز ابتسامة مليئة

بالاعتذار وقال : «يا سيدة مينكيل . هناك مسألتان سريتان تتعلقان بعملى فى وزارة الداخلية أود مناقشتها على انفراد مع زوجك فى بادئ الأمر» . ثم انتظر للحظات وهو لا يزال يبتسم إلى أن اقترح البرفيسور على زوجته أن تقوم باعداد القهوة . على أى نحو تريد قهوتك يا سيد سبيلبرج ؟ مضبوط ؟ سادة ؟

فرمكت السيدة مينكيل زوجها بنظرة تحذير وانسحبت على الرغم منها . وفي الواقع كانت هناك فوارق بسيطة بين عمرى الرجلين ، ولكن كيرتز كان حريصاً على الحديث فى وضوح للتعبير عن رأيه فى صراحة مع مينكيل حسبما اعتاد . ابتدأ كيرتز كلامه فى احترام :

– يا بروفيسور . أدرك أن صديقتنا المشتركة روثر زادير تحدثت معك بالأمس فقط . كان يدرك ذلك جيداً لأنه راقب روثر فى انتباه شديد أثناء حديثها التليفونى مع مينكيل وأصفى جيداً إلى الحوار الذى دار بين الجانبين بهدف أن يسبر أغوار مينكيل .

قال مينكيل فى شيء من التحسن على فقدانه لروثر : كانت روثر من أفضل الطالبات لدى .

قال كيرتز : وهى الآن بكل تأكيد واحدة من أفضل الموظفات لدينا أيضاً .

هل تعرف طبيعة العمل الذى تقوم به روثر حالياً ؟

لم يكن مينكيل معتاداً على الإجابة على أية أسئلة تخرج عن نطاق تخصصه . راح يفكر بعض الشيء قبل أن يجيب ثم قال فى ارتباك : أشعر أنه ينبغي على أن أقول أى شيء .

فابتسم كيرتز فى شيء من الود والصدقة . وأضاف البروفيسور :

– إذا كانت زيارتك لى هنا تتعلق بالميل والنزاعات السياسية الخاصة بطلبة حالين أو سابقين من تلقوا التعليم تحت إشرافى ومسئوليتي فإننى أحب أن أخبرك أننى أسف لأننى لن أستطيع أن أتعاون معك . اذا لا توجد هناك معايير

يمكنتى أن أقبلها على أنها معايير شرعية وقانونية . لقد سبق لنا الدخول فى هذه المناقشة من قبل . أنا آسف .

بدا عليه وكأنه يشعر بالارتباك الناجم عن معتقداته وعن لغته العربية . واستطرد قائلاً : أنا أناضل وأكافح من أجل شيء ما هنا ينبغي علينا أن نتحدث بصرامة وبيان خوف . لكن الأهم هو الاتساق بين الفكر والعمل . وذلك هو ما أناضل من أجله .

لقد سبق لكيرتز أن قرأ الملف الخاص بمينكيل . ولذلك كان يعرف جيداً الأمور التي يناضل من أجلها مينكيل . فهو تلميذ سابق لمارتين بويار كما كان عضواً في جماعة مثالية تبنت في خلال الفترة من عام ١٩٦٧ حتى عام ١٩٧٣ فكرة عقد سلام حقيقي دائم مع الفلسطينيين . فاتهمه اليمينيون واليساريون بالخيانة . كان بمثابة الإنسان الحكيم أو الحجة والمرجع فيما يتعلق بالفلسفة اليهودية وفيما يتعلق بالمسيحية المبكرة الأولى والاتجاهات الإنسانية وذلك أثناء وجوده في وطنه الأصلي ألمانيا . كان حجة في حوالي ثلاثين من الموضوعات المهمة فقد ألف كتاباً ضخماً من ثلاثة مجلدات عن الصهيونية كنظرية وتطبيق عملى . وكان لهذا الكتاب فهرس طويل شبيه بدليل التليفونات .

قال كيرتز : يا بروفيسور . أعرف موقفك جيداً إزاء هذه الموضوعات والأمور، لا أهدف بالتأكيد إلى التدخل بأى حال من الأحوال في موقفك الأخلاقي إزاء تلك الأمور . ثم توقف عن الكلام لكي تستقر تلك العبارة في ذهن البروفيسور . واستطرد على فكرة : هل يمكنني أن أقول إن المحاضرة التي سوف تلقاها في جامعة فرايبورج ستتناول أيضاً مسألة الحقوق الفردية ؟ وتناول الحريات الأساسية الخاصة بالعرب ؟ أليس ذلك هو الموضوع الذي ستتناوله في الرابع والعشرين ؟

قال البروفيسور : في يوم ٢٤ سوف أتناول موضوعاً آخر مختلفاً . موضوعاً يتعلق بتحقيق الذات لليهودية وأن تحقيق الذات لليهودية لا يتم من خلال

الغزو، وإنما من خلال تقديم أمثلة ونماذج من الثقافة اليهودية والمبادئ الأخلاقية اليهودية.

تساءل كيرتز في رقة وهدوء: إذن كيف سيتم ذلك الجدل على وجه الدقة؟

عادت زوجة مينكيل ومعها صينية بها كعك مصنوع في المنزل. فتساءلت: هل يطلب منك أن تقوم بالإبلاغ عن الناس مرة أخرى؟ إذا طلب منك ذلك ارفض: لا قل له: «لا» مرات عديدة إلى أن يسمعك تماماً.

وما الذي سيفعله على ما تظن؟ هل سيقوم بضررك ببعضها من المطاط؟

قال كيرتز بدون أن يتعرض للقلق:

- يا سيدة مينكيل، أنا لا أطلب من زوجك أي شيء من هذا القبيل.

فانسحبت مدام مينكيل مرة أخرى وقد بدا عليها أنها لا تصدق كلام

كيرتز.

قال البروفيسور مينكيل في وقار: لسوف أقول لك يا سيد سبيبلبرج الكيفية التي تسير عليها المناقشات على وجه الدقة طالما أنت لدينا دولة صغيرة فيمكن لنا أن نتقدم ونشق طريقنا بأسلوب ديموقراطي من حيث نحن يهود نحو تحقيق ذاتنا. ولكن في حالة حصولنا على دولة كبيرة المساحة تضم أعداداً كبيرة من السكان العرب فعلينا عندئذ أن نختار على هذا الجانب توجد ديمقراطية بدون تحقيق الذات. وعلى ذلك الجانب يوجد تحقيق الذات بدون ديمقراطية.

تساءل كيرتز: إذن فما هو الحل يا بروفيسور؟

طارت يدا مينكيل في الهواء في حركة متسمة بالتملل الذي يعاني منه الأكاديميون. وبدا عليه وكأنه قد نسي أن كيرتز ليس أحد تلاميذه:

- الحل بسيط للغاية! هو أن نخرج من قطاع غزة والضفة الغربية قبل أن نفقد قيمنا! فهل هناك أي حل آخر؟

«وما هي ردود فعل الفلسطينيين إزاء هذا الاقتراح يا بروفيسور؟ ظهر الحزن والاكتئاب على وجه البروفيسور بعد أن كان وجهه مليئاً بالثقة بالنفس والشجاعة . ثم قال : يقولون عنى إننى كلبيّ ★ .

أهم يقولون ذلك؟

- يقولون عنى إننى أريد كلا من الدولة اليهودية والتعاطف العالمي، ولذلك،
فأنا من وجهة نظرهم أعتبر إنساناً مخرياً وهادماً لقضيتهم.

فتح الباب مرة أخرى ودخلت السيدة مينكيل ومعها إماء القهوة والفاتحات .

استطرد البروفيسور قائلاً في يأسٍ : ولكنني لست إنساناً هداماً ومخرياً .

قالت السيدة مينكيل في حدة : مخرباً ؟ أنت تصف زوجي هانسى بأنه مخرب ؟ لأننا نتكلم في صراحة وينقلب مفتوح عما يحدث في هذه الدولة؟

لم يكن بمقدور كيرتز أن يوقفها عن الكلام كان قد حاول أن يفعل ذلك لكنه لم يبذل أية محاولة لكي يوقفها . حيث كان يرغب في أن يدعها تنفس عن كل ما يدور في صدرها .

استطردت زوجة مينكيل : ألا توجد أعمال الضرب والتعذيب في هضبة الجولان . ألا تتم معاملة الفلسطينيين في الضفة الغربية على نحو أسوأ مما كان تفعله فرق الصاعقة النازية في اليهود ؟ ألا يتم تعذيب الناس في لبنان وقطاع غزة ؟ بل وهنا في القدس ألا يتم صفع وجلد الأطفال العرب لا لشيء إلا لأنهم عرب ؟ أنا وزوجي ينبغي أن نكون مخربين لأننا نتكلم في جرأة عن الظلم والطغيان ونقول إن اليهود القادمين من ألمانيا يقومون بأعمال تخريبية في داخل إسرائيل ؟

كان من الواضح أن السيدة مينكيل قد اعتادت إحراز النجاح في مناقشاتها . أضافت قائلة : لم يكن بمقدورنا إيقاف النازيين . والآن نحن لا نستطيع إيقاف أنفسنا . لقد حصلنا على دولة لنا . فما الذي نفعله الآن ؟ ها نحن

★ - الكلبي : هو الانسان الذى يؤمن بأن السلوك الفردى تهيمن عليه المصالح الذاتية وحدها

بعد مرور أربعين عاماً نشير في تلقيق إلى قبيلة مفقودة جديدة . إنها بلامه وحماقة بالغة ! نحن إذا لم نقل ذلك فالعالم سيقوله . بل ان العالم يقوله بالفعل . هل قرأت الصحف يا سيد سبيبلبرج ! وتلك الفتاة التي تسمى روسي إ أنها فتاة شديدة الذكاء درست لمدة ثلاثة سنوات على أيدي هانسي هنا . فما الذي تفعله هي الآن ؟ لقد التحقت بالجهاز .

كان كيرتز قد رفع يده قليلاً ليحجب وجهه عنها، وعندما أنزل يده اتضحت أنه كان يبتسם . لم تكن ابتسامة سخرية أو غضب وإنما كانت مليئة بالافتخار الذي يشعر به رجل محب لذلك التنوع المذهل في الآراء التي يؤمن بها شعبه . بدأ كيرتز يقول لها : «لو سمحت» . وراح زوجها يناشد إلا أنها كانت لا تزال لديها الكثير للغاية من الكلام الذي تريد أن تقوله .

ثم توقفت عن الكلام . عندئذ طلب منها كيرتز أن تتفضل بالجلوس لكي تصفي إلى الموضوع الذي جاء ليتحدث عنه . لذلك جلست على الكرسي مرة أخرى وانتظرت لكي يتم استرضاؤها .

انتقى كيرتز كلماته في حرص وحذر وفي روح من الود . أشار أنه جاء لكي يتحدث في موضوع يعتبر من الأمور البالغة السرية . وأوضح أن روسي لا تعرف شيئاً عن هذا الموضوع رغم أنها تتناول في عملها الكثير من الأسرار في كل يوم . وهو كلام لم يكن صادقاً ولكن لا داعي للاهتمام بذلك . أشار أنه جاء فقط من أجل المحاضرة القادمة التي سيلقيها البروفيسور في فرايبورج، والتي أثارت انتباه عناصر بالغة السلبية . ثم أفرز من جوفه الحقيقة الكاملة : - ها هي الحقيقة الحزينة المؤلمة «لو أن بعض الفلسطينيين الذين ظللتما تدافعان في شجاعة عن حقوقهم تمكنا من تنفيذ ما يريدون فإنك لن تتمكن على الإطلاق من القاء محاضرك في يوم ٢٤ من هذا الشهر الحالى في فرايبورج . بل لن تتمكن إلى الأبد من إلقاء أي محاضرة أخرى»

توقف عن الكلام ولكن مستمعيه لم يظهرها أية دلائل تشير إلى رغبتهم في

مقاطعته في كلامه . فأضاف قائلاً : فطبقاً للمعلومات المتوفرة لدينا حالياً اتضح أن بعض المجموعات الأكاديمية المنخفضة المستوى اختاروك على أساس أنه إنسان معتدل وقدر على إضافة الماء إلى الخمور الندية الخاصة بقضيتهم . وأنك تناصر الحل البنتوستاني بالنسبة للفلسطينيين وأنك تقود ضعاف العقول نحو الموافقة على تنازل آخر مميت لصالح الحداء العسكري الثقيل الصهيوني .

قال البروفيسور في حدة : - إنها نفس الأوصاف التي أحقوها بي والتي ظهرت في الصحافة الفلسطينية عقب المحاضرة التي ألقيتها في بير شيفا (بئر سبع) .

قال كيرتز : يا بروفيسور . لقد حصلنا على هذه الأوصاف التي أحقوها بك من الصحافة الفلسطينية .

الفصل الرابع والعشرون

كانت تشارلى بصدر الهبوط بالطائرة فى مطار زيوريخ فى وقت مبكر من الليل . وكانت الأنوار الساطعة تسقط على جانبي الممر وتتوهج أمامها مثل المر الخاص بحياتها وهدفها . أصبح ذهناً بمثابة تجميع يضم كافة الإحباطات القديمة الخاصة بها والتى نضجت وراحت تهاجم العالم الملىء بالفساد . لقد بدأت تدرك الآن أنه لم يعد يوجد بالعالم أى قدر ضئيل من الخير . وبدأت تشاهد الكرب العظيم الذى أصبح ثمن الفنى والثراء الفاحش الغربى . وكانت دائماً على نفس النحو : إنسانة منبودة تموج بالغضب وتندز إلى العناد مع وجود فارق ، وهو أن الكلاشنکوف حل محل نوبات غضبها عديمة الجوى . وكانت الأنوار الباهرة تنطلق بسرعة بجوار نافذتها مثل حطام سفينة مشتعلة تتقاتفها الأمواج فى اتجاه الشاطئ . لمست عجلات الطائرة الأرض .

كان لا يزال عليها أن ترسو وتنزل إلى الأرض من الناحية النظرية . كان الكابتن تايه قد أخبرها لدى إعطائها تعليماته المختصرة فى بيروت : الفتيات اللائي يسافرن بمفردهن قادمات من الشرق الأوسط يكن فى موضع شك . ولذلك فإن أول مهمة تقوم بها هى أن تعطيك مصدراً أكثر احتراماً . فقد جاءت فاطمة وقالت : لقد أصدر خليل أوامره بأن تكتسبى هوية جديدة عندما تصلين .

وبعد أن دخلت تشارلى حالة الترانزيت الشاغرة هبط عليها إحساس أنها أول من تضع قدميها هناك . وانبعثت الموسيقى فى أرجاء الصالة إلا أنه لم يكن هناك أحد لكي يستمع إليها . كان هناك دكان أنيق صغير يبيع الجبن والشيكولاتة . إلا أنه كان خالياً من الزبائن ثم ذهب إلى دورة المياه . وراحت

تتأمل في شكلها ومظاهرها على مهل . قُص شعرُها ليكون قصيراً وصُبّغ بلون بنى غير واضح . كان الكابتن تايه قد راح يعرج في أرجاء شقة بيروت بينما راحت فاطمة تقض لها شعرها لقد أصدر تايه أوامره : منع المكياج والزينة . وممنوع الجاذبية الجنسية . كانت تشارلى ترتدي بدلة بنية ثقيلة وتضع على عينيها نظارة لكي تنظر في تقطيب وعبوس . قالت لنفسها كل ما أريده هو ستة فضفاضة مزودة بشعار في أعلىها . لقد جاءت على طول مسافة بعيدة . كانت فاطمة قد قالت وهي تقبلها مودعة : أبلغني تحياتي وحبي لخليل .

كانت راشيل تقف إلى جوارها عند حوض غسيل الأيدي إلا أن تشارلى نظرت من خلالها إلى الأمام . لم تكن تحبها ولم تكن تعرفها . وكان من قبل المصادفات البحتة أن تشارلى قد وضعت حقيبة يدها المفتوحة بينهما في حين كانت علبة سجائرها موجودة في القمة تنفيذاً للتعليمات التي أصدرها يوسف إليها . ولم تشاهد يد راشيل وهي تأخذ علبة السجائر وتضع مكانها علبة أخرى لم تشاهد راشيل وهي تغمز لها بعينها بسرعة في المرأة .

ليس لدى حياة سوى هذه الحياة . وليس لدى حب سوى حب ميشيل وليس لدى ولاء سوى ولائي لخليل العظيم .

كان الكابتن تايه قد أصدر لها أوامره قائلاً : اجلسى في مكان قريب للغاية من منصة المغادرة بقدر ما تستطيعين . هاهى تفعل ذلك . استخرجت من صندوقها كتاباً عن نباتات جبال الألب . وكانت ترتدي بادجا مستديراً مكتوباً عليه : «انقذوا الحوت» . وتلك كانت العلامة الأخرى وفقاً لما قاله الكابتن تايه لأنه ابتداءً من الآن فصاعداً يريد خليل أن يكون هناك دائماً شيئاً من كل شيء : خطantan وعلامتان وأسلوب ثانٍ احتياطي بالنسبة لكل شيء بحيث إذا فشل الأسلوب الأول يتم اللجوء على الفور إلى الأسلوب الثاني وكذلك رصاصة ثانية في حالة إذا ما ظل العالم على قيد الحياة .

كان يوسف قد قال : إن خليل لا يثق في أي شيء إذا لم تكن له خطة .

بديلة ثانية . ولكن يوسف قد مات ودفن منذ فترة طويلة . وأصبح نبياً منبوداً . إنها كانت أرملة ميشيل وجندية مقابلة تابعة للكابتن تايه . جاءت من أن أجل أن تنضم إلى صفوف الجيش الخاص بشقيق حبيبها الميت .

كان هناك جندي سويسري يرقبها بعينيه ، إنه رجل كبير في السن يحمل مسدساً أوتوماتيكياً . وقلبت تشارلى صفحة في الكتاب بين يديها . إن ذلك المسدس من النوع المفضل لديها . ففي آخر حلقة تدريبية سجلت ٨٤ رصاصة في الحلقة الدائرية التي يتعلم عليها جنود العاصفة كيفية الرماية وذلك من بين المائة رصاصة التي أطلقتها . كان ذلك هو أعلى رقم بين كافة الرجال والنساء يتم تسجيله . ومن بين زاوية عينيها أدركت أن الجندي السويسري ما زال ينظر إليها . فهبطت على ذهnya فكرة غاضبة : سأفعل ما سبق أن فعله بوبى ذات يوم في فنزويلا . وكان بوبى قد صدرت له الأوامر بأن يطلق الرصاص على رجل شرطة فاشستى معين لدى خروجه من منزله في الصباح وهو وقت ملائم للغاية من أجل تنفيذ مثل هذه الاغتيالات . اخترق بوبى في مدخل المنزل وراح ينتظر . وكان رجل الشرطة هذا يحمل بندقية تحت ذراعه . ولكنه رب أسرة ومن النوع الذي يلاعب أطفاله دائماً . ولدى خروجه إلى الطريق استخرج بوبى كرة من جيبه وألقى بها أمام رجل الشرطة . أنها كرة من المطاط خاصة بالأولاد مما يدفع أي رب أسرة إلى الانحناء للتقطها . وبمجرد أن انحني رجل الشرطة بزغ بوبى من مدخل البيت وأطلق رصاصة أردوتة قتيلاً على الفور . فمن ذا الذي يمكنه أن يستخدم سلاحه ويطلق النار بينما هو ممسك بكرة مطاطية ؟ .

كان هناك شخص ما يحاول أن يلتقط تشارلى . إنه شخص يدخن الغليون ويرتدى حذا من جلد الخنزير وينظلونا رمادى اللون . شعرت به يحوم ويرفرف ويتقدم نحوها .

- معاذرة . هل تتحدى باللغة الانجليزية ؟

يبدو أنه شخص انجليزى من الطبقة المتوسطة ومن النوع الذى يغتصب

الفتيات . إنه قصير ممتليء . ذو شعر أشقر . يبلغ من العمر حوالي ٥٠ عاما . وأرادت أن تردد عليه قائمة : لا . إننى لا أعرف اللغة الانجليزية ولكننى أنظر فقط إلى الصور الموجودة فى الكتاب . إنها تكره هذا الطراز من الناس حتى أنها كانت على وشك أن تشعر بالغشيان نظرت إليه فى دهشة كانت لديه قدرة على الاحتمال شأنه فى ذلك شأن كافة الناس الذين على شاكلته .

قال موضحا : كل ما هنالك أن هذا المكان يبدو كئيباً وموحشاً للغاية . كنت أسائل نفسي عما إذا كنت توافقين على تناول مشروب معى ؟ ويبدون أى تحكم أو سيطرة من جانبي .

فقالت : « لا . شكراً جزيلاً » . كانت على وشك أن تقول له « أبي يقول لي دائماً إنه ينبغي على إلا أتكلم مع الغرباء » . وبعد برهة سار مبتعداً عنها فى استياء وراح يبحث عن رجل شرطة لكي يبلغ تقريراً عنها . ثم راحت تشارلى تدرس نباتات الألدفايز السويسيرية راحت تصفى إلى المكان وهو يمتلىء تدريجياً بالناس المسافرين . زوج من الأقدام فى كل مرة . مروراً بجوارها فى اتجاه دكان الجبنة أو مروراً بجوارها فى اتجاه البار . ثم توقفت قدمان بجوارها .

- يا إموجين ؟ هل تذكرييني ؟ أنا سابين !

نظرت تشارلى لأعلى ، وصمتت للحظات من أجل أن تتمكن من التعرف عليها .

منديل سويسرى جميل من أجل إخفاء الشعر المصrous القصير المصبوغ بلون بنى . لا ترتدى نظارة . ولكن إذا ارتدت سابين نظارة هى الأخرى لا تعتبرنا أى مصور فتاتين توأم . كانت تتدلّى من يدها حقيبة مكتوب عليها : فرانز كارل ويبار / زيودخ . وكانت تلك الحقيبة بمثابة العلامة الثانية .

- يا الله . سابين . ها أنت موجودة نهضت . طبعت قبلة سريعة رسمية على الخد . يا له من أمر مدهش . إلى أين أنت ذاهبة ؟

إن طائرة سابين على وشك أن تقلع . وأسفاه . لا نستطيع أن ندردش .

سويًا مثلما تفعل الفتيات . ولكن هكذا الحياة . أليس كذلك . أقت سابين حقيبتها عند قدمي تشارلى . راقببني في دقة يا عزيزتي . بالتأكيد ياسابين . لا توجد مشكلة . وتحتفى سابين في داخل دورة المياه المخصصة للسيدات . ثم تقوم تشارلى بالتفتيش في حقيقة سابين في شجاعة وجرأة ، وكأن الحقيقة حقيبتها . ثم تستخرج مظروفاً مغطى حوله شريط . وتشاهد في داخل المظروف جواز سفر وتذكرة طيران . وفي هدوء تستبدل بهما جواز السفر الخاص بها وتذكرة الطائرة وبطاقة الترانزيت . ثم تعود سابين وتحتفظ حقيبتها - يجب أن تنطلق بسرعة وتخرج على الفور . وتقوم تشارلى بالعد حتى رقم عشرين . ثم تعود إلى دورة المياه وتتجثم في قرفصاء . وتقرأ : بستروب إموجين .. من اتحاد جنوب إفريقيا . مولودة في جوها نسبرج بعدى بثلاث سنوات وشهر واحد . الجهة المراد الذهاب إليها هي شتوتجارت خلال ساعة واحدة وعشرين دقيقة مع السلامة أيتها الأيرلندية ومرحبا بفتاتنا الصغيرة العنصرية المسيحية ذات الردفين .

وبعد أن خرجت تشارلى من دورة مياه السيدات وجدت الشرطي ينظر إليها مرة أخرى . لقد شاهد كل شيء . إنه على وشك أن يلقى القبض علىَ . وراحت تشارلى تحملق في وجهه إلى أن اضطر إلى الانصراف بعيداً عنها . ثم استخرجت كتابها الذي يتناول أزهار جبال الألب .

.....

بدت رحلة الطيران وكأنها استغرقت خمس دقائق فقط . هناك شجرة كريسماس قديمة تقف في صالة الوصول بمطار شتوتجارت . هناك جوًّ من الاصطدام العائلي حيث كل شخص بقصد الذهاب إلى منزله . سارت تشارلى في الطابور ومعها جواز السفر الإفريقي الجنوبي . وراحت تتفحص الصور الخاصة بالنساء الإرهابيات المطلوب إلقاء القبض عليهم . هبطت عليها هواجس وأحساس داخليه بأنها على وشك أن تشاهد صورتها بين تلك الصور . ومرت تشارلى من خلال باب الهجرة بدون أن تطرف لها عينُ . ثم مرت من خلال الباب

الأخضر . وعندما اقتربت من باب الخروج النهائي شاهدت زميلتها روز كانت تتکىء على حقيقة ظهرها بينما يغالبها النوم . الا أن روز كانت ميته بالنسبة لشارلى شأنها فى ذلك شأن يوسف أو أي شخص آخر . كما كانت روز غير مرئية أيضاً بالنسبة لشارلى شأنها فى ذلك شأن راشيل . فتحت الأبواب الالكترونية . وعندئذ ضربت دوامة ثجية وجهها فى عنف . فجذبت .. ياقه معطفها لأعلى . وسارعت بالسير عبر الرصيف العريض نحو جراج السيارات . كان الكابتن تايه قد قال : الطابق الرابع اذهبى إلى الركن البعيد يساراً ، وابحثى عن ذيل ثعلب مثبت فى هوائى الراديو . وبالفعل شاهدت ذلك الذيل فوق الغطاء المعدنى لمحرك سيارة ماركة فولكس فاجن .

قال صوت رجالى متراهم من مكان قريب منها بلهجة أمريكية رخيصة : «أنا شاؤول، ما اسمك يا عزيزتى؟» ومررت عليها لحظة مريرة تخيلت فيها أن ذلك الصوت هو صوت هالوران الذى يسمى عبدول كاسم مستعار وأنه رجع إليها لكي يستحوذ عليها . ولكنها عندما حملقت فيما حولها أحسست بالارتياح عندما شاهدت شابا يستند على الحائط . يرتدى حذاء له رقبة . ترتسم على وجهه ابتسامة مشرقة كسولة . وعلى صدره بادج مكتوب عليه عباره «انقذوا الحوت» تماما مثلها .

قالت ردأً على سؤاله : «اسمي إموجين» لأن شاؤول كان هو الاسم الذي حدد لها الكابتن تايه وأوضحت لها أنها ستقابل شخصاً يسمى شاؤول .

- ارفعي غطاء السيارة يا إموجين . وضعى حقيبتك بداخلها . الآن انظرى فيما حولك وتأكدى أن أحداً لا يرقبك . هل هناك شخص يراقبك ويضايقك ؟
راحت تتفحص صالة الجراج فى دقة . وفي مقصورة سيارة «فان» شاهدت راؤول ومعه فتاة لم تستطع مشاهدة وجهها بوضوح وكانتا على وشك البدء في المضاجعة .

قالت .. لا أحد هناك .

ثم فتح لها شاوفل الباب الأمامي للسيارة .

قال لدى جلوسه إلى جوارها اربطى الحزام . فهم لديهم قوانين صارمة في هذه الدولة . حسنا ؟ أين كنت يا إموجين ؟ ومن أين حصلت على هذه البشرة النحاسية السمراء الناجمة عن التعرض كثيراً لأشعة الشمس ؟

إلا أن الأرامل المصممات على الاغتيال لا ينخرطن في الدردشة مع الغرباء . هز شاوفل كتفيه وفتح الراديو وراح يستمع للأنباء باللغة الألمانية .

كان الثلج قد أضفى جمالاً ورونقاً على كل شيء . وانطلقت السيارات تنطلق في حرص وحدر بين الفوضى . ثم دخلا طريقاً مزدوجاً . كانت رقائق الثلج تتسابق في اتجاه الأنوار الأمامية لسيارتهما . وعندما انتهت نشرة الأخبار أعلنت امرأة عن اذاعة كونشيرتو موسيقى .

- أتحبين سماع هذا يا إموجين ؟ إنها موسيقى كلاسيكية .

ثم ترك الموسيقى تناسب . إنه موزارت المولود في سالزبورج . المدينة التي تشعر فيها تشارلى بالتعب الشديد بحيث لم تستطع ممارسة الحب مع ميشيل في تلك الليلة السابقة على وفاته مباشرة .

وكانا يحاولان الابتعاد عن التوهج الضوئي المحتمد بالمدينة . وكانت الرقائق الثلجية تتجول بالمدينة مثل رماد أسود . صعدا فوق مفترق للطرق . وتحتھما وفي داخل ملعب رياضي محاط بالأسوار يوجد أطفال يرتدون سترات نواف قلنسوة ويلعبون بكرات ثلجية وراحت تفك : إننى أفعل ذلك من أجلهم . وعلى نحو ما كان ميشيل يؤمن بذلك . وعلى نحو ما نؤمن جميعاً بذلك . جماعنا باستثناء هالوران . ثم سالت نفسها في تعجب : لماذا يوجد أكثر من اللازم داخل ذهنها ؟ لعل السبب في ذلك أنه كان ينزع إلى الشك والارتياح . وهي كانت قد تعلمت أن تخاف من الشك أكثر من أي شيء آخر . وكان الكابتن تايه قد حذرها قائلاً : أن تشك هو أن تخون . فالشك يؤدي حتماً إلى الخيانة .

لقد حدثها يوسف بكلام له نفس هذا المعنى . كانوا قد دخلوا منطقة أخرى .

وأصبح الطريق أمامهما أشبه بنهر أسود يخترق وديانا ضيقة من الحقول البيضاء والغابات المثلثة . وانزلق الإحساس بالزمن لدى تشارلى . ثم انزلقت حاسة التوازن لديها . وراحت تشاهد قلاعا خيالية رائعة الجمال ومجموعات من القرى الطويلة الشبيهة بالقطارات على هيئة صور ظلية منعكسة على صفحة السماء الشاحبة . شاهدت خيولاً صغيرة ترتعد وهى تحمل بالات من الحطب والقش وتذكرت خيولها الصغيرة أثناء طفولتها . وكل شيء جميل كان ينضرم وينطوى ويختلاشى . كانت تلقى بقلبها وراء كل شيء جميل محاولة اللحاق به وتخفيض سرعة تلاشيه . إلا أن شيئاً لم يتبق . ولا شيء ترك انطباعاً وبصمات على ذهناها . كانت كلها أشياء شبيهة بالأنفاس الموجودة فوق سطح زجاج لامع . ومن وقتآخر تلحق بهما سيارة وتحططاهما . وذات مرة تخططاها موتسيكل فخیل إليها أنها تعرفت على رقبة ديمترى . إلا أنه كان يقع خارج نطاق الأنوار الأمامية لسيارتها قبل أن تتمكن من التأكد من شخصيته .

صعدا فوق قمة تل . وبعدها بدأ شاوفل يزيد من سرعته . ثم انحرف إلى اليسار . وعبر طريقا مليئا بالمطبات وعلى المرer الفرعى كانت هناكأشجار ملقة على جانبيه مثل جنود متجمدين من البرد فى نشرة أخبار روسية . وعلى مسافة أمامها بدأت تشارلى تتبع الخطوط الخارجية لمنزل قديم ذو مجموعة مداخن فوق السطح . وللحظات خاطفة ذكرها المنزل بالمنزل الموجود فى أثينا . أوقف شاوفل السيارة . وخفض الأنوار الأمامية للسيارة مرتين . وردت بطارية من قلب المنزل بأن غمزت مرتين . راح شاوفل ينظر إلى ساعة يده . يعد الثوانى بصوت مرتفع ، وقال «تسعة - عشرة - ينبغي أن يكون الآن» . وتغامز الضوء البعيد مرة أخرى . ثم أخذ شاوفل عبر تشارلى . وفتح لها الباب .

أمسكت تشارلى حقيبتها فى يدها واختارت مدقعاً أخodia بين الثلوج . وشرع فى السير تجاه المنزل ولم يكن معها أى شيء يرشدها فى سيرها سوى لون الثلوج الشاحب وشروط ضوء القمر المناسبة من بين الأشجار . شاهدت برج ساعة حائط قديم وحصاناً صغيراً متجمداً .

فجأة سمعت صوتاً مألوفاً يتحدث إليها في تحفظ: «يا إموجين . انتبهى للسقف . لو أن قطعة من السقف ضربتك فستقتلك على الفور . يا إموجين - أوه تشارلى هذا أمر سخيف للغاية» ، وفي اللحظة التالية بزغ جسد قوى ناعم من ظلام الشرفة لكي يطوق جسدها .

واضطرت تشارلى إلى الردّ على هذا الفيض من الترحيب فقالت «أوه - هيلجا - أيها السيد المسيح - هذا شيء عظيم » .

.....

وتحت ضوء بطاريتها اقتادتها هيلجا عبر صالة لها أرضية رخامية قد اقتلعت وأزيلت نصف بلاطاتها الرخامية بالفعل . ثم اقتادتها في حذر فوق سلم خشبية متداعية ليس بها درابزين .

كان المنزل يلفظ أنفاسه الأخيرة . إلا أن شخصاً ما كان يستعجل وفاته . وكانت الجدران المنخرطة في البكاء ملطخة بشعارات مكتوبة بطلاء أحمر اللون . وكانت مقابض الأبواب قد سرقت . استعادت تشارلى مشاعر العداء نحو هيلجا فحاولت أن تسحب يدها . إلا أن هيلجا أصرت على الاستمرار في الإمساك بيدها . وكان ذلك من حقها وسارتا سوياً عبر مجموعة من الغرف الشاغرة . وهي كلها غرف كبيرة تكفي لعقد وليمة أو مأدبة ضخمة . وفي الغرفة الأولى يوجد موقد من الخزف الصيني مهشم مليء بأوراق الصحف والمجلات . وفي الغرفة الثانية توجد آلة طباعة يدوية مليئة بالتراب وحولها على الأرضية توجد أوراق صفراء اللون تتناول الثورات الماضية .

قالت هيلجا فجأة بصوت مرتفع « يا إموجين هل تعرفين ما أفعله أنا وصديقي هنا ؟ إن صديقتي إنسانة خيالية وغريبة الأطوار . إنها تسمى فيرونا كان والدها نازياً يمتلك الأراضي وغير ذلك من الأمور» . لقد مات والدها . ولذلك فنحن نبيع ممتلكاته انتقاماً منه . نبيع الأشجار للذين يقومون بذبح الأشجار وقطعاًها . ونبيع الأرضى للذين يعملون على تدمير الأرضى . ونبيع التماشيل

وقطع الأثاث لتجار الروبابيكيا . وإذا كان ثمن الشيء الذى نبيعه يبلغ حوالي ... فإننا نبيعه بخمسة فقط . وهنا كان يوجد مكتب والدها . قمنا بتمزيق هذا المكتب بأيدينا وأحرقناه فى النيران . ليكون ذلك بمثابة رمز . لأن المكتب كان مركزاً لقيادة الحملة الفاشستية كان يقع على الشيكات وهو جالس على هذا المكتب يدير أعماله القمعية من هنا . فقمنا بتكسيره وحرقه . والآن أصبحت فيرونا تتمتع بالحرية والانطلاق . إنها انسانة فقيرة حرة .. انضمت إلى الجماهير الشعبية أليست هي خيالية ورائعة ؟ لعله عليك أن تفعلى ذلك أيضاً .

وكان هناك سلم للخدم يتضاعف فى التوازء إلى دهليز طويل . انطلقت هيلجا أمامها . ومن فوقهما سمعت تشارلى موسيقى فلكلورية وشمت رائحة كيروسين فى حالة احتراق . ومرةً بجوار صف من غرف النوم الخاصة بالخدم ثم توقفتا أمام الباب الأخير . كان هناك ضوء يسطع أسفل الباب طرقت هيلجا الباب وقالت كلاماً باللغة الألمانية فى هدوء . فأدىر قفل وفتح الباب . فدخلت هيلجا أولاً وأشارت بيدها لتشارلى لكي تتبعها . وقالت : « يا إموجين . هذه هي الرفيقة فيرونا .

فيرو !

انتظرت فتاة ممثلة وجميلة ومخبلة لكي تستقبلهما . ترتدي مرييلة فوق بنطلون أسود كان شعرها مقصوصاً على طريقة شعر الأولاد . قد تدلّى مسدس فى جراب جلدى من ردهها الممتلىء . مسحت فيرونا راحة يدها فى مرييلتها . وتصافحن بالأيدي مصافحة برجوازية .

قالت هيلجا فى لهجة مليئة بالسلطة وكأنها صاحبة المنزل : منذ سنة واحدة فقط كانت فيرو فاشستية تماماً مثل والدها . وكانت عبدة وفاشستية فى آن واحد . لكنها الآن تقاتل وتجahد وتكافح . أليس كذلك يا فيرو ؟

وبعد ذلك ذهبت فيرونا بمفردها إلى ركن بالغرفة حيث كانت تطبخ طعاماً على موقد خاص بمعسكرات الخيام . ساعلت تشارلى نفسها فى تعجب : ترى هل كانت تحلم فى السرّ بمكتب والدها .

قالت هيلجا : « تعالِ لتشاهدى الشخص الموجود هنا ». وسارت لمسافة . ثم نظرت تشارلى بسرعة فيما حولها . ترامى الضوء الضعيف من مصباح زيتى مت Dell من عارضة خشبية فى سقف مائل . كانت هناك ستائر من القطيفة مشبوبة بالمسامير عبر النوافذ الروش الناتئة من سقف مائل . حصان خشبي هزار يتختر على طول حائط واحد . وإلى جواره توجد سبورة مربية أطفال مرتكزة فوق حامل وعلى السبورة توجد خريطة للشارع مرسومة فى وضوح بالإضافة إلى وجود الأسماء الملونة التى تشير إلى مبنى كبير مستطيل الشكل فى وسط الشارع . وفوق منضدة بينج بونج قديمة توجد بقايا من الخيز الأسى والسبق والجبنة . متدرلة وناشفة أمام نيران زيتية . كانتا قد وصلتا إلى سلالم خشبية قصيرة . راحت هيلجا تصعد السلالم ومعها تشارلى . وعلى الأرضية المرتفعة يوجد سريران متحاوران . وفوق أحد السريرين رجل شبه عارٍ مضطجعاً على السرير . إنه الإيطالى الذى سبق أن صوب مسدسه فى وجه تشارلى فى صباح ذلك اليوم من أيام الأحاداد فى المدينة .

ولاحظت تشارلى أنه يقوم بتنظيف أجزاء مسدسه الآوتوماتيكي الذى كان ملقى إلى جواره . وعند مرفق ذراعه كانت تنبئ موسيقى برامز من راديو ترانزستور .

قالت هيلجا فى تهكم وهى تنتحل أعضاء التناسلية بأصعب قدمها : لدينا هنا ماريو النشيط يا ماريو . أليس لديك أى خجل على الإطلاق . غط جسدك وأدّ التحية لضيفتنا وهذا أمر .

اكتفى ماريو بدرج نفسيه فى لعب ومزاح نحو حافة السرير موجها الدعوة لأى منها بالانضمام إليه ثم تساعل : يا تشارلى . كيف حال الرفيق الكابتن تايه ؟ احكى لنا كل أخبار العائلة .

ومثل صرخة فى كنيسة دق جرس التليفون : وشعرت تشارلى بالذعر الفجأى حيث إنها لم يخطر على ذهنها أن لديهم تليفوناً . وعندما سمعت هيلجا

جرس التليفون تجمدت في مكانها . وقام روسينيو بإغلاق الراديو الترانزستور . كان التليفون فوق منضدة خشبية صفيرة مطعمة بالصدف . وقف هيلجا بجوار التليفون . ولكنها لم ترفع السماعة . وراحت تشارلى تحصى ثمانى دفعات من الصوت المجلجل للجرس قبل أن يتوقف الرنين تماما . ظلت هيلجا واقفة في مكانها محملاة في التليفون . سار روسينيو عاريا تماما في الغرفة . ثم أخذ قميصا من حبل الغسيل .

قال وهو يرتدى قميصه . إنه سوف يتصل بنا تليفونيا غدا . فما الذي ظهر في الأفق على نحو فجائي ؟

فقالت هيلجا في حدة «الترزم بالهدوء» .

واستمرت فيرونا في تحريك الطعام الذي تطبخه ببطء .

ودق جرس التليفون مرة أخرى . وفي هذه المرة رفعت هيلجا سماعة التليفون ووضعتها مرة أخرى على الفور . عندما دق جرس التليفون للمرة الثالثة رفعت هيلجا السماعة على الفور وردت في غلطة قائلة «نعم» ثم راحت تصفي دون أن تومئ برأسها أو تبتسم على مدى دقيقتين تقريبا ثم وضعت السماعة .

وأعلنت قائلة : لقد غير مينكيل وشلته خططهم سيمضون هذه الليلة في توينجين حيث إن لديهم أصدقاء في الكلية . وهم معهم أربع حقائب كبيرة والعديد من الحقائب الصغيرة بالإضافة إلى محفظة جلدية مسطحة .

ثم التقطرت قطعة قماش مبللة وقامت بمسح السبورة . واستطردت قائلة : والمحفظة الجلدية المسطحة ذات لون أسود . ولها مفاصل مبسطة . لقد تغير المكان الذي ستُلقى فيه المحاضرة . والشرطة لا تساورها الشكوك والهواجس ولكنها تموج بالقلق والتوتر . إنهم يتذمرون تدابير وقائية معقولة على حد تعبيرهم .

قال روسينيو : ماذا عن الشرطة السرية ؟

الشرطة ترغب في زيادة الحراس . ولكن مينكيل يرفض هذا الوضع تماما . إنه رجل مبادىء وإذا كان عليه أن يلقى محاضرة عن القوانين والعدالة فإنه لا

يريد أن يشاهد نفسه وقد أحبط برجال الشرطة السرية . لم يتغير شيء بالنسبة لِموجين . فالأوامر الصادرة لها هي نفس الأوامر . وذلك سيكون أول عمل تقوم به . ولسوف تكون هي النجمة الكاملة أو البطلة أليس كذلك يا تشارلى ؟

وفجأة راح الجميع ينظرون إليها ... إذ راحت فيرونا تنظر بنظرات متسمة بالغباء بينما ابتسما روسينيو ابتسامة مليئة بالتفكير بينما نظرت هيلجا في شكل مباشر وصريح .

* * * * *

استلقت تشارلى واستخدمت ساعد ذراعها كوسادة . لم تكن غرفة نومها بمثابة قاعة ضيقة وإنما كانت على هيئة (*) بدون مبات أو ستائر . كان سريرها عبارة عن مرتبة قديمة محشوة بشعر الخيول وبطانية قديمة صفراء اللون تتبعث منها رائحة نبات الكافور . كانت هيلجا تجلس إلى جوارها وتملّس بيدها القوية على شعرها المصبوغ . بينما انساب ضوء القمر من خلال النافذة العلوية ، إنها موجودة في مكان أشبه بالكوخ الخشبي تشعر بأنها في مأمن من كل شيء باستثناء الغد .

- ماذا في الأمر يا تشارلى ؟ افتحي عينيك . ألم تعودى ترغبين فى مشاهدتي ؟

فتحت تشارلى عينيها . وحملقت في الفراغ أمامها مباشرة بدون أن تشاهد أو تفك في أي شيء .

- أمازلت تحلمين بصبيك الفلسطيني الصغير ؟ هل تشعرين بالهم والقلق إزاء الأمور التي نفعلها هنا ؟ هل تريدين التخلّى عن هذه المهمة والهرب بعيداً عنها إذا واتتك الفرصة المناسبة ؟

فقالت تشارلى : أشعر بالتعب والإرهاق .

(*) العلية : حجرة تحت السقف الأعلى مباشرة .

إذن لماذا لا تنامين معنا ؟ ويمكنا أن نمارس الحب . ثم نستغرق في النوم . وماريو ممتاز في ممارسة الحب .

انحنت هيلجا على تشارلى وقبلت رقبتها .

- أتریدين ماريو أن يجيئ إليك هنا بمفردك هل تشعرين بالخجل ؟ إنني أسمح لك بأن يحدث ذلك إذا أردت .

- غداً في الليل ربما تصبحين عاطفية أكثر . ومع خليل ليس هناك رفض من جانبك . إنه متلهف للغاية لمقابلتك سأله عنك شخصياً . لقد أحببت شقيقه ميشيل ولذلك سوف يحبك . ولا يوجد أدنى شك في هذا .

مالت هيلجا عليها مرة أخرى . قبلتها من جديد . ثم غادرت الحجرة وكانت تشارلى مستلقية على ظهرها ومفتوحة العينين ترقب الأنوار الأولى للفجر وهي تنعكس على النافذة . ثم سمعت صرخة مدوية صادرة عن امرأة وأعقب ذلك بكاء مكتوم مليء بالتوسل . كانت هيلجا وماريو يدفعان بالثورة إلى الأمام بدون الاستعانة بمساعدتها .

وكان يوسف قد قال : اتبعيهم إلى أي مكان يقودونك إليه . لو أصدروا لك الأوامر بأن تقتلني ستقع المسئولية علينا وليس عليك .

- وأين ستكون أنت ؟

- في مكان قريب .

- في مكان قريب عند حافة العالم .

وفي حقيقة يدها كانت توجد بطارية يد صغيرة من النوع الذي يرسل نوراً كشافاً أو الذي كانت تلعب به تحت البطانية في مدرستها الداخلية فاستخرجت البطارية . وفي حرص شديد ومثلاً علمها يوسف أزال التغليف وفتح الورق المقوى لعلبة السجائر ونشرته ليكون مسطحاً وبحيث يكون السطح الداخلي متوجهاً لأعلى . ولعقت أصبعها ببللته بلعابها . وبدأت تحك في رفق على الورق

المقوى الحالى من الكتابة . ثم ظهرت حروف الكتابة تدريجياً فى لون بنى مكتوبة بخط واضح ، قرأت الرسالة . ثم دفعت بالورقة المقواة المفلطحة فى داخل شرخ موجود بين أخشاب الأرضية إلى أن اختفت الورقة عن الأنظار تماماً .

« كونى شجاعة . فنحن معك »

.....

كانت غرفة العمليات فى قلب مدينة فرايبورج تشغل مكتباً مستأجراً بالدور الأرضى بشارع مزدحم كان المكتب يعمل تحت غطاء : شركة وولكار للاستثمارات . وهى واحدة من عشرات الشركات التى حرص جافرون على الإبقاء عليها مسجلة بصفة مستمرة وكانت معدات الاتصالات الخاصة بهم لها طابع ومظهر الشركات التى تتعامل فى الأجهزة الإلكترونية . هذا بالإضافة أن لديهم ثلاثة تليفونات عادية وكان أحد هذه الخطوط الثلاثة هو الخط الساخن الذى يربط أليكسيس مع كيرتز . كان الوقت فى الصباح الباكر عقب قضاء ليلة مشحونة بالعمل الكثير . حيث انقضى الوقت فى متابعة وتعقب تشارلى وإيوانها ثم مناقشات حادة تتعلق بتحديد الاختصاصات والحدود التى تفصل ما بين ليتفاك ونظيره الألمانى الغربى . لأن ليتفاك أصبح آئنـد يدخل فى جدال مع كل شخص . ولقد حرص كل من كيرتز وأليكسيس على أن يكونا بمعزل عن مثل هذه الأمور التى تحدث بين المرؤوسين لهما .

أما بالنسبة لجادى بيكار فقد عاد أخيراً إلى ساحة القتال . كان أسلوبه قد اتخذ طابع السرعة فى اتخاذ الإجراءات . فالاستبطانات التى سيطرت عليه أثناء وجوده بالقدس قد تركته . وبينما كان كيرتز يغفو أسفل بطانية عسكرية وبينما كان ليتفاك يموج بالتوتر ويحجب الغرفة جيئة وذهاباً ويردّ على التليفونات كان بيكار يقف عند شيش النافذة ويحملق نحو التلال المغطاة بالثلج . لأن فرايبورج - شأنها شأن سالزبورج هى مدينة محاطة بالمرتفعات حيث يبدو كل شارع وكأنه يتجه لأعلى .

وقال ليتفاك فجأة موجها كلامه لظهر بيكار . إنها مصابة بالهلع والذعر .
استدار بيكار ونظر إلى ليتفاك في حيرة . فأضاف ليتفاك في توتر : لقد
غيرت مذهبها واتجاهها .

عاد بيكار إلى النافذة . ثم قال : إن جزءا منها قد راح إليهم وظل جزء
آخر منها باقيا معنا . وذلك هو ما طلبناه .

رد ليتفاك في حدة : لقد غيرت مذهبها واتجاهها مثلاً حدث مع عملاء
آخرين من قبل . لقد شاهدتها في المطار وأؤكد أنها كانت تشبه الشبح .

قال بيكار في هدوء مهيب : إذا كانت تشبه الشبح فتلك هي الطريقة التي
تريد أن تبدو عليها . إنها ممثلة ستواصل الأمر حتى النهاية . ولا داعي للقلق .

- إذن ما الذي يدفعها إلى ذلك ؟ فهي ليست يهودية . ليست أى شيء .
إنها تابعة لهم . يجب أن نسقطها من حساباتنا .

وتحرك كيرتز تحت البطانية فرفع ليتفاك صوته بهدف أن يشركه في هذه
المناقشة :

- إذا كانت مازالت تابعة لنا فلماذا أعطيت لراشيل علبة سجائر شاغرة في
المطار . أخبرني عن سبب ذلك ؟ لقد أمضت أسابيع متواصلة بدون انقطاع بين
هؤلاء الرعاع والغوغاء ومع ذلك لم تكتب لنا أى مذكرة عندما بزغت على السطح
مرة أخرى . أى نوع من العمليات هي والتي تقول عنها إنها مخلصة لنا ؟

بدأ على بيكار وكأنه يبحث عن الإجابة في الجبال البعيدة . ثم قال ربما
ليس لديها أى شيء تقوله . وربما تتخذ قرارات بشأن أعمالها وليس بشأن كلامها
وكلماتها .

ومن السرير السفرى الصغير قال كيرتز عارضا مواساته المتسمة
بالنعايس: إن ألمانيا تجعلك عصبيا ومتوترا يا شيمون . استريح وهدىء من روحك .
فلا يهمنا إلى من تنتهي طالما أنها توضح لنا الطريق وترشدنا ؟

أحدثت كلمات كيرتز نتيجة عكسية . إذ شعر ليتفاك وكأن هناك تحالفًا
ظالمًا ضده . مما جعله أكثر جموداً وتوحشًا .

– وإذا أصيّبت بالانهيار واعترفت ؟ وإذا روت لهم الحكاية كلها ابتداء من
ميكونوس حتى هنا ؟ فهل تظل في هذه الحالة تنير لنا الطريق وترشدنا ؟
كان يبدو عليه وكأنه مصمم على الدخول في صدام ولم يكن بمقدور أي
شيء إقناعه أو إرضاؤه .

ورفع كيرتز نفسه قليلاً لكي يرتكز على مرفق واحد . وقال في حدة بعض
الشيء : إذن ما الذي ينبغي أن نفعله يا شيمون ؟ قدم لنا الحل . ولنفترض أنها
أصبحت بالفعل في صفهم . إنها نصفت العملية كلها ابتداء من الإفطار إلى
العشاء . أتريد مني أن أتصل بميشا جافرون وأقول له إننا ضعنا وانتهينا ؟

ولم يكن بيكار قد تخلّى عن النافذة . ولكنه استدار مرة أخرى وراح يرقب
ليتفاك الذي ينتقل ببصره ما بين بيكار وكيرتز . ثم ألقى بذراعيه في حركة جامحة
وقال صارخاً : إنه (أى خليل) موجود في مكان ما هناك . في فندق أو في شقة أو
في منزل يقضى فيه الليل بشكل مؤقت . إنه بكل تأكيد في أحد هذه الأماكن
وعلينا أن نحكم الإغلاق على المدينة والطرق والسكك الحديد ومحطات الأتوبيسات .
ونطلب من أليكسيس أن يطوق تلك الأماكن . ونفتش في كل منزل إلى أن نعثر
عليه .

فقال كيرتز في روح من الفكاهة : يا شيمون . إن مدينة فرايبورج ليست
غزة أو الضفة الغربية .

هذا عق بيكار «وما الذي سنفعله يا شيمون بعد أن نعثر عليه بالفعل ؟ »

– عندما نعثر عليه نقوم بقتله على الفور . وننهي العملية .

فتساءل بيكار ومن الذي يقوم بقتل تشارلى ؟ نحن أم هم ؟

فتدافعت الدماء إلى وجه ليتفاك وهو يمد ذراعه في وجه بيكار في اتهام

قاتلًا : «إنها كما هي عاهرة وداعرة . إنها شيوعية . إنها تحب العرب»

كان صوته عالياً للغاية بحيث يمكن سماعه من خلال الجدار الداخلي الفاصل . ثم أضاف قائلاً «يجب أن نتخلص منها . ومن الذي يهتم بها؟» .
ولذا كان ليتفاكر قد توقع من بيكار أن يتشارل على أجل تشارل فإنه أصيب بخيبة الأمل . لأن بيكار اكتفى بالإيماء برأسه في هدوء . بينما أزاح كيرتز البطانية وجلس في سريره مرتديا سرواله التحتاني الداخلي . وأصدر أوامره في هدوء : يا شيمون . اذهب وخذ حماماً واسترح قليلاً وتناول بعض القهوة . وعد إلينا في منتصف النهار تقريراً وليس قبل ذلك ولا ترد على التليفون .
ثم قام كيرتز برفع سماعة التليفون وقال باللغة الألمانية «إنه مشغول . نعم هنا هلموث من يتكلم؟» .

قال كلمة نعم ثم كلمة نعم مرة أخرى . وأضاف «هذا العمل تم إنجازه» .
وبعدئذ وضع سماعة التليفون وابتسم ابتسامته المعهودة لليتفاكر أولاً لكنه يواسيه ثم لبيكار لأن الخلافات بينهما أصبحت عديمة الأهمية . وقال : لقد وصلت تشارل إلى الفندق الذي سيقيم به مينكيل وزوجته منذ خمس دقائق فقط . وروسينو موجود معها . إنها يتناولان طعام الإفطار حالياً قبل الموعد الملائم بوقت كاف .
وهو ما يفضله أصدقاؤنا .

تساءل بيكار : وماذا عن السوار؟
رد كيرتز في فخر : إنه في معرض يدها اليمنى . فهي لديها رسالة لنا .
إنها فتاة رائعة يا جادي . وأنا أهنتك .

كان الفندق قد شُيد في الستينيات عندما كانت صناعة الفندق تحرص على وجود الأروقة الكبيرة الضخمة والنافورات المضادة المهدئة للأعصاب . وكانت توجد سلالم مزدوجة عريضة تؤدي لأعلى إلى شرفة . ومن منضدة الشرفة التي تجلس إليها تشارل وروسينو فإنهم يطلان على الباب الرئيسي للفندق . كان روسينو يرتدي بدلة زرقاء . أما تشارل فترتدى الزي الرسمي المرشدة من جنوب إفريقيا

علاوة على ارتدائها للسلسلة التي تضم الحلية الخشبية لصورة السيد المسيح وهو طفل والتي حصلت عليها عندما كانت بالعسكر .

كانت عدستا نظارتها - وكان الكابتن تايه قد أصر أن تكونا عدستين حقيقيتين - تسببان آلاما في عينيها عندما يجيء إليها دور لكي تقوم بأعمال المراقبة .

جلس روسينو يقرأ الجريدة . ومن وقت لآخر يحدثها عن بعض الأخبار الطريفة الواردة في الجريدة . كانا قد دخلا إلى المدينة في الصباح المبكر . كادت أن تتجمد من البرد الشديد وهي فوق المقعد الخلفي للدراجة البخارية . لقد تركا الدراجة البخارية عند محطة السكة الحديد . ثم جاء إلى الفندق بالتاكسى . وفي خلال الساعة التي أمضياها هنا شاهدت تشارلى رجال شرطة يركبون الخيول مع وفد من الأفارقة الغربيين الذين يرتدون أزياء قبلية وشاهدت مجموعة من الأمريكيين يصلون إلى الفندق كما شاهدت مجموعة من اليابانيين يغادرون المكان . كانت تعرف جدا الإجراءات المتعلقة بقيام المرء بتسجيل اسمه في الفندق . حيث يقوم الخادم بأخذ الحقائب من النزلاء الجدد لدى دخولهم من الأبواب المنزلقة ويقف على مسافة منهم بينما يقوم النزلاء بملء استمارات تسجيل أسمائهم بالفندق .

قال روسينو من خلف جريده لدى وقوف تشارلى على قدميها : وقداسة البابا يخطط للقيام بجولة في كافة دول أمريكا الجنوبية الفاشستية وربما سيتمكنون في هذه المرة من الإجهاز عليه وقتله . إلى أين أنت ذاهبة يا إموجين ؟ - كى أتبول .

- ماذا في الأمر ؟ هل أنت متوتة وعصبية ؟ .

انبعثت في نورة مياه السيدات أضواء وردية فوق أحواض غسيل الأيدي . كما انبعثت موسيقى هادئة لكي تغطى أزيز مراوح التهوية . وقفت راشيل تضع لنفسها مكياج تظليل العيون . وهناك سيدتان آخرتان تفتسلان . باب واحد مغلق .

احتكت تشارلى بجوار راشيل ووضعت رسالة مكتوبة بخط اليد فى يدها . ثم نظفت نفسها وعادت إلى المنضدة .

قالت كما لو أن الارتياح الناجم عن ذهابها لدوره المياه قد جعلها تغير رأيها : هيا بنا نخرج من هنا فالامر يدعو للسخرية .

وتوقفت سيارة مرسيدس لها الطابع الرسمى وتقيأت رجالاً يرتدون ملابس سوداء عليها علامات تضم أسمائهم . وبدأ روسيينو يطلق التعليقات الفاحشة عنهم عندما قاطعه خادم بالفندق مناديا عليه لكي يذهب إلى التليفون . جلس راشيل مع عشيق تحت شجرة نخيل مصنوعة من الألومنيوم تقرأ فى جريدة . كان العشيق غير معروف لشارلى يبدو عليه أنه المانى ، وأنه يمسك بوثيقة داخل ملف من البلاستيك . وهناك حوالى عشرين فرداً يجلسون هنا وهناك لم تكن تشارلى تعرف منهم سوى راشيل . عاد روسيينو وقال :

- لقد وصل مينكيل وزوجته إلى المحطة منذ دقيقتين فقط . ثم استقلتا سيارة زرقاء وهما على وشك الوصول إلى هنا .

ثم طلب الفاتورة . وقام بتسديد الثمن . وبعدئذ استأنف القراءة مرة أخرى .

تمتمت تشارلى لنفسها لدى استلقائها فى انتظار بزوغ الصباح : لسوف أفعل كل شيء للمرة الأخيرة فقط . كل شيء سيكون بمثابة المرة الأخيرة . فإذا كنت أجلس هنا فلن أفعل ذلك مرة أخرى على الإطلاق . وعندما أهبط على السلالم فإننى لن أضطر إلى الصعود مرة أخرى . وعندما أغادر الفندق فلن أعود إليه أبداً .

وهمست تشارلى فى تفجّر مليء بالخوف والكراهية لدى تركيز نظراتها على مدخل الفندق : لماذا لا نطلق الرصاص على ابن الحرام هذا ونخلص منه على الفور ؟

قال روسيينو فى صبر : لأننا نريد أن نبقى على قيد الحياة لكي نطلق

الرصاص على أولاد حرام آخرين . ثم قلب صفحة من جريدة . وأضاف لقد خسر فريق مانشستر لكرة القدم مرة أخرى . مسكونة أنت أيتها الإمبراطورية القديمة .

قالت تشارلى : جاءت لحظة البدء في العمل . وكانت سيارة زرقاء قد توقفت عند الجانب الآخر من الأبواب الزجاجية . اندفعت منها امرأة ذات شعر رمادي . ثم تبعها رجل طويل له شكل مميز ويسير في مشية متسمة بالطابع الرسمي التقليدي .

قال روسيينو مصدرًا أوامرها لـ تشارلى وهو يعيد إشعال سجارة : راقبى الأمتعة الصغيرة وسأراقب الأمتعة الكبيرة .

وكان السائق يفتح صندوق الأمتعة الموجود في خلف السيارة وكان خادم الفندق الذي يسمى فرانز يقف خلف السائق ومعه عربته الترولى الصغيرة . وظهرت في بادئ الأمر حقيبتان متماثلتان من القماش البني اللون . وكانتا نواتي حزام في الوسط . عليهما بطاقات حمراء اللون . ثم ظهرت حقيبة جلدية أكبر حجمًا . ثم جاءت بعدها حقيبة أخرى .

قال روسيينو باللغة الإيطالية بصوت رخيم : ثُرى كم من الأيام سيمكتان هنا ؟

تكونت الحقائب الصغيرة في مقعد المسافرين الأمامي . وبعد أن قام السائق بإغلاق حقيبة السيارة راح يفرغ الحقائب الصغيرة من المقعد الأمامي . إلا أن ترولى فرانز لم يكن بصدده حمل كل تلك الحقائب مرة واحدة . وبعدئذ شاهدت تشارلى أهم شيء : محفظة جلدية سوداء مسطحة لها إطار من الصلب وبها رقعة جلدية عليها اسم صاحبها . بدأ مينكيل يدفع أجرة التاكسي مستخرجا العملات المعدنية من كيس نقوده بينما التقى زوجته المحفظة السوداء وقالت تشارلى : زفت .

قال روسيينو : انتظري .

وسار مينكيل محملا بالطرود وراء زوجته ودخل عبر الأبواب المزلقة .

قال روسينيو في هدوء : أخبريني يا تشارلى أن باستطاعتك التعرف عليه .
وأنا أسألك لماذا لا تلقين نظرة عن قُرب ؟ أنت متعددة . أنت عذراء صغيرة خجولة
وكان ممسكا بكم ردائها . قال لا تستخدمي العنف . إذا لم تفلح الخطة فهناك
وسائل أخرى . عليك بالتدخل الآن .

كان مينكيل يقترب من مقصورة الاستقبال بالفندق في خطوات قصيرة
خفيفة سخيفة كأنه لم يفعل مثل هذا الأمر من قبل على الإطلاق ، وإلى جواره
زوجته المسكة بالمحفظة السوداء . وكانت هناك فتاة واحدة فقط في الاستقبال
مشغولة مع اثنين آخرين من الضيوف . ظل مينكيل يحملق فيما حوله في ارتباك .
وراحت زوجته تكون رأيا عن الفندق في شيء من الامتعاض نظرت في استياء إلى
مجموعة من الألان . وقالت كلاما في تمتة لزوجها ثم أصبح الاستقبال شاغرا .
أخذ مينكيل المحفظة الجلدية من يد زوجته : إنه تعامل غريزى صامت بين
شخصين متزوجين . كانت فتاة الاستقبال شقراء ترتدي فستانًا أسود اللون .
راحت تراجع سجل الحجز بأظافر أصابعها قبل أن تعطى مينكيل استمارة لكي
يملاها . بدا مينكيل أشبه بصورة تجريدية مليئة بالضباب من خلال نظارتها
اللابورية . وصلت إلى أرضية صالة الاستقبال .

انحنى مينكيل ليملأ الاستمارة كان قد وضع جواز سفره عند مرفق ذراعه
لكي يكتب البيانات . وقف تشارلى على يمين مينكيل وراحت تحملق من فوق كتفه
أثناء انهماكه في الكتابة . وظهرت الزوجة على اليسار وراحت تنظر إلى تشارلى
في دهشة وحيرة . ثم لكرت زوجها بکوعها . عندئذ أدرك مينكيل أن هناك منْ
يرقبه عن كثب فرفع رأسه المهيب في بطء . واستدار ليواجه تشارلى وتظاهرت
بالخجل وقالت : هل أنت البروفيسور مينكيل ؟

كانت له عينان رماديتان مليتان بالإرهاق . وبدا أكثر ارتباكا من تشارلى
أحسست بالثقة في نفسها عندما أدركت أن أداؤه ردئ للغاية . فقالت بسرعة :
ـ يا بروفيسور . اسمى إموجين باستروب من جوهانسبرج . خريجة قسم

الدراسات الاجتماعية من حسن حظى أتنى سمعت محاضرتك المئوية في السنة الماضية والتي كانت تتناول حقوق الأقليات في المجتمعات العنصرية . كانت المحاضرة رائعة لقد غيرت مجرى حياتي . كنت أود الكتابة إليك لكن حدثت بعض الظروف فهل تسمح أن أصافحك باليد ؟

واضطرت من الناحية العملية أن تمسك يده لكي تتمكن من مصافحته . حملق في بلاهة نحو زوجته . التي كانت أكثر لباقة منه سارعت بالابتسام لشارلى تشجع مينكيل وابتسم ابتسامة ضعيفة واهنة .

- هل ستقيم هنا لفترة طويلة يا دكتور ؟ وما الذي ستفعله هنا ؟ هل ستلقى المحاضرات مرة أخرى ؟

وفي خلفية الموقف وخارج نطاق البؤرة راح روسيينو يسأل فتاة الاستقبال عما إذا كان شخص يسمى بوكاسيو قد حجز لنفسه من ميلانو أم لا ؟

سارعت مدام مينكيل إلى إنقاذ زوجها مرة أخرى من ورطته حيث قالت موضحة : إن زوجي يقوم برحلة في أوروبا . فنحن نمضى أجازة . ونلقي محاضرات قليلة ، ونقوم بزيارة الأصدقاء . ونطلع إلى الاستمتاع بالرحلة .

تشجع مينكيل وقال : وما الذي أتي بك إلى فرايمبورج يا آنسة باستروب ؟

- أوه . وددت فقط أن أستمتع بعض الشيء بالعالم قبل أن أقرر ماذا ينبغي على أن أفعله في حياتي .

قالت موظفة الاستقبال إنها لم تجد حجزا باسم السيد بوكاسيو . وأضافت إن الفندق كامل العدد ، وهي تتناول المفتاح للسيدة مينكيل راحت تشارلى توجه الشكر لمينكيل مرة أخرى على تلك المحاضرة المليئة بالتنوير والثقافة . فراح يرد على كلماتها الرقيقة وبعد أن وجه روسيينو الشكر لفتاة الاستقبال انطلق نحو الفندق الرئيسي كانت المحفظة الجلدية متوازية تحت المعطف الأنثوي الخاص بروسيينو . وفي فيض من الشكر والاعتذارات خرجت تشارلى من الفندق وراء روسيينو بدون أن تظهر أنها في عجلة من أمرها ولدى وصولها إلى الأبواب

الزجاجية شاهدت الصورة المنعكسة لينكيل وزوجته يحملقان في يأس حولهما مع
محاولة تذكر من الذي كان معه المحفظة في آخر مرة وأين .

وصلت تشارلى إلى المكان المخصص لوقف سيارات الفندق فوجدت
هيلجا تنتظرها داخل سيارة ستروين خضراء . فدخلت إلى جوارها بالسيارة .
قادت هيلجا السيارة نحو بوابة الخروج . ووضعت تذكرتها ونقودها . وبعد ارتفاع
الذراع المعدني من أجل فتح الطريق انفجرت تشارلى ضاحكة وقالت « إنه أمر لا
يصدقه العقل يا هيلجا . كان عليك أن تشاهديني وأنا أفعل ذلك يا اللهى . أيها
السيد المسيح !

وفى غرفة العمليات جلس ليتفاك بجوار جهاز اللاسلكي ، بينما وقف بيكار
وكيرتز خلفه . بدا على ليتفاك كأنه خائف من نفسه فهو شاحب الوجه يضع جهازا
للرأس به سماعة أذن واحدة وميكروفون .

قال ليتفاك لقد أخذ روسينو سيارة أجرة للذهاب إلى المحطة . ومعه
المحفظة الجلدية .

فقال بيكار عذر كف ليتفاك موجها كلامه لكيرتز : لا أريد أن يتبعه أحد .
فجذب ليتفاك جهاز الرأس . ويدا كأنه لا يصدق أذنيه ، قال « لا تريد أن
يتبعه أحد ؟ لدينا حاليا ستة من الرجال حول الدراجة البخارية . كما أن
أليكسيس خصص ٥٠ رجلاً من أجل المتابعة . لقد ركبنا جهازاً صغيراً في
الدراجة البخارية . وجهزنا عدداً كبيراً من السيارات الواقفة على أهبة الاستعداد
والمنتشرة في جميع أرجاء المدينة . إذا تتبعنا الدراجة البخارية فهذا معناه أننا
ن تتبع المحفظة الجلدية وهي التي ستقودنا إلى الرجل الذي نرغب في اصطدامه .

سأله كيرتز : ما رأيك يا جادى ؟

رد بيكار : سوف يستخدم طريقة التقاطع والخروج عن الطريق الرئيسي .
وهو دائماً ما يستخدم هذا الأسلوب ولذلك من المتوقع له أن يقطع مسافة ومعه

هذه المحفظة . ثم يسلمها بعد ذلك لشخص آخر يقوم بدوره بتسليمها إلى شخص ثالث متخصص في المرحلة التالية . ويحلول فترة ما بعد ظهر هذا اليوم سيكونون قد جروا وراء هم في جميع أرجاء الشوارع الضيقة بالمدينة ومنها إلى المناطق الريفية المكشوفة والمطاعم الشاغرة . لذا يمكن القول إنه لا يمكن لأى فريق في العالم أن يتمكن من مواصلة المراقبة على هذا النحو دون أن يكشف أمره .

تساءل كيرتز : وما هو الأمر الذي يعنيك شخصيا ؟

أن تظل بيبرجر ملزمة لشارلى طوال النهار . ولسوف يقوم خليل بالاتصال بها في مواعيد متفق عليها وفي أماكن متفق عليها . وإذا ساورت خليل أية شكوك ولو ضئيلة فإنه سيصدر أوامره على الفور لبيبرجر بأن تقتل شارلى . وإذا لم يتصل تليفونيا خلال ساعتين أو ثلاث فإن بيبرجر ستبارى إلى قتل شارلى أيضاً .

وبدا على كيرتز أنه غير قادر على اتخاذ قرار معين . ثم أعطى ظهره لكل من جادى ليتفاك . وراح يتجلو في أرجاء الغرفة . بينما يرقبه ليتفاك في جنون وأخيرا التقط كيرتز سماعة تليفون الخط الساخن مع اليكسيس . وراح يتكلم في هدوء لبعض الوقت ثم أصفع ، وتحدث مرة أخرى وأخيراً وضع سماعة التليفون .

قال ليتفاك في جموح ووحشية وهو يصفى لجهاز الرأس الخاص به : إنه بقصد الوصول إلى المحطة في خلال تسعة ثوان وأضاف في خلال ست ثوانٍ . فتجاهل كيرتز كلام ليتفاك . وقال : لقد أبلغت توا أن بيبرجر وشارلى دخلتا توا إلى محل كواifer من الطاز الحديث . ويبدو أنهما ستتجملان بأحسن أنواع المكياج من أجل التلاؤم مع هذا الحدث المهم العظيم .

قال ليتفاك في يأس : إن سيارة الأجرة التي استقلها روسينو وصلت توا إلى ميدان محطة السكة الحديد . وهو يقوم الآن بدفع النقود للسائق .

كان كيرتز ينظر إلى بيكار بكل الاحترام والتقدير قال ونظرته مثبتة على

بيكار : يا ليتفاك ، لقد ربح جادى فترة النهار ، إصدر أوامرك لرجالك بالتوقف عن العمل . اطلب منهم أن يستريحوا حتى المساء .

دق جرس الهاتف ورفع كيرتز السماعة مرة أخرى . كان المتحدث هو البرفيسور مينكيل وقد أصابه انهيار عصبي . استمع إليه كيرتز حتى النهاية ثم تحدث لفترة طويلة مع زوجة مينكيل بهدف التهدئة من روعها :

وضع سماعة التليفون في استياء مكبوت ، وقال : إنه ليوم لطيف حقا . بكل شخص لديه وقت عظيم .

تلت هيلجا أول مكالمة تليفونية وهي في داخل محل الكواشير . ثم غادرت المحل ومعها تشارلى إلى محل لبيع الملابس حيث اشتريت حذاء وقفازاً لتشارلى . وبعدها ذهبتا إلى الكاتدرائية حيث راحت هيلجا تلقى محاضرة تاريخية على تشارلى . وفي كثير من القهقهة والغمز واللمز والتلميح والتملق ، قامت هيلجا باصطحاب تشارلى إلى ميدان صغير حيث كانت مصممة على تعريفها على بيرتهولد شفارتز وهو «أكثر الناس في العالم إثارة للغريزة الجنسية - بحيث إنه من المؤكد أن تقع تشارلى في حبه على الفور» . واتضح في نهاية الأمر أن بيرتهولد شفارتز هذا كان مجرد تمثال .

أليس رائعاً ياتشارلى ؟ ألا تمنيه لو كان بمقدورنا أن نرفع ملابسه ذات مرة ؟ هل تعرفين ما الذي فعله هذا البيرتهولد ؟ لقد كان عالماً كيمائياً شهيراً . إنه مخترع البارود .

كان يحب الله حباً جماً لدرجة أنه قد علم مخلوقات الله كيف ينسفون ويدمرون بعضهم البعض . ومن ثم قام المواطنون الطيبون ببناء هذا التمثال من أجله . وهذا أمر طبيعي هل تعرفين ما الذي ستفعله عقب انقضاء هذه الليلة ؟ سنرجع ونحضر بعض الأزهار من أجل بيرتهولد . ونضع الأزهار عند قدميه . أليس كذلك يا تشارلى ؟

ذهبتا إلى مطعم فاخر من أجل تناول طعام الغداء وقدمت هيلجا خمور بادين لشارلى . وتم استدعاء هيلجا لكي ترد على التليفون مرة أخرى . وعندما عادت أشارت أنه ينبغي عليهما الذهاب إلى الجامعة وإلا فإنها لن يتمكنا من إنجاز أي شيء . ولذلك دخلتا في طريق تحتانى مخصص للمشاة وزاحر بال محلات الصغيرة التي تقع على كلا الجانبين . ثم بزغتا أمام مبنى مشيد بالحجر الرملى له أعمدة وواجهة مقوسة بها حروف ذهبية فى أعلاها . سارعت هيلجا إلى ترجمة الكلمات .

توجد هنا ياتشارلى رسالة جميلة من أجلك . استمعى إلى «الحقيقة سوف تحررك » إنهم يقتبسون كلاما من كارل ماركس من أجلك . أليس ذلك أمراً جميلاً ورائعاً ومتسمًا بالأفكار العميقه الأصيلة ؟

قالت شارلى : لقد اعتقدت أن هذه العبارة مقتبسة عن نويل كوارد .

وكان هناك ميدان حجرى يحيط بهذا المبنى وشرطى عجوز يقوم بأعمال الحراسة على المبنى وينظر فى حذر إلى الفتاتين . فى الداخل كانت أضواء الصالة تلمع من خلال أبواب زجاجية مظلمة . وكان المدخل الجانبي يحظى بحراسة تمثالين لكل من : هوميروس وأرسطو ، إنه المكان الذى تلقيت فيه هيلجا وشارلى لفترة طويلة حيث أبديتا إعجابهما بالتماثيل وبالأسلوب الفخم للفن المعمارى بينما كانتا فى حقيقة الأمر تقىسان المسافات والفتحات والمداخل والمنافذ . كان هناك ملصق أصفر اللون عن المحاضرة التى سيلاقيها مينكيل فى نفس ذلك المساء .

وهمست هيلجا : هل أنت خائفة يا شارلى ؟ استمعى إلى . بعد ما قمت به فى هذا الصباح أقول لك إنك سوف تحرزن نصراً كاملاً . فأنتم انسانة رائعة سوف توضحين ما هي الحقائق وما هي الأكاذيب سوف توضحين لهم المفهوم الحقيقي للحرية . ونظرًا لأن العالم مليء بالأكاذيب فإننا بحاجة للقيام بعمل هائل . إنه أمر منطقى تماماً .

كان هناك كوبيرى جديد للمشاهد يمتد عبر طريق مزدوج للسيارات . وكانت هناك أعمدة طوطمية حجرية رهيبة مشتملة على تصوير تشخيصى للموت تطل على كلا الجانبين . ومن الكوبيرى ذهبتا إلى مكتبة الجامعة ومنها إلى مقهى الطلبة . ومن خلال الأبواب الزجاجية لمقهى كان بمقدورهما مشاهدة الأساتذة والطلبة يدخلون ويخرجون من قاعة المحاضرات وكانت هيلجا فى انتظار مكالمة تليفونية أخرى . وجاءت المكالمة بالفعل . ولدى عودتها عقب الانتهاء من التحدث فى التليفون شاهدت شيئاً ما فى تعبيرات وجه تشارلى سبب لها الغضب قالت فى صوت خافت : ماذا دهاك ؟ أنت ممثلة بالشفقة والحنو والتعاطف مع آراء مينكيل الخلابة على نحو فجائي ؟ استمعى إلىّ . إن مينكيل هذا أكثر سوءاً من هتلر . وهو طاغية فى حالة من التخفي والتذكر . لسوف أشتري لك مسكرا هولنديا ثقيلا هولندي ثقيل يسمى الشينص كى يثير الشجاعة فى داخلك .

وكانت سخونة المشروب ما زالت تحرقها لدى وصولهما إلى الحديقة العامة . وراح هواء المساء يحدث وخزا بسبب وجود ذرات المياه المتجمدة فى الهواء . وفي صوت مرتفع دق جرس قديم معلن الساعة فأطلقت هيلجا على الفور صيحة ابتهاج .

- أوه تشارلى . استمعى إلىّ . هل سمعت ذلك الجرس ، إنه مصنوع من الفضة .

أومأت تشارلى برأسها . وحاولت أن تبتسم ولكنها لم تفلح فى ذلك . لفت هيلجا ذراعها القوى حول تشارلى وقالت ياتشارلى - استمعى إلىّ - أنت بحاجة لأن أقدم لك موعدة .

فهزت تشارلى رأسها ونظرت هيلجا إلى ساعتها وهى تضم تشارلى إلى صدرها ثم نظرت نحو الظلام الآخذ فى التزايد :

- أتعرفين أية معلومة أخرى عن هذه الحديقة يا تشارلى ؟

- أعرف أنها ثانى أسوأ مكان فى العالم . وأنا لا أمنح أبداً . جوائز أولى .

نظرت هيلجا إلى ساعة يدها مرة أخرى ثم حملقت في الظلام المليء بالضباب . وقالت : إنه هنا . مع السلامة .

فقالت تشارلى في داخل ذهنها ... لا تجعليني أذهب إلى خليل .

فوضعت هيلجا يديها على خدي تشارلى . ثم قبلتها في رفق على شفتيها .

ثم قبلتها مرة أخرى في مزيد من العنف وقالت لها : سوف تقابلين «خليل» من أجل ميشيل . سوف تقابلينه من أجل الثورة والسلام وميشيل سيرى في خط مستقيم على المرء إلى أن تصلى إلى بوابة ، وهناك ستجدين سيارة فورد خضراء في انتظارك . اجلسى في المقعد الخلفى وراء السائق مباشرة .

أوه تشارلى . استمعى إلى . أنت إنسانة رائعة ولسوف نصبح صديقين دائما وللأبد .

ثم لوحت هيلجا بيدها الكبيرة . ورددت عليها تشارلى بتلويحة من يدها بينما كان برج الكاتدرائية يرقبها .

* * * * *

كان السائق يرتدى قبعة من الفراء تخفي نصف وجهه . وقد رفع الياقة الفرائية لمعطفه لأعلى . لم يستدر لكى يلقى التحية عليها . ومن المكان الذى تجلس فيه لم تتمكن من تكوين صورة عن شكله ، وساورتها شكوك بأنه عربى ، كان يقود السيارة فى بطء بين حركة مرور المساء فى بادئ الأمر . ثم إلى داخل المناطق الريفية المكشوفة عبر حارات ضيقة مستقيمة ما زالت مغطاة بالثلوج .

قالت تشارلى «شكرا» . سمعته وهو يضحك فى جلجلة : لقد كان شابا عربيا بكل تأكيد . وصعد بالسيارة على تل . وتوقف بعدها عند محطة أتوبيس . وناولها عملة معدنية وقال : اقطعى تذكرة من فئة اثنين مارك واستقلى الأتوبيس التالى المتوجه فى ذلك الطريق .

كان الظلام حالكا وكانت النجوم الأولى قد شرعت فى البزوغ . هبت

الرياح الريفية القاسية من فوق التلال . وعلى مسافة ما على الطريق شاهدت أضواء محطة بنزين لم تكن هناك أية منازل على الإطلاق . انتظرت خمس دقائق . اشتربت تذكرة وجلست بالقرب من باب الأتوبيس وقد وضعت ركبتيها بجوار بعضهما البعض . وفي المحطتين التاليتين لم يصعد إلى الأتوبيس أى شخص . وفي المحطة الثالثة صعد شاب يرتدي سترة جلدية وأجلس نفسه إلى جوارها في بهجة . لقد كان هو سائقها الأمريكي خلال الليلة الماضية .

قال في شفف واهتمام : بعد محطتين توجد كنيسة جديدة . لسوف تنزلين من الأتوبيس . وتسيرين على الطريق . وتتخطين الكنيسة مع الالتزام بالسير في المشي الجانبي الأيمن . وبعدئذ سوف تشاهدرين سيارة حمراء واقفة بها تمثال صغير لشيطان يتدلّى من مرأة السائق . وعليك أن تفتحي الباب وتجلسى وتتنظري وهذا ما عليك أن تفعليه .

وقف الأتوبيس نزلت تشارلى وشرعت في المشي . أما الولد فقد ظل راكبا . وكان الطريق مستقيما ، وكان الليل حالكا وعلى مسافة أمامها ربما في حدود ٥٠٠ ياردة شاهدت بقعة ملطخة حمراء معقوفة تحت أحد مصابيح الشارع . وكان الثلج تصدر عنه أصوات كالصرير تحت حذائهما ذى الرقبة الجديد . أعطاها إحساسا بأنها منفصلة عن جسدها . مرحبا أيها القدمان ماذا تفعلان هناك ؟ سيرى أيتها الفتاة . سيرى . واقتربت تدريجيا من السيارة . إنها سيارة واقفة فوق الحاجز الحجرى عند حافة الطريق . وبعد السيارة وعلى مسافة ٥٠ ياردة على الطريق يوجد مقهى صغير ، وإلى ما وراء المقهى لا شيء سوى الهضبة الثلجية العارية والطريق الممتد إلى ملا نهاية .

فتحت تشارلى باب السيارة وجلست في داخلها . كانت مضاعة من خلال الأنوار المترامية من مصباح الشارع الموجود فوقها . وشممت رائحة بصل . وشاهدت صندوقا من الورق المقوى الملئ بالبصل حيث يوجد بين كرتونات مليئة بالزجاجات الشاغرة في الجزء الخلفي من السيارة . إنه أهدأ مكان في العالم .

وتقديم ضوء رفيع في بطا نحوها على الطريق ، وعندما اقترب الضوء أدركت أنه قس شاب راكب دراجة . استدار نحوها لدى مروره بجوارها . وبدت على وجهه مشاعر الاستياء كما لو كانت هي قد ارتات في نقائه وطهارته . وراح تنتظر مرة أخرى . ثم خرج من المقهى رجل طويل يرتدي طاقية لها حافة . وتشمم الهواء وعاد إلى المقهى . ثم خرج مرة أخرى . وسار في بطا نحوها إلى أن أصبح بجوارها . ثم طرق على زجاج نافذة تشارلى بأطراف أصابع يد واحدة مرتدية قفازاً . إنه قفاز جلدي لامع . سطعت أنوار بطارية يد صغيرة على تشارلى . وألقى بالضوء في بطا حول السيارة ثم عاد وسلط الضوء على إحدى عينيها . فرفعت تشارلى إحدى يديها لكي تحمى عينيها . ثم أطفئت البطارية وفتح بابها . وأطبقت يد واحدة على معصم يدها وخذبتها إلى خارج السيارة . وأصبحت واقفة وجهاً لوجه معه لقد كان أطول منها بحوالى قدم وكان عريض المنكبين إلا أن وجهه كان واقعاً تحت ظلال سوداء أسفل حافة طاقيته ، كان قد رفع ياقته لأعلى للالتحماء من البرد .

قال لها : لا تتحركى ، ثم انتزع حقيبة كتفيها وفتحها وراح ينظر في داخلها . وللمرة الثالثة يشير الراديو الصغير الخاص بها الانتبا الشديد . حيث قام بتشغيله ثم أغلقه . وراح يبعث فيه ثم دفع بشيء إلى داخل جيبه . وخطر على ذهنها للحظات أنه قرر أن يأخذ الراديو . لكنها شاهدته يعيده إلى حقيقتها . ثم ألقى بالحقيقة في السيارة . ثم وضع أطراف أصابع يده على كتفيها بينما لا يزال يحملق على وجهها . أنزل ذراعه اليمنى في بطا وراح يلامس جسدها في رفق بالجزء المسطح من يده اليسرى متفحصاً رقبتها وكتفيها في بادئ الأمر ، ثم عظمة الترقوة والعظم الكتفية مع تفحص الأماكن التي توجد عليها شرائط الصديرية . ثم تفحص إبطيها وجوانب رديفيها وثدييها وبطنها .

- في هذا الصباح أثناء وجودك بالفندق كنت ترتدين السوار في معصم يدك اليمنى . هذه الليلة ترتدينه في يدك اليسرى . مما سبب ذلك ؟ كانت بلغته

الانجليزية لكنه أجنبية تنم عن ثقافة ودماثة الخلق . وخيل إليها أنه ينطق الانجليزية في لكنه عربية . كان صوته رخيمًا ولكنه قوى في نفس الوقت . صوت شبيه بصوت الخطيب . قالت : أحب أن أغير فائقه من يد لأخرى فقال في إصرار : لماذا ؟

- لكي أشعر أنه جديد .

فهبط جاثما وراح يتفحص رديفيها وساقيها والأجزاء الداخلية بين فخذيها في دقة بالغة . ثم لکز في حذر حذاءها الجديد . وتساول لدى نهوضه واقفا : هل تعرفين ثمن هذا السوار ؟

- لا .

- قفي ساكنة بدون حركة .

وقف خلفها وراح يتفحص ظهرها ورديفيها وساقيها مرة أخرى ألم تؤمنى على هذا السوار ؟

- لا .

- ولم لا ؟

- أعطاه لى ميشيل على أساس أنه هدية حبنا . أعطاه لى مجاناً بدون نقود .

- ادخلى السيارة .

ففعلت ذلك . سار حول السيارة من الجهة الأمامية . ثم جلس إلى جوارها . شغل موتور السيارة . وقال : حسناً لسوف أصطحبك لكي تقابل خليلًا . تسليم من الباب للباب .

لاحظت أنه يقود السيارة بيده اليسرى بينما وضع يده اليمنى في حجره . ترافق صوت الزجاجات الشاغرة المتنافرة فشعرت بالدهشة ووصل إلى مفترق الطرق . ثم استدار إلى اليسار . ودخل في طريق مستقيم خالٍ من مصابيح

الإضاعة . وذكرها الجزء الذى تمكنت من مشاهدته من وجہه بوجه يوسف . ليس من حيث الملامح ولكن من حيث التصميم والرغبة فى تحقيق الهدف . ومن حيث الزوايا المشدودة إلى الخلف فى عينيه والتى تجعلها شبيهة بعينى مقاتل . قال بصوت يعلو على قعقة الزجاجات : هل تحبين البصل ؟

- أحبه تماما .

- هل تحبين أن تقومى بطهو الطعام ؟ وما الذى تطبخينه ؟ الأسبagiتى ؟

- أشياء من هذا القبيل .

- ماذا طهوت لميشيل ؟

- شرائح من لحم البقر .

- متى ؟

- فى لندن . فى الليلة التى أقام فيها معى فى شققى .

فصاح : ولا بصل ؟

قالت : فى السلطة .

وكانا يتجهان عائدين فى اتجاه المدينة . ثم نزلـا من فوق تل ووصلـا إلى وادٍ منبسط . شاهدت تشارلى مصانع غير مكتملة البناء ومساحات مخصصة لوقف الشاحنات الضخمة . ولكنها مساحات شاغرة . لم تكن هناك أضواء فى أية نافذة . ثم دخلـا إلى فناء أمامى . وهنا أوقف السيارة بدون أن يطفئ المотор . وقرأت تشارلى عبارـة مكتوبة بحروف من النيون الأحمر : «فندق جارنى عدن» . وفوق المدخل المبهـج بالديكورات كانت توجد عبارـة : «مرحبا» بـعدة لغـات أورـبية . ناولـها حقيبة الكتف ثم قال لها كأنـ فكرة قد خطرـت على ذهـنه : «أعطيـه هذه الأشيـاء فهو يـحبها للـغاـية» وأخرج لها صندوقـ البـصل ، لاحظـت مـرة أخرى سـكون يـده الـيمنـى المرـتدـية لـلـقفـاز . وأضـافـ قـائـلا : الغـرـفة رقمـ ٥ الدـورـ الـرابـع . اصـعدـى السـلمـ . ولا تستـعملـ المصـعدـ .

راح يرقبها وهي تعبر الفناء الأمامي وتجه نحو المدخل المضاء ، وكان الصندوق أثقل وزنا مما كانت تتوقعه مما اضطرها لأن تحمله بكل ذراعيها . وكان الرواق شاغرا . وكان المصعد في حالة انتظار ، لكنها لم تستخدمنه . بدت السلم ضيقة وملتوية . السجادة بالية وملينة بالخيوط . وكان صوت الموسيقى المسجلة مليئة بتلميحات لاهبة متسنة بالتلہف والاشتياق . وكان الهواء مليئا برائحة دخان السجائر الكريهة .

و عند بسطة السلم الثانية سمعت تشارلى موسيقى وضحكات أنثوية . و عند البسطة الثالثة فوجئت بالمصعد يتجه لأعلى فساحت نفسمها في تعجب : ثُرى لماذا لم يسمح لي باستخدام المصعد ؟ . كان الصندوق ثقيلا مما جعل الألم يتفجر في ذراعيها ، ووصلت إلى الدور الرابع .

و طرقت على باب الشقة رقم ٥ وفتح الباب . أصيّبت بالذهول . لأن الرجل الذي فتح باب الشقة كان هو نفس الرجل الذي قاد السيارة ولكن بدون غطاء الرأس وبدون قفاز اليد اليسرى . أخذ منها الصندوق ووضعه على المنضدة المنخفضة الخاصة بالأمتعة ثم نزع عنها نظارتها وطواها وأعادها إليها . وبعدها أخذ منها حقيبة الكتف وأفرغ محتوياتها على لحاف رخيص محسو بزغب البط الناعم . وكانت هناك المحفظة الجلدية ملقاة على المنضدة التي يوضع عليها ابريق لغسل الوجه واليدين ، وكانت المحفظة شاغرة وفمها الأسود متوجه نحوها مثل فك مفتوح .

* * * * *

هبط هدوء شديد على الرجال الثلاثة في غرفة العمليات الخاصة بهم . لا مكالمات تليفونية . ولا اعترافات يائسة علنية بشأن الرابطة الشرفية مع السفاراة في بون . ومن خلال قصورهم الجماعي بدت المؤامرة وكأنها تحبس أنفاسها خوفاً . سقط ليتفاک فجأة في قنوط واكتئاب فوق الكرسى . أما كيرتز فقد غرق في حلم متفائل من نوع ما حيث كان قد أغلق عينيه بعض الشيء واستغرق في ابتسامة .

وكان جادى بيكار هو أكثرهم هدوءاً وهو يحملق فى الظلام الأخذ فى التزايد مثل رجل يتفحص كافة التعهادات الخاصة ب حياته المنصرمة من أجل أن يعرف التعهادات التى أوفى بها وتلك التى لم يوف بها . قال ليتفاك : كان ينبغي أن نزودها بعبوة ناسفة فى هذه المرة . فهم يثقون فيها حالياً . لماذا لم نزودها بالعبوة الناسفة ؟ لماذا لم نزودها بشرك معدنى ؟

قال بيكار : لأنه سوف يفتشها فى دقة بحثاً عن أية أسلحة أو أسلاك أو جهاز لاسلكى .

قال ليتفاك فى مجادلة : إذن لماذا يستخدمونها ؟ أنت إنسان معtoه . لماذا يستخدمون فتاة لا يثقون فيها من أجل انجاز مهمة كهذه ؟

قال بيكار : لأنها لم تقتل أحداً حتى الآن لأنها نظيفة . وذلك هو السبب فى أنهم يستخدمونها كما أنه سبب يجعلهم لا يثقون فيها .

قال كيرتز فى ابتسامة بها سمة انسانية :

- عندما تقوم بأول عملية قتل يا شيمون . وعندما لا تصبح مجرد إنسانة مبتدئة . وعندما تصير إنسانة تنتهك القوانين فسوف يضعون ثقتم فيها . سيثق فيها كل شخص . وأضاف مؤكداً للبيفار فى رضا واقتناع : بحلول الساعة التاسعة فى هذه الليلة ستصبح واحدة منهم - ليست هناك مشكلة فى هذا الشأن يا شيمون . لا مشكلة .

ظل ليتفاك على حالي وهو لا يشعر بارتياح .

الفصل الخامس والعشرون

كان وسيماً وجميلاً . كان بمثابة النسخة الناضجة الكاملة لميشيل . وكان له نفس صفات يوسف من حيث الامتناع عن تناول الخمور والرقة والكياسة . كان عريض الكتفين ومهيباً مثل تمثال منحوت . إنه من النوع الذي إذا دخل مطعماً يتوقف الناس عن الكلام . وإذا خرج من مطعم يشعر الناس بالارتياح . رجل يحب الانطلاق في العراء بين الهواء الطلق . ولكنه مضطر للاختباء في داخل غرف صغيرة مغلقة مما أدى إلى امتعاض بشرته وشحوبه الشديد .

كان قد جذب الستائر . وأضاء مصباح الفراش . لم يكن هناك مقعد من أجلها . استخدم السرير كمنصة لأعمال النجارة . وألقى الوسائل على أرضية الغرفة إلى جوار الصندوق وأجلسها . بينما انصرف إلى إنجاز الأعمال يتكلم طوال الوقت أثناء العمل موجهاً الكلام لنفسه أحياناً ولها أحياناً أخرى ، وكان صوته لا يعرف سوى الهجوم = مسيرة عسكرية من الأفكار والكلمات تتدفق للأمام .

- إنهم يقولون إن مينكيل إنسان ظريف . وربما هو ظريف بالفعل . عندما قرأت كلاماً مكتوباً عنه قلت لنفسي إن هذا العجوز مينكيل ربما لديه الشجاعة التي تعينه على قول ذلك الكلام . إنني احترمه وأبجله . ولا توجد لدى مشكلة إزاء هذا الأمر .

ووضع البصل في ركن . ثم راح يبحث عن مجموعة من اللفائف الصغيرة الموجودة داخل الصندوق مستخدماً يده اليسرى ، أخذ يفك أغفلتها الواحدة تلو الأخرى مع استخدام اليدين لتشبيتها في أماكنها أثناء الفك . راحت تشارلى ترقبه في تركيز : لفافة تضم حجرى بطارية ؛ ولفافة أخرى تحتوى على جهاز

تججير من نفس الطراز الذى استخدمته فى القلعة من أجل التدريب ، مزود بأسلاك حمراء متبرعة . ولفافة بها مطواة ، أخرى بها مسامير من الصلب وخيوط من النحاس الأحمر . وشريط عازل كهربائى ، وملبة بطارية يد ، وقضبان خشبية صغيرة ذات أطوال متنوعة مختلفة . بالإضافة إلى قطعة من الخشب من أجل استخدامها كقاعدة للجهاز الذى يقوم بتصنيعه . وأخذ خليل سبيكة اللحام واتجه إلى حوض غسيل الأيدي وعرضها لمصدر حرارى قريب مما أدى إلى ظهور رائحة تراب محترق .

هل تعتقدين أن الصهاينة يفكرون في جميع الناس الطيبين عندما يصفوننا بالقاب؟ لا أظن ذلك . إنهم يحرقون قرانا بالنابالم . ويقتلون نساعنا وأطفالنا . لا أعتقد أن الطيار الإسرائيلي الإرهابي الجالس في طيارته بالأجواء العليا يقول لنفسه « هؤلاء مدنيون مساكين . هؤلاء الضحايا أبرياء » اعتقدت تشارلى أنه يكلم نفسه على ذلك النحو عندما يكون بمفرده في غرفته . فهو يقضى وقتا طويلاً بمفرده . يكلم نفسه على ذلك النحو كى يجعل إيمانه عميقاً ومتواصلاً كى يجعل ضميره مستريحاً وهادئاً . أضاف خليل قائلاً : « لقد قتلتُ أناساناً كثرين . لقد قتل الصهاينة الكثرين أيضاً . لكننى أقوم بالقتل من أجل الحب فقط . أنا أقتل من أجل فلسطين ومن أجل أطفال فلسطين . وحاولي أن تفكري من هذه الزاوية أيضاً .

ثم نظر إليها في عمق متسائلاً : هل تشعرين بالتوتر؟

- نعم .

- هذا أمرٌ طبيعي . فأنا متوتر وعصبي أيضاً . هل تشعرين بالتوتر أثناء وجودك على خشبة المسرح؟

- نعم .

- الأمر سيان . نحن نلهم الناس ونشير مشاعر الاستياء والغضب والحب بين

الناس . بل ونحن ننير عقولهم ثقافياً وروحياً . وهذا هو ما يفعله المسرح أيضاً . فالإنسان الفدائي هو أعظم ممثل في العالم .

- لقد كتب ميشيل نفس هذه المعانى في الخطابات التي أرسلها إلىَ .

- ولكنني أنا الذي قلت له هذه المعانى . إنها أفكارى أنا .

كان الطرد الثاني ملفوفاً في ورق زيتى . فقام بفتحه في هدوء وتبجيل واحترام . يوجد به نصف رطل من الأصابع البلاستيكية الروسية وضعها في افتخار في مكانها في وسط الحاشية المحسنة بالزغب .

أضاف خليل قائلاً : الصهاينة يقومون بالقتل بسبب ما يعتمل في صدورهم من خوف وكراهة . أما الفلسطينيون فيقومون بالقتل من أجل الحب وتحقيق العدالة . عليك أن تتذكر دائماً الفارق في السلوك . لأن ذلك أمر بالغ الأهمية . عليك أن تتذكر الفارق إذا شعرت بالخوف . وأن تقول لنفسك إنك تعملين من أجل تحقيق العدالة . وإذا ذكرت نفسك بذلك فلن تشعر بالخوف على الإطلاق .

قالت : أنا أمارس العنف من أجل ميشيل أيضاً .

فلم يشعر بالاقتناع التام إزاء سماع هذه العبارة . ولكنه أذعن قائلاً : « ومن أجل ميشيل أيضاً ، ثم استخرج مشبكين للفسيل . ووضعهما على السرير . ثم وضعهما في دائرة الضوء لكي يضاهي ما بينهما . وبينما راحت تشارلى ترقبه لاحظت وجود مساحة من البشرة البيضاء المتعددة في المكان الذي يلتقي فيه خده مع الجزء الأسفل من أذنه وكأنَّ هذه المساحة قد صهرت مع بعضها البعض ثم تعرضت للتبريد مرة أخرى .

تساءل خليل بداعم من حب الاستطلاع أثناء اختياره للمشك الأنسب : لماذا تضعين يديك على وجهك ؟

قالت : كنتأشعر بالإرهاق للحظات .

إذن عليك أن تكوني متنبهة ومتيقظة من أجل أن تنفذى مهمتك . وأيضاً من

أجل الثورة . هل تعرفين هذا النوع من القنابل ؟ هل قام الكابتن تايه بتعليمك شيئاً عن هذه القنابل ؟

- لا أدرى . ربما بوبى علمنى ذلك .

جلس إلى جوارها والتقط القاعدة الخشبية ورسم عليها بعض الخطوط من أجل الدائرة الكهربائية مستخدماً قلماً له سنّ على هيئة كرة . قال : « هذا الذى نصنعه هو قنبلة من أجل جميع الحوادث والمناسبات . إنها تعمل أيضاً كأدأة فى محرك داخلى الاحتراق يجعل الشرارة تتبعد فى الوقت الملائم . وهى تعمل أيضاً من حيث هى شرك الغفلة : أيٌّ من حيث هى قنبلة مخبوعة متصلة بشيء لا يثيرريبة والشك . وينبغي عليك عدم الثقة فى أيٍّ شيء . وهذه هى فلسفتنا . أتعرفين أننى لست مناهضاً للسامية ؟

- نعم .

اتجه نحو حوض غسيل الأيدي . وراح يلحم الأسلاك فى رأسى دبوسى الرسم وتساول فى حيرة : كيف عرفت ذلك ؟

لقد قال لي الكابتن تايه نفس هذا الكلام وكذلك قاله ميشيل .

تمتم خليل : إن تعبير المناهضة والعداء للسامية هو ابتكار مسيحي أنتم أيها الأوربيون مناهضون لكل فرد . مناهضون لليهود ومناهضون للعرب ومناهضون للزنج والسود نحن لنا أصدقاء كثيرون في ألمانيا . والسبب في ذلك ليس نابعاً من حبهم لفلسطين ولكن لأنهم يكرهون اليهود . وتلك المرأة التي تُسمى هيلجا ... هل تشعرين بالارتياح والحب نحوها ؟

- لا .

- ولا أنا أيضاً ، فهى على ما أعتقد ، امرأة منحطة وساقلة ومتفسخة .

- هل تحبين الحيوانات ؟

- نعم .

- كان جالساً إلى جوارها بينما المحفظة الجلدية ملقة على السرير بجواره، تسأله: هل كان ميشيل يحب الحيوانات؟ .
وكان يوسف قد سبق له أن قال لها: اختارى ولا تترددى . فمن الأفضل أن تكوني غير متسقة منطقياً على أن تكوني غير متأكدة ومثيرة للشكوك .
قالت: لم يحدث لنا أن تحدثنا سوياً عن الحيوانات ولا عن الخيول؟
- ولا عن الخيول؟

كان يوسف قد سبق له أن قال لها : ولا ترجعي في كلامك ولا تصحي من أقوالك السابقة أبداً .

—

واستخرج خليل من جيده منديلاً مطويًا . واستخرج من وسطه ساعة جيب بدون زجاج أو عقارب . وضع الساعة بجوار المتفجرات ، وأمسك بسلك الدائرة الكهربائية الأحمر اللون . وشرع في فكه . وكانت خشبة القاعدة موجودة في حجرها . أخذها منها ثم أمسك يدها ووضعها حتى يمكنها الامساك بالشرائط أثناء قيامه بدفعها إلى الداخل في رفق لكي يثبت السلك الأحمر في القاعدة الخشبية طبقاً للنموذج الذي رسمه . ثم عاد إلى حوض غسيل الأيدي وراح يلحم الأسلاك مع البطارية بينما تقوم بقطع أطوال من الشريط العازل الكهربائي باستخدام مقصَّ .

قال في فخر بعد أن أضاف الساعة : هكذا يتم إنجاز هذا العمل .
وتساءل خليل وهو يأخذ لبنة ويلوي في داخلها طرف مكشوط من السلك :
هل كان أخي محتشماً معك من الناحية الأخلاقية ؟ وملتزمًا بالقواعد الدينية ؟
- كان ملحداً .

أنه في بعض الأحيان ملحد . ولكنه كان متدينا ، وفي بعض المرات كان مجرد ولد صغير سخيف يهتم بالنساء والسيارات . لقد أخبرني الكابتن تايه أنك

كنت محتشمة أثناء وجودك في المعسكر . حيث لم تصادقى الأولاد الكوبيين ولا
الألمان ولا أي شخص .

قالت فی تأکید شدید کنت أرید میشیل . ذک هو کل ما کنت أریده ، ولا
احد سوی میشیل .

عندما نظرت إليه وجدت عبوساً وقطبياً على وجهه . قال : الكابتن تايه
رجل عظيم لقد تعرضت أنا والكابتن تايه لموت حقيقي سوياً . هل أخبرك تايه بهذه
الحادثة ؟

• 2

وكان قد استخرج من الصندوق بطانية بنية قديمة جعلها تنشرها عبر مiderها أمامه لبعض الوقت بينما راح يقصها في رشاقة إلى شرائط . وكان وجهاهما عبر البطانية قربين للغاية فتمكنت من شم العنوب الدافئة لجسده العربي .

كان سلاح المطاواة بداخل البطانية على مسافة بوصات من جسدها ، هو يقطع فى سرعة ورشاقة كما لو كانت البطانية شيئاً ما قد اصطاده وقتله وراح خليل يطوى الشرائح ويجعل منها كومات عسكرية أنيقة . ثم انكب على العمل فى محفظة مينكيل السوداء المسطحة . لاحظت تشارلى لأول مرة أن المحفظة قد فتحت من الخلف عن طريق المفصلات بينما مازالت أقفالها مغلقة فى أحكام من الأمام . قام بوضع الشرائح الواحدة تلو الأخرى فى داخل المحفظة إلى أن أصبح هناك رصيف لين لكي تمام القنبلة عليه تساعل : هل تعرفين ما قاله لى الكابتن تايه ذات ليلة ؟ لقد قال لى « يا خليل . منذ متى نقوم بدور الناس الطيبين ؟ ومع ذلك فلا أحد يساعدنا . ولا أحد يقدم الشكر لنا . نحن نلقى الخطب الرنانة ونبعث بكمار الخطباء إلى الأمم المتحدة . وإذا انتظرنا خمسين سنة أخرى فان أحفادنا – إذا تمكنا من البقاء على قيد الحياة – ربما لن يحصلوا إلا على قدر ضئيل للغاية من العدالة .

- 68 -

وفي تلك الأثناء يقوم أخوتنا العرب بقتلنا ويقوم الصهاينة بقتلنا ويقوم الكتائبيون بقتلنا ، وأولئك الذين يتبقون على قيد الحياة منا يذهبون إلى شتاتهم . مثل الأمريكان ، ومثل اليهود أنفسهم . ولكننا إذا قمنا بصناعة بعض القنابل القليلة – وقمنا بقتل عدد قليل من الناس . وإنشاء سلخانة لمدة دققتين فقط في عمر التاريخ المديد ...

ويدون أن ينهى الجملة أمسك بالقنبلة ووضعها في وقار ودقة كبيرة في داخل العلبة .

وأوضح قائلاً في ابتسام : « إنني احتاج لنظارة » . ثم هز رأسه كرجل عجوز ، وأضاف : ولكن إلى أين ينبغي على أن أذهب من أجل عمل نظارة طبية ، كيف يمكن لرجل مثلى أن يفعل ذلك في حرية ؟
تساءلت تشارلى في مزيد من التوتر : اذا كنت قد عذبت مثل تايه فلماذا لا تخرج منه ؟

قال : السبب في أنني لا أخرج هو أنني توسلت إلى الله لكي يمنعني القوة . فاستجاب الله ومنعنى القوة حتى يمكنني محاربة الأعداء الحقيقيين .

ناولها جهاز التفجير . وراح يرقبها في امتعان بينما راحت تربط جهاز التفجير في الدائرة الكهربائية . وعندما فرغت من ذلك أمسك خليل بالأسلاك المتبقية . وفي حركة رشيقه تقاد تتم بدونوعي راح يلف السلك المتبقى حول أطراف أصابعه الميتة إلى أن صنع دمية صغيرة . ثم ضفر جديتين من الأسلاك لكي يصنع منها حزاماً تساعل : هل تعرفين ماذا كتب لى ميشيل قبل أن يموت ؟ في خطابه الأخير ؟

فقالت : لا . يا خليل .

لقد أرسل لى بالبريد ذلك الكلام قبل موته بساعات قليلة . « إنني أحبها . أنها ليست مثل الآخريات . صحيح أنني عندما تقابلت معها لأول مرة كان لديها

الضمير المشلول الذى يتميز به أى أمريكي « هنا . اربطى الساعة لو سمحت » لقد كانت عاهرة . إلا أنها أصبحت الآن متسمة بالطبع العربى فى روحها وشخصيتها ، ولسوف أعرفها عليك وعلى شعبنا » .

ولم يتبق سوى شرك الغفلة ، ولكى يتم تركيبه كان عليهم أن يعملا عن كثب حيث طلب منها أن تثبت السلك الصلب من خلال نسيج الغطاء مع قيامه بدفع الغطاء لأسفل بقدر الامكان حتى تتمكن من انجاز عملها . ثم أخذ هذا الاختراع الغريب إلى حوض الغسيل مرة أخرى وقام باعادة دبابيس المفصلات إلى حالتها الطبيعية .

- أتعرفين ماذا قلت للكابتن تايه يوما ؟

- لا يا تايه يا صديقى . نحن الفلسطينيون الموجودون فى المنفى أناس كسالى للغاية . لماذا لا يكون لنا فلسطينيون فى داخل البتاجون ؟ وفي داخل الادارة الامريكية ؟ ولماذا لم نقم حتى الان بتسيير دفة الامور فى داخل جريدة النيويورك تايمز وفي « وول ستريت » وفي داخل الاستخبارات المركزية الامريكية ؟ ولماذا لا ننتج أفلاما فى هوليوود تتناول كفاحنا العظيم ؟ ولماذا لا نعمل ونجهد بحيث يتم انتخاب شخص فلسطينى لشغل منصب عمدة نيويورك ومنصب رئيس المحكمة العليا ؟ ما هى العيوب الموجودة فيها يا تايه ؟ لماذا نحن بدون استراتيجية وخطة عظمى ؟ وبدون مشروع ضخم يتطلب الجرأة فى التنفيذ ؟ لا يكفى أن شعبنا أصبح المتعلما وأصبح من بينه الأطباء والعلماء والمدرسوون . لماذا لم نهيمن على شئون أمريكا أيضا ؟ وهل هذا هو نفس السبب الذى يضطرنا إلى اللجوء إلى القنابل والأسلحة الالكترونية ؟

كان واقفا فى حزم ووقار أمامها ومسكا بالمحفظة الجلدية من المقبض الخاص بها .

- أتعرفين ما ينبغى علينا أن نفعله ؟

- لا .

- علينا جميعاً أن نزحف في مسيرة شعبية شاملة تضمننا جميعاً . قبل أن يتمكنوا من تدميرنا للأبد نزحف في مسيرة قادمين من الولايات المتحدة الأمريكية ومن استراليا وباريس والأردن والملكة العربية السعودية ولبنان ومن كافة الأماكن في العالم التي فيها فلسطينيون . ونستقل السفن والبواخر ذاهبين إلى الحدود نركب الطائرات . ملائين من الفلسطينيين . مثل موجة هائلة لا يستطيع أحد صدّها . « ثم ناولها المحفظة الجلدية وراح يجمع أدواته بسرعة ويعيّنها في الصندوق » وبعدئذ نمشي مسيرة واحدة إلى وطننا فلسطين ونطالب باسترداد منازلنا وبيوتنا وحدائقنا وقرانا حتى لو كان ذلك يتطلب منا أن نهدم مدنهم ومستوطناتهم وكيبوتزاتهم من أجل العثور على ممتلكاتنا . ولكن هذه الخطة لن تأتي بالنتيجة المرجوة . هل تعرفين السبب في ذلك ؟ لأنهم لن يجيئوا على الاطلاق . « لأن الأغنياء لن يتحملوا أن يعيشوا في وضع اقتصادي / اجتماعي أقل من ذلك الذي يعيشون فيه . ولن يستطيعوا التخلّى عن أسلوب حياتهم المتمسّ بالرفاهية . فتجارنا لن يتخلّوا عن بنوكهم ومحلّاتهم الضخمة ومكاتبهم الفاخرة وأطباؤنا لن يتخلّوا عن عياداتهم الطبية الأنيقة ومحاميونا لن يتخلّوا عن ممارساتهم وأساتذة جامعاتنا لن يتركوا جامعاتهم لذلك فإنّ الأغنياء يقومون بجمع النقود وتكوين المزيد من الثروات بينما القراء هم الذين يقومون بأعمال القتال . ومتى كان هذا الوضع مختلفاً ؟

وسررت أمّامه هابطة على السلام . وكانت السيارة مازالت واقفة في الفناء الأمامي . إلّا أنه استمر في السير متخطياً أياماً كأنه لم يسبق له أن شاهد تلك السيارة في حياته على الاطلاق . ثم تسلق صاعداً إلى سيارة فورد من النوع الذي يستخدمه القرويون وهي سيارة ديزيل محملة ببالات من القش ، ودخلت تشارلي إلى جواره بالسيارة . وظهرت التلال مرة أخرى . صدرت لها التعليمات بنفس أسلوب يوسف : يا تشارلي هل تفهمين ؟ نعم يا خليل أنت أفهم . عليك أن تتذكرى أن العمل الذي أقوم به هو من أجل السلام . سوف أتذكر ذلك يا خليل : أنه عمل من

يشعر الموجدون بداخل السيارة أنهم يثيرون اهتمام الناس ويجعلون الناس ينظرون إليهم . إلا أن الأمر في هذه الليلة كان مختلفاً ، فقد أصبح بامكانها أن تتشامخ ، ولديها الرد في الحقيقة ، حملقت فيهم وشاهدت رجلاً مهندما متورّد الوجه مليئاً بالطعام إلى درجة التخمة ومرتدية بدلة سوداء ورباط عنق فضي اللون ومعه زوجة متجمهة الوجه ولها لغد مضاعف صعد الرجل البارز وزوجته نحو الأبواب الزجاجية وقد جذبا اعجاب ثلاثة من المارين على الأقل . قالت تشارلى لنفسها : حالاً يا أولاد الحرام ... حالاً ستشاهدون ما سيحدث .

« عند أسفل السلالم اتجهى إلى اليمين » . فعلت ذلك واستمرت في السير إلى أن وصلت إلى ناصية . كانت هيلجا قد قالت في مزاح : إحرص على عدم الوقوع في المجرى المائي لأن قنابل خليل ليست مضادة للماء يا تشارلى وأنت يا تشارلى لست مضادة للماء أيضاً . اتجهت تشارلى إلى اليسار وبدأت تطوف حول المبنى فوق رصيف مليء بالحصى الصغير لم يفلح الثلج في الاستقرار فوقه ، واتسع الرصيف وأصبح فضاء واسعاً . في وسطه توجد عربة كرفان كبيرة تابعة للشرطة . وأمام السيارة يوجد اثنان من رجال الشرطة مرتدین الزى الرسمي . يداعبان بعضهما البعض ويرفعان الحذاء لأعلى ويضحكان ، وأصبحت تشارلى على مسافة ٥ قدماً من الباب الجانبي وبدأت تشعر بالهدوء الذي كانت تنتظره أنه الاحساس أو بالتحليق في الهواء الذي يهبط عليها عندما تدخل إلى خشبة المسرح وتترك كافة هواياتها الأخرى ورائها في غرفة الملابس . أصبحت إموجين من جنوب أفريقيا المليئة بالشجاعة والشهامة والتى تسارع إلى مساعدة بطل ليبرالى عظيم . ووصلت بالفعل إلى باب المدخل الجانبي . فوجده مغلقاً . وجربت أكرة الباب . لكنها لم تلف . فاحسست باحتياج عصبى شديد . فنظرت فيما حولها بهدف الاستعانة بشخص ما لكي يساعدها على فتح الباب . وعندئذ توقف رجلاً الشرطة عن اللعب مع بعضهما البعض . وراح ينظران إليها في شك وريبة . إلا أنها لم يحضرها إليها لمساعدتها .

أجل السلام ومن أجل ميشيل ومن أجل فلسطين بل ومن أجل يوسف وخليل بل ومن
أجل مارتن والثورة ومن أجل إسرائيل ومن أجل مسرح الحياة الواقعية .

توقف عند زربية ، وأطفأ الأنوار الأمامية . وراح ينظر في ساعته . ومن
على مسافة على الطريق أضاعت بطارية يدِّ مرتين . فمال بجسده عليها وفتح الباب
وقال لها : « اسمه فرانز ، ستخبرينه أن اسمك مجريت . أتمنى لك حظاً سعيداً » .

..

كان المساء مليئاً بالرطوبة والهدوء . وكانت مصابيح الشارع بالمدينة القديمة
معلقة فوق تشارلي مثل أقمار بيضاء محبوسة داخل حوامل المصابيح الكتفية . لقد
طلبت تشارلي من فرانز أن ينزلها عند الناصية لأنها تريد أن تقطع تلك المسافة
القصيرة عبر الكوبري قبل أن تدخل الجامعة . إذ كانت تريد أن تبدو كأنسانة لاهثة
قادمة من الأجواء الخارجية الباردة وراغبة في الدخول بسرعة إلى الجامعة .
ووصلت إلى قمة الكوبري وشاهدت الأبواب الزجاجية للمكتبة التي تقع على يسارها .
كانت الأنوار مازالت متداةفة في مقهى الطلبة . وكانت راشيل جالسة في توتر عند
النافذة ومعها ولد . وتحطت تشارلي العمود الرخامي . سارت على المشى المحفوف
بالأشجار وكانت قاعة المحاضرات تقع أمامها مباشرة السيارات تجيء تباعاً
وتتوقف حيث يتوافر جمهور المستمعين على السالم الأربع المؤدية إلى المدخل
ويتوقفون للحظات لكي يصافحوا بعضهم البعض هناك اثنان من رجال الأمن
يفحصون حقائب اليدين الخاصة بالسيدات . استمرت تشارلي في السير . سوف
تحرّك الحقيقة من الخوف ، وتحطت في سيرها العمود الثاني .

وكانت المحفظة الجلدية متسلية من يدها اليمنى . شعرت بها تتلامس مع
فخذها ، انطلقت صفاراة إنذار من سارية عربة شرطة مما جعل عضلات كتفها
تتقلص في رعب شديد . إلا أنها ظلت مستمرة في مشيها . توقفت ودراجتان
بخاريتان تبعان للشرطة تسبقان سيارة مرسيدس سوداء عليها علم . وهي عادة
عندما كانت تمر بجوارها سيارة فاخرة فإنها كانت تشيح بوجهها بعيداً لكي لا

« رُفعت الستارة . إذهب » .

لأنهما لم يتحركان من مكانهما . إذا كانت هناك مسافة ينبغي قطعها فلتقم
هي بنفسها بقطع تلك المسافة . فهي مجرد مواطنة عادلة .

- سألكما هل تتكلمان باللغة الانجليزية؟ فهناك شخص ما يريد أن يعطي هذه المحفظة للبرفيسور . على الفور . هل يمكن لكم المجيء إلى هنا ؟
تجهم كلاهما ، إلا أن أحدا لم يحضر إليها . قال أحدهما في حدة : التواليت ليس هنا وألقى برأسه لأعلى نحو الطريق الذي جاءت منه تشارلى .

- أنت لا أريد التواليت . أريد أن أتعذر على شخص ما لكي يقوم باعطاء هذه المحفظة للروفيسور مينكيل .

- لم يأخذ رجل الشرطة المحفظة . وإنما جعلها تحتفظ بها بينما قام بالضغط على المزلاج ، تأكد أن المزلاج مغلق .

- إنها محفظة البرفيسور . ألا تفهمنى ؟ أعرف أن المحفظة بها المذكرات الخاصة بالمحاضرة التى سيلقيها هذه الليلة ثم راحت تطرق بيدها فى عنف على الباب يا بروفيسور مينكيل ؟ أنا إموجين من جنوب افريقيا . أوه . يا الهى .

وانضم رجل الشرطة الثاني اليهما . وكان أكبر سنا من زميله . فقالت تشارلى مخاطبة عقله وحكمته . حسنا . هل تتكلم الانجليزية ؟ فى نفس اللحظة فتح الباب فتحة صغيرة وأطل منها وجه رجل شبيه بوجه العنزة وتحدث باللغة الألمانية مع رجل الشرطة الواقف بالقرب منه . وسمعت تشارلى كلمة « أمريكية » فى الرد الذى قاله رجل الشرطة .

ردت في احتجاج حاسم : لست أمريكية . أسمى إموجين باستروب . وأنا من اتحاد جنوب إفريقيا . وأنا أحضر المحفظة الخاصة بالبروفيسور مينكيل . لقد

ضاعت منه . فهل يمكن لك أن تتكرم وتعطيها له على الفور لأنني واثقة أنه في أشد الاحتياج إليها . لو سمحت .

فتح الباب فتحة أكبر من ذى قبل بحيث تسمح بخروجه كاملاً من الباب : أنه رجل قصير وممتلىء وله شكل العمدة أو رئيس البلدية ويبلغ من العمر حوالي ٦٠ عاماً ويرتدى بدلة سوداء اللون . وكان شاحب الوجه للغاية . وأحسست تشارلى بغرائزها أنه كان خائفاً للغاية .

- يا سيدي . هل تتحدث باللغة الانجليزية ؟

كان من الواضح أنه يتحدث الانجليزية بطلاقة حيث رد قائلاً : « نعم » في وقار شديد .

- اذن . لو سمحت أعط هذه المحفظة للبرفيسور مينكيل مع تحيات إموجين باسترورب . وقل له أنها آسفة لما حدث لأن إدارة الفندق وقعت في غلطة سخيفة وأخبره أننى أتطلع إلى الاستماع لخطبته هذه الليلة .

مدت يدها الممسكة بالمحفظة . إلا أن رئيس البلدية رفض الامساك بها ونظر إلى رجل الشرطة الواقف خلف تشارلى وبدأ عليه وكأنه قد حصل على تأكيدات منه . ثم نظر إلى تشارلى . قال : تعال إلى هنا ... أدخلني أصيبيت تشارلى بربع وذعر شدیدين . لم يكن هذا مدوناً في النص المكتوب أو السيناريو . ليس في النص الذي أعده خليل أو هيلجا أو أي شخص آخر . فماذا لو قام مينكيل بنفسه بفتح المحفظة تحت سمعها وبصرها ؟ قالت : أوه . لا أستطيع أن أفعل ذلك . إذ ينبغي أن أخذ مكانى بين جمهور المستمعين . فلم أحصل على تذكرة حتى الآن لو سمحت .

إلا أن رئيس البلدية كان لديه الأوامر الخاصة به أيضاً . وكان له مخاوفه وهواجسه لأنها عندما دفعت بالمحفظة نحوه قفز مبتعداً وكان المحفظة مشتعلة بالنيران ، وأغلق الباب . ودخل دهليز به أنابيب مغلفة عبر السقف . وسار أمامها

شخص مرفاق لها . وشمّت تشارلى رائحة زيت ، وسمعت الرعد المكتوم الناجم عن فرن ، وشعرت بموجة من السخونة تمر عبر وجهها وفكرت في أن تدعى تعرضها للاغماء أو الغثيان . نظرت في يأس خلفها فشاهدت ولدين أشقرين يرتديان سترتين من الجلد ويقفان خلفها . يحملان مدافع أوتوماتيكية . أيها السيد المسيح ! ماذا أشاهد ؟

فتح الباب . فخطا الرجل المسمى أوبيرهوسار وقف بسرعة على جانب كأنه يتبرأ من تشارلى . كان جناحا المسرح والجزء الخلفي به مليئا بأكياس الرمال ، هناك بالات من الحشو معلقة عند السقف بمعرفة أسلاك ، وممشى متعرج ممتد من الباب به حواجز من أكياس الرمال ، وفي وسط المسرح توجد منضدة منخفضة عليها صينية بها مشروبات . وإلى جوارها جلس مينكيل يجلس فوق مقعد منخفض مثل تمثال من الشمع . وهو يحملق في اتجاهها ، وفي مواجهته جلست زوجته وإلى جواره تجلس امرأة ألمانية ممثلة ترتدي فستانًا فضفاضا ، واعتقدت تشارلى أنها زوجة أوبيرهوسار .

في الجناحين كان يوجد باقي الناس في مجموعتين متميزتين وكانت المجموعة الاسرائيلية تحت قيادة كيرتز . وإلى يساره يقف رجل في منتصف العمر واعتقدت أنه إيلكسيس ، وإلى جوار إيلكسيس كان يقف الأولاد التابعون له الذين يشبهون كلاب الولفل ، الذين استداروا بوجوههم العدائية نحوها . وفي مواجهة هؤلاء الكلاب وقف أناس آخرون تعرفهم مختلطين مع أشخاص غرباء لا تعرفهم . ووضع كيرتز مدير حلبة السيرك أصبعه على شفتيه ثم رفع معهم يده اليسرى لكي ينظر في ساعته .

وبدأت تشارلى تقول « أين هو ؟ » وبعدها وفي مسحة من البهجة والغضب شاهدته واقفا بعيداً عن الآخرين كعادته . فجاء بسرعة إليها تاركا لها ممرا يؤدي إلى مينكيل وقال في هدوء : حديثه على طريقتك المسرحية له يا تشارلى . قوله ما ترغبين وتتجاهلي كل شخص غير موجود عند المنضدة .

قالت تشارلى على وجه السرعة : يا بروفيسور . لقد حدث شئ رهيب للغاية .
فالأغبياء بالفندق أرسلوا محفظتك الجلدية إلى غرفتي مع امتعتى الخاصة . حيث
شاهدوني وأنا أتحدث معك ، وعلى نحو ما قام الولد العبيط بأخذ المحفظة حيث ظن
بطريق الخطأ أنها محفظتي .

ثم استدارت نحو يوسف لكي تقول له أنها قد نصب معينها ولم يعد لديها
كلام آخر تقوله . فقال لها في لهجة أمرة : أعطى المحفظة الجلدية للبروفيسور .

شرع مينكيل في الوقوف . وقد ظهر عليه التخشب والذهول كرجل يتلقى
حکما صادراً ضده بالسجن مدى الحياة ، وكانت السيدة مينكيل تستعرض نفسها
من خلال الابتسام وأصبحت ساقاً تشارلى مشلولتين . ولكن عندما وضع يوسف
يده على مرفقها اندلقت إلى الأمام وهي تمد يدها المسكة بالمحفظة نحوه مع قول
مزيد من العبارات .

- لم أشاهد المحفظة إلاً منذ نصف ساعة فقط . إذ كانوا قد وضعوها
أسفل الدولاب وكانت فساتيني متسلية فوقها . وعندما شاهدتتها وقرأت البطاقة
الخاصة بها كدت أصاب بنوبة من الاغماء .

كان مينكيل على وشك أن يأخذ المحفظة منها ولكن أيدي أخرى اخطفتها .
ووضعتها في صندوق أسود كبير ملقى على الأرض وبه أسلاك ناتئه منه مثل
الثعابين . وفجأة بدا على كل شخص وكأنه خائف منها حيث جثموا قابعين خلف
زكائب الرمال ، وبعدئذ أمسك يوسف بها بيديه القويتين . ودفع رأسها إلى
أسفل إلى أن أصبحت تتنظر إلى خصرها وسار مبتعداً . ثم عاد بها إلى
وسط الغرفة .

قال في أذنها بلهجة أمرة : استمر في توضيح الأمور . لقد كنت تتحدثين
عن قراعتك للبطاقة الخاصة بالمحفظة . استمرى من هذه النقطة . ما الذي قمت
بعمله بعد ذلك ؟

ويعدّد عندما سألت عنك في صالة الاستقبال قالوا أنك خرجت من أجل الفترة المسائية بهدف استعدادك لالقاء المحاضرة بالجامعة . لذلك وثبت في داخل سيارة تاكسي ، لا أعرف كيف أعتذر لك عما حدث ، ينبغي على الأن أن انطلق بسرعة . أتمنى لك حظا سعيداً يا بروفيسور وأتمنى لك التوفيق في محاضرتك .

وبدأت تشارلى تتجه نحو الباب تحت ارشاد يوسف الذى يكاد يحملها وهو يضع ذراعه حول خصرها .

لن استطيع أن أفعل ذلك يا يوسف . لا استطيع أبداً . لقد استنزفت شجاعتي . لا تدعنى أذهب يا يوسف . ترافقى من ورائها أوامر مكتومة وأصوات أقدام مسرعة حيث يود كل شخص أن يتراجع متقهراً .

ونادى كيرتز ورائعاً فى تحذير قائلًا : دقيقتين ، ورجعوا إلى الطرقة التى بها الشابان الأشقران المسكان بالمدافع الرشاشة ، تسأعل يوسف بصوت سريع منخفض : أين تقابلت معه ؟

فى فندق عدن . أنه فندق أشبه بالماخور أو بيت الدعارة . يقع عند مشارف المدينة بعد صيدلية ، وهو يمتلك سيارة حمراء . أيضاً سيارة فورد صالون . لم استطع الحصول على أرقام السيارة .

افتتحى حقيقتك .

فتحت حقيقتها بنفس السرعة التى يتكلم بها . فاستخرج يوسف الراديو / المنبه الصغير الخاص بها ووضع مكانه راديو صغيراً آخر مشابها تماماً . قال بسرعة : إنه ليس نفس الجهاز الذى استخدمناه من قبل . يستقبل على محطة واحدة فقط . سوف يرشد عن الوقت ولكن ليس به منه . إنه يرسل ويرشدنا عن المكان الذى أنت فيه .

تساءلت فى غباء : متى ؟

ما هى الأوامر التى أصدرها لك خليل الأن ؟

إنه ينبغي علىَ أنْ أُسِيرُ فِي الشَّارعِ وَأَظْلِلُ مُسْتَمِرَةً فِي السِّيرِ فَمَتَى
سَتَجِي؟ إِكْرَامًا لِوْجَهِ تِشارلِي؟

ظَهَرَتْ عَلَى وِجْهِ يَوْسُفِ جَدِيدَةً مُسْتَمِيَّةً مُلِيَّةً بِالشَّرَاسَةِ وَالْقَلْقِ . وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ
هُنَاكَ أَيْ تَنازُلٌ أَوْ إِذْعَانٍ فِي وِجْهِهِ .

- اسْتَمِعْ إِلَيْيَا تِشارلِي . هَلْ أَنْتَ مُصْبِحَةً؟ .

- نَعَمْ يَا يَوْسُفْ أَنَا مُصْبِحَةً .

- إِذَا ضَغَطْتَ عَلَى زَرَّ الرَّادِيوِ الْخَاصِ بِكَ - لَا تَدِيرِي
الْزَرَارَ وَلَكِنْ اضْغَطْتَ عَلَيْهِ - سَنَعْرُفُ أَنَّهُ مُسْتَفْرِقٌ فِي النَّوْمِ . هَلْ تَفْهَمِينِي؟

- إِنَّهُ لَا يَنْامْ .

- مَاذَا تَقْصِدِينِ؟

- إِنَّهُ مِثْكَ . فِي حَالَةِ اسْتِيقَاظِ طَوَالِ النَّهَارِ وَاللَّيلِ . أَنَا لَا أُسْتَطِعُ الْعُودَةَ
إِلَيْهِ . لَا تَدْعُنِي أَذْهَبْ إِلَيْهِ رَاحَتْ تَتَوَسَّلُ إِلَيْهِ بِشَدَّةٍ انتَظَرْتَ أَنْ يَلْيِنْ وِجْهَهُ وَيُرْقِ قَلْبَهُ .
إِلَّا أَنْ وِجْهَهُ كَانَ صَارِمًا لِلْغَايَةِ فِي مُواجِهَتِهَا قَالَتْ « إِنَّهُ يَرِيدُنِي أَنْ أَنْامَ مَعَهُ . إِنَّهُ
يَرِيدُ عَقْدَ لَيْلَةِ زَفَافٍ مَعِيْ يَا يَوْسُفَ . أَلِيْسَ ذَلِكَ سَبِيلًا كَافِيًّا لِإِقْنَاعِكَ بِوِجْهَهُ نَظَرِي؟
سَوْفَ يَحْلُّ مَحْلَ مِيشِيلَ فِي دَاخِلِ جَسْدِيِّ . فَهَلْ مَا زَلَتْ مَصْرَا عَلَى ذَهَابِيِّ إِلَيْهِ؟
أَمْسَكْتَ بِهِ فِي عَنْفٍ حَتَّى أَنَّهُ وَجَدَ صِعْوَبَةً فِي التَّحرُّرِ مِنْ قَبْضَتِهَا . كَانَتْ تَرِيدُ مِنْهُ
أَنْ يَشْمَلَهَا بِحَمَائِتِهِ . كَانَ وِجْهَهُ مَغْلُقًا بِالْقَفلِ وَمَوْصِدًا بِالْتَّرْبَاسِ . أَوْضَحَ لَهَا أَنَّ
الْحُبَّ لَيْسَ هُوَ النَّشَاطُ الَّذِي يَجْمِعُ بَيْنَهُمَا . دَفَعَهَا لَكِي تَذَهَّبَ . فَاضْطَرَّتْ إِلَيْهِ
الْانْسِرَافَ بِمَفْرِدَهَا . تَرَاجَعَ ثُمَّ تَوَقَّفَ . وَنَظَرَتْ نَحْوَهُ وَشَعَرَتْ بِالْكَراْهِيَّةِ بِخَاصَّةٍ .
ثُمَّ أَغْلَقَتْ عَيْنِيهَا وَفَتَحَتْهَا وَأَطْلَقَتْ تَنْهِيَّةً عَمِيقَةً .

لَقَدْ أَصْبَحْتَ فَتَاهَةً مِيتَةً .

خَرَجَتْ إِلَى الشَّارِعِ . وَسَارَتْ فِي حَزْمٍ مِثْلِ جَنْدِيِّ ، وَمَرَتْ بِجَوارِ مَلْهِيِّ لِيَلِيِّ
رَدِيِّ السَّمْعَةِ يَعْرُضُ صُورًا مُضَاءَةً بِالنَّيُونِ لِفَتَيَاتٍ تَكْشِفُنَّ عَنْ صَدُورِهِنَّ . قَالَتْ

لنفسها : ذلك هو العمل الذي ينبغي أن أقوم به . ثم وصلت إلى الطريق الرئيسي . وتحولت إشارة المرور أمامها إلى الضوء الأخضر . فواصلت المسير . ثم شاهدت تللاً سوداء عالية تسد المنظر عند نهاية الشارع . ونظرت فيما حولها ، وشاهدت برج الكاتدرائية يتبعها . ثم اتجهت إلى اليمين وسارت في بطء شديد وعلى نحو لم تفعله من قبل في حياتها على الإطلاق . ودخلت في شارع يضم منازل أرستقراطية تحفه الأشجار المورقة على كلا الجانبين . والآن راحت تعد الأرقام لنفسها ، وتركت الأرقام وراحت تتربّى بقصائد من الشعر : جو يذهب إلى وسط المدينة . ثم بدأت تتذكر ما حدث في قاعة المحاضرات . وعلى مسافة أمامها كان روسيينو يدفع دراجته البخارية في صمت إلى خارج الطريق المرصوف . فسارت متوجهة إليه . ناولها روسيينو خوذة سترة من الجلد . ولدى قيامها بارتداء السترة حدث ما جعلها تنظر إلى الوراء فشاهدت وميضا برتقاليًا يمتد نحوها لأسفل فوق الحصى المبلل . وأدركت أنه استمر موجودا في داخل عينيها عقب اختفائه وتلاشييه . ثم سمعت الصوت الذي كانت تتوقع سماعه : صوتا بعيدا مكتوما مأهولا وшибبيها بانكسار شيء ما في داخل أعماق كيانها على نحو غير قابل للإصلاح . إنه النهاية الدائمة المحكمة للحب . نعم يا يوسف . نعم وداعا إلى الأبد .

وفي هذه اللحظة تفجر موتور روسيينو ممزقا الليل الرطب بزئير من الضحكات المنتصرة الصادرة عن دراجته البخارية . قالت لنفسها في تفكير : وأنا أيضا . إنه أعجب يوم في تاريخ حياتي .

.....

قاد روسيينو دراجته البخارية في بطء مع الحرص على الدخول في الطرق الفرعية الصغيرة .

أنت تقود وأنا أتبعك . ربما حان الوقت لأن أصبح إيطالية . كان روسيينو يحدثها عن أمور بهيجه ولكنها لم تشاركه بهجهته . مرا من بوابة كبيرة تؤدي إلى طريق معزول يصعد إلى تلل ووديان عبر تلك الأماكن بمفردهما تحت قمر متمايل

في اهتزاز اعتاد أن يكون مملوكاً ملكية خاصة ليوسف . نظرتُ لأسفل ، فشاهدت قرية نائمة متذرة في كفن أبيض اللون . شمت رائحة أشجار الصنوبر اليونانية . وأحسست بدموعها الدافئة التي تقدّفها الرياح بعيداً عنها . وبالجسد المرتعش لروسينو وهو يندس تحت طيّه جسدها . قالت له : تفضل وتناول بنفسك ما تشاء من المائدة فلم يبق هناك شيء .

نزلَ من فوق تلٌّ أخير . وخرجَ من بوابةٍ أخرى ودخلَ طريقاً مليئاً بأشجار الصنوبر ، ولدى وصولهما إلى القمة أوقف روسينو موتور دراجته وهبط لأسفل بفعل الجاذبية على ممرٍّ ضيق يؤدي إلى غابة . ثم فتح حقيبة السرج واستخرج لفةً من الملابس وحقيقةً يدَّ وألقى بها نحو تشارلي . وأنار لها ببطارية اليد . وراح يرقبها تحت الضوء أثناء قيامها بتغيير ملابسها خاصةً عندما أصبحت شبه عارية أمامه .

إذا كنت تريدين خذنى . فإننا الآن متاحة وفي متناول اليد وغير مرتبطة بشخصٍ ما معين .

إذ كانت من وجهة نظر نفسها إنسانة بدون حبٍ وبدون قيمة ، فقد عادت إلى النقطة التي بدأت منها وأصبح بمقدور العالم الفاسد كله أن يلوّيها ويفعل بها ما تريده .

صبت سقط الماء الخاص بها من حقيقة يد إلى حقيقة يد أخرى : علبة المساحيق والسدادات القطنية التي تحشى بها الجرح من أجل وقف النزيف وقطع النقود المعدنية الصغيرة وعلبة سجائرها والراديو الصغير الحجم الرخيص الخاص بالتدريب على البروفات المسرحية ... اضغط على مفتاح التشغيل يا تشارلي هل تسمعيتني ؟ أخذ منها روسينو جوازها القديم ، وناولها جوازاً جديداً ، لكنها لم تهتم بمعرفة نوعية الجنسية الجديدة التي حصلت عليها .

إنها مواطنة بدولة اللامكان المولودة بها بالأمس فقط .

وجمع روسيينو ملابسها القديمة وألقى بها فى حقيقة السرج مع حقيقة الكتف القديمة الخاصة بها ونظراتها . وقال : انتظري هنا ، لكن أنظرى نحو الطريق . فسوف يومض بضوء أحمر مرتين . وبعد انصراف روسيينو بحوالى خمس دقائق ، شاهدت تشارلى الضوء يتغامز بين الأشجار .. وافرحتاه ! ها إنذا أحصل على صديق ما أخيراً .

الشعل، العمالون، والمسحرون

امسک خلیل بذراعها وكاد أن يحملها إلى السيارة الجديدة، كانت تبكي وترتعد لدرجة أصبحت تمشي في تعثر وبعد أن كان خلیل مرتدياً ملابس متواضعة لسائل سيارة أصبح متخفياً على هيئة مدير ألماني موثوق به ولا يرقى إليه الشك على الإطلاق،! معطف أسود فاخر وقميص ورباط عنق وشعر معتنى به ممشط إلى الخلف بعد أن فتح باب السيارة خلع معطفه ولفه حولها في رعاية واهتمام كأنها حيوان مسکین مريض وبدا أنه لا يشعر بالصدمة إزاء حالتها بقدر ما يشعر بالتقدير والاحترام وكان موتور السيارة في حالة تشغيل بالفعل قام بتشغيل جهاز التدفئة بأقصى كفاءته .

قال في عطف : لو كان ميشيل على قيد الحياة لأصبح فخوراً بك ثم راح يدقق فيها تحت ضوء السيارة الداخلي شرعت في الحديث إليه ثم انفجرت في البكاء مرة أخرى فأعطها منديل فأمسكت به بكلتا يديها وراحت تلويه حول أصابعها والدموع تتتساقط وتتساقط وانطلقت السيارة هابطة على جانب التل المزروع بالأشجار . همست قائمة : ماذا حدث ؟

- لقد أحرزت لنا انتصاراً عظيماً فقد مات مينكيل أثناء قيامه بفتح المحفظة كما أشارت الأنباء أن أصدقاء آخرين للصهيونية أصيبوا بجروح بالغة . وهم يتحدثون عن هذا الهجوم الوحشي والصادمة والاغتيال الوحشي ينبغي عليهم جميعاً أن يقوموا بزيارة لعسكر الراشدية في يوم ما . إنني أدعو كل الأساتذة والطلبة بهذه الجامعة لزيارة لعسكر الراشدية . ينبغي عليهم أن يجلسوا في المخابئ ثم تطلق عليهم المدفع الرشاشة الآلية لدى خروجهم ينبغي أن يشهدوا

تكسير عظامهم وتعذيب أطفالهم غدا سوف يعرف العالم كله أن الفلسطينيين لن يصبحوا الزنوج المساكين التابعين لآل صهيون.

كان جهاز التدفئة قوياً ويعمل بكل طاقتة إلا أنه لم يكن كافياً بالنسبة لها مما جعلها تضطر لجذب معطفه في إحكام حول جسدها وكانت طية صدر المعطف مصنوعة من القطيفة ورائحة المعطف تدل على أنه جديد تماماً. تسأله : أتریدين أن تروي لي تفاصيل ما حدث؟

فهزت رأسها بالنفي. وكانت مقاعد السيارة مغلقة بقماش محملٍ لين وكان موتور السيارة ذا صوت هادئ منخفض راحت تصغي لكي تسمع صوت سيارات أخرى بالخارج. لكنها لم تسمع أية أصوات. فنظرت في مرآة السيارة فلم تجد سيارات وراءها أو أمامها ثم التقت عيناً خليل الداكتان مع عينيها . قال لها : لا تشعرني بالقلق فلسوف نعتني بك وزراعك وهذا وعد مني بذلك. وأنا مسرور لأنك تشعرين بالحزن. فالآخرون عندما يمارسون القتل ينخرطون في الضحك ومشاعر الانتصار ويتناولون الخمور إلى أن يصبحوا سكارى ويمزقون ثيابهم مثل الحيوانات. كل هذه المناظر سبق أن شاهدتها أما أنت فإنك تنخرطين في البكاء . وهذا أمر ممتاز للغاية.

كان المنزل يقع بجوار بحيرة موجودة في وادي عميق منحدر. مر خليل بسيارته بجوار البحيرة مرتين قبل أن يدخل إلى الطريق الضيق المؤدي إلى المنزل . كانت عيناه أثناء تفحصه للطريق شبيهة بعيّن يوسف مليئتين بالعزم والتصميم . كان المنزل على هيئة شاليه حديث الطراز أو منزل لرجل غنى من أجل الاستجمام . وكان للمنزل حوائط بيضاء اللون وشبابيك مراكشية وسقف أحمر منحدر وكان الجراج ملتصقاً بالمنزل فدخل بسيارته إلى الجراج فأغلقت الأبواب ثم أطفأ موتور السيارة وسحب مسدساً آلياً ذا ماسورة طويلة من جيب سترته إنه خليل الذي يطلق المسدس بيده واحدة وظللت جالسة بالسيارة وراحت تحملق في أخشاب النيران المخزونة على طول الحاجط الخلفي ثم فتح لها الباب .

سيرى ورائى على مسافة ثلاثة أمتار

كان هناك باب جانبي من الحديد يؤدى إلى دهليز داخلى انتظرت ثم سارت وراءه كانت أضواء غرفة الجلوس مضاءة بالفعل، كما كانت نيران الأخشاب تحرق فى الموقف وكانت هناك أريكة مصنوعة من جلد الخيول بالإضافة إلى أثاث ريفي بسيط الطراز. قال لها : ابق هنا.

وقفت فى وسط الأرضية أمسكت حقيقتها بكلتا يديها بينما راح ينتقل من غرفة لأخرى فى صمت شديد بحيث إنها لم تسمع سوى صوت فتح الدواليب، وغلقها بدأت تشارلى ترتعش مرة أخرى فى عنف شديد. ثم عاد إلى غرفة الجلوس. أنزل بندقيته ووضعها بعيدا عنه. جثم قابعا أمام النيران وراح يعمل من أجل زيادة لهيبها. أخذت ترقبه وقالت لنفسها إنه يفعل ذلك من أجل إبعاد الحيوانات ومن أجل أن يجعل الخراف فى حالة من الأمان والأمان زارت النيران فجلس أمامها على الأريكة . فتح خليل التليفزيون تساعل فى أدب : أتدرين بعض الفودكا؟ فائنا شخصيا لا أحتسى الخمور على الإطلاق . أما بالنسبة لك فينبغي أن تدخلى البهجة على نفسك .

ثم صب لها كمية كبيرة للغاية من الفودكا .

- أتدرين تدخين سيجارة ؟

وناولها علبة سجائر وأشعل سيجارتها .

تزاييدت الإضاءة داخل الغرفة. فاتجهت نظرتها بسرعة إلى التليفزيون. ووجدت نفسها تحملق فى ملامح وجه الرجل الألمانى الذى شاهدته منذ ساعة إلى جوار مارتنى. وكان واقفا إلى جوار عربة تابعة للشرطة ، ومن خلفه تمكنت من مشاهدة ذلك الجزء من الرصيف وكذلك الباب资料 الخاص بقاعة المحاضرات وقد أحاطها بشريط من الفلورسنت وكانت سيارات الشرطة وعربات المطافئ وعربات الاسعاف تسارع إلى الدخول إلى المنطقة المحاطة بالكرتون والخروج منها. ثم تغيرت خلفية الصورة حيث ظهرت لقطة لقماش مشمع أخضر اللون قد نصب

لصد التيار الهوائى بينما كان البحث جاريا ورفع خليل صوت التليفزيون فسمعت تشارلى ولولة وصراخ عربات الاسعاف الذى يعلو عليه صوت أليكسيس الذى كان يتكلم بصوت مهيب ملئ بالترنيم والتجويد تساطع تشارلى : ماذا يقول ؟

ـ إنه يقود عملية البحث والتحرى . انتظرى سوف أقول لك .

اختفى أليكسيس وظهرت لقطة من الاستوديو عن أوبيرهوسار الذى لم يصب بأى أذى . قالت تشارلى : ذلك هو الرجل المغفل الذى فتح الباب لي .

رفع خليل يده لأعلى أمامها لكي تلتزم بالهدوء وعدم الكلام وراحت تشارلى تصفعى فأدركت فى فضول أن أوبيرهوسار كان يعطى أوصافا عن نفسها . والتقطت أنفها كلمة «جنوب أفريقيا» وسمعت كلمة : شعر ببني اللون . وشاهدت يده وهى ترتفع لكي يصف نظاراتها . ثم انتقلت الكاميرا إلى أصعب مرتعش يشير إلى نظارة تشبه النظارة التى سبق أن أعطاها لها الكابتن تايه .

أغلق خليل جهاز التليفزيون ورجع ووقف أمامها وسألاها فى خجل وارتباك أتسمحين لي ؟

فرفعت تشارلى حقيبة اليدين الخاصة بها ووضعتها إلى جوارها عند الجانب الآخر حتى يمكنه أن يجلس . هل صدر طنين ؟ بل琵 ؟ أكان ذلك صوت ميكروفون ؟ ما هذا بحق الجحيم ؟ تحدث خليل فى دقة إنه ممارس ناضج يعرض تشخيصه وتعليقه . قال : انت إلى حد ما معرضة للمخاطر . فالسيد أوبيرهوسار يتذكر شكلك وملامحك وكذلك زوجته ورجال الشرطة والعديد من الناس بالفندق . ومن سوء حظك أيضا أنه توجد هناك امرأة إنجليزية سمعت جانبا من المحادثة التى دارت بينك وبين مينكيل وهى تعتقد أنك لست من جنوب أفريقيا وإنك إنجليزية لقد تم إرسال أوصافك إلى لندن ، ونحن ندرك أن الانجليز لديهم حاليا بعض الأفكار السيئة عنك . والمنطقة هنا أصبحت فى حالة من الطوارىء والاستنفار الكامل حيث تم إغلاق الطرق ووضع نقاط للتفتيش . لكن لا ينبغى عليك أن تشعرى بالقلق . فأنا سوف أحمىك بحياتى . وفي هذه الليلة سوف تكون فى حالة من الأمان والأمان وغدا سوف

نقوم بتهريبك إلى برلين ونرسلك إلى وطنك. فقالت: إلى وطني.

— أنت الآن أصبحت واحدة منا أنت أخت لنا وفاطمة تقول إنك أخت لنا وأنك لك وطن، ولكنك جزء من عائلة كبيرة عظيمة ويمكن لنا أن نبتكر لك هوية جديدة أو يمكنك الذهاب إلى فاطمة والعيش معها على مدى الفترة الزمنية التي ترغبينها . وعلى الرغم من أنك لن تقومي بأية عملية قتالية أخرى فانتا سنقدم لك كل الرعاية والاهتمام. وذلك إكراما لميشيل وإكراما للدور الذي قمت به من أجلنا .

بدا اخلاصه وولاؤه مروعا، أما يدها فما زالت قابعة في يده . كانت لمسة يده متسمة بالقوة وتوفير الطمأنينة وعيناه تلمعان في افتخار متسم بالتملك والاقتناء. نهضت تشارلى خارجة من الغرفة وقد أخذت حقيبة يدها معها. وذهبت إلى الحمام

استخرجت الراديو وراحت تتحفظه. لقد كان مماثلا تماما للراديو القديم الخاص بها . إلا أنه أكثر ثقلا وقالت لنفسها: «أنتظر لحين أن ينام» وبعدئذ راحت تخلع ثيابها ودخلت تحت الدش واستغرقت وقتا طويلاً مجرد أن تبعد نفسها لفترة طويلة عن دفء ثقته فيها وفي إخلاصها. ثم رشت اللوسيون على جسدها وعندما رجعت إليه وجدته يضع الأطعمة على المنضدة : لحوما باردة وجبنه وزجاجة من الخمر كانت الشموع قد أشعلت بالفعل وجلب كرسياً إلى الوراء من أجلها على الطريقة الأوروبية فجلست وجلس هو في مواجهتها وشرع في تناول الطعام على الفور بنفس الاستغراق الطبيعي الذي يعطيه لكل شيء. تساءل : هل ما زلت تأسفين على ما فعلت ؟

فقالت وكانت تعنى ماتقول بالفعل: إنهم خنازير إنهم قتلة وليس في قلوبهم رحمة على الإطلاق. وشرعت في البكاء إلا أنها تمالكت نفسها بسرعة وكانت السكينة والشوكة ترتعشان في يدها كثيرا حتى أنها اضطرت لوضعهما على المنضدة . ثم سمعت صوت سيارة تمر أو أكان ذلك صوت طائرة؟ قالت لنفسها في تشويش كامل : حقيقة يدي أين تركت حقيبة يدي؟ لقد تركتها في الحمام لكي

تكون بعيدة عن أصابعه التي تتفحص الأشياء في فضول وحب استطلاع . ثم التقطت شوكتها مرة أخرى وشاهدت وجه خليل الجميل الجامح يتفحصها عبر ضوء الشموع مثلما فعل يوسف معها فوق قمة التل عند مشارف معبد دلفي وقال: ربما تبذلن جهداً كبيراً لكي تشعري بالكراهية نحوهم .

إنها أسوأ مسرحية شاركت فيها . وكان ذلك الطعام هو أسوأ عشاء قدم لها . وكانت رغبتها في تحطيم التوتر مما ثالثة لرغبتها في تدمير نفسها . ونهضت واقفة . ثم سمعت صوت شوكتها وملعقتها لدى سقوطهما على الأرض . لم تستطع مشاهدة خليل إلا من خلال دموع اليأس التي تناسب من عينيها وبدأت تفك زرار فستانها . إلا أن يديها كانتا في حالة من الاضطراب والاهتزاز مما جعلها تعجز عن فكها فذهبت حول المنضدة إلى خليل الذي بدأ ينهض بالفعل . والتفت ذراعاه حولها وقبلها ثم رفعها عبر جسده . وحملها مثل رفيقة جريحة إلى غرفة النوم . ووضعها على السرير وبعدئذ دبت الحيوية في داخل كيانها . فهجمت عليه وراحت تخلع له ثيابه وتجذبه نحوها كما لو كان هو آخر رجل على وجه الكره الأرضية ، في آخر يوم في عمر الكره الأرضية . وكما لو كانت تسعى لتدمير نفسها وتدميره في آن واحد . وراحت تفترسه وتلتئمه وتملاً فمها المخادع بأجزاء من كيانه وتحشره في المساحات الشاغرة الصارخة لشاعر الذنب والوحدة والاكتئاب الخاصة بها . راحت تقبله وتمحو نفسها وتمحو ذكري يوسف تحت ثقل جسده الوحشى وأحسست باندفاته ولكنها ظلت قابضة عليه لفترة طويلة عقب توقف حركته وقد أغلقت يديها حوله بينما تخفي نفسها من العاصفة القادمة والتي على وشك أن تهب .

..

لم يكن مستغرقاً في النعاس ولكنه كان يغفو في سنة من النوم بالفعل ، كان مستلقياً وقد وضع رأسه الأشعث الداكن على كتفها بينما يده السليمة ملقاء في غير اكتراث على صدرها .

قال خليل في تتمة مع ظهور ابتسامة في صوته:

- لقد كان سالم ولدا سعيد الحظ وفتاة مثله تعتبر سببا كافيا لأن يموت .

- من قال إنه مات من أجل؟

- لقد أشار الكابتن تايه إلى احتمال حدوث ذلك .

- لقد مات سالم من أجل الثورة . فقد فجر الصهاينة سيارته .

بل فجر نفسه . لقد قرأتنا الكثير من التقارير التي أوردتها الشرطة الألمانية عن هذا الحادث . وأنا سبق لى أن حذرته وطلبت منه ألا يقوم بتصنيع أية قنابل ولكنه لم يطع أوامرها وهو لم تكن لديه الموهبة التي تعينه على إنجاز مثل هذا العمل كما أنه لم يكن مقاتلا بطبيعته .

قالت وهي تبتعد عنه : ما هذا الصوت؟

كان صوتنا مثل الطقطقة أو مثل خشخاشة متتابعة من الأصوات المقتضبة الشفوية أعقبها صمت مطبق .

فقال خليل : شخص ما يصطاد في البحيرة .

- في هذا الوقت المتأخر من الليل؟

فضحك في نعاس وقال : ألم يسبق لك أن قمت بصيد السمك في الليل؟ ألم تأخذ زورقا صغيرا إلى البحر ومعك مصباح من أجل أن تمسك السمك بيديك؟

- استيقظ وتحدث معى

- من الأفضل لك أن تنامى .

- لا أستطيع النوم . أنا خائفة .

وداح يحكى لها قصة عن مهمة ليلية كان قد قام بها في منطقة الجليل ومعه شخصان آخران منذ فترة طويلة . وأوضح كيف أنهم كانوا يعبرون فوق البحر مستخدمين زورق تجديف صغير . وقال إن الجو كان رائعا وجميلا للغاية حتى أنهم نسوا المهمة التي كلفوا بها وانشغلا في صيد السمك . فقاطعته قائلة :

- إن الصوت الذى سمعته لم يكن صوت قارب وإنما هو صوت سيارة لقد سمعت ذلك الصوت مرة أخرى . استمع .

قال فى نعاس : إنه صوت قارب .

وكان القمر قد عثر على فراغ بين الستائر فسطعت أنواره نحوهما عبر أرضية الغرفة . فنهضت تشارلى واتجهت الى النافذة وبدون أن تلمس الستائر راحت تحملق إلى الخارج . كانت تطوق غابات الصنوبر المكان لكنها لم تشاهد أية قوارب في البحيرة ولم تشاهد أضواء مصابيح من أجل إغواء السمك واستدراجه فعادت إلى السرير وانزلقت يده اليمنى عبر جسدها لكي يجذبها نحوه ولكنها عندما شعر بعقاومتها ابتعد عنها واستدار في كسل وبطء لكي يستلقى على ظهره .

قالت مرة أخرى : تحدث معي ياخيل استيقظ ياخيل .

راح تهزم في عنف وقبله على شفتيه . ولذلك أرغم نفسه على الاستيقاظ من أجل تحقيق رغبتها لأنه كان رجلا شفوقا وأنه اختارها أختا له قال : هل تعرفين ذلك الشيء الغريب الذي يتعلق بالخطابات التي أرسلتها إلى ميشيل ؟ إنه البنديقة «من الآن فصاعدا لسوف أحلم برأسك على وسادتي بينما بندقيتك تحت الوسادة» انه كلام العشاق وكلام العشاق جميل .

لماذا كان ذلك أمرا غريبا ؟ أخبرنى عن السبب .

لأننى سبق لي أن تحدثت معه في هذا الشأن ذات مرة . وفي نفس هذا الموضوع بالتحديد ، اذ قلت له يا سالم استمع إلى ، إن رعاة البقر هم فقط الذين ينامون مع وضع بندقياتهم تحت المخدة . ولكن ينبعى عليك ألا تننس أبدا هذه النصيحة عندما تذهب للنوم في السرير ضع بندقيتك إلى جوارك حيث يمكنك أن تخفيها على نحو أفضل وحيث يمكن لك أن تحصل عليها على نحو أسرع . وتعلم أن تنام دائمًا على ذلك النحو حتى ولو كانت معك امرأة على السرير فقال لي إنه سينفذ وصيتي هذه ودائما ما كان يعدنى بتنفيذ نصائحى . ولكنك كان ينسى ويركز ذهنه على العثور على امرأة جديدة أو سيارة جديدة .

قالت : إذن فهو كان يحطم الأوامر أليس كذلك ؟ ثم أمسكت بيده المرتدية للقفاز وراحت تتفحصها تحت الظلام الخفيف مع وخذ الأصابع الميّة الواحد تلو الآخر. كانت أصابع من المواد المحسوسة باستثناء إصبع الإبهام والخنصر .

فقال في إشراق : إذن ما الذي أكل أصابعك على هذا النحو. هل هي الفتنان؟ ياخيل؟ استيقظ.

ظل صامتا لفترة ثم قال : ذات يوم في بيروت كنت آنئذ ولدا غبيا مثل سالم وكانت موجوداً في مكتبي وجاءت الخطابات البريدية وكانت في ذلك الوقت عجولاً انتظر وصول طرد معين إلى، وقامت على الفور بفتح الطرد وكانت تلك غلطة كبيرة ماذا حدث ؟ فتحت الطرد ثم حدث انفجار مدوٍ . انفجار مدوٌ اطاح بأصابعك . وهل هذا الانفجار هو الذي أحدث تلك الكرمصة والتجاعيد الموجودة في مساحة من وجهك؟

- وعندما استيقظت في المستشفى وجدت «سالم» إلى جواري وقال لي في مزاح « في المرة القادمة وقبل أن تفتح أي طرد ينبغي عليك أن تعرضه على أو ينبغي عليك أن تقرأ العلامة البريدية أولا فإذا وجدت أنه مرسل إليك من تل أبيب بادر على الفور إلى إعادةه إلى المرسل .

- ولماذا تقوم بنفسك بصنع قنابلك؟
إذا كان لك يد واحدة سليمة فقط؟

كانت الإجابة مائة داخل الصمت الخاص به، وفي سكون الفجر كان وجهه ملتفتا نحوها حيث كان ينظر في حملقة مباشرة خالية من الابتسام. وكانت الإجابة مائة في كل شيء شاهدته منذ الليلة التي تعاقدت فيها مع مسرح الحياة.

وعلى نحو فجائي بدأ يطلبها مرة أخرى. فقالت في همس : «ياعزيزي خليل، أوه، أيها السيد المسيح، أوه، ياحبيبي، أرجوك لو سمحت . وغير ذلك من الكلام الذي تقوله العاهرات .

..

وحلَّ الفجر، لكنها لم تدعه ينام، حيث استغرقت في تقبيله والتربیت عليه مع استخدام كافة الحيل والوسائل التي تعرفها لكي تجعله مستيقظاً معها ومتاججاً في عاطفته نحوها، وهمست في أنذنه : أنت أفضل إنسان لدى وأنت أقوى الناس وأشجعهم وأمهر حبيب لي في جميع الأوقات والأزمنة . فقال لها: وهل أنا أفضل من سالم؟

فقالت له: وأنت أفضل من سالم بل وأفضل من يوسف الذي أرسلني إليك على طبق .

ثم قالت لدى ابتعاد خليل عنها فجأةً ماذا في الأمر؟ هل آذيتك أو جرحت مشاعرك؟

ويبدأ من أن يجيب عليها رفع يده السليمة وفي حركة أمراء ضم لها شفتتها في رفق مع بضعهما البعض. ثم رفع جسده قليلاً مستندًا على مرفقه، وراحت تصفي معه . لقد صدرت قعقة طائر من النوع الذي يحوم فوق الماء لدى طيرانه من فوق سطح البحيرة، كما صدر صياح أوز وصياح ديك صغير وقرع جرس. قال في صوت منخفض وهو واقف عند النافذة :

- لا توجد أبقار .

كان يقف عند جانب النافذة وهو مازال عاريًا إلا أن بندقيته كانت معلقة في كتفه . وللحظات ومن خلال توترها الشديد للغاية تخيلت الصورة المنعكسة ليوسف وهو واقف في مواجهته بحيث لا يفصل بينهما سوى الستارة الرفيعة، وأخيراً همست تشارلى قائلةً في توتر بالغ : ماذا ترى؟
لا أبقار . ولا صيادو سمك . ولا دراجات .

كان صوته مليئاً بالتوتر، وملابسه ملقة بجوار السرير على الأرض، فارتدى بنطلونه الأسود وقميصه الأبيض وثبت بندقيته في مكانها تحت إبطه .
قال : « لا سيارات ولا أضواء تمر . ولا عامل واحداً متوجهًا في طريقه إلى العمل . ولا أبقار .

الأبقار قد ذهبت لكي يتم حلبها والحصول على اللبن منها .

هزَ رأسه في اضطراب . فقالت : الجو مليء بالثلوج وأصحاب الأبقار يحتفظون بالأبقار داخل الحظائر بسبب البرد .

وكان هناك شيء ما في صوتها استرعى اذنه مما جعله يركز تفكيره عليها .
وقال لها : لماذا تدافعين عن أصحاب الأبقار ؟

ـ أنا لا أدفع عنهم . أحاول فقط ..

لماذا تدافعن عن عدم وجود أي مظاهر من مظاهر الحياة حول هذا المنزل ؟
ـ من أجل أن أبعد مخاوفك ومن أجل أن أهدى شكوكك . ومن أجل أن أدخل عليك الهدوء والأطمئنان .

كانت هناك فكرة بدأت تتبلور في داخل ذهنه ، إنها فكرة رهيبة للغاية كان بمقدوره قراءة تلك الفكرة التي انطبعت على وجهها وتجسدت في نطاق جسدها العاري وهي وبالتالي تشعر بتكون شكوكه وتصاعد هواجسه . قال لها : لماذا ترغبين في تبديد مخاوفك ؟ ولماذا تشعرين بالخوف على أكثر من شعورك بالخوف على نفسك ؟

ـ أنا لاأشعر بذلك .

ـ أنت إمرأة تسعى الشرطة لإلقاء القبض عليها . فلماذا لديك المقدرة أن تحبينى ؟ ولماذا تتحدى عن الأمان الخاص بي وليس عن الأمان والأمان الخاص بك ؟
وماهي عقدة الذنب الموجودة في داخل ذهنك ؟

ـ لاشيء كل ما هنا لك أنتى لم أحب قتل ميشيل وأريد أن أخرج نفسي من كل هذه الأمور ياخلي .

ـ هل الكابتن تايه كان على صواب ؟ هل كان مصيبة في رأيه ؟ هل مات أخي من أجلك ويسألك ؟ أجيبي على لو سمحت . إنني أرغب في سماع الإجابة منك .

وتوسل جسدها كله من أجل أن يتم إنقاذ جسدها من الإعدام مؤقتاً. كانت الحرارة في داخل وجهها رهيبة للغاية، حرارة متاججة ومستعدة للاحتدام في احتراق للأبد.

همست قائلة : ياخيل عد إلى السرير، واحتوينى بحبك ارجع إلى .

لماذا كان متروياً للغاية وبطيناً وغير متوجّل بينما هم أصبحوا محقدين بالمنزل من جميع الجهات. كيف أمكن له أن يحملق في وجهها على هذا النحو بينما هم يضيقون الخناق حوله مع مرور كل لحظة ؟

تساءل خليل وهو ما زال محملقاً في وجهها : ياتشارلى . كم الساعة الآن لو سمحت؟

الساعة حالياً هي الخامسة . أو الخامسة والنصف . ما أهمية ذلك ؟

- أين يوجد الراديو؟ ذلك الراديو الصغير . أريد أن أعرف الوقت على وجه الدقة لو سمحت .

- لا أعرف . إنه في الحمام .

- ابقي في مكانك لو سمحت ياتشارلى . والا سأضطر لأن أقتلك . لسوف نرى .

ذهب إلى الحمام وعاد ومعه الراديو وناولها إياه فوق السرير، وقال لو سمحت افتحي الآن غطاء هذا الراديو ثم راح يرقبها وهي تصارع المشبك . أذن ما هو الوقت الآن ياتشارلى؟ أبلغيني لو سمحت بالوقت من خلال مذيعك .

- الساعة الآن السادسة إلا عشر دقائق وهو وقت متأخر مما كنت أعتقد .

فقام بجذب الراديو من يدها وقرأ الأرقام التي تشير إليها عقارب الساعة . ثم شغل الراديو فصدر عنه صراخ موسيقى فأغلقه على الفور ثم وضعه على أذنه وقام بوضعه في راحة يده من أجل أن يعرف وزنه .

- عندما تركتني الليلة الماضية لم يكن لديك أي متسع من الوقت من أجل عمل أي شيء يتعلق بك شخصياً على ما أظن . أليس كذلك ؟

- بالفعل لم يكن لدى أى وقت .

- إذن كيف تنسى لك شراء بطاريات جديدة من أجل هذا الراديو .

- لم أقم بشراء أية بطاريات جديدة .

- إذاً ما السبب فى أن الراديو يشتغل بهذه القوة ؟

- إننى لم أكن بحاجة إلى تغيير البطاريات - فهى لم تستهلك بعد . انها بطاريات تستمر فى العمل على مدى سنوات لأنها ممدة المفعول .

ويبعد أن وصلت إلى نهاية كلامها المفق تذكرت فجأة تلك اللحظة عندما أوقفها خليل خارج السيارة ليقتش جسدها وتذكرت تلك اللحظة عندما أسقط خليل بطاريات الراديو في جيبيه قبل أن يعيد الراديو إلى حقيبة الكتف الخاصة بها وألقاها في داخل السيارة .

وكان قد بدأ يفقد الاهتمام بها ، وانصب كل تفكيره على الراديو وقال :
ياتشارلى لو سمحت احضرى لي هذا الراديو المهيب الجليل . لسوف نقوم بتجربة بسيطة . تجربة مسلية تكتنولوجية تتعلق بالأمور اللاسلكية ذات التردد العالى .

همست قائلة : « هل لى أن أرتدى بعض ثيابى ؟ » ثم ارتدت ثوبها وأحضرت له الراديو الموجود بجوار السرير ، وهو راديو حديث له غطاء أسود من البلاستيك وله سماعة أشبه بسماعة التليفون ووضع خليل المنبه والراديو مع بعضها البعض وفتح الراديو وبدأ في تحريك المؤشر على كافة المحطات والقنوات إلى أن صدرت عنه فجأة ولولة منتجبة جريحة ترتفع وتنخفض مثل صوت الإنذار الخاص بالغارات الجوية . ثم التقط المنبه ودفع إلى الوراء اللسان المزود بمفصلات والخاص بالتجويف الذى توضع فيه البطاريات وذلك من خلال استخدام اصبع ابهامه . ثم هز البطاريات لكي تسقط على الأرض بنفس الطريقة التى لجأ إليها فى الليلة الماضية فتوقفت الولولة على الفور ثم رفع خليل رأسه نحوها وتظاهر بالابتسام فحاولت تشارلى عدم النظر إليه ولكنها لم تستطع ذلك .

– لصالح من تعملين ياتشارلى؟ هل تعملين لصالح الألان؟

فهزت رأسها بالنفي.

– هل تعملين لصالح الصهاينة؟

فاللتزمت بالصمت فأدرك أن الإجابة هي : نعم.

– هل أنت يهودية؟

– لا.

– هل تؤمنين باسرائيل؟ وماهى الأيديولوجيات التى تؤمنين بها؟

فقالت: لا شيء.

– هل أنت مسيحية؟ هل باعتبارك مسيحية تعتقدين أن اليهود هم مؤسسو الدين المسيحي العظيم؟

فهزت رأسها بالنفي مرة أخرى.

– هل تفعلين ذلك من أجل الحصول على النقود؟ هل قدموا الرشوة لك؟ هل يبتزونك من خلال اللجوء للتهديدات؟

فشعرت بالرغبة في أن تصرخ. وكورت قبضت يديها وملأت رئتيها بالهوا، إلا أن التشويش الكامل الموجود في داخل ذهنها خنقها وكتبها. فاضطررت للانحراف في البكاء.

وقالت: «إن ما أقدمت عليه كان من أجل إنقاذ حياة. ومن أجل القيام بدور ومن أجل أن أكون شيئاً ما له أهميته في هذه الحياة. ولأنني أحببته».

– هل قمت بخيانة أخي؟

واختفت العوائق داخل حنجرتها وحل محلها صوت غير واضح مليء بالموت وهي تقول: «أنا لم أتقابل معه على الإطلاق. ولم أعرفه أبداً. ولم أتحدث معه في أي وقت من الأوقات على الإطلاق. ولقد جعلوني أشاهده مرة واحدة عقب قيامهم بقتله

أما باقى الأمور فهى ملقة تماماً. فمسألة حبى لم يشيل ملقة تماماً وكذلك اعتناقى لذهب جديد ملفق تماماً. وكل شيء آخر كان ملفقاً وغير صحيح على الإطلاق. بل إننى لم أكتب تلك الخطابات وإنما هم الذين قاموا بكتابتها. وهم أيضاً الذين قاموا بكتابة الخطاب الموجه منه إليك أيضاً وهو الخطاب الذى يتحدث فيه عنى. لقد وقعت فى حب الرجل الذى لاحقنى باهتماماته ورعايته لى. وذلك هو كل ما فى الأمر.

وفى بطء وبدون أية مشاعر عدوانية مد يده اليسرى وليس جانب وجهها ربما لكي يتتأكد أنها إنسانة حقيقية. ثم نظر إلى أطراف أصابعه وبعده نظر إلى تشارلى مرة أخرى وكأنه لا يصدق ما يشاهده بعينيه.

ثم رفع رأسه. وبينما هو يفعل ذلك شاهدت تشارلى وجهه ينخلع بعيداً فى غير تصديق. وفي اللحظة التالية شاهدت وجهه مشتعلًا بالنيران بعد أن أطلق يوسف النيران عليه. كانت تشارلى قد تعلمت أن تقف ساكنة بدون حركة تماماً أثناء ضغطها على الزناد. إلا أن يوسف لم يفعل ذلك. لم يكن يثق أن رصاصاته سوف تؤدى المهمة. إذ اندفع وراء الرصاصات محاولاً أن يضرب بها الهدف. لقد اندفع يوسف داخلاً من الباب إلى الغرفة مثل إنسان متطلف عادى. ولكنه بدلاً من أن يتوقف عند الباب للحظات دفع نفسه للأمام أثناء اطلاقه للنيران. وأطلق النيران بينما ذراعاه ممدتان إلى أقصى حد ربما من أجل أن يقصر المسافة أكثر وأكثر. شاهدت تشارلى وجه خليل يتفجر. ورأته وهو يلف ويدور حول نفسه ثم وضع ذراعيه على الحائط لكي تقدم له يد العون والمساعدة. وانطلقت باقى الرصاصات على ظهره مما أتلاف قميصه أبيض اللون. وتسطحت يداه المستتدتان على الحائط. يد من الجلد ويد أخرى حقيقية. ثم انزلق جسده المحطم إلى سجود شبيه بالسجود أثناء الصلاة بينما كان يحاول في استماتة شق طريقه في داخل الحائط. ولكن بحلول تلك اللحظات أصبح يوسف قريباً للغاية منه مما جعله يسحب قدمه من تحت جسده وبالتالي أتاح له الفرصة لكي يسارع في رحلته الأخيرة نحو الأرض. وبعد يوسف جاء ليتفاك الذى كانت تعرفه تشارلى تحت اسم مايك وهو رجل له طبيعة تتسم دائمًا بالخراوة والفساد الأخلاقى. ولدى تراجع يوسف إلى الوراء انحنى

مايك وأطلق رصاصة أخيرة على الجزء الخلفي من رقبة خليل وهو أمر لم يكن ضرورياً على الإطلاق. وبعد مايك جاء ما يقرب من نصف عدد الجنادين في العالم. وكانوا يرتدون ملابس الضفادع البشرية سوداء اللون. وجاء بعدهم مارتي والحيوان الألماني ابن العرس ومعهما ألفان من حاملي النقالات وسائقى عربات الإسعاف والأطباء والنساء غير المبتسمات اللاتي أمسكن بشارلى ورحن ينظفونها من القيء الموجود على صدرها وملابسها ويسرن بها في الدهليز ويخرجون بها إلى الهواء الطلق بينما الرائحة الدافئة اللزجة لدماء خليل تزكم نفسها وتسد حلقتها.

كانت عربة إسعاف قد وقفت معطية ظهرها نحو الباب الأمامي. وفي داخل عربة الإسعاف توجد زجاجات مليئة بالدماء وبطاطين حمراء ولذلك رفضت الدخول إلى عربة الإسعاف. بل أنها في حقيقة الأمر أظهرت مقاومة شديدة. ومن المؤكد أنها اندفعت خارجة من العربة. لأن إحدى النساء المسكates بها رفعت يدها وضربتها في عنف شديد على وجهها. فأصيبت تشارلى بالصمم لأنها لم تعد تسمع أى شيء سوى الصراخ الصادر عنها على نحو غير واضح. إلا أن اهتمامها الرئيسي أصبح منصباً على قيامها بخلع ملابسها لسببين: السبب الأول هو أنها عاهرة. والسبب الثاني هو أن ملابسها كانت ملطخة بكميات كبيرة من دماء خليل. وبعدئذ ظهرت كل من راشيل وروز على جانبيها وقد أمسكت كل منهما بذراع من ذراعيها مثثماً فعلتا في بيت أثينا عندما وصلت هنالك لأول مرة من أجل تقديمها للتمثيل على مسرح الحياة الواقعية الحقيقية. وقالت لها تجربتها السابقة إنه لا فائدة من وراء بذل المزيد من المقاومة. وقامت راشيل وروز باقتيادها للصعود إلى داخل عربة الإسعاف. وجلستا على جانبيها فوق أحد الأسرة. نظرت تشارلى لأسفل. وشاهدت كافة الوجوه السخيفة تحملق في وجهها: الأولاد الصغار المتجمدين في نظارات بطولية ومارتي ومايك وديمترى ورافول مع وجود أصدقاء آخرين لم تكن قد تعرفت على بعضهم. أفسح الجمهور مكاناً. وظهر يوسف أمامها بعد أن تخلص من البندقية التي أطلق منه الرصاص على خليل. كان لا يزال يوجد قدر كبير جداً من دماء خليل على بنطلونه الجينز وحذائه حيث شاهدت تشارلى تلك الدماء في

وضوح . واقترب يوسف من سلام عربة الإسعاف . ونظر لأعلى نحو تشارلى . وفي بادئ الأمر خيل إلى تشارلى أنها تحملق في نفس وجهها لأنها استطاعت أن تشاهد على وجه الدقة نفس الأشياء الموجودة في داخله والتي تكره وجودها في داخل نفسها ، لذلك حدث نوع من تبادل الشخصية حيث انتحلت دوره من حيث هو سفاح وقاتل وقود وانتحل هو دورها من حيث هي دائرة مخادعة خائنة .

فجأة وبينما كانت تشارلى تحملق في وجهه توجهت شرارة غضب متبقية في داخل كيانها وردت لها الهوية التي كان قد سرقها منها . إذ نهضت واقفة بدون أن تتمكن راشيل أو روز من الإمساك بها في الوقت الملائم وسحبت نفسها عميقا هائلا ثم صاحت قائلة : «أغرب عن وجهي G0» - أو هكذا بدا لها رنين صوت تلك الكلمة . وربما كانت الكلمة هي : «لا NO» وليس أغرب G0 . ولم تكن توجد هناك أهمية تذكر فيما يتعلق بالفارق في المعنى بين الكلمتين .

الفصل السابع والعشرون

وعن الآثار المباشرة وشبه المباشرة الناجمة عن هذه الحادثة كان العالم يعرف معلومات أكثر مما نجم عن هذه الحادثة بالفعل وبالتأكيد كان يعرف معلومات أكثر مما لدى تشارلز . إذ كان يعرف - على سبيل المثال - أن إرهابياً فلسطينياً تحوم حوله الشكوك لقى مصرعه أثناء تبادله إطلاق النار مع أفراد وحدة صاعقة ألمانية وأن المرأة الرهينة التي كان يحتجزها - وهي امرأة مجهرة الهوية - نقلت إلى المستشفى وهي في حالة من الصدمة النفسية رغم أنها لم تصب بآية جروح . وتناولت الصحف الألمانية مزيداً من الروايات المثيرة عن هذه القصة تحت عناوين مختلفة مثل: «الغرب الأمريكي الضارى يجيء إلى منطقة الغابة السوداء الألمانية» . إلا أنه كان من الصعب استخلاص معلومات واضحة من هذه الروايات العديدة نظراً لوجود تناقض شديد بينها . وقد أنكر أليكسيس وجود أية صلة بين تلك الحادثة وبين المحاولة الفاشلة للهجوم بالقنبلة على البروفيسور مينكيل الذي أشارت التقارير إلى أنه مات في حادث ثم أفادت فيما بعد أنه تمكّن من الافلات من الموت بأعجوبة . وقد صدق الناس الكلام الذي أدلّى به أليكسيس . وأثار بعض كبار المحررين بالصحف أنه من الحكمة عدم الإدلاء بالمزيد من التفاصيل والمعلومات للجماهير .

ثم حدثت سلسلة منحوادث الأخرى في نطاق نصف الكرة الأرضية الغربي . وأثار ذلك تأملات من وقت لآخر عن الأعمال التي تقوم بها بعض المنظمات الفدائـية العربية والتي تقـف ضـدهـا العـديـد منـ المـجمـوعـاتـ المـناـفـسـةـ مماـ يـتـعـذـرـ معـهـ تحـديـدـ المسـؤـلـيـةـ وـمـعـرـفـةـ الجـهـةـ التـيـ بدـأـتـ بـإـطـلـاقـ الرـصـاصـ فـىـ حـمـاـقـةـ عـلـىـ وجـهـ

الدقة . مثال ذلك أن إطلاق النيران على الدكتور أنتون ماستاربين وهو محامي سويسري مهتم بالشئون الإنسانية ومؤيد لحقوق الأقليات وابن ممول ورجل أعمال بارز قد ألقيت مسؤوليته على عاتق منظمة كنائبية كانت قد «أعلنت الحرب» أخيرا ضد الأوربيين الذين يتعاطفون مع «الاحتلال» الفلسطيني للبنان . وقد حدث إطلاق النيران على ماستاربين لدى مغادرته الفيلا الخاصة به من أجل الذهاب إلى العمل في مكتبه - دون أن يكون مزودا بالحماية والحراسة الازمة كالمعتاد - وقد صدم العالم لدى سماعه هذا النبأ على مدى الفترة الأولى من ذلك الصباح على الأقل .

وعندما تلقى رئيس تحرير جريدة تصدر في زيونخ خطاباً موقعاً باسم «جبهة تحرير لبنان» ومشيراً إلى أن جبهة تحرير لبنان هي المسئولة عن إطلاق النيران ثم اتضح أن ذلك الخطاب حقيقي وليس مزوراً فإنه طلب من دبلوماسي لبناني أن يغادر البلاد . ففعل ذلك في رباطة جأش .

كما أن تفجير سيارة دبلوماسي تابع له «جبهة الرفض» عند الجامع المشيد حديثاً في منطقة سانت جون وود لم يثير أى قدر من الاهتمام فى أى مكان وكان ذلك الحادث هو الرابع من نوعه في خلال شهور .

ومن ناحية أخرى نجد أن نجع الموسيقار الإيطالي البرت روسينيو والذي يقوم بتحرير عمود خاص به في جريدة . وكذلك نجع عشيقته الألمانية حيث تم اكتشاف جثثهما العاريتين عقب ذبحهما بأسباب في بحيرة التيرول وقد علقت عليه السلطات النمساوية قائلة إن الحادث ليست له أهمية سياسية على الإطلاق رغم الحقيقة التي مفادها أن هاتين الضحيتين كانت لهما أفكار راديكالية . إذ فضلت الحكومة النمساوية أن تنظر إلى هذا الحادث على أنه جريمة تتعلق بالأمور العاطفية . وأشارت الحكومة النمساوية في تقريرها أن العشيقه الألمانية والتي تسمى أستريد بيجر كانت معروفة بشهواتها الشاذة ، وبالتالي رجحت الحكومة لأن يكون هناك شخص ثالث أو طرف ثالث متورط في جريمة القتل .

وحدثت مجموعات متالية من حوادث الاغتيال الأخرى بدون أن تثير

الصحافة العالمية ضجة بشأنها : مثال ذلك قيام الإسرائييليين بإلقاء القنابل على قلعة صحراوية قديمة تقع على الحدود السورية وهي القلعة التي قالت عنها السلطات الإسرائيلية إنها كانت تستخدم كقاعدة يقوم فيها الفلسطينيون بتدريب المناضلين الأجانب . أما بالنسبة للقنبلة التي يبلغ وزنها ٤٠٠ رطل والتي انفجرت فوق قمة تل خارج نطاق بيروت محطمة فيلا صيفية فاخرة مما أدى إلى قتل من يسكنون فيها ومن فيهم الكابتن تايه وفاطمة فإن ذلك كان أمراً مستغلاً ولا سبيل إلى فهمه شأنه في ذلك شأن أي عمل من الأعمال الإرهابية التي تتم في تلك المنطقة التراجيدية .

لكن تشارلى القابعة في معقلها المنعزل الذي يقع بجوار البحر لم تكن تعرف شيئاً عن تلك الاغتيالات والتفجيرات التي تتم تباعاً أو بالأحرى كانت تعرف كل هذه الأمور بوجه عام ولكنها كانت في حالة من الملل أو الخوف الشديد بحيث فضلت عدم معرفة أية تفاصيل مما يحدث . وفي بادئ الأمر كانت تكتفى بالسباحة في البحر أو التريض سيراً على الأقدام بدون هدف حتى نهاية البلاج والعودة مرة أخرى وقد أمسكت بربوب الاستحمام مع رفعه لأعلى حتى رقبتها بينما الحراس يتبعونها على مسافة معقولة . وفي البحر كانت تميل إلى الجلوس في المياه الضحلة عند حافة خالية من الأمواج وتقوم بحركات الغسيل مستخدمة مياه البحر فتفسل وجهها أولاً ثم ذراعيها ويديها . وكانت هناك فتيات آخريات قد صدرت لهن الأوامر بالاستحمام عاريات تماماً إلا أن تشارلى فضلت عدم تقليدهن في هذا الأسلوب المتحرر فاضطر الطبيب النفسي أن يصدر أوامره لهن بتغطية أجسادهن والتحلى بالصبر والانتظار .

وكان كيرتز يجيء لزيارة تشارلى مرة واحدة أسبوعياً . وفي بعض الأحيان مرتين . كان يحرص دائماً أن يكون لطيفاً معها ومحلياً بالصبر والإخلاص حتى في حالة قيامها بالصرارخ في وجهه . وكانت الأخبار التي ينقلها لها متسمة بالطابع العملي وكلها أنباء تتركز على مصلحتها .

وكان الطبيب النفسي الذي يعالج تشارلى شاباً متألقاً بعينيه لمعان وبريق
وذا ثقافة عسكرية . لم يكن ميلاً إلى تحليل الذات أو أى نوع من الاستبطان
الكثيف . راح يصطحبها معه في جولات بالسيارة على طول الطرق المطلة على
شاطئ البحر . ولكنه عندما أشار بيده في طيش وحمامة إلى بعض البيوت القديمة
القليلة الجميلة العربية التي تمكنت من البقاء على قيد الحياة عقب إدخال التطوير
على المنطقة . امتلا ذهن تشارلى بالتشویش والغضب . اصطحبها الطبيب
النفسي إلى مطاعم تقع في أماكن خلوية وسبح معها في الماء بل واستلقى إلى
جوارها على رمال البلاج وراح يتحدث في غير كلفة إلى أن قالت له في صوت ملتوٍ
بأنها تفضل التحدث معه في داخل مكتبه . وعندما علم أنها تحب ركوب الخيل
أصدر أوامره بإحضار خيول . مما جعلها تبدو وكأنها قد نسيت نفسها تماماً . إلا
أنها في اليوم التالي التزمنت الهدوء مما جعله يخبر كيرتز أن الأمر يستلزم الانتظار
لمدة أسبوع آخر على الأقل . وفي نفس تلك الليلة راحت تشارلى تتقيأ لفترة طويلة
دون أن يعرف أحد السبب في هذه النوبة الفجائية من التقيؤ خاصة وأنها تأكل
كميات ضئيلة للغاية من الطعام .

وجاءت راشيل بعد أن استأنفت دراساتها بالجامعة . كانت صريحة ولطيفة
وخلالية من التوتر ومختلفة تماماً عن الصورة التي شاهدتها تشارلى عندما تقابلنا
لأول مرة في أثينا . أخبرتها أن ديمترى عاد أيضاً إلى المدرسة . وأشارت أن
راقول يفكر في دراسة الطب وأنه ربما يصبح ضابطاً في الجيش يعكف على
دراسة الآثار القديمة . ابتسمت تشارلى في أدب لدى سمعها هذه الأنباء المتفرقة
عن أفراد العائلة . وقالت راشيل لکيرتز إنها عندما تحدثت مع تشارلى شعرت
وكأنها تتحدث مع جدتها العجوز . إلا أن راشيل على المدى البعيد لم تتمكن من
إحداث تأثير إيجابي على تشارلى نظراً لأنها طلبت منها في نهاية الأمر أن تتكرم
وتركها بمفردتها .

وفي أواخر الربيع وب مجرد أن أصبح حوض نهر الليطاني جافاً بحيث
يسمح بسير الدبابات عليه تحقق أسوأ المخاوف التي كانت تراود كيرتز وأسوأ

التهديدات التي كان يبديها جافرون : إذ تم الهجوم العسكري الإسرائيلي على لبنان منهيا بذلك تلك المرحلة الحالية من الأعمال العدوانية أو طبقاً للمكان الذي يقف فيه معلناً عن المرحلة التالية من الأعمال العدوانية . وبذلك أصبحت معسكرات اللاجئين التي سبق أن استضافت تشارلي تشهد النواحي الصحية التعقيمية التنظيفية بمعنى أن هذه المعسكرات جاءت إليها البلدووزرات لكي تدفن الجثث وتستكمل الأعمال التي بدأتها الدبابات والمدفعية والطائرات بعد أن سارت قافلة صغيرة مثيرة للشفقة من اللاجئين متوجهة شمالاً تاركة وراها الآلاف من جثث الموتى . ثم قامت مجموعات خاصة بتدمير الأماكن السرية الموجودة في بيروت والتي سبق لشارلي أن شاهدتها وأقامت بها . أما بالنسبة للمنزل الموجود في سيدون صيدا فلم يتبق منه سوى الدواجن وحديقة اليوسفي . إذ تم تدمير ذلك المنزل بمعرفة فريق من السيارات الذين قتلوا «كريم وياسر» . إذ جاءوا إلى ذلك المنزل تحت جنح الظلام بالليل من نفس الاتجاه الذي سبق أن تنبأ به دائماً ياسر ضابط الاستخبارات الحربية . واستخدموه من قبل والذي يقتل الإنسان على الفور بمجرد أن يلمس جسده . وتم إخفاء كل هذه المعلومات عن تشارلي حيث كان اليهود يدركون أنها في حالة حب مع فلسطين . وأشار الطبيب النفسي أن مثل هذه المعلومات يمكن أن تزيد من شعورها بالقلق والتشویش الذهني خاصه وأنها من خلال تخيلاتها واستغراقها في التفكير في الذات يمكنها أن تعتقد أنها المسئولة عن عملية الغزو كلها . ومن ثم تقرر عدم إبلاغها بتلك الأخبار وبحيث تكتشف الأخبار بطريقتها الخاصة تدريجياً في الأوقات الملائمة معها . أما بالنسبة لكيرتز فإنه ظل مختفياً لفترة تزيد على شهر ، وكان من الصعب على أحد أن يتعرف على شكله خلال تلك الفترة . إذ تقلص جسده وأصبح في نصف حجمه الطبيعي على ما يبدو . فقدت عيناه بريقيهما . وكان يبدو عجوزاً . وذات يوم ومثل رجل ينفض عن كاهله مرضاناً مزمناً طويلاً عاد كيرتز واستعاد في خلال ساعات على ما يبدو عداه العجيب مع ميشا جافرون .

..

كانت الجولة تسمى «باقة من الكوميديا» . والمسرح شأنه شأن المسارح الأخرى التي عرفتها تشارلى يخدم برنامجا تعليميا للنساء ، ومن حيث هو مدرسة للمسرح بل ومن حيث هو مكان يتم فيه الاقتراح أثناء الانتخابات العامة . وكانت المسرحية المعروضة حقيقة وكان المسرح نفسه متواضعا . وجاءت المسرحية عند الخط المنخفض لتدورها . كان للمسرح سقف من الصفيح وأرضية خشبية وعندما راحت تشارلى تخطو وتطرق بقدمها فى قوة على الأرض الخشبية للمسرح تتضاعد سحب التراب بين الكتل الخشبية . وكانت تشارلى قد بدأت تختار الألوار التراجيدية فقط لنفسها بناء على نصيحة نيد كويالى الذى ألقى على تشارلى نظرة واحدة متسمة بالقلق وافتراض أن التراجيديا هي اللون الذى ترغب فيه ولذلك فضلت تشارلى القيام بألوار التراجيديا خاصة وأن ذلك يتمشى مع أسباب أخرى خاصة بها . سرعان ما اكتشفت أن الألوار الجادة كانت أمرا لا تستطيع أن تتحمله حيث تبادر إلى الصراخ أو البكاء فى المواقف التى لا تتطلب ذلك بل إنها فى كثير من المرات تخطر لأن ترك خشب المسرح كى تتمكن من السيطرة على نفسها .

لكن الألوار نفسها لم تتلاعم مع تشارلى بعد أن أصبحت لا تشعر بالميل والرغبة فى التمثيل . والأسوأ من ذلك أنها لم تعد تفهم ما يمكن أن يُنظر إليه على أنه آلام من وجهة نظر مجتمع الطبقة المتوسطة فى العالم الغربى ، ولذلك أصبحت الكوميديا هي القناع الأفضل بالنسبة لها . ومن خلال الكوميديا بدأت تشارلى تشاهد أسبابها وهى تتعاقب بين شريдан^(١) وبين بريستلى^(٢) وبين النواuges المحدثين الذين وصفوا بأنهم يتميزون بخفة الدم والتهكم اللاذع . الذين قدموا مسرحيات فى يورك ولكن من حسن حظها أنهم تجنبوا تقديم عروض فى نوتنجهام . لقد قدموا عروضا فى أماكن عديدة ولكن للأسف كانت تشارلى تلقى كلماتها مثل ملاكم متزوج ينبعى عليه إما أن يضرب بقوة أو يسقط على الأرض نهائيا .

(١) ريتشارد برنسلى شريдан : ١٧٥١ - ١٨١٦ كاتب مسرحى أيرلندي ومن كبار رجال السياسة .

(٢) جون بوينتون بريستلى : ١٨٩٤ - . وهو ناقد وروائى وكاتب مسرحى إنجليزى .

وطوال اليوم عندما لا تتدرب تشارلى على البروفات تبدو مثل مريض في غرفة الانتظار بعيادة طبيب . حيث تموج بالقلق وتدخن السجائر وتقرأ المجلات في عصبية . ولكنها في هذه الليلة ولدى رفع الستار هبط عليها كسل خطير وحل محل قلقها وعصبيتها . وظللت ترحب في الاستسلام للنوم العميق .

وأحسست تشارلى بصوتها يتهدج وشعرت بذراعها يسير في اتجاه وقدمها تسير في اتجاه آخر . ثم توقفت على أمل أن تسمع ضحكات من جانب الجمهور . لكنها ارتطمت بهدوء غير متوقع . وفي نفس الوقت بدأت صور من الألبوم المنوع تتنصب إلى داخل ذهنها : صور عن السجن الموجود في صيدا وصور عن طابور من النساء المنتظرات على طول الحاجط وصور عن فاطمة وصور عن الحجرة المدرسية بالمعسكر ليلا ، وصور عن كتابة الشعارات الالزمة من أجل المسيرة ، وصور عن المخبأ الذي احتمى فيه الفلسطينيون من الغارات الجوية وصور عن الوجوه التي راحت تحملق في وجهها وتسائل عما إذا كان اللوم يقع عليها أم لا ... وصور عن يد خليل المرتدية للفاز والتي رسمت بدمائه علامات من الدم على الحاجط لدى اغتياله .

كانت غرفة الملابس مخصصة لجميع الممثلين والممثلات . عندما جاءت فترة الاستراحة بين الفصول لم تذهب تشارلى إلى تلك الغرفة . حيث وقفت خارج باب المسرح في الهواء الطلق . وراحت تدخن السجائر وترتعش وتحملق نحو الشارع الملئ بالضباب . وساحت نفسها في تعجب عما إذا كان ينبغي عليها أن تمشي وتستمر في المشي إلى أن تسقط مغشيا عليها أو إلى أن تصطدم بها سيارة . كانوا ينادون عليها باسمها . وبمقدورها سماع صوت الأبواب لدى فتحها وإغلاقها في عنف وصوت الأقدام التي تهrol بسرعة . كانت المشكلة على ما يبدو هي مشكلتهم وليس مشكلتها . إلا أن إحساسا واحدا وأخيراً بالمسؤولية هو الذي جعلها تفتح الباب وتتجه إلى داخل المسرح .

- يا تشارلى . بحق السماء . بحق تشارلى ، ما هذا الجحيم اللعين ! .

ورفعت الستار فوجدت تشارلى نفسها مرة أخرى فوق خشبة المسرح بمفردها . وفي مونولوج طويل بينما هيلدا تجلس إلى مكتب زوجها وتكلب خطابا لعشيقها : إلى ميشيل .. إلى يوسف .. وكانت هناك شمعة مشتعلة عند مرفقها .. وفي خلال دقيقة كان عليها أن تجذب درج المكتب للبحث عن ورقة شاغرة أخرى وعنديّة تعثر - « أوه - لا » - على خطاب كان زوجها قد كتبه لعشيقته ونسى أن يضعه في صندوق البريد . بدأت تكتب في الفندق الموجود في نوتنجهام وراحت تحملق في لهيب الشمعة فشاهدت وجه يوسف يتلاًأ أمامها عبر المنضدة في الحانة التي خارج معبد دلفي . فنظرت مرة أخرى وإذا بوجهه يختفي ويحل محله وجه خليل يتناول طعام العشاء معها على المنضدة الخشبية بمنزله في منطقة بلاك فورست راحت تردد تقول سطورها وعلى نحو معجز ، لم تكن سطور يوسف ولا سطور تايه ولا سطور خليل وإنما سطور هيلدا . وقامت بفتح درج المكتب ووضعت يدها في داخل الدرج وسحبت ورقة مكتوبة بخط اليد وهي تموج بالحيرة والدهشة . رفعت الورقة لأعلى وأدارت الورقة لكي يلقى جمهور المشاهدين نظرة عليها . ثم نهضت واقفة على قدميها . وفي تعبير من عدم التصديق المتزايد تقدمت إلى الجزء الأمامي من خشبة المسرح وبدأت تقرأ بصوت مرتفع - مثل هذا الخطاب الطريف الفكه المليء بالإسنادات الأنيقة . وفي خلال دقيقة يدخل زوجها جون من جهة اليسار مرتدية الروب دي شامبر ويتقدم في سيره نحو المكتب ويقرأ خطابها غير المكتمل الذي كتبه لعشيقها . ويموج الجمهور في اهتياج وانفعال ثم يتحول الاهتمام إلى غبطة عندما يقوم العاشقان المخowان - وقد شعر كل منهما بالضيق من الآخر بسبب ارتكابه للخيانة الزوجية - بالدخول في عناق فاسق داعر . سمعت زوجها وهو يدخل وكان ذلك بمثابة مفتاح لها لكي ترفع صوتها : الاستياء يحل محل حب الاستطلاع لدى استمرار هيلدا في القراءة . أمسكت بالخطاب بكلتا يديها واستدارت واتخذت خطوتين لليسار والأمام لكي لا تحجب جون .

وبينما هي تفعل ذلك شاهدته - لم يكن هو جون وإنما كان يوسف . كان

جالسا في نفس المكان الذي سبق أن جلس فيه ميشيل وسط المقاعد الخشبية .
وكان يحملق لأعلى نحوها بنفس ذلك الاهتمام الشديد .

.....

في بادئ الأمر لم تشعر بالدهشة الحقيقية على الإطلاق . إذ إن الخط الفاصل بين عالمها الداخلي وعالمها الخارجي كان ضعيفاً للغاية في أفضل الأحوال . إلا أن ذلك الخط قد تلاشى تماماً هذه الأيام .

راح تفكّر : إذن لقد جاء أخيراً . جاء في الوقت المناسب الذي تماثل مع مجئه السابق إلى حد ما . هل معك أى قدر من نباتات السحلبية يا يوسف ؟ ألا يوجد معك ثوب فضفاض أحمر ؟ ولا سلسلة ميدالية ذهبية ؟ ولا حذاء جوشى ؟ أكان ينبغي على الذهاب إلى غرفة الملابس من أجل أن أقرأ المذكرة التي تركتها هناك ؟ . أكان ينبغي أن أعرف أنك كنت بقصد المجرى ؟ حتى أجهز لك كعكة .

توقفت عن التلاوة بصوت مرتفع لم يكن هناك بالفعل داع لأن تمثل بعد ذلك . رغم أن الملقن راح يلقنها سطورها بصوت مرتفع في غير خجل أو ارتباك ورغم أن المخرج المسرحي يقف خلف الملقن ملوحاً بيديه كشخص ما يقوم بمحاربة سرب من النحل . وعلى نحو ما كان كل من المخرج والملقن هناك عند خط رويتها رغم أنها كانت ترکز حملقتها على يوسف وحده . أو ربما كانت تخيلها لأن يوسف كان قد أصبح متجسداً . وإلى وراء تشارلى كان يوجد زوجها جون . وراح جون - في غير اقتناع على الإطلاق - يلفق كلاماً وعبارات من أجل التغطية عليها وعدم انكشفها أمام جمهور المشاهدين . وأرادت أن تقول له في اعتذار : أنت بحاجة إلى شخص ما . يقول الكلام نيابة عنك في جميع المناسبات .

وكان هناك ستار من الضوء يفصل بينهما ، ليس ستاراً بقدر ما هو حاجز بصري . بدأت تشک في أنه ليس سوى سراب ، ومن جناحى المسرح بدأوا ينبعونها ويصيرون فيها من أجل أن تؤدى دورها على نحو أفضل . سار زوجها جون نحو الجزء الأمامي من خشبة المسرح . وأمسك بها في شفة ممزوجة بالحزم من

مرفقها كحركة تمهدية من أجل أن يلقى بها في صندوق الزبالة . وافتراضت تشارلى أن المسؤولين عن المسرح سيبادرون في خلال دقيقة إلى غلق الستار ويعطون للبديلة فرصة العمر لكي تحل محلها في تمثيل دورها . وأضيئت الأنوار في صالة المشاهدين، تأكّدت أنه يوسف فعلا .. لكنها عندما شاهدته بوضوح تام سبب لها انزعاجا هائلا ؛ إذ كان مجرد شخص من الأشخاص العديدين الجالسين لمشاهدة المسرحية . فبدأت تسير في المشى بين المقاعد . ثم أحسست بيد فوق ذراعها فقالت لنفسها في تفكير : « الزوج جون مرة أخرى . ابتعد يا جون عنى » كانت الردهة شاغرة ولا يوجد بها سوى اثنتين من الدوقيات طاعنتين في السن ومليتين بالشيخوخة . وافتراضت تشارلى أنهما المسؤولتان عن النواحي الإدارية بالمسرح . قالت إحداهما : ينبغي أن أحضر طيبا ياعزيزتي .

ثم قالت الأخرى : أو نجعلها تحرّر نفسها بأن تستغرق في النوم .

قالت تشارلى في سعادة مستخدمة عبارة لم تستخدمها من قبل : ينبغي عليكم إسقاطها من الحسبان والتخلّى عنها تماما .

لم تكن أمطار نوتنجهام تنهمر في تساقط . ولم يكن هناك سيارة مرسيدس حمراء واقفة من أجل استقبالها . ولذلك سارت . ثم وقفت عند محطة أتوبيس وهي تتوقع إلى حد ما أن تجد الفتى الأمريكي في داخل الأتوبيس لكي يخبرها بأنه ينبغي عليها أن تنتظر أمامها بحثا عن سيارة حمراء .

واتجه يوسف نحوها عبر الشارع الشاغر . وهو يعشى بسرعة . وكان يبعو طويلا للغاية تخيلته وهو يتخلّى عن مشيته ويلجأ إلى الهرولة والجري بسرعة لكي يطلق رصاصاته عليها عن كثب ، إلا أنه لم يفعل ذلك . توقف أمامها بينما أنفاسه لاهثة ومتقطعة بعض الشيء ، وكان من الواضح أن شخصا ما قد بعث به لكي يُسلم رسالة . وأغلبظن أنها رسالة مبعوثة من مارتي ولكن ربما تكون مبعوثة من الكابتن تايه . فتح فمه لكي يسلم الرسالة إليها إلا أنها منعته من الكلام .

أنا إنسانة ميتة يا يوسف . فلأنك قد أطلقت على الرصاص . ألا تتذكر ذلك ؟

أرادت تشارلى أن تضيف كلما ما عن مسرح الحياة الواقعية وعن كيف أن الأجساد لم تنهمض وتتسير مبتعدة . إلا أنها فقدت ذلك الكلام على نحو ما .

مررت سيارة أجرة . فنادى عليها يوسف . ولكن سائق التاكسي لم يتوقف .
فما الذي يمكنك أن تتوقعه ؟ فسيارات الأجرة في هذه الأيام لا تلتزم بتنفيذ
القوانين راحت تشارلى تسير وهي مستندة عليه . وكانت عرضة لأن تسقط على
الأرض لو لم يمسك بها . وكانت دموعها الغزيرة تشوش الرؤية أمام عينيها وتجعلها
شبه كفيفة وسمعت صوته متراهما من تحت الماء . ظلت تشارلى تقول في تكرار :
إننى إنسانة ميتة . إننى إنسانة ميتة . إننى إنسانة ميتة . بدا عليه وكأنه يريدها
سواء أكانت ميتة أم حية . تشابكت ذراعاهما وانطلقا في السير في ارتباك على
طول الرصيف رغم أن المدينة كانت غريبة بالنسبة لهما .

، تمت ،

رقم الإيداع : ١٩٩٣/٥٢٨٠

I. S. B. N.

977-07-0270-6

إصدارات دار الهلال

من الكتب الأدبية والثقافية والتاريخية والسياسية و الطبية
و كتب التراث وكتب الأطفال و مجلدات ميكي و سمير
نجدتها في مكتبات دار الهلال :

القاهرة : مكتبة عز العرب - السيدة زينب .
السكندرية : مكتبة النبي دنيال - مكتبة المعمورة .
طنطا : ميدان المحطة .
المنصورة : ميدان المحطة .

وفي المكتبات الكبرى بالقاهرة :

طلعت حرب والمهندسين : مكتبة مدبولى - مصر الجديدة : مكتبة بوك سنتر و مكتبة أكسفورد و مكتبة شاديكور - الزيتون : مكتبة كميريدج - مدينة نصر : مكتبة راغت و مكتبة الدار العربية - الغيassyة : مكتبة الطالب - الزمالك : مكتبة على مسعود و مكتبة الزمالك - باب اللوق : مكتبة الكيلاني - القصر العيني : مكتبة العربي - السيدة زينب : مكتبة الفسلبي و مكتبة العلم - المعادى : مكتبة غزال و مكتبة برج الكرنك - حلوان : مكتبة الوفاء الحديثة .

وفي المكتبات الكبرى بالجيزة :

ميدان سفنكس : مكتبة مدبولى الصغير - الممهندسين : مكتبة اصدقاء الكتاب - جامعة الدول العربية : مكتبة الكوثر - الهرم : مكتبة منصور .

وفي المكتبات الكبرى بالمحافظات :

السويس : مكتبة الصحافة .
رأس البر : مكتبة أبو حجازي .
جمصة : مكتبة فتحي حسب الله .
الغردقية : مكتبة نهى .
قوسنا : مكتبة قطب .
منوف : مكتبة أبو شنب .
ميت شمر : مكتبة محمد الدماصى .
طوخ : مكتبة طوخ .
بنها : مكتبة أبو شنب و مكتبة الامير .
المنيا : مكتبة علي عبيد .
وهاج : مكتبات الأمير و الفتح و الصحافة .
قليوب : مكتبة الهلال .

ومكتبات الصحافة ببني مزار و القوصية ونبع حمادى و دير طوط .
و مكتبة حمدى الزواوى بالرسوت هاوس .

هذه الرواية

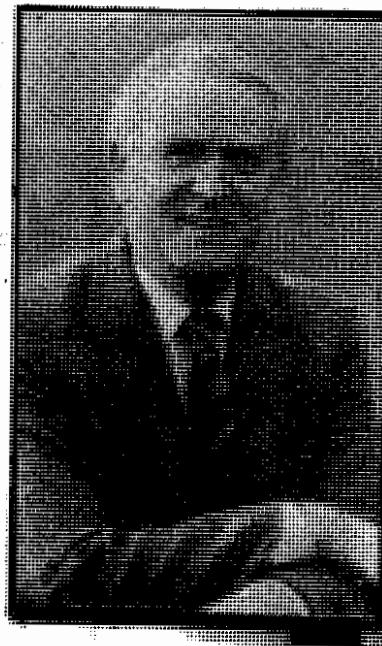
طبعت هذه الرواية باللغة الإنجليزية اثنتي عشرة مرة منذ صدورها لأول مرة عام ١٩٨٣ ، وحتى عام ١٩٩٠ .

أنها واحدة من أهم روايات التجسس في السنوات الأخيرة ، بل هي أكثرها أهمية وخاصة أنها تدور حول المصراع العربي الإسرائيلي ، وتكشف الأساليب غير الإنسانية التي يمارسها رجال الموساد في تنفيذ عملياتهم .

في هذه الرواية نجح جون لوکاریه أن يحول روايات التجسس التي تقوم على الغموض ، والإثارة المفتعلة إلى عمل أدبي يتغلغل في نفوس البشر . وخاصة في داخل الممثلة المبتدئة «تشارلى» التي وجدت نفسها وسط قوى متصارعة لا تعرف هل تتغاضف مع من يضطرون عليها لتنفيذ مهمة غير إنسانية .. أم مع أصحاب الأرض الذين يسعون لاستعادة حقوقهم المفقودة .

«الطالبة الصغيرة»

رواية ضخمة ، تجذن متعتها في قراءتها دفعة واحدة . وفي لها ث متواصل .



جون لوکاریه

* هو الاسم المستعار للروائي دافيد كرونويل / المولود عام ١٩٣١ .

* هو واحد من مجموعة أدباء بريطانيين سبق لهم العمل في الاستخبارات . ومنهم سومرست موم ، وجراهام جرين وايان فلمنج .

* يعتبر أهم كاتب لروايات التجسس التي واكبته أهم الأحداث السياسية المعاصرة ، ومنها: «الرجل الذي أتى من الصقيع» . و «جاسوس نقى» . و «المنزل الروسي» .

* تحولت أعماله الروائية إلى أفلام سينمائية بالغة الأهمية ، ومسلسلات تليفزيونية بيعت بمليارات الجنيهات .

وداعاً للقمل والصiggers

بلا استعمال لـ ليسيك



أبرارى - لوورون
خاص من ليسيك
القمل والصiggers
والموساده مدهما



قوى المفروش
سهل الاستعمال
لا يسبب التهابات
يعطر الشعر بريطا ولمعانا
مسجل بوزارة الصحة
لا يضر الجلد والشعر
مأمون جدا في الاستعمال

ليسيك
ليسيك
ليسيك
ليسيك
ليسيك
ليسيك
ليسيك
ليسيك
ليسيك



ليسيك : ينصح به الاخصائيون ويفضله الاستشاريون

استوك، شركة مصر للمستحضرات الطبية / القاهرة .. ليسيك .. متوازنة في جميع الدول العربية

Topline

1

صحتاً، تبدأ من أستاذ



- كلينيقول، ينبع تراكيم طبقات العبر على الأسنان
 - كلينيقول، ينبع تكرور عن طبقة البلاك على الأسنان
 - استعمال كلينيقول يومياً يعطي حسافية ممتازة للأسنان والأشعة السينية
 - كلينيقول ينزل فوراً السروالع الكريبيه من التسم والاشتنان.
 - كلينيقول ينزليل لأشعة السجائر من التسم والأسنان
 - كلينيقول يعيش لأشعة الفم ويطرد بها كل بيتيل خالى تماماً من المكتحول
 - كلينيقول سائل مامون الستعمال للأذنان والكمبار

१८

الطباطبائی انتقال مذاہجت پر کاروباری

